مهرجان القراءة للجميع

الأعمال الفكرية

مسخ الكائنات

1997 1997

الشاعر أوفيد

نقله إلى العربية وقدم له

د. ثروت عكاشة



الهيئة المصرية العامة للكتاب

مسخ الكائنات

الطبعة الثالثة

الشاعر أوفيد
رسوم پيكاسو

مسخ الكائنات

"ميتامورفوزس"

ترجمه وقدم له
د. ثروت عكاشه

راجعه على الأصل اللاتيني
د. مجدي وهبه

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٢

صمم الغــلاف : حســـن عثمــان

تقديم

١

إنى إذ أقدم هذا العمل « مسخ الكائنات METAMORPHOSES » من تأليف « پوبليوس أوڤيديوس ناسو PUBLIUS OVIDIUS NASO » إلى قراء اللغة العربية أحسّ بالحاجة إلى أن أمهّد له بمقدمة أبسط فيها الصلة بين عالمنا الحديث والمعاصر من جهة وبين الآداب الكلاسيكية والدراسات القديمة من جهة أخرى ، كما أعرّف بحياة المؤلف ومكانته شاعراً ، وما تركه من أثر فى شتى المجالات . وحسبى فيما سأقدم من أعمال أوڤيد أننى سأتيح للقارىء أن تقع عيناه على قصص يسحر الوجدان ولفكره أن يشرد فى عالم أسطورى رحب . ولست أحسب فى ذهب الأرض كله ما يعدل نشوة الفكر حين يصيبه الدوار ويترنّح محلّقاً فى عالم الخيال الخصيب .

ويروى هذا الكتاب جملة من الأساطير القديمة المختارة من خرافات اليونان والرومان وحضارات الشرق السابقة ومن التراث الشعبى الرومانى نفسه ، تجعلنا نتبين حقيقته ونقف على مدى صلته بثقافتنا الحاضرة . وكم كان الدارس لثقافة اليونان والرومان فى فروعها المختلفة من فلسفة أو سياسة أو أدب أو تاريخ أو فنون بعامة يجد نفسه يتعثر فى دراسته لتعدّد أسماء الشخصيات الأسطورية القديمة وزحمتها ، ولكثرة أسماء الآلهة المتكرّرة هنا وهناك . وقد أدّى الجهل بحقيقة الأسماء وصلتها بحضارة اليونان أو بعقائدهم الدينية إلى قلة الإقبال على دراستها . ولعل شيئاً من هذا القبيل هو الذى حال بين العرب الأقدمين وبين تناول آداب اليونان والرومان أو فنونهم ، والاكتفاء بفلسفاتهم وعلومهم لأنها خِلْوٌ من الأساطير المعقّدة التى تزخر بها تلك الفنون الكلاسيكية .

ودور الأسطورة فى الأدب القديم والحديث واضح لا يحتاج إلى بيان ، أفاض فيه الكتاب والمؤرخون بما لا يحتاج إلى مزيد . والواقع أن الأسطورة قامت بأكثر من دور ، فكانت فى صورها المحلية حكايات يقصد بها التربية والتثقيف ، واعتاد التلاميذ فى المدارس اليونانية القديمة أن يحفظوا أشعار هوميروس عن ظهر قلب . ولكن لم يلبث أفلاطون أن ثار على هذا الوضع وطرد شعراء الأساطير من المدينة الفاضلة ونظر إليهم نظرته للمفسدين للفكر .

غير أن الأسطورة عادت وظهرت فى شكل جديد وقد تحوّلت إلى تراچيديا ، وصار هذا التحوّل نفسه نقطة تغيير واضحة ووجهة نظر جديدة فى الأسلوب الأسطورى نفسه . ولم تعد التراچيديا حكاية من الحكايات ، بل تأملا فى موضوع بذاته أو فى حدث من أحداث روائية مسلسلة ، وامتاز هذا التأمل أول الأمر بالغنائية معبّراً مع ذلك عن مآسى الحروب وويلات الحياة الإنسانية فى صراعها الضّارى .

ولم يلبث كل من أيسخولوس وسوفوكليس وأوريپيدس أن أسهموا فى كتابة التراچيديا غير أن عنايتهم بأن تكون هذه التراچيديا عملاً أدبياً عدّلت كثيراً من تكوين الأسطورة نفسها وغيّرت من طريقة سردها . فكانت بعض الشخصيات تحظى باهتمام لم تحظ به فى الحكاية الأصلية ، كما كان الضوء يُسلّط فجأة على بعض المظاهر أو الطباع التى ليس لها نظير فى القصة القديمة . ولا شك أن الأهداف الأدبية التى كان يتطلّع إليها المؤلف المسرحى هى التى كانت تؤدى إلى تحريك الأحداث والوقائع والأشخاص على نحو مختلف بين صياغة مؤلف وآخر . ولكن لا شك أيضاً فى أن الحرص على تحقيق بعض الأهداف الاجتماعية والسعى إلى تثبيت عدد من المعانى الفكرية والفنية قد أسهما فى إحداث تغيير جوهرى فى طريقة الاستفادة من الأسطورة على المستوى الأدبى والفنى .

ولهذا كله كان لانتشار الفلسفة فى القرن الثالث قبل الميلاد أثر فى تحوير الأسطورة من أجل استخدامها الفكرى استخداماً لم تعرفه من قبل ، إذ بدأت تشارك مشاركة جادة فى حمل أعباء الفكر الفلسفى إلى جانب الاهتمام بالمعانى الأدبية الخالصة . وعندما اتسع المجال فى استخدام الأسطورة على هذا النحو صارت غنية بالرموز التى تُفْلِتُ بها من عقاب أصحاب السلطان دون أن تفقد دلالتها الأصلية .

ومنذ عرفت الأسطورة الإشارة إلى معان معينة عن طريق الرمز باسم البطل أو الإله أو الشخصيات الأسطورية المختلفة اكتسبت هالة فنية معبرة وطاقة روحية تهدف إلى تغيير القيم فى المجتمع . ولم تلبث أن استيقظت الأساطير من جديد وسايرت التاريخ ، حتى إن كُتّاب عصر النهضة وكتّاب القرن الثانى عشر بأوروبا وروّاد الآداب الحديثة والمعاصرة لجأوا إلى إحياء الأساطير القديمة وتناولوا وقائعها وشخصياتها فى رواياتهم الحديثة فى ظلّ فلسفات العصر .

ومن الصعب أن نتعقّب هذا الاتجاه إحصاءً لدى المؤلفين والأدباء والشعراء وكتّاب المسرح ، ولكننا لا نكاد نلقى نظرة على الآداب الحديثة والمعاصرة حتى ندرك أمرين : أولهما أثر الأسطورة فى إحياء بعض المعانى ، وثانيهما أثر تكرار استخدام الأسطورة أو الأسماء الأسطورية لدى الأدباء والمؤلفين لإثارة المعانى الخاصة المطلوبة ولتوجيه العمل توجيهاً هادفاً ، فنجد راسين مثلاً يعيد فى مسرحيته « صحراء طيبة » أو « الأخوة الأعداء » عام ١٦٦٤ إحياء الموضوع القديم نفسه الذى أثاره أيسخولوس فى مسرحيته « السبعة ضد طيبة » ، وهو الموضوع نفسه الذى تناوله أوريپيديس فى مسرحية « الفينيقيات » ، كما تناول راسين أيضاً موضوع « إيفيجينيا » الذى تناوله أوريپيديس من قبل . وصار من المألوف حتى أيامنا هذه مشاهدة

تفسير حديث للتراچيديا القديمة ممثلة فى الأسماء الأسطورية أو فى الأبطال القدماء أو الآلهة . ولهذا تناول چيرودو « إلكترا » تناولاً جديداً ، كما تناولها سارتر أيضاً تناولاً مختلفاً فى مسرحيته « الذباب » .

ولست أحاول هنا أن أتتبع كل الآماد والمجالات التى استخدمت فيها الأساطير استخداماً أدبياً مستحدثاً ، ولكنى أحاول أولاً أن أؤكد أن الكثير من الأسماء الأسطورية القديمة قد عادت إلى الظهور فى مؤلفات الكتاب والشعراء من راسين إلى سارتر ، وأحاول ثانياً أن أقنع القارىء المعاصر بأنه بحاجة ماسة إلى معرفة الأساطير والحكايات الخرافية القديمة ، حتى يتسنى له قراءة الآداب الحديثة وفهمها ومعرفة ما يهدف إليه الكاتب عند تناول الاسم القديم واستخدامه من جديد فى المناسبات المعاصرة . ويكفى أن نعرف مدى المرونة التى تحملها الأسطورة القديمة فى التعبير عن الأفكار والمعانى من استخدام سارتر لأسطورة « أورستيس » فى شرح بعض مبادىء فلسفته الوجودية ، وذلك فى أحلك الأوقات التى مرّت بها فرنسا أثناء الحرب العالمية الثانية وقت أن احتلتها ألمانيا النازية .

٢

ولد أوڤيد فى مدينة سولمونه على بعد تسعين كيلو مترا شرقى روما ، وكان مولده سنة ٤٣ قبل الميلاد ، ويعدّ آخر الشعراء الذين كان يطلق عليهم اسم « الأوغسطيين » ، وهم جملة من الشعراء الرومانيّين الذين سجّلوا أشعارهم وأتموا أعمالهم من سنة ٢٧ قبل الميلاد حتى سنة ١٤ بعد الميلاد ، وهى المدة التى كان فيها أوغسطس قيصر إمبراطورا لروما . وكانت معظم كتابات هؤلاء الشعراء ذات أصالة باستثناء ما استوحوه من الأساطير والآداب اليونانية القديمة وما تبعها من آداب العصر المتأغرق ، وهو العصر الذى عرفت به القرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد . وأرفع ما بلغه الأدب الأوغسطى هو ما حققه ڤيرچيل فى « الإنيادة » ، [٧٠ ق.م. — ١٩ ق.م.] ، تلك الملحمة المشهورة التى أُعدّت على نمط إلياذة هوميروس ، ثم أُشْرِبت بعض المعانى والملامح الخاصة بالأدباء المتأغرقين وأخذت طابع تلك الفترة ، وقد كان ڤرچيل صديقاً لأوڤيد .

ومن هؤلاء الشعراء أيضاً هوراس [هوراتيوس] الذى عاش بين سنة ٦٥ ق.م. وسنة ٨ ميلادية ، وتميز شعره بروح غنائية ، واستخدم عَرُوضاً شعرية يونانية خاصة بالأغانى القديمة ، وأعاد تناول بعض الموضوعات والأفكار التى سادت فى أشعار الإغريق القدماء ، وكان هو الآخر صديقاً لأوڤيد . ومن الشعراء المبرِّزين أيضاً فى هذه الفترة پروپيروتيوس المعاصر للشاعر هوراس ، وكان شعره تقليداً ومجاراة للشعر المتأغرق .

أما شاعرنا أوڤيد المتوفَّى سنة ١٨ م بمنفاه « توميس » على البحر الأسود [كونستانزا برومانيا حالياً] فقد بدأ حياته بنظم القصائد الغزلية مثل الشاعر پروپيروتيوس ، وما لبث أن واصل رسالته الفنية متّسما ببساطة ميّزته عن كل من عداه من شعراء تلك الفترة .

ونستطيع استقاء كل شيء عن حياة أوڤيد وأحداثها من خلال حديثه هو نفسه وتسجيله لمظاهر معاشه وعصره . فهو يعترف بأنه لم يكن يجد شيئاً أمتع من الحديث عن نفسه ، وهو القائل فى كتابه « فن الهوى » : « فليسعد غيرى بأن يجترّ ذكريات الماضى ، أما أنا فأهنىء نفسى لأنى وُلدت فى هذا العصر الذى يلائم طبعى ومزاجى » .

وكان أبوه قد أعدّه وربّاه ليشغل إحدى الوظائف السياسية أو الإدارية فى الدولة ، فانتقل إلى روما مع أخيه حيث كان يختلف إلى المدارس ، يتلقى العلم على أيدى الأساتذة المشهورين غير أنه لم يجد إشباعاً لذوقه وحسّه فيما كان يتعلمه على أيدى هؤلاء المعلمين ، وأحس بخطر الابتعاد عن الأصالة الشعرية الحقة وعن ميوله الذاتية فى صناعة الشعر ونظمه ، فقد كان يشعر فى قرارة نفسه بأنه خُلق للشعر وأن الشعر يتدفّق من بين شفتيه كما يتدفّق الماء الرائق من الينبوع الصافى . وأخذ بعد ذلك يلقى رجال الأدب فى روما وشُغِلَ بالتعرّف عليهم دون أن يُغْفل متع الحياة ولذاتها فى مدينة كبيرة مثل روما ، وصار بعد وقت قصير شخصاً مرموقاً بين خلّان على حظ من الدعابة والمرح .

وكان عهد الامبراطور أوغسطس عهد تفاؤل وانطلاق ومرح ، وعهد تنفيذ للمشروعات المعمارية الكبرى وتشجيع للآداب والفنون بعد أن أشاع روح السلام فى ربوع البلاد . ولم تلبث الطمأنينة أن انعكست على حياة الناس ، فأخذوا ينهلون من ألوان السعادة والمتعة دون تخوّف أو قلق . وامتلأت ردهات الأدب بالعديد من الكتاب ، كما اكتظت بالشعراء والأدباء الذين اعتادوا شحذ ملكاتهم والمران على التعبير والخطابة والكتابة الأدبية وممارسة الهوايات التى تناسب مواهبهم وتصادف هوى فى نفوسهم بعيداً عن المشاغل المادية وعن الظروف المحيطة .

وهكذا هيّأت الظروف لأوڤيد فرصة قرض الشعر فقصر كل جهوده عليه بعد أن أتاح له ميراث أبيه أن يتحرّر من ثقل الوظائف الإدارية ، فترك لنا مجموعة من الأعمال الشعرية ذات أصالة فنية لا تبارى .

٣

وكانت أولى أعمال أوڤيد ديوانه الصغير المسمى « بالغزليات » Amores وهو مجموعة من القصائد التى تدور موضوعاتها حول المعانى الغزلية ــ كما يشى عنوان الديوان ــ أكثر فيها من الإشارة إلى أسماء أبطال الأساطير القديمة فى غضون القصائد ، الأمر الذى ينبىء عن مدى إلمام أوڤيد المبكّر بالأساطير اليونانية التى



ديلا كروا : أوفيد فى منفاه بسكوذيا

مجموعة خاصة ـ سويسره

اعتاد أن يقتبس منها فى أشعاره الغزلية بما يجمّلها ويعيد إلى الذاكرة الحكايات الخرافية التقليدية ، إلاّ أن أوڤيد كان يتعمّد أن يسبغ على هذه العناصر الأسطورية التى يقتبسها فى أشعاره نضارة فياضة ، كما اعتاد أن يضفى على الأساطير القديمة حيوية وشبابا متجدّداً . وقد نَظَم قصائده على الوزن الإيليجى ، وهو الوزن الذى يتكون من بيتين أحدهما سداسى والآخر خماسى .

وقد شبّب فى « غزليّاته » بعشيقة أسماها « كورينا » يعتقد النقاد أنها لم تكن شخصية حقيقية ، ولعلها كانت نمطاً حشد فيه صفات العديد من النساء اللاتى عرفهن . وقد كان أوڤيد سريع الوثوب إلى المغامرات العاطفية ، ولو أنا نظرنا إلى بعض ما يكتب على أنه يحمل ظلّاً من الحقيقة لاستقر فى نفوسنا أنه هام بمُحْصَنات إلى جانب العذارى ، وأنه عرف الخليعات كما استمال إليه الحرائر .

وقد قسّم غزلياته إلى كتب ثلاثة[1] : تحدث فى أولها عن وقوعه فى أسر كيوپيد إله الحب ، الذى صرفه عن الحديث الحرب إلى الخوض فى قصص الهوى ، وهكذا علق قلبه بزوجة رجل لم يكن يعبأ بوجوده وبخليعة حاول أن يطهّرها من دنسها . وتحدث فى الكتاب الثانى عن عبوديته لمعشوقته التى اجتاحتها رغبة فى هجر المدينة التى كان يرى أنه لا يكتمل بهاؤها إلا بوجودها فيها ، ثم يكشف عن شغفه بأن يجمع بين هوى فتاتين بينما يدفع عن نفسه تهمة خيانته لعشيقته مع وصيفتها . ثم نجده فى الكتاب الثالث يصف بعض ما صادفه من عثرات عاقته عن أن يلحق بمعشوقته ، كما يصف لحظات أخرى نَعِم فيها بمتعة اللقاء .

وجاء ديوانه الثانى « البطلات » Heroides يشمل عدداً من الرسائل كتبها على لسان نساء شاعت مآسى غرامياتهن فى عالم الأساطير والحكايات الشعبية ، فضمّن رسالة « پنيلوپى » إلى زوجها أوديسيوس الشكوى من تباريح الهوى والبعاد وقسوة الانتظار والقلق على الزوج الذى احتجزته حرب طرواده ثم مغامراته البحرية بعيداً عن زوجته . وعرض فى رسالة الحورية « إينونيه » مأساة انصراف حبيبها « پاريس » عنها وانشغال قلبه « بهيلينا » التى اتخذ منها زوجة له . ونقرأ فى رسالة الأسيرة « بريزييس » عتابا لأخيل الذى سعدت بأن تكون محظيته فلم يتحمس لاستردادها حين طمع فيها الملك « أجاممنون » . وقد حظى هذا الكتاب بانتشار واسع لتلك البراعة التى لا تجارى فى السرد القصصى وعمق الإلمام بطبيعة المرأة وردود فعلها الدفينة .

ثم ظهر كتابه الثالث « فن الهوى » Ars Amatoria[2] فى العام الميلادى الأول فى أسلوب تعليمى جذاب ، وقد قسّمه إلى ثلاثة كتب تضمّن أولها وثانيها نصائح للذكور بينما خصصّ الثالث للنصائح الموجّهة للإناث .

---

(١) جرت العادة لدى الكتّاب الرومان على تسمية فصول الكتاب الواحد باسم « كتاب Liber » .

(٢) « فن الهوى » لأوفيد . ترجمة كاتب هذه السطور ، وراجعه على الأصل اللاتينى د. مجدى وهبه . الطبعة الأولى : دار الشروق ببيروت ١٩٧٣ . الطبعة الثانية والثالثة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩ و ١٩٩١ على التوالى .

والأول توجيه للرجل إلى البحث الذكى الدءوب عن المرأة الجديرة بهواه ، ثم عن طريقة التعرّف بها واستمالتها وإغرائها بالحديث العذب واللفتة البارعة والاهتمام بأناقة المظهر .

والكتاب الثانى تدريب للعاشق على الاحتفاظ بمعشوقته أسيرة دائمة لهواه ، لا ينسى فى ذلك أثر الكلمة المنعشة للأفئدة أو الهدية الغالية ولا المظهر الحسن أو الخلق الرزين .

والكتاب الثالث نصيحة ثمينة لأية امرأة تريد أن تَغْزُوَ بهواها القلوب وإرشادها للطريق المثالى الذى يجعل منها امرأة جذابة فى كلمتها ومِشْيتها ولفتتها وزينتها .

ومع ذلك فليس الكتاب دعوة إلى الانغماس فى الغرام بقدر ما هو دعوة إلى الرقة فى المسلك والأناقة فى المظهر والتحلّى بالمعارف والفنون التى يعتبرها أوڤيد أشدَّ تأثيراً فى القلوب من جمال الملامح وبهاء الحلى والجواهر . هو دعوة إذن إلى خلق مجتمع تنمو فيه أسمى العلاقات بين الرجال والنساء ، وترقى فيه العادات والتقاليد ، ويُصْقَلُ فيه الحس ويكتمل فيه الذوق الرفيع .

ثم فاجأ أوڤيد قراءه الذين كانوا يتلقّفون كتبه السابقة بكتاب يمثّل الوجه الآخر لكل ما سبق وقدّمه ، فطالعهم بـ « سلوان الحب » Remedia Amoris يستحث فيه الناس على اطّراح الهوى والانصراف عن الغرام إلى الأعمال النافعة كالفلاحة أو الرماية أو الصيد أو الانشغال بالرحلات والأسفار الطويلة ، وينصح فيه العشاق بنسيان تجارب غرامهم والتخلص من ذكرياتهم ، رسائل كانت أو صوراً . ولم يكن إقدام أوڤيد على وضع هذا الكتاب الأخير إلاّ محاولة لتهدئة الفلاسفة ودعاة الأخلاق والمتزمّتين من الحكام ممن ثاروا عليه واعتبروا كتبه دعوة إلى الفجور والانحلال .

ثم تحدث أوڤيد عن الأعياد والمهرجانات والشعائر الدينية والمناسبات التاريخية فى قصيدة تعليميّة طويلة مقسّمة إلى إثنْى عشر جزءاً كان كل جزء منها خاصّا بشهر من شهور السنة وسماها « التقويم » Fasti ، ورجع فيها إلى وثائق الدولة ومصادر التاريخ والميثولوجيا وعلم الفلك . غير أنه للأسف لم يُعثر إلاّ على ستة أجزاء منه ، ولا نعلم هل أكمله كما يزعم وفقد نصفه أو احترق ضمن ما حرقه يوم نُفى من روما ، أم أنه لم يكتب أصلاً غير هذه الأجزاء الستة .

وكانت هذه الفترة بمثابة مرحلة للمران على تناول موضوعات تراجيدية أهّلته لكتابة مأساته الرائعة عن « ميديا » التى لقيت شهرة كبيرة فى عصره ونالت استحساناً ضخماً آنذاك ، وإن لم يبق منها شىء مع الأسف لأنها ضاعت ضمن ما ضاع من التراث الرومانى . ويبدو من حديث المعقّبين فى ذلك الوقت أنها كانت نفحة شعرية ممتازة ، وإن لم يشجعه ذلك على الاستمرار فى مثل هذا النوع من الإنتاج الأدبى . ثم ما لبث أن ظهر كتاب « مسخ الكائنات » الذى نقدم ترجمته العربية هنا .

ولقد نفى الإمبراطور أوغسطس أوڤيد إلى مدينة توميس على البحر الأسود جزاء له على تأليف كتاب « فن الهوى » ، وكذّب شاعرنا هذا ، وقال إنما نُفى لإذاعته سراً من الأسرار لا لهذا الادعاء .

ومما يذُكر عن أوڤيد أنه نتيجة لغضبه وحزنه معاً فى لحظة فراقه لعاصمته المحبوبة قد ألقى بكتابه كله عن « مسخ الكائنات » فى النار معبّراً بذلك عن يأس قاتم حيال مستقبله الشعرى . ولعله كان يحاول تقليد الشاعر ڤيرچيل الذى مات قبل أن يختتم ملحمته « الإنيادة » ، وإذ لم يكن راضياً عنها كل الرضا حاول التخلّص منها ولكن حِيل بينه وبين ذلك . غير أن أوڤيد كان واثقاً من وجود نسخ أخرى من هذا الديوان لدى الكثيرين من أصدقائه مما يؤكد أن محاولته لم تكن عن رغبة حقيقية فى التخلّص من الكتاب .

وواصل أوڤيد بعد ذلك الكتابة من منفاه ، فدوّن أشعاراً كثيرة جميلة مصقولة ملتمسا العفو والغفران ، وسجّل فى أشعاره كل ما شهده فى منفاه من صور الهول والفزع . ولكن مضت الأعوام ولم ينل العفو الذى كان يرجوه ، وظل يواصل كتابة أشعاره ، وإن كان قد بدأها مثقلة بالأسى والاكتئاب فى كتابيه « المنظومات الحزينة » و « رسائل من پونتس » ، ثم ما لبث أن تخلّى عن هذه الكآبة التى انتابته أول الأمر ، وإن لم نكن مع ذلك نخطىء نغمة الحنين التى ظلت واضحة فى كل أشعاره أو نبرة الشوق العارم إلى العاصمة ، فقد طبعتا كل ما نظمه من القصائد فى منفاه ، لأن شاعرنا ظل إلى آخر يوم فى حياته مشدود الفكر إلى مدينته الأثيرة مشوقاً للعودة إلى ربوعها الحانية .

وقد استهل « أوڤيد » أعمال منفاه بمدينة « توميس » بكتاب « المنظومات الحزينة » Tristia الذى يصوّر عنوانه مضمونه المُثقل بأسى الوحدة وشقاء الغُربة ، وقسّمه إلى خمسة أجزاء وجّه ثانيها إلى الامبراطور أوغسطس يدفع فيه عن نفسه التهم التى ألصقها به بعضهم بعد نشره كتاب « فن الهوى » الذى اعتُبر تحريضاً على الفسق والفجور ، ويستعطف الامبراطور أن يخفّف من قسوة عقابه وأن يبدله من « توميس » مدينة أرحب وأفسح لمواهبه الأدبية .

أما أجزاء الكتاب الأخرى فهى مجموعة من الرسائل الشعرية وجّهها لأصدقائه دون أن يذكر أسماءهم خوفاً عليهم من بطش الامبراطور الغاضب عليه ، وتقطر هذه الرسائل مرارة تثير الشفقة عليه فى محنته التى كانت تطحنه بلا رفق .

وكأنما لم يخفّف كتاب « المنظومات الحزينة » شيئاً من وحدة أوڤيد ، فوضع كتابا ثانيا أسماه « رسائل من پونتس » Epistulae ex Ponto يضمّ أربعة كتب تحوى رسائل شعرية وجّهها هى الأخرى إلى أصحابه ، لكنه فى هذه المرة صدّرها بأسمائهم الحقيقية . وتفيض هذه الرسائل بالشكوى مما يحمله من عذاب تذوبُ له القلوب ، لولا ما فيها من إسهاب يُهوّن من وطأة أساه فى نفس القارىء .

ولم تكن كتابات أوڤيد فى منفاه كلها حزناً وشكوى ، فقد كتب مقطوعة طويلة أسماها « إيبيس » Ibis أى طائر أبو منجل المائى المعروف باسم أبى قردان ، وفى هذا الكتاب يصبّ جام غضبه على رجُلٍ لم يُسَمِّه متهماً إياه بمحاولة الاعتداء على زوجته وأمواله فى غيبته . ولعل هذا الكتاب أعرق موسوعة فى السِّباب لأنه

يضم مجموعة نادرة من اللعنات والشتائم المستخلصة من أقدم كتب التاريخ والأساطير والحكايات الشعبية .

ومات أوڤيد بمنفاه عام ١٨ ميلادية دون أن يحقّق الحلم الذى ظل يراوده حتى آخر حياته .

* * * *

وقد اخترت أن أنقل هذا الكتاب إلى العربية لأسباب عدّة :

أولها : إحساسى بحاجة اللغة العربية إلى مادة تتمثّل فيها الأساطير وتشيع فيها الحكايات الخرافيّة التى تجلو لنا ما كانت عليه آلهة الإغريق والرومان وغيرهما من أبناء الحضارة القديمة .

ثانيا : أن هذا الكتاب يروى قصة هذه الأساطير بأسلوب شعرى متدفّق وبلغة عذبة رقيقة لا تنفّر القارىء وترسّخ أسماء الآلهة والأبطال فى ذهنه ، مما يجعلها قريبة إلى ذاكرته حين تصادفه مرة أخرى فى قراءاته للآداب القديمة أو الآداب العالمية التى تواصل استخدامها للرمز والإيماء إلى أدوار محدّدة أو وقائع معيّنة .

ثالثها : ما كان لهذا الكتاب من أثر كبير فى تاريخ الأدب العالمى عامة وعند الرومان خاصة ، فلم يحظ كتاب آخر بمثل ما حظى به هذا الكتاب من التأثير فى القراء سواء لما تميّز به من أسلوب أدبى رائع أو لما اختص به من موضوع جذّاب .

رابعها : أن دراسة المنجزات الفنية على مرّ التاريخ وتذوّقها باتت تحتاج إلى حد أدنى من الإلمام بالأساطير الإغريقية والرومانية .

فالشاعر أوڤيد يعنى هنا بموضوع واحد يخلص عن طريقه إلى التأليف بين عدد من الأساطير والحكايات الخرافية ذات السّمة المميزة ، وهو موضوع تغيّر صور الكائنات الحيّة وأشكالها وتحوّلها من شكل لآخر أو من طبيعة إلى أخرى . ويتابع الشاعر قصص هذه التحوّلات ويرويها عن أصلها مع ما يضيفه على أسلوبها من الأداء الأدبى الممتاز ومن الشاعرية الملهمة ، مما جعل كتابه من أبرز الأعمال الأدبية التى أنتجها الأدباء والشعراء الرومان .

وقد وردت معظم هذه الحكايات الخرافية فى مؤلفات شعراء الإغريق الأقدمين التى كان لها دور أساسى هام فى تثقيف الرومان أنفسهم وفى تربيتهم خلال المراحل الأولى . ولكننا لا نملك بعد قراءتها إلا أن نعترف بقيمة المجهود الفذّ الذى بذله الشاعر أوڤيد حين أقدم على اختيار هذه الأساطير القديمة وبعث فيها الحياة من روحه الشاعرية ، مُعيداً روايتها فى رشاقة ويُسْر حتى صار يُضرب بها المثل فى الأخذ بمجامع القلوب والاستحواذ على لبّ كل من يقرؤها أو يستمع إليها .

ومن هنا نرى أن العالم قد كسب بهذا الكتاب مصدراً أدبيّا ثرّاً يعدّ كنزاً حافلاً بالأساطير والحكايات الخرافية ، لايزال يقرؤه ويتطلّع إليه الجميع فى كل اللغات بشغف كبير حتى يومنا هذا . وظل هذا الزاد الضخم من الحكايات منبعاً تستقى منه الآداب الغربية الإلهام فى فنونها المستحدثة ، كما تستمد منه الحضارات الحالية قوة روحية فريدة . ومع ما يفيض به هذا الشعر من ألوان البلاغة والتعبير البيانى فهو ينبض بنضارة العالم الأسطورى الذى يصفه شعره القصصى الجذّاب .

وقد وصف كوينتليانوس هذا الكتاب بأنه ملحمة شعرية ، وإن لم يعدّه بعض النقاد ملحميا لخلوّه من التكوين الموحّد الضرورى فى حالة الملحمة . وفى الحق إن أوڤيد قد نجح فى أن يخلق من هذا العمل الشعرى الذى يتألف من خمسة عشر فصلاً مُصاغة فى وزن سداسى التفعيلات بناء محكماً أتاح للقارىء الانتقال من قصة لأخرى دون أن يشعر بأى انفصال أو خلط فى ترتيب الكتاب .

وفى هذا الكتاب يبدأ الشاعر بالثناء على الآلهة وحمدها على ما أسدت من خير للوجود ، ثم يمضى فيتحدّث عن أصل العالم ومراحل نشوء الكون منذ العماء إلى انبثاق الحياة ، ثم تتابع الأجيال جيلاً بعد جيل وعصراً بعد عصر إلى ما انتهى إليه الكون من نظام . وإذا هو يُقسّم تلك العصور إلى أربعة : العصر الذهبى والعصر الفضى وعصر البرونز ثم عصر الحديد الذى تجلّى فيه للبشرية وجودها الكامل . وكان چوپيتر [زيوس] هو الذى أنهى إلى سائر الآلهة بتحوّل أول آدمى إلى حيوان ، وهو ليكاوون ، وكانت تلك العقوبة على ما كان له من شرور وآثام . وعندها شرع العمالقة فى هزّ عرش الآلهة إلّا أن چوپيتر كبير الآلهة وربّ البشر استطاع أن يقضى على محاولتهم . وما لبث أن عقد العزم على إفناء العنصر البشرى بأكمله قاصداً إنهاء عصر وبدء آخر ، فراح يرسل سيولاً وفيضانات متلاطمة الأمواج لإغراق الأرض ، فلا يبقى سوى ديوكاليون وپيرا لتعمير الأرض من جديد بعد الطوفان .

وقد بدأت أول ما بدأت قصائد الكتاب بوصف هذا الحادث ، ثم استرسلت بعد هذا ، فنرى أپوللو وهو يفتك بالأفعوان پيثون الهائل ، ثم إذا هو يقع فى غرامه بدافنى . ومن هنا أخذت تبدو غراميات الآلهة وغدت تتوالى فى صور مختلفة وصفها أوڤيد خلال الكتب الخمسة الأولى [أى الفصول الخمسة] فى كتابه عن مسخ الكائنات حتى منتصف الفصل السادس ، لينتقل بعد ذلك إلى موضوعات تتّصل بأبطال اليونان القديمة مثل چاسون وثيسيوس وأضرابهما حتى حرب طراودة .

ويستمر أوڤيد على هذا النحو فى سرد البطولات الخالدة ابتداء من شخصية أينياس إلى أن يصل إلى رواية قصص إيطالية ورومانية قديمة تتّصل بحياة الملوك . وفى نهاية الكتاب ترد على لسان أوڤيد قصة تحول يوليوس قيصر إلى كوكب وانتسابه إلى الآلهة ، التى كتبها على سبيل الإطراء للإمبراطور الحاكم واستدرارا لعطفه .

ولقد تميّز هذا الكتاب « مسخ الكائنات » فى مجموعه بحشد هائل من القصص الخرافى المصوغ فى أسلوب شعرى توفّرت له كل وسائل الخيال والحسّ والعاطفة والمشاعر الوجدانية الدافقة . ولا يكاد المرء

يطالع أبيات شعره عن شخصية من الشخصيات من أمثال پيجماليون أو كاليستو أو ڤينوس حتى يلمس القدرة الفنية العالية والبراعة فى تصوير مواقف العشق والغرام مع ذكاء كبير فى النفاذ إلى الطبيعة البشرية فى خضم المعارك اليومية .

وليست أحداث الأساطير كلها التى جاءت على لسان أوڤيد ذات صلة بالتحوّلات الخَلْقِيّة وحدها ، بل كان الكثير مما يرد فى غضون رواياته مواقف تشير إلى الرغبة فى بعث السرور فى القلوب ، من ذلك ما رواه عن أورفيوس وقد هدَّه العشق والهوى . ويمضى أوڤيد فيربط بين هذه القصة وبين قصة الإلهة سيريس وپروسيرپينا [پيرسيفونى] رغبة منه فى إحداث تأثير ما فى نفسية القارىء بما امتلأت به هذه القصة من ألم دافق وحزن عميق على الرغم من أنها لا تتصل عن قرب بموضوع مسخ الكائنات .

وهذه الفكرة فى انتقاء مجموعات من الحكايات الخرافية والأساطير لم يكن أوڤيد مبتدعها بل سبقه إلى ذلك شعراء العصر المتأغرق ، فقد شاعت بينهم مجموعات خرافية تتناول موضوع تحوّل الآدميين إلى طيور ، كما وُجدت مجموعات أخرى لأساطير مشابهة فى اليونان القديمة . ولا شك فى أن أوڤيد لم يكن السابق إلى هذا العمل كما لم يبتكره ، لأن فكرة المجموعات الأسطورية من هذا القبيل عُرفت من قبله ، ولكن من العسير أن نعرف إلى أى حدّ كانت هذه المجموعات السابقة ذات تأثير على عمله . غير أنه مما يبعث على الإعجاب بشخصية أوڤيد طريقته الفنية الحاذقة فى ربط هذه الحكايات بعضها بالبعض الآخر ، فليس ثمة رباط بين الحكايات التى يرويها أوڤيد ، ولكنه استطاع بما أوتيه من المهارة أن يصل فيما بينها بطريقة بارعة ، بحيث يقرن بين طابع شخص وشخص أو بين اسم واسم أو بين موقف وموقف . فيستغل أوڤيد هذه المشابهات فى إلحاق قصة بأخرى على أساس الانتقال من موضوع إلى ما يشبهه ومن صفة إلى ما يماثلها ، وليس فيما بين هذا الربط الفنى تلفيق أو تكلّف إلا فى القليل النادر . ومن هنا تجلّت فى الكتاب وحدة جامعة ، خاصة أنه عمد إلى الربط بين الأحداث ربطاً دراميا سليماً . لقد استطاع أن يربط بين الأساطير بطريقة شاعرية كى يبعث فى نفوس المستمعين إحساساً واضحاً بالصلة العميقة القوية بين حياة البشر والوجود الطبيعى من حولهم الذى يضم سائر الكائنات الموجودة من إنسان وحيوان ونبات وجماد فى وقت واحد ، تلك الرابطة التى تصل بين الإنسان والكون المحيط به ، وهى الأساس الذى بنى عليه هذا الموضوع ، وأصبح عاملاً مشتركاً بين هذه الحكايات الخرافية الواردة بين دفّتى الكتاب ، وإن كانت الرابطة بين الحيوان والإنسان فى عالم الطبيعة الحيّة هى الغرض المنشود من إثارة هذه الحكايات وروايتها فى هذا الأسلوب العذب الجزل .

ويتكرر ورود أسماء الآلهة لأنها تكاد تشترك فى معظم الأحداث ، فجوپيتر هو مصدر التهديد الدائم للحوريات من ناحية وللعذارى من ناحية أخرى ، كما يرد دائماً ذكر أپوللو وميروكوريوس دون أن يُحاطا خلال الأقاصيص التى يرويها أوڤيد بهالة القدسية والتقدير . وليس هذا الموقف مستحدثاً فقد جرت العادة على ذلك منذ أقدم العصور كما هى الحال مع هوميروس الذى لم ينظر دائماً نظرة الإجلال إلى آلهة

الأوليمپوس الذين يرتكبون كل الخطايا التى يرتكبها البشر ، ويلهون مثل الناس ويقعون أحياناً فريسة للغيظ والحسد والحقد والكراهية والطمع والشراهة . وهو ما أتاح لأوڤيد أن يستغل خياله فى تصوير هذه الأحداث المتصلة بالآلهة ، وأن يستفيد من هذا المجال الرحب لإثارة المشاعر المختلفة ــ فضلاً عن السخرية ــ لدى قرائه ومستمعيه . فَيَرِدُ كلام الآلهة كما يَرِدُ كلام البشر على لسانه وكأنهم معاً أبطال فى مسرحية كبيرة يعدّها القدر ، ويرسم خطوطها المصير المحرّك لكل ما يجرى فى الكون من أحداث ، ويسيّرها القضاء المحتوم بإرادته ، ويخضع لها الصغار والكبار بما فى ذلك الآلهة والأبطال على السواء .

واعتاد أوڤيد أن يكرّر بعض الأبيات من حين لآخر وسط أشعاره دون أن يستشعر القارىء غضاضة فى ذلك ، بل قد يجد فى هذا التكرار نوعاً من الأُنس والطّرب المستحبّ ، فلم يكن ينقص أوڤيد براعة الاستهلال أو القدرة على تغيير النغم والأسلوب فى بعض الأحيان .

ولم يتخلّف أوڤيد عن أن يسمو بعباراته إلى أرفع المراتب باستخدام الفقرات الشعرية ذات الوقع الجميل المرهف . فيبدأ الفصل الأول ــ كما أسلفت ــ بعبارات عليها مسحة من جلال إذ هى تتّصل بقصة خلق العالم ووصف أحداث الكون وهو فى مرحلة النشوء والتطور ، ولهذا فقد امتاز هذا الفصل بطابع أشعار الملاحم بما لها من جلال ورهبة ، وهو ما يصدق أيضاً على الفصل الخامس عشر ، لأنه أكثر جنوحاً إلى الأفكار الفلسفية . ومن هنا تتهدّر الأنغام قوية التأثير عندما تعمد إلى وصف ريح الشمال ، ثم تعانق النشوة الغنائية عند ذكر باكخوس [ديونيسوس] إله الخمر ، وفيما بين هذا وذاك تمضى الألفاظ والعبارات رقيقة هادئة وديعة حتى تكاد تبلغ فى عذوبتها همس الموسيقى .

ويسرد أوڤيد فى الفصل الخامس عشر حديثاً مُسْهبا للفيلسوف اليونانى پيثا جوراس ، متبنّيا فلسفته الشاعرية الحالمة مُعارضاً بها الفلسفة الأبيقورية التى كانت شائعة فى وقته . وقد أورد قبل ذلك بعض الآراء التى تدور حول نظرية تناسخ الأرواح التى قال بها پيثا جوراس خلال حديثه عن مسخ الكائنات ، كأنما يلتمس فيها تعضيدا وتبريراً لما يتعرّض له موضوعه الشعرى فى هذا الكتاب وهو مسخ الكائنات من حال إلى حال ، وتناسخ الأرواح كما نعرف هو انتقال روح الميت بعد وفاته إلى كائن آخر حيواناً كان أم نباتاً . ولكنه لم يستطع أن يجلو هذا الأمر حق جلائه لغلبة الروح الشاعرية والبلاغية عنده على قدرته الفكرية ، ثم ما كان منه من عدم ميل إلى أن يضحى بأناقة العمل الشعرى من أجل بسط بعض الأفكار الفلسفية أو بعض الأحداث التاريخية ، وكان أوڤيد يتجنّب دوما أن تطغى الأفكار أو الموضوعات على التعبير الشعرى أو على جماله وإبداعه . وهذه الميزة فى الواقع هى التى عملت على وقاية شعره من الإسفاف ومن التحوّل إلى نظم تعليمى فحسب خال من روح الشعر .

وانساب أثر ذلك كله على مجموعة أعمال أوڤيد الشعرية فامتلأت بوصف نادر للطبيعة وجمالها وروعتها . ولعلنا لا نبالغ كثيراً إذا قلنا عن أوڤيد أنه كان من أبرع الشعراء الذين وصفوا الطبيعة بخصوبة خيالهم الخلّاق . وستظل أوصافه للطبيعة نمطاً فذّا لشعر الوصف بين كل الشعراء الأقدمين والمحدثين ،

فلقد أدّت هذه البراعة إلى تحويل المشاهد الخيالية إلى مشاهد ناطقة بحكم ما تميز به من دقة التعبير ومن القدرة الخارقة على الأداء الشعرى . وهكذا نال شاعرنا تقدير كل من دانتى وشكسبير ، وحسبنا شهادة مثل هذين الشاعرين دليلاً على بلوغه المستوى الأعلى فى كتابة الشعر . فبهذه الأبيات تحدّث دانتى عن أوفيد :

سمعت وقتئذ صوتاً يقول : « مجّدوا الشاعر الأعظم : فطيفه يعود بعدما ارتحل » . وبعد أن توقّف الصوت وسكت ، رأيت أشباح عظماء أربعة قادمين نحونا لم يكن لهم مظهر الحزن ولا السعادة . بدأ أستاذى الطيّب يقول « انظر إلى من حمل بيده ذلك السيف ، ويتقدّم ثلاثة كأنه السيّد . ذلك هو هوميروس أمير الشعر ، والثانى الذى يأتى بعده هو هوراتيوس الساخر ، والثالث أوفيديوس والأخير لوكانوس . ولأن كلا منهم يشترك معى فى الاسم الذى نطق به الصوت الوحيد ، فهم يشرّفوننى ، وبذا يحسنون صنعا »[٣] .

لقد ظل شعر أوفيد مثلاً فريداً فى الأداء الفنى ، وأمكن للكثيرين ممن درسوه وتعمّقوه وفهموه أن يجدوا فى قراءته متعة حقة وأن يتبيّنوا فى ثنايا أعماله فناً أصيلاً ملك قلوب الناس فى كل البقاع وفى كل اللغات . ولعلّ أُسْهم هنا إسهاماً ما فى إتاحة هذه المتعة لأبناء لغتنا حتى يشاركوا أبناء العالم أجمع فى الاطلاع على هذا الكنز النادر .

وقد تناول الكثيرون كتاب « مسخ الكائنات » بالدراسة والنقد العميقين ، وتُعدّ الدراسة التى عرضها الأستاذ هرمان فرانكل فى كتابه « أوفيد شاعرٌ بين عالمين » من أهمّها جميعاً ، ونستطيع أن نوجز ملاحظاته فى أمور ثلاثة :

أولها : أن هذه الملحمة أول محاولة لأوفيد يقصّ فيها قصصاً بطريقة فنية متصلة بحيث يكون لها بداية ووسط ونهاية ، وبحيث تتناسب مع قواعد كتابة الملحمة التى تتطلب من الشاعر التزام البيت الطويل ذى التفعيلات السّت والاسترسال فى القصّ خلال ملحمة طويلة ضمّت أكثر من إثنى عشر ألف بيت فى خمسة عشر فصلاً [أو كتاباً] . فقد فرض عليه تسلسل القصص فى ملحمته أن يربط بين أجزائها بروابط لا يحسّ معها القارىء هذا الربط فلجأ إلى حيل شتى ، وذلك بأن تكون ثمة صلة بين شخصيات القصص أو بأن يكون ثمة تشابه بين موضوع القصص ، إلى غير ذلك من وسائل مماثلة .

ثانيها : أن اختيار موضوع التحوّلات أو مسخ الكائنات الذى تناوله الشاعر يرجع إلى نظرة له فى الكون اكتسبها من شغفه بالقصص الأسطورى بما فيه من فتنة وإثارة للخيال يستطيع أن يُسبغ بهما على ما يرويه منطقاً لا يرتبط بالواقع فى شىء ، حيث يبدو الموت وكأنه لا وجود له فى ذلك العالم السحرى الذى لا يموت فيه كائن بل يتحول من شكل إلى شكل ، وفى هذا سلوان للنفس ، على حين أن الواقع ينطق بغير هذا ، إذ فيه فناء كل شىء لاسيما فى عصر عنفوان الدولة الرومانية المؤسسة على القهر والطغيان . ومن

(٣) الكوميديا الإلهية لدانتى : الجحيم . النشيد الرابع ٩٠ . ترجمة حسن عثمان . دار المعارف ١٩٥٩ .

ناحية أخرى يكشف أوڤيد عن إيمان بـ « وحدة الروح » فيذهب إلى أن الروح تنقسم على نفسها وتزدوج ، وينصبّ كل جزء منها فى كائن آخر غير الذى فنى ، وفى هذا ما يدل على وحدة الروح الخالدة . وهذا يفسر لنا اهتمامه فى الجزء الخامس عشر بخطبة پيثا جوراس حين يناشد الناس أن يتجنبوا ذبح الحيوان لأن فيه إهدار للروح وحيلولة بينها وبين الخلود ، ويمكن اعتبار هذه الخطبة أساساً فلسفياً لاتجاه أوڤيد فى قصص هذا الكتاب .

ثالثها : أن عقيدة أوڤيد الدينية كانت أقرب إلى اللا أدرية منها إلى الإيمان الإيجابى ، وهو ما يكشف عنه بيت فى الكتاب الأول من منظومة « فن الهوى » حيث يقول : « حقاً إنه من الخير أن يكون ثمة آلهة . فلنؤمن إذن بوجودهم » . غير أن القراءة الدقيقة للنص تبين أنه يقرّ عبادة الآلهة بل يحبذها بشرط ألا يظن الناس ــ كما ظن الفلاسفة الأبيقوريون ــ أن الآلهة فى علاهم لا يكترثون بما يحدث على الأرض . فأوڤيد يعتقد أن الآلهةَ يشغلون بأمور البشر من وقت لآخر ، ومن ثم يجمل بنا عبادتهم فى خشوع ، فهم من يمنحون جزاء البرّ والثواب لمن لا يعتدى على غيره . والراجح أن أوڤيد كان يعتقد أن الإنسان لا يستطيع أن يحيا حياة صالحة إن لم يؤمن بأن ثمة قوة عليا تراقبه وتحاسبه على سلوكه . ولم تكن الديانة التى يعتنقها أوڤيد هى تلك الديانة البدائية المرتبطة بالعبادات اللاتينية العشائرية المحلية ، بل هى الديانة الإغريقية العامرة بالأساطير الذكية اللمّاحة الرامزة لحياة النفس وحالات الطبيعة ، باستثناء ربة الحظ « فورتونا » فى الديانة المحلية القبلية التى لم ترق إلى مستوى الآلهة وإن كانت تنفّذ إرادتهم فى أمور الدنيا . ولقد انعكس هذا الميل نحو الديانة الإغريقية القديمة بالمثل على الإمبراطور أوغسطس لما فى الديانة القديمة من توقير لفكرة النظام وتوطيد للاستقرار بالرغم من تقلّبات الدهر والطبيعة . ولذلك عدّت الديانة الرسمية فى روما الإمبراطور ممثلاً شخصياً لرب الأرباب چوپيتر على الأرض ولقبّته « بالإله الماثل بيننا » . هكذا أصبحت الديانة الرسمية وسيلة لربط الأمة بولاء دينى موحّد ومشترك لا يهتم بتعاليم خاصة دون أخرى وإنما يفتح المجال للديانة الإغريقية القديمة الموحّدة فغدا الآلهة حلفاء للدولة ، والدولة حليفة الآلهة . وقد حاول أوڤيد مجاراة العقيدة الرسمية السائدة وإن كان فى قرارة نفسه لم يهتم كثيراً بأمور السياسة والمُلك ، فهو لا يؤمن إلّا بأمرين اثنين : الفن والإنسان . وكان اهتمامه بالأساطير من مظاهر إيمانه بالفنون والآداب لا لإيمانه بمعتقدات دينية بعينها .

ومن حيث تكوين الملحمة لاحظ الأستاذ فرانكل شيئين هامين :

أولهما : التوازن بين الكتاب الأول والكتاب الخامس عشر ، ففى الأول وصف لبدء الخليقة من حيث هو تحوّلٌ من حالة فوضى وانقسام إلى حالة نظام وانسجام . وفى الكتاب الأخير وصف لتاريخ روما من حيث هو تحوّلٌ من مغامرات فردية إلى نظام سياسى يصبح فيه الامبراطور إلهاً ، فعلى حين كان الآلهة فى الكتاب الأول هم خالقى النظام الكونى ، إذا « النظام السياسى » فى الكتاب الأخير هو الذى رفع قيصر من البشريّة إلى الربوبيّة .

ثانيهما : أنه على حين تحتفظ الملحمة بأسلوبها القوى فى الأحد عشر جزءاً الأولى ، تفقد قدراً من حيويتها فى الأربعة الأخيرة .

٥

وبالرغم من أن أوڤيد قد أنهى حياته فى المنفى بعيداً عن جمهور قرائه فى روما ، وبالرغم من أن كتاب « فن الهوى » الذى كان قد ألّفه قد حُرّم تحريماً قاطعاً ، وأن كتاب « مسخ الكائنات » كان قد ألقى به صاحبه فى النار ، إلّا أن نسخاً من هذين المؤلفين كانت فى متناول القراء فى روما نفسها أثناء السنين الأولى من الامبراطورية . وهناك شعراء من القرن الأول الميلادى من أمثال مارتياليس وستاتيوس وچوڤيناليس كانوا يطالعون دواوين أوڤيد بحماس ، وكذا تحدّث عنه الناقد كوينتيليانوس فى كتبه كما أسلفتُ على أنه شاعر ملحمى وغنائى ومسرحى وامتدحه وإن أخذ عليه الانطلاق على هواه ، كما لم يؤمن أن الكتاب كله يستحق التقريظ بل بعضه . ثم ما لبث ذوق العصر أن تغيّر وأخذ قراء أوڤيد ينقصون شيئاً فشيئاً إذ كانت العصور الأولى للمسيحية عصر انكماش لأوڤيد ، فلقد تعمّد الكتاب المسيحيون الأُوَل الحطّ من كافة الكتّاب الوثنيين وخاصة الشعراء منهم بوصفهم أشدّ الكتاب خطراً على عقول القراء ، إذ تزخر مؤلفاتهم بقصص ماجن عن آلهة الوثنية كما تنطوى على عربدة واستهتار . وهذا إن دلّ على شىء فإنما يدلّ على تخوّف رجال الدين من أثر هذه الكتب فى نفوس المؤمنين لما فيها من جاذبيّة وتشويق . وبالرغم من ذلك كله مضى النسّاخ ينقلون شعره سراً فيطالعه الناس من جميع الطبقات فى الخفاء . بل إن بعض رجال الدين أنفسهم كانوا يطالعونه ، إذ يشير عالم اللاهوت المشهور « لكتانتيوس » إلى كتاب « مسخ الكائنات » مستشهداً ، ليبرهن على أن إلهاً واحداً قد خلق العالم ، حتى وإن جاء ذلك على لسان شاعر وثنى !

فلقد وصلت إلينا بعض المخطوطات من القرن السادس كتبها عالم لغوى اسمه « لَكْتانتيوس پلاكيدوس » تحوى ملخّصات نثرية لبعض الأساطير التى ذكرها أوڤيد ، وأغلب الظن أن هذه الملخّصات كانت تدريبات لغوية مدرسية لطلاب اللغة اللاتينية . وفى عصر الامبراطور شارلمان قرّظه « ثيودولفوس » أسقف أورليان ــ وكان من أهم رعاة التعليم فى بلاط الأمبراطور ــ تقريظاً مُعْجِباً ، هذا إلى أنه ذكَره بين كتّاب اللغة اللاتينية الذين ألف قراءة ما يكتبون طوال حياته . ثم أضاف قولاً له شأنه ، هو أن مطالعة كُتب أوڤيد لا شك تفيد القارىء لأن ما يليق منها يتضمّن حقائق عميقة كامنة وراء قناع الخيال .

ومع ذلك كان ڤرچيل هو الشاعر الأشهر ، ولم يرق أوڤيد إلى درجته ليحلّ محله فى كافة أنحاء أوربا إلّا مع بدء العصور الوسطى . وكان ذلك التطور طبيعياً بالنسبة لعصر مولع بقصص الخيال والمغامرات . ويبدو أن شعره الغزلى قد اجتذب جمهوراً كبيراً ، فعدّه شعراء « الجوليارد » وهم الطّلاب الرُّحل ناظمو

الشعر الماجن راعيهم . ومما لا شك فيه أيضاً أن شعراء التروبادور والمينيزنجر قد وجدوا فى أعماله ينبوعاً ثراً لإلهامهم أشعارهم .

وقد ورد اسم أوفيد فى القرن الحادى عشر ضمن قوائم كتب المطالعة المدرسية فى مدن ألمانيا . كذلك ظهر اسمه فى فرنسا خلال القرن الثانى عشر ، فوضع « ألكسندر نيكام » أستاذ الآداب بجامعتى باريس وأكسفورد كتاب « مسخ الكائنات » لأفيد ضمن الكتب المقررة فى منهجه الدراسى . وقد سمى البعض القرنين الثانى عشر والثالث عشر « بالعصر الأوفيدى » Aetas Ovidiana ، إذ ظهرت ترجمة ألمانية لكتاب « مسخ الكائنات » صدرت فى فجر القرن الثالث عشر إلاّ أنها لم تصل إلينا . كذلك كان لهذا الكتاب تأثير كبير فى إسبانيا خاصة فى « ملحمة الإسكندر » Libro de Alexandre الشهيرة فى أواخر القرن الثالث عشر . وفى فرنسا ترجم « كرتيان دى تروا » أول شاعر فرنسى جدير بالذكر إبان القرن الثالث عشر أجزاء من كتاب مسخ الكائنات ، كما نُسبت إليه معالجة موسّعة لأسطورة فيلوميلا عنوانها « فيلومينا » . وثمة معالجات بالشعر الفرنسى القديم ترجع إلى نفس العصر لأسطورة نارسيسوس وأسطورة بيراموس وثيزبى ، والثابت أن أوفيد هو أول من دوّن الأسطورة الأخيرة للآداب اللاحقة على عصره .

وكذا نتبين لكتاب مسخ الكائنات فى المنظومة المشهورة المسمّاة « قصة الوردة » Roman de la Rose وهى من روائع الأدب الفرنسى القديم التى يتجلّى فيها تأثير أوفيد الغزلى . وهناك أيضا قصيدة بلغة بروفانس فى القرن الثالث عشر عدداً من القصص التى ينبغى على كل شاعر أن يتعرف عليها ، منها قصص كثيرة لم ترد فى غير كتاب مسخ الكائنات ، وفى الوقت نفسه تقريبا حدث تحول غريب لكتاب مسخ الكائنات نفسه ، فلكى تتاح للقارىء فرصة الاطلاع على الكتاب دون المساس بقيمه الأخلاقية جُمعت بعض نصوصه مع تفسيرات رمزية مسهبة لمغزى الأساطير تربط كلما أمكن بين حكايات أوفيد وقصص الكتاب المقدس ! حتى لقد استُغلت قصة الخلق والطوفان على سبيل المثال استغلالاً دينياً وأخلاقياً بارعاً . بل لقد ذهب بعض الكتاب إلى أبعد من ذلك فاستخلصوا من الأساطير عِبَرا لو وصلت إلى علم أوفيد لأصيب بالدهشة والعجب . وثمة نص فرنسى قديم من أوائل القرن الرابع عشر فيه تأويل رمزى لما جاء على لسان أوفيد Ovid Moralise فإذا هو يربط قصة الطوفان التى جاءت فى التوراة بنظيرتها فى « مسخ الكائنات » ويجعل من حديث أوفيد ما يدّل على أن الطوفان عنده لا يُراد به غير طوفان الخطيئة التى يغرق فيها الآثمون ، كما ذهب إلى أن مُراد أوفيد بالأفعوان بيثون هو الشيطان ، وأن مراده بأبوللو الذى قضى عليه هو المسيح ، واحتملت أسطورة أبوللو وادفنى ما لا يقلّ عن خمسة تفسيرات رمزية مختلفة . وثمة أيضا كتاب إيطالى لمؤلف مجهول من القرن الرابع عشر يحاول أن يفسّر فيه بعض الأساطير تفسيرات لا أساس لها ، فوصف أكتايون بأنه صيّاد يذهب إلى أن الصيّد لون من ألوان الجنون ولذا هجر الصيّد ، غير أنه رحمة بكلاب الصيّد احتفظ بهم ، فإذا هذه الكلاب تكثر عليه بمطالبها الشَّرهة ، وإذا هو يعجز عن الاستجابة لها فتجتمع عليه وتنهشه . وقد شاع هذا النوع المُؤَوَّلُ من التفاسير شيوعاً كبيراً وقتذاك .

وفى القرن الثالث عشر تُرجم كتاب مسخ الكائنات إلى اللغة اليونانية ، وهى اللغة الأصلية لأغلب هذه الأساطير ، وبقيت هذه الترجمة الهامة التى قام بها الراهب البيزنطى « بلانوديس » حتى يومنا مرجعاً أساسياً فى تحقيق الأعلام الجغرافية .

وفى إيطاليا نفسها جاءت ملحمة دانتى العظيمة عامرة بالإشارة الدالة على مدى إلمامه بمؤلفاته أوڤيد وإعجابه بها . ولا شك أن كتاب مسخ الكائنات كان أهم مصدر لدانتى لما جاء فى ملحمته عن الأساطير الكلاسيكية ، بل إنه يتحدى أوڤيد فى أحد مواضع ملحمته بأنه سيبزُّه فى حقل اختصاصه ، بأن ابتكر نمطا مزدوجاً من التحوّل هو مسخ الإنسان إلى ثعبان ثم تحوّل الثعبان إلى إنسان من جديد . وكان « بوكاتشيو » أيضاً من المولعين بأوڤيد ، ففى قصيدته الطويلة « الرؤيا العاشقة » Amorosa Visiona يعيد سرد قصص كثيرة من قصص أوڤيد ومن بينها الأسطورة الشهيرة لپيراموس وثيزبى .

وإن لم يكن كتاب ديكاميرون « الأيام العشرة » لبوكاتشيو قد أخذ عن أوڤيد مباشرة فهو فى إطاره العام يوحى بأسطورة من أساطير أوڤيد ، فقصص ديكاميرون هى مسامرات لبعض الأشراف للتخفّف من ملل حياة الريف بعد أن هربوا من طاعون كان يعمّ المدينة ، مما يذكّرنا بأسطورة بنات مينياس فى كتاب مسخ الكائنات اللاتى أخذن يتسامرن على حين كانت سائر النساء قد اختلفن إلى مهرجان باكخوس .

وكان أوڤيد حاضراً فى أذهان الأدباء الإنجليز أيضاً منذ القرن الثانى عشر ، فذكره المؤرخ « وُولتر ماپ » ، غير أن « تشوصر » فى القرن الرابع عشر هو الذى تأثر تأثراً كبيراً بشاعرنا الرومانى ، وأغلب الظن أنه قد تعلق بأوڤيد أثناء وجوده فى فرنسا . ففى قصيدته الطويلة « دار الشُهرة » The Hous of Fame كرّس أحد أعمدة الدار لأوڤيد « أديب ڤينوس » . ولا شك أن لشعر أوڤيد الغزلى تأثيراً كبيراً على كتابات تشوصر إلى جانب شعره القصصى ، ففى « أسطورة الفاضلات » The Legend of good Women نجد قصة پيراموس وثيزبى شديدة الصلة بالأصل الأوڤيدى ، كما نتبيّن أيضاً بعض القصص الأخرى المستمدة من كتاب مسخ الكائنات . ولا شك أيضاً أن أروع ما كتبه تشوصر وهو « قصص كانتربرى » Canterbury Tales(٤) كان متأثراً فيها إلى حد بعيد بأوڤيد . وفى الوقت نفسه روى الشاعر جاوار بعض أساطير أوڤيد فى منظومته الكبرى « اعتراف عاشق » Confessio Amantis .

ومما لا شك فيه أن شهرة أوڤيد بلغت ذروتها فيما بين القرنين الثانى عشر والرابع عشر . ومع ذلك فقد استمر عالقاً بأذهان القراء حتى بعد ذلك العصر باعتباره من أشهر كتاب العصر الكلاسيكى ، إذ أخذت ترجمات كتاب مسخ الكائنات تكثر شيئاً فشيئاً فى لغات أوربية مختلفة على الرغم مما شاع فى بعض هذه الترجمات من خروج على النصّ وتأويلات رمزية خلقية ، فظهرت ترجمات عدة فى القرن السادس عشر بالإنجليزية والألمانية والإيطالية والإسبانية والفرنسية . والمعروف أن الشاعر الايطالى « أريوستو » كان مولعاً

---

(٤) انظر « حكايات كانتربرى » لتشوصر : ترجمة د. مجدى وهبه و د. عبد الحميد يونس . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣ .

بأوفيد وينسج فى شعره على منواله ، وأن الفيلسوف الفرنسى « مُونْتِينْى » قد اعترف بأنه التهم كتاب مسخ الكائنات من قبل أن يلتحق بالمدرسة . وظهر تأثير قصص أوفيد واضحاً فى كتابات « ثيرڤانتيز » ، وبصفة خاصة فى مسرحيات الكُتّاب المسرحيين الإسبان فى القرن السابع عشر . وقد ترجم الشاعر الفرنسى لافونتين بعض أساطير أوفيد فى كتابه « القصص » ، بل استخدم أسطورتين من كتاب مسخ الكائنات فى مرثيته عن أدونيس . وكانت أول أوبرا ظهرت فى العالم والتى قدمت فى فلورنسا عام ١٥٩٤ هى « دافنى » المشتقة من أسطورة بنفس الاسم فى كتاب مسخ الكائنات .

وترجم كتاب مسخ الكائنات فى إنجلترا خلال القرن الخامس عشر وطبعه وليام كاكستون عام ١٤٨٠ على أول مطبعة صنعت فى إنجلترا . أما أول ترجمة هامة لهذا الكتاب فهى ترجمة آرثر جولدنج التى نُشرت عام ١٥٦٧ . وكان شعر أوفيد يقُرأ إما كاملاً أو كمنتخبات شعرية فى كافة مدارس إنجلترا حتى قبل ترجمة جولدنج .

واقتبس « إدموند سپنسر » الكثير من كتاب مسخ الكائنات فى ملحمته « ملكة الجان » The Faerie Queene . أما شكسپير فأغلب الظن أنه قرأ بعض أوفيد فى الأصل اللاتينى غير أنه من المؤكد أنه قرأ ترجمة جولدنج كاملة . وذهب ناقد معاصر له يدعى فرانسيس ميرز إلى « أن نَفْسَ أوفيد العذبة الذّكية مازالت حيّة عند شكسپير ذى اللسان المعسول » ، وأغلب الظن أنه كان يشير إلى روح أوفيد أكثر مما يشير إلى موضوعات مؤلفاته . ومع ذلك فثمة مواضع فى أعمال شكسپير تدل على التأثر المباشر بموضوعات أوفيد . وقد تكون أشهر الأمثلة ذلك التقليد الساخر لقصة پيراموس وثيزبى التى أدخلها شكسپير فى مسرحيته « حلم ليلة منتصف الصيف » . وثمة مثل آخر فى مسرحيته « العاصفة » حيث نتبينّ أن دعوات پروسپيرو لأرواح الجان شديدة القرب من تعاويذ ميديا فى الكتاب السابع من مسخ الكائنات ، وتحكى أول قصيدة كتبها شكسپير وهى « ڤينوس وأدونيس » حكاية واردة عند أوفيد .

ومع أن شعر ميلتون كان أقرب ما يكون إلى شعر ڤيرچيل أسلوباً غير أنه أولع بكتاب مسخ الكائنات ولعاً شديداً ، حتى لقد كتب بعض الأشعار باللغة اللاتينية يُذَيِّل بها مجموعة من الصور المطبوعة على لوحات محفورة تمثّل بعض مواقف كتاب مسخ الكائنات .

وظهرت فى عام ١٦٢٦ ترجمة ثانية مشهورة لكتاب مسخ الكائنات « لجورج ساندز » بعنوان طويل هو « مسخ الكائنات لأوفيد مترجمة إلى الإنجليزية ومعالجة علاجاً أسطورياً ومزوّدة بصور تفسيرية » . وفى أواخر القرن السابع عشر ترجم الشاعر الإنجليزى « چون درايدن » أجزاء كثيرة من مسخ الكائنات وكان الجزء الخامس عشر يعُد أرفعها شأناً ، ونشر هذه الترجمات إلى جانب ترجماته الشعرية لقصص من هوميروس وتشوصر وبوكاتشيو تحت عنوان « حكايات قديمة وجديدة » .

وفى القرن الثامن عشر كان الإلمام بكتاب مسخ الكائنات لأوفيد جزءاً من تربية كل مثقف . وكان كتّاب ذلك العصر كثيراً ما يترجمونه إلى الشعر الإنجليزى ، وذكر « ألكسندرپوپ » أنه ترجم أكثر من رُبْع

كتاب مسخ الكائنات كممارسة أدبية ولكنه لم يعُدّ للنشر إلاّ مقطوعتين هما قصة « دريوبي » وقصة « پومونا وڤيرتومنوس » . وبعد القرن الثامن عشر أخذت شهرة أوڤيد فى الاضمحلال ، فلم يتحمّس له شعراء العصر الرومانسى ولو أن استلهامه واضح بعض الشىء فى شعر كيتس وشيلى وبايرون وبراوننج .

٦

وإذا كان لعبقرية أوڤيد التصويرية فى شعره أثر كبير فى آداب أوربا الغربية منذ فجر العصور الوسطى حتى أوائل القرن التاسع عشر فلا شك أنه كان لشعره أيضاً الأثر نفسه فى الفنون التشكيلية . وكانت موضوعات الفن التشكيلى فى أوربا الغربية منذ أوائل العصور الوسطى تختلف بين اثنين : قصص الكتاب المقدس من ناحية مع الاهتمام خاصة بحياة المسيح وموته ، ومشاهد الحياة اليومية المعاصرة من ناحية أخرى . كذلك اختلطت التصاوير الذاتية التى بدأت تظهر فى ذلك الحين لرعاة الفنون من الحكام والأثرياء بتصوير الموضوعات المقدّسة أو بتصوير الحياة اليومية .

وقد شهد بدء عصر النهضة فى إيطاليا مصدراً جديداً للفن هو العنصر القصصى فى شعر أوڤيد الذى غدا موضوعاً جديداً يُصوَّر بجانب الموضوعات الدينية والاجتماعية ، وذلك بعد أن تحوّل رجال الكنيسة عن تحريمهم الأول لموضوعات أوڤيد لما تحويه من زندقة ودينونة بالحسّية . وقد ساير هذا الاتجاه الجديد فى الفن نهضة العلوم والآداب الإغريقية واللاتينية القديمة المعروفة بـ « المذهب الإنسانى » والتى تُعدّ عند كثير من المؤرخين الأساس الفكرى والذّوْقى لما يسمى بعصر النهضة فى أوروبا .

وكان « لمسخ الكائنات » بطبيعة الحال أثر كبير فى تزويد خيال الفنانين بموضوعات شتى تتجاوز نطاق ما ألفوه من قبل ، وخاصة أن تعدّد الترجمات لهذا الكتاب قد ساعد على ذيوعه بين العامة والخاصة على السواء ، فضلاً عن أنه بالنسبة للدارسين والمثقفين كانت اللغة اللاتينية أكثر شيوعاً من اليونانية ، وهو ما أفسح المجال أمام قرائه . كما أن وجود الأساطير مجتمعة فى كتاب واحد قد أعان كثيراً على استيعابها فى سهولة ويسر .

وعلى سبيل المثال نستطيع القول بأن أسطورة « پيرسيوس » وانتصاره على الجورجونة ميدوسا قد كُتبت لها الحياة فى خيال العصور التالية لعصر النهضة فى تمثال برونزى « لبنڤنوتو تشلّلينى » ، وأن أسطورة مسخ « دافنى » شجرة غار قد كُتبت لها الحياة هى الأخرى فى تمثال « برْنينى » المرمرى ، وأن الأسطورة المشهورة لاختطاف « أوروپا » لا نتصوّرها إلاّ من خلال لوحات « پوْلُو ڤيرونيزى » و « كُورِجْيو » و « پييرو دى كوزيمو » . أما قصة مغازلة « ڤيروتومنوس لپومونا » فقد أصبحت ترتبط فى أذهان الناس بتصويرها فى النسجيّات المرسّمة التى أنتجتها مناسج بروكسل فى القرن السادس عشر .

ومن أدلّة ذيوع كتاب « مسخ الكائنات » ما قاله أحد نقاد الفن واسمه كارلو ريدلفى فى كتاب له عن فنون عصره سماه « روائع الفن » (١٦٤٨) من أن فنانى عصره باتوا لا يستطيعون العثور على مصدر أكثر إثارة لخيالهم من كتاب « مسخ الكائنات » لأوڤيد لا لأنه موسوعة أساطير قديمة فحسب ، بل لأن أوڤيد فى شعره الواصف يُهْدِى الفنان إلى الطريقة المُثلى لتصوير الموضوع من خلال دقة تجسيده اللفظى لمواقف الأساطير المختلفة .

ولا مجال هنا لأن أستطرد فى اختيار نماذج التصوير أو النحت التى استوحاها أعلام الفنانين على مسرى السنين من كتاب « مسخ الكائنات » وإلا لاقتضى ذلك مجلّداً بأكمله ، ولذلك فقد اجتزأتُ بانتقاء أهم هذه الأعمال وجمعتُها فى دليل ألحقته بهذه الترجمة(٥) . وأغرانى هذا البحث عن تأثُّر الفنانين التشكيليين بأعمال أوڤيد على أن أضيف دليلاً آخر يضم أسماء المعزوفات الموسيقية والغنائية والراقصة التى استوحاها مؤلفوها من المصدر نفسه(٦) .

يقول كنيث كلارك فى كتابه « المناظر البرّية تتحوّل إلى فن » : هناك شاعران فحسب من العصر القديم هما أوڤيد وڤرچيل اللذان ملأ مخيّلة الفنانين فى عصر النهضة . وعلى حين كان أوڤيد أحبَّ الشعراء إلى مصوّرى الشخوص لما فى شعره من وصف واضح وتفصيلى للقصص الخرافية كان ڤرچيل هو مصدر الوحى لمصوِّرى المناظر البرّية .

ويقول إروين پانوفسكى فى كتابه : [مشاكل إيقونوغرافية متعلّقة بتتسيانو] : « كلما أراد تتسيانو أن يقصّ حكاية حقيقية كان يستوحيها من كتاب « مسخ الكائنات » لأوڤيد باستثناء موضوع لوكرتسيا الذى كثيراً ما اجتذبه ، إذ أنه كان قليل الاهتمام بالموضوعات الكلاسيكية التى لا تمتّ إلى الأساطير بصلة » . وحسبنا فى هذا الصدد أن نَقْدُرَ جَهْدَ أوڤيد حقّ قدره الذى بدأت الدراسات الإنسانية الغربية تُعنى به منذ حوالى عام ١١٠٠ إلى يومنا هذا . فليس ثمة كاتب كلاسيكى آخر تناول مثل ما تناول هو من موضوعات أسطورية ، وليس ممن كتبوا فى هذا الموضوع من يضارعه فى إقبال الناس على أعماله بالقراءة والترجمة والتفسير والتعليق والتصوير . وليس فى هذا ما يدعو إلى العجب ، فلم يكن عبثاً أن طُبعت طبعات عديدة من كتاب « مسخ الكائنات » لأوڤيد والتعليقات عليه كما ذكرنا قبلُ ، وقد تضمّن عنوان أغلب هذه الطبعات عبارة « إنجيل الشعراء » بين الفرنسيين و « إنجيل المصوّرين » بين الألمان .

وكانت صلة تتسيانو بهذا الشاعر الذى « عاش بين عالمين » كما كان يُدعى صلة خاصة ، فمما لا شك فيه أنهُ أحسّ بالوشائج القوية التى تربطه بكاتب يتميّز بالعُمق وبسرعة البديهة وبالنزعة الحسّية فى الوصف ، كما يتميّز أيضاً بإيمانه بمأساة خضوع الإنسانية لنواميس القضاء والقدر . وكانت هذه الصلة الروحية هى التى أتاحت لتتسيانو أن يؤوِّل نصوص أوڤيد تأويلات تجمع إلى الحَرْفِيَّة التصرُّف ، كما كان

(٥) انظر الملحق الأول : دليل المنجزات الفنية التشكيلية المستوحاة من كتاب « مسخ الكائنات » لأوڤيد .

(٦) انظر الملحق الثانى : دليل الأعمال الموسيقية والغنائية والراقصة المستوحاة من كتاب « مسخ الكائنات » لأوڤيد .

يُعنى عناية كبرى بالتفاصيل كأن يُطلق العنان لروح الابتكار تشيع فى جوانبه دون كبت . وليس ثمة فنانٌ كبير مثله اهتم بالقصص الأسطورية واعتمد أكثر ما اعتمد هو على أوفيد ، فهو يستطيع من جملة واحدة فى النص أن يصوّرها وقد أودع فيها انطباعات شتى لها شأنها . ومع ذلك فلم يقتصر اقتباسه على نص أوفيد وحده بل كان شأنه شأن غيره من كبار الفنانين يعود إلى مصادر أخرى يستمدّ منها إلهامه ، باستثناء حالة فريدة استطاع فيها أن يغيّر من دلالة النص تغييراً جوهرياً . فلا عجب إذن إذا كان تتيسانو بوصفه مترجماً لأوفيد قد كانت له الحرّية المطلقة فى استخدام جميع أنواع النماذج المرئية قديمة كانت أم حديثة ، غير متأثر بالتيار التصويرى فى هذا المجال الذى ازدهر من حوله فى كثير من الطبعات المصوّرة والترجمات والتفسيرات المرقّنة لكتاب مسخ الكائنات .

وكنت قد ضممتُ إلى مقدّمة الطبعة الأولى من هذه الترجمة تسع عشر لوحة للفنان تتسيانو تمثّل بعض الأساطير التى جاءت بالكتاب ، وكذا مائة وتسع وعشرين تصويرة إيضاحية أبدعها الفنان ب . پيكار يعاونه فنانون آخرون فى طبعة قديمة لكتاب « مسخ الكائنات » صدرت عام ١٧٣٢ بأمستردام باللغتين اللاتينية والإنجليزية وبتعليق باللغة الفرنسية للأب بانييه ، وقد طُبعت على أصل حجرى محفور(٧) . وهو كتاب من القِطْع الكبير فيه النص اللاتينى فى نهر ، وفى نهرٍ أمامه ترجمة شعرية بالإنجليزية بعضها للشاعر الكبير چون درايدن (١٦٣١ — ١٧٠٠) والبعض الآخر للشاعر الشهير ألكسندر پوپ (١٦٦١ — ١٧٩١) . وقد كانت هذه الصور التى ضممتُها إلى تلك الطبعة من الكثرة بمكان مما زاد فى ضخامة هذا الكتاب ورفع سعره فعزّ اقتناؤه على الجماهير ، وهو ما دفعنى إلى أن أستبدل بها فى الطبعتين الثانية والثالثة مجموعة أخرى من الصور أقل عدداً وإن كانت لا تقلّ قدراً ، فجاءت فى ثلاثين تصويرة خطّية نادرة للفنان پابلو پيكاسو رسمها خصيصا لكتاب « مسخ الكائنات » ، وتفضّلت دار الكتب القومية بباريس فسمحت لى بنقلها عن نسختهم الفريدة ، هذا إلى رسم آخر للفنان نفسه يمثل أسطورة موت أورفيوس بالفصل الحادى عشر .

وكان پيكاسو قد أخذ حوالى عام ١٩٢٣ فى رسم بعض اللوحات المستقلة التى تصوّر رؤوس رجال ونساء تضم معاً وجهين متراكبين أو متجاورين على جسد واحد ، ضارباً صفحا عن المظهر الحقيقى المرئى للشخوص طالما أننا لا نستطيع أن نرى سوى جانب واحد منها . غير أن پيكاسو الثائر المتمرّد لم يلبث أن

---

(٧) Lithography الطباعة بواسطة الحجر هى استنساخ اللوحات بعد رسمها بقلم شمعى أسود على سطح الحجر الجيرى الأملس الدقيق الذرّات والمسام ، ثم يُغمر الحجر فى الماء حتى يتشبّع به ، مع ملاحظة أن السطح المغطّى بالشمع يطرد الماء على حين تمتص المسام الحجرية عن الشمع الماء ، فإذا دارت الأسطوانة المُشبعة بالحبر على سطح الحجر استقر الحبر على الأسطح المغطّاة بالطبقة الشمعية التى مرّ عليها القلم ، على حين لا يلتصق الحبر بالأجزاء المبلّلة ، حتى إذا تم بسط الورق على الحجر بعد تحبيره والضغط عليه انطبعت الصورة عليه بشكل عكسى بنفس الدقة التى رُسمت بها بالشمع على الحجر . وقد ابتكر هذه الطريقة سويسرى يُدعى سينفلدر سنة ١٧٩٦ فغدت من أكثر وسائل طبع اللوحات المرسومة إتقاناً [المعجم الموسوعى للمصطلحات الثقافية . لونجمان ١٩٩٠ « م.م.م.ث »] .

عدل عن هذا الاتجاه ، مُهْملاً تصوير الوحدة المظهرية للشيء المرنو إليه ، مهتماً بتصوير مظاهره المتعاقبة ، محقّقاً بذلك نوعاً من الحركة الزمانية ــ المكانية للوضعات المختلفة فى الفراغ . ثم عاد فى عام ١٩٢٧ فهجر هذا الأسلوب متمسّكاً بأهداب التقاليد الفنية ، وخاصة فى لوحاته التى استخدم فيها طريقة الحفر الحمضى Eau - Forte على الزنك أو النحاس لطباعتها بعد ذلك على الورق(٨) ، مضمّنا رسومه نماذج لنساء عاريات أو مكتسيات ولشخوص تُعدّ إرهاصة للأسلوب الموفّق الذى استخدمه فى رسومه الثلاثين الخطّية(٩) لكتاب « مسخ الكائنات » وغيره من الروائع .

وفى عام ١٩٣١ طبع ألبرت سكيرا فى لوزان ثلاثين لوحة من تصاوير پيكاسو مع النص الكامل لكتاب « ميتامورفوزس » فى نسخ محدودة هى الآن مبعثرة فى جهات مختلفة من أنحاء العالم ، وصفحاتها متنازعة بين المتاحف وبين أيدى الهواة ، وأصبح جمع هذا الشّتات اليوم من الصعوبة بمكان . وقد استطعت بعد تذليل مصاعب جمّة الحصول على مجموعة الصور كاملة نشرتها فى الطبعة الثانية من هذا الكتاب ، وأعيد نشرها هنا فى الطبعة الثالثة(١٠) .

وأغلب الظن أن پيكاسو قد أتم هذه الرسوم دفعة واحدة ، وهى تستمد قوتها وأناقتها ــ كما يلمس القارىء ــ من الخطوط المحوّطة(١١) النابضة بقوة التعبير ، ومن تلقائية الفنان الجيّاشة ، ومن تركيزه الذى كان يقصد فيه إلى الاهتمام بمواضع من الجسد أكثر من غيرها .

وقد أصاب پيكاسو التوفيق فى الإفصاح عما أحسّه وتخيّله ، فالرسم ــ فيما أظن ــ إذا خلا أحياناً من التحوير كان رسماً جامداً لا ينبض بانفعال أو تعبير . ومن هذا المنطلق شاع الزعم بأن ثمة صلة بين پيكاسو وآنجر مصور القرن التاسع عشر الذى عمد إلى الخروج على الواقعية بخطوطه الأرابيسكية(١٢) المنحنية النابضة بشهقة أوتار الكمان حين تعلو على أنغام جوقة الأوركستر ، فأضاف فقرات إلى العمود

---

(٨) Etching الطباعة بطريقة الحفر بالإبرة (الخربشة) على سطح معدنى . هى نوع من أنواع حفر الرسوم على صفحات معدنية من الزنك أو النحاس بعد تغطيتها بطبقة شمعية أو برنيقية تشقّها أداة الحفر ، وهى سن مدبّبة رفيعة . ثم تُغمر الصفحة بطناً لوجه فى الحامض الذى يتخلّل الخدوش فينفذ إلى السطح المعدنى ليغور فى مواضع تلك الأخاديد . وينزع الفنان الطبقة الشمعية ويغسل الصفحة لإزالة آثار الأحماض ، ثم تُمرَّر الأسطوانة المشبّعة بالحبر على الصفحة المعدنية حتى تمتلىء الفجوات الغائرة بالحبر الذى يبقى فيها . وبعدها يُجفّف السطح الخارجى ، وبهذا تصبح الصفحة صالحة للطباعة فتوضع فى المكبس لتنطبع الأخاديد المشبّعة بالأحبار على سطح الورقة [م.م.م.ث] .

(٩) Linear التشكيل الذى يعتمد فى تأثيره على المُشاهِد على الأشكال المكونة بالخطوط أكثر من اعتماده على الكتل اللّونية والتظليل [م.م.م.ث] .

(١٠) ظهرت هذه اللوحات فى طبعة سكيرا فى غير أماكنها من فصول الكتاب ، ولقد حاولت جهدى أن أضعها فى أماكنها الحقة من فصول الكتاب فى هذه الطبعة مستعيناً بالنص .

(١١) Outlines أو الحواف المحوّطة أو الحدود الخارجية ، وهى ما يحيط بجسم أو مساحة ما من حدود تكون فاصلة بين أى منها وبين الفراغ رسماً وتصويراً سواء أكانت فواصل خطّية أو فوارق لونية [م.م.م.ث] .

(١٢) Arabesque الخط الرشيق المتأوّد المتّسق المنغّم (م.م.م.ث] .

الفقرى وأسبغ انتفاخاً على العنق ، كما هى الحال فى لوحة « المحظية » المشهورة بمتحف اللوفر ولوحة « إيفيجينيا وثيتيس » بمتحف إكس ، وهكذا انتصر الخط المنغّم « الأرابيسك » وانحنت الواقعية أمامه مستسلمة . فآنجر لم يبال بأى تحريف تشريحى حتى يتيح لخطوطه البروز بكمالها كله للتعبير عن خط متناغم لا يعنى بمطابقته للواقع ، فكان قصاراه أن يحفظ لهذا الخط المحوّط تأثيره النورانى ، وجاء من بعده پيكاسو فاستعار هذا الخط النورانى فى رسومه كافة . ولا ندرى أكان أشد تمسّكا بإبراز طرافة المشهد بتسجيل جوهره المحرّك للعواطف ، أم أنه استوحى الفن الإغريقى فى تمسّكه بإظهار جمال الجسد ورفضه التعبير عن التفاصيل التى قد تهوّن من شأنه ؟

على هذا النحو استطاع پيكاسو بمهارة أن يقدّم لنا المثالية الإغريقية بلغة عصرية . ويتجلّى لنا هذا الجهد فى هذا الإنسجام الذى بلغ أقصاه وكذا جمال الخط فى لوحة « يوريديكى » بعد أن لدغت الأفعى كاحلها [الكتاب العاشر] ، فقد كان هذا المضمون كفيلاً بأن يثير فى الصورة الجزَع والهلع ، غير أننا لا نرى فى التصويرة غير جسد بديع يتهاوى فى رفق يُحدِّده خطٌ منحنٍ لطيف يفيض حسّية زاخراً بعطف تابعاتها وهن يُهْرعن إلى حملها وامتصاص السم من موضع اللدغة . ويخلو الرسم مما يشير إلى أن ثمة انزعاجاً ما باستثناء تلميحة جاءت غاية فى البساطة لامرأة تستدير بجسدها طلباً للنجدة .

وثمة عناصر فى هذه التصاوير تشترك كلها فى الإيحاء بقلة اكتراث الفنان بما يمسّ دخيلة نفوس الشخوص المصوّرة ، كالوجوه التى يغشاها السكون والدعة ، ومجموعات النساء والرجال التى تضمّ — فيما تضمّ — الرُّواة والمستمعين . وهو ما يدفعنى إلى مناشدة القارىء ألّا يعبأ كثيراً بخروج پيكاسو على النص منساقاً وراء استقلاليته فى رؤيته الفنية الذاتية . ويصل پيكاسو قمة البلاغة الخطّية فى لوحة مطلع الكتاب الرابع عشر حيث يصور ردْفى أنثى فيما لا يجاوز أقواساً أربع تحوى كل ما يمكن أن تنطلق به مشاعر الإنسان الغريزية أمام هذه المتعة المشتهاة .

ويستعين الفنان لماما بإثراء الملابس ببعض الوحدات الزخرفية البسيطة أو الخطوط المستقيمة ، أو بالإيحاء باستخدام درجات الضوء الثلاثة ، كما هى الحال فى لوحة مطلع الكتاب التاسع ، حيث يعبّر عن الضوء والغبش والعتمة بالخطوط الطولية تارة وبالشبكية تارة أخرى .

غير أن كافة الرسوم تجلو لنا ثقة الفنان بنفسه وتَشَبُّعه بالإحساس بالموضوع المصوّر ، وعدم التردّد فى إسقاط الخطوط على اللوحة ، وتعمّده تجنّبْ استخدام الظلال ، مانحاً التفرّد بالبطولة للخط فى التعبير ، مما يُكسب اللوحات شفافية أثيرية تربطنا بأساطير الماضى . وبالرغم من السكينة التى يوحى بها الخط إلا أنه فى تحوِّيه يُعرب عما يعتلج فى نفوسنا من أحاسيس دفينة .

٧

وكلمة « ميتامورفوزس » التى هى عنوان الكتاب تعنى حرفيا الانتقال من حال إلى حال لا يُشترط فيها حال دنيا ولا حال عليا . وإذ كان الكتاب كله تحوّل من مرتبة عليا إلى مرتبة دنيا غير حالات أربعة : هى تحوّل رومولوس وأينياس مؤسسى روما إلى الألوهية ، وهذا ضرب من إضفاء الهيبة على الدولة بتمجيد زعمائها الأسطوريين ، ثم حالتا تأليه يوليوس قيصر وابنه بالتّبنى قيصر أوغسطس ، وكان ذلك فيما يبدو لى نوعاً من التملق للامبراطور ولم يجر مع الأسلوب الذى ألّف المؤلف الكتاب من أجله أو مع مساق سائر حديثه . من أجل هذا حين آثرت أن أسمّى الكتاب « مسخ الكائنات » لا تحوّلها أو انتقالها غير ملتزم فى ذلك بما جرى عليه من ترجم هذه الكلمة ، جنحتُ إلى ما عليه الغالب من أساطير الكتاب من التحوّل من الحالة العليا إلى الحالة الدنيا ، ثم مسترشداً بما جاء فى القرآن الكريم من استخدام هذه الكلمة التى توحى بأن المسخ كان من أعلى إلى أدنى . يقول الحق : « ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مُضيًا ﴿ يس ٦٧ ﴾ » . ومن هذا كله أجدنى لم أحد فى ترجمتى لهذا العنوان حين جعلته المسخ لا التحوّل ولا الانتقال ، وغاية ما فعلت أنى استوحيت الترجمة من معنى الأساطير الواردة فى الكتاب ولم أقف جامداً عند حرفية اللفظ .

كذلك يرى أصحاب التناسخ أن « النسخ » هو نقل الروح إلى جسم أرفع ، و « المسخ » هو نقل الروح إلى ذوات الأربع ، و « الفسخ » هو نقل الروح إلى الحشرات ، و « الرسخ » هو نقل الروح إلى النبات والجماد[١٣] .

وفى هذا المعنى يقول أبو العلاء المعرّى[١٤] فى التناسخ :

تَـعَـوَّذْ بـالإلـه مـن المسـوخ   وسَـلْهُ أن تكـون مـن النُّسُـوخ
لقـد خـاب امـرؤٌ يُمْسِى ويُضْحِى   يُـنَـقَّـلُ فى فـسـوخٍ أو رسـوخِ

* * * *

وترجمتى هذه تعتمد على الترجمة الإنجليزية للنص التى قام بها الأستاذ « ميلر » فى مجموعة « لويب » الكلاسيكية التى ظهرت باللغتين اللاتينية والإنجليزية وصدرت فى مجلدين ، ثم على ترجمة إنجليزية ظهرت

---

(١٣) لزوم ما يلزم . الجزء الأول . صفحة ٢٢٤ . الطبعة الثانية ١٩٣٠ .
(١٤) لزوم ما يلزم . الجزء الأول . صفحة ٢٢٥ . الطبعة الثانية ١٩٣٠ .

فى مجموعة پنجوين للسيدة « مارى إينيس » فيها شىء من التصرّف ، إذ ثمة فقرات جاءت نثراً مسروداً مبسّطا وهى فى الأصل فقرات خطابية . كذلك اعتمدت على ترجمة فرنسية حرفية للأستاذ « شامونار » ظهرت فى مجموعة الإخوان جارنييه لترجمات روائع الأدبين اللاتينى واليونانى ، فى مجلدين باللغة اللاتينية والفرنسية فى صفحات متقابلة . واستعنت بالمثل بترجمة فرنسية أخرى للأستاذ چورج لافاظ فى سلسلة « مجموعة جامعات فرنسا » نشرت بباريس عام ١٩٢٨ فى ثلاثة مجلدات . وقد آثرت الاحتفاظ بأسماء الآلهة كما وردت فى النص الأوڤيدى ، وهى الأسماء اللاتينية ، مضيفاً إلى أهمها بين قوسين مقابلها اليونانى .

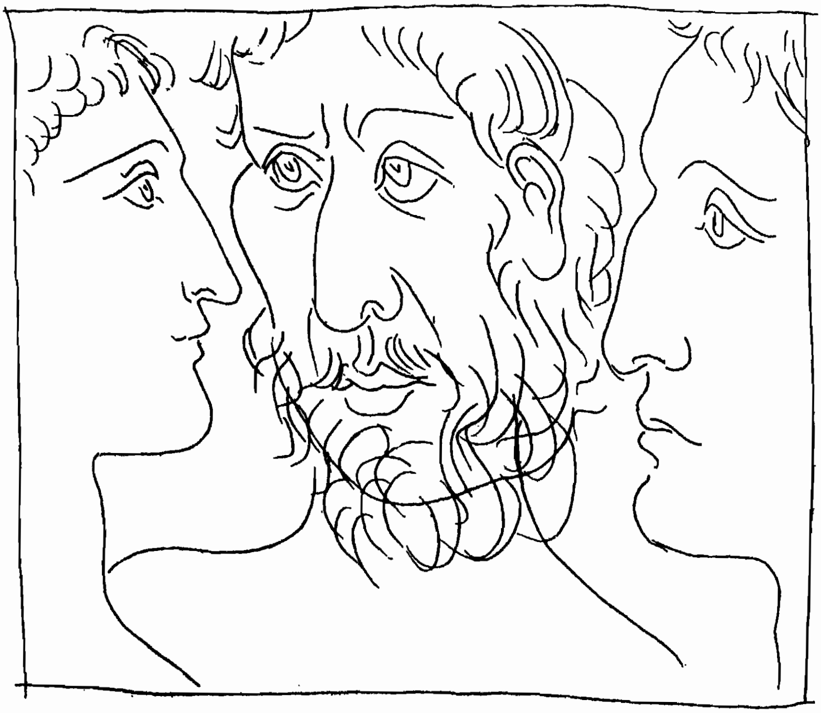
وكانت الرغبة التى استأثرت بوجدانى طوال صياغتى لهذه الترجمة هى أن أقدّم نصّا يتميز إلى جانب أمانته بالنسبة لفكر المؤلف بالبساطة والوضوح اللذين يجتذبان القارىء ويشيعان فى نفسه الإحساس بالمتعة التى يجدها قارىء النص الأصلى فى لغته اللاتينية . وقد واجهتنى خلال هذه المهمة عقبتان : كانت أولاهما هى ازدحام النص بأسلوب الالتفات ، وهو الانتقال المفاجىء من صيغة المتكلم أو الغائب إلى صيغة الخطاب أو عكس ذلك ، وهو أسلوب لا يشيع فى العربية بقدر ما يشيع فى الشعر الملحمى اللاتينى . وقد حاولت قدر جهدى أن أقلّل هذه الانتقالات حيث يصعب فهمها أو تكون مصدراً لبلبلة القارىء . وكانت ثانيتهما إفراط المؤلف فى الاستشهاد بأسماء الآلهة وأبطال الأساطير اليونانية والرومانية التى كانت معروفة أيامها للقارىء العادى فى حين أنها لا تعطى نفس إيحاءاتها ودلالاتها للقارىء العربى المعاصر الذى لم تتح له قراءة معمّقة فى الكلاسيكيات والأساطير القديمة . ومع أنى قد أضفت فى نهاية كل فصل تعقيبات وشروحاً تناولت عدداً كبيراً من أسماء الآلهة والأبطال وشمائلهم إلا أننى سمحت لنفسى أن أقحم هنا وهناك عبارة مفسّرة قصيرة وراء بعد الأسماء أو الأماكن أو الأحداث حتى لا أقطع على القارىء متعته حين يجد نفسه مضطراً لتقليب الصفحات والبحث بين التعقيبات عن تفسيرات لما يقرؤه . ولعلى أكون بذلك قد أعنت القارىء غير المتخصّص على مواصلة المطالعة المُيسَّرة ، دون أن أكون قد أثقلت القارىء المتخصّص بوقفات هو فى غير حاجة إلى التريّث عندها .

وقد قام الأستاذ الدكتور مجدى وهبه بجهد العالم المدقّق الأمين مشكوراً بمقابلة النص اللاتينى لضبط الترجمة وهو النص المطبوع فى مجموعة « جيوم بوديه » بباريس ١٩٢٨ والمأخوذة عن المخطوطة الشهيرة « مارسيانوس ٢٢٥ » المحفوظة بمكتبة « لاورنتيانا » بفلورنسا ، كما رجع فى حالات اللبس إلى الطبعة التى حققها الأستاذ « ميركل » فى لايپزج ، وهى الطبعة الثانية عام ١٨٧٥ .

وحين فكرت فى طبع الكتاب طبعة ثانية رأيت ألا ألتزم بالصياغة الأولى ، فأحوّرُها بعض التحوير ولا أساير النص بحرفيته كما فعلت أولاً بل أنفذ إلى روحه ، فهذا أجدى للقارىء العربى الذى سيجد أنه ليس ثمة خروج عن روح النص لا بقليل أو كثير ، وكما فعلت مع الطبعة الثانية فعلت مزيداً فى الطبعة

الثالثة . وبعد أن راجعها الأستاذ الدكتور مجدى وهبه استأنست بالأستاذ الدكتور أحمد عتمان الذى له هو الآخر ضلاعته فى اللغة اللاتينية حرصاً منى على أن أكون كما قلت قبلُ مسايراً للنص بشاعريته . وكم أسعدنى أنه رآنى على الجادة لم أنحرف قيد أنملة ، فله منى جزيل الشكر .

ثروت عكاشة
ڤولياغمينى فى ١٧ يوليه ١٩٩١



بيكاسو

الكتاب الأول

ها أنذا آخذُ فى الحديث عن تحوّلٍ لكائناتٍ كانت على صورة ثم إذا هى صُورٌ أخرى . وإنى أبتهلُ إليكم أيّتها الآلهة ــ وإليكم زمام ما يجرى فى الكون من تحوّلات ــ العون على بلوغ مقصدى بوحى من إلهامكم أقْوَى به على أن أنسجَ فى قصيدى هذا خيطاً من الشِّعر لا ينقطع ، تنتظم بين طرفيه أحداث الكون منذ بدء الخليقة حتى عصرنا القائم .

أصل العالم

قبل أن تكون أرضٌ ، وقبل أن تكون بحارٌ ، وقبل أن تكون سماءٌ تُظلّ هذا الكون أجمع ، كان ثمة عماء يلفّ العالم كله بردائه ولا يستبين منه غير شكل واحد لا سواه . فكان كتلة مضطربة لا شكل لها ، جماداً لا حياة فيها ، أو جملة من بذور مختلفة لعناصر الأشياء ، ليس ثمة بينها صلة ولا رابطة . ولم تكن ثمة

شمسٌ « تيتان » يفيضُ نورُها على العالم ، كما لم يكن ثمة قمر « فُيبى » له مع كل يوم وجهٌ جديد ، يكمُلُ ثم يعودُ ناقصاً كما بدأ . ولم تكن الأرض بعدُ قد ضمّها الفضاء تتهادى فيه بثقلها ، كما لم تكن المياه « أمفتريتى » قد بسطت ذراعيها على شطآن البرّ . فلقد كانت الأرض والبحر والفضاء كلها ممتزجة لا انفصام بينها . وكانت الأرض تُعْوزها الصَّلابة والبحر تُعْوزه السيولة ، كما كان الفضاء فى عَوَزٍ إلى الأضواء . لم يكن ثمة شيء له شكل مميّز ، و كانت هذه العناصر رغم اختلافها لا تنافر بينها . ثم إنها مع كونها كتلة واحدة كان ثمة صراع بين الحرارة والبرودة ، وبين الوَمَد والجفاف ، وبين الليونة واليُبْس ، وبين الخفّة والثّقل . وكان لابد لهذا الصراع من حاسم ، فتجلّى الإله ــ أو الطبيعة الأكثر طواعية ــ كى يفصل بين الشيء ونقيضه ، ففصل ما بين السماء والأرض ، وما بين الأرض والماء ، وخلّص الهواء الكثيف من الأثير الشّفيف .

وما إن تم له فصل هذا كله وخلّصه من فوضى الكُتلة حتى غرس الوئام والسلام بين هذه العناصر فخصّ كُلّاً بمكانه المميّز ، فإذا اللهب المتأجّج المعدوم الوزن يحتل قبة السماء ويتلألأ فى ذروة بناء العالم ، وإذا الهواء الذى يضارع اللهب المتأجّج خفّة يحتل مكاناً إلى جواره ، وإذا الأرض وهى أكثف منهما معاً تشدّ إليها العناصر المتماسكة فتتراكم بعضها فوق بعض ، وإذا الماء الذى كان يحيط بكل شيء يحتلّ ما خلا فى الوجود ويلفّ تلك الكتلة الصلبة الأسطوانية .

وما إن فرغ الإلهُ ــ أىّ إلهٍ كان ــ من هذا التقسيم والتنسيق لتلك الكتلة المتراكمة التى لم تكن على شكل ما ، حتى أخذ يجمع بين هذه الأجزاء المختلفة فى تماسك كى يجنّب الأرض أن يختل أىّ قطر منها ، من أجل ذلك سوّاها كرويّة ضخمة . وكان أن امتدت مياه البحر بفعل أنفاس الريح الهوجاء ، فإذا هى تُمنطق الأرض . ولكى يبلغ الأمر مداه فجّر الينابيع وأفاض المستنقعات التى لا حصر لها ، وشقّ البحيرات ، وحبس الأنهار بين ضفافها كما وزّعها على سطح الأرض . فمنها ما يُفضى إلى بحر فتختلط مياهها بمياهه وتفنى فى ذاك الخضمّ ، ثم تعود ثائرة فترتطم بالبرّ ، ومنها ما لا ينتهى إلى بحر وتبتلعه الأرض فى جوفها . كما بسط السهول وخدّد الوديان ، وجعل الغابات تُونِع بأوراق الأشجار الوارفة ، ورفع قنن الجبال الصخرية . وإذ كان قد قسّم السماء مناطق : اثنتين إلى اليمين واثنتين إلى اليسار ، وبين هاتين وهاتين خامسة أشدّ حرارة ، كذلك قسّم الأرض التى تُظلّها السماء مناطق بأمره تتناسب مع مناطق السماء عدّا ، فالوسطى لا حياة فيها لشدّة قيظها ، وغطّت الثلوج منطقتين من هذه المناطق ، وبقيت الوسطيان بين هذين الطرفين تستمتعان بمناخ بين البرودة والحرارة[1] .

وفوق هذا كله حلّق الهواء بما رُزق من خفّة لم تُرْزقها الأرض والمياه بثقلها ، وكانت خفّة الهواء دون خفّة النار . وأقرّ هذا الإله الضّباب والسّحاب مقرّهما فى الهواء ، كما جعل للرعد مقراً ، هذا الرعد الذى يثير الخوف فى أفئدة البشر . وكذلك جعل للرياح مقرّها ، تلك الرياح التى تتّحد مع الصواعق فينفذ من خللها البرق . غير أن هذا الإله مهندس الكون ــ حرصاً على بقاء العالم ــ لم يترك تلك الرياح تجرى على

أعنّتها تهبّ من حيث تشاء وكيف تشاء بل جعل لكل ريح مهابّها ، على الرغم من أنها إلى اليوم عصيّة على أن تخضع لنظام فى مهابّها ، إذ أن ثمة تنافر شديد بين الرياح الإخوة : فريح « إيوروس » تهبُّ من مناطق ربّة الفجر ومملكة النبط فى بلاد الفرس ومن سلاسل الجبال التى تكلِّل أشعة الفجر قممها . وريح النسيم « زفيروس » تهبُّ من مكان نجمة الليل والشطآن التى تشعّ عليها الشمس فى غروبها فتخلِّفها دافئة . أما الريح اللافحة « بورياس » فتهبّ من بلاد السكوثيين [السكيثيين] وشتى نواحى الشمال . وريح « أوستير » على غير مهابّ الرياح كلها وتجلب إلى الأرض سُحُباً لا تفتأ ممطرة فى غزارة . ثم خلق الإله الأثير الذى لا وزن له ولا تعلق به شائبة من شوائب الأرض . وما كاد يفصل بين هذه العناصر أجمع ويجعل لكل منها حدّاً حتى أخذت الكواكب تتألّق فى رقعة السماء بعد احتجابها طويلاً فى طيّات الكتلة التى كانت تُكنها .

ولكى تستمتع الكائنات الحيّة بوجودها أجرى الكواكب فى فسيح السموات فى رعاية آلهة مجسّدة . واتخذت الأسماك بحراشفها البرّاقة المياه مسارب لها ، واحتضنت الأرض الحيوان منذ نشأته الوحشيّة الضّارية ، كما احتضن الهواء فى تموّجه الطّير . وكان ثمة كائن غاب عن هذا كله ، على الرغم من أنه كان أكثر المخلوقات انطباعاً بطابع الآلهة ، هذا إلى ما تميّز به من ذكاء مفرط فرض به سلطانه على سائر المخلوقات ، فكان الإنسان . ومن يدرى لعل إله هذا الكون الذى صوّر العالم على تلك الصورة البديعة هو الذى خلق الإنسان من بذرته ! أو من يدرى لعل الأرض فى عنفوانها حين نبذت عنها طبقات الأثير كانت قد انطوت على بذرة من صُلب أخيها ربّ السماء ! ثم أتى پروميثيوس بن ياپيتوس[٢] فقبض قبضة من تراب الأرض وعجنها بماء المطر وسوّاها إنساناً على صورة الآلهة المهيمنة على كل شىء . وعلى حين خُلق الحيوان مكبّا بوجهه على الأرض لا يطالع سواها ، خُلق الإنسان مشرئبّاً بوجهه إلى السماء متأمّلاً فيها داعياً ربّه أن يشدّ بصره بالكواكب . وهكذا تحوّلت الأرض من كتلة غليظة غير مميّزة إلى أشكال جديدة ، هى أشكال البشر .

وكان ثمة عصر ذهبى فى بدء الخلق أظلّ قوماً على إيمان عميق ومبادىء سامية ، لم يشرّع لهم قانون يلزمون حدوده أو يخافون عقابه ، وعاشوا ليس لهم وازع غير الضمير : فلا قضاة يفصلون بينهم ، ولا حكّام يجازونهم ، إذ لم يكن ثمة نزاع أو عدوان ، وكان الناس حيث هم : لا هجرة ولا نزوح عن أرضهم . ولم يكن جذع شجرة الصنوبر قد اقتُلع بعدُ من مكانه فوق الجبال ليطفو فوق الخِضمّ المائج ويطوّف حول العالم ، ولم يكن البشر على علم بغير تلك الشواطىء التى نشأوا عليها . ولم تكن القلاع تحوطها الخنادق المغمورة بالمياه ، ولم تكن قد ظهرت تلك الأنابيب النحاسية التى اتُّخذت بعدُ أبواقاً مستقيمة ولا القرون المعوجّة . ولم تكن ثمة خوذات ولا سيوف ، إذ كان الناس آمنين لا تفزعهم حروب ، ولا هم فى حاجة إلى جيوش تدفع عنهم شرّ المعتدين . وكانت الأرض تؤتى أُكُلَها دون عزق أو حرث والناس بما لديهم من طعام قانعون . فهم وادعون لا يكدّون ولا يعملون ، يأتيهم رزقهم رغداً من بلّوط چوپيتر[٣] الممتدة فروعه ، ومن ثمار الشجيرات ، وتوت الجبال ، وأعناب البرارى العالقة بالغصون الشائكة . وكانت

النسمات الرّخية تحمل عبق الزهرات فى ربيع لا ينتهى فتنتشر فى الجو أريجها . . ومرّت الأيام ، فإذا الأرض تكتسى بعيدان القمح ، وإذا سنابله الثقيلة البيضاء تحيل رقعة الأرض ناصعة ، وساد الربيع الأعوام فلا برد ولا مطر ، وفاضت الأنهار لبنا ونكتارا [شراب الآلهة] ، وسالت الأشجار شَهْداً ذهبيّ اللون .

ووقع ساتورن(٤) [كرونوس] أسيراً فى يد چوپيتر [زيوس] فألقى به فى ظلام تارتاروس وانفرد هو بحكم العالم ، وكان من هذا بداية العصر الفضى الذى حلّ محل العصر الذهبى وإن كان مع ذلك فى مرتبة أدنى منه وأرقى من عنصر البرونز المُصْفَرّ السُّمرة الذى تلاه . واختصر چوپيتر فصل الربيع الذى كان يمتد على مدار السّنة فى العصر السابق ، وقسّم السنة إلى فصول أربعة : شتاء وصيفا وخريفا متقلّبا وربيعا قصير
١٢٠ الأمد ، وجعل الهواء بين بارد وحار ، وظهرت الثلوج بين الأعاصير العاتية ، وأخذ الناس يبحثون عن مأوى يقيهم المطر ، فلجأوا إلى الكهوف والأدغال . ومضى الناس يكدّون فى فلح الأرض وحرثها ، ويبذرون فيها حبوب الحِنْطة التى جادت بها عليهم سيريس [ديميتير عند الإغريق] ، وأخذت الثيران تئن تحت نير المحاريث .

ثم كان العصر الثالث ، وهو عصر البرونز ، الذى طُبع الناس فيه بطابع من الغلظة والقسوة فاستسلموا للمنازعات وشاعت بينهم الخصومات ، غير أن الشرّ لم يكن قد غلبهم على كل أمورهم .

ثم كان أخيراً عصر الحديد الصّلب الذى اشتق اسمه من معدن أقل قدراً ، حين برزت الجرائم فى أبشع صورها وغاب الحق وانمحى الصدق ووُئد الوفاء واختفت الطاعة وطغت الغطرسة والخيانة وساد الطمع والخداع وتفشّت القسوة . وأعدّ البحّارة أشرعة ينصبونها للريح وهم بعدُ على غير معرفة معمّقة بالسفن وأشرعتها ، واصطنعوا من الأشجار التى كانت تُزْحم سفوح الجبال الشامخة سفناً تمخر عباب البحر بفعل قلاعها المنتفخة وأثر الرياح ، تتقاذفها أمواج المحيطات وتأخذها بعيداً بعيداً عن موطنها . وتجزّأت الأرض وراء حدود بعد أن كانت مِلْكا مشاعاً بين الجميع يستمتعون بها استمتاعهم بالشمس والهواء ،
١٤٠ وجرى الناس يكدّون بحثاً عن القوت ، ويحفرون الأرض منقّبين عن معادنها المخبوئة فى أحشائها ، وامتد بحثهم حتى أدركوا مملكة الظلال قرب نهر ستيكس ، وانتزعوا من أعماق الأرض تلك الأشياء التى غدت مصدر آلامهم ، فاستخرجوا الحديد وكانت معه الويلات ، وأتبعوه بالذهب وكان أشد من الحديد وَيْلاً ، إذ كان كل من الحديد والذهب عوناً لهم على الحرب والقتال . وبالأيدى الآثمة شُهِرت السيوف لتلقى السيوف مصلصلة مجلجلة .

وعاش الناس على السلب والنهب لا يأمن الضيفُ مضيفَه ، ولا يطمئن الزوجُ لحميه ، ولا يثق الأخُ بأخيه ، وغاض الودّ من صدور الناس ، وأصبح كل من الزوج والزوجة مصدر شقاء للآخر ، وغدت زوجات الآباء تدسسن السّم فى الطعام لأبناء أزواجهن ، والأبناء يتآمرون على موت آبائهم وعلى الخلاص منهم ، وحلّ العقوق بالوالدين محل البِرّ بهم ، ولم يعد للتقوى مكان فى القلوب ، كما خرج الناس على

طاعة آلهتهم ؛ فعمّ الأرض البلاء وسالت الدماء ، فهجرتها أسترايا العذراء[٥] آخر من كان على الأرض من أرباب السماء .

العمالقة

وتطلّع العمالقة إلى الأثير لا يبغون أن يكون أمناً كما لم تعد الأرض أمناً ، ولكى يغزوا ملكوت السموات جعلوا الجبال جبلاً فوق جبل حتى يرقوا إلى حيث النجوم . وعندها أرسل عليهم سيّد الكون القدير صواعقه : فتداعى جبل أوليمپوس ، وتزحزح جبل پيليون من فوق جبل أوسّا ، وإذا تحت ذلك الركام الهائل جثث العمالقة هامدة ، وإذا الأرض قد غُطّيت صفحتُها بدماء أبنائها العمالقة .

ولكى تبقى الحياة متصلة ، قيل إن الأرض قد نفثت من روحها فى هذا الدم الدافىء فكانت مخلوقات لها سمات البشر عمرت الأرض من جديد . غير أنه سرعان ما خالف هؤلاء أمر الآلهة وثارت فيهم ثائرة ذلك الدم المسفوح الذى خلقتهم الأرض منه ، فغلظت قلوبهم وعدا بعضهم على بعض[٦] .

ليكاوون

ورأى ربّ الأرباب ، ابن ساتورن ، ما حاق بالأرض فثار مغضباً وزفر زفرة مدوِّية وقد تمثّلت فى ذهنه وليمة ليكاوون الرهيبة التى لم يكن يعلم علمها أحد من أفراد ملكوته ، فدعا الآلهة إلى مجلسه واستجابوا له طائعين ، سالكين سبيل المجرّة التى تُرى وضّاءة عندما تكون السماء صافية حتى انتهوا إلى حيث يقيم ربّ الصواعق الجليل . وكانت من حواليهم إلى اليمين وإلى الشمال بيوت كبار الأرباب الغاصّة بهم ، وهو المكان الذى لا أجد حرجاً لو أُوتيت شيئاً من الجرأة فى أن أُطلق عليه اسم پالاتينوس السموات العلى[٧] ، على حين كانت دور صغار الأرباب موزّعة هنا وهناك مختلفة عن تلك كل الاختلاف . وفى قاعة من الرخام انعقد مجلس الأرباب ، وقام كبيرهم على منصّته معتمداً على صولجان من العاج ، وهزّ خصلة شعره الرهيبة مرات ثلاثا أو أربعاً فارتجّت الأرض واضطربت النجوم ، ثم خطبهم بقوله : « لم أحسّ قط بمثل ما أحسّه اليوم من قلق على ما يسود النظام العالمى من اضطراب ، حتى ولا يوم حاول العمالقة ذوو أذيال الأفاعى أن يلفّ كل منهم أذرعته المائة حول السماء لكى يستولوا عليها ، ولقد كادوا يفعلون لولا أنهم كانوا قلة ولم يكن ثمة من يشاركهم هذا الشرّ . وإن أَخْوَفَ ما أخافه أن يمتدّ هذا الشرّ إلى غيرهم فيستفحل الخَطْب ، لذا كان لا معدى عن إفناء البشر كافة فلا يبقى منهم أحد فى العالم الذى تحيط به تلك البحار الصاخبة . أُقْسِمُ بأنهار العالم السفلى التى تسرى فى غيضة ستيكس المندسّة فى أعماق الأرض أن قد

جهدت فى أن أقوّم أمرهم ما استطعت ، غير أن ذلك لم يُغْن شيئاً وكان لزاماً أن يُجتث الشرّ من جذوره . غير أن أنصاف أرباب وأرواحاً وحوريات وساتيرا وجانًا فى الغابات والتلال[٨] لم نكن قد أفسحنا لهم مكاناً فى السماء ، لذا كان علينا أن نهيىء لهم حياة على الأرض ، وما ظنّى بأنهم ناجون من شرّ ليكاوون الذى أعقب خمسين من الجاحدين وحاك الدسائس من حولى ، وأنا ربّ الصواعق وزمامها فى يدى ، بل وربّكم أيضاً » .

وهَمْهمَ الأرباب وزمجروا وغمرهم شعور من الذعر أشبه بذلك الذى غمر الناس حين حاولت فئة متمرّدة إخماد شعلة روما عندما انتهى إليهم خبر مقتل قيصر[٩] ، فلقد أُلقى فى روعهم أن ثمة دمارا سيحيط بالعالم يهزّه من جميع أركانه . من أجل هذا نادى الأرباب بإنزال العقاب على من كان سبباً لهذا البلاء . وكما أن ولاء رعاياك يُشيع السرور فى قلبك يا أوغسطس ، فكذلك كان يَسْعَدُ چوپيتر بولاء أتباعه من الأرباب . ولكن چوپيتر ربّ الأرباب ردّهم إلى سكونهم بإشارة منه ثم قام فيهم خطيباً فقال : « لقد نال جزاءه ولم يعد يُخشى بأسه ، وإليكم ما فعل وما ناله على ما فعل . فلقد انتهى إلىّ أن ثمة مرجفات تؤذن بنُذُر فى هذا الزمان الذى يُظِلُّنا فهبطتُ من عليائى فى الأوليمپوس على الأرض فى صورة آدمى ، ورأيت ، ويا هول ما رأيت ! فلقد سمعت دون ما وقع عليه بصرى . وجُزْت جبال ماينالوس إلى بلاد تعجّ بالحيوانات المفترسة ، ومنها إلى كيلينيه ، ثم إلى ليكايوس القارسة البرد حيث غابات الصنوبر[١٠] . وما إن آذنت الشمس بمغيب وأوشك الليل أن يرخى سدوله ، حتى كنت على باب منزل ليكاوون طاغية[١١] أركاديا . وعندها خلعت عنى صورة الآدمى وعُدْتُ إلى ألوهيتى . وما إن رآنى الناس حتى ازدحموا حولى مصلّين خاشعين ، فأثار ذلك سخرية ليكاوون وقال للناس غاضباً : سترون إن كان من التففتم حوله إلهاً أم غير إله ، وكان فى عزمه أن ينقضّ علىّ على غرّة منى فيقتلنى وأنا نائم ، وكان يريد أن يجعل من هذا دليله على بطلانِ ألوهيتى وأنّى من البشر . وكانت ثمة رهائن بين يديه من شعب مولوسوس[١٢] ، فإذا هو إمعاناً فى فجوره وجبروته يقطع رقبة أحدهم بسيفه البتّار ، ويلقى بجسده وهو لايزال ينبض بالحياة فى النار ، يجعل منه شواء . وأُعدّت المائدة وصُفّت الصِّحاف وجلس يلتهم ما فيها فى نهم وشره . فنقمتُ عليه فعله وأرسلتُ على بيته شواظا من نار أحرق البيت بما فيه من تماثيل لأسرته نصبها آلهةً زوراً وبهتاناً . غير أن ليكاوون استطاع أن ينجو ، ففرّ هارباً إلى الريف وهو ثائر غاضب . وهناك وجد نفسه أخرس لا يستطيع تحريك لسانه بكلمة ، وألفى ما عليه من ثياب قد استحالت شعراً شائكاً ، وإذا ذراعاه قد استحالتا ساقين ، وإذا هو قد مُسِخَ ذئباً من أشرس ما تكون الذئاب ، فعدا فاغر الفم إلى حيث قطعان الماشية ينهشها نهشاً ويقتلها تقتيلاً . وكان على الرغم من صورته تلك التى استحال إليها لايزال يحمل شيئاً من ملامحه الأولى ، فلقد بقى له شعره الأشيب كما بقى له وجهه الجهم البغيض بشراسته وقسوته ، وكذا بقى له بريق عينيه وما فيهما من نظرات مرهوبة . ولم تحرق الصاعقة التى أحرقت داره غيرها من دور الفساد ، وهكذا سوف يظل فى أنحاء الأرض أثر لربّة الانتقام[١٣] التى لا تمارس غير القسوة . ألا إن ما صادفته لم يكن غير مؤامرة من مؤامرات الإجرام ، لذا قرّ قرارى الذى لا رجعة فيه أن يُوفَّى كلٌّ جزاءه » .

وهنا صاح بعض الآلهة مناصرين چوپيتر فيما قرّر مطالبين إياه بالمزيد ، على حين لزم آخرون الصمت . غير أنهم قد ساءهم جميعاً ما سوف يلقى البشر من عذاب ، وما سوف تكون عليه الأرض بعد أن يقضى على هذا الجنس البشرى كله ، وما سوف تكون عليه معابدهم فى الأرض بعد أن لن تجد منهم من يختلف إليها مقدّماً القرابين ، وخال الأرباب أن الأرض بعد أن ينفذ فيها حُكْم چوپيتر سوف تكون مرتعاً للوحوش الضارية . وأحسّ ربّ الأرباب ما يساور أربابه من خوف فأعلن فيهم أن الأمور سوف تجرى دون إضرار ، وأنه سوف يخلق بشراً غير البشر يختلفون عنهم الاختلاف كله ، وسيولدون من أصل سوف يكون معجزة من المعجزات .

وكان چوپيتر على وشك أن يرسل صواعقه على الأرض لتأتى على من فيها أجمع ، لولا أنه خشى إن هو أطلق صواعقه الملتهبة أن تشبّ النار فى طبقات الجو العالية التى يسودها الصفاء وتنتقل منها إلى قبة السماء كلها ، كما ذكر ما جاء فى لوح القدر من أنه سيكون وقت تشتعل فيه الأرض والبحار وقبة السماء وينهار الكون أجمع ، فعدل عما كان سيأخذ فيه من استخدام وسائل الدمار التى أعدّها « الكيكلوپيس »[١٤] ، ورأى أن يعمّ العالم بسيول جارفة تأتى على البشر أجمع . فحشد رياح الشمال فى كهوف أيولوس ، وضمّ إليها الأعاصير التى تبدّد السحب الكثيفة ، ثم أرسل رياح الجنوب من محبسها ، فثارت تضرب بأجنحة مبلّلة فى غياهب الظلمات وئيدة لثقل ما تحمل من أمطار تتساقط من خصلاتها البيضاء ومن حولها الضباب يُنْذر بمقدمها ، ثم ما لبثت أن ألقت فيها سيلاً متدفقاً عمّ الأرض وفاض فى أرجائها . وكانت إيريس رسولة چونو [هيرا] وراء هذا فى ثوب يجمع بين ألوان قوس قُزَح تُنشىء السُّحب الأولى إنشاءً وتُرسل بها مَدَدا فى إثر بعضها ، فإذا ما على الأرض من زرع وشجر يُقتلع ، وإذا المزارعون يصلّون من أجله طويلاً ويبكون فى حسرة لذهاب جهدهم طوال العام سدى . ولم يقنع چوپيتر بما تحت يديه من عوامل الدمار التى يسخرُّها حسب هواه فى مملكته بل طلب إلى شقيقه نپتون [پوز يدون] أن يرسل هو الآخر أمواجه اللازوردية على الأرض ، فإذا البحار والأنهار والسماء بما تُرسل من أمطار كلها حرب على الأرض لم تترك فيها ركناً مشيداً ولا بُنياناً قائماً إلّا أتت عليه ، وإذا صفحة الأرض كلها مغمورة بالمياه .

وأرسل كبير الآلهة يستدعى الأنهار ، وما إن مثلوا أمامه فى قصره حتى ابتدرهم قائلاً : « ليس أمامنا وقت نبدّده الآن فى مُسهب العظات ، فأمامكم مُهمّة عاجلة : أن تمارسوا كل ما تملكون من طاقات وأن تندفعوا بكل سطوتكم مرتدّين إلى أوطانكم تكتسحون ما بها من أسوار ، مُطلقين لمياهكم الجارية العنان » .

هكذا كانت أوامره ، فعادت الأنهار إلى مواطنها ، وبعد أن فتحوا أفواه ينابيعهم انطلقوا بعنف صوب البحر فى سيول عاتية .

وضرب نپتون الأرض بعصاه الثلاثية [صولجانه ذى الشُّعَب الثلاث] فارتجفت واهتزت ، وانشقّت مجار للمياه تدفّقت فيها وفاضت على الجانبين ، فإذا هى تقتلع النباتات من جذورها ، وتُغرق المحاصيل

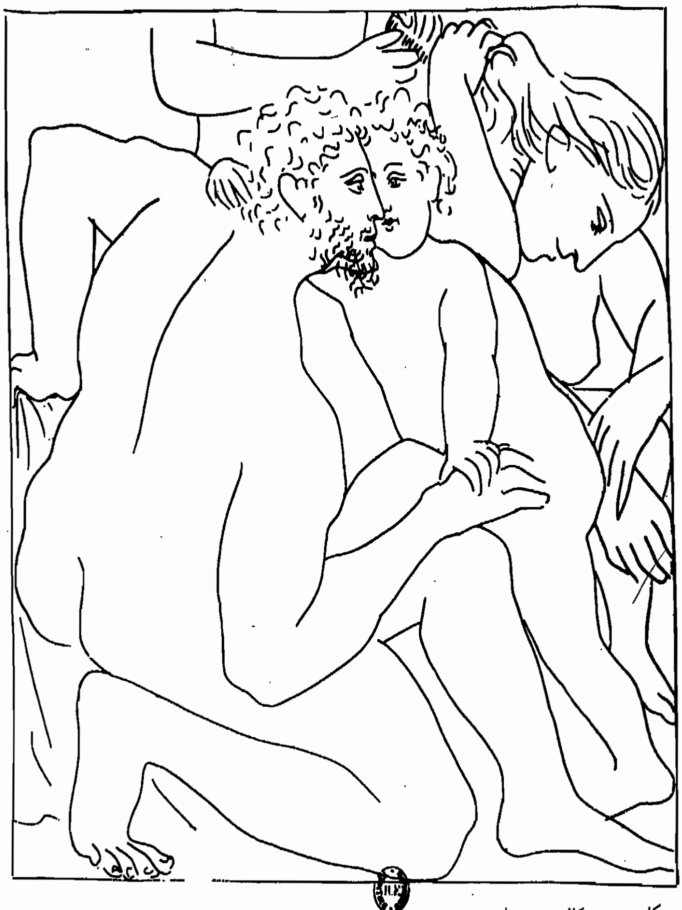
والكروم والناس والماشية ، وتهدم البيوت على من فيها والمعابد على المصلّين بها ، وتسوق الكتل العاتية لأصنام الآلهة سَوْقاً ، وتغمر الشاهقات فلم يعد يُرى منها غير قممها . ولم يفلت مبنى من هذه الكارثة إلاّ دمّرته موجة أعتى من الأولى فتهاوى سطحه تحت الماء ، واختلط الأمر فلم تعد ثمة حدود بين الأرض والبحر ، بل غدت الأرض كلها بحراً بلا شطئان . وهُرع نفرٌ إلى قمم الجبال يجدون فيها عاصماً من الغرق ، ونفرٌ إلى السفن ذوات الحيازيم[١٥] المقوّسة يضربون بالمجاذيف فوق أرض كانوا يخطّون فيها بالمحاريث ، وأقلع آخرون بقواربهم وسط المياه التى غمرت الحقول وكانت تعجّ بالأمس بحنطتها والبيوت التى كانت فيما مضى مأواهم . وهنا وهناك كانت عيونهم تلمح أسراب السمك عالقة بغصون أشجار الدردار . وأرسى بعض الملاّحين سفنهم حيث كانت المراعى الخضراء ، وأحياناً كانت السفن المسطّحة القاع تمسّ الكروم التى ترقد تحتها . وفى الأماكن التى كانت قطعان الماعز ترعى الأعشاب فيها آمنة انسابت كلاب البحر القبيحة تشقّ طريقها بين الأمواج ، وانتابت الدهشة حوريات النيرياديس حين رأين الغيضات والمدن والدور مدفونة تحت المياه ، واحتلت الدلافين الغابات تلوى الأغصان العالية وتهزّ جذوع أشجار البلوط التى ترتطم بها . وسبحت الذئاب بين قطعان الماعز ، وحملت الأمواج النمور والأسود المصفرّة السُّمرة . أما الخنازير البرّية فلم تُغْن عنها أنيابها القاطعة ، كما لم تسعف الأوعال سيقانها القوية على العَدْو ، فإذا الفيضان قد ابتلعها جميعاً . وحلّقت الطيور فى الجو ما شاءت أن تحلّق حتى كلّت أجنحتها فهوت فى ذلك الخضم ، وإذا هذا الفيض قد غطّى التلال وبلغ ذروة الجبال ، وإذا الجنس البشرى قد فنى أكثره ، ومن نجا منهم من هذا الفيض أهلكه الجوع[١٦] .

ديوكاليون وبيرا

وكان فيما غمر الماء أرض فوكيس[١٧] الخصبة التى كانت حدّا فاصلاً بين حقول بويوتيا وحقول أويتا . وكان ثمة جبل شامخ هو جبل پارناسوس له قمتان توأمتان تكادان تلمسان النجوم وتخترق سطحه السّحب ، رسى عليه الفُلك الذى كان يحمل ديوكاليون وزوجته . وكان ديوكاليون بن پروميثيوس[١٨] خير البشر وألزمهم للطريق السّوىّ ، وكانت زوجته پيرا إبنه إپيميثيوس أكثر النساء إجلالاً للآلهة . وكان أول شىء فعله الزوجان أن اتّجها بالشكر إلى ربّات الجبل حوريات كوريكيا ، وإلى ثيميس ربّة الوحى الكاشفة عن الغيب ، فقاما يصلّيان لهن من أجل نجاتهما . ورأى چوپيتر الأرض وقد غطتها المياه الآسنة ، وأنه لم يبق من الرجال الذين بلغت عُدّتهم آلافاً غير واحد هو ديوكاليون ، وأنه لم يبق من النساء اللاتى بلغت عدّتهن آلافاً غير واحدة هى پيرا ، وكانا من عباد الآلهة المخلصين لذلك نجوا من الهلاك وسلمت لهما حياتهما .

وأطلق چوپيتر رياح الشمال من محبسها فبدّدت السّحب بَدَدا ، وانقشع الضباب فبدت صفحة السماء صافية وظهرت رقعة الأرض مبسوطة ، وسكنت الأمواج وهدأت ثورة البحر بعد أن ألقى ربّ البحار والأمواج صولجانه ذا الشُعَب الثلاثة من يمينه . وكان نپتون قد طلب إلى تريتون أن ينفخ فى صُوره

الحلزونى ، ذلك الصُّور الرنان الذى يتسع شيئاً فشيئاً حتى يبلغ مخرج الصوت . وما إن جلجل صوته حتى ارتدت مياه البحار والأنهار منحسرة عن الأرض ، وهدأت الأمواج وسكنت ثورتها منذ أن مسّ فمه الصُّور إلى اليوم . ثم ضمّ تريتون شفتيه على الصُّور ثانية ، فصدر عنه صوت غمر الشطآن التى يطلع عليها فويبوس إله الشمس مع مستهل رحلته اليومية فى الفضاء ومنتهاها . وتثنّت لحية تريتون ربّ البحار والأمواج والماء يقطر منها وأمر المياه بالانحسار ، فإذا مياه الأرض كافة ، ومياه السهول التى لم تنحسر والأمواج فى أنحاء الكون تستجيب لهذا الأمر السماوى . واستقرت الأنهار فى مجاريها والبحار فى وهداتها ، وبدت تربة الأرض نديّة ، وبرزت التلال والجبال ، وكلما تراجعت المياه اتسعت مساحة الأرض ، ومضت أيام طويلة قبل أن تنفض الأشجار الطِّين عنها . وعادت الحياة سيرتها الأولى .



بيكاسو : ديوكاليون وبيرا

ونظر ديوكاليون فرأى نفسه وحيداً ، ليس إلى جواره فى الفضاء الممتد غير پيرا فجزع ، وإذا عيناه تدمعان ، فمال إلى پيرا يقول لها « يا ابنة عمى وزوجتى ، أيتها المرأة الوحيدة التى قُدّر لها أن تبقى بعد فناء
٣٦٠ النساء كلهن ، إليك أفزع فزع القريب إلى قريبه والزوج إلى زوجه . لقد جمعت ما بيننا الأهوال ، فليس ثمة على الأرض غيرنا ولا تطالع الشمس غيرنا فى مطلعها ومغيبها بعد أن ابتلع اليمّ البشر . وإنى على ذلك غير مطمئن فقد يصيبنا ما أصاب أخوتنا بالأمس ، فلازال خيال السُّحب فى مخيّلتى يروعنى . تُرى ، على أية حال كنا سنكون لو قُدِّر لنا ألاّ نلتقى ، وهل كنت ستَقْوين على مغالبة المخاوف وحدك ، ومن كان سيقف إلى جنبك ليعينك على المخاطر ؟ أُقْسِم لك غير حانث أن أرعاك بحياتى ، وأنى لا أملك غير أن أقذف بنفسى فى اليمّ لو عجزت عن أن أدفعه عنك ورأيته يبتلعك يا زوجتى الحبيبة . كم أتمنى لو أنى أعدت العالم عامراً كما كان ناهجاً النهج نفسه الذى انتهجه أبى ، وكم أتمنى لو استطعت أن أنفخ فى الصلصال الذى تصنعه يداى روحاً . إن بقاء الجنس البشرى أمره إلينا وحدنا ، ولهذا جمعت بيننا مشيئة الآلهة » .

وبكت پيرا لكلمات ديوكاليون ، ثم وقفت إلى جانبه يضرعان إلى الربّ أن يلهمهما العون . ثم مضيا إلى مياه نهر كيفيسوس [فى بويوتيا] التى كانت ماتزال تنساب فى قنواتها قبل أن يعاودها صفاؤها القديم ، فغسلا بمياهه رأسيهما وملابسهما ، ثم تقدما إلى مذبح الإلهة المقدسة ثيميس ، وكان سقفه المسنّم قد أحالت لونه الأعشاب المتخلّفة عن المياه المنحسرة وساد الظلام هيكله ، فركعا ولثما أرضه النّدية خاشعين وتوجّها إلى الإلهة ثيميس قائلين : « هل من مطمع فى أن تستجيب الإلهة إلى صلواتنا الخالصة فترفع عنا غضبها ، ألهمينا يا ثيميس كيف نقوى على إصلاح ما حاق بالجنس البشرى ، أيتها الربّة الرحيمة كونى لنا عونا فى محنتنا » . وأخذت الربّة الشفقة بهما فتمتمت بهذه النبوّة : « اخرجا من معبدى ، وضعا على رأسيكما
٣٨٠ غطاء ، وتخفّفا من تلك الأحزمة التى تشدّ ملابسكما ، واتركا وراءكما عظام أمّكما الجليلة »[١٩] . وكان كلام الربّة غير بيّن فتملّكهما العجب ، وعزّ على پيرا أن تستجيب لأمر الربّة خشية الإساءة إلى طيف أمها إذا هى أزعجت عظامها فى مرقدها ، ولكنها لم تلبث أن عاودتها طمأنينة أطلقت شفتيها الراجفتين بالدعاء للربّة أن تغفر تردّدها . غير أنهما أخذا يتدبرّان كلمات الربّة الغامضة ، وانتهى ديوكاليون بن پروميثيوس إلى أن قال لپيرا ابنة إپيميثيوس : « إن الربّات على حق ، وهن لا يُشِرْن بما لا تُحمد عقباه ، وإنى لأخال أن الأم الجليلة التى جاءت على لسان الربّة ليست غير الأرض ، وأن تلك العظام ليست غير الأحجار التى فى باطنها ، وأن علينا أن نترك هذه الأحجار وراءنا » .

وآمنت پيرا بما خال ديوكاليون ، غير أنها بقيت يخالجها شىء من الشك فيما أشارت به الربّة ، وكان لابد لهما من أن يمضيا فى التنفيذ ليبين لهما صدق ما قالت . فهبطا من على رأس الجبل ورأساهما مغطّيان ، وقد تخفّفا من تلك الأحزمة التى تشدّ ملابسهما ، وأخذا يُلقيان بالأحجار وراءهما كما أشارت الربّة . مَنْ
٤٠٠ يصدِّق ما حدث بعد ذلك لولا أن التاريخ الخالد يشهد به ؟ فإذا الأحجار تلين ، وإذا هى تتشكّل أشكالاً ، وإذا هذه الأشكال على صور هياكل آدمية رغم أنها لم تكن ذات سمات واضحة بل كانت أشبه بتماثيل من الرخام لم يكتمل نحتها ولم تُصْقَل بعد . ثم ما لبث أن استحال الحجر لحماً فكسا تلك الهياكل

العظمية ، كما استحالت العروق التى كانت تتخلّل الصخور عروقاً فى تلك الأجسام الآدمية ، وكان كل حجر يُلقيه ديوكاليون يأخذ صورة الرجل ، كما أن كل حجر كانت تُلقيه پيرا يأخذ صورة المرأة .

وإلى هذه النشأة القاسية الصلبة يُعزى كل ما فى الجنس البشرى من عنف وغلظة وقسوة ، فكما نشأ كان .

پيـثُون

عندما أطلقت الشمس المشرقة أشعتها بالدفء تُبدِّد الوَمَدَ المتلبّث من عهد بعيد أخذت الأرض تنشقّ عن حيوانات جديدة مختلفة الأنواع ، وبدأت الوحول والمستنقعات النّدية تعلو لتفسح للبذور الدفينة أن تُطلق سيقانها بعدما تشقّ باطن الأرض الذى كان أشبه بالرحم يضمّ الجنين إلى أن يكتمل نضجه ، ومع مرور الزمن تعدّدت تلك النّبتات ألواناً وأصنافاً . وإنا لنجد شيئاً من هذا مع فيض نهر النيل ذى المصبّات السبعة حين يفيض تاركاً على الأرض الغِرْين ، فما يلبث ذلك الغرين بعد أن تُرسل عليه الشمس أشعّتها أن ينفرجَ عن هوام كثيرة يجدها الزارعون حين يقلّبون الأرض بفؤوسهم ، منها ما اكتمل نموّه وبات على وشك أن ينبض بالحياة ، ومنها ما دبّت الحياة فى عضو واحد من أعضائه بينما بقيت الأخرى صلصالاً لم يتشكّل بعد . ثم ما تلبث الهوام أن تتدرّج فى سُلّم الحياة بين الدفء والوَمَد وهما قوام الحياة ، كما هى الحال فى النار والماء ؛ فعلى الرغم مما بينهما من تضاد ، فمردّ حياتنا إلى دفء هذه ونداوة ذاك . وهذا التواؤم القائم على التضاد بين الدفء والنداوة هو سرّ الحياة على الأرض[٢٠]

وحين بعثت الشمس الحانية فى السموات بالدفء إلى الأرض الموحلة بفعل الطوفان انبثّت على الأرض ذرارى كثيرة ، منها ما جاء على أنماط ما كان ، ومنها ما جاء على أنماط جديدة لا عهد للأرض بها ، ومنها پيثون المهول الذى ظهر للوجود على الرغم من إرادة الأرض . ولقد جاء على صورة خارقة تبعث الرعب فى قلوب الجنس البشرى الجديد ، فقد كان فى جسم الزواحف هائل التكوين يكاد يفترش سفح الجبل أجمع ، فهالت أپوللو رامى السهام ضخامته وخافه على الموجودات التى على سطح الأرض . ولم يكن أپوللو يُطلق سهامه قبل ذلك إلاّ على شارد الظباء أو مخلوع الفؤاد من قطعان الأغنام البّرية ، غير أنه ما إن وقعت عيناه على هذا الأفعوان الرهيب حتى سدَّد إليه سهامه كلها لم يُبق منها سهماً ، فإذا هذه السهام تنفذ فى جسمه وتمزّقه جميعه ، وإذا الدم يتدفّق غزيراً من جراحاته العديدة أسودَ قاتماً . وخلّد الإله ذلك النصر بإقامة مهرجان تدور فيه ألعاب تسمى الألعاب الپيثويّة[٢١] نسبة إلى هذا الأفعوان الذى قهره . وكانت ثمة تيجان من أغصان شجر السنديان تُمنح للفائزين فى تلك المباريات التى كانت تنتظم ألواناً من العَدْو والمصارعة وسباق المركبات ، ولم يكن الغار قد عُرف بعد . ومن ثم مضى فويبوس [أپوللو] يبحث عن

شجرة تزوّده بإكليل من أغصانها الحانية يحوط رأسه ويتوّج هامته ذات الشعر السَّبْط المسترسل ، وكانت السنديانة أول شجرة صادفته فانتزع منها أوراق الإكليل .

دافـــــــــنى

ووقع فويبوس لأول مرة فى غرام دافنى إبنة إله النهر پينيوس[٢٢] ، ولم يكن هذا شيئاً عارضاً بل كان ذلك من تدبير كيوپيد الذى شاء أن يثأر من أپوللو لسخريته منه ساعة أحسّ الزهو لفتكه بالثعبان پيثون ، ورأى كيوپيد يجتذب قوسه المشدود فقال له : « فيم تطاولك أيها الصبىّ العربيد باستخدام أسلحة
٤٦٠ المحاربين ؟ إن كتفىّ وحدهما هما اللتان خُلقتا لحمل مثل هذه السهام ، إذ أنا وحدى الذى يقوى على أن يصيب فيُصْمى منْ يعترضه من الحيوان الضّارى أو يناوئه من بنى الإنسان . وحَسْبُك شاهداً على ذلك آثار سهامى العديدة النافذة فى جسد پيثون السّام ، ذلك الثعبان الذى كان يفترش المساحات الفسيحة . دع عنك السّهام واقنع بشعلتك وسيلة تؤجّج بها الهوى ، فما أقصر باعك عن أن تبلغ حظّى من الثناء » . فردّ عليه كيوپيد بن ڤينوس قائلاً : « على رِسْلِك يا أپوللو ، فأنت إن قويت على أن تصيب بسهامك الحيوان والإنسان فإنّى بقوسى وسهامى قادر على أن أصيبك فلا أخطئك ، فأين مجدك أنت حين تصيب الحيوان من مجدى أنا حين أبلغ بسهامى الآلهة ؟ » .

وما إن فاه كيوپيد بقوله هذا حتى انطلق طائراً يشقّ أجواز الفضاء ، وإذا هو يحطّ على قمة جبل پارناسوس . عندها نثر كنانته واختار سهمين : أحدهما ذهبىّ اللون محدّد الطّرف يُشعل جذوة الحب فى القلوب ، وثانيهما رصاصى اللون ثلم الحدّ يخمدها . وسدّد كيوپيد هذا السهم الأخير إلى دافنى إبنة پينيوس ، على حين رمى أپوللو بالسهم الأول فنفذ فى لحمه إلى النخاع ، فإذا أپوللو قد هام حُبّا ، وإذا دافنى تفرّ هاربة إلى الغابات وقد ضمّت شعرها بشريط كما فعلت الإلهة ديانا حين أبت أن تستجيب للحب .

ومن قبلُ هام كثيرون بدافنى ابنة پينيوس وهى لا تفتأ تجول بين الأشجار غير مُلْقية بالا لما يدور حولها من هيام الرجال بها ، وما دار فى خلدها شىء عن الحب أو عن الزواج . وما أكثر ما لامها أبوها على
٤٨٠ عزوفها عن الرجال وتمنّى عليها لو تزوجت وأعقبت بنين وبنات ، وكم كان وجهها يحمرّ خجلاً حين كان يحدّثها فى شىء من هذا لأنها كانت تعدّ مثل هذا الحديث جُرماً ، وكم توسّلت إليه أن يكفّ عن الاسترسال فى موضوعه الأثير ، إذ كانت تُؤْثِر أن تعيش حياة عذرية كما عاشت ديانا إبنة چوپيتر منذ الأزل . ولم يجد الأب بدا من أن ينصاع لرغبة ابنته فأمسك عن مفاتحتها فى هذه الأمور ، غير أن جمالها الفتان وشبابها الطاغى ما لبثا أن غلباها فقاداها إلى غير ما تنشد وتريد . وكان أن وقعت عينا فويبوس على دافنى فإذا هو يهيم بها وإذا هو يتحرّق شوقاً إلى أن يبنى بها ، وأخذ يسعى سعيه لأن يظفر بقلبها إذ كان

٥٠٠ حبها قد ملأ عليه قلبه كله وملأ عليه جوانحه . فكان إذا نظر إلى شعرها متهدّلا على جيدها إلى كتفيها تمنّى
أن لو كانت عقصته حتى لا توله ، وكذلك كانت تُشْبِيه عيناها البرّاقتان بريق النجمتين الساطعتين ،
وتُغريه شفتاها الحمراوان ، وتفتنه أناملها الدقيقة ، ويداها البضّتان ، وذراعاها العاريتان ، كما كانت
تشغل خياله مفاتنها المحجّبة عن الأنظار .

وما إن أحست دافنى متابعة فويبوس لها حتى ولّت الأدبار فى سرعة الريح ، ولم تتلبّث لحظة لتستمع
إلى توسلاته وهو يناجيها قائلاً : « أيتها الحورية يا ابنة پينيوس لا تفرّى منى فما أنا بعدوّ تخشينه . رفقاً بى ،
ولا تفرّى منى فرار الحَمَل من الذئاب ، أو الغزال من الأسد ، أو الحمامة من الصقر ، فما يحفزنى إلى
ملاحقتك غير الحب الذى يتأجّج فى صدرى . كم أشفق عليك وأنت تفرّين أن تزل بك قدماك فتدميها
الأشواك وأكون أنا الذى جررتك إلى هذا المصير . رفقاً ولا تسلكى سبيلا غير سويّة ، وقرّى حيث أنت ،
وإنى أعدك أن أُقْصر خُطاى وإلّا أُسرع . وما عليك إلا أن تسائلى نفسك : من هذا الذى خلبت لبّه
٥٢٠ وسحرت قلبه ؟ فلست فلاحاً يعيش فى الوديان ، ولا راعياً يرعى أغنامه بين هذه المراعى . أيتها الفتاة
الغريرة ، إنك لا تعرفين ممن تهربين وإلّا لما هربت . إننى سيدّ دلفى وكلاروس وتنيدوس وقصر
پاتارا[٢٣] ، أنا ابن چوپيتر . بدهائى أعرف ما كان وما يكون وما سيكون ، وبقدرتى تردّد أوتار القيثارة
أنغام الموسيقى . إن سهامى لا تطيش على الرغم من أن ثمة من هو أقدر منى على التسديد . أنا الطبيب
الآسى ، والطب أنا ابتدعتُه ، وما من خاصة لعُشْب تبدو إلّا وعندى علمها . ولكن واأسفاه ليس ثمة من
الأعشاب ما ينفع فى شفاء الحب ، وما أشقانى بقدرتى إذا ما أعجزتنى عن عون نفسى على حين أقدر على
عون الآخرين » .

وكان فويبوس على وشك أن يسترسل فى قوله ، غير أن إبنة پينيوس ولّت عنه فراراً حياء وحذراً
وخلّفته حيث هو ، ولم تتح له فرصته ليقول ما يريد ، وعبثت الرياح بثوبها فجعلته يَعَضُّ بجسدها فيجسّدُ
مفاتنها ، كما عبثت بشعرها فإذا هو يتهدّل متموّجاً ، وإذا هى بهذا وذاك أبهى ما تكون . ولم يقنع الإله
الشاب بهذا الغزل ، فدفعه الهوى إلى أن يسرع خطاه ويطاردها ، مثله فى ذلك مثل كلب بلاد الغال[٢٤]
الذى يلمح أرنباً برّياً عن بعُد وهو يعدو فى حقل أجرد فيعدو فى إثره ويلاحقه ، وكلما خال أنه أدركه ومدّ
خطمه ليمسكه إذا هو قد أفلت منه ، وهكذا يمضيان لا يدرك أحدهما الآخر . وكانت هذه هى حال الإله
والفتاة .

وما إن أحسّ الإله الشاب انفلاتها من بين يديه حتى خفّ فى إثرها ، وإذا هما يعدوان ، كلّ يريد
تحقيق هدفه ، العذراء يحدوها الأمل فى أن تنجو ، والإله يملؤه الخوف من أن يخفق . وكان الإله أسرع
عَدْواً لأن أجنحة الحب كانت تعينه ، فإذا أنفاسه تقع على شعرها المتطاير ، وإذا هى تكلّ ولا تقوى على
٥٤٠ العدو ، فتقع خائرة القوى إلى جانب مياه پينيوس تصرخ قائلة : « أمدد إلىّ يد العون يا أبتاه ، ودع
مياهك ــ إذا كانت لها تلك القدرة القدسية حقاً ــ أن تمسخ جمالى هذا الذى أثار الإعجاب بى فى قلوب
الجميع » . وما إن أتمت كلماتها حتى استرخت ، وإذا صدرها قد استحال جذع شجرة ، وإذا شعرها

أوراقاً ، وإذا ذراعاها أغصاناً ، وإذا قدماها جذوراً ، وإذا وجهها قمة تلك الشجرة ، ولكنها على هذا بدت رائعة .

ولم يُثْن هذا المصير فويبوس عن حبّه لها ، فتحسّس بيده جذعها يتلمّس مكان قلبها الذى ما فتىء ينبض تحت اللحاء ، وأخذ يحتضن الأغصان ويغرق الشجرة بقبلاته ، فإذا هى تتضاءل وتَضْمُر فصاح بها قائلاً : « إذا كان ثمة ما يحول بينك وبين أن تكونى عروسى ورفيقة حياتى ، فابقى لى كما أنت شجرة أهيم بها وأطوف ، ولسوف يكون شِعْرى فى وصفك ، ولسوف تتغنّى قيثارتى بمدحك ، كما سوف تكون سهامى فى الذَّوْد عنك ، ولسوف أجعل من أغصانك تيجانا لهامات المحاربين عندما يشهد الكابيتولينوس فى روما مواكب النصر ، ولسوف تقفين أنت على أبواب مدينة أوغسطس تحرسينها وفيّة مخلصة ، كما سوف تذودين عن أكاليل أوراق البلوطِ العالقة بها . وكما سيبقى رأسى يزيّنه الشباب ، فكذلك سيظل رأسك تجلّله الخضرة التى لن يعتورها ذبول » .

وما إن انتهى الإله من حديثه هذا حتى طأطأت شجرة الغار رأسها وأرخت غصونها ، وكأنها بهذا وذاك تعلن عن رضاها بكلامه وقبولها لمطلبه .

ولم يعد بعدها عند الإله المخلّص أپوللو ما يقوله .

إيـو وأَرْجُـسْ وسـيرينكس

وثمة غيضة فى بلاد هايمونا[٢٥] تكتنفها من كل جانب منحدرات عامرة بالغابات تسمى تِمْپى . وعلى تلك المنحدرات تفيض مياه نهر پينيوس فتخلّف على صفحتها زَبَدا رابيا . وهذا النهر تتجمّع مياهه أول ما تتجمّع من تساقط الأمطار على جبال پِنْدُوس ، ثم تنصبّ منحدرة على سفوحه فتستحيل أبخرة ثم سُحباً متكاثفة سرعان ما تتساقط قطراتها على تلك الغابات ، فإذا لها صوت مدوّ يصمُّ الآذان ويتردّد صداه فى الأرجاء البعيدة . وفى هذا الموقع الذى كان ينبع منه هذا النهر ، كان ثمة كهف قد شُقّ فى الصخور يُعدّ محراباً لهذا النهر الكبير ، ومنه تنطلق كلمته لمياه الأنهار جميعها قبل أن يجرى كل نهر إلى حيث كُتب له ويقضى بين الأمواج كما يقضى بين الحوريات اللاتى يقطنّ مجراه . وإلى هذه البقعة وفدت أنهار بلاده : نهر سپيرخيوس الذى تحفّ به أشجار الحور ، ونهر الإنيپيوس ذو المياه الفائرة ، ونهر أپيدانوس العجوز ، ونهر الأمفريزوس الهادىء ، ونهر أياس وغيره من أنهار أخرى ، لا يدرى أىٌّ منهم هل يتقدم إلى نهر پينيوس والد دافنى مهنئاً أم مواسياً . ثم جاءت بعد ذلك الأنهار والجداول الأخرى التى تجرى كلها متدفّقة لتلقى بأحمالها إلى البحر بعد رحلاتها الشاقة . ولم يتخلّف من هذه الأنهار كلها غير إيناخوس فقد قبع فى الكهف لم يغادره ، ولبث يغذّى مياهه بقطرات دموعه التى ما فتئت تنهمر منذ أن غابت عنه ابنته إيو وغابت عنه أخبارها ، فلم يعد يعرف لها مقرّا ولا يسمع عنها كلمة ، ولم يعد يدرى أمع الأموات هى أم مع الأحياء .

ولقد كان من قصة إيو هذه أن رآها چوپيتر مرة وهى آيبة من شاطىء نهر أبيها إيناخوس ، فتصدّى لها يقول : « أيتها العذراء ، إنك لست أهلاً لغير چوپيتر ، ولسوف يسعد بك من تكونين له ، ولكن تُرى من سيكون هذا السعيد ؟ تعالى نمض معاً فى ظلال تلك الغابات الباسقة ننعم ونهنأ . ألا ترين إلى الشمس وقد توسّطت كبد السماء وأرسلت شواظا من نار ألهبت به وجه الأرض فلم تعد تقوى على مسّه قدم ؟ هنالك فى ظلال أشجار الغابة سوف تجدين من نفحات الهواء ما يعوّضك عن لفح الشمس ، سوف تجدين من تُربتها النديّة موطناً سهلاً ، ولكن حذار أن تمضى إلى الغابة وحدك فإنى لا آمن عليك من شرّ الحيوانات الضارية . أما فى صحبتى فسوف تكونين فى رعاية إله ليس كغيره من عامة الآلهة ، بيده مفاتيح السماء ، فهو الذى يطلق الرعد والبرق ، تعالى إلىّ ولا تحاولى أن تهربى منى » .

وما إن سمعت إيو كلمات چوپيتر حتى ولّت هاربة تطوى مراعى ليرنا ثم حقول لوركيون الزاخرة بالأشجار . غير أن چوپيتر ما لبث أن أرسل السحب فغشّت وجه الأرض فإذا هى ظلام كلها ، وإذا إيو أعجز ما تكون عن أن تمضى فى هربها فوقعت فريسة لچوپيتر ، وإذا هو يعدو عليها .

وتطلّعت چونو زوجة چوپيتر من مكانها فى السماء إلى أرجوس ، ودهشت إلى هذه السحب التى أحالت النهار ليلاً فعجبت ، وزاد من عجبها أن هذه السحب لم تنشأ عن مياه النهر ولا عن نداوة الأرض . وإذ كانت على علم بما يرتكبه زوجها من خيانات بعدما أوقعته مرات عدة متلبّساً بما لا ينبغى له أن يقترفه ، ولّما لم تجده حولها فى السماء ساورتها الظنون بأنه لابد مرتكب شيئاً إداً ، فهبطت من الأثير إلى الأرض وأمرت السّحب أن تنقشع ومضت تبحث عن زوجها فيما حولها . وكان چوپيتر قد توقّع أن زوجته لابد قادمة ، فمسخ إيو ابنة إيناخوس بقرة ذات أرداف وضّاءة ، غير أنها على الرغم من هذا التحوّل ظلت جميلة فاتنة .

وتقدمت ابنة ساتورن إلى البقرة تُطريها زَيْفاً وتمتدح جمالها وكأنها لا تعلم من الأمر شيئاً ، وساءلت چوپيتر قائلة : « أنىّ لك بهذه البقرة ، وإلى أية فصيلة من البقر تنتمى ؟ » . ويفطن چوپيتر إلى ما أرادت إليه ابنة ساتورن ، ويسعى إلى الحيلولة بينها وبين الخوض فى الموضوع فيقول لها كاذباً : إنها ابنة الأرض . ولكن ابنة ساتورن كانت أدهى منه ، فطلبت إليه أن يعطيها البقرة هدية . ويغمّ الأمر على چوپيتر ، فهو إن نزل عن البقرة فقد ضحّى بأعزّ ما يملك ، وإن هو ضنّ بها على زوجته أثار شكوكها وكان غير بارّ بها إذ لم يسعفها بحاجتها . وتنازعه عاملان ، عامل الحب يُثنيه ، وعامل الوفاء لزوجته التى تعقد بينه وبينها صلة من دم ومولد ، غير أنه آثر ثانيهما ووهب زوجته ــ التى هى شقيقته فى آن معاً ــ البقرة حتى لا يكون عاقاً ، وحِرْصاً على ألاّ يثير فى نفسها شكّا بأنها كائن أسمى من مثل هذه البقرة .

وتلقّت الزوجة الإلهة الهدية فى شىء من الحذر ، فلقد كانت تخشى أن يكون چوپيتر قد بيّت شرا وأن قد يعود فيسلبها إياها . من أجل ذلك وكلت إلى ابن أريستور ، وكان يدعى أَرْجُس حراستها . وكان لأرْجُس مائة عين تستريح منها اثنتان على التوالى على حين تبقى سائرها يقظة ، أى أنه كانت من تلك

العيون المائة ثمان وتسعون عينا يقظة دوماً . وكانت تلك العيون تمتد إلى كل مكان فترى ما بين يديه وما خلفه ، وما عن يمينه وما عن يساره . وهكذا ظلّت إيو فى محيط بصره استقبلها أو استدبرها . وكان يدعها مع النهار ترعى من أوراق الأشجار والأعشاب المُرّة ، حتى إذا ما غربت الشمس حبسها ووضع فى رقبتها رباطا .

وكانت إيو إذا ما عنّ لها أن تستريح افترشت أرضا لا عُشب فيها ، وكان شرابها من مياه كدرة . وكم حاولت أن تشكو إلى أرْجُس غير أنها لم تكن تملك ذراعين ترفعهما إليه بالشكوى ، فكانت ترسل فى الجو خوارا تنزعج هى نفسها له . وحين قصدت يوماً إلى شواطىء إيناخوس حيث كانت ترتع وتلعب فيما مضى ، هالها ما عكسته صفحة الماء من خطم وقرنين فولّت خائفة مذعورة . ولقد أنكرتها جنّيات البحر وما عرفنها كما أنكرها إيناخوس ولم يعرفها . وبقيت مثار إعجاب الأب ودهشة شقيقاتها ، يُطْعمها الأب بيديه الأوراق التى يقتطفها فتلثم يديه بفيها وتلعقها بلسانها ، وهى لا تملك أن تُفْصح عن شىء ، وتلمس هذا العجز من نفسها فتنهمر دموعها . واهتدت أخيراً إلى أن تخطّ على الأرض قصّتها ، ويطالع إيناخوس ما خطّت فيعرف أنها ابنته ، فيتعلّق بقرونها ورقبتها وهى ترتجف بين يديه فيناجيها قائلاً : « ما أشقانى ، أأنت ابنتى التى مازلت أطلبها فى كل مكان ؟ لقد كان فقدك أَهْوَن علىّ من أن أراك على تلك الصورة ، إنك لا تقوين على الكلام ولا تستطيعين أن تُجيبينى ، وكل ما أسمعه منك تنهدات تصدر عن صدرك المحزون ، ثم ذلك الخوار الذى يذكّرنى بخوار البقر . لقد كان همّى أن أزفّك إلى زوج وأن أرى لك بنين وبنات ، وأن أهيّىء لك بيت عُرسك بفراشه ومشاعله ، أما الآن فلن يكون لك زوج إلاّ من أبناء جنسك ولن تلدى غير ذرّية من البقر . لو لم أكن إلها لآثرت الموت هرباً مما أرى . وعلى هذا النحو سأظل فى غمرة الحزن إلى الأبد » .

وبينما كان الاثنان فى حزنهما يبثّ كل منهما لواعجه للآخر ، طلع عليهما أرْجُس برأسه ذى الأعين المائة ، وانتزع الفتاة من يدى أبيها وساقها أمامه إلى المرعى ، وارتقى جبلاً حتى بلغ قمته وأخذ يتطلّع هنا وهناك .

ولم يعد سيّد الآلهة يطيق احتمال كل هذه الآلام التى ألمّت بحفيدة فورونيوس ، فصاح بابنه ميركوريوس [هرمس] من مايا إحدى نجوم البلياديس المتألّقة وأمره بأن يقضى على أرْجُس . وسرعان ما لبىّ الابن أمر أبيه فضمّ جناحيه إلى رجليه وأخذ صولجانه فى يديه ، ذلك الصولجان الذى يُغرق من مسّه فى نوم عميق ، كما ألقى على رأسه غطاءه ، حتى إذا ما أشرف على المكان الذى يضمّ أرْجُس رفع غطاءه عن رأسه وفكّ جناحيه وهبط إلى الأرض يحمل صولجانه فى يده وشقّ طريقه فوق دروب متعرّجة متنكراً فى صورة راع من الرعاة يهشّ على غنمه ، وأخذ ينفخ فى مزماره فانصرفت إليه الأغنام مجذوبة بما تسمع ، كما شَدَه بها أرْجُس فناداه قائلاً : « إلىّ يا هذا ، ولتكن من تكون ، فليس ثمة مكان تستطيع أن تجلس عليه غير هذه الصخرة ، كما أنه ليس ثمة مكان أخصب من هذا المكان تقع فيه الأغنام على عُشب وفير ، كذلك

لن يجد الرعاة مكاناً ظليلاً غيره ». وجلس حفيد أطلس يحدّث أَرْجُس حينا وينفخ فى مزماره حيناً ، علّه بتلك النغمات الرتيبة يجعل أَرْجُس يهجع فينام ويغمض عيونه . وغالب أَرْجُس النوم ما استطاع ، يغمض بعض عيونه ويفتح بعضها ، وأخذ يسائل رفيقه عن ذلك المزمار كيف ابْتُدع إذ لم يكن له عهدٌ به . فأخذ رفيقه يحدّثه ويقول : « ثمة فى جبال أركاديا الباردة وبين الهامادرياد[٢٦] فى ونوناكريس[٢٧] حورية مشهورة بين الحوريات تدعى سيرينكس ، كثيراً ما كانت تفلت من مطاردة الساتير والجان الذين يسكنون الغابات الظليلة والحقول الخصيبة ، وكانت تدين بإلهة أورتيجيا [ديانا] تحاكيها فى عفّتها ومسلكها ، كما كانت أشبه ما تكون بابنة لاتو [ديانا] فى تشمير ردائها بحزام ، ومع أن قوسَها كان من القرون وقوس الإلهة كان من الذّهب غير أن اللّبس بينهما كان ممكناً . وذات مرة حين كانت هابطة من مرتفعات ليكييوم ، رآها پان وعلى رأسه إكليل من الصنوبر ».

وانبرى ميركوريوس يروى قصة هرب الحورية التى لم تحفل بتضرُّعات پان وفرارها إلى ضفاف لادو[٢٨] . وهناك حيث تفيض المياه على الرمال فتصفو وتسكن توسّلت سيرينكس إلى أخواتها حوريات المياه بأن يمسخنها ، وذكرت لهن كيف كان پان يمسك بقصبات المستنقعات وهو يخال أنه قد أمسك بها ، وكيف أن القصبات كانت تنقل صدى أشجانه وترسلها فى الهواء أنّات رقيقة حزينة . وفُتن پان بحُسن ما يسمع من أصداء فصاح مشدوها : « فليبقينّ حديثى معك على هذا النحو إلى الأبد » . وهكذا خلد اسم سيرينكس بفضل تلك القصبات المتفاوتة طولاً ، والتى ضُمّ بعضها إلى بعض برباط من الشمع .

وحين أخذ ميركوريوس يتهيّأ لاستكمال قصّته وجد أَرْجُس قد استسلم للنوم وأطبق جفونه كلها ، فأمسك عن الحديث ، وأخذ النعاس يشتد شيئاً فشيئاً بأَرْجُس حين مسّه بصولجانه السحرى . وما إن رآه قد غلبه النوم حتى حمل عليه بسيفه المقوّس فأطاح برأسه وطوّح به بعيداً والدماء تسيل منه على صخرة عالية فتلطّخت الصخرة كما تلطّخ سطح الهاوية ، ثم وقف يقول : « ها أنتذا الآن يا أَرْجُس جثة هامدة بلا حراك ، قد ذَبُل خدّاك فلم تَعُدْ لهما نضرتهما ، واظلمّ نور عيونك المائة وكأنه عليها غشاوة » . غير أن ابنة ساتورن جمعت بعدُ تلك العيون المائة ورصّعت بها ريش طاووسها كما رصّعت ذيله بجملة من الأحجار البراقة[٢٩] .

وتصدّت يونو لغريمتها الأرجوسية وهى أشدّ ما تكون غضباً ، فوكلت بها إحدى « الإيرينات » ربّات الانتقام ، وزوّدت البقرة بمنخاس خفىّ فى صدرها يدفعها إلى الهرب دائماً مصطحبة ذُعرها أنّى حلّت . وبقيتَ أنت أيها النيل آخر المطاف لرحلة إيو الشاقة المتواصلة . وما إن انتهت إيو إلى النهر حتى خرّت ساجدة على شاطئه ، رافعة رأسها متّجهة إلى السماء ــ وما كانت تملك غير ذلك ــ وعيناها تذرفان الدمع ، وهى تطلق خوارا شديداً ، وكأنها تجأر إلى چوپيتر ضارعة أن يجعل لهذه الآلام نهاية . وطوّق الإله بذراعيه عنق زوجته متوسّلاً إليها أن تستجيب لها وهو يقول بعد أن أشهد على نفسه مستنقعات نهر ستيكس : « لا تخشى بعد هذا اليوم منها بأسا » . واطمأنت الإلهة إلى ما قطعه الإله على نفسه ، وعادت

إيو إلى صورتها الأولى ، فتساقط ذلك الشعر الذى كان يكسو جلدها ، وغابت القرون شيئاً فشيئاً ، وارتدّت عيناها إلى استطالتها بعد أن كانتا مستديرتين ، وأخذ فمها يصغُر ، واستوت لها كتفاها ويداها ، وانخلعت عنها حوافرها وحلّت مكانها أصابعها الخمس بأظافرها ، ولم يتبق من صورتها وهى بقرة غير بياضها الناصع . عندها هبّت واقفة على قدميها وهى تردّد فى فيها بعض الكلمات تختبر بذلك صوتها مخافة أن يكون كما كان خواراً ، وحين اطمأنت إلى أنها استردّت صوتها أخذت تستعيد قدرتها على الكلام ، وغدت إلهة بين الإلاهات الشهيرات ، تُقدّم إليها القرابين حشودٌ من الناس قد التفوا بأردية من الكتان[٣٠] .

فـــايثـــون

ووضعت إيو إبناً هو إيبافوس[٣١] يقال إنه كان ثمرة اجتماع جوبيتر الجليل بها ، ونجد معابده تقام إلى جوار المعابد التى لأمّه . وكان فايثون ابن إله الشمس أشبه بإيبافوس طبعاً وأقرب إليه سنّا غير أنه كان معتزاً بأبيه فويبوس ، فجرّه ذلك يوماً إلى الزّهو على إيبافوس الذى لم يعد يحتمل هذه الخيلاء فقال له : « أيها المخدوع يا من يثق بكل كلمة تقولها له أمّه ، ويا من أوهموك فاصطنعوا لك أبا عزوك إليه » . فاحمرّ وجه فايثون خجلاً وكتم غيظه فى نفسه ، وسارع إلى أمه كليمينيه وأخبرها بما قاله له إيبافوس ، ثم أردف قائلاً : « جديرٌ بك أن تألمى لما أصابنى من هوان ، وإنه لعزيز علىّ أن ينالنى ما نالنى وأنا صامت لا أفوه بكلمة ، فقد كنت أخشى أن يكون إيبافوس صادقاً فيما رمانى به ، وعليك أنت وحدك إن كنت حقاً من السماء انحدرت أن تعطينى الحجّة على ذلك . عندها سوف نمسح عنا معاً هذا العار الذى لحقنا » . وانكفأ على أمه يطوّق جيدها بذراعيه ، ويستحلفها بحقّه وحق ميروبس[٣٢] وبشعلات أفراح أخواته ألا أخبرته عن أبيه من هو ؟ وأحفظت هذه الكلمات كليمينيه وأثّرت فى نفسها توسلاته ، واتّجهت إلى قرص الشمس الوضّاء رافعة ذراعيها فى الفضاء لتُقْسم وتقول : « أُقسم لك يا بنىّ بحق هذا الكوكب الذى يبهرنا بضوئه والذى هو على ما أقول شهيد ، إنك ابنٌ لإله الشمس هذا الذى يسمعنا ويرانا والذى إليه مدار حياة العالم . وإن كنت كاذبة فلتغش الشمس على بصرى فلا أعود أتطلّع إليها ، ولتكن هذه نظرتى الأخيرة إليها . وما عليك يا بنىّ كى تعرف أسلافك من الآلهة إلاّ أن تمضى غير بعيد حيث موطن هذا الإله الواقع على حدود بلادنا فتسأله عن كل ما تريد » . وملأ الاطمئنان قلب فايثون وعمّه الفرح عند سماعه قولها ، وإذا هو فوق الأثير يقصد ذلك المكان الذى يطلع منه أبوه ، مجتازاً إثيوبيا موطن شعبه ، وبلاد الهنود القريبة من قرص الشمس الملتهب .

التعقيبات

(١) كان القدماء يفرّقون بين المناطق الشديدة الحرارة الواقعة داخل المدارين والمناطق المعتدلة الحرارة شمالها وجنوبها مباشرة والمناطق الجليدية حول القطبين . وذكر ڤرچيل فى كتابه « فن الفلاحة » هذا التقسيم للأرض إلى خمس مناطق تقابل خمساً أخرى فى السموات .

(٢) يابيتوس أحد المردة التيتان أبناء جيا وهو والد أطلس وپروميثيوس ، وكان الأخير يُعدّ راعى البشر وحاميهم من غضب الآلهة ومانحهم خيرات الحضارة وأهمها النار ، ويقال إنه قد خلق الإنسان من تراب .

(٣) كان القدماء يتصورون أن الشّهد قطرات ندى تسّاقط من السماء ثم يجمعها النحل من ورق شجر البلوط الذى كان مكرّساً للإله چوپيتر .

(٤) ساتورن الذى يتحدث عنه أوڤيد يقابل كرونوس اليونانى الذى خلعه ابنه چوپيتر « زيوس » عن عرشه وألقى به فى نهر تارتاروس بالعالم السفلى . أما ساتورن الإله الذى كان يعبده الرومان فمختلف كل الاختلاف عن كرونوس لما يتحلى به من صفات طيبة ومن خلق يجنح إلى السلم .

(٥) هى بنت زيوس وثيميس ، وكانت قد عاشت فى الأرض بين البشر طوال العصر الذهبى إذ كانت تمثّل العدالة ، وقد ذكر ڤرچيل نفس الحادث فى كتابه « فن الفلاحة » .

(٦) العمالقة كائنات بشعة كثيراً ما يختلط الأمر بينهم وبين المردة . وذكر هزيودوس أن العمالقة أبناء جايا ربّة الأرض أنجبتهم من الدم الذى انتثر من جرح أورانوس « السماء » الذى ألحقه به ابنه كرونوس . وقد جمع عالم لغة يونانى فى القرن الثانى قبل الميلاد اسمه أپوللودوروس كل ما يتعلق بقصة صراعهم ضد الآلهة . وكانت هذه القصة من أحب الموضوعات إلى الفنانين الإغريق والمتأغرقين ، الأمر الذى نلمسه بوضوح على إفريز مذبح پرجامون الكبير .

(٧) كان الإمبراطور أوغسطس يعيش فوق تل الپالاتينوس فى روما ، وهو التل الذى شيدت عليه بعد ذلك قصور غيره من الأباطرة أمثال سپتيموس سيڤيروس وفلاڤيانوس . ويبدو من هذه العبارة مدى التملق الذى ذهب إليه أوڤيد .

(٨) أغلب هذه الكائنات من الآلهة اللاتين المحليين ولا صلة لهم بأولئك الذين عهدناهم فى عصر الإغريق .

(٩) إشارة إلى مقتل قيصر بواسطة بروتوس وكاسيوس عام ٤٤ . ق.م.

(١٠) أسماء جبال ثلاثة فى أركاديا بالمورة وكان لچوپيتر معبد مشهور فى ليكايوس .

(١١) أطلق اسم الطاغية Tyrant على الملوك الذين اعتلوا العرش فى المدن اليونانية التى خضعت لنظام حكم القلة « الأوليجاركية » بغير نظام الوراثة كما كان متبعاً خلال القرنين السابع والسادس ق.م. وأطلق على عهدهم اسم عهد الملوك الطغاة . غير أن حكمهم لم يكن بالضرورة متصفاً بالطغيان والإرهاب ، فقد التصق هذا المعنى المستهجن باللفظ فيما بعد ، خاصة فى عهد دويلة المدينة « پوليس » الديمقراطية فى القرن الخامس ق.م. حيث ظفر قتلة الملوك الطغاة بالتمجيد والتكريم . كذلك جاء أفلاطون فساعد على إضفاء دلالة مستهجنة على هذا اللفظ حين وصف هذا النظام فى « الجمهورية » بأنه أسوأ نظم الحكم الممكنة .

(١٢) كان الم‍ ‍يون يقطنون منطقة جبلية شمال شرق اليونان ، ويقال إن نيوپتوليموس بن أخيل كان قد أدرك شواطىء مولوسيا « إيپروس الآن » أثناء عودته من طروادة بصحبة أسيرته أندروماخى أرملة هكتور .

(١٣) كانت ربات الانتقام المسماة « إيرينيس » عند الإغريق و « فورياى » عند الرومان مسئولات عن عاقبة كل مخالفة للقوانين الإلهية وغيرها من مبادىء الأخلاق والقوانين الوضعية البشرية . ويقصد أوفيد هنا أنهن يعاقبن المذنبين ببث الجنون فيهم ، الأمر الذى يدفع إلى الإفراط فى ارتكاب الجرائم .

(١٤) الكيكلوپيس الثلاثة هم برونتس وستيروبيس وآرجيس وهم أبناء جايا وأورانوس ، وكانوا حلفاء لچوپيتر فى قتاله ضد العمالقة بل هم الذين زوّدوه بالرعد والصواعق .

(١٥) جمع حيزوم وهو صدر السفينة .

(١٦) شاعت فكرة أن الطوفان عقاب للبشر لورودها فى الكتب السماوية . وكانت الأساطير الشرقية تتضمن نفس قصة الطوفان كما نرى فى ملحمة جلجامش الكلدانية حيث نجد البطل يسمع قصة الطوفان على لسان جده الذى نجا وحده من الغرق بتشييده سفينة بأمر الإله « إيا » .

(١٧) تفصل فوكيس بين بويوتيا وأويتا جنوب ثيساليا . وكانت لجبل پارناسوس قمم كثيرة تصل أهمها إلى ارتفاع ٢٤٥٧ متراً فوق سطح البحر .

(١٨) كان ديوكاليون بن عم پيرا فهو ابن پروميثيوس وهى ابنة إيپميثيوس شقيق پروميثيوس . وثمة أسطورة تقول إن ديوكاليون وپيرا قد وضعا فى صندوق مغلق أرسته المياه على قمة جبل پرناسوس ، وقيل إنه جبل أوتريس أو إتنا أو أثوس .

(١٩) يذكر هرمان فرانكل فى كتابه عن أوفيد صحيفة ٧٦ أن المقصود من الأم هنا « جايا » الأم الأرض ، أما العظام فهى الصخور والحصى التى كان ديوكاليون وپيرا يقذفانها من وراء ظهريهما فيولد منها جنس جديد من البشر .

(٢٠) استمد أوفيد هذه النظرية من فلسفة الرواقيين الذين استمدوها بدورهم من الفيلسوف أنكساجوراس .

(٢١) كان الثعبان عند الإغريق تجسيداً لآلهة الخصوبة . وكان فوز أپوللو على پيثون رمزاً لخلع جايا من الألوهية . والمعروف أن عبادتها ظلت فى پيثو ، وهو الاسم القديم لدلفى إلى أن وفدت عبادة خليفتها أپوللو على نفس المكان ، وأغلب الظن أنها عبادة كريتية الأصل . وكانت الألعاب الپيثوية التى تقام فى دلفى تكريما لأپوللو مجرد مباراة موسيقية فى بادىء الأمر ، ثم تحولت فى عام ٨٥٢ ق.م. إلى مهرجان يضم مباريات فى الفروسية وألعاب القوى كما كانت الحال فى الألعاب الإغريقية الأخرى .

(٢٢) يخترق نهر پينيوس إقليم ثيساليا ويجتاز عند نهايته وادى تمپى المشهور .

(٢٣) كانت كلاروس على شواطىء أيونيا ، وتنيدوس جزيرة فى مدخل الهليسپونت ، وپاتارا مدينة كبيرة على شواطىء ليسيا وكلها تضم معابد أپوللو .

(٢٤) اشتهرت كلاب الغال بسرعة العدو .

(٢٥) هايمونيا اسم آخر لثيساليا .

(٢٦) حوريات الأشجار .

(٢٧) جبل بأركاديا .

(٢٨) نهر فى أركاديا .

(٢٩) كان الطاووس هو طائر چونو المقدس .

(٣٠) كان الإغريق يخلطون دائماً بين إيو وبين إيزيس الإلهة المصرية الممثّلة دائماً بقرنى بقرة . وكانت عبادة إيزيس قد انتشرت فى أنحاء العالم الإغريقى منذ تأسست مدينة الإسكندرية ثم انتشرت عبادتها فى الدولة الرومانية مع الأباطرة الأول ، كما كان المصريون يرتدون ثياباً من الكتان فى حين يرتدى الإغريق ثياباً صوفية . ويروى أيسخولوس قصة مسخ إيو فى مسرحيته « الضارعات » وفى « پروميثيوس مغلولا » . أما المؤرخ هيرودوتس فيقرر أن إيو بنت إيناخوس ملك أرجوس قد اختطفها تجار فينيقيون وأبحروا بها إلى مصر .

(٣١) اعتبر الإغريق إيپافوس هو العجل أبيس المصرى .

(٣٢) كليمينيه هى بنت أوقيانوس وتيثيس ، وهى زوجة ميروپس ملك إثيوپيا « النوبة » ، وكانت قد أنجبت من هليوس إله الشمس قبل زواجها فايتون والهيلياديس بنات الشمس .



بيكاسو

الكتاب الثانى

فـــايـــشـــون

كان قصر الشمس شامخ الأعمدة متألّقاً ببريق ذهبه وبرونزه وأسطحه العاجية المصقولة ، تنعكس الأضواء من أبوابه الفضّية ذات المصراعين التى كانت صِنْعتها أكثر قيمة من جوهرها ، فقد نقش مولكيبير[١] [ڤولكانوس أو هيفايستوس] فوقها البحار وهى تضمّ الأرض بين أحضانها ومن فوقها السماء . وفى خضمّ الموج ظهر آلهة البحر : تريتون[٢] الشّادى ، وپروتيوس[٣] ذو الأشكال المختلفة ، وأيجيون[٤] المتّكىء بذراعيه على ظهر حُوتَيْنْ ، ودوريس[٥] وبناتها بين سابحة فى الماء أو ممتطية ظهر سمكة أو جالسة على صخرة تجفّف شعرها الذى كساه البحر من زُرقته ، وكُنّ على الرغم من تخالُف ملامحهن يربط بينهن ما يشبه الأخوّة . وظهرت فوق الأرض جماعات البشر والمدن والغابات والوحوش والأنهار والحوريات وجنّيات

الريف ، تُظلُّهم جميعاً السماء ببروجها الإثنى عشر[٦] ، ستّة على المصراع الأيمن للباب ، والأخرى على مصراعه الأيسر .

وأُصعد ابن كليمينيه إلى قصر ذلك الإله وهو يسائل نفسه أية قرابة تلك التى بينه وبين إله الشمس ؟ وتقدّم إلى أبيه ، غير أنه لم يقو على أن يقترب منه فقد بهره بشدّة نوره . وكان إله الشمس جالساً فى ثوب أرجوانى على عرش يتألّق بزمرّده ، واصطفّت إلى جانبه على مسافات متساوية ربّات الزمن : « اليوم » و« الشهر » و « السنة » و « القرون » و « الساعات » . وهناك أيضاً كان الربيع الغضّ مكلّل الرأس بالزهور ، والصيف الأجرد حاملاً سنابل القمح بيمينه ، والخريف بقدميه المبلّلتين بعصير الكَرْم الأرجوانى الذى هرسه ، والشتاء القارس الأشهب بخصلات شعره البيضاء .

وتملّكت الصّبى رِعْدَةٌ ذَهَلاً من غرابة ما يراه ، واستدار إليه الإله الشمس وهو فى جلسته بين حاشيته وحدجه بعينه التى ترى كل شىء ، وسأله : « فيم جئت ؟ وما قصدك من زيارة هذه القلعة يا فايثون ، يا من لا يَقْوَى أبوك على أن ينكر بنوّتك » ، فأجابه قائلاً : « أبى ، أيها الإله فويبوس ، يا من يهنأ كل ما فى الكون الفسيح بنورك ، إذا كنت قد أجزت لى أن أناديك « أبى » ، وإذا كانت كليمينيه لا تكذبنى ولا تُخْفى عنى أسرار خطيئة ارتكبتَها ، فلْتقدِّم لى دليلاً على صدقها وبرهاناً يُثبت بنوّتى لك ويبدّد كل شكوكى » .

وما إن انتهى من كلماته حتى طرح الأب عن رأسه وهج أشعته وسأل ابنه أن يقترب منه ، وما كاد يفعل حتى احتضنه قائلاً : « إنك حقيق بأن تكون ابنا لى ، وقد صدقتك كليمينيه فيما حدّثتك به عن نسبك ، وسوف أستجيب إلى أى طلب لك كى أبدّد شكوكك مُشهداً على ذلك تلك البحيرة التى يُقْسم عندها الآلهة ، والتى لم يقع عليها بصرى قط » .

وأسرع فايثون فطلب من أبيه أن يتخلّى له يوماً عن مركبته ليركبها ويدفع خيولها المجنّحة الأقدام . عندها ندم إله الشمس على وعده ، وهزّ رأسه المتألّقة مرات ثلاث ، وقال : « إن استجابتى لطلبك تكشف عن اندفاعى وتسرّعى ، وكم وددت لو نقضتُ ما وعدت . ولتعلم أن هذا الذى تطلبه منى هو ما آباه عليك وأحُول دونك ودونه ، فأنت مُقْدمٌ على عمل خطير تَقْصُرُ عنه قوتك ويعجز عنه شبابُك الغَض . وهل أنت غير بشر ، وما فى قدرة البشر الفانى فِعْل ما تريد ، وإن جهلَك بالأمور هو الذى يجعلك تطمع فيما لا يناله الآلهة أنفسهم ، فهم على ما بلغوا من قوة لا يشاركوننى ارتقاء هذه المركبة الناريّة التى لا يقوى على قيادتها كبير آلهة الأوليمبوس نفسه رغم بأسه وامتلاكه الصواعق يطوّح بها بيده العاتية ، فمن تراه يفوق جوبيتر قوة ؟ والخيل لا تقوى على ارتقاء الطريق الصاعد إلّا بجهد حتى فى الصباح وهى ماتزال فى عنفوانها ، وكم أُصَابُ أنا بالهلع ويخفق قلبى حين تبلغ المركبةُ سمتَ السموات العليا وأطلُّ على الأرض والبحار . ثم إن الطريق ينحدر هابطاً بعد ذلك فتغدو قيادة الخيل فى حاجة إلى يد قوية وصلابة وثبات ، وما أكثر ما كانت الإلهة تيثيس[٧] التى تستقبلنى فى مياها تخشى أن أسقط من علٍ . هذا إلى ما كان يعتمل فى

السماء من حركة أبدية تدفع بها النجوم فى دورتها العَجِلة فى الأفلاك[٨] . وكان علىّ أن أشقّ طريقى وسطها دون أن تهوى بها عند صدامها بى ، فأنا وحدى القادر على السير ضد مدار الكواكب الدائرة فى أفلاكها . وماذا تملك أن تفعل أنت لو أسلمتك المركبة ؟ أتراك قادراً على الصمود أمام دورة القطبين العنيفة دون أن تقذف بك بعيداً قُبَّة السماء الدوّارة ؟ هل تخال السماء ملأى بالغيضات المقدّسة ومُدُن الآلهة والمحاريب التى تفيض ثراء ؟ ما أبعد ذلك عن الواقع يا بنىّ ، إن عليك أن تشقّ طريقك وسط شراك خطرة وحيوانات ضارية ، ولو قُدِّر لك أن تسلك طريقك السوىّ دون أن تنحرف هنا وهناك ، فسوف يكون عليك أن تتجنّب قرنى برج « الثور » الخطير وقوس برج « الرامى » وأنياب الأسد الهائج ، وأذرعة العقرب التى قد تُطْبِق عليك من ناحية على حين تهدّدك أذرعة السرطان من ناحية أخرى[٩] . ثم كم ستثقل عليك قيادة خَيْلى حين تشتعل النيران المختزنة فى صدورها وتنفثها من خطمها وخياشيمها ، فهى لا تكاد تطيق كفىّ ساعة تثور حماستها ولا تستسلم رءوسها لأعنّتى . إننى أحذّرك خشية أن يكون فى استجابتى لطلبك ما يحرّك إلى الهلاك ، وإن الفرصة لاتزالُ سانحة بين يديك أن تطلب ما تشاء عوضاً عما منحتك إياه مما ينفعك . فليس ثمة دليل على أبوّتى لك أوضح من لهفتى عليك ، وخوفى عليك شاهد أبوّتى ، فلتتطلّع إلى وجهى لعل عينيك تستطيعان النفاذ إلى أعماقى ورؤية ما يختلج فيها من قلق عليك . تلفّت إلى خَيْرات الكون حواليك وتشهّ ما شئت من طيّبات الأرض أو البحار أو الأجواء فلن أضنّ عليك بشىء منها ، واعلم أنى لن أرجعَ عما وعدتُ به ، غير أنه لن يكون تكريماً لك بل عذاباً تشقى به . فيم إذن معانقتك لى تستعطفنى وأنت لا تعى كُنه طلبتك ؟ ولكن على الرغم من هذا فلا تخشى ألاّ أحقّق لك ما طلبت فقد أقسمت على الوفاء بنهر ستيكس ، ولكنى أريد منك أن تُنعم النظر فيه » .

وضرب الابن بتحذيرات أبيه ونصائحه عرض الحائط ، فقد كان توّاقاً إلى قيادة مركبة إله الشمس . وحين أحسّ الأبُ ذهابَ محاولاته عبثاً فى أن يُثْنِى ابنه عن عزمه أخذه إلى مركبته الهائلة التى صنعها له ڤولكانوس وصاغ من الذهب محاورها وعريشها وأُطُر عجلاتها ، كما جعل أقطار العجلات من الفضة ، ووشّى نيرها بالزبرجد ، ورصّ بها صفوفاً من الجواهر تُرسل بريقاً حين ينسكب عليها نور فويبوس .

وحين أخذ فايثون الطَّمُوح يتحسّس أجزاء المركبة فى إعجاب كانت « أورورا » ربّة الفجر المُشرق قد بدأت تفتح فى أقصى الشرق أبواب قاعاتها المُترعة بالورود ، فانسلّت النجوم تدفع صفوفها الطويلة نجمة الزهرة[١٠] التى كانت آخر من تركت مكانها فى السماء . وما إن رآها إله الشمس تغرب مع قرنى القمر وسط السماء الوردية حتى أمر ربّات « الساعات » السريعة الخُطى بشدّ الجياد إلى النِّير ، فاستجابت « الساعات » لأمره وأخرجت الجياد من الحظائر السماوية ، تنفث اللهب مُتْخمة بما التهمت من الأمبروزيا [طعام الآلهة] ، وربطتها إلى المركبة .

وطلى الأب وجه ابنه بدهن مقدس كى يُعينه على احتمال وهج النيران ، وتوّج رأسه بحزمة من أشعة الشمس ، وأطلق زفرة عميقة كشفت عما يترقّبه من فجيعة محزنة ، وقال : « فلتُطع نصائح أبيك ما استطعت . كن مترفّقاً فى استعمال السوط ، واقبض على الأعنّة بكل ما تملك من قوة ، ودع الجياد تمضى فى

عَدْوِها فالويل لك إن هى أبطأت ، وتجنّب الطريق المستقيم المار بمناطق السماء الخمسة ، واتبع الطريق المنحدر الدائرى الفسيح المار خلال مناطق الكون الثلاثة الوسطى متجنّباً القطبين الشمالى والجنوبى وعواصفهما الشديدة البرودة ، ولسوف تتبينّ فى هذا الطريق آثار عجلات المركبة . ولا تجنح إلى طبقات الجو العليا أو السفلى ، ودع الدفء قسمة عادلة بين الأرض والسماء ، فإنك إن ارتفعت عالياً أشعلت النار فى قبّة السماء ، وإن هبطت إلى أسفل أحرقت الأرض ، وإن آمن الطرق أوسطها . ولا تنحرف يميناً صوب كوكبة الأفعى الملتفّة حول نفسها ، ولا يساراً نحو منخفضات كوكبة المجمرة ، وكن بينهما على بُعد وسط . وسوف أترك ما وراء ذلك لإلهة الحظ « فورتونا » سائلاً إياها أن تحيطك برعاية تفوق ما تملك أنت لنفسك ، وهيّا الآن فقد بلغ الليل الشاطىء الغربى وما فى استطاعتنا أن نتلبّث ، وعلينا أن نبادر بالظهور فقد بدأ نور الفجر ينبلج وأخذت الظلمة تتبدّد . اقبض بقوة على الأعنّة ، برغم أنى مازلت آمل أن تستجيب إلى نُصحى ولا تُقْدِم على ركوب هذه المركبة ، فما برحت أنت قادراً على التّراجع عن رغبة فيها هلاكك ، وما برحت قدماك ثابتتين على الأرض الصلبة . إنك مازلت قليل الخبرة ، وإذا شئت أن تنعم عيناك بالنور وأنت آمن ، فَدَعْنى أسكبُه لك على الأرض » . غير أن فايثون اندفع فى حماسة الشباب واعتلى المركبة التى لم تنؤ بجسده الغض ، وأخذ الأعنّة من يد أبيه فرحاً ، واتخذ مكانه واقفاً ولسانه يلهج بشكر والده المحزون .

أخذت خيول إله الشمس الأربعة پيرويس وإيووس وأيثون وفليجون[11] تملأ الأجواء بصهيلها وأنفاسها المشتعلة ، وتضرب الحواجز بحوافرها ، وسرعان ما أزاحت الإلهة تيثيس الحواجز من طريق الخيل وهى تجهل المصير الذى ينتظر حفيدها ، فتفتّحت أبواب السماء أمام الجياد التى اندفعت صاعدة فى الفضاء بحوافرها المجنّحة متخطّية رياح الشرق العاصفة فى مهادها . وأحسّت الجياد بالمركبة أكثر خفّة مما كانت حين كان يعتليها إله الشمس ، وبدت المركبة كالسفينة التى يتلاعب بها الموج لخفّتها ، فأخذت تتأرجح وتعلو وكأنها فارغة ، وما إن أحسّت الجياد بذلك حتى انحرفت عن طريقها وتخلّت عن اتجاهها المعهود . واستولى القلق على قائد المركبة الذى كانت تعوزه المهارة فى القبض على أعنّة الخيل فانفلت زمامها من يديه ولم يعد يعرف طريقه ، ولو قُدِّر له أن يعرفه فلن يُقَدَّر له أن يملك السيطرة على الجياد . عندها التهبت كوكبة الدبّ الأكبر الثلجية للمرة الأولى ، وعبثاً حاولت أن تبترد فى مياه البحر المحرّم عليها ، ودبّت ثورة محمومة فى كوكبة الثعبان التى كانت برودتها تثبط من حركتها ، ويقال إن كوكبة « راعى الشاء » قد ولت فرارا وقلبها مشحون قلقاً رغم بطء حركتها ورغم كونها أسيرة مركبتها المتهادية .

ووقع بصر فايثون التعس من السماء الشاهقة على الأرض التى على بعُد سحيق ، فعلا وجهه الشحوب وارتجفت أطرافه رعباً ، وغشّى الوهج عينيه ، وتمنّى لحظتها لو لم تمسس يداه قط جياد أبيه ، وعراه الندم على محاولته تعرّف نسبه وعلى استجابة أبيه لرغبته ، وودّ لو كان ابنا لميروپس بدلاً من فويبوس[12] وقد أخذت المركبة تهتز كسفينة جرفتها رياح الشمال العتيّة ، فأسلم ربّانها لها القياد تاركاً رعايتها للآلهة يضرع إليها بالدعاء . ماذا تُرى فايثون فاعلاً ؟ لقد قطع مسافة شاسعة من السماء وكانت

ثمة مسافة أبعد مدى عليه أن يقطعها ، وأخذ ينظر إلى الغرب الذى لن يبلغه ثم إلى الشرق وراءه ، وهو بينهما حائر عاجز عن إرخاء العنان وجذبه والسيطرة على الجياد التى كان يجهل حتى أسماءها .

وزادته خوفاً تلك الوحوش الضخمة التى وقع بصره عليها متناثرة على صفحة السماء المرصّعة بالنجوم ، ورأى العقرب يمدّ إليه مخالبه على شكل قوسين مُرْخِياً ذيله ، باسطاً أذرعه المستديرة على جنبيه فوق نجمين . ولم يكد الفتى يراه فى صورته البشعة يتقاطر منه السم القاتل حتى جَمُدَ الدم فى عروقه وعراه فزع أسقط من يده العنان على ظهور الجيـاد التى وجدت نفسها طليقةً مُرْسَلةَ الزِّمام ، فانحرفت عن طريقها المألوف وانطلقت على هواها خلال أجواز الفضاء تطرق دروباً مجهولة ، واتجهت إلى النجوم العالية تجرّ المركبة وراءها متنقّلة من هوّة إلى أخرى ، صاعدة المرتفعات تارة وهابطة المنحدرات تارة أخرى حتى اقتربت من سطح الأرض . وأمسك العجب بـ « لونا » ربّة القمر وهى ترى جياد أخيها تهوى والدخان ينطلق من السحب المحترقة والنيران تلتهم مرتفعات الأرض فتتشقّق وتبرز فيها الأخاديد لجفاف تربتها وتلتهم المراعى فتنقلب هشيماً ، وألسنة اللهب تأكل الأشجار وأوراقها متّخذة من حصاد الحقول وقودها . ولم يكن هذا كله غير شىء هيّن إلى جانب اندثار المدن الكبرى واحتراق الأسوار وتهدّمها وتحوّل شعوب بأسرها إلى رماد ، واشتعال الغابات على سفوح الجبال . وقد أكلت النار جبل آثوس[١٣] ، وجبل الثور[١٤] فى سيليسيا وجبل تيمولوس[١٥] ، وجبل أويتا[١٦] ، وجبل إيدا[١٧] الذى كانت ينابيعه ذائعة الشهرة قبل جفافها ، كما أتت النيران على جبل هيليكون موطن ربّات الفنون ، وجبل هيموس[١٨] الذى ارتبط اسمه بعد ذلك باسم أورفيوس ، وتأجّجت نيران بركان إتنا[١٩] فتطاولت ألسنتها إلى آفاق عالية . واشتعلت القمم التوائم بجبال پارناسوس ذات القمّتين وإيريكس[٢٠] وكينثوس[٢١] وذاب جليد جبال أوثريس[٢٢] ورودوپى[٢٣] وميماس[٢٤] وديننديما[٢٥] وميكالى[٢٦] وكيثايرون[٢٧] مهد الطقوس الدينية ، ولم يَحْمِ الصقيع جبال سكيثيا من أن تلتهمها النيران ، وكذلك كان مصير جبال القوقاز[٢٨] وأُوسّا وپيندوس ، وتوهّج اللهب فى الأوليمپوس[٢٩] أعظم هذى الجبال شأناً ، وبلغت الحرائق جبال الألب الشاهقة الارتفاع وسلسلة جبال الإپنين التى تتوّج السُّحب قمتها .

ورأى فايثون العالم كله مشتعلاً بالنار فغشيته حرارة عجز عن احتمالها وأرسل زفرات حارة كتلك التى تُطلقها الأفران المشتعلة ، يحاصره وهج مركبته فيضيق بالشَّرَر المتطاير منها ، ويلفّه الدخان الساخن وتُعميه الظلمة الحالكة فلا يدرى أين هو ولا أين يسير ، تجمح خيوله العجلى على هواها حيث تقودها أقدامها المجنّحة . وشاع بين الناس أن بَشَرة الإثيوپيين قد استحالت سوداء فى هذه اللحظة إذ انبثق الدم إلى بشراتهم . وفى هذه اللحظة أيضاً جفّفت الحرارة مياه ليبيا فغدت صحراء ، وأخذت الحوريات ينزعن شعورهن نائحات على ينابيعهن وبحيراتهن المفقودة ، وعبثاً حاولت بويوتيا البحث عن ينبوع ديركى[٣٠] بين ظهرانيها ، وأرجوس عن ينبوع أميمونيه[٣١] ، وإفيرى[٣٢] عن مياه پيرينى .

ولم تسلم مياه الأنهار المتدفّقة فى مجراها السوىّ من لفح النيران الذى جفّف الينابيع ، فقد تبخّرت مياه نهر تانايس[٣٣] حتى بدا جافّاً ، كما جفَّ نهر پينيوس[٣٤] العتيق ، ونهر كايكوس[٣٥] فى ميسيا ، ونهر

إسمينوس[٣٦] السريع الجريان ، وحاق المصير نفسه بنهر إيريمانثوس بأركاديا ، وبنهر زانزوس[٣٧] الذى
غاض ماؤه بعدُ . وكذا نهر ليكورمارس[٣٨] الأصفر ، ونهر مياندر[٣٩] الذى يتلوّى مجراه فى منحنيات شبيهة
بالدوائر ، ونهر ميلاس بطراقيا ، ونهر إيروتاس باسبرطة ، وكذلك نهر الفرات ببابل ، والعاصى بسوريا ،
وثرومودون[٤٠] الجيّاش ونهر الجنج بالهند ، وفازيس[٤١] ، وهيستر[٤٢] وغلت مياه نهر ألفيوس[٤٣]
والتهمت النيران شواطىء نهر سپيرخيوس[٤٤] ، وذاب الـذهـب المكنوز بأعماق نهر تاجه ، واحترقت طيور
نهر مايونيا[٤٥] وطيور نهر كايستر[٤٦] التى أضفى تغريدها على شواطئه ذيوعاً لصيته ، وأمسك الذعر بنهر
النيل فولّى هارباً وأخفى رأسه فى أقاصى الأرض حيث استَقَرّتْ هناك ، وخلّف مصابُه القنوات السبع
جافة لا يغمرها غير التراب ، وبقيت سبع وديان بلا مياه . وحاق هذا المصير بنهرى الهيبر[٤٧] ،
وستريمون[٤٨] الواقعين فى بلاد الإيزماروس[٤٩] ، وكذلك أنهار منطقة هيسپيريا[٥٠] وهى الراين والرون
وپو والتيبر الذى وعدت الآلهة بأن يسود الكون .

٢٦٠ أخذت الشقوق تغشّى الأرض ويتسرّب من خلالها الضوء حتى بلغ تارتاروس ، مُلْقيا الرُّعب فى
قَلْبَىْ عاهلى العالم السفلى . وتقلّصت المحيطات مخلّفة مساحات شاسعة غطتها أكوام الرمال ، ومُبرزة جبالاً
كانت مستورة تحت المياه العميقة[٥١] ، فتكاثرت سلاسل المرتفعات المنتشرة فى العالم ، وانقلبت الأسماك
تغوص فى أعماق المستنقعات ، وجَبُن الدرفيل عن القفز فى الهواء كعادته ، وطفت جثث عجول البحر فوق
سطح البحار ، وقيل إن نيريوس وزوجته دوريس وبناتها قد استشعروا وهج الحرارة وهم فى أغوار
كهوفهم ، وعجز نپتون عن إخراج رأسه وذراعيه من مياه البحر بعد أن حاول ذلك مرات ثلاث لاشتعال
الهواء خارج البحار .

وحينما نفذت مياه البحار والمحيطات المحيطة « بالأرض » إلى أحشائها وملأت جوفها المعتم أخرجت
« الأرض » رأسها من بين الرماد وأحاطتها بيديها اتّقاء للفحات الحرارة ، فاهتزّ كل شىء اهتزازاً عنيفاً ،
٢٨٠ وهوت الأرض عن مكانها المعتاد وهى تنبث فى ألم مهمهمة : « إذا كانت هذه هى مشيئة القدر ، وإذا كان
هذا مصيرى ، فلم لا تعجّل أيها الإله القادر بإرسال صواعقك لأهلك على يديك إن كان قد قُدِّر لى أن
أهلك بالنار ، فأية كارثة تبعث بها أنت يهون علىّ حملها » . وكانت حرارة الأجواء تلسع حلقها حين
تتحدّث ، فأردفت تقول : لكم يشقّ علىّ أن أفتح شفتى لأتحدّث . وها هو ذا شعرى قد احترق ، وانساب
الرماد إلى عينى بعد ما غطّى وجهى . أهذا هو جزاء خصوبتى ؟ أهذا هو التكريم الذى أناله على
خدماتى ؟ أمن أجل هذا احتملت الجراح التى شقّتها فى جسدى المحاريث والفؤوس دون أن أنال قسطاً من
الراحة طوال العام ؟ أهذا ما أُجَازى به عن تدبيرى الأوراق والأعشاب الرطبة للماشية ، والغلال للبشر ،
وإنباتى الأخشاب العطرة التى تُحرَق من أجلكم بخوراً أيتها الآلهة ؟ . وإذا كنت مستحقة للهلاك ، فأى
ذنب جنته المياه ؟ وماذا جنى أخوك حتى تتضاءل البحار التى مُنِحها ساعة تقسيم الكون ؟ . فإذا لم تكن بى
مُشْفِقا ولا بأخيك ، فلتتلفّت حواليك ولتُشفق على مملكتك السماوية ، لقد أمسكت النار فى القطبين ولو
أتت عليهما لانهدم قصـرك . ولتنظر إلى أطلس[٥٢] يعانى مُثْقلا بحمل السماء المشتعلة فوق كتفيه ، وتذكّر

أنه لو هلكت الأرض والبحار والسماء لانتهى الأمر بنا جميعاً إلى الفوضى الشاملة . فبادر إلى إنقاذ ما يسعك إنقاذه من الدمار أيّها الإله الأجَلّ ، وأدرك الكون واكتب له النجاة » .

ولم تكد تنته ضراعة إلهة الأرض حتى حنت رأسها ودفنتها فى الكهوف المتاخمة لعالم الموتى عاجزة عن احتمال مزيد من الحرارة . ودعا ربّ الأرباب الآلهة إليه ومن بينهم إله الشمس الذى أسلم مركبته لولده فايثون ، وبعد أن أشهدهم جميعاً على أن نجاة العالم من الفجيعة رهن بمعونة فويبوس صعد عالياً فى السماء إلى ذلك المكان الذى اعتاد أن يُطلق منه الغيوم والرعود والصواعق الخاطفة ، غير أنه لم يرسل سحباً ولا أمطاراً وإنما أطلق رعداً مدوّيا ، ورفع بيده الصاعقة قريباً من أذنه اليمنى ثم صوّبها إلى قائد مركبة الشمس فأفقده توازنه وحياته معاً . وكان لهيب الصاعقة أعظم أثراً من نيران مركبة الشمس فأحرقت المركبة وانطلقت خيولها مولّيةً الأدبار على غير هدى ، وتناثرت أجزاء المركبة فراحت عُدّة الجياد يُمنة بينها ذهب عريش المركبة يُسرة ، وهنا وهناك برامق العجلات وحطام المركبة . وهوى فايثون فى الفضاء والنار مشتعلة فى خصلات شعره تتلوّى خلفه كأنها نجم لامع فى السماء الصافية ، حتى هبط فى بقعة قصيّة من الأرض بعيدة عن مسقط رأسه ، وتلقّاه نهر إيريدانوس[٥٣] العظيم فبلّل وجهه المحترق بمياهه ، وقامت الحوريات الإيطاليات بدفن رفاته التى التهمتها النيران ذات الألسنة الثلاثة ، ثم نقشن على شاهد قبره هذه الأبيات :

« هنا يثوى فايثون قائد مركبة أبيه .
وهو وإن لم يُكتب له النجاح فى قيادتها
إلا أنه قضى نحبه شهيد شجاعته الخارقة » .

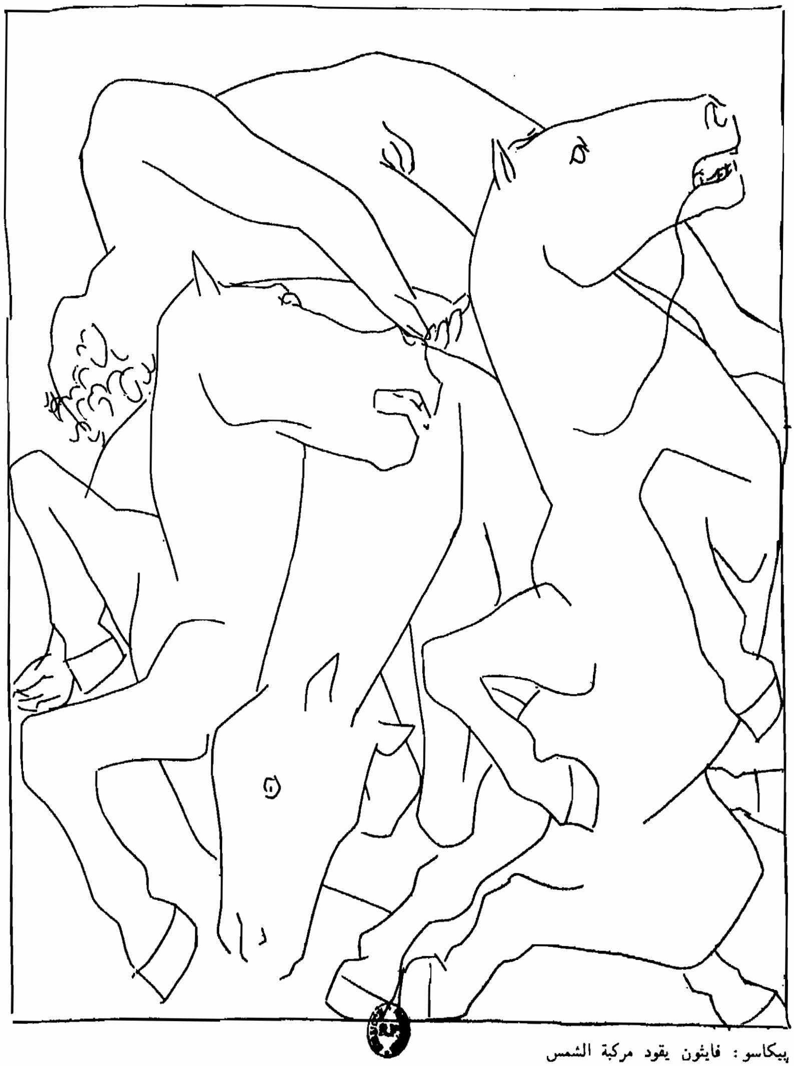
وأدّت الحوريات هذا الرثاء عن أبيه التعس الذى أمضّه الأسى فغطى وجهه وأخفاه عن جميع الأنظار .

وإذا كان حقاً ما يقول الراوى ، فقد احتجبت الشمس فى ذلك اليوم فأضاءت النيران المشتعلة العالم ، وهكذا كانت لكارثة فايثون حسب هذا الرأى نفع ما .

وكانت كليمينيه أم فايثون أول من بكاه بكاء زاد من هول المأساة ، فلقد أفقدها حزنها وعيها فشقّت ثوبها عن صدرها ، وراحت تضرب فى الأرض على غير هدى بحثاً عن جثة ولدها حتى وجدتها مدفونة بشاطىء ذلك النهر البعيد ، فاحتضنت الصخرة التى نُقش عليها اسمه وبلّلتها بدموعها مُلْصِقة صدرها العارى بها[٥٤] .

ولم يكن حزن بنات الشمس على أخيهن أقل من حزن أمّهن عليه ، فاستسلمن للبكاء والعويل ، وضربن صدورهن بأكفّهن وألقين بأنفسهن على قبر فايثون ينادينه ليل نهار دون أن يسمع صراخهن . ومضت أشهر أربعة وشقيقات فايثون مقيمات عند القبر يؤدّين طقوس الحداد التى أصبحت من كثرة تكرارها إحدى العادات . وفى أحد الأيام تهاوت على الأرض كبراهن فايثوزا وشكت عجزها عن تحريك قدميها ، فخفّت لنجدتها أختها الشقراء لامپتييه ، غير أنها وقعت فى قبضة جذور شجرة نبتت فجأة ،

واكتشفت الثالثة وهى تشدّ شعرها أنها تقطف من رأسها أوراق شجرة ، وأطبق جذع شجرة على ساقى واحدة ، بينما تحوّل ذراعا أخرى إلى غصنين طويلين . وعلى حين أخذتهن الدهشة بما يجرى لهن كان لحاء الأشجار يلتف حول أفخاذهن ويغطى أجسادهن شيئاً فشيئاً فكسا أرحامهن وأثداءهن ثم أكتافهن وأيديهن ، ولم يبق غير شفاهن التى كانت تنادى عبثاً أمّهن .



پيكاسو : فايثون يقود مركبة الشمس

ولم يكن بوسع هذه الأم الملتاعة غير أن تهرول هنا وهناك تدفعها أحاسيسها كى تختلس من بناتها القبلات ما أمكنها ذلك . لقد حاولت فى أوج ثورتها تمزيق أجساد بناتها وإنقاذهن من جذوع الأشجار ، وهشّمت الأغصان غصناً غصناً ، وكانت كلما هشّمت غصناً انسكبت منه قطرات دم كأنه جرح ينزف ، وصاحت إبنة لها وهى تكسر غصنها قائلة : « رفقاً بى يا أماه ، ناشدتك ألا تؤذيننى بما تفعلين ، إنك تصيبين بالأذى جسدى الذى يستحيل إلى شجرة ، فوداعاً يا أماه » .

وما لبث لحاء الشجرة أن انطبق على هذه الكلمات الأخيرة ، وانسابت دموعٌ جمدّتها الشمس فإذا هى كهرمان[٥٥] أخذ يتساقط من الأغصان الجديدة على صفحة النهر الوضّاءة ، فتحملها مياهه بعيداً كى تصبح فى الأيام القريبة زينة عرائس الرومان .

سـيجنـوس

وشهد هذه المعجزة سيجنوس [كيجنوس] بن سثينيلوس الذى كان أكثر قرباً إلى فايثون بعواطفه منه بقرابته ، وكان قد بسط سلطانه على شعوب ليجوريا[٥٦] ومدائنهم العظيمة ، غير أنه ترك مملكته ليردّد نهر إيريدانوس[٥٧] وشطآنه الخُضر صدى أنّاته وأحزانه ، ولتمتلىء بعويله الغابات التى كَثُرت أشجارها بعد أن استحالت شقيقات فايثون أشجاراً ، وبحّ صوته من طول نحيبه فهزُل جسمه ، وتحوّل شعره ريشاً أبيض ، واستطالت رقبته ، واحمرّت أصابعه ونما فيما بينها غشاء ، وبرز من جنبيه جناحان ، وتحوّل فمه إلى منقار غير مدبّب . وما لبث سيجنوس أن تحوّل إلى نوع جديد من الطيور هو طائر البجع ، ولم يعد يثق بالسماء أو بچوبيتر ، وظل يذكر فى أسى إرسال چوبيتر لصاعقته ، ولشدّة بغضه للنيران آثر بعد ذلك أن يعيش فى الأنهار والبرك والبحيرات الفسيحة على أن يحلّق فى السماء .

وارتدى والد فايثون ثياب الحداد وانطفأ بريقه المألوف وكأنما غشّاه الكسوف ، وسخط على الضياء وكره نفسه كما كره نور النهار وأسلم نفسه لأحزانه وأقعده الغضب عن أن يطالع العالم بنوره ، وأخذ يحدث نفسه قائلاً : « لشدّ ما سئمت عملى المحدّد الرتيب الذى حرمت معه الراحة منذ بداية الكون ، وتولاّنى الإرهاق من عمل لا نهاية له وجهود لم أنل عليها تقديراً . إذن فليقم غيرى ممن يعنيهم الأمر بقيادة مركبة الفضاء ، فإن أحجم الآلهة عن القيام بهذا الواجب ولم يتقدم لها متطوّع فليقُدْها چوبيتر نفسه ، وهو إن تصدّى لقيادة مركبتى والسيطرة على زمام جيادى فلسوف يعزف عن إرسال تلك الصواعق التى تحرم الآباء من أبنائهم ، ولأدرك وهو يمسك بأعنّة هذه الجياد النارية الأقدام الشديدة البأس أن الموت لا يحمل أن يكون جزاء من يعجز عن قيادتها » .

وتحلّق الآلهة حول إله الشمس يلحّون فى الرجاء ألاّ يدع العالم أسير الظلمة ، واعتذر چوبيتر عن إرساله الصاعقة ، وشارك بدوره فى الرجاء المشوب بالوعيد على غرار ما يفعل الملوك . وتقدّم فويبوس

فأمسك بزمام جياده التى كانت ماتزال تُرْعَدُ خوفاً فألهب ظهورها بسوطه ، ووخزها وهو فى غمرة الحزن ووقدة الغضب وكأنها المسئولة عن تلك الفاجعة التى نزلت بولده .

كاليستو

وهبّ كبير الآلهة الواسع القدرة يطوف حول أسوار السموات يتعرّف الأضرار التى ألحقتها بها ضراوة النيران ، وحين اطمأن إلى أنها لاتزال على حالها صلبة مدّ بصره فوق الأرض يتأمل ما صنعته أيدى البشر . وحرّكت أركاديا(٥٨) التى يؤثرها قلقه ، فأسرع يعيد المياه إلى الينابيع والأنهار التى كانت قد كفّت عن الجريان ، وكسى الأرض بالخضرة وأنبت الأوراق فى الأشجار ، وبثّ النماء والخضرة فى الغابات المحترقة من جديد .

وخلال تطوافه وقع بصره على حوريّة أركادية فإذا هو يَجْمُد أمامها وقد احتدمت فى نفسه الرغبة . ولم تكن فتاة من غازلات الصوف الناعم أو المُغْرمات بتصفيفات الشعر المتنوّعة بل كانت إحدى تابعات الربّة فويبيه [ديانا] ، رداؤها فضفاض ثُبِّت بمشبك ، وشعرها المنسدل على ظهرها يضمّه شريط أبيض ، وقد أمسكت فى يدها رمحاً أو قوساً ، وكانت أحبّ حوريات جبل ماينالوس إلى قلب ربّة « مفترق الطرقات » ، غير أن الحظوة لا تدوم طويلاً(٥٩) .

ومالت الشمس قليلاً عن كبد السماء ، ودلفت الحورية إلى أجمة لم تمسس أشجارها فأس حطّاب ، وحطّت جعبة سهامها عن كتفها وأخرجت منها قوسها الطّيع وتمدّدت على العُشب مُسْندة رأسها إلى جعبتها الصارخة الألوان ، وأبصرها چوپيتر فى هذا الوضع عزلاء فحدّث نفسه قائلاً : « سيكون لى معها أمر لن تعرف به زوجتى ، ولو فُرض أنها عرفته فسوف يكون كِفَاءَ ما أناله من تأنيب » . وأسرع فتقمّص شخصية ديانا مرتديا رداءها ، ومال على الفتاة يحدّثها قائلاً : « يا أحبّ رفيقاتى إلى نفسى ، أين كنت تبحثين عن صيد ؟ أى جبل عبرت سفحه ؟ » فنهضت الحورية وهى تصيح فرحة قائلة : « لك يا سيدتى الربّة تحياتى ، إننى أراك أعظم من چوپيتر ، وما أخشى أن يسمع ذلك منى . » وضحك چوپيتر سعيداً بتفضيلها له فى صورته هذه على صورته الحقّة وقبّلها قبلة لا براءة فيها ولا تُقَبِّل بها فتاة من بنات جنسها . وحين أخذت تقصّ عليه مغامرات صيدها فى الغابة لم يمهلها فضمّها إليه محاولاً أن يغشاها فافتضح لها أمره ، وتأبّت الحورية عليه وقاومته بكل ما تملكه أنثى ، وياليتك كنت شاهدتها يا چونو . يقيناً كان غضبك سيخفّ ، ولكن كيف لفتاة مهما أوتيت أن تقهر رجلاً ، ثم من ذا الذى يستطيع أن يغلب چوپيتر على أمره ؟ ونجح چوپيتر فى أن يظفر بها حتى إذا ما نال مأربه منها عاد أدراجه إلى السموات العُلى . وصبّت الحورية لعناتها على الغابات والغيضات التى شهدت اغتصابها ، كما أنسيت جعبة سهامها وقوسها وكانت قد علّقتها حيث افترشت الأرض .

ورأت ديكتينا(٦٠) وهى تتسلق جبل ماينالوس الشاهق الفتاة الأركادية فنادتها ، فولّت الفتاة هاربة وهى تخالها چوپيتر وقد عاد متقمّصاً شخصية ديانا ، غير أنها حين رأت تابعات سيدتها يحطن بها اطمأنت إلى أنها الربة حقاً وأن الأمر ليس حيلة من حيل كبير الآلهة ، فعادت أدراجها لترافق الإلهة وتابعاتها . ما أشقّ أن يخفى المرء إحساسه بالخطيئة ، فقد عجزت الفتاة عن رفع عينيها عن الأرض ولم تدن من الربّة على غرار ما كانت تفعل من قبل ، وتخلّفت عن زميلاتها والتزمت الصمت ، وأخذ الخجل مما ارتكبت من خطيئة يغشى وجهها ، ولو لم تكن ديانا إلهة عذراء لاستطاعت كشف سرّها بتلك الأمارات العديدة التى بدت عليها . ويحكى الرواة أن زميلاتها فطنّ إلى ما تكتم من أمرها .

وهلّ القمر بدراً مرات تسعا ، وأوت ديانا ــ بعد جولة صيد مرهقة وسط حرارة الشمس اللافحة ــ إلى أجمة رطبة الأنسام يجرى وسطها جدول هامس يتموّج ماؤه فوق رمال القاع الأملس . ولم تكد الربّة تبلغ هذا الجدول حتى غلبتها الغبطة ، فغمست قدميها فى الماء ، ونادت تابعاتها قائلة : « طالما أن العيون لا تصل إلينا هنا ، فلنخلع ثيابنا ولنستحم فى هذا الجدول » . وحين خلعتَ الفتيات ثيابهن وقفت الفتاة الأركادية مُحْجِمة وقد احمرّ وجهها خجلاً ، فتقدّمت زميلاتها ونزعن عنها ثوبها وكأنهن حين كشفن عنها ثوبها كشفن عن خطيئتها ، وعندها صرخت ديانا فيها قائلة : أعزبى عنى ، ولا تدنّسى مياه هذا الجدول المقدس » ، وأمرتها بالانسحاب من حاشيتها .

ولم يخف الأمر طويلاً على زوجة إله الرعد الجبّار ، فاعتزمت إنزال عقاب قاس بغريمتها ، ولكنها ظلّت تتخيّر اللحظة المواتية حتى وقع ما يستحيل معه الانتظار ، فلقد وضعت غريمتها ابنها أركاس ، وأخذ مرأى هذا الطفل يملأ قلبها وعينيها غضباً فصرخت فى أمّه قائلة : « لم يكن ينقصك إلاّ أن تضعى هذا الطفل أيتها الزانية لكى يُشيعَ إهانتى ، ولكى يغدو دليلاً على خطيئة زوجى الشائنة . . إننى لن أتركك دون عقاب ، وسوف أسلبك هذا الجمال الذى أغرى بك عاشقك أيتها الفاسقة » .

ومدّت يدها إلى جبين الفتاة وقبضت على شعرها واجتذبتها فى قوة أسقطتها على الأرض . وحين بسطت كاليستو ذراعيها متوسّلة تطلب الغفران ، إذا بهما تكتسيان بشعر أسود خشن ، وإذا كفّاها تستديران وتنتهيان بمخالب معقوفة وتغدوان قدمين أماميتين ، وإذا وجهها الذى أسر بجماله من قبل چوپيتر يتشوّه وينفرج فيه فكّان عريضان . ولكى تقضى الإلهة على توسّلاتها حرمتها القدرة على الكلام فصار حلقها يصدر زمجرة مخيفة ، غير أنها تركت لها إدراكها كما كان رغم تحوّلها إلى دُبّة ، فأخذت تبثّ حزنها بأنين متصل ، وتفزع للسماء برفع يديها بعد تحولها إلى قدمين . وأحسّت جحود چوپيتر دون أن تستطيع الإفصاح عمّا يدور بخلدها ، وكم ثقلت عليها الإقامة فى الغابة فراحت تحوم حول دارها مقتربة من مقرها القديم ، وكم من مرّة أخذت تطاردها الكلاب بنبحها إلى أن تعود أدراجها بين الصخور ، وهكذا باتت صيادة الأمس تلتمس الهرب من الصيّادين . وما أكثر ما كانت تغيب عن ذهنها صورتها الجديدة فتختبىء عند رؤية الوحوش الضارية . ومع أنها مُسِخَت دبّة إلاّ أنها كانت تخشى رؤية الدِّببة فى مكامنها بالجبال ، كما كانت تُصاب بالذعر أمام الذئاب رغم أن أباها كان واحداً منها(٦١) .

أركاس

وبلغ أركاس الخامسة عشرة من عمره دون أن يدرى ما حدث لأمه ابنة ليكاوون . ومضى يوماً يتعقب آثار الحيوانات المتوحشة فى الغابات ويتعرّف أفضل الأماكن لصيدها وينصب شباكه فى غابات إيريمانثوس[٦٣] ، فإذا هو أمام هذه الدبّة التى توقّفت محدّقة فيه مُطيلةً النظر إليه دون أن تحوّل عينيها عنه . وحين دفعها تشوّقها الشديد إليه إلى محاولة الاقتراب منه أسرع برفع يده برمحه المميت ليمزّق أحشاءها به ، فإذا چوپيتر الجبار يمسك بيده ليخول بينه وبين ارتكاب جريمة ، مُبْعداً الإبن عن الأم . وما لبث أن حملتهما معا ريحٌ خلال الفضاء ليجعل منهما كوكبتين متجاورتين[٦٣] .

وحين رأت چونو غريمتها تتألّق وسط نجوم السماء تولّاها غضب عاصف ، وخاضت البحار العميقة لتقابل تيثيس الشّيباء وزوجها العجوز أوقيانوس لما لهما من مكانة بين الآلهة الأخرى . وحين سألها كلاهما عن سرّ زيارتها أجابت قائلة : « تسألانى أنا ملكة الآلهة لماذا تركت مكانى فى السماء وهبطتُ إلى هنا ؟ لقد فعلت ذلك لأن ملكة أخرى أخذت مكانى فى السماء ، فإذا ما نشر الليل ظلاله فوق الكون انظرا فسوف تريان كوكبتين حلّتا لتوّهما فى السماء محاطتين بإجلال يُلْحِقُ بى الهوان ، إذ تتألّقان فى أعلى مكان بالسماء وفى المنطقة التى تحيط فيها آخر الدوائر بالطرف الضيّق من محور العالم . وهل ثم من لا يلعننى حين يرانى لا أنال منها ؟ ماذا جنيتُ أنا ، وما أعظم ما أملك من قدرات ؟ لقد شئت تجريدها من إنسانيتها فإذا هى تتحوّل إلى ربّة ، وإذا هذا هو العقاب الذى أردت أن أُنْزله بالمُذنب ! وكان هذا أقصى ما أملك ، فليردّ چوپيتر إليها جمالها المسلوب وليحررّها من صورتها البهيمية كما فعل من قبل مع إيو الأرجوسية ، ولم لا يخطو إلى أبعد من ذلك فيطلّق چونو ، ويتزوّج من هذه الحبيبة الجديدة ويضعها فى فراشى ويتّخذ من ليكاوون صهراً له ؟ إذا كنتما تحسّان بأن ما نلته من امتهان يمسّكما وأنا التى ربّيتماها صغيرة ، فاعملا على أن تدفعا عن أمواجكما الزرقاء هاتين الكوكبتين [الدبّ الأكبر والدب الأصغر] اللتين لم تُرفعا إلى السماء إلّا تكفيراً عن سلوك فاضح ، ولا تتيحا لامرأة زانية أن تستحم فى مياه بحاركما النّقية » .

وأقرّ إلاها البحر ما قالته كبيرة الآهة ، وانطلقت چونو ابنة ساتورن وسط الأثير بعربتها السابحة التى تجرّها الطواويس المُشرقة الألوان بريشها الجديد الذى نبت بعد وفاة أَرجُس ، والذى يذكّرنا بريشك الناصع البياض قبل تحوّله إلى أسود داكن أيها الغُداف الثرثار ، فقد كان ريشُ هذا الطائر فى الماضى فى بياض الفضة أو الثلج ينافسُ اليمامَ الخالص البياض ، ولم يكن يقلّ بياضاً عن الإوز الذى قُدّر له أن يُنْقِذَ الكاپيتولينوس[٦٤] يوماً بصَيْحاته اليقظى ، ولا عن البجعة عاشقة المياه . غير أن لسان الغداف كان سبب مأساته ، فقد كانت ثرثرته سرّ فقده لونه الأبيض وتحوّله إلى اللون الأسود .

كورونيس

لم تكن فى أنحاء ثيساليا كلها فتاة أجمل من كورونيس مواطنة مدينة لاريسا . وكم حرّكت إعجابك يا ربّ دلفى ، وكان ذلك لاحتفاظها بعفّتها أو لاحتفاظها بأمرها مستوراً عنك حتى رآها يوماً الغداف طائر فويبوس ترتكب جريمة الزنا ، وأسرع إلى مولاه على عادته فى نقل الأخبار معتزماً كشف سرّها ، غير أن الغراب الذى لا يقل عنه ثرثرة تعقّب الغداف مسرعاً متلهّفاً لالتقاط الأسرار ، حتى إذا أحاط علماً بسبب الرحلة قال للغداف : « ما أسوأ الطريق الذى تسلكه ! خذ حذرك ولا تهوّن من نصيحتى ، واعتبر بما حدث لى ، فلو بحثت عن سر تحوّلى لوجدت أن إخلاصى هو الذى أوْدى بى : لقد أخذت پاللاس يوماً إيريخثونيوس الطفل الذى وُلد بلا أم ، وحبسته فى سلّة مجدولة من خيرزان أكتيا[٦٥] ، وعهدت بالسلّة إلى بنات الملك كيكروپس[٦٦] اللاتى لم يكنّ قد تزوّجن بعد ، وكان نصف الملك الأسفل على هيئة ثعبان ، وعاهدتهن على ألا يفتحن السلّة لمعرفة سرّها ، ثم اختبأت بعد ذلك وسط أغصان شجر الدردار المورق لمراقبتهن ، وكانت پاندروسوس وهيرسى أمينتين على السلّة بينما أخذت ثالثتهن أجلاوروس تستثير شقيقتيها فتتّهمهما بالجبن ، وما لبثت أن فكّت رباط السلّة فإذا فى داخلها طفل بجانب ثعبان منبسط .

وحين قصصتُ ما حدث للإلهة منيرڤا كان جزائى على ذلك طردى من عملى ورفع حمايتها عنى ، وصرت أدنى مكانة من طائر الليل[٦٧] . وما أجدر ما نالنى من عقاب بأن يكون تحذيراً للطيور عن ارتكاب جريمة الوشاية ، فأنا لم أسألها جزاء ما فعلتُ من أجلها ، بل كان طردى عن إرادتها . وما عليك إلا أن تسأل پاللاس فإن غضبها مهما احتدم لن يؤدّى بها إلى إنكار الحقيقة .

ولسوف أروى قصة يعرفها الجميع . لقد أنجبنى كورونيوس الشهير فى بلاد فوكيس ، فلا تستهن بأمرى . وإن دماءً ملكية تسرى فى عروقى ، وكثيرون من الأثرياء جاءوا يسعون لخطبتى . ولقد كان جمالى مصدر مأساتى ، فبينما كنت أخطر كعادتى فوق الرمال الناعمة أبصرنى إله البحر فحرّكت إعجابه ، وجعل يغازلنى ويتوسّل إلىّ برقيق الكلمات ، وحين تبينّ له أنه لن يجنى من وراء ذلك شيئاً أخذ يخطّط لاغتصابى وتملّكى بالقوة ، فهربت منه وخلّفت الأجزاء الصّلبة من الأرض بينما أمرقَ عبثا وسط الرمال اللّينة ، ومضيتُ أسير فى غير اتجاه معينّ وصرخت منادية الآلهة والبشر لنجدتى فلم يصل ندائى إلى أذن بشرية ، بينما تحرّكت الشفقة فى قلب ربّة العذارى على واحدة من العذارى فمدّت لى يد العون . وحين رفعت ذراعى نحو السماء اسودّ لونهما وأصبحا جناحين خفيفين ، وتحوّل ردائى وأنا ألقيه وراء كتفى إلى ريش تضرب جذوره العميقة فى جلدى ، وحاولت ضرب صدرى العارى بيدى غير أننى اكتشفت أن صدرى كيدى لم يعد عارياً . وحين عدت أعدو لم تغص قدماى فى الرمال كما كان يحدث من قبل بل وجدتنى أعلو مسرعة فوق سطح الأرض ، وأخذت أحلق عالياً فى السماء وصرت رفيقة طاهرة للإلهة منيرڤا . لكن ما جدوى ذلك الآن إذا كانت نيكتيمينيه[٦٨] التى تحولت إلى طائر جزاء خطيئتها البشعة قد انتزعت منى شرف

هذا المنصب ؟ ألم يصل إلى سمعك نبأ تلك القصة الشائعة فى أرجاء ليسبوس عن تدنيس نيكتيمينيه لفراش أبيها ؟ إنها هى الأخرى طائر ، إلّا أن إحساسها بالخطيئة جعلها تهرب عن عيون الناس ومن ضوء النهار مخفية عارها فى ظلمات الليل ، بينما يتربّص بها الجميع فى أرجاء الفضاء .

وأجاب الغداف على الغراب قائلاً : « لن تنجح محاولاتك فى إثنائى عن القيام بواجبى ، وإننى لأسخر بكل نبوءاتك العقيمة » . وواصل رحلته دون تلبّث قاصداً مولاه فويبوس ، فلما جاءه أبلغه نبأ رؤيته كورونيس تضاجع شاباً من ثيساليا . وما كاد عاشق كورونيس يعرف قصة هذه الخيانة حتى سقط إكليل الغار عن رأسه وتبدّلت قسمات وجهه وتغيّر لونه وسقطت ريشة العزف من يده ، واحتدم الغضب فى نفسه فقبض على قوسه وأطلق منها سهماً لا يملك أحد الهرب منه ، فإذا هو ينفذ فى الصدر الذى طالما نَعِم بضمّه إليه . وتأوّهت كورونيس ألما ، وانتزعت السهم من جسدها فتدفّق الدم القانى غزيراً على أطرافها الجميلة البيضاء ، وصرخت قبل لفظ أنفاسها الأخيرة مع آخر قطرة من دمها ، وسرت فى جسدها قشعريرة الموت وقالت : « أما كان الأجدر أن تُنْزِلَ بى عقابك بعد أن أضع حملى منك ، فلقد قضيت بصنيعك على ضحيّتين معاً ؟ » . وما أسرع ما أحسّ العاشق بالندم على عقابه القاسى ، ولكن الأوان كان قد فات . وحَنِقَ على نفسه لإنصاته للوشاية ولتركه الغضب يتسلّط عليه ، وكره الطائر الذى قاده فضوله إلى كشف خطيئة كورونيس التى حرّكت سخطه عليها ، ولعن يده وقوسه وسهامه التى قذف بها . وضمّ جسد كورونيس المُسَجّى أمامه محاولاً وقف إرادة القدر ، فذهبت أدراج الرياح محاولته شفاء جرحها بعد أن فات الأوان .

٦٠٠ وحين رأى المحرقة مشتعلة والنار موشكة على التهام أطرافها وأيقن بفشل كل محاولاته فى إنقاذها ، عصره الألم دون أن تدمع عيناه لأن الآلهة لا تدمع ، وفزع كما تفزع البقرة وهى تلمح ساطوراً قد رفع بها القصّاب يده ليهوى به على الجبين المُنبطح لوليدها الذى تُرضعه . ثم أخذ يصبّ على كورونيس العطور الجنائزية التى لم تعد تقوى على الاستمتاع بها ، وضمّها إلى صدره ضمّة أخيرة ، وقدّم لها طقوس الموتى المحتومة . وإذ لم يحتمل أن تحيل هذه النيران فلذة كبده إلى رماد انتزع ابنه[٦٩] من أحشاء أمه منقذاً إياه من اللّهب وحمله إلى كهف القنطور خيرون[٧٠] .

٦٢٠ ووقف الغداف منتظراً جزاءه على إخلاصه ، فقضى فويبوس بإقصائه من بين الطيور البيضاء الرّيش .

أوكيـــرويـيـه

وسعد القنطور باصطفاء الإله له لرعاية ابنه وأُفعم قلبه فرحة بهذا التشريف وتلك المسئولية . وفجأة ظهرت ابنته أوكيرويه[٧١] التى أنجبها من الحورية خاريكلو[٧٢] ذات الشعر الذهبى الضارب إلى الحُمرة

المنسدل على منكبيها ، والتى أعطت ابنتها اسم النهر الذى وضعتها على ضفافه . وكانت هذه الفتاة تجيد فنون أبيها وأضافت إلى ذلك قدرتها على التنبؤ وكشف أسرار الغيب .

وحين رأت أوكيروييه الطفل الإلهى خفق قلبها حماسة وتولّتها حمى التنبؤ وقالت : « فلتشبّ أيها الطفل ، فإن الأقدار تدّخرك لإنقاذ العالم ، وسوف يدين لك البشر بحياتهم يوماً ، ولسوف تُوهَب القدرة على إعادة الروح بعد انتزاعها من أجسادها ، ولسوف تثير يوماً غضب الآلهة حين تجرؤ على إحياء الموتى ، فتجرّدك صاعقة جدّك(٧٣) من قدرتك على منح هذه الهبة مرة أخرى . وعندها ستتحوّل من جسد إلهى إلى جسد بشرى ثم تُبعث إلها ثانيا ، فتبدّل مصيرك مرتين .

خيرون

أما أنت يا أبى الحبيب ، وقد قُدِّر لك أن تحيا إلى الأبد لأنك واحد من الخالدين ، فسوف تشتاق الموت يوم يسرى فى جسدك سمّ الأفعوان عبر جراحك ، وتظل تشقى عذابا حتى يستردّ الآلهة ما تستمتع به من خلود ، فتحلّ الربّات الثلاثة خيوط قدرك لتموت »(٧٤) .

وهنا طفرت الدموع من عينيها مبلِّلة خدّيها واستطردت متنهّدة تقول : « إن الأقدار تمنعنى من أن أزيد على ذلك شيئاً ، فكلماتى محسوبة علىّ ، وقد كانت مقدرتى على التنبؤ مبعث غضب الآلهة علىّ حتى تمنّيت لو أنى جهلت المستقبل . إننى أرى وكأننى قد فقدت شكلى البشرى وصار عُشب المراعى غذائى ، والرّكض فى السهول الفسيحة مُتعتى ، واستحالت صورتى إلى صورة فرس ، وذلك أثر من آثار القرابة . ولكن لماذا أغدو فرساً خالصة ، بينما والدى نصف بشر ؟ » .

حملت كلماتها الأخيرة شكاة غامضة وحديثاً مبهماً ، ولم تعد كلماتها كلمات ولا هى صهيل فرس بل كانت أشبه ما تكون به ، وما لبثت أن صهلت صهيلاً حقيقياً ومدّت ذراعيها إلى العُشب ، وإذا أصابعها تلتئم ويحيط بها حافرٌ ناعم يُغَشّى أظافرها الخمسة ، وكَبُر رأسها واستطالت رقبتها ، وتحوّل طرف ثوبها إلى ذيل طويل ، وصار شعرُها المنسدل على كتفيها معرفة تتدلى على كتفها الأيمن واكتمل تحوّل صورتها وجسدها ، وأخذت مع هذا التحوّل المعجز اسما جديداً هو المُهْرة .

باتوس

وذهب بكاء ابن فيليرا ــ وكانْ من أنصاف الآلهة ــ وتضرّعه لأپوللو كى يخلّص ابنته من آثار هذا التحوّل أدراج الرياح ، فلم يكن أپوللو يملك تغيير إرادة چوپيتر الجبار ، ولو قُدّر له أن يملك شيئاً من ذلك فقد كان عندها بعيداً فى مدينة إيليس(٧٦) وحقول مسينيا(٧٧) حيث يقيم ، وكان هذا التحوّل قد جرى وهو

مرتد ثياب الرعاة ممسك فى يده اليسرى بعصا من غصن شجرة ، وفى يده اليمنى مزمار پان ذى القصبات المتفاوتة الأطوال .

ويحكى الرواة أنه حين شرد فى دنيا غرامه وهام مع موسيقى مزماره قد غفل عن أبقاره فضربت فى حقول پيلوس[٧٨] ولمحها ميركوريوس بن مايا ، واستطاع بدهائه المعروف أن ينحرف بها ويُخفيها خلال الغابات دون أن يراه سوى شيخ كان سكان المناطق المجاورة يسمّونه باتوس ، وكان الثرىّ نيليوس قد عهد إليه بحراسة غاباته وقطعان خيوله الأصيلة ومراعيها . وخشى ميركوريوس أن يكشف باتوس أمره فانتحى به جانباً وتودّد إليه قائلاً : لست أدرى من تكون أيها الغريب ، ولكنى أسألك أن تُخفى أمر هذا القطيع إن سألك عنه سائل ، ولست ناسياً لك جميلك ، وإليك هذه البقرة السّمينة مكافأة لك » . فأخذ باتوس البقرة وقال له مشيراً إلى أحد الأحجار : « امض ولا تخشى شيئاً ، غير أن هذا الحجر هو الذى سيسبقنى إلى فضح سرقتك » .

وتظاهر ابن چوپيتر بالمضى فى طريقه ، ثم ما لبث أن عاد متخفّياً فى هيئة رجل آخر وسأل الحارس بصوت مختلف عن صوته : « أيها الفلاح ساكن هذه الحقول ، إن كانت بقراتى قد مرّت أمامك فلتقدّم لى يد العون ولتكشف لى سرّها الغامض بعد أن مضى بها أحد اللصوص . ولأكافئنّك على ذلك بإعطائك بقرة وثورها » . وأغرت المكافأة المضاعفة الفلاح الشيخ فقال : « إنها هناك أسفل هذا الجبل » ، وقد كانت هناك حقاً عند سفح الجبل ، فأمسك الضحك بميركوريوس وقال للشيخ : « أهكذا تشى بى إلى نفسى أيها المخادع ! » ، ثم حوّل هذا القلب الذى نكث عهده إلى صخرة صلدة مازالت تُسمّى حتى اليوم « الواشية »[٧٩] ، ارتبطت بها ذكرى هذه الوشاية التى شاعت عن هذه الصخرة البريئة .

أجـــــلاوروس

وحلّق الإله بأجنحته فى الآفاق حاملاً صولجانه ، وأخذ يتأمل حقول مونيتشيوس[٨٠] ، والأرض التى تباركها منيرڤا ، وأشجار ليسيوم[٨١] المتألقة ، وكان يقام فى ذلك اليوم مهرجان پاللاس الذى تقضى تقاليده بأن تسير فيه العذارى العفيفات حاملات فوق رؤوسهن سلالاً مكلّلة بالزهور زاخرة برموز طقوس پاللاس لإيداعها معبد الربّة . وقد أبصرهن الإله المجنّح أثناء عودتهن إلى دورهن فتلبّث عن متابعة رحلته ، وأخذ يدور حولهن كالصقر الذى يسبق جميع الطيور حين يلمح أحشاء الذبيحة ، غير أن فزعه من رؤية الكهنة المحيطين بالقربان يحمله على أن يدور فى الأجواء دون أن يقرّ قراره على الابتعاد ، ويظل يدور نهماً يخفق بجناحيه حول الفريسة التى يشتهى الظفر بها . وكذلك كان الإله الرشيق يفعل فوق قلعة أكتى[٨٢] ، مهدّئاً طيرانه محدّداً دورته فى الأجواء التى تعلو القلعة . وكما يفوق نجم الزهرة « لوسيفر »

النجوم الأخرى ببريقه ، وكما يبزّ القمر الذهبى « فويبيه » نجم الزهرة بلمعانه ، فقد كانت هيرسى أجمل فتيات الموكب تزدهى على الأخريات بروعة جمالها ، وقد راق جمالها ابن چوپيتر فتأجّج قلبه بنار حبّها ، وصار وهو فى الأجواء شبيهاً بطلقة قذف بها مقلاع من مقاليع جُزُر البليار أحسّت فى السُّحب حرارة لم تحسّها من قبل . غيّر الإله طريقه وهجر السماء واتخذ سبيله إلى الأرض دون أن يتخذ شكلاً آخر غير شكله فقد كان واثقاً من وسامته . ورغم ذلك فقد حرص على أن يضيف إلى وسامته لمسة جمال ، فصفّف شعره وأصلح عباءته لتنسدل على جسده فى أناقة تُبْرز الحوافى المطرّزة والزخارف الذهبية ، وجلا صولجانه الذى يحرّكه بيده اليمنى ليُلقى به النوم فى العيون[٨٣] أو ليطرده عنها ، واعتنى بأن يصقل نعليه المجنحّين فوق قدميه الملساوين .

وكانت ثمة حجرات ثلاث فى داخل القصر مزدانة بالعاج والذَّبْل[٨٤] : اليمنى حجرة پاندروسوس واليسرى حجرة أجلاوروس والوسطى حجرة هيرسى . وكانت ساكنة الغرفة اليسرى هى أول من وقع بصرها على ميركوريوس ، فتقدمت فى جرأة وسألته عن اسمه وعن سرّ مجيئه ، فأجابها قائلاً : « أنا حفيد أطلس وپليونيه . أنا ابن چوپيتر الذى يحمل أوامر أبيه عبر الأجواء . لن أحاول انتحال أعذار وهمية لمجيئى ، ولكنى أصارحك أنى قادم من أجل أختك هيرسى ولأناشدك أن تُذْكى فى فؤادها حبى حتى تصبحى أنت خالة لإبنى » . وما لبثت أجلاوروس أن حملقت بنظرة جشع وفضول ، وهى النظرة التى تطلّعت بها يوماً إلى السلّة الخيزرانية لمنيرڤا الشقراء[٨٥] ، وطلبت قنطاراً من الذهب مقابل أدائها المهمة التى يريدها ، ودفعته خارج بابها على ألا يعود إلا محمّلاً بالذهب .

ونظرت الإلهة المحاربة منيرڤا إلى أجلاوروس نظرة غاضبة ، وزفرت زفرة انتفخ معها صدرها فَعَلاَ بها التُّرس الذى كان يغطّيه ، وتذكّرت كيف كشفت أجلاوروس الجاحدة سرّ السلّة حين نكثت بوعدها وتطلّعت إلى ابن إله ليمنوس[٨٦] الذى لم تلده أم ، كما ذهب تفكيرها إلى أن أجلاوروس سوف تظفر بعرفان الإله ميركوريوس وبعرفان أختها الشقيقة وبثروة ضخمة أيضاً حين تتلقى الذهب الذى دفعتها شراهتها إلى أن تطالب به ، فتوجّهت الإلهة إلى دار ربّة « الحسد » ، تلك الدار الحقيرة المعتمة الكريهة الرائحة الرطبة التى لا تشتعل فيها نار قط ، ويخيّم عليها الظلام الكثيف من حواليها ، حتى إذا بلغت الإلهة المحاربة الدار وقفت أمامها ، إذ لم يكن لها أن تستظلّ بسقفها[٨٧] ، وطرقت الباب بطرف رمحها فانفتح على مصراعيه وظهرت ربّة الحسد التى كانت منهمكة فى التهام وجبة من لحم الثعابين ، وهو طعامها الوحيد الذى كان غذاء لروحها الشريرة . وأشاحت منيرڤا بوجهها عند رؤيتها ، ونهضت ربّة الحسد على قدميها متراخية تاركة بقايا جثث الأفاعى وتقدمت بخطوات متثاقلة ، فلم يكد بصرها يقع على الإلهة بسحر جمالها وبريق دروعها حتى زفرت زفرة عميقة وقطّبت جبينها . وكان وجهها شاحباً وجسدها مهزولاً ، وثمة حَوَل فى عينها يحرف نظرتها إلى الأشياء ، وأسنانها مهشّمة حائلة اللون ، تنفث من صدرها نُفاثة خضراء ، ويقطر لسانها سمّا زعافاً ، لا ترتسم على شفتيها بسمة إلاّ حين تشهد آلام الغير ، لم تذق فى

حياتها طعم النوم المريح ، فقلقها وهمومها تتركها ساهدة ، وتزداد هزالا كلما وقعت عيناها الزائغتان على أحد يزداد ثراء . كانت شقاء على نفسها كما كانت شقاء على غيرها ، وكان ذلك عذابها الدائم .

ومع أن تريتونيا[٨٨] كانت لا تأبه بها فقد اتجهت إليها قائلة فى إيجاز : « إن ما أريده منك أن تنفثى سُمَّكِ فى صدر أجلاوروس إحدى بنات كيكروپس » ، وضربت الأرض برمحها دون أن تضيف كلمة واحدة وحلّقت عالياً فى الأجواء تاركة الأرض . ونظرت ربة الحسد إلى الإلهة شزراً وهى محلّقة حتى غابت عن نظرها ، وهمهمت حاقدة على ما سوف تحققه هى لمنيرڤا من توفيق ، وتناولت عصاها المحاطة بالشوك والتفّت بالغيوم المعتمة وانطلقت ، فإذا الحقول التى مرّت بها قد غابت نضرتها ، وإذا الأعشاب تصبح هشيماً ، وإذا الأشجار قد يبست أوراقها ، وإذا البشر تعس بتعاستها ، وإذا مدنهم ودورهم خراب ، إلى أن انتهى بها المطاف إلى القلعة الأثينية ، حيث المواهب والثروات والأمن وحيث القلوب فرحة مطمئنة . وكانت كلما نزعت نفسها إلى البكاء كبتت تلك النزعة فى نفسها لأنها لم تر من الأحزان بعدُ ما يكفى لأن يبعث فى عينيها الدمع .

وحين دخلت على ابنة كيكروپس حجرتها لتقوم بأداء مهمتها لمست صدر الفتاة بيدها الصدئة[٨٩] ، وملأت قلبها بالأشواك الواخزة ونفثت سمّا زعافاً فى أنفاسها ما لبث أن سرى فى عظامها ورئتيها ، وصوّرت لها ــ كى تثير شقاءها ــ أختها سعيدة بزواجها من الإله الذى أضفت عليه صفات الجمال كلها حتى تثير غيرتها . وأحسّت ابنة كيكروپس غيرة خفية تنهش قلبها ، وأصبحت تعانى العذاب آناء الليل وأطراف النهار وتزفر زفرات متصلة ، وما لبثت تعاستها أن أصابتها بالذبول فأخذت تذوب كما تذوب الثلوج تحت وهج الشمس المختفية وراء الغيم . وكانت سعادة هيرسى تفعل بأجلاوروس فعل الجذوة أو النار الدفينة دون أن يظهر لها بريق . وكم تمنّت الموت حتى لا تشهد عيناها سعادة أختها ، وخطر لها أن تشى بسرّ أختها لأبيها الصارم وكأنه جريمة تستحق العقاب ، ثم افترشت أخيرا عتبة أختها لتحول بين الإله وبين الدخول . ومضى الإله يتملّقها بعبارات كلها إطراء ورجاء ، ولكنها لم تُلْق بالا لقوله وصاحت به : « كفى ، فلن أترك مكانى حتى أحملك على البُعد من هنا » . وأجابها الإله قائلاً : « ليكن ما تشاءين » ، ثم ما لبث أن لمس الباب بعصاه السحرية لمسة فانفتح له .

وحاولت أجلاوروس النهوض فإذا هى تجد أطرافها قد خُدِّرت وباتت ثقيلة فلم تستطع أن تنهض من جلستها . وعبثاً جاهدت كى تقف لكن رُكْبتيها كانتا خامدتين ، وسرت فى جسدها برودة شملت أطراف أناملها وجَمُد الدم فى عروقها فشحب لونها . وتسلّلت إلى جسدها شيئاً فشيئاً برودة الموت ، فهمدت أنفاسها ولم تعد تستطيع الكلام ، واستحالت تمثالاً من الحجر فَقَد بياضه الناصع وغشّاه سوادٌ كالح أضفته عليه روحها .

أوروبـــــا

وبعد أن أنزل حفيد أطلس العقاب بأجلاوروس على ما كان منها رحل عن البلاد التى اشتقّت اسمها من اسم پالّلاس ، وحلّق عالياً فى السماء يضرب بجناحيه فى الهواء . وناداه أبوه إلى جواره دون أن يفصح له عما يكنّه له من حب ، وإنما قال له : « انطلق يا ولدى ورسولى الأمين هابطاً إلى الأرض بما تملك من سرعة ، واقصد البلاد التى إلى يسارنا والتى ترفع أبصارها إلى نجم أمّك[٩٠] والتى يُطلق عليها سكانها اسم مدينة « صيدا » ، ولسوف تلقى قطيعاً من ماشية الملك يرعى حشائش الجبل على مسافة بعيدة ، فسُقْ هذا القطيع الملكى إلى الشاطىء » .

وما إن انتهى من حديثه حتى كانت الثيران قد أُبعدت عن الجبل واتجهت كما أمر صوب الشاطىء ، حيث كانت ابنة الملك الشهير قد اعتادت أن تمرح مع رفيقاتها عذارى مدينة « صور » .

المُلْك والحُب لا يتواءمان ويستحيل أن يشارك أحدهما الآخر مكانه . من أجل هذا تخلّى أبو الآلهة وحاكمها عن وقار صولجانه ، وهو حامل الصاعقة ذات ألسنة النيران الثلاثة فى يده ، وهو من يهتز الكون كله بإشارة من رأسه ، وتخفّى فى صورة ثور واختلط بالثيران وشاركهم خوارهم ورعى معهم فوق الحشائش الغضّة ، وكان لون جلده أبيض كالثلج الذى لم تطأه قدم ولم تبلّله نفثات ريح الجنوب الرطبة . وكان عنقه منتفخ الأوداج ، وقرناه وإن كانا صغيرين إلا أنهما جميلان يتألقان تألق دُرّتين حتى لتجزم أنهما مع صُنع فنان ، لا تلوح الرهبة على رأسه ، ولا تحرك نظرات عينيه الخوف ، بل تشيع فى وجهه الوداعة . وسرعان ما أعجبت إبنة أجينور بوسامته ووداعته ، وكانت قد توجّست خيفة فى مبدأ الأمر من لمسه رغم لُطفه ، ثم ما لبثت أن اقتربت منه بعد قليل ، وقطفت زهوراً بيضاء قرّبتها من شفتيه . فبعث ذلك السرور فى قلب عاشقها مرتقباً ظفره بالمتعة التى يهفو إليها ، واجتزأ بتقبيل يديها حابساً فى نفسه ما يطمح إليه من نيل بغيته التى يتطلّع إليها ، وأخذ يلهو فوق الخضرة ويتقلّب على الرمال الصُفر بجسده الناصع البياض ، وأَنِسَت به الأميرة شيئاً فشيئاً ، وأخذ يقدّم لها صدره تارة لتربت عليه بيديها البريئتين ، وقرنيه تارة أخرى لتكلّلهما بالزهور النضرة ، وغامرت الأميرة فاعتلت ظهره دون أن تدرى ظهر من تعلو . وابتعد الإله بها عن الشاطىء شيئاً فشيئاً بادئاً بوضع حوافره التى كانت بعض مظاهر تنكّره على سطح المياه ثم خاض بها البحر إلى أن بلغ وسطه ، وهنا تملّك الفزع الفتاة ، وأمسكت يدها اليمنى بأحد القرنين بينما وضعت يدها اليسرى على عجزه ، تاركة ثوبها للريح تعبث بها كما تشاء .

التعقيبات

(١) فى الأصل مولكيبير وهو لقب من ألقاب ڤولكانوس .

(٢) تريتون بن نپتون « پوزيدون » وأمفيتريتى ، وكان إله بحر من المرتبة الثانية مثل نيريوس وپروتيوس ، وكان يصور على شكل إنسان حتى خصره ، ومؤخرته ذيل سمكة مزدوج .

(٣) پروتيوس حارس كلاب البحر للإله نپتون ، وكانت له ملكة التنبؤ كما كانت له القدرة على التشكّل فى أى شكل يريده بما فى ذلك النار .

(٤) أيجيون بن أورانوس وجيا ساعد چوپيتر عندما حاول نپتون وچونو ومنيرڤا تقييده بالأغلال .

(٥) دوريس هى بنت أوقيانوس وتيثيس وزوجة نيريوس وأم النيرياديس الخمسين .

(٦) كانت الشمس والقمر والكواكب وقبة السماء نفسها المرصعة بالنجوم الثابتة تدور كلها وفق نظرية پيثاجوراس حول الأرض يومياً من الشرق إلى الغرب ، بينما الأرض ثابتة لا تتحرك . أما فكرة تقسيم النجوم إلى إثنى عشر برجاً على الطريق الذى تسلكه الشمس فترجع إلى الفلكيين البابليين .

(٧) تيثيس بنت جايا وأورانوس وزوجة أوقيانوس وأم الأوقيانيديس الثلاثة آلاف وكذلك الثلاثة آلاف نهر .

(٨) كانت الشمس تسير وفق نظرية پيثاجوراس فى اتجاه مضاد لاتجاه الكون ، بدفع دورة الكون لها .

(٩) يهدف أوڤيد من ذكر أبراج الثور والرامى والأسد والعقرب والسرطان إلى إبراز للمخاطر التى سيمر بها فايثون . وكان « الرامى » يصور عادة على شكل قنطور يرمى بقوسه . لذلك سمى بالقنطور الهايمونى وهو اسم من أسماء ثيساليا ، الوطن الأسطورى للقنطور .

(١٠) كان الشعراء منذ هوميروس يكثرون من ترديد اسمى نجمة الصبح « لوسيفر » باللاتينية و « فوسفوروس » باليونانية أى حاملة الضوء ، مع أنهما ليستا فى الواقع سوى كوكبة واحدة هى الزهرة .

(١١) يعنى اسم الجواد إيووس « الشرقى » باللغة اليونانية نسبة إلى مشرق الشمس . أما الجياد الثلاثة الأخرى فتحمل كلها صفات الحرارة والبريق فى آن واحد .

(١٢) ملك إثيوپيا وزوج كليمينيه أم فايثون .

(١٣) جبل آثوس فى مقدونيا .

(١٤) جبل تاوروس فى جنوب آسيا الصغرى .

(١٥) جبل تمولوس فى ليديا بآسيا الصغرى .

(١٦) جبل أويتا فى جنوب ثيساليا واشتهر بموت هرقل فوقه .

(١٧) هناك جبلان يحملان اسم إيدا أحدهما فى كريت حيث ترعرع فوقه چوپيتر ، والآخر بجوار طروادة .

(١٨) جبل هيموس فى طراقيا .

(١٩) بركان إتنا فى صقلية .

(٢٠) جبل إيريكس فى صقلية .
(٢١) جبل كينثوس فى ديلوس التى ولد بها أپوللو وديانا .
(٢٢) جبل أوثريس فى جنوب ثيساليا .
(٢٣) سلسلة جبال رودوپى فى جنوب طراقيا ، وهى الآن جزء من بلغاريا .
(٢٤) جبل ميماس فى شبه جزيرة تواجه جزيرة خيوس .
(٢٥) جبل ديندما فى فريجيا .
(٢٦) ميكالى شبه جزيرة تواجه جزيرة صاموس .
(٢٧) جبل كيثايرون يفصل بين أتيكا وبويوتيا وكانت تقام فيه طقوس الأسرار الديونيسية .
(٢٨) جبال سكيثيا بالقوقاز .

(٢٩) جبال أوسا وپيندوس وأوليمپوس فى ثيساليا . ويضيف أوڤيد إلى هذه الجبال اليونانية جبالاً إيطالية هى سلسلة جبال الألب والإپنين .
(٣٠) ثمة ينابيع كثيرة فى بويوتيا تحمل اسم ديركى زوجة ليكوس ملك طيبة اليونانية .

(٣١) لجأت أميمونيه إحدى بنات داناوس إلى أرجوس فى فترة قحط واقتربت من نهر تشرب منه فحاول ساتير هتك عرضها فاستنجدت بپوزيدون الذى طرد الساتير وقذف برمحه الثلاثى الشُعَب إلى صخرة ما لبثت أن تفجّرت منها المياه .

(٣٢) إفيرى هو الاسم القديم لكورنثه حيث يوجد ينبوعان يحملان اسم پيرينى ، ويروى أن أحدهما نبع من ضربة حافر الجواد پيجاسوس المجنح .

(٣٣) نهر تانايس هو نهر الدون الحالى فى روسيا .
(٣٤) نهر پينيوس فى ثيساليا .
(٣٥) نهر كايكوس فى آسيا الصغرى .
(٣٦) نهر إسمينوس فى بويوتيا بالقرب من طيبة .
(٣٧) نهر زانثوس هو النهر الطروادى الذى ذكر هوميروس فى الإلياذة أنه كان يهدد أخيل بالموت .

(٣٨) نهر ليكورمارس فى غرب اليونان .
(٣٩) نهر مياندر فى كاريا بآسيا الصغرى .
(٤٠) نهر ثرمودون بمملكة پونتوس الواقعة فى آسيا الصغرى والتى تطل على البحر الأسود .
(٤١) نهر فازيس فى كولخيس على الشاطىء الشرقى من البحر الأسود حيث الكرج الآن .
(٤٢) نهر هيستر هو نهر الدانوب .
(٤٣) نهر ألفيوس أهم نهر فى المورة .
(٤٤) نهر سپيرخيوس فى أواسط اليونان .
(٤٥) نهر مايونيا فى ليديا بآسيا الصغرى .
(٤٦) نهر كايستر فى ليديا المشهور ببجعه .
(٤٧) نهر الهيبر هو نهر ماريستا فى طراقيا .
(٤٨) نهر ستريمون هو نهر ستروما فى طراقيا .
(٤٩) جبل إيزماروس على الشاطىء الجنوبى لطراقيا .
(٥٠) تطلق كلمة هيسپريا على أوربا الغربية ، من إيطاليا حتى شبه الجزيرة الأيبيرية .
(٥١) هى جزر السيكلاد .

(٥٢) أطلس بن المردة التيتان وكان قد أسر فى حربهم ضد زيوس فأمره الأخير بأن يحمل السماء فوق كتفيه إلى الأبد .
(٥٣) نهر إيريدانوس هو نهر الرون فى رأى البعض ، ونهر البو فى رأى البعض الآخر . ويقصد أوڤيد هنا نهر البو .

(٥٤) اتخذ أوريپيديس من أسطورة فايثون مأساة لم تنته إلينا إذ فقدت .

(٥٥) كان الكهرمان عند أرسطو وبلينيوس عصارة تسيل من بعض الأشجار مثل شجر الحور . ويرى غيرهما أنه بول متجمد لحيوان الوشق من فصيلة السنانير ، بينما يميل أوڤيد إلى الرأى الأول كما يبدو من النص . ومما يلفت النظر أن الكهرمان فى روما كان بمنزلة الأحجار الكريمة .

(٥٦) كانت شعوب ليجوريا تقطن الشاطىء الشمالى الغربى من إيطاليا .

(٥٧) إيريدانوس نهر أسطورى اقترن أحياناً بنهر الپو وأحياناً أخرى بنهر الرون .

(٥٨) كان لچوپيتر معبد شهير فوق جبل ليكايوس فى أركاديا .

(٥٩) ربة مفترقات الطرق المسماة تريڤيا هى فى واقع الأمر هيكاتى أخت ليتو ، وكانت إحدى الإلهات المتصلة بالقمر ، الأمر الذى أدى إلى الخلط بينها وبين ديانا التى كانت بدورها يخلط بينها وبين فوبيبه ، والراجح أن أوڤيد يقصد ديانا فى هذا النص . أما جبل ماينالوس فهو جبل مقدس فى أركاديا للإله پان إله الطبيعة .

(٦٠) ديكتينا لقب من ألقاب الإلهة الكريتية بريتومارتيس التى كثيراً ما كان الإغريق يخلطون بينها وبين أرتميس « ديانا » .

(٦١) كاليستو هى ابنة ليكاوون الذى سبق أن عرفنا تحوله إلى ذئب فى الكتاب الأول . وكانت الطقوس تقام له فوق جبل ليكايوس إلى جوار طقوس پان حتى حلت محلهما عبادة چوپيتر وحده .

(٦٢) إيريمانثوس سلسلة من الجبال فى أركاديا اشتهرت قديماً بقتل هرقل للخنزير البرى فوقها . وأصبح اسم هذه الجبال يطلق فيما بعد على كاليستو بعد أن تحولت إلى دبة ثم إلى ثريا فى السماء .

(٦٣) هما الدب الأكبر وحارسه الدب الأصغر ويطلق عليهما « السماكان » .

(٦٤) إشارة إلى القصة المشهورة التى تعزو إلى الإوز الذى كان يربّيه جند قلعة الكاپيتولينوس الفضل فى إيقاظ الجند وتنبيههم بصياحهم عندما اقترب الأعداء البرابرة من القلعة .

(٦٥) كلمة يونانية عتيقة معناها الشاطىء أطلقت على أتيكا ، وهذا هو ما يعنيه أوڤيد .

(٦٦) كيكروپس هو البطل الأسطورى لمدينة أثينا فهو ابن إلهة الأرض ، ولذا يمثل على شكل حيوان نصفه إنسان ونصفه الآخر أفعى .

(٦٧) أى البومة طائر منيرڤا المقدس .

(٦٨) هى بنت نكتيوس ملك جزيرة لسبوس ، واضطرت إلى الخضوع لشهوة أبيها الشاذة وقد حولتها الإلهة أثينا [منيرڤا] إلى بومة رفقا بها وجعلتها ترافقها دائماً . ومما يلفت النظر أن خطبة الغداف قد استوحاها أوڤيد من خطبة مماثلة عزاها الشاعر كاليماخوس إلى نفس الطير فى قصيدته الطويلة « هيكاليه » التى نسب فيها الشاعر خطباً للطيور .

(٦٩) هذا الابن هو إسكليپيوس الذى سيروى أوڤيد قصة رحيله من إپيداوروس إلى روما فى الكتاب الخامس عشر .

(٧٠) القنطور خيرون هو ابن كرونوس وفيليرا بنت أوقيانوس . واشتهر بأنه تعهّد أخيل وإسكليپيوس بالتربية والرعاية ، وكان للقنطور وجه إنسان وصدره فوق جسد حصان .

(٧١) معنى أوكيروييه باليونانية التيار الجارف .

(٧٢) خاريكلو هى بنت أپوللو .

(٧٣) كان مقدَّراً لإسكليپيوس أن يرد الحياة لهيپوليتوس [انظر الكتاب الخامس عشر] .

(٧٤) كان خيرون خالداً بطبيعته غير أن هرقل قذفه بسهم مغموس فى دم الهيدرا فأصابه بآلام مبرحة جعلته يناشد الآلهة تجريده من الخلود ليستريح من عذابه فاستجابت الآلهة له وحوّلته إلى كوكبة فى السماء .

(٧٥) هوهيپيه أى المهرة .

(٧٦) إيليس إقليم فى غرب المورة يشمل مدينة أوليمپيا المقدسة حيث كانت تقام الألعاب الأوليمپية .

(٧٧) مسينيا مقاطعة بشبه جزيرة المورة .

(٧٨) پيلوس مدينة بشبه جزيرة المورة .

(٧٩) صخرة قائمة بجوار پيلوس . وقد ظن بعض الشارحين أن الإشارة هنا إلى حجر الفلاسفة الذى يدل على وجود الذهب .

(٨٠) أحد الموانىء الثلاثة لمدينة أثينا بجوار خليج فاليرون .

(٨١) تمشى قرب أثينا على ضفاف نهر إليسوس كان أرسطو يلقى فيه دروسه الفلسفية ، وهو أصل كلمة « ليسيه » الفرنسية التى تعنى مدرسة .

(٨٢) معناها أرض الشواطىء وهو اسم قديم لأتيكا .

(٨٣) كان من صفات هذا الصولجان الشهير أنه يلقى النعاس فى الناس ويثير الأحلام وفق مشيئة ميركوريوس .

(٨٤) كان الذبل المتخذ من درق السلحفاة مادة أساسية فى الزخارف والترصيع وقتذاك .

(٨٥) كانت أجلاوروس بنت كيكروپس ملك أثينا . ويقال إن منيرڤا كانت ترعى إريخثونيوس بن ڤولكانوس وأخفته فى خزانة سلمتها إلى پاندروسوس وأمرتها ألا تتطلع إلى ما تحويه فأطاعت پاندروسوس ، غير أن شقيقتها أجلاوروس وهيرسى فتحتا الخزانة ، ولما شاهدتا الطفل بالخزانة تلتف من حوله الأفاعى أصيبتا بالجنون ، وألقتا بنفسيهما من فوق الأكروپول .

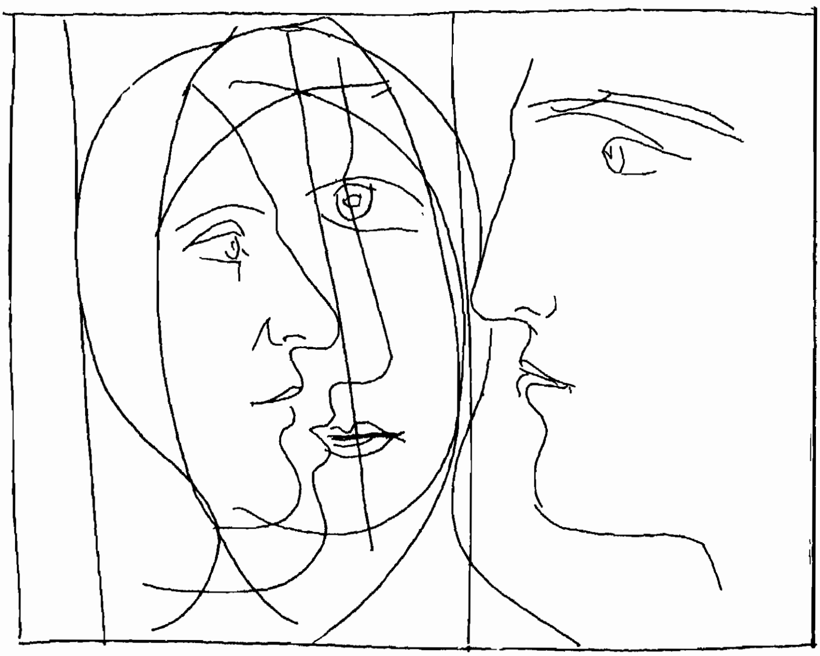
(٨٦) كان ڤولكانوس من أهل ليمنوس فى الأصل .

(٨٧) خشية أن يمسها الضرر .

(٨٨) تريتونيا لقب كثيراً ما يطلق على منيرڤا . ويرى البعض أن التريتون جدول صغير فى بويوتيا ترعرعت على ضفتيه الإلهة فى صباها . ويرى البعض الآخر أنه اسم بحيرة فى ليبيا .

(٨٩) هو لون ذراعى ربة الحسد رمز كل ما هو شرير .

(٩٠) كان ميركوريوس هو ابن مايا بنت أطلس ، وتشكل أمه مع أخواتها كوكبة فى السماء ، وعلينا أن نفترض أن جوپيتر يستطع أن يرى وهو يتطلع نحو الغرب مدن فينيقيا على يساره بالشرق .



بيكاسو

الكتاب الثالث

كادموس

بين بساتين كريت جلس چوپيتر يستريح وقد تخلّى عن صورة الثور التى تنكّر فيها ليخدع الأميرة وظهر لها فى صورته الحقّة . ولم يكن الملك أجينور قد عرف شيئاً عما حدث لابنته ، فعهد إلى ابنه كادموس بالبحث عن أخته المفقودة متوعّداً إياه بالنفى إن عاد دونها . وبهذا كشف عن أنه إلى جانب كونه أبا يفيض قلبه حناناً كان أيضاً أبا قاسيا لا يرحم .

وراح كادموس يضرب فى أرجاء العالم ، ولكن أنّى له أن يعرف ما يُخفى چوپيتر ؟ ومضى بعيداً عن بلاده خوفاً من بطش أبيه ، ثم حجّ إلى معبد الهاتف الإلهى لأپوللو يضرع إليه أن يرشده إلى المكان الذى عليه أن يستقر فيه ، وأوحى إليه فويبوس قائلاً : عليك بالمراعى النائية فسوف تقع عيناك على بقرة لم يُشدّ

إلى عنقها نير ولم تضق بجرّ محراث معقوف ، فامض فى إثرها واتبعها حيث تسير ، وحيثما تقف شيِّد أسوار مدينتك وسمِّها بويوتيا[1]

وما كاد كادموس يبتعد عن غار كاستاليا[2] حتى أبصر بقرة تتهادى بلا حارس وليس على عنقها أثر لنير ، فتبعها ومضى فى أثرها بخُطى متّصلة وهو يتمتم بحمد فويبوس الذى هداه إلى الطريق . وبعد أن عبر مخاضة سيفيسوس وحقول پانوپى ، توقّفت البقرة ورفعت نحو السماء جبينها الجميل المزدان بقرنين طويلين وأرسلت خواراً تردّد صداه فى الجو ، ثم تلفّتت وراءها ترى من يتبعها وخرّت على ركبتيها واستلقت على العُشب الناعم ، فاتجه كادموس إلى الآلهة شاكراً وقبّل أرض الغُرْبة ، وحيّا الحقول والجبال التى لم يكن له عهد بها من قبل وتأهّب ليقدّم قرباناً لجوپيتر ، وأمر أتباعه بالذهاب إلى ينبوع دافق ليغترفوا منه ماء يسكبه قرباناً للأرباب .

كانت ثمة غابة قديمة لم تمسسها بلطة ، يتوسّطها غار تكسوه صفصافة كثيفة ، وتشكّل جدرانه الصخرية قبوا منخفضاً يتدفّق من تحته ينبوع ثرّ . وكان بالغار أفعوان مارس الداكن الزُّرقة ، يعلو رأسه عُرْف ذهبى ، وتتوهّج عيناه ناراً ، ويزخر جسده بالسمّ الزعاف ، وفى فمه ثلاثة صفوف من الأسنان ولسان ذو شعب ثلاث .

ودلف الرحّالة القادمون من بلدة صور إلى الغار المشئوم ، وأخذوا يغترفون الماء بجرارهم ، فأزعجوا الثعبان الذى نفض رأسه من غور الغار ، وفحّ فحيحاً مخيفاً جعل الدم يجمد فى أطراف الرجال فسقطت الجرار من أيديهم المرتجفة من هول الفزع ، وأخذ الثعبان يزحف إليهم تتضام فى زحفه حلقات جسده الحرشفى ثم تنفرج على هيئة الأقواس وكأنها أطواء الموج ، وانتصب قائماً على ذنبه فإذا هو قد أظلّ على الغابة كلها ، إذ كان جسده بطول كوكبة الثعبان الممتدة بين كوكبتى الدبّين الأكبر والأصغر . وأسرع فهاجم الفينيقيين الذين كانوا قد اختلط الأمر عليهم فلم يعرفوا بأيتهما يأخذون ، أيسدّدون حرابهم أم يهربون ؟ وانطوى الثعبان على نفسه ثم قفز فصرعهم وتركهم بين ممزّق بأنيابه أو معتصَر بتلافيفه أو محتَرِق بأنفاسه المسمومة .

وحين توسّطت الشمس كبد السماء وقاربت ظلال الأشياء الزوال أخذ ابن أجينور يتساءل قلقاً عما أخّر رفاقه ، وراح يبحث عنهم مرتديا جلد أسد حاملاً رمحه وحربته المتألقة النصل متقدماً فى شجاعة لا يعوزها سلاح . فلما دخل الغابة لمح جثث أتباعه والعدو الرهيب يشمخ مزهواً بانتصاره عليهم تنسكب من لسانه قطرات الدم وهو يلعق جراحهم ، فصاح كادموس : « لأنتقمن لموتكم أيها الأصدقاء الأوفياء أو لألحقنّ بكم » . ومال على صخرة هائلة وطوّح بيمناه فى قوة لو أنه ضرب بها سور حصن شامخ لزعزعت أركانه ، ولكنها لم تصب الثعبان القوى الجسد السميك الجلد بأذى ، إذ كانت حراشفه بمثابة الدرع الواقى ، وارتد الحجر بعيداً بعد أن دفع به جلده الأسود ، فسدّد إليه رمحه فإذا هو يخترق الجلد وينفذ إلى الأحشاء عند منتصف الظهر ، واستدار الثعبان وهو يئن ألماً ، ثم إذا هو بعد جهد جهيد يقوى على

استخراج نصل الرمح غير أنه لم يقو على استخراج النصل المستقر فى عظمه ، وانتفخت عروق الثعبان
بالسم الذى طفح على فكّيه بزبده الأبيض ، وأخذ يحكّ الأرض بحراشيفه وينفث فى الجو أنفاسه التى تبدو ٨٠
وكأنها النهر فى تدفّقها ، ثم يحلّق حلقات تتبدّل وتتشكّل ، فيبدو كالشجرة المنتصبة حيناً أو كالنهر المتدفّق فى
جريانه تمدّه الأمطار حيناً آخر ، ويطيح صدره بالأشجار التى تعترض طريقه . وتراجع كادموس قليلاً إلى
الوراء متلافياً هجمات الثعبان محتميا بجلد الأسد الذى يرتديه شاهراً فى وجه الثعبان حربته التى كان
الثعبان يعضّها عضّات لا تنفذ فيها ، وما لبث الدم أن أخذ يسيل من فمه مختلطاً بالسم ملوّثاً الحشائش
الخضراء . وأثخن الجرح الثعبان وتراجع حتى لا تنفذ الحربة إلى أعماق حلقه ، ولكن كادموس ظل يلاحقه
يريد أن يلقمه حربته حتى اصطدم الثعبان بجذع شجرة بلوط عاقت فراره ، وأنفذ كادموس الحربة فى
حلقه فأثبت رأس الثعبان فى جذع الشجرة التى انثنت تحت ثقله وصدر عنها صوت كالأنين تحت ضربات
الثعبان لها بذيله التى كانت تشبه ضربات السياط[٣] .

وبينما راح كادموس يرنو إلى خصمه الضخم المهزوم إذا هو يسمع صوتاً لا يعرف مصدره يقول له :
« مَالَك تُحملق فى الثعبان الذى أرديتَه ، لسوف يأتى يوم يتطلّع إليك الناس فيه أيضاً وقد استحلت
ثعبانا »[٤] . وعندها سرى الفزع فى جسده وهرب الدم من وجهه وفقد وعيه وارتعدت أطرافه . وما لبثت ١٠٠
پالاس راعية كادموس أن ظهرت ، وطلبت إليه أن يحرث الأرض ويدفن بها أنياب الثعبان لتغدو بذور
شعبه الجديد . وأطاع كادموس أمرها وشقّ بمحراثه أخاديد عميقة بذر فيها أنياب الثعبان . وحدث ما لم
يكن فى الحسبان ، إذ أخذ سطح الأرض يضطرب ، وبرزت البذور فى شكل رءوس رماح تعلو وسط
الأخاديد ، وظهرت خوذات يهتز من فوقها الريش المختلف الألوان ، وتبعتها الأكتاف والصدور والأذرع
حاملة الحراب ، وامتلأ الحقل بنبت من الجنود المسلحين بتروسهم . وفزع كادموس حين رأى هذا العدد
المهول من الأعداء الجدد وشهر سلاحه مستعداً للنضال ، فصاح به أحد المحاربين الذين أنبتتهم الأرض
قائلاً : « لا تُشهر سلاحك ، ولا تقحم نفسك فى هذا الصراع القَبَلِىّ » ، وسرعان ما أغمد هذا المتحدّث ١٢٠
سيفه فى جسد واحد من أخواته النابتين معه وكان قريباً منه ، وما لبث أن سقط هو الآخر صريع رمح سُدّد
إليه من بعيد ، ولم يعش قاتله طويلاً إذ أسلم بدوره الروح التى لم يكن قد مضى على نبضها فى جسده
لحظات ، وظل الجيش يصرع بعضه بعضا حتى أفنى الصراع جميع الأخوة الذين لم يطل عمرهم أكثر من
لحظات قصار ، ولم يبق منهم سوى خمسة أفراد ، بينما ظلت جثث الموتى تتلوّى فوق صدر الأرض أمّهم التى
أدفأتها دماؤهم الساخنة . وكانت پالاس قد طلبت إلى أحد الخمسة الباقين وهو « إخيون »[٥] أن يضع
سلاحه فاستجاب لها ووعدها ألا يقاتل وطلب إلى إخوته الأربعة أن يفعلوا فعله . وفى صحبة هؤلاء الرفاق
الخمسة الباقين بدأ كادموس الوافد من فينيقيا يشيّد مدينته التى أوصاه الوحى بمعبد فويبوس ببنائها[٦] .

وشُيدّت مدينة « طيبة » ، وفيها بدا لكادموس أنه قد ظفر بالسعادة فى منفاه ، فقد بنى بالنبيلة
هارمونيا ابنة الإله مارس والإلهة ڤينوس ، ورُزق منها بأبناء وبنات ، أنجبوا له أحفاداً أعزّاء أقاموا تقاليد
الأسرة وأرسوا روابط التآخى بين أفرادها ، وعاش حتى رأى أحفاده وقد شبوّا عن الطُّوق وصاروا رجالاً .

ولكن على المرء أن يتلبّث حتى آخر يوم من حياة الإنسان ولا يحكم عليه سعادة أو شقاء ، إلّا بعد أن يموت ويوارى التراب .

أكتايون

كان أحد أحفادك يا كادموس هو مبعث أول حزن عانيت منه وسط السعادة التى رفلت فى حُللها ، فقد نبت له قرنان فى جبهته على غير مألوف الصورة البشرية ، وأنتم أيها الكلاب كنتم مصدر تعاسته حين ولغتم فى دم سيدكم . ولو أنا أنعمنا النظر فيما حدث لوجدنا أنه قد ذهب ضحية القضاء والقدر ، وأنه لم يذهب جزاء جريمة اقترفها ، وهل ثمة خطأ اقترفه حين ضلّ طريقه فتكون ثمة جريمة ؟

وقع ذلك الحادث فوق جبل تخضّب سفحه بدماء الحيوانات المفترسة المتنوّعة ، وفى ساعة كانت ظلال الأشياء فيها قد انحسرت وتوسّطت الشمس مدارها بين مشرقها ومغربها ، حين صاح أكتايون ابن شعب هياس(٧) برفاقه الهائمين على وجوههم فى الأدغال فى رفق ولين « أيها الأصدقاء ، لقد لوّثت دماء الوحوش التى اقتنصناها اليوم شباكنا ولطّخت سيوفنا ، وأصبنا من النجاح ما يكفينا ، ولسوف نواصل قنصنا غدا حين تعتلى أورورا ربّة الفجر مركبتها الذهبية العجلات وتطالعنا بيوم جديد . فلنكفّ عن الصيد الآن ولنجمع شباكنا الموثّقة العُقَد ، فقد توسّطت الشمس كبد السماء وأخذت حرارتها تشقّق أرض الحقول » ، ورحّب صحابه بقوله فلم يُتابعوا الصّيد المُضْنى .

وكان ثمة واد تتزاحم فيه أشجار الصنوبر والسَّرْو المدبّبة ، وكانت ديانا إلهة الصيد ذات الرداء القصير تلجأ إلى هذا المأوى المسمى جارجافييه ، إذ كان بأعماقه غار لم تتناوله يدُ فنان بشرى غير أن الطبيعة قد خلّفت فيه ما يشبه الأعمال الفنية ، إذ نحتت قبوة طبيعية من حجر الخفاف البركانى وحجر التوفة المسامى . وكان إلى يمين الداخل ينبوع مياه صافية تنتشر على صورة غدير فسيح تحتضنه شواطىء سندسية . وما أكثر ما كانت الإلهة تفد إليه كلما نالها الإرهاق بعد جولة صيد فى الغابات فتستحم فيه أو تندّى أطرافها العذرية فى مائه النقى .

أوت الإلهة إلى الغار وأسلمت رمحها وقوسها وجعبة سهامها للحورية المكلّفة بحمل سلاحها . وحملت حورية ثانية رداءها على ذراعها ، بينما خلعت اثنتان أخريان نعلها ، وتقدّمت وصيفة أشدّ مهارة هى كروكالىَ ابنة نهر إيزمينوس فضمّت ضفيرتى الإلهة المتدلّيتين على كتفيها وعقدتهما معاً خلف رأسها وتركت هى شعرها ينسدل مُرْسَلاً ، وانطلقت الحوريات نيفيلى وهيالى ورانيس وپسيكاس وفيالى يجلبن الماء فى جرار كبيرة وَيصُبِّبْنه على سيدتهن(٨) .

وبينما كانت ديانا تستحم على عادتها فى الغدير كان حفيد كادموس قد ترك الصّيد وأخذ يخطو متردّداً خلال هذه الغابة التى لم تسبق له رؤيتها حتى بلغ الغار ، وقاده القدر إلى مدخله فنفذ منه ، ولم يكد يصيبه

رذاذ الماء المتطاير ويشهد الأجساد العارية حتى ضربت الحوريات على صدورهن وملأن الغار بصراخهن ، وتحلّقن حول ديانا ليحمينها بأجسادهن غير أن طولها جعلها تبرز فوقهن جميعاً برأسها وعنقها . وحين تبيّنت ديانا أن عين رجل غريب وقعت عليها وهى عارية اكتست وجنتاها بحُمرة السُّحب التى تنعكس عليها أشعة الشمس الساقطة عليها أو بحُمرة الفجر ساعة يصطبغ بالأرجوان . ومع أن رفيقاتها المحيطات بها كن يسترنها إلاّ أنها انزوت جانباً وأشاحت بوجهها ، وتمنّت لحظتها لو كانت ممسكة بسهامها ، فأخذت قليلاً من الماء الذى تستحم به ونثرته فى وجه الشاب فعمّ شعره ، ومضت تتمتم منذرة إياه بمصير المشئوم قائلة : « رُح الآن وارو إن استطعت أنك شاهدتنى وأنا عارية بلا ثياب ؟ » ولم تضف إلى قولها شيئاً آخر ، فنبت قرنا وَعْل معمّر فى جبهته التى ابتلّت بالماء ، وطالت رقبته ودقّت أطراف أذنيه ، وتحوّلت يداه قدمين وذراعاه إلى ساقين طويلين ، واكتسى جسده بجلد أرقش وحلّ فى قلبه الرعب . وحين رأى الماء يعكس صورة وجهه بقرنيه همّ أن يَأْسَىَ ، غير أن شفتيه لم تتحرّكا بكلمة فجعل يئن ، وكانت هذه هى لغته الوحيدة التى بقيت له . وانهمرت الدموع من عينيه مبلّلة وجنتيه الممسوختين ، وأخذ يفكر بعقله وكان هو كل ما بقى له . ماذا تراه فاعلاً ؟ أيعود إلى القصر الملكى أم يختبىء فى الغابات ؟ وبينما هو متردّد فيما يفعل خجلاً من العودة إلى القصر وخوفاً من البقاء فى الغابات إذا كلباه ميلامپوس وإخنوباتيس المنفردان بقوة شمّهما يحيطانه بنباحهما ، وأولهما من سلالة اسپرطية وثانيهما من سلالة كريتية ، وجرت فى إثرهما فى سرعة الريح العاصفة سلالات مختلفة من الكلاب ، منها سلالة پامفاجوس ودوركيوس وأوريباسوس الأركادية ، ومنها نيبروفونوس القوى وثيرون المتوحش ولايلاپس الشرس وپترلاس السريع العدو ، وأَجْرِى القوىّ الشّم ، وهيلايوس الذى أصابه خنزير برّى بجرح ، ونايى الذئبى السلالة ، وپويمينيس حارسة القطعان وكذا الكلبة هارپيا وجرواها الصغيران ، ولادون الهزيل الوافد من سيكيون ودروماس وكاناسيه وستيكتى وتيجريس وألكى ، وليوكون الناصع البياض وأسبولوس الحالك السواد ، ولاكون الخارق القوة وأيبلو الذى لا يملّ العدو ، وثويس وليكيسكى السريعة العدو وشقيقها القبرصى هارپالوس ذو الغرّة البيضاء ، وميلانيوس ولاخنى الكثيفة الشعر ، ولبروس وأجريودوس وهما كلبان من سلالة مهجّنة من أم كريتية وأب اسپرطى ، وهيلاكتور العالى النباح وكلاب أخرى يطول ذكر أسمائها[٩] ، وامتلأت الكلاب حماسة لوقوعها على فريسة ، فخاضت الرُّبى والصخور التى لم يصل إليها أحد من قبل والتى يشقّ بلوغها . وأسرع أكتايون هارباً من الكلاب التى تطارده مندفعاً فى الأماكن عينها التى كان يتعقّب فيها صيده . ألاَ ما أتعسه . . . لقد أصبح يَهْرُب من كلابه هو ، وتمنّى لو ملك أن يصيح فيها : « أنا أكتايون ، ألا تعرفوننى ؟ » غير أن الكلام لم يُسعفه . امتلأ الجو نباحاً وأدركت ميلانخيتيس سيّدها وكانت أول من أعملت أسنانها فى ظهره ، ثم تبعتها ثيريداماس ، وأنشب أوريزيتروفوس أسنانه فى كتف سيّده . ومع أن الكلاب الثلاثة كانت قد خرجت متخلّفة عن رفاقها لكنها سبقتها لولوجها طريقاً قصيراً ، وطرحت سيّدها أرضا بينما تجمّعت بقية الكلاب حوله وهصرت بأسنانها جسده فلم يتركوه إلاّ ممزقاً . وأخذ أكتايون ينتحب بصوت لا هو صوت بشر ولا هو صوت وعل وقد ملأ نحيبه الجبال ، وجثا على ركبتيه كما لو كان يركع متوسّلاً ، ومضى يُحنى رأسه يَمنة ويَسرة فى صمت ضارع عاجزاً عن بسط ذراعيه ، بينما أخذ رفاقه الذين كانوا معه يصيحون فى

الكلاب يستحثّونها على الفتك بفريستهم جاهلين حقيقتها ، يصيحون بـاسمه باحثين عنه وهم لا يدرون أنه وسطهم ، وكل واحد منهم ينافس زملاءه فى الصياح ، وغمرهم الحزن لأن قائدهم لم يشهد فريستهم التى أوقعها الحظ بين أيديهم ! وكان أكتايون يدير رأسه كلما سمع اسمه متمنّيا لو أن ذلك لم يقع له ، وأنه لم يكن فريسة أنياب كلابه النهمة ، بل وكم تمنّى لو كان كغيره من المستمتعين بذلك المشهد ، وقيل إن الكلاب ظلت محيطة به تنهشه بأنيابها حتى خمدت حياته فسكن غضب الربّة ديانا حاملة جعبة السهام[١٠] .

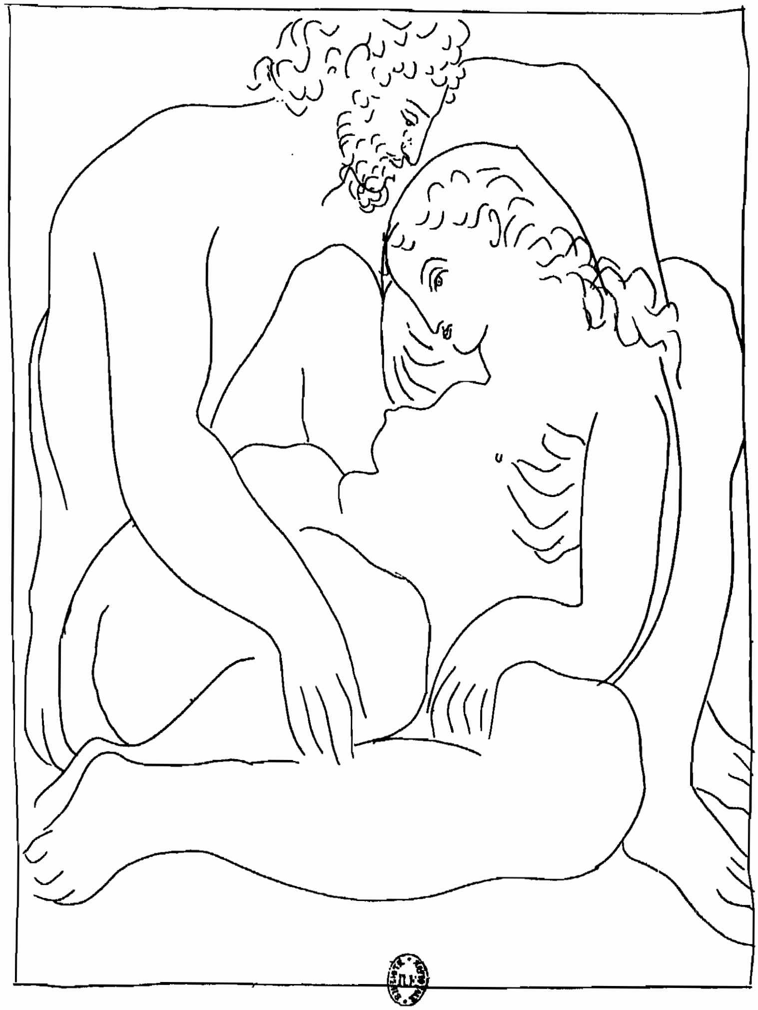
سيميليه

وحين بلغت القصة أسماع الناس اختلفوا بين ممتدح طهارة ديانا وحفاظها على عفّتها وبين آخذ عليها قسوة عقابها ، وكان لكل فريق من المتحاجّين ما يسانده . وقد لزمت زوجة چوپيتر وحدها الصمت وأمسكت عن المدح أو القدح ، غير أنها كانت فى أعماقها سعيدة بهذه الكارثة التى حلت بآل أجينور ، ذلك أنها كانت تطوى صدرها على حقد دفين لأسرة أوروپا منافستها الفينيقية من مدينة « صور » .

ثم ها هى چونو تلقى حدثا جديداً يضيف مزيداً إلى غضبها القديم ، فقد ثارت ثائرتها حين علمت أن سيميليه ابنة كادموس قد حملت ببذرة چوپيتر العظيم ، فأخذت تحدّث نفسها قائلة بلسان يتشوّف للنيل من الغير : « أية فائدة جنيتها من تأنيب زوجى المرّة تلو المرّة ؟ إن علىّ أن أُنزل عقابى هذه المرة بالفتاة نفسها ، أوَ لست أنا چونو الشديدة البأس كما أُعرف بحق ، أنا الجديرة بحمل الصولجان المرصّع بالجواهر ؟ أوَ لست ملكة السّموات وأخت چوپيتر وزوجته ؟ بلى إننى فى الحق أخته ، ولكن لعل البعض يلتمسون العذر لغريمتى بأنها قد قنعت بلقاءات حب فى الخفاء ، وأنها لم تعتد على حرمة فراشى إلّا فى نزوة عابرة . ولكن هل كان ينقصنا هذا العار الجديد ؟ إنها تحمل فى أحشائها دليل جرمها ، إنها تطمع فى أن تصبح أُمّا بفعل چوپيتر نفسه ، وهو ما عجزت أنا عن الظفر به . ألا ما أشد ثقتها بجمالها ! ولعمرى لأثبتنّ لها ضلال ثقتها ، ولن أكون جديرة بأن أُسمىَّ ابنة ساتورن إن لم أجعلها تغوص فى مياه نهر ستيكس مدفوعة بيد چوپيتر نفسه » . ثم نهضت عن عرشها وتلفّعت بسحابة ذهبية واقتربت من عتبة دار سيميليه ، ولم ترفع عنها السحابة حتى كانت قد تخفّت فى صورة عجوز يظهر الشعر الأبيض فى فوديها وتملأ التجاعيد بشرتها وقد احدودب ظهرها واهتزّت خطاها وارتعش صوتها من أثر الشيخوخة ، وبدت فى صورة شديدة الشبه بصورة بيروى الإپيداورية مرضعة سيميليه .

وانخرطت فى حديث طويل مع سيميليه عرجت فى نهايته على چوپيتر ، وزفرت زفرة عميقة وهى تقول : « لَكَمْ أتمنى أن يكون چوپيتر حقاً هو الذى منحك هذا الجنين فإن شكّا كبيراً يؤرّقنى ، فكم من رجل تسلّل إلى فراش فتاة بريئة منتحلاً لنفسه شخصية الإله ، وأيا يكن فإن ادعاءه بأنه چوپيتر لا يكفى

ولابد أن يقدم الدليل على حبه ، فاطلبى إليه أن يظهر لك فى صورته مجلّلا بهالة عظمته ومجده التى يظهر بها لچونو فى السماء ، ودعيه يضمك إلى صدره بعد أن يتلفّع بعباءة الألوهية » .



بيكاسو :چوبيتر وسيميليه

ونجحت چونو بحديثها فى أن تستثير ابنة كادموس التى لم تشكّ فى صدقها . وسألت الفتاة چوپيتر أن يعدها بتحقيق طلب لم تكشف عنه ، فوعدها الإله قائلاً : « سلى فلن أردّ لك طلباً حتى أُثبت لك أن بوسعك الثقة بى ، وإننى أُشْهد على ذلك أرباب نهر ستيكس الجارف الذى تهابه الآلهة أنفسهم » . وامتلأ صدر سيميليه بالفرحة لظفرها بوعدٍ لا تدرى أن تحقيقه سيحمل لها الهلاك وقالت : « فلتظهر لى كما تظهر لچونو ساعة تطارحها الغرام » ، وحاول الإله إمساك شفتيها عن الكلام ، غير أن عبارتها العجلة كانت قد طفرت من فمها وانتثرت فى الهواء ، فأشفق عليها چوپيتر بعد فوات الأوان الذى كان يستطيع فيه ردّها عن طلبها فلا يحقّق لها ما وعدها ، وصعد فى أجواء الفضاء مُثْقلاً بالحزن العميق ، وأومأ للضباب فتجمّعت عليه السّحب والبروق والرياح والرعود والصاعقة التى لا يفلت منها أحد ، على أنه حرص على حمل أقلّ قدر ممكن من قواه وتخففّ من حمل النيران التى أهلكت تيفويوس ذا المائة يد[١١] ، مستبدلاً بها صاعقة أقل ضراوة من تلك الصواعق التى لا تُبقى ولا تذر ، فقد كانت فى حوزته صاعقة استطاعت أيدى الكيكلوپيس أن تُدخل فى تكوينها قدراً أدنى من غضب الآلهة وقسوتهم ، وجعلها الآلهة من صواعق المرتبة الثانية . ودخل چوپيتر بهذه الصاعقة إلى دار أسرة أجينور ، غير أن جسد سيميليه البشرى لم يقو على تحمّل الإشعاعات التى تنبعث من صاعقة الإله فاحترقت وأصبحت رماداً بفعل هدية زفافها ، وأسرع الإله فانتزع الجنين الذى لم يكن قد اكتمل نموّه وأخرجه من بطن أمه . وإذا كان لنا أن نصدّق ما يتناقله الرواة فإن أباه قد وضعه على فخذه وهو مايزال مُضْغة ثم خاطه فيها حيث بقى شهور الحمل ، ثم حضنته خالته إينو[١٢] حتى عهدت به إلى حوريات نيسا[١٣] اللاتى خبّأنه فى غارهن وأخذن يغذّينه باللبن .

تيريزياس

وبينما كانت هذه الأحداث تدور على الأرض لوِفْق نواميس القدر ، وبعد أن بات مهد باكخوس [ديونيسوس] بن سيميليه ــ المولود مرّتين ــ فى حراسة أمينة ، ثمل چوپيتر بعد رشفات نكتاره الإلهى فحاد عن الجدّ وبدأ يمزح مع چونو ساعة استرخائها ، وقال لها : « إنكن معشر النساء لَتجِدْنَ فى لحظة الوصال نشوة تفوق تلك التى يجدها الرجال » . غير أن چونو لم تشاطره رأيه فاتفقا معاً على أن يحتكما إلى تيريزياس الحكيم ويسلّما برأيه ، ذلك أنه عرف لذّات الحب تارة وهو ذكر وتارة وهو أنثى . فقد كان يجول يوماً فى غابة خضراء ورأى ثعباناً هائلاً يواقع أفعى رهيبة ففرّق بينهما بضربة من عصاه . وفجأة ويا للعجب ، وجد نفسه قد تحوّل من رجل إلى امرأة ، وبقى سبعة أعوام وهو أنثى ، حتى كان العام الثامن وإذا هو يشهد نفس الثعبانين فى نفس الوضعة التى كانا فيها قبلُ فحدّثهما قائلاً : « لو أن هناك سحراً فعالاً قوياً يحيل من يضربكما من جنسه إلى الجنس الآخر فإننى مبادر بضربكما من جديد » ، وقام بضرب الثعبانين مرة أخرى ، وما لبث أن استردّ رجولته الأولى وعادت إليه طبيعته التى وُلد بها . وذلك ما

جعل چونو وچوپيتر يحتكمان إلى تيريزياس بعد مجادلتهما المازحة . وقد أيّدَ تيريزياس رأى چوپيتر ، فغضبت ابنة ساتورن غضباً فوق كل خلاف وقضت على تيريزياس بأن ينسدل جفناه على ليل سرمدى . ولما لم يكن فى استطاعة إله إبطال عمل إله آخر فقد عوّض چوپيتر تيريزياس عن فقده نور عينيه بمنحه قدرة التكهُّن بالمستقبل ، مخفِّفاً بمنّته تلك عنه ما أصابه من چونو من نقمة .

نارسـيسوس وإكـو

وكانت إجابات تيريزياس على تساؤلات الناس دقيقة مسلّمة من الأخطاء فأشاع ذلك شهرته فى مدن ٣٤٠
بويوتيا جميعاً . وكانت ليريوپى حورية النهر اللازوردية الشعر النادرة الجمال أول اختبار لصدق وحيه ، وكانت هى الحورية التى احتضنها ربّ النهر كيفيسوس وسط مجراه الملتوى واغتصبها وهى سجينة بين أمواجه فأنجبت طفلاً دعته نارسيسوس ما لبث أن نال إعجاب الحوريات وحبّهن . وحين قصدت تيريزياس تسأله هل تطول حياة ابنها إلى أن يهرم أجابها العرّاف العليم بالغيوب : « نعم إذا فطن إلى حقيقة أمره »[١٤] .

وقد ظل هذا القول فترة طويلة وكأنه لا يحمل معنى حتى كشفت عن مغزاه الأحداث والوقائع التى تمثّلت فى الهذيان الغريب الذى ألمّ بنارسيسوس وفى طبيعة الميتة التى لقيها . ذلك أن ابن كيفيسوس لم يكد يبلغ السادسة عشرة من عمره حتى جمع بين الطراوة والرجولة معاً ، وأخذ يحرّك الرغبة فى صدور الفتيان والفتيات معاً ، غير أن نعومة جسده اللّدن كانت تخفى صلفا عنيداً لم يتح لأحد من الفتيان أو الفتيات التودّد إليه . وذات يوم فيما كان يدفع بعض الغزلان المذعورة نحو شباكه شدّ انتباه الحورية الثرثارة « إكُو » التى لا تطيق الصمت حين يتحدّث الآخرون فتردّد دائماً ما تسمع من حديث لكنها لا تبدأ الحديث أبداً ، وكانت وقتذاك ماتزال محتفظة بجسدها لم تتحوّل بعد إلى مجرد صوت . ومع ذلك فلم يكن ثغرها الثرثار قادراً على غير تكرار نهاية العبارات التى تقال أمامها . حدث هذا بإرادة چونو حين اكتشفت أن إكو كانت تعوق خطاها حين تذهب لمفاجأة زوجها چوپيتر وهو يضاجع الحوريات فى الجبال ، إذ تنخرط معها فى ٣٦٠
حديث لا ينتهى تتمكن خلاله الحوريات من الإفلات . وحين فطنت چونو إلى مسلكها ثارت قائلة : « لسوف أحرمك قدرة هذا اللسان الذى خدعنى ، فلا تهنئين باستخدام صوتك إلاّ فى أضيق مجال » . ونفّذت چونو وعيدها ، ومن يومها وإكو لا تستطيع غير ترديد الكلمات الأخيرة من العبارات التى تسمعها .

ولم تكد إكو تلمح نارسيسوس جائلاً فى الحقول النائية حتى اشتعلت فى صدرها الرغبة وأخذت تتبع خطاه خفية ، تتزايد مع اقترابها منه النار التى تتأجّج فى أعماقها أسرع مما تشتعل النار فى الكبريت الذى يغطى رءوس المشاعل . وكم تاقت أن تتقرّب إليه بكلمات تطريه بها وتستعطفه غير أن طبيعتها لم تكن تتيح لها أن تبدأ حديثاً ، وإذ لم تكن قادرة إلا على تكرار ما تسمع فقد أخذت تترقّب أصواتاً تستطيع ترديدها .

٣٨٠ وحدث أن صاح الفتى حين أبعدته خطاه عن رفاقه الأوفياء قائلاً : « أما من أحد هنا ؟ » ، وأجابت إكو مردّدة الصدى « هنا » ، فتوقّف نارسيسوس مذهولاً وتلفّت حوله ثم صاح بصوت عال : « هلمّ إذن » فردّدت إكو قوله ، فتلفّت وراءه فلم يجد أحداً ، فصاح من جديد : « ماسرّ هذا التخفّى منى ؟ » ، ولكنه لم يسمع غير كلماته ترتد إليه ، فألحّ فى ندائه حتى ضاق بالصوت الذى خُيِّل له أنه يتجاذب معه الحديث فقال : « لنلتق هنا » . ولم يكن هناك ما يُدخل السعادة على الحورية أكثر من ترديد هذه العبارة ، فردّدت على الفور قوله : « لنلتق هنا » ، ودلّلت على فرحتها بالخروج من مخبئها بين الأشجار وتقدّمت نحوه تعانق أملها المنتظر ، غير أنه أفلت منها صائحاً : « رُدّى ذراعيك اللتين تمدّينهما لعناقى ، فإننى أفضل الموت على أن أستسلم لك » . ولم تردّد إكو إلاّ عبارة « أستسلم لك » ، غيـر أنها أحسّت بالمهانة فغاصت فى أعماق
٤٠٠ الغابة ، وأخفت وجهها العابس بين أوراق الأشجار . ومنذ ذلك الحين وهى تسكن الكهوف الموحشة ، وعاش حبها مع ذلك نابضاً فى قلبها ، يتزايد لهيبه تزايد آلام الصدّ ، وحرمها قلقها النوم فأصابها الهزال وغطّت بشرتها التجاعيد وذبلت نضارة جمالها ، ولم يبق منها إلاّ صوتها وعظامها ، غير أن عظامها ما لبثت أن تحوّلت إلى حجر وظل صوتها وحده يتردّد . ومع بقائها مختبئة فى الغابات فإن أحداً لم يعد يراها وإن بقى الجميع يسمعون صوتها فى الجبال .

ولم تكن إكو الحورية الوحيدة التى سخر نارسيسوس من عواطفها فقد أشاح بوجهه عن كثيرات من حوريات المياه والغابات كما فعل مع عشّاقه الذكور ، غير أن إحدى الحوريات اللاتى صدّهن رفعت ذراعيها متوسّلة إلى السماء أن يقع هو بدوره فى شراك حب لا يخرج منه فائزاً . وسمعت نيميسيس[١٥] ربّة مدينة رامنوس ذلك الدعاء العادل واستجابت له .

كان ثمة غدير صاف تتألق مياهه الفضية لم يعرف الرعاة طريقهم إليه ، ولم تَرِدْ ماءه قطعان الماعز أو البقر التى ترعى العشب بالمراعى ، ولم يكن يقطع عليها هدوءها تغريد طير أو صياح وحش أو تساقط فروع الأشجار ، إذ أحاطت بها مروج كثيفة العُشب تسقيها المياه المجاورة فتمنحها إيناعاً دائماً متصلاً ، وتحميها من أشعة الشمس المحرقة غابات تلفّها بالأشجار الباسقة وتجعل أنسامها رطبة على الدوام .

ساقت نارسيسوس خطاه إلى هذا النبع بعد ما أضناه الصَّيد المنهك ووقدة الظهيرة ليسترخى فى هذا الموقع الذى استهواه جماله وندى نسماته ، وقد مال على الينبوع ليطفىء ظمأه فإذا هو يحسّ ظمأ جديداً . ذلك أن صورته المنعكسة على الماء قد سحرت لبّه فوقع فى غرام طيف حسبه جسداً وهو لا يعدو أن يكون ظلاّ . وقد فتنته صورته فبقى يحملق فى الماء بلا حراك ، جامداً كتمثال من رخام جزيرة پاروس .
٤٢٠ واضطجع على الشاطىء يتأمل عينيه الشبيهتين بنجمين وشعره المسترسل الجدير بأن يكون شعر باكخوس أو أپوللو ووجنتيه الملساوين وعنقه العاجى ووجهه الجميل الذى يتورّد بياضه الناصع . وامتلأت نفسه إعجاباً بتلك القسمات التى تحرّك إعجاب الآخرين به . ودون أن يدرى بات يُولَع بذاته ويمتدح نفسه ويؤجّج فى صدره التّباهى بطلعته ، فكان هو نفسه وقود تلك النار التى يُضرمها . وكم من مرّة حاول فيها

تقبيل ذلك الوجه المنعكس عن وجهه على صفحة الغدير ، وكم من مرّة غاص بذراعيه إلى أعماق الماء محاولاً ضمّ خياله الذى تراءى له إلى صدره فإذا هو أعجز ما يكون عن أن يحقّق ما يحاول . أى شىء هذا الذى تقع عليه عيناه ؟ إنه لا يدرى . غير أن هذا الذى يشهده هو مصدر الضّنى فى نفسه ، وهذا الخيال الذى خدع عينيه هو الذى أثار الشّوْق فى نفسه إلى نفسه . أى نارسيسوس ، أيها الصّبىّ الساذج ، فيم محاولتك الإمساك بصورة خادعة ؟ إن ما تبحث عنه ليس له وجود حسّى ، ولو أنك استدرت لغاب عنك هذا الذى تهيم به ، إن ما تراه ليس غير خيال نشأ عن انعكاس صورتك على الماء . إنه ليس له وجود مستقل . إنه يجىء معك ويبقى ببقائك ثم يرحل برحيلك لو رُزِقْتَ الجُرْأة على الرحيل .

ولم تستطع شواغل الطعام ولا الحاجة للنوم أن تنتزع الفتى من مكانه فظل ممدّداً على العُشب الكثيف يحملق فى الصورة الكاذبة بعينين لا تشبعان من إطالة النظر ، وعراه الشّرود من مداومته التأمل ، ثم وقف فى النهاية وبسط ذراعيه نحو الغابات المحيطة وصاح بها : « أيتها الغابات ، هل أحسَّ أحدٌ بحبٍّ أشدّ لوعة من حبّى هذا ؟ إنك تعرفين الخبر اليقين ، فالمحبّون يجدون فيك المأوى الأمين للقاءاتهم الخفيّة ، وقد طالت حياتك قروناً فهل تذكرين خلال سنوات عمرك الطويل أحداً ذاب مثلى أسىً ؟ إننى عاشق أتطلّع إلى من أعشق ، غير أن هذا الكائن الذى أراه وأهواه يقعدنى العجز عن وصله وما أزال حتى هذه اللحظة مخدوعاً بحبه . ومما يضاعف من ألمى أن لا شىء يفصلنى عن حبيبى ، فليس بيننا محيط ولا طريق ولا جبال ولا أسوار مدينة ذات أبواب مُغلقة ، ليس غير قليل من الماء هو الذى يحول بيننا . وما أَشْوَقَ حبيبى إلى عناقى ، فحين انثنيتُ على صفحة المياه الصافية لأُقبّله رفع هو الآخر وجهه إلى وجهى محاولاً الاقتراب منى ، وخُيِّل إلىّ أن فى مقدورى أن ألمسه لولا تلك المياه الرقراقة التى تحول بينى وبينه . فلتقترب منى أيها الغلام الفريد فى جمالك كائناً من تكون ! لماذا تراوغنى ؟ وأين تذهب كلما حاولت الوصول إليك ؟ إنك لا تتجنّبنى دون شك لمظهرى أو سنّى فالحوريات يعشقننى ، ثم إن نظراتك التى تفيض حناناً تبعث فىّ الأمل . كما أنك تمدّ ذراعيك لى كلما مددتُ ذراعى لك ، وتبتسم لى حين أبتسم لك ، وكثيراً ما تدفّقت دمعاتك مع دمعاتى ، وبادلتنى إشارة بإشارة ، ولقد تتبّعت جاهداً حركات شفتيك الجميلتين وهى تنبس عن كلمات ما بلغت سَمْعِى أبداً . ويلاه ، إن هذا الصّبىّ الذى يتراءى لى ليس غيرى ! وها أنذا قد فطنتُ للحقيقة . إن صورة وجهى لا تخدعنى ، إننى أحترق بنار حبّى لنفسى ، وإننى أشعل بنفسى النار التى أشقى بها ، ماذا تُرانى فاعلاً ؟ أتوسّل إلى نفسى أو أتلبّث حتى تتوسّل إلىّ نفسى ؟ وأى ضراعة تلك التى تُمكّننى من أن أنال ما أحبّ ؟ فى حوزتى ما أتشوّق إليه ، وثرائى هو سبب بلائى ، وكم وددتُ لو استطعت أن أنفصل عن جسدى ، وتلك أمنية ما أعسرها على العشاق . كم وددتُ لو كان حبيبى غير قريب منى . إن الحزن يعتصر قواى وليس أمامى من العيش إلاّ أيام معدودات ، إننى أنطفىء وأنا فى زهرة الشباب ، ولن أصارع الموت لأنه سوف يريحنى من الآلام ، وكم أتمنى لحبيبى أن يحيا طويلاً من بعدى ، غير أن وحدة قلبينا ستجعلنا نَهْلِكَ معاً وتنتهى حياتنا مع زفرة واحدة » .

وحين أنهى حديثه عاد يحملق مذهولاً فى الوجه نفسه وقد تساقطت دموعه على الماء فاضطربت صفحته وتموّج سطح الغدير ، وانطمست صورته ورآها تختفى فصاح بصوت عال : « إلى أين تهجرنى أيها القاسى القلب ، ابق ولا تهرب ممن يحبّك ، دعنى أتطلّع إليك مادمت لا أملك لمسك ، دعنى أُشبع حبى السيىء الطالع بالنظر إليك » . ومزّق من فرط حزنه طوق ردائه وأخذ يضرب صدره العارى بيده الناصعة البياض فتورّد صدره من أثر الصفعات تورّد التفاح تحمرّ بعض أجزائه وتبقى الأخرى مشرقة البياض ، أو تورّد العنب لم يكتمل نضج عناقيده بعد .

وحين هدأت مياه الغدير تمثّلت على صفحتها مآسى نارسيسوس كلها فلم يطق مزيداً ، وكما تذوب الشمعة مع الحرارة الهادئة ، وكما تتبدّد قطرات الندى مع دفء الشمس أخذ يذوب بحرارته الكامنة الخفيّة بعد ما أنهكه الحب وأضناه ، وفقدت بشرته بياضها المشرب حمرة الورد وزايلته قوة شبابه ، واختفى جمال قسماته الذى كان يأسر عينيه ، ولم يبق له شىء مما أحبته إكو يوماً . وقد شاهدت إكو ما وقع له ، ومع أن ذكرى صدوفه عنها كانت لاتزال ماثلة فى أعماقها إلاّ أنها أحسّت بالحزن شفقة عليه ، وكلما زفر زفرة وقال « ويلاه » كانت تردد وراءه هذه الكلمة . وكانت آخر كلماته وهو يحملق فى الماء ، « واحسرتاه على الغلام الحبيب الذى ذهب حبى له سدى » ، أخذت إكو تردّد صداها . وحين نادى « وداعاً » ، ردّدت إكو أيضاً هذه الكلمة ، وتهالك بعدها فوق العشب ، ثم ما لبث أن أغمض عينيه اللتين طالما هامتا بجمال صاحبهما وسقط ميتاً . وحين احتواه عالم الموتى عاد يتطلّع إلى صورته على صفحة مياه ستيكس ، وحزنت عليه شقيقاته حوريات النبع وقصصن شعورهن إجلالا له ، وحزنت عليه حوريات الغابة أيضاً ، وردّدت إكو أصداء نواحهنّ .

وكان حطب المحرقة والمشاعل التى تُهَزّ بالأيدى[١٦] قد أُعدّت لحفلِ إحراق جثته التى اختفت ولم يعثر عليها أحد ، وإذا زهرة النرجس قد ظهرت مكانها تحمل قلباً زعفرانى اللون تنبثق منه وُريقات بيض[١٧] .

پنثيوس واكويتيس

كانت أحداث هذه القصة مما أذاع شهرة الحكيم تيريزياس فى كافة مدن اليونان ، وكان بها جديراً ، فلقد ظل اسمه بعد ذلك موضع التقدير والإعجاب .

وكان پنثيوس بن إخيون يزدرى الآلهة ، وكان الوحيد من البشر الذى امتهن رسولهم وسخر من تحذيرات العرّاف العجوز تيريزياس . وحين عيّره بفقدان بصره هزّ العرّاف رأسه الأشيب وقال له لائماً محذّراً : « لو أنك حُرمت نور عينيك كما حُرِمتُه أنا لكنت أسعد حالاً ، فعندها لم تكن لتشهد طقوس باكخوس السرية . ولسوف يأتى ذلك اليوم ، ولا إخاله بعيداً ــ الذى يُقْبِل فيه الإله الجديد ليبر بن سيميليه[١٨] ، فإذا أنت لم تُوفه حقّه من التبجيل فى المعابد المقدّسة ، تمزّق جسدك إرباً إرباً ، وتناثرت

أعضاؤك هنا وهناك ، ولطخ دمك الغابات ولطّخ أمك وشقيقتيها . أجل ، سوف يأتى هذا اليوم الذى ستُحْجِم فيه عن تكريم الإله ، ولسوف تأسى على أننى وسط غياهب ظُلمة البصر قد استطعت أن أرى هذا كله ببصيرة نافذة » . وحين سمع ابن إخيون هذه العبارات على لسان العرّاف ثار فطرده شرّ طردة ، ولم تلبث نبؤات تيريزياس أن تحقّقت ، وأقبل ليبر ، تردّد الحقول صيحات عابديه المحمومة احتفاءً به ، وخرج الشعب عن بكرة أبيه ، رجالاً ونساء وأبكاراً ، فتية وأشرافاً ودهماء ، واندفعوا جميعاً ليقيموا الشعائر الجديدة . غير أن پنثيوس أخذ يعترضهم قائلاً : « يا سلالة التنّين ، يا أبناء مارس ، ما هذا الجنون الذى ذهب بعقولكم ؟ أوَ يمكن أن يكون لقرع النحاس بالنحاس ولِنَفْخ المزمار المحدودب ولحيل السحرة مثل هذا الأثر ؟ أوَ يمكن أن يطغى ضجيج النسوة ونشوة السُّكر وجلبة أخدان العربدة والمجون وقرع الدفوف الجوفاء على الرجال الذين لا يهابون صليل السيوف فى المعارك ونداء النفير الذى يدعو إلى القتال أو الكتائب التى تُشْرَع بين صفوفها الحراب ؟ مَنْ منكم يحق لى أن أدهش منه ؟ أأنتم أيها الشيوخ الذين عبرتم فسيح البحار وجئتم هنا لتشيّدوا مدينة « صور » الجديدة[١٩] ولتقيموا بها معابد آلهتكم ثم تتركون غيركم يظفر بها دون قتال ، أم أنتم أيها الشباب يا من تفيضون حياة وتُقاربوننى سنّاً ، إنه لأجدر برءوسكم أن تحمل خوذات بدلاً من أكاليل الزهور ، وبأيديكم أن تحمل السيوف بدلاً من ثيرسوس باكخوس[٢٠] . إنى أسألكم أن تذكروا أسلافكم وأن تحاكوا ذلك الأفعوان الذى استطاع وحده أن يفتك بالعديد من المحاربين الشجعان مضحّياً بحياته دفاعاً عن مياه ينبوعه ، وإنكم لتعرفون كيف تثأرون لكرامتكم ، فاطردوا إذن هذا العدو الجبار لتكونوا أمناء على مجد آبائكم . ولو كان مقدَّراً لطيبة أن تسقط سريعاً لتمنّيت أن يهدم أسوارها أعداء شجعان برَجْمات المجانيق ومقارعة السيوف وأزيز اللهب ، فسنسلم ساعتها من اللوم مهما كان حظّنا شقيّا ، ولن نكون بحاجة إلى إخفاء دموعنا التى لن تغسل عنّا العار . اليوم يستولى على طيبة صبىّ خامل غير مفتون بالحرب وفرسانها وأسلحتها ، ولا تستهويه غير جدائل الشعر التى يفوح منها عطر المُرّ ، وأكاليل الزهور والثياب الصارخة الألوان المطرّزة بالذّهب . دعوه لى ولسوف أرغمه على الاعتراف بأنه هو نفسه الذى اختلق الخرافة القائلة بأنه إله مقدّس ، فإن طقوسه الدينية تدعو إلى السخرية ، فإذا كان أكريسيوس[٢١] قد وجد الشجاعة الكافية لكى يُنكر عليه ألوهيته ويغلق فى وجهه أبواب مدينة أرجوس ، فهل يعقل أحد أن يُصيبنى هذا الأجنبى وسكان طيبة معى بالذعر ؟ » . ثم استدار يأمر رفاقه قائلاً : « أسرعوا ، أسرعوا وجيئونى بزعيم هذه العصابة مكبّلاً بالأغلال ونفّذوا أوامرى دون تخاذل ولا تضيّعوا الوقت » .

على أن جدّه أثاماس وجميع أفراد أسرته قد لاموه وحاولوا عبثاً صدّه عن اندفاعه فزاده تحذيرهم إياه من ثورته ، ودفعته محاولاتهم إلى المبالغة فى تهوّره ، وزادت جهودهم فى كبح جماحه الأمر سوءاً ، مثله فى ذلك مثل السيل يهبط هادئاً لا تسمع له إلاّ خريراً هامساً فإذا ما اعترضت العقبات مسيرته وكذا الصخور أو الأشجار اضطرب واصطخب وتغلّب على كل ما يعترضه .

وعاد مبعوثوه ملطّخين بالدماء ، وحين سألهم سيّدهم عن باكخوس أجابوا بأنهم لم يروه ، وأضافوا قائلين : « ها هو ذا واحد من أتباعه أسرناه حين كان يؤدى الطقوس السرية » ، وأسلموه الأسير التيرينى[٢٢] المتحمّس لعقيدة باكخوس ويداه مقيّدتان خلف ظهره . ونظر إليه پنثيوس وعيناه تقدحان شرر الغضب ، وكان على وشك أن يبطش به ولكنه وجّه للأسير سؤالاً قائلاً : « إنك موشك على الموت ، ولسوف تكون بعد موتك عبرة وعظة لغيرك ، فتكلم إذن وافصح عن اسمك واسم أبويك ومكان مولدك وسرّ احتفالك بطقوس هذه العقيدة الجديدة ؟ » وأجاب الأسير دون تلعثم : « اسمى أكويتيس ، وقد وُلدت فى مايونيا من أبوين من أصل متواضع ، ولم أرث عن أبى حقولاً تحرثها الثيران القوية ، ولا قطعان ماعز تمدّنى بالصوف ، ولا بقرة واحدة أرعاها ، إذ كان مثلى فقيراً ، وكانت مهنته طرح الشِّباك للأسماك واجتذابها بشصّه ثم رفعها من الأنهار منتفضة على طرف قصبة من غاب . وكانت مهنته هى كل ثروته التى أورثها لى قائلاً : « امسك بهذه الثروة من بعدى وكُن خَلَفى فى هذه المهنة » . ثم مضى به الموت دون أن يترك لى غير المياه أبحث فيها عن صيد . ذلك كان كل ميراثى ، غير أنى لم أشأ إفناء عمرى قابعاً فوق الصخور ، فتعلّمت إدارة دفة السفينة وقياس المسافات بمواقع النجوم : نجمة عنزة أولينوس دليل المطر[٢٣] والثريّا وقلائص كوكبة الثور والدبّين الأكبر والأصغر ، وألفت عيناى اتجاهات مهابّ الرياح كما ألفت الموانىء الصالحة لرسو السفن . ويوماً ما وأنا مُبْحر صوب جزيرة ديلوس اقتربت من شواطىء جزيرة خيوس وكان رجالى يجدّفون فى يُسر قرب الشطّ فقفزت من القارب فوق الرمل المبتل وأمضيت مع رجالى الليل هناك . حتى إذا أخذ الفجر يصبغ السماء بحُمرة كحُمرة الورد استيقظت وطلبت من رفاقى أن يمضوا بحثاً عن مياه عذبة وأرشدتهم إلى طريق الينبوع ، ووقفت فوق ربوة لأستشف ما تأتى به الرياح ، فناديت رفاقى وعُدت إلى سفينتى وكان أوفلتيس أول من عاد من الرفاق مهلّلا : « ها نحن أولاء » وكان قد اصطحب معه غلاماً تفوق وسامته جمال الفتيات ، وكان وحيداً فى الحقل قد أثقلت جفناه الخمر والنّعاس ، يتعثّر فى مشيته ويتبع صاحبه متثاقلاً . وأنعمت النظر فى قسمات وجهه ومظهره وثيابه فرأيتنى بين يدى مخلوق يسمو على البشر ، حتى إذا امتلأت ثقة بحكمى قلت لرفاقى : « تُرى أى إله يستكنّ فى هذا الجسد ؟ ما أعجزنى عن أن أتبيّنه ولكنه إله على أية حال » ، ثم التفتُّ إليه قائلاً : « ها أنذا أضرع إليك كائناً من كنت أن ترفق بنا وتمدّ لنا يد العون ، وأن تصفح عن رجالى » . وهنا صاح ديكتيس « لا حاجة بى إلى صلاتك » ، وكان أسرع الملاّحين فى تسلّق السارى صعوداً وهبوطاً ، ووافقه كل من ليبيس وميلانثوس الأشقر مرشد السفينة ، وكذلك ألكيميدون وإيپوپيوس الذى كان يرفّه عن المجدّفين بصوته الرخيم ويوافق بين إيقاع المجاديف . ثم حذت البقية الباقية حذوهم وقد أعماهم عن الحقيقة شغفهم بالغنيمة التى ظفروا بها ، فصحت فيهم : « لن آذن لكم أن تنالوا من نزيلنا المقدّس فتنزل اللعنة على سفينتى ، وأنا صاحب الكلمة الفاصلة فى هذا الشأن » ، واعترضت طريقهم إلى السفينة ، فأثار هذا ليكاباس أشدّهم جرأة وكان قد نفى من مدينة إتروسكية عقاباً لجريمة قتل بشعة ارتكبها . وحين أردت مقاومته قبض على عنقى بقبضته القوية ، وأوشك أن يلقينى فى البحر لولا أنى أسندت ظهرى إلى أحد الحبال ، بينما كان الملاّحون الحمقى يصفّقون له على فعله . وأخيراً تدخل الصّبىّ الذى لم يكن سوى الإله باكخوس نفسه وكأنما بدّد الصياح

غفوته وتيقّظ من سكرة النبيذ ، وتساءل : « ترى أى شيء يقع هنا ؟ وفيم كل هذا الصياح ، أخبرونى أيها الملّاحون ماذا أتى بى إلى هنا ؟ وإلى أين تنوون الذهاب بى ؟ » فهدّأ پروريوس[٢٤] من روعه قائلاً : « لا تخف ، وقل لنا اى ميناء تريد آن تبلغه ولسوف نرسو بك عند المكان الذى تختاره » . وأجاب ليبر [باكخوس] « أريد أن أرسو عند ناكسوس ، فاتجهوا بسفينتكم صوب هذه الناحية فهناك موطنى ، ولسوف تجدون بها كل حفاوة » ، فأقسموا له يميناً كاذبة بإله البحر وبجميع الآلهة أن يذهبوا به إلى حيث يريد ، وطلبوا إلىّ أن أنشر الشراع لتدفع به الريح فأدرت الشراع إلى اليمين حيث تقع ناكسوس[٢٥] فإذا بأوفيلتيس يصيح فى قائلاً : « ماذا تفعل أيها الغبى ؟ أى جنون أصابك ؟ » ، وصاح بى بعض الرجال « انحرف إلى اليسار » . وبينما أومأ إلىّ بعضهم برأسه همس فى أذنى آخرون بما يضمرونه ، ففزعت وقلت لهم : « فليتولَّ الدفة أحد غيرى » ، ورفضت مشاركتهم فى خطّتهم الإجرامية فتعقّبونى باللعنة متمتمين بالغضب ، وصاح إيثاليون : « أو تظن أمان السفينة موكولا إليك وحدك ؟ » ، وأخذ مكانى فى السفينة ومضى مخلّفاً ناكسوس إلى وجهة أخرى منطلقاً بعيداً . وحينئذ سخر الإله منهم وكأنه لم يكشف خيانتهم إلّا ساعتها ، ووقف فى مؤخرة السفينة وتطلّع إلى مياه البحر متظاهراً بالبكاء ، وقال : « ليس هذا هو الشاطىء الذى وعدتم بإرسائى عنده أيها الملّاحون ، وليست هذه بالبلاد التى رجوتكم التوجّه إليها ، ما الذى فعلته بكم لتجازونى هذا الجزاء ؟ وأى مجد يصيبه نفرٌ من الكبار من التغرير بصبىّ وحيد ؟ » .

وعندها انخرطتُ فى البكاء غير أن الملّاحين الأشرار سخروا من دموعى وضاعفوا من حركة مجاديفهم ، وأُقسم لكم الآن بذلك الإله نفسه [لأنه ليس هناك من هو أثبت منه وجوداً] بأن ما أقصّه حق رغم استحالة تصوّره ، إذ ما لبثت السفينة أن توقفت وسط المياه جامدة وكأنها تقف على حوض جاف ، وتعجّب الملّاحون وجدّوا فى الضرب بمجاديفهم ونشر جميع الأشرعة لييسّروا للسفينة أن تندفع ، غير أن أعشاباً من البحر أخذت تلتف حول المجاذيف بمحاليقها الحلزونية فعوّقت حركتها والتفّت عناقيدها الكثيفة على الشراع فجمدت السفينة مكانها ، وظهر الإله نفسه مزدان الجبين بعناقيد كروم شاهراً حربة مغطاة بأوراق عنب ، وتضطجع حوله أطياف وحوش من نمور وفهود مفترسة مرقّشة الجلود ، فهُرع البحارة يلقون بأنفسهم إلى الماء جنوناً أو رُعباً لست أدرى . وكان ميدون هو أولهم فقد اسودّت بشرته وانحنى ظهره كالقوس وأبصره ليكاباس فسأله قائلاً : « على صورة أى وحش تتحوّل ؟ » وبينما هو يتحدث إليه إذا فمه يتسع وخياشيمه تنفرج وجلده يتصلّب وتكسوه الحراشيف . وحين حاول ليبيس جرّ مجدافه تقلّصت يداه وتحوّلتا إلى ما يشبه الزعانف . وحين حاول رجل آخر رفع ذراعيه ليتعلّق بالحبال المجدولة اكتشف أنه بلا أذرع ، فحنى جسده المبتور الأطراف وقفز إلى الوراء وسقط فى الماء وإذا هو قد نبت له ذيل على شكل المنجل المقوّس الذى يحكى قرنى الهلال . وأخذت هذه المخلوقات تقفز فى الماء هنا وهناك مثيرة الزَّبَد وهى تغوص فى الماء وتعلو وكأنها جماعة من الراقصين تنفث المياه بخياشيمها الواسعة . ولم يبق من العشرين ملّاحاً غيرى فوق السفينة وقد أمسك بى الذعر وعرتنى الرِّعدة ، فهدّأ الإله روعى قائلاً : « لا تخف » ووجّه السفينة إلى جزيرة ديا[٢٦] ، حتى إذا بلغتها بادرتُ بتأدية طقوس باكخوس السرّية ، وصرت من يومها من المؤمنين به » .

وعقّب پنثيوس على هذه القصة قائلاً : « إذا كنت قد أصخت لحكايتك الطويلة الملتوية فذلك كى أفسح لغضبى أن يهدأ ، خذوا هذا الرجل أيها الأتباع وصبّوا على جسده جميع ألوان العذاب ، ثم ابعثوا به إلى عالم الموتى فى نهر ستيكس » . وما لبثوا أن اقتادوا أكويتيس التيرينى بعيداً ، وحبسوه فى سجن حصين ، غير أن الرواة يحكون أنه حين أُعدّ الحديد والنار لتعذيبه ، انفتحت الأبواب على مصاريعها وتساقطت
٧٠٠ الأغلال عن يديه من تلقاء نفسها . وبقى ابن إخيون سادراً فى غيّه ولم يشأ إنابة أحد عنه ، بل توجّه بنفسه إلى كيثايرون ، وهو الجبل الذى اختير لإقامة الشعائر الدينية ، وعليه تردّدت الأغنيات وصيحات عابدات باكخوس التى غمرت أجواز الفضاء . وكالجواد الأبىّ فى ساحة الحرب يصهل متهيّئاً للقتال ساعة يسمع صوت النفير يستنهض المحاربين للهجوم ، أخذت صيحات كاهنات باكخوس التى ردّد الهواء صداها تهيج پنثيوس وتزيد غضبه وتُشعل الضوضاء ثورته .

كان ثمة سهل منبسط فى منتصف الطريق الصاعد إلى الجبل قفرٌ من الأشجار على الرغم من أن الغابات تكتنفه ويمكن للعين أن تحيط بجوانبه . ومن هذا المكان استطاع پنثيوس أن يشهد الطقوس السرية بعينيه اللتين حُرمتا ومض الإيمان . وكانت المرأة الأولى التى رآها تندفع صوبه كالمجنونة ، نعم . . . المرأة الأولى ، هى أمه أجاڤيه التى حقّرت شأن ابنها پنثيوس وهوت عليه بالثيرسوس [صولجان باكخوس] صائحة : « إيو . إيو[٢٧] أقبِلَا لعونى يا أختاى فأنا حريصة على أن يفتك سهمى بهذا الخنزير البرّى البشع الذى يهيم على وجهه طليقاً فى حقولنا » . فأصاب رفيقاتها مسٌ من جنون وانقضضن على الرجل الواقف بينهن وحيداً ، وأخذن كقطيع واحد يطاردن پنثيوس الذى أمسك به الذعر وأُرعدت فرائصه وزايله صلفه ، فاعترف بذنبه وأنحى باللائمة على نفسه ، وصاح رغم جراحه قائلاً : غوثاه . . خالتى
٧٢٠ أُتونوى[٢٨] . هلا أثار فيك طيف أكتايون الرحمة بى ! » . غير أن اسم أكتايون لم يحرّك فيها ساكنا ، فبترت ذراعه اليمنى وانتزعت إينو ذراعه اليسرى فغدا بلا ذراعين يرفعهما ضارعاً إلى أمه ، وكشف لها عن جسده المبتور الأطراف الشبيه بجذع شجرة وشاح متوسّلاً : « أَتَرَيْنَ يا أمّاه ؟ » فأطلقت أجاڤيه صرخات جنونية ، وطوّحت رأسها يَمنة ويَسرة وشعرها يتطاير فى الهواء ، ثم انتزعت رأس ابنها من بين كتفيه وأمسكت به مخضبا بالدماء صائحة : « إيو ، انظرن أيتها الصاحبات ، ألا إن هذا النصر من صنع يدىّ » . وأسرع من تساقط أوراق الأشجار السامقة فى الخريف حين تلعب بها الرياح ـــ على الرغم من قطرات النّدى التى تكاد تجعلها عالقة بالأغصان ـــ فلا تلبث أن تعبث بها ، أخذت أطراف پنثيوس تتناثر فى أيديهن الوحشية . واتخذ نساء طيبة من هذا الحدث عبرة ، وغدون يحتفلن بإقامة شعائر هذه العقيدة الجديدة فيحرقن البخور للإله ويكرّمن محاريبه المقدسة .

التعقيبات

(١) يردّ أوفيد كلمة بويوتيا إلى كلمة بوس اليونانية التى تعنى البقرة ، إلا أن الرأى الغالب أن هذه المنطقة قد سميت على اسم البطل بويوتوس بن پوزيدون .

(٢) ينبوع فوق الجبل المقدس لأپوللو وربات الفنون ، أى جبل پارناسوس .

(٣) وصف أوريپيدس قصة صراع كادموس فى أحد أناشيد الكوروس بمأساة « الفينيقيات » ، وكثيراً ما صور الفنانون هذا الموضوع على الأوانى الخزفية .

(٤) يروى أوفيد قصة هذا التحول بالتفصيل فى الكتاب الرابع .

(٥) اشتق اسم إخيون من كلمة إخيس اليونانية التى تعنى الأفعى أو التنين ، وقد حمل أحد العمالقة هذا الاسم كذلك .

(٦) ثمة تشابه بين هذه القصة وقصة چاسون الذى أمره الملك أييتيس بأن ينثر أنياب تنين على الأرض ، وبعد أن فعل نبت منها جند تصارعوا وقتل بعضهم بعضا [انظر الكتاب السابع] .

(٧) هياس هو اسم بطل أُطلق على شعب بدائى بأسره فى بويوتيا . ويقال إن كادموس قد طردهم من وطنهم ، وصارت كلمة هياس فيما بعد مطابقة لكلمة بويوتى .

(٨) لا توجد هذه الأسماء فى غير نص أوفيد .

(٩) يدل هذا السرد الطويل على المكانة التى كان الرومان يخصون بها كلاب الصيد العريقة شأن العرب مع الخيل . ويلاحظ أن أسماء هذه الكلاب تحمل فى أصلها الإغريقى معنى يشير إلى سرعتها أو سلوكها أو لونها إلى غير ذلك .

(١٠) ألهمت أسطورة أكتايون منذ البداية الفنانين الإغريق ، فصورها پوليجنوتوس فى دلفى ، كما مُثِّل أكتايون والكلاب فى أعقابه فوق حشوة منحوتات بمعبد هيرا فى سيلينوس من القرن الخامس ق.م. وكثيراً ما صورت مأساة أكتايون فوق الأوانى الإغريقية ، وثمة لوحة جدارية مصورة لنفس الأسطورة بپومپى . هذا إلى لوحة الفنان تتسيانو الرائعة خلال عصر النهضة بالبندقية .

(١١) تيفويوس هو أحد العمالقة الذين تحدّوا چوپيتر .

(١٢) إينو هى بنت كادموس وزوجة أثاماس .

(١٣) ثمة مدن كثيرة فى العالم القديم تحمل اسم نيسا ، وأغلب الظن أن أوفيد لم يقصد موقعاً جغرافيا معيناً . فهناك أساطير تروى أن نيسا كان اسم تلك الحورية التى أرضعت ديونيسوس وربّته ، وماتزال حقيقة هذه الأسطورة غامضة . أما مشهد مولد ديونيسوس فهو موضوع مألوف فى النقوش البارزة والأوانى الخزفية المصورة وخاصة فوق المزاج « كراتيرون » الكبير الموجودة بمتحف نابلى .

(١٤) أى إذا أدرك حقيقة صورته المنعكسة فى الماء فلا يهيم بذاته حتى يهلك .

(١٥) إحدى ربات القدر ، وهى تجسيد لنقمة الآلهة على غرور البشر عندما يبتسم لهم الحظ ، وكان من أعبائها توقيع العقاب على خطيئة الغطرسة من غير وجه حق .

(١٦) كانت المشاعل تُهزّ لتأجيج لهيبها قبل إشعال المحرقة .

(١٧) هى زهرة النرجس ومنها اشتقت كلمة « النرجسية » التى تعنى الإعجاب المرضى بالذات .

(١٨) ليبر إله إيطالى قديم حل محل ديونيسوس ولقب من ألقاب هذا الإله ويعنى « الحر » أو « المحرّر » بوصفه إله النبيذ والنشوة .

(١٩) هم الفينيقيون الذين أقاموا مع كادموس مدينة طيبة التى سبق ذكرها .

(٢٠) ثيرسوس باكخوس أى صوبلجانه ، وهو عصا تتوّجها حلية على شكل ثمرة الصنوبر وتلتف حولها أغصان كروم دقيقة هى شعار باكخوس وأشياعه .

(٢١) أكريسوس ملك أرجوس هو والد داناى . وهنا يخالف أوفيد الأسطورة القائلة بأن طيبة كانت أول مدينة يونانية يزورها الإله ديونيسوس ، حسب ما ورد بمسرحية عابدات باكخوس لأوريبيديس .

(٢٢) تيريني وإتروسكى كلمتان مترادفتان ، ويقال إن أصل الإتروسكين من ليديا بآسيا الصغرى ، وكان الاسم الأصلى لليديا مايونيا .

(٢٣) نجمة عنزة أولينوس هى أهم نجمة فى مجموعة « الحوذى » بجوار « الدب الأصغر » ، ويرجع اسمها إلى العنزة التى أرضعت الإله چوپيتر وهو طفل . وكثيراً ما يختلط أمر هذه العنزة بالحورية أمالثيا التى ظن البعض أنها ابنه أولينوس . وهناك رأى آخر بأن أولينوس مدينة قديمة فى اليونان حيث أرضعت العنزة الإله چوپيتر .

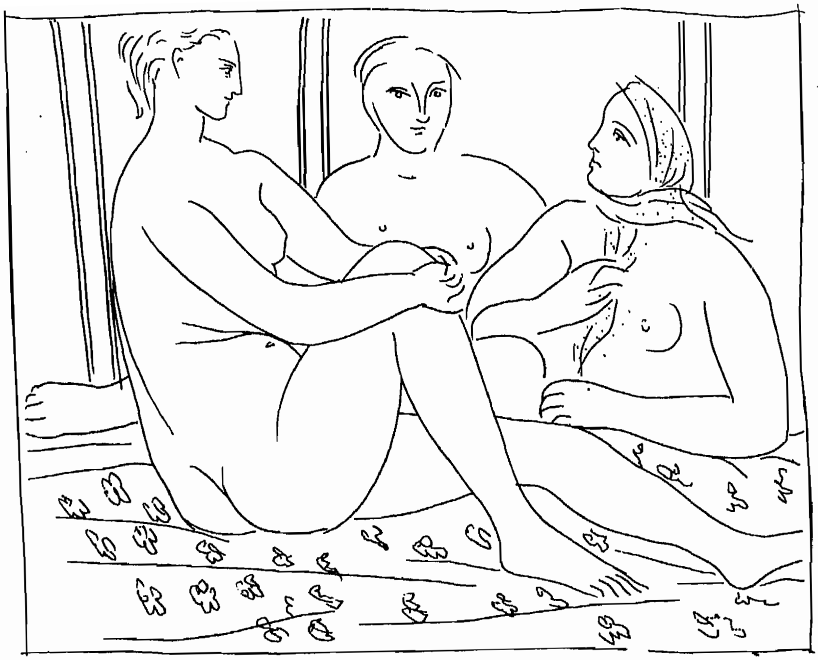
(٢٤) تعنى كلمة بروريوس فى اليونانية « المرشد » فى مقدمة السفينة . وقد ذكره هوميروس كاسم شخص من بين الفياكيين [انظر الكتاب الثامن من الأوذيسيا : ١١٣] .

(٢٥) يؤخذ على أوفيد هنا نقص معارفه الجغرافية : إذ قال على لسان أكويتيس أن سفينته كانت تميل نحو الجنوب وهى تتجه نحو ديلوس ، وأنها قد رست على الشاطىء الغربى من جزيرة خيوس ، فإذا كان حقاً يقصد بلوغ ناكسوس بعد ذلك من غرب خيوس لتحتم عليه أن تتجه جنوباً لا شرقاً .

(٢٦) ديا اسم لجزيرة ناكسوس .

(٢٧) « إيو » هى صيحة النشوة المحمومة لعابدات باكخوس ينادين بها الآلهة ، وقد تكون أحياناً تعبيراً عن شدة الحزن .

(٢٨) أتونوى هى أم أكتايون الذى مزّقته كلابه كما مرّ بنا .



بيكاسو : بنات ميناس

الكتاب الرابع

بنات ميناس

على أن ألكيثوى بنت ميناس لم تكن بين هؤلاء النسوة المؤمنات ، إذ لم تشأ أن تلمّ بشىء من أسرار الإله ، إيمانا منها بأن تلك الطقوس الطائشة مما لا يجوز لقومها أن يباشروها ، كما أنكرت فى إصرار بنوّة باكخوس لچوپيتر ، وشاطرتها هذا التمرّد الآثم شقيقاتها .

وكان الكاهن قد أعلن ألاّ بد من إقامة احتفالات باكخوس وإعفاء الفتيات العاملات من مهامّهن ، كما فرض عليهن أن يغطين هنّ وسيّدات المدينة صدورهن بجلود الحيوان ، وأن يُرْخِين عصابات شعورهن ، وأن يُتَوَّجن هاماتهن بأكليل الزهور ، وأن يحملن الثيرسوس المزدان بأوراق الكروم ، ثم

حذّرهن من عاقبة غضب الإله إن مسّه ما يشين . واستجابت السيدات والفتيات إلى نصائح الكاهن ، فهجرن أنوالهن وسلالهن وأعمالهن ولم يكنّ قد فرغن منها ، وأحرقن البخور للإله ، ودعون باكخوس باسم بروميوس وابن النار[1] ، كما نادينه يا مَنْ وُلد مرّتين ويا مَنْ له أُمّان ، ونادينه بأسماء أخرى مثل طفل نيسا ، وثيونيوس ذى الضفائر المُرسلة ، ولينايوس الاسم الذى لُقِّب به لأنه زارع الكروم مصدر نشوتنا ، ونيكيتيليوس ، وأبينا إيليلوس ، وإياخوس ويوهان ، ثم دعونه فى آخر الأمر بالأسماء جميعها التى تتسمّى بها بين شعوب اليونان يا « ليبر »[2] : شبابك لا يذبل فأنت الطفل الخالد وأجمل كائن تتجه إليه الأنظار فى السموات العلا . لرأسك جمال العذارى حين يُشْرف علينا بلا قرون[3] ، سُدْت الشرق إلى أطراف الهند حيث يفيض نهر الجنج على أرض شعبه الأسمر . ما أكثر من يعبدك من الناس أيها الإله ، يا من قضيتَ على بنثيوس وليكورجوس المسلّح بالبلطة ذات الحدّين عقاباً على مروقهما[4] ، وأغرقت الليديّين فى البحار ، وأثقلت عنق النّمرين اللذين يجرّان مركبتك بنيرين تزيّنهما أعنّة مشرقة الألوان . فى إثرك تمضى كاهنات باكخوس العابدات والساتير والشيخ الهرم الثّمل الذى يعتمد على عصاه لاضطراب خطواته[5] ولا يكاد يستقر على ظهر جحشه المحدودب . حيثما تمضى تهدر أصوات الفتيان ترحيباً بك ، وتتردد أصوات النساء ، ويُسمع قرع الأكفّ للدفوف وصكّات الصنوج المكوَّرة ، ويرتفع صوت الناى الطويل الأنابيب المتّخذ من قصبات الغاب ، ويبتهل إليك نساء طيبة أن تُقبل عليهن برقّتك وعطفك ، ثم يؤدّين لك الطقوس الواجبة .

ولم يتخلّف فى بيته غير بنات ميناياس اللاتى عكّرن صفو الحفل بقيامهن بالغزل والنسج ــ وهما أحب الأعمال إلى الإلهة منيرفا ــ فى غير وقتهما المُخصَّص لهما ، فظللن يجدلن خيوط الصوف ويُدِرْنَها بأصابعهن ويشددنها إلى أنوالهن وقد استنهضن الخادمات للعمل ، وانبرت إحداهن تقول لشقيقتها وهى تجذب خيطها برفق : « ها قد انصرف غيرنا من الفتيات عن العمل وشغلن بأداء طقوس من العبادات الزائفة ، على حين قد خلّتنا نحن هنا الإلهة پالاس التى هى أجدر بالتكريم . فلنخفّف عن أنفسنا إذن من عناء هذا الجهد ولنأخذ فى شجون الحديث ونحن نعمل بأيدينا ، ولنتسامر فتقصّ كل واحدة منا قصة ممتعة لا نحسّ معها بطول الساعات » . وأمام إعجاب الشقيقات بهذه الفكرة اقترحن أن تكون هى البادئة بالحديث ، فأخذت تفكر أية قصة تختار من بين ما تعرفه من قصص كثير ، وتردّدت هل تقصّ حكاية ديركيتيس البابلية التى يعتقد شعب فلسطين أنها تحوّلت إلى سمكة تسبح فى إحدى البحيرات بعدما اكتست أطرافها بالحراشف[6] ، أو تقصّ حكاية إبنة ديركيتيس التى نما لها جناحان فانتقلت إلى برج حمام أبيض تقضى فيه آخر سنوات عمرها[7] ، أو قصّة حورية الماء التى كانت تُحيل الرجال أسماكاً صماء بتعويذاتها وبأعشاب قوية الفِعْل حتى حاق بها المصير نفسه[8] ، أو قصّة الشجرة التى كانت تُنبت توتاً أبيض فصار أرجوانى اللون بعد أن اصطبغت بالدماء ؟ وكان هذا هو الموضوع الذى وقع عليه اختيارها ، إذ كانت قصته غير شائعة فراحت تروى أحداثها وهى تغزل بيدها خيوط الصوف :

پيــــراموس وثـــيزبى

كان پيراموس وثيزبى يعيشان معاً فى دارين متجاورتين فى تلك المدينة الشاهقة ذات الأسوار العالية التى قيل إن سميراميس قد شيّدتها من قوالب الآجر . وكما كان پيراموس أكثر الشباب وسامة كانت ثيزبى أجمل نساء الشرق ، وقد نشأت بينهما صداقة لم تلبث مع الأيام حتى غدت حبّا أوشك أن يفضى بهما إلى الزواج لولا أن حال أبواهما دون إتمامه . على أن ما لم يستطع أبواهما منعه هو تلك النار التى اتّقدت فى قلبيهما وأخذت تحرقهما بلهيب الشوق . ولم يكن لهما صديق يبثّانه همومهما ، فكانا يتبادلان أحاديثهما بالإيماءات والإشارات ، وكلما أخفيا حبهما عن الناس تأجّجت نيرانه فى قلبيهما . وكانت بالجدار الفاصل بين داريهما ثُغْرة دقيقة خفيت على الأعين طوال السنوات العديدة التى تليت تشييد الدّارين وكانا هما أوّل من تبيّناها ، وعينُ العاشق قلّ أن يخفى عليها شىء . وما لبثا أن جعلا منها وسيلتهما ليتناجيا من خلالها بأعذب أحاديث الهوى والغرام مطمئنَيْن آمِنَيْن . وما أكثر ما كانا يتحسّسان أنفاسهما وقد وقف كل منهما فى ناحية ، وكم حدّثا الجدار قائلين : « كيف تضيق أيها الجدار الغيور بعاشقين أن يجتمعا فتقف بينهما سدّا منيعاً . ما أهون عليك أن تحقّق لنا ما ننشد . هلا أفسحت لجسدينا أن يتعانقا ، وإن ضقت بهذه فهلا انفرجت قليلاً فأتحت لشفتينا أن تلثم إحداهما الأخرى وسوف نكون على هذه من الشاكرين ، على أننا سوف لا ننسى صنيعك بما مهّدت لكلماتنا أن تبلغ آذاننا الوالهة » . على هذا النحو كان يجرى حديثهما اليائس عبر شقّ الجدار ، حتى إذا هبط الليل ودّع أحدهما الآخر ، وكانا لعجزهما عن تبادل القبلات يقبّلان الجدار حيث يقفان .

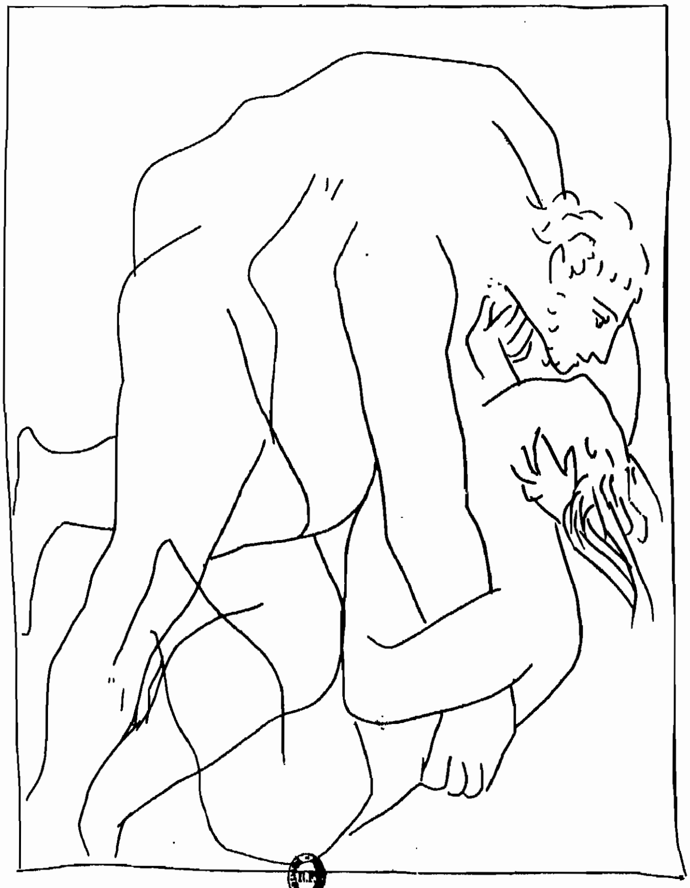
وذات صباح بعد أن طمست الشمس نجوم الليل بأشعّتها وبعد أن جفّت الأعشاب بما عليها من ندى جاءا إلى مكان لقائهما الأليف ، وأخذا يندبان حظهما متهامسين بشكاة تخنقها الزفرات ، ثم اتفقا على أن يحاولا التسلل من داريهما تحت جنح الظلام فى مأمن من العيون ، وتواعدا حتى لا تضلّ خطواتهما فى الريف الفسيح على اللقاء عند ضريح نينوس ، والاختباء فى ظلال شجرة التوت المزدهرة ذات الأوراق الكثيفة والثمار البيضاء التى تجاور الينبوع العذب . ولقد ظلّا نهارهما بعد أن انتهيا إلى هذا القرار يستبطئان انتهاءه ، حتى إذا ما غاب قرص الشمس فى خضم الظلمات خرجت ثيزبى من دارها خلسة دون أن يراها أحد من الحرّاس بعد ما فتحت الباب وأسدلت على وجهها نقابا وقصدت الضريح ، ثم جلست تحت الشجرة المتفق عليها وقد ملأها الحب جرأة ، وإذا لبؤة قد ظهرت لها فجأة تقصد إلى الينبوع لتشرب وفمها يقطر بدم الثيران التى افترستها . لمحتها ثيزبى فى ضوء القمر وهى ماتزال بعيدة فهربت إلى كهف مظلم ، وكان نقابها قد انزلق على كتفيها ثم سقط على الأرض وهى تجرى فخلّفته وراءها . وبينما اللبؤة تعود أدراجها إلى الغابة بعد أن شربت وأُتخمت ، وجدت النقاب الملقى على الأرض فمزّقته وتركت على مَزْقِه بقعاً من الدماء التى كانت عالقة بأنيابها .

وأقبل پيراموس بعد قليل فرأى آثار أقدام اللبؤة ظاهرة فى التراب الكثيف فبُهت ، ثم إذا هو يجد النقاب مخضباً بالدم فيصيح : « فلتشهد هذه الليلة مصرعى كما شهدت مصرعها ، فقد كانت ثيزبى أجدر بالحياة منى ، أنا المسىء يا فتاتى البائسة ، أنا من أوديْت بك وحملتك على أن تأتى بالليل إلى هذا المكان المحفوف بالأخطار دون أن أسبقك بالمجىء إليه . إلىّ أيتها الأسود التى تعيش فى هذا العرين من الصخور فمزّقونى إرْبا إرْبا بأنيابكم القاطعة عقاباً لى على ما اقترفت من إثم ، ولكن كم أنا بالغ الجُبن حين أقنع بتمنّى الموت » . والتقط نقاب ثيزبى ومضى إلى ظل الشجرة التى كانا سيلتقيان تحتها ، وجعل يبكى ويقبّل النّقاب الأليف له ويناجيه قائلاً « فلتشرب أنت الآخر من دمى » . وما كاد يلفظ هذا القول حتى انتزع خنجره المشدود إلى خصره وأغمده فى جنبه ، ثم انتزعه من جرحه الدامى بعد لأى وهو مُلقى على الأرض يحتضر ، فانفجر الدم من جرحه عالياً وكأنه أنبوبة مثقوبة انبثق منها الماء ، وتدفّق الدم عبر ثقب ضيّق مرسلاً صفيراً يجلجل فى الهواء[9] . وغطّى دمه المنثور ثمار الشجرة بلون قان ، وشرب جذعها دمه فاصطبغت الثمار المتدلّية على الأغصان باللون الأرجوانى .

وكانت ثيزبى رغم ما بها من الخوف الذى تملّكها قد قفلت راجعة حتى لا يحرّك تأخّرها خيبة أمل حبيبها ، ومضت تبحث عنه بعيون ملهوفة وقلب مشوق لأن تروى له ما صادفها من أخطار وما فعلته للإفلات منها ، واهتدت إلى المكان كما اهتدت إلى الشجرة ، غير أن لون الثمار قد حرّك الحيرة فى نفسها فتساءلت أكان هذا هو المكان نفسه أم لا ؟ وفيما هى حائرة وقع بصرها على جسد ينتفض مُسَجىً على الأرض المخضبة بالدماء ، فتراجعت إلى الخلف شاحبة مذعورة جامدة جمود خشب البقس ، مرتعشة كصفحة البحر حين تعبث بها لمسات النسيم العليل . ولم تلبث أن تعرّفت على حبيبها ، وشرعت تولول بصوت عال وتضرب صدرها وتمزّق شعرها وتحتضن حبيبها وتقبّل وجنتيه الباردتين فى لهفة وعيناها على جرحه فيختلط سيل دمعها بدمه ، وتناجيه : « أى حدث وحشى هذا الذى اختطفك منى يا پيراموس ؟ أجبنى ، أنا حبيبتك ثيزبى التى تناديك ! أنصت إلىّ ، وارفع إلىّ رأسك المتخاذل » . وسمع پيراموس صوت ثيزبى ففتح عينيه اللتين أثقلهما الاحتضار ثم ما لبث أن عاد فأغلقهما إلى الأبد . ولمحت ثيزبى نقابها ورأت الغمد العاجى خالياً من خنجره فصاحت قائلة : « لقد قتلت نفسك بيدك وأودت بك حبيبتك ، فلأفعلنّ أنا أيضاً فعلك ، إن حبى لك جارف كحبك لى ولسوف يمنحنى القوة على أن أغمد الخنجر فى جسدى مثل ما أغمدت ، ولأمضى فى إثرك إلى عالم الموتى ، ولسوف يقول الناس إننى كنت سبب بلائك وشريكتك فيه أيضاً . لقد كان الموت هو وحده الذى يستطيع أن ينتزعك منى ، أما اليوم فلن يستطيع أن يفصلنى عنك . وأنتما أيها الأبوان يا من كُتب عليهما الشقاء ، كل ما أرجوه منكما من فضل هو أن تدفنانا معاً فى قبر واحد مادام الموت والحب الصادق قد جمعا بيننا . وأنت أيتها الشجرة التى تظلّلين جثة واحدة عما قريب ستظلّلين جثتين ، فلتحملى إلى الأبد ذكرى موتنا بثمارك التى تُثمرينها قانية اللون آسية ، كى يذكر الناس دوما دَمَنا الذى نزفناه معاً » .

ولم تكد ثيزبى تفرغ من كلماتها حتى ثبّتت سنّ الخنجر فى صدرها وارتمت فوقه وهو مازال دافئاً بدم بيراموس . وبلغت دعواتها سمع الآلهة فحملتها إلى ذويها ، وغدت شجرة التوت تُثمر ثماراً تستحيل عند نضجها أرجوانية قانية . وفى إناء واحد اجتمع ما بقى من رماد العاشقين بعد أن خمدت جذوة الحب المتقدة» .

ڤينوس ومارس . ليوكوثوى . كليتيبه



پيكاسو : ڤينوس ومارس

وساد الصمت برهة بعد ما أنهت الراوية قصتها ، ثم انبرت ليوكوثوى تتحدث إلى شقيقاتها اللاتى مضين يستمعن لها فى صمت يزكيه الانتباه ، فقالت :

« إن ربّ الشمس نفسه الذى يُنَسِّق كوكبه الساطع حياة الكون قد وقع بدوره فى إسار الحب ، وسوف أروى لكنّ كيف وقع فى الشراك . فلقد كان ربّ الشمس أول من شهد خيانة ڤينوس لزوجها مع مارس ، فهو الذى يرى كل شىء قبل غيره . وكان قد حنق على ڤينوس لسلوكها فأنهى إلى زوجها ڤولكانوس [هيفايستوس] بن چونو نبأ هذا الاعتداء على حُرْمة فراشه كما أنهى إليه المكان الذى يلوذ به العاشقان . فطار صواب ڤولكانوس وسقط من يديه الحديد الذى كان يشكّله ، غير أنه بدأ لساعته فى صياغة سلاسل برونزية دقيقة وشباك لا تكاد تلمحها العين أدقّ من أدقّ الأسلاك ومن خيوط نسيج العنكبوت العالقة بعوارض السقف ، وصاغها رهيفة حسّاسة تهتز لأخفّ لمسة وأبسط حركة ثم نصبها بمهارة حول الفراش ، فلم تكد زوجته وعشيقها يدلفان إلى الفراش حتى أطبق عليهما الفخ الذى ابتدعه الزوج ونصبه بحذق وبراعة وأوثقهما معاً وهما متعانقان . وسرعان ما فتح ڤولكانوس ابن جزيرة لمنوس الأبواب العاجية للغرفة ودعا الآلهة للدخول إلى حيث ترقد ڤينوس بين أحضان مارس ، ورآها الآلهة فى تلك الوضعة الشائنة فلم يأسوا لها ، غير أن أحدهم تمنّى لو ظفر بهذه المتعة مهما كان الثمن . وتضاحكوا جميعاً عالياً ، وبقيت القصة مثار تندّر بين الآلهة زمناً طويلاً بعد ذلك .

ولم تغفر ڤينوس سيّدة كِيثِيرا هذه المكيدة لمن أفشى سرّ حبّها وهدّ غرامَها المستور ، واعتزمت عقابه بإيقاعه فى فضيحة غرامية مماثلة . فيم يفيدك الآن جمالك وروعتك وبهاؤك المتلألىء ياربّ الشمس يا ابن هيپيريون ؟ ها أنت ذا يا من تسْطَع الأرض كلها بنور لهيبك تلتاع اليوم بنار لهيب آخر . ها أنت ذا يا من ترى كل شىء فى الكون توًا قد علقت أنظارك بليوكوثوى لا غيرها ، على حين إن نظراتك من حق العالم كله ؛ فأنت تُشْرِق تارة مبكّراً فى السماء وتتلبّث تارة أخرى عن الغوص فى خضمّ المغيب ، وتُطيل أحياناً ساعات النهار شتاء بسبب انغماسك فى التأمل العميق ، ويصيب الكسوف فى أحيان أخرى نورك حين يتسلّل القلق إلى نفسك فتغشاك تلك الغشاوة التى تثير الفزع فى قلوب البشر ، وتشحب لا لشىء إلّا لمرور القمر أمامك وهو أقرب كوكب للأرض ، هل تُرى أحبّك هو وحده الذى أشحب لونك ، فلقد اقتصرت عواطفك كلها على واحدة فلم تحسّ وجود كليمينيه ولا رودوس ولا أم كيركى فاتنة بلاد آيا ولا كليتييه التى لم تيأس من مقاسمتك الفراش رغم نفورك منها وشعورك وقتذاك بما خلّفته فى قلبها من جرح عميق[١٠] . لقد أنستك هؤلاء جميعاً ليوكوثوى ، وقد ولدتها أمها يورونومى أجمل نساء الأرض التى تَهَبُنا العطور ، والتى ما لبثت حين اكتملت أنوثتها أن أزرى جمالها بجمال أمها والجميلات الأخريات ، وكانَ أبوها أورخاموس ملك المدن الأخمينية سابع ملك فى سلسلة أسرة بيلوس المؤسس الأول للمملكة[١١] .

تحت سماء الغرب تقع مراعى خيول مركبة الشمس التى لم تكن تغتذى بالحشائش وإنما بالأمبروزيا [طعام الآلهة] ، فيملؤها قوة وانتعاشاً بعد أن تنهكها واجباتها اليومية لكى تستطيع أن تستأنف نشاطها . وبينما كانت الخيول تلتهم غذاءها السماوى والليل يحل محل النهار فى السماء دخل ربّ الشمس دار حبيبته متخفياً فى صورة أمها يورونومى . وكانت ليوكوثوى جالسة إلى جوار مصباح وسط خادماتها الاثنتى عشرة

تلفّ خيوطها الناعمة على مغزلها الدوّار ، فلما رآها قبّلها كما لو كان أُمّا تُقبِّل ابنتها الغالية ، ثم قال لها : « لدى سرٌ أريد الافضاء به إليك ، فلتتركننا أيتها الخادمات ولا تحرمن أمّا من محادثة ابنتها على انفراد » . وفعلت الخادمات ما أُمرن به ، ولما لم يبق فى الحجرة سواهما كشف الربّ عن نفسه لليوكوثوى ، وقال لها : « أنا الإله الذى يقيس مسار السنة ، وأنا من يرى كل شىء ومن ترى الأرض بى كل شىء . أنا عين الكون ، صدّقينى يا ليوكوثوى فإنى أهيم بحبك » ، فاضطربت الفتاة وسقط المغزل من يدها التى جمدت من فرط فزعها ، غير أن فزعها أضفى عليها مزيداً من الجمال . ولم يطل انتظار الإله فاستعاد شكله الحقيقى وبريقه المألوف . ومع أن هذا المشهد المفاجىء قد حرّك الخوف فى قلب ليوكوثوى غير أنها انبهرت بجلال الإله واستجابت لعناقه دون أن تنبس بأية شكاة .

وإذ كانت كليتيبه ماتزال تحبّ ربّ الشمس حبّا لا نهاية له ، دفعتها الغيرة والحنق على منافستها إلى أن تُشيع على الوجود تلك العلاقة الآثمة . ثم إذا هى تَشى بها عند أبيها أورخاموس فتُنهى إليه سرّ تلك العلاقة ، وإذا هو تثور ثائرته ويأبَى أن يستمع إلى توسّلات ابنته وهى تقول مُوَلْولة : « صدّقنى يا أبى أنه اغتصبنى على الرغم منى » . وألقاها الأب الضّارى فى حفرة عميقة وأهال عليها كوما من الرمال ، لكن ابن هيبيريون سارع بتشتيت الرمال بأشعّته ، حتى فتح لك أيتها التعسة ثغرة تطلّين منها بوجهك على ضوء النهار ، غير أنك لم تستطيعى أيتها الحورية رفع رأسك المختنق تحت ثقل الثرى ، ولم تعودى غير جسد خال من الدم مُلقىً فى لحد .

وكان حزن إله الشمس قائد الجياد المجنّحة على مصير حبيبته أشبه بحزنه على احتراق ابنه فايثون بالصاعقة ، وقد حاول أن يعيد الحياة إلى أطراف ليوكوثوى الباردة بأشعّته غير أن القدرَ حال بينه وبين محاولته الخارقة ، فاكتفى بأن أراق النكتار [شراب الآلهة] على جثّتها وقبرها . وبعد أن رثاها طويلاً صاح : « لتصعدِنَّ إلى السماء على الرغم من كل شىء » . وسرعان ما ذاب جسدها المضمّخ « بالنكتار » السماوى وغمر الأرض بأريجه ، وشيئاً فشيئاً أخذ جذر شجرة البخور الذى استطال فى الثرى يخترق القبر ويمدّ فروعه فى الفضاء .

أما كليتيبه التى قد يغتفر لها الحب مشاعرها وتغفر لها مشاعرها وشايتها ، فلم يقع بصرها ثانية على إله الضّياء ، إذ كفّ عن مشاركتها مُتع الحب فَذَوَتْ ، وأذبلها الغرام الذى سلب عقلها ، ولم تعد تطيق رفقة الحوريات ، ومضت تقضى الليل والنهار جالسة على الأرض المتربة تحت قبة السماء مُشْعَثة الشعر . وعاشت تسعة أيام بلا طعام ولا شراب سوى قطرات الندى ، ولم تنهض من جِلْستها قط بل بقيت على الأرض ووجهها مصوّب إلى ربّ الشمس تُديره أنَّى اتجه فى مساره المألوف . ولم تلبث أعضاؤها أن التصقت ـ كما قيل ـ بالأرض وتحوّل بعضها إلى جذع لا حياة فيه تكسوه زرقة شاحبة ، واصطبغ بعضها الآخر بلون أحمر هو رأسها الذى تحوّل إلى زهرة شديدة الشبه بالبنفسج ، تستدير فى اتجاه ربّ الشمس العزيز عليها رغم ارتباطها بجذرها ، وظلّت على حبّه وفيّة حتى بعد أن تحوّلت إلى زهرة رقيب الشمس »[١٢] .

سالماكيس وهرمافروديتوس

وفرغت ليوكونوى من قصتها الغريبة التى اجتذبت أسماع رفيقاتها ، ينكرها بعضهن على حين يصدّقها البعض الآخر باعتبار أن الآلهة الحقيقيين قادرون على كل شيء ، وإن كنّ جميعاً لم يعددن باكخوس من بين هؤلاء الآلهة . وحين ساد الصمت من جديد طلبت شقيقات ألكيثوى منها أن تروى لهن بدورها قصة جديدة ، فبدأت تتحدّث وهى تدفع « مُومَها » عبر الخيوط المشدودة على النول وتقول :

« لن أروى لكنّ أقاصيص غرام دافنيس راعى إيدا التى يعرفها الجميع ، والذى مسخته إحدى الحوريات حين غضبت عليه لميله عنها إلى منافسة أخرى وحوّلته إلى صخرة[١٣] ، فما أعنف الأحاسيس التى تلتهب فى نفوس العشاق . كما لن أروى لكنّ ما حدث من خروج على نواميس الطبيعة مع سيثون الذى كان تارة ذكراً وتارة أنثى ، ولن أقص حكايتك يا كيليميس أيها الحارس الأمين لجوبيتر وهو طفل وقد مُسختَ الآن كتلة من الفولاذ ، ولن أتحدث عنكم أيها الكوريتيس يا أبناء الغَيْث الفيّاض ، ولن أذكر قصة كروكوس الذى تحوّل هو وسميلاكس إلى زهرتين دقيقتين . سأطرح هذه القصص جانباً لأنى عازمة على اجتذابكن بسحر قصة جديدة لا يعرفها الكثيرون[١٤] . سوف أقصّ عليكن ماذا كان للسمعة السيئة التى لحقت بينبوع سالماكيس ، وسرّ إثارة مياهه الضارة بأعصاب من يَرِدُونه فتُثير الضعف والخدر فى أطرافهم ، فبرغم معرفتنا الحقّة بخصائص هذه المياه إلا أن سرّ ذلك التأثير مازال خفيّا .

أنجب ميركوريوس [هيرميس] من ڤينوس إلهة كيثيرا طفلاً ربّته الحوريات فى كهوف جبل إيدا ، جمعت قسماته بين ملامح أمه وأبيه كما جمع اسمه هيرمافروديتوس بين اسميهما[١٥] . وحين بلغ الخامسة من عمره ترك التلال التى وُلد فيها وغادر جبل إيدا الذى نشأ به ، وبدأت هوايته للأسفار فمضى يقصد البلاد البعيدة ويشهد الأنهار الغريبة لا تثنى الصعاب حماسته ، فبلغ فى رحلاته مدن ليسيا وبلاد الكاريين القريبة منها ، واكتشف بهذه المنطقة بركة صفت مياهها فبان قاعها ، ولم تكن تحفّ بها أعواد الغاب ولا خَلْفاء الماء ولا النباتات الشائكة التى تنتشر حول المستنقعات ، بل تتغطى شواطئها بالأعشاب الرطبة الخضراء ، وتسكن بها حورية غير مدرّبة على الصيد لا تحذق إطلاق السهام ولا سرعة العَدْو ، وكانت الحورية الوحيدة التى لم تلقها ديانا السريعة الخطو . ويُروى أن شقيقاتها كثيراً ما كن ينصحنها قائلات : « اتخذى لك يا سالما كيس رمحا قصيراً أو جعبة سهام مزدانة بألوان فاقعة ثم انضمى إلى صفوف الصائدات ، وأضيفى إلى متع هواياتك جولات الصيد الشاقة » ، غير أنها لم تتخذ لنفسها رمحاً قصيراً ولا جعبة سهام ذات ألوان فاقعة ولا انضمت إلى صفوف الصائدات ، ولا أضافت إلى متع هواياتها جولات الصيد الشاقة . وبقيت لا عمل لها غير الاستحمام فى بركتها وتصفيف شعرها بمشط من كيتوروس[١٦] ، محملقة فى الماء الصافى تتأمل على صفحته مفاتن جمالها ، ملتفة بغلالة رقيقة ، مستلقية على فراش من أوراق غضة

وأعشاب لينة ، ومن حين إلى حين تنهض لتقطف الزهور . وذات يوم وقع بصرها على الصبى هيرمافروديتوس ، فإذا هى تُحسّ لهفة إلى الاستئثار به . وعلى الرغم من شوقها وتعجّلها الدّنو منه فقد تباطأت فى أخذ زينتها وإصلاح هندامها لتتجلّى له فى أبهى صورة ، ثم بادرته قائلة : « ما أجدرك أيها الفتى الجميل بأن تُعدَّ إلها . وإذا كنت إلهاً فلعلّك كيوبيد ؟ أما إذا كنت بشراً فلا شك أن أبويك مباركان وأن شقيقك سعيد وشقيقتك أكثر سعادة إن كانت لك شقيقة ، وسعيدة كذلك مرضعتك التى رعتك ، وأكثر من هؤلاء سعادة حبيبتك التى ستتخذ منها زوجة إن كانت لك خطيبة . فإن كانت لك خطيبة دعنى أنعم بحبك سراً ، وإن لم تكن لك خطيبة فلست أتمنى إلاّ أن أكون عروسك التى تشاطرك الحياة إلى الأبد » .

ولم تكد الحورية تفرغ من حديثها حتى تورّد وجه الفتى الذى لم يكن قد عرف الحب بعد ، وزاد هذا التورّد من جماله فأضحت وجنتاه فى لون التفاح الناضج المتدلّى من شجرة تغمرها أشعة الشمس أو فى لون العاج المصبوغ بالأرجوان ، أو فى لون القمر تكسو الحمرة سطحه الأبيض ساعة تُصكّ الصنوج البرونزية لتدفع عنه الخسوف[17] . وألحّت الحورية فى تقبيله ولو قبلات أخوية ، وحاولت أن تضمّ عنقه العاجى بذراعيها فصاح بها : كُفّى عن عبثك وإلاّ مضيت بعيداً مُخَلّيا هذه الأرض بعين مائها » . فَسَرت فى جسد الحورية رِعْدة وقالت له : « لأبتعدنّ عنك ولن أتطفّل عليك بعدُ أيها الغريب » ، وأدارت له ظهرها متظاهرة بعزمها على الرحيل بينما كانت تخطو وعيناها تتلفّتان إليه حتى إذا ما وارتها أشجار أكمة كثيفة ركعت على الأرض كى ترقبه . واطمأن الفتى حين أحسّ أنه وحده واقترب من البركة ومدّ قدميه إلى الماء كاشفاً عن ساقيه ، وأغراه الماء فخلع ملابسه . وما إن فعل حتى ذهب جماله العارى بلُبّ سالماكيس ، فلمعت عينا الحورية لمعان قرص الشمس وهو ينعكس على المرآة ، وعجزت عن أن تتمالك نفسها وتحرّقت عشقاً ورغبة عارمة فى أن تضمّه إلى صدرها ، وكادت لا تقوى على إمساك زمام شهوتها المشبوبة . وبصفحة كفّيه ضرب الغلام على خصره وقفز إلى الماء يسبح خابطاً الماء تارة بذراعه اليمنى وتارة بذراعه اليسرى ، يُبْرق جسمه من تحت الماء الصافى وكأنه تمثال من العاج أو زنبقة تحت لوح من الزجاج الشفّاف . وخلعت هى الأخرى ثيابها مُطَوِّحة بها هنا وهناك وقفزت وراءه إلى البركة صائحة : هل أنذا قد ظفرت به . وأمسكت بالفتى الذى أخذ يقاومها غير أنها أفلحت فى تقبيله عنوة ، وتسلّلت يداها من تحته فلمست صدره النافر ، وشرعت تحتضنه مرّة من جنبه الأيسر ومرّة من جنبه الأيمن كما تلتف الأفعى حول النسر ملك الطير حين يلتقطها بمنقاره ويعلو بها محلّقاً فى السماء فلا يسعها إلاّ أن تلتف حول رأسه ثم حول ساقيه حتى تستطيع ضمّ جناحيه بذيلها كى يهوى ، أو كما يلتف اللبلاب على جذع شجرة ضخمة ، أو كما يشلّ الأخطبوط حركة فريسته فى أعماق البحار بتطويقها بأذرعته من كل جانب . وقاوم سليل أطلس الحورية[18] لا يريد أن يمنحها المتعة التى كانت تتوق إليها ، غير أنها أحكمت قبضتها وطوّقته بجسدها كله ملتصقة به صائحة : « قاوم ما شئت لكنك لن تُفْلت منى أيها الوغد ، ولتمنحنى الآلهة أمنيتى فلا يأتى يوم ينفصل فيه هذا الفتى عنى أو أنفصل عنه » . واستجابت الآلهة وحقّقت لها أمنيتها ، واتّحد جسداهما الملتصقان وأصبحا شخصا واحداً بعد ما كانا شخصين . وكما تنمو الشجرتان صِنْوين معاً لا يفترقان ، كذلك

التحمت أطراف الفتى بأطراف الحورية فى عناق متلاصق ، فصارا شخصاً واحداً وإن بقيا بطبيعة مزدوجة لا ندرى أهما ذكر أم أنثى أو أنهما شىء واحد معاً أو أنهما ليسا من هذا ولا ذاك .

وحين رأى هيرمافروديتوس أن الماء الصافى الذى نزل إليه ذَكَراً قد أحاله آخر الأمر إلى نصف ذكر وأن أطرافه قد تخاذلت ، رفع يديه إلى السماء متوسّلاً بصوت لم يَعُدْ صوت ذَكَر : « أباه . أماه . ناشدتكما أن تُحقّقا أمنية ولدكما الذى يجتمع اسماكما فى اسمه ، وهى أن يخرج كل من ينزل إلى هذه البركة من الرجال وقد غدا خُنْثَى ما بين رجل وأنثى » ، واستجاب الوالدان لضراعة ابنهما الذى صار ذكراً وأنثى فلوّثا مياه البركة بسحر مروّع يصيب كل من ينزل بها » .

وحين انتهت القصة كانت بنات مينياس لازلن منشغلات بأعمالهن ، مستخفّات بالإله ، مزدريات بأعياده ، حتى إذا علت فجأة دقات طبول خفيّة تصاحب أنغام مزمار مقوّس وصكّات صنوج نحاسية وانتشر فى الهواء أريج مُرّ وزعفران ، أخذت الأنوال عندها تخضرّ . والعجيب الذى يقرب من المستحيل أن النسيج نبتت به أوراق كأوراق اللبلاب وتحوّل جزء منه إلى كروم ، كما تحوّلت الخيوط إلى محاليق ، وأطلّت أوراق الكروم من سدُاة النسيج وعلت عناقيد العنب الناضج حُمرة الأرجوان واقترب النهار من الزوال ، وأطلّت عتمة لا نكاد نعرف أمِن الليل هى أم من النهار ، وذلك حين اختلطت خيوط النهار المودِّع بخيوط الليل المُقبل . وفجأة اهتزت جدران البيت وتوهّج زيت المصابيح ، وانطلق عواء وحوش ضارية فى أنحاء الدار ، وسارعت الشقيقات فاختفين فى مواقع مختلفة من دارهن التى ملأها الدخان ، هاربات من ذلك العواء وهذا الضوء المتوهّج الذى أخذ يزحف إلى الأركان المظلمة ، وأخذ غشاء رقيق ينمو فوق أجسادهن الضامرة ، وانطوت أذرعهن فى غشاء خفيف غدا جناحين . ولكن كيف فقدن أشكالهن الأولى ؟ إن الظلام غيّب عنّا تعرّف كُنْه ذلك . ومع أنه لم يكن لهن ريش يطرن به فقد حلّقن فى الهواء بأجنحة شفافة ، وحين حاولن الكلام لم تنطلق شفاههن إلاّ بألفاظ واهنة ضئيلة ضآلة أجسادهن التى مُسخت خفافيش ، ولم يستطعن أن يُفْصحن عن شكواهن إلاّ بنعيق حاد ، وبدأن يترددن على الأطلال لا الغابات ولا يحلّقن إلا خلال الليل لكراهيتهن للضوء ، واشتُق اسمهن « فسبيرتيليونيس » من اسم نجم أعماق الليل « فيسبير »[19] .

أثامـــاس وإيـــنـــو

انتشرت عبادة باكخوس فى أنحاء طيبة ، وراحت خالته إينو[20] تتحدّث عمّا يُرْوَى من جبروت الإله الجديد ، وكانت الوحيدة من أسرتها التى لم ينلها سوء ولم يُحْزنها شىء إلاّ ما حاق بشقيقاتها . ورأتها چونو مزهوّة بولديها من أثاماس وبالإله الذى رعته فى طفولته ، فضاق صدرها وناجت نفسها قائلة : « لقد مسخ ابن غريمتى الملاّحين الليديين أسماكا وألقى بهم فى البحر ، وأثار أمًّا حتى مزّقت جسد ابنها إرباً إرباً ، ثم

غشى ثلاثة من بنات ميناياس بأجنحة من نوع لم يرُ له من قبل مثيل ، على حين أجدنى أنا چونو جامدة لا أجد ما أفعله غير البكاء أمام إهانات وُجِّهت إلىّ دون أن أثأر لها ؟ هل فى هذا ما يُشْبع رغبتى ؟ وهل هذا هو مدى قوتى وجبروتى ؟ ألا إن باكخوس نفسه قد لقّننى درساً وما أصوب أن يتعلم المرء من خصمه ، فقد كشف لى عما يمكن أن يسفر عنه الغضب حين قضى باغتيال پنثيوس ، لماذا إذن لا تُصاب إينو بلسعة الجنون الذى حاق بذويها من قبل ؟ » .

وكان ثمة طريق تواريه ظلال أشجار الصنوبر ينحدر من التلال مؤدّياً إلى العالم السفلى عبر مناطق ساكنة خرساء تغطّيها مياة نهر ستيكس الراكدة التى يعلوها الضباب ، وكانت أرواح الموتى[٢١] تسلك هذا الطريق بعد أن تفارق أجسادها تاركة إياها فى مقابرها ، وكانت الكآبة والبرودة يخيّمان فى هذه المنطقة المقفرة التى تصل إليها الأرواح حين تأتى للمرة الأولى إلى عالم الأموات ، أو تقصد قصر ديس [پلوتو] المدلهم . وكانت هذه المدينة الفسيحة ذات الطرق الألف والأبواب المفتوحة فى جميع الجهات تستقبل أرواح الموتى كما يستقبل البحر أنهار الأرض جميعها ، لا تضيق بشعب من الشعوب ولا تغصّ بزحمة الوافدين . هنا وهناك تروح الأطياف وتجىء بعدما تخلّصت من الدم واللحم والعظام ، يجول بعضها فى ساحات الأسواق ويهيم البعض الآخر حول قصر ملك العالم السفلى ، وتحاكى جماعةٌ الحِرَف التى كانت تمارسها فى حياتها الماضية ، ويذوق آخرون العقاب على ما اقترفوه فى حياتهم من آثام .

غادرت چونو ابنة ساتورن مسكنها السماوى لتزور هذه البقعة مستسلمة لغضبها وحقدها فأنَّت عتبة العالم السفلى تحت ثقل جسدها المقدس ساعة دخولها ، ورفع كيربيروس رؤوسه الثلاثة وقد نبحت ثلاث نبحات . وعندها نادت چونو « بنات الليل » [ربّات الانتقام] تلكم الشقيقات الرهيبات الجالسات أمام أبواب سجن الجحيم الفولاذية يصفّفن شعورهن الثعبانية . وحين عرفن الإلهة برغم عتمة الضباب وقفن إجلالاً لها فى المكان المسمى « الديار الآثمة » [مقرّ الأشرار] حيث يرقد تيتيوس فوق أفدنة تسعة مُسْلِماً أحشاءه للنسور تمزّقها ، وحيث يحسّ تانتالوس الظمأ ولا يستطيع أن يبلغ الماء ، كما يهفو إلى الشجرة المظّلة عليه دون أن يستطيع قطف ثمارها ، وحيث يحاول سيزيفوس الإمساك بالصخرة أو دفعها وهى موشكة أبداً على السقوط ، وحيث يدور إيكسيون على عجلة حول نفسه ، وكان وهو تطويه العجلة فى دورانها كأن بعضه يهمّ بأن يلحق بعضه الآخر فلا يكاد يبلغه[٢٢] ، وحيث تحاول حفيدات بيلوس الاغتراف من ماء لا يستطعن الاحتفاظ به عقاباً لهن على ما دَبّرن من اغتيال أزواجهن أبناء عمومتهن .

وحدجت چونو الجميع بنظرة صارمة ولاسيما إيكسيون ، ثم التفتت إلى سيزيفوس قائلة : « لماذا يلقى هذا الرجل عذاباً متّصلاً ها هنا بينما يعيش أخوة أثاماس المتغطرس وزوجته فى قصر مُنيف على الرغم مما يبدو عليهما من ازدراء لى[٢٣] ، ثم بدأت تُفصح عما تبتغيه وهو تخريب قصر كادموس وتحريض ربّات الانتقام على دفع أثاماس إلى ارتكاب الجريمة ، وتتابعت من فمها الوعود تلتمس من الربّات العون ، حتى إذا أنهت حديثها هزّت تيسيفونى رأسها الشيباء وأزاحت عن وجهها الأفاعى التى كانت تغشاه ، وقالت : « لا حاجة بك إلى المزيد من الإيضاح ، ولتطمئنى إلى تحقيق كل ما أمرت به . فلتغادرى هذا المكان

الكئيب ولتعودى إلى السماء التى إليها تنتمين » . وعادت جونو إلى مسكنها فرحة ، وحين أوشكت على النفاذ إلى السماء طهّرتها إيريس ابنة ثاوماس بقطرات من رذاذ الماء نثرتها عليها .

وبسرعان ما أمسكت تيسيفونى القاسية بمشعلها المغمور بالدم واتّشحت بمعطفها الذى صبغه سيل من الدم بلونه الأحمر ، وتمنطقت بثعبان محوّى حول خاصرتها ، وغادرت دارها فى صحبة ربّات الحزن والخوف والرعب والجنون الراعش القسمات ، ووقفت على باب بيت أيولوس حيث يسكن ابنه أثاماس ، فاهتزّت أعمدة المدخل وشحب لون الأبواب المصنوعة من خشب الزان ، وهربت الشمس من مكانها المألوف فى السماء . وأفزعت هذه الإشارات المشئومة زوجة أثاماس الذى لم يكن أقل منها فزعاً ، وحاولا الهربَ من الدار ، غير أن ربة الغضب الرهيبة اعترضت طريقهما عند المدخل ومدّت ذراعيها الملتف حولهما الثعابين ، وهزّت برأسها فأرسلت الأفاعى فحيحها وانفلت بعضها على كتفيها وبعضها على صدرها تفىء نُفاثتها وتُصفِّر بينها اندلعت ألسنتها المرعدة خفّاقة . ثم انتزعت من ضفائرها ثعبانين طوّحت بهما فسقط أحدهما على صدر إينو والآخر على صدر أثاماس ، ونفثا فيهما أنفاسهما السامة ، ومع أن جسديهما لم يُمسَّا بأى جرح فإن الضربة القاسية قد مسّت روحيهما . وكانت تيسيفونى قد أحضرت معها ضمن ما أحضرت سائلاً ساماً فتّاكاً أعدّته إحدى الساحرات من رغاء فكّى الكلب كيربيروس ومن سمّ الأفعوان إخيدنا[٢٤] ومن خليط من الجنون المصحوب بالهذيان ، ومن فقد الذاكرة الذى يعْمى العقل ، ومن الدموع والجريمة والسُّعار وشهوة القتل . وقد طحنت الساحرة ذلك كله معاً وندّته بدماء حارة وطهته فى قدر برونزى بعد تقليبه بعصا خضراء من نبات الشوكران السام . وألقت تيسيفونى هذا السم الذى يسلب العقول على الملك والملكة وهما واقفان يرتعدان ، ثم أشعلت مشعلها وأدارته حولهما مرات ومرات ، حتى إذا أدّت المهمة التى عهدت بها إليها جونو واطمأنت إلى نجاحها عادت إلى مملكة أرواح الموتى التى يحكمها ديس ، ورفعت الثعبان الذى كانت قد تمنطقت به .

وعندها أصيب أثاماس بن أيولوس بالجنون . ومع أنه كان لايزال داخل أسوار قصره إلا أنه أخذ يصيح قائلاً : « إلىّ يا أصدقائى ! أنشروا شباككم فى هذى الغابات ! فقد لمحت الآن لبؤة فى صحبة شبليها » . واندفع الأحمق فى إثر زوجته يطاردها وقد تخيّلها وحشاً مفترساً ، ثم اختطف من بين ذراعيها طفله ليارخوس الذى كان يبتسم له ويبسط نحوه ذراعيه ، واستدار به ثلاث مرات ثم أطلقه كالمقلاع فتهشمت رأس الطفل على الصخور . وجُنّ جنون المرأة حزناً على ولدها أو تأثراً بفعل السم الذى أفقدها صوابها ، وانطلقت تعوى هاربة مشعثة الشعر وعلى ذراعها طفلها الرضيع ميليكيرتيه وتصيح : « إيوهيه يا باكخوس ! » . وسمعتها جونو تنطق باسم باكخوس فقهقهت ساخرة وهى تقول : « عسى أن ينفعك ذلك الطفل الذى ربّيته ببركاته » .

وصعدت إينو قمة تل صخرى يُشرف على البحر الذى أكلت أمواجه سفحه الأدنى لتمرّ المياه تحته بمنأى عن هطول الأمطار ، وكانت لصخور قمته أسنان حادة تمتد فى فضاء البحر . وكان جنون إينو قد أمدّها بالقوة على تسلّق القمة دون أن يثنيها الخوف عن هدفها ، ومن القمة ألقت بنفسها هى والطفل الذى

تحمله فى مياه البحر ، فأزبدت الأمواج فى المكان الذى سقطا فيه . غير أن ڤينوس أخذتها الشفقة بحفيدتها البريئة فتوسّلت إلى عمها نبتون قائلة : « يا إله البحر العظيم الذى تلى منزلته مملكة السموات جلالاً ، سألتك أن تنعم علىّ بمنّة كبرى فتترفّق بهذين العزيزين اللذين ترى الأمواج تلعب بهما فى البحر الأيونى ولتضمّهما إلى حاشيتك من آلهة البحر . إن حقا إنى من زَبَد البحر خُلقت ومن أعماقه المقدّسة انبثقت فكم أنا إليه مَدينة ، ومازال اسمى اليونانى « أفروديتى » يذكّرنى بهذا الأصل »[25] . واستجاب نبتون لرجائها فجرّد إينو وولدها من شخصيتيهما البشرية وأضفى عليهما جلال الربوبية وأعطاهما اسمين جديدين يناسبان شكليهما الجديدين ، وأسمى الإله الجديد پالايمون وضمّه إلى حاشيته هو وأمه التى أسماها ليوكوثوى[26] .

وكانت وصيفات إينو الفينيقيات قد اقتفين آثار قدميها إلى أن غابت عنهن تلك الآثار عند حافة صخور تشرف على البحر ، ولم يساورهن شك فى وفاتها فأسين لمصير أسرة كادموس وبكين عليها وضربن صدورهن ومزّقن شعورهن وثيابهن ، ورمين چونو بالظلم لقسوتها البالغة على منافستها ، فامتلأت الإلهة سخطاً عليهن لاتهامهن لها وتوعّدتهن قائلة ، « لسوف تَلْقَيْنَ جميعاً ما يذكّركن بجبروتى دوماً » ، وما أسرع ما نفّذت وعيدها . وحين همّت أوفى وصيفات إينو بإلقاء نفسها من أعلى الصخور فى البحر وهى تصيح : « لسوف أتبع مليكتى إلى أعماق البحر » ، إذا هى تجد نفسها عاجزة عن الحركة وقد تجمّدت فى مكانها ملتصقة بالصخور . وأحسّت ثانية وهى تندب ضاربة صدرها تصلّب ذراعيها حين حاولت رفعهما . وتجمّدت ثالثة كانت تشير بيدها نحو موج البحر وبقيت ذراعها ممدودة لمياهه ، كما تجمّدت أصابع رابعة بين خصلات شعرها وهى تَشُدُّه . وهكذا تجمّدت كل واحدة منهن على الوضعة التى كانت تتخذها ساعة فاجأتهن اللعنة التى صبّتها عليهن الإلهة ، وتحوّلت الأخريات من نساء طيبه إلى طيور تحوّم فوق البركة وتحفّ بأجنحتها على سطحها .

كادموس وهارمونيا

ولم يبلغ العلم بكادموس بن أجينور أن ابنته وحفيده قد تحوّلا إلهين من آلهة البحر ، وكان الحزن قد أضناه بعد سلسلة الكوارث التى نزلت به وتملّكه الفزع مما شهده من نذر الشؤم ، فاعتزم الرحيل عن المدينة التى أسسّها متخيلاً أن الشؤم الذى يعصف به مردّه إلى شؤم المكان لا إلى شؤمه هو .

وبعد أسفار طويلة مع زوجته التى صحبته فى هجرته وصلا أخيراً إلى بلاد إلليريا[27] وقد أحنت الشيخوخة والأحزان ظهريهما . ومضيا يستعيدان فى الحين بعد الحين أمجاد سلالتهما وإذا كادموس يتساءل ذات مرة وهو يستعرض مأساة أسرتهما : ألم يكن حقاً أن ذلك الثعبان الذى صرعته برُمحى مقدّساً ، ذلك الذى نثرتُ أسنانه قبلُ حينَ رحلت عن « صيدا » أول مرة على أنها نوع جديد من البذور فوق تربة الأرض ؟ فإذا كان موته هو الذى حرّك الآلهة كى تنتقم منى ، فإنى أتوسّل إليها أن تمسخنى أفعواناً مثله فيمتدّ جسدى ويتحوّى كجسد الثعبان » . وفيما هو يتحدث بدأ جسده يتمدّد ويأخذ شكلاً متحلّقاً طويلاً

كالثعابين ، وتصلّب جلده واصطبغ بلون أسود ، وظهرت عليه بقع زرقاء مخضرّة تُلقى شيئاً من الضياء على لونه الداكن ، ثم سقط على صدره فانضمت ساقاه وأصبحتا ساقاً واحدة أخذت تستطيل وتدقّ حتى انتهت إلى ذيل مدبّب ، لكن ذراعيه بقيتا على صورتهما البشرية . وكذلك بقى وجهه الذى غمرته دموع عينيه فانبرى يقول : « هلمى إلى يا أتعس الزوجات ، وتحسّسى ما تبقّى من صورتى البشرية ، خُذى بيدى وهى ماتزال يداً قبل أن أتحوّل أفعواناً كاملاً » . وما لبث أن عجز عن مواصلة الحديث فقد انشطر لسانه فجأة إلى شطرين ، وخانه لسانه رغم رغبته العارمة فى الحديث ، وأصدر فحيحاً غريباً كلما حاول أن يندب حظه . وكان ذلك هو الصوت الوحيد الذى أتاحته له طبيعته الجديدة .

وضربت زوجته صدرها العارى بكفّيها صائحة : « ناشدتُك ألاّ تهجرنى أيها الزوج المنكوب ، ولتخرج من هذا الشكل البشع يا كادموس . ماذا حلّ بك ؟ أين قدماك ويداك وكتفاك ولون بشرتك وملامحك ؟ لقد اختفت معالمك كلها وأنت تبادلنى أطراف الحديث . ألا فلتمسخينى أيتها القوى السماوية بالمثل على صورة هذا الأفعوان » .

وجعل كادموس يلعق وجنتى زوجته منزلقاً بين أحضانها كما كان يفعل من قبل ، وانبرى يقبّلها ويحاول التعلق بعنقها على غرار ما كان يفعل فى الماضى . وفزع جميع أصدقاء كادموس وكانوا مايزالون إلى جانبه ، بينما تربت زوجته على الرقبة الملساء للثعبان المتوّج بريشة ، وما لبثت أن مُسخت هى الأخرى وصارا ثعبانين يزحفان معاً ، وطوّق أحدهما الآخر حتى اختفيا فى غيضة مجاورة ، وبقيا منذ ذلك الوقت حتى اليوم ثعبانين مُسْتَأْنَسَيْنْ يأنسان بالبشر ولا يغيب عنهما أنهما كانا من البشر .

پيرسيوس . أطلس . أندروميدا

ووجد كادموس وزوجته عزاء كبيراً عن فقدان شكلهما البشرى فى حفيدهما الذى غزا الهند وقدّسه مواطنوها وألّهوه كما أقبلت حشود الآخيين [اليونانيين] تصلّى له فى المعابد التى شُيّدت لتكريمه . ولم يشذّ إلا أكريسيوس بن آباس المنحدر من نفس السلالة التى انحدر منها باكخوس إذ بقى يصدّ الإله عن أسوار مدينة أرجوس ، ويحمل السلاح ضده رافضاً التسليم بمولد باكخوس الإلهى مثلما رفض التسليم ببنوّة پيرسيوس لچوپيتر الذى حملت به داناى بعد أن أخصبها چوپيتر حين أتاها فى صورة شؤبوب من القطرات الذهبية[٢٨] .

غير أن أكريسيوس سرعان ما ندم على تفريطه فى حق الإله باكخوس وإنكاره بنوّة حفيده پيرسيوس لكبير الآلهة ، فما أقدر الحقيقة على أن يُكتب لها الفوز . وبينما السماء تستقبل الإله باكخوس كان پيرسيوس عائداً إلى وطنه يشقّ طريقه محلّقاً بجناحيه الرفّافين فى أجواز الفضاء حاملاً معه رأس ميدوسا ، تلك الغنيمة الجديرة بالذكر التى ظفر بها فى صراعه مع تلك المخلوقة الغريبة ذات الرأس المكتسى بشعرٍ من

الأفاعى . وبينا هو يحلّق فى سماء صحراء ليبيا سقطت بعض قطرات الدم من رأس الجورجونة الذى كان يحمله البطل الظافر فاحتضنتها رمال الأرض وأحالتها إلى أنواع مختلفة من الأفاعى ، وهذا سرّ امتلاء هذه البلاد بمختلف أنواع الثعابين الفتاكة . وأخذت الرياح الهوجاء بعد ذلك تدفع پيرسيوس فى أنحاء القبة السماوية الشاسعة وكأنه سحابة حُبلى بالمطر تتلاعب بها الرياح ، يطوف فوق الأرض ويتأملها من علٍ ، فرأى كوكبى الدب الأكبر والدب الأصغر الشديدى البرودة ثلاث مرات ، كما شاهد مخالب كوكبة السرطان مرات ثلاث ، وكم من مرة دفعت به الريح إلى الغرب ثم أعادته إلى الشرق .

وعندما أوشك النهار على الغروب لم يأتمن پيرسيوس ظلمة الليل فحطّ على قمم هيسپيريا فى مملكة أطلس[٢٩] بالغرب ، وحاول الإخلاد للراحة حتى ينادى لوسيفر نجم الصباح[٣٠] أضواء الفجر وتُسْرِج أورورا ربّة الفجر جياد النهار . هناك كان يعيش أطلس بن ياپيتوس الذى كان جسده يفوق أجساد البشر ضخامة ، وكان يحكم أقصى أطراف الأرض ، ويمتد ملكه إلى تلك المياه التى تستقبل جياد إله الشمس المكدودة ساعة تأوى مركبته المرهقة إثر رحلتها خلال النهار ، وتزدحم مراعيه بآلاف القطعان التى يملكها من الأغنام والماشية ، ويملك شجرة تتألق عليها أوراق ذهبية وتتدلّى من غصونها ثمار من ذهب .

وحينما أوى پيرسيوس إلى هذا المكان قال لأطلس : « إذا كنت أيها الصديق ممن يهتمون بعراقة الأصل فأنا سليل چوپيتر ، وإذا كنت ممن تستهويهم مآثر البطولة فإنك لا شك معجب بما فعلتُه ، ولقد جئت ملتمساً ضيافتك » . وسرعان ما تذكّر أطلس مشيئة الأقدار الغابرة التى كشفت له عنها يومائيميس من فوق جبل پارناسوس حين قالت له : ليسرقنّ ابن من أبناء چوپيتر الثمار الذهبية لشجرتك يا أطلس وينعم بها » . فأحاط أطلس حدائق فاكهته ــ خشية تحقق هذه النبوءة ــ بأسوار منيعة ، ووضعها فى حماية أفعوان هائل وحزم أمره على منع الغرباء من دخول مملكته ، ولهذا ردّ پيرسيوس عنه قائلاً : أعزُب عنى وارحل من هنا ، وإذا حدّثتك نفسك باللجوء إلى قوتك فلن تجديك نفعاً وإن استعنت بچوپيتر نفسه » . وحين تلكّأ پيرسيوس فى الرحيل انتقل أطلس من التهديد إلى العنف ، وحاول الإلقاء به بعيداً فقاومه الآخر فى بسالة وهو يحاول كسب ودّه بعبارات رقيقة ، حتى إذا أدرك ضعفه أمام أطلس [ومن ذا الذى يستطيع أن يدانى أطلس فى قوته ؟] صاح قائلاً : « إذن ، مادمت لا تعبأ بالصداقة ، فإليك هذه الهدية » ، وأدار وجهه قبل أن يكشف بيده اليسرى عن رأس ميدوسا البشع فتحول أطلس عندها إلى جبل عملاق كما كان عملاقاً بين البشر ، وإذا شعرُ رأسه وشعر لحيته أشجار ، وإذا يداه وكتفاه سفوح جبال ، وإذا رأسه قمة جبل ، وإذا عظامه صخور . وما لبث هذا الجبل أن امتدّت أطرافه فى جميع النواحى ، كما علا حتى بلغ عنان السماء ، وإذا النجوم العديدة فى قبّة السماء ترتكز عليه . وكان هذا كله لوفق مشيئة الآلهة .

وبينا هذا يحدث كان أيولوس[٣١] بن هيپوتيس قد حبس الرياح فى سجنها الأبدى ، وأشرق لوسيفر نجم النهار يتلألأ فى السموات العُلى مستنهضاً البشر للقيام بواجباتهم اليومية . وعاد البطل إلى جناحيه

وثبّتها على قدميه وتسلّح بسيفه المقوّس وشقّ طريقه فى الهواء الشفيف بحركة من نعليه المجنّحين ، وطار عابراً فوق عدد لا يحصى من شعوب الأرض كانت بلادهم تنبسط تحته فى جميع الاتجاهات إلى أن وقع بصره على القبائل الإثيوبية(٣٢) وحقول كيفيوس حيث كان « چوپيتر آمون » قد أصدر أمره الجائر بأن تُعاقَب أندروميدا على تطاول أمها بأحاديثها المتباهية .

وعندما شاهد پيرسيوس الأميرة مكبّلة الذراعين بالسلاسل مشدودة إلى الصخر الصّلب ، خُيّل إليه أنها تمثال من الرخام لولا شعرها الذى كان يعبث به النسيم والدموع الحارة التى كانت تنهمر من عينيها ، وشدهه جمالها النادر فوقع فى هواها على غير وعى منه ، وأنسى تحريك جناحيه فى الهواء حتى إذا لامس الأرض بقدميه صاح فيها : « ليس لك أن تكبّلى بهذه السلاسل ، وأجدر بك القيود التى تُغلّل قلوب العشاق ! ناشدتك أن تذكرى لى اسمك واسم بلدك والسبب الذى من أجله شُددت إلى هذه الأغلال » .

ولزمت الأميرة الصمت فى بادىء الأمر ، فما كانت لتجسر على مخاطبة رجل وهى فتاة عذراء ، ولو لم تكن يداها مقيّدتين لأخفت وجهها بكفّيها استحياء ، ولكنها لم تكن تملك غير أن تذرف الدموع . وحين ألحّ عليها پيرسيوس بأسئلته المرة تلو المرة خشيت أن يفسّر صمتها على أنه اعتراف بذنب ارتكبته ، فكشفت له عن اسمها واسم بلادها ، وعن زهو أمها الفاتنة بجمالها . وقبل أن تُكْمل قصتها ارتفع صخب مياه المحيط وبرز من بينها وحش يتهدّدها وقد انبسط صدره على رقعة فسيحة من الأمواج فندّت عن الفتاة صرخة مدوّية ، وكان والداها على مقربة منها وقد طواهما حزن عميق غير أن أمّها كانت أشدّهما حزناً . وكانا عاجزين عن تقديم أى عون لها لا يملكان سوى ذرف الدموع عليها والنحيب والتعلّق بها وهى مكبّلة بالسلاسل . وحين وقع عليهما بصر الوافد الجديد ، قال لهما : « قد يكون أمامكما فسحة طويلة من الوقت تسكبان فيها الدموع كما تشاءان ، غير أنكما لا تملكان غير وقت لا يطول إذا أردتما مساعدتها ، أنا پيرسيوس بن چوپيتر من داناى التى لقّحها بذهبه المُخْصِب بينما كانت سجينة أحد الأبراج ، أنا پيرسيوس الذى قهر الجورجونة ذات الجدائل الثعبانية . أنا من حلّق خلال طبقات الهواء بأجنحتى المرفرفة . ولو أننى تقدمتُ لخطبة فتاتكم لآثرتنى على غيرى ، غير أننى آثرت أن أكون موضع الاختبار مرة أخرى كى أضيف إلى ما ذكرته لكما من أمجادٍ بطولةً جديدة أحقّقها بعون الآلهة لى . فلتعدانى بأن تكون هذه الفتاة من نصيبى إذا قُدِّر لى أن أنقذها بجرأتى ، ولسوف أكون عند عهدى » . ورضى أبوها بهذا ، [ومن ذا الذى لا يرضى !] وتوسّلا إليه أن ينقذها ووعداه بأن يمنحاه مع ابنتهما مملكتهما هدية عرس له . وكان الوحش مقبلاً آنذاك يشق الأمواج بصدره مسرعاً وكأنه سفينة تمخر عباب الموج بمقدّمها الحاد تدفعها قوة سواعد ملّاحيها المفتولة ، واقترب حتى لم يبق بينه وبين الصخرة سوى مسافة لا تتجاوز مرمى المقلاع البلياري . وحلّق پيرسيوس عالياً فى السحب ، وانعكس ظلّه على سطح الماء فشرع الوحش يهاجم هذا الظل فى شراسة ، بينما انقض پيرسيوس على ظهره وأغمد سيفه فى كتفه اليمنى إلى مقبضه المنحنى وكأنه نسر چوپيتر عندما يهاجم ثعباناً وقع عليه بصره وقد تحوّى حول نفسه وسط حقل مقفر فيقبض عليه من الخلف ناشباً مخالبه الشرهة فى عنقه ذى الحرافيش خشية أن يلتفت فيواجهه بأنيابه السامة . وأخذ الوحش يخور خواراً بعد أن

أثار الجرح العميق فيه ألماً شديداً جعله ينتصب عالياً فى الهواء ثم يغوص فى المياه وكأنه خنزير برّى مفترس حاصره رهط من الكلاب الضارية أثارت فزعه بنباحها . وانطلق البطل يحلّق حول الوحش بجناحيه السريعين متوقّياً أنيابه النهمة ، ويلاحقه بضربات سيفه المقوّس فى أى جزء يلوح له منه ، فمرّة يطعن ظهره المكسو بإبر مسننّة من المحارات الجوفاء ، ومرّة يمزّق أضلاعه ، وأخرى يشطر ذيله الذى انكمش حتى صار كذيل السمكة ، ويطوّح المرة بعد المرة بسيفه المقوّس كالمنجل فيبصق الوحش من فمه سيلاً أحمر مصطبغاً بدمه الذى بلّل رذاذه جناحى پيرسيوس وأثقلهما . وإذ خشى مواصلة الاعتماد على ريشه بعدما ابتل ، لمح صخرة تبرز فوق سطح الماء ساعة هدأ لم يلمحها ساعة كان ثائراً ، فتعلّق بها وأمسك بيده اليسرى نتوءاتها المدبّبة وطعن بسيفه جنبى الوحش ثلاث ورباع حتى أجهز عليه ، فردّدت شواطىء البحر ورياض السماء أصوات التهليل والتصفيق وغمر الفرح كلا من كاسيوپى وكيفيوس واحتفيا بصهرهما پيرسيوس منقذ الأسرة وحاميها ، وهكذا كانت أندروميدا مبعث بطولته الأخيرة وجائزتها فى آن واحد . وهبطت الفتاة من الصخرة بعدما تحرّرت من قيودها ، وغسل البطل الفائز يديه فى الماء الذى أتوه به من البحر ، وإذ خاف أن يجرح الصخر رأس ميدوسا بشعرها الثعبانى وضعها على حشيّة ملساء من أوراق الشجر وغطّاها بأعشاب البحر . وعلى هذا النحو استقرت هناك رأس ميدوسا ابنة فوركيس التى نفذ أثرها إلى النباتات النضرة فجمدت بملامستها ، واكتست أوراقها وفروعها صلابة عجيبة . وانبرت حوريات البحر يتكشّفن هذه الظاهرة العجيبة على العديد من الغصون ، مبتهجات كلما رأين غصناً جمد أمام أعينهن من جديد ، فمضين ينثرن بذور هذه النباتات فوق الأمواج ليحصلن على المزيد من هذه المادة . ومايزال « المرجان » يتميّز حتى اليوم بتصلّبه عند ملامسته الهواء ، وهو ليس إلاّ نباتاً رخواً إذا كان تحت سطح الماء ، فإذا ما طفا أصبح صلباً كالحجر[٣٣] .

وقام پيرسيوس ببناء مذابح ثلاثة يكسو العشب أرضها ، يقع أحدها إلى اليسار تمجيداً لميركوريوس ، والثانى إلى اليمين تمجيداً لك أيتها العذراء المقاتلة ، والأخير يتوسّطهما تمجيداً لچوپيتر ، ثم قدّم القرابين فذبح بقرة لمنيرڤا وعِجْلاً لميركوريوس الإله المجنّح القدمين ، وثوراً لچوپيتر أعظم الآلهة وأجلّها . ولم يلبث بعد ذلك أن طلب يد أندروميدا جائزة بطولته الأخيرة ، وعقد عليها دون أن يدفع مهراً ، ولوّح كل من كيوپيد وإله الزفاف بمشاعل العُرس أمامهما وغذّيا النار بفيض من البخور ، وتدلّت أكاليل الزهور من السقف ، وانطلقت الأناشيد ، وسُمع عزف الليرات وزمر المزامير فى كل مكان تعبيراً عن السعادة التى تغمر القلبين المتحابّين ، وفُتحت الأبواب على مصاريعها ، وتبدّى القصر الذهبى بأكمله ، وجاء أشراف البلاط الإثيوبى إلى الوليمة الفاخرة التى مُدّ سماطها .

وحين فرغوا من تناول الطعام ، وطافت الخمر التى جاد بها باكخوس هدية للعروسين فأخذت تلعب بالرؤوس ، تساءل پيرسيوس حفيد لينكيوس عن البلاد وعاداتها وأساليب معيشتها وتقاليدها وأخلاق سكانها ، فأجابه أحد المدعوين عما سأل عنه ، ثم إذا هو يسأل هو الآخر قائلاً : « هلا ذكرت لنا يا پيرسيوس يا أشجع الشجعان كيف قطعت الرأس التى نبتت فيها الثعابين بدل الشعر ، فذلك وربى شىء

يتطلّب إقداماً وحذقاً ؟ » . عندئذ حدّثهم سليل أسرة أجينور عن مغامراته ، فقال إنه ثمة مكان تحت سفوح جبال أطلس بمعزل خلف كتل الصخور الصلبة ، تقيم عند مدخله إبنتا فوركيس الشقيقتان اللتان تشتركان فى عين واحدة تريان بها . واستطاع پيرسيوس بمهارته ودهائه أن يسلب هذه العين بحركة من يده أثناء انتقال العين بين الشقيقتين ، ثم سلك طرقاً نائية لم يسلكها أحد من قبله خلال البلاد الصخرية والغابات الكثيفة حتى بلغ دار الجورجونات . وشهد عبر الحقول وعلى جوانب الطرق تماثيل الرجال والوحوش التى حوّلتها مشاهدتها للجورجونة بعد أن كانت كائنات حية إلى كتل حجرية ، وحملق فى صورة ميدوسا المخيفة المنعكسة على التُرس البرونزى الذى كان يحمله على ذراعه اليسرى ، وبينما كانت هى وأفاعيها تغط فى نوم عميق جزّ عنقها منتزعاً رأسها من فوق كتفيها . ومن دماء الجورجونة المتدفّقة وُلد الجواد پيجاسوس ذو الجناحين السريعى الخفق ، كما وُلد شقيقه خريساوور[٣٤] .

ومضى پيرسيوس يروى أحداث أسفاره الطويلة ومخاطرها رغم غرابتها ، وتحدّث عن البحر والبر كما شاهدهما من علٍ ، وعن النجوم التى صعد إليها بأجنحته المرفرفة . ولما سكت عن الحديث ازدادت لهفة الحاضرين إلى المزيد ، وسأله أحد الأشراف ، « وكيف للثعابين قد التفّت برأس ميدوسا دون شقيقتيها ؟ » فأجابه پيرسيوس قائلاً : « مادمت ترى فى ذلك قصة جديرة بأن أرويها فهاكها وأَصِخْ بسَمْعِك إليها : لقد اشتهرت ميدوسا فى وقت من الأوقات بجمالها الذى أوقد نار الغيرة بين المتقدمين لخطبتها كلٌ منهم يأمل أن يظفر بها ، وكان جمال شعرها أبرز معالم فتنتها ، ولقد لقيتُ شخصاً يزعم أنه شاهدها عندما كانت تتمتع بهذا الحسن . وقيل إن إله البحار قد سلبها عُذْرَتَها داخل معبد مينرڤا ، الأمر الذى أغضب إبنة جوپيتر فأدارت ظهرها وأخفت وجهها الخَفِر خلف تُرسها ، وعاقبت الجورجونة على خطيئتها بأن أحالت شعرها إلى حيّات بشعة ، ومن يومها ومنيرڤا ترتدى فوق صدرها تُرساً يحمل صورة تلك الأفاعى التى خلّفتها بمشيئتها كى تثير الرعب بين أعدائها »[٣٥] .

التعقيبات

(١) يذكر أوفيد بعض الألقاب التى كانت تطلق على ديونيسوس . وكان اسم باكخوس شائعاً بين القبائل اللاتينية وأغلب الظن أنه من أصل شرقى ، وانتشر فى بلاد اليونان ابتداء من القرن الخامس ق.م ، وكان الإغريق يعنون بها صفات الإله ديونيسوس العربيدة الماجنة . أما بروميوس فهو لقب متعلق بهزيم الرعد ساعة مولده ، ويدل اسم ليبوس على قدرة الإله على تخليص الناس من همومهم ، ويتعلق اسم ابن النار بظروف ميلاده [انظر الكتاب الثالث] .

(٢) إشارة إلى ظروف ميلاد الإله [انظر الكتاب الثالث] وطفل نيسا [انظر الكتاب الثالث] وثيونيوس نسبة إلى الكلمة اليونانية لينوس بمعنى معصرة العنب . ونكتليوس هو لقب الإله الذى يُحتفل بطقوسه الماجنة ليلاً ، أما إيليليوس ويوهان فمشتقان من صرخات النشوة المحمومة ، وياخوس هو اللقب الذى أضفى على ديونيسوس فى مدينة إليوسيس . أما ليبر فهو اسم أحد آلهة الخصوبة القدامى فى العشائر اللاتينية ، واعتبره الرومان الإله ديونيسوس نفسه ، ومعناه « الحُرّ » أو « المحرِّر » .

(٣) لأنه كان يتمثل أحياناً على شكل ثور .

(٤) انظر قصة پنثيوس فى الكتاب الثالث . أما ليكورجوس فكان ملكاً لطراقيا وعدوا لديونيسوس فأصابه الإله بالجنون ، الأمر الذى أدى به إلى قتل زوجته وابنه وإلى موته هو نفسه قتيلاً بعد أن سحلته خيوله .

(٥) هو ميلينوس بن پان الذى تولى تربية ديونيسوس وكان رغم إدمانه الخمر معروفاً بالحكمة .

(٦) ديركيتيس نسبة إلى الربة السورية ديركيتو التى تحمل أيضاً اسمى أترجاتيس وعشتاروت ، وكانت تمثل بجسم سمكة .

(٧) أنجبت الربة ديركيتو ــ كما تقول الأسطورة ــ بنتاً هى سميراميس المشهورة التى تزوجت من نينوس ملك آشور الذى شيد لها حدائق بابل المعلقة . وقد أمرت سميراميس أن تسور المدينة بأسوار ضخمة وعليها مائتان وخمسون برجاً ، وفى نهاية حكمها علمت أن ابنها نينياس كان يتآمر ضدها فوهبته العرش بمحض إرادتها وتحولت إلى يمامة وطارت بعيداً .

(٨) هى قصة الحورية بجزيرة نوسالا وكانت تجتذب بفتنتها الشباب ثم تحولهم إلى أسماك ، فعاقبها إله الشمس رب هذه الجزيرة بأن مسخها سمكة .

(٩) كان الرومان يوزعون مياة القنوات الحجرية العالية بواسطة الأنابيب بين الأبنية العامة والخاصة . وهنا يلجأ أوفيد إلى تصوير الأسطورة مستعيناً بمشاهداته الخاصة فى حياته الواقعية .

(١٠) كليمينيه ورودوس حوريتان إحداهما هى أم فايتون والثانية على قول البعض أم الهيلياديس . أما كيركى التى سيقص أوفيد قصتها مع جلاوكوس وسكيللا فى الكتاب الرابع عشر فكانت أمها برسيا بنت أوقيانوس . وسميت جزيرة آيا التى كانت تسكنها فيما بعد بشبه جزيرة كيركيو فى إيطاليا . وكليتييه أيضاً هى بنت أوقيانوس .

(١١) سمى عدة ملوك بهذا الاسم فى آشور ، ويقال إن أحدهم كان جد الملكة ديدو القرطاجية وملوك صور .

(١٢) أى أنها تحولت إلى زهرة اشتهرت فيما بعد باسم « عَبّاد الشمس » أو رقيب الشمس .
(١٣) كان دافنس بن هرمس من إحدى الحوريات شفيعاً للرعاة ، ويقال إنه مبتكر الأناشيد الرعوية ، وكثيراً ما يذكر ثيوكريتوس اسمه . وقد أحبته حورية اسمها ليكا أو نايس ثم خانها ففقد ببصره ومسخ صخرة وصارت أسطورته ملتصقة بريف صقلية [انظر الكتاب الثانى] .

(١٤) كيلميس هو أحد كهنة كوبيلى فى جبل إيدا . والكوريتيس هم أبناء الأرض مثل المردة التيتان ، وكانوا قد رعوا زيوس فى طفولته . أما كروكوس فهو الذى أحب سميلاكس حبا يائساً فمسخته الآلهة نبات الزعفران ، كما مسخت سميلاكس زهرة من فصيلة الزنبق تسمى القشاغ .

(١٥) يتكون الاسم من اسمى هرمس [ميركوريوس] وأفروديتى [فينوس] مجتمعين .
(١٦) كيتوروس اسم مدينة وجبل على الشاطىء الشمالى لآسيا الصغرى ، وقد اشتهرت بصناعة الأمشاط من الخشب .

(١٧) كان ثمة اعتقاد شائع بإمكان منع خسوف القمر بقرع الدفوف وضرب الصنوج البرونزية .
(١٨) كانت جدّته مايا أم هرمس بنتاً للمارد أطلس .

(١٩) تحولت بنات ميناياس إلى خفافيش ، وهى باللاتينية فيسبر تيليونيس نسبة إلى « فيسبر » نجم أوج الليل أى الزهرة فى ساعات الليل .
(٢٠) إينو هى صغرى بنات كادموس وشقيقة سيميليه ، وقد قامت بتنشئة ديونيسوس عقب ولادته . أما زوجها أثاماس بن أيولوس فكان ملكاً لأورخومينى فى بويوتيا وقد أنجبت منه ولدين .

(٢١) لم تكن تحظى بالسكينة غير أرواح الموتى التى أديت لها الطقوس الجنائزية .
(٢٢) أحب إيكسيون جونو وحاول إغوائها فأبلغت زوجها جوبيتر الذى شكلّ امرأة على غرار جونو من السحاب ورفعها إلى المكان الذى كان سيلتقى فيه جونو وضاجع إيكسيون السحابة وأنجب منها فصيلة القنطورى ، ثم عاقبه جوبيتر بأن أرسله إلى العالم السفلى حيث شدّه ميركوريوس على عجلة تدور إلى ما لا نهاية .

(٢٣) سيزيفوس هو أحد الأبناء الستة لأيولوس ومنهم أثاماس .
(٢٤) إخيدنا وحش نصفه امرأة ونصفه ثعبان . وكانت أم الكلب أورثوس الذى صارعه هرقل ، والكلب كيربيروس ذى الرءوس الثلاث والهيدرا والخيميرا وأسد نيميا .

(٢٥) « أفروديتى » مشتق من « أفروس » أى الزبد باليونانية .
(٢٦) تروى الأسطورة أن الطفل الرضيع ميليكيرتيه قد حمله درفيل إلى شواطىء كورنثه ، وهناك تلقّاه عمه سيزيفوس ودفنه ثم أقام الألعاب التى سميت بالألعاب البرزخية تكريما لذكراه . أما ليوكوثوى [إينو] وپلايمون [ميليكيرتيه] فقد اتخذا إلهين فى روما بدلاً من الآلهة الإيطالية القبلية ماتوتا وبورتونوس . وكان أيسخولوس وسوفوكليس قد عالجا هذه الأسطورة فى مأساتين بعنوان « أثاماس » لم يبق لنا منها شىء . كذلك قص أوريبيديس نفس الأسطورة فى مأساة مفقودة بعنوان « إينو » .

(٢٧) ألبانيا الآن .
(٢٨) كان آباس ملك أرجوس وأب أكريسيوس أحد أقرباء كادموس ودناأووس وآيجبتوس (انظر الكتاب الثالث] . وكان أكريسيوس والد داناى قد أفزعه ما تكهّن به العرّاف بأنه سيموت قتيلاً بيد حفيده فحبس ابنته فى حجرة محصّنة بالنحاس . واذ رآها زيوس مسّت شغاف قلبه فتسلل إلى معقلها من النافذة على شكل شؤبوب من الذهب فأنجبت منه پيرسيوس . وبعد أن سمع أكريسوس صيحات الطفل پيرسيوس لم يصدق أن أباه كان رب الأرباب . وإذ كانت نبوءة العراف ما تزال تؤرقه أغلق على الأم داناى وطفلها پيرسيوس صندوقاً وقذف به إلى البحر حيث رسا على شاطىء سيريفوس فالتقطه الملك پوليديكتس . وقد عالج سوفوكليس موضوع هذه الأسطورة فى مأساة مفقودة اسمها « أكريسيوس » .

(٢٩) كانت مملكة أطلس تشمل أقصى غرب أفريقيا الشمالية وشبه جزيرة أيبريا .
(٣٠) لوسيفر هو نجم الصباح أو كوكبة الزهرة التى تبدو قبيل الشروق .
(٣١) أيولوس هو رب الرياح .

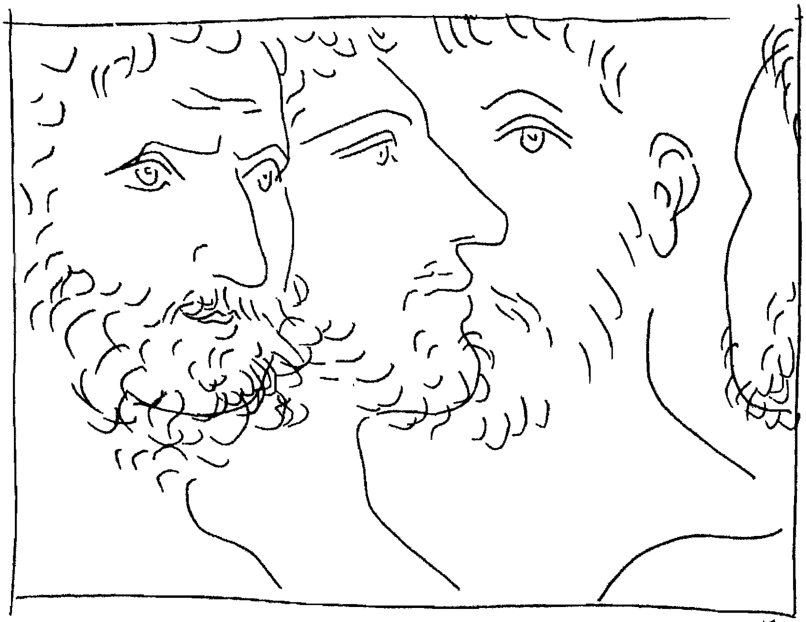
(٣٢) تعنى كلمة إثيوبيا بلاد ذوى البشرة المحروقة ، وكان الإغريق يطلقون هذا الاسم على كافة شعوب الجنوب حتى خط الاستواء . وقد ميز أيسخولوس بين نوعين من الإثيوبيين : ذوى الشعر المجعّد وهم الزنوج ، وذوى الشعر السبط وهم الهنود .

(٣٣) كان القدامى يجهلون الأصل الحيوانى للمرجان . واقتصرت هذه التسمية بعد هيرودوتوس (القرن الخامس ق.م.) على البلاد الواقعة جنوبى مصر وهى النوبة والسودان وشمال الحبشة .

(٣٤) خريساوور هو شقيق الجواد پيجاسوس ، وقد تزوج ابنة أوقيانوس وأنجب منها جريون الوحش ذا الرؤوس الثلاث الذى صارعه هرقل .

(٣٥) رأس الجورجونة هى الشعار المنقوش فى منتصف درع الربة أثينا [منيرڤا] .

* * *



بيكاسو

الكتاب الخامس

پيرسيوس [تتمة]

وبينما البطل ابن داناى يروى مغامراته لحشد من الإثيوبيين من أسرة كيفيسوس كان ثمة جمع صاخب من الجماهير الثائرة قد احتشد داخل القصر ، أخذوا يصيحون صيحات لا تتفق وتهليل الأعراس ولُطفها ، بل تشوبها ضراوة المحاربين . وسرعان ما ساد الحفل اضطراب يشبه فورة مياه البحر إذ تحرّكها العاصفة الهوجاء ، وكان فينيوس[1] هو زعيم هذا الحشد الدخيل ومحرّضهم على القتال . وقف شاهراً رمحه البرونزى الحدّ المنحوت من خشب الدردار وانبرى يتوعّد : « ها أنذا قد جئت لأنتقم ممن اختطف العروس التى وُعدت بها ، ولن ينقذك منى جناحاك ولا چوپيتر الذى تمثّل على صورة قطرات ذهب خادعة » . وتأهّب ليسدّد رمحه فزجره كيفيوس قائلاً : « ما هذا الذى تفعله يا أخاه ؟ وأية حماقة تلك التى تدفعك إلى أن تُقدم على هذا الجرم ؟ أهكذا يكون جزاء من أسدى إلىّ معروفاً جليلاً ، أبهذا تكافىء من أنقذ حياة ابنتى ؟ إن پيرسيوس لم يخطفها منك إنما خطفتها بنات نيريوس [حوريات البحر النيرياديس] الصارمات ،

خطفها أمون ذو القرنين(٢) والوحش الذى انطلق من البحر ليفترس أحشاءها . لقد اختطفت منذ تلك اللحظة التى كانت فيها مشرفة على الهلاك فوق الصخرة ، هذا إذا لم تكن أنت بقسوتك تريد لها الهلاك ، وتتخذ أنت من خوفنا عليها ما تتلهىّ به . فما كان يحقّ لك أن تقف جامداً وهى مكبّلة بالأغلال على مرأى منك ولا تمدّ لها يد العون وأنت عمّها وخطيبها معاً ، أَوَ يليق بك بعد هذا أن تشكو وأن تُحْرِمَ من أنقذها جائزته . وإذا كنت حقاً تقدّرها حق قدرها أَمَا كان الأَوْلى بك أن تحملها بعيداً عن الصخور التى شُدّت عليها . ومادُمت لم تفعل فلتدع منْ أنقذها يظفر بما وُعد به ويجنى ثمار ما قدّم . لقد خلّصنى من أن أرزح تحت عبء شيخوخة أُحْرَم فيها حنان ابنتى ، ولتعلم بأننا لم نُؤْثره عليك بل آثرناه على الموت الذى كان يتهدّدها يقيناً » .

وارتُجّ على فينيوس وراح ينقل نظراته بين الملك وپيرسيوس حائراً لا يدرى إلى أيهما يسدّد رمحه ، وبعد تردّد لم يطل قذف پيرسيوس برمحه بكل ما أثاره فيه الغضب من قوةٍ ، غير أن رميته ذهبت هباء إذ نفذ السهم فى أريكة پيرسيوس الذى قفز من بين الوسائد مسدّداً رمحه إلى صدر خصمه ، ولكن ما أسرع أن احتمى فينيوس بالمحراب الذى منحه حماية لم يكن جديراً بها . ومع ذلك فإن الرمح لم يطش وإنما نفذ فى جبين رويتوس فسقط صريعاً يقرع الأرض بكعبيه ويُخرج الرمح من جبينه فيتناثر دمه على الموائد . وعندها خرجت الجماهير الثائرة عن وعيها غاضبة وقذفوا الرماح هنا وهناك مُنادين بقتل كيفيوس وصهره . ولكن كيفيوس كان قد بادر فغادر قصره مُشْهداً آلهة الضيافة على أنه لا يد له فيما حدث وأنه كان مُحقًّا صادق النية .

وأقبلت پالاس المحاربة وقدّمت تُرسها لحماية أخيها پيرسيوس فأذكت فيه الشجاعة . وكان أول من تصدّى له هندىّ اسمه أثيس وضعته أمّه « ليمناى » وهى إحدى حوريات نهر الجنج تحت مياهه الصافية . وكان صبيّاً أكمل السادسة عشر من عمره بهىّ الطلعة تزيده ثيابه الأنيقة وسامة ويرتدى معطفاً من معاطف « صُور » وُشّى بأهداب من قصب ، ويحيط بعنقه عقد من الحليات الذهبية ، ويضمّ شعره المعطّر بالمُرّ مشط مقوّس ، لا يخطىء رمحه هدفاً مهماً بَعُد ويجيد استخدام القوس ، غير أنه ما كاد يبدأ فى شدّ قوسه المرن حتى ألقاه پيرسيوس بجمرة مشتعلة من جمرات المذبح فجندلته على الأرض وتهشّمت عظام جمجمته ووجهه .

وحينما رأى ليكاباس الأشورى أعزّ أصدقائه مُجَنْدَلاً بكاه وهو يشهده يلفظ أنفاسه الأخيرة ، تُغَشّى الجراح ذلك الوجه الذى كان مفتوناً به وتَعُمُّه بِرْكة من الدماء ، فانتزع القوس الذى كان أثيس قد شدّ إليها السهم وصاح : « لأنازلنّك الآن بنفسى ، ولن أتركك تفرح بموت صبىّ لن يُكسبك موته غير العار » . وانطلق السهم قبل أن يُتمّ عبارته ، غير أن پيرسيوس أفلت منه فلم يُصِبْ غير طيّات ثيابه ، ثم انطلق پيرسيوس شاهراً سيفه المقوّس ــ الذى أطار به عنق ميدوسا ــ وأغمده فى صدر ليكاباس ، وحملق ليكاباس بعينيه الزائغتين فى أثيس ثم سقط بجواره مطمئن النفس لموتهما معاً وذهابهما سويّا إلى عالم الأشباح .

وحاول كل من فورباس الأسوانى وأنتيميدون الليبى الاشتراك فى المعركة غير أنهما انزلقا فى بِرْكة من الدماء الفاترة على الأرض فسقطا وصرعهما پيرسيوس حين أغمد سيفه فى ضلوع أنتيميدون وفى حلق فورباس . وكان مصير إريتوس ابن أكتور مختلفاً ، لأن پيرسيوس لم يحاول الوصول إليه بسيفه ، إذ كان إريتوس مسلّحاً بشاطور عريض الحد ، بل حمل بين يديه وعاء ضخماً ثقيلاً بارز النقوش ، وهوى به على رأس إريتوس فانبثق الدم غزيراً من فمه وسقط إلى الوراء وارتطم رأسه بالأرض مهشّماً فأخذ يعانى سكرات الموت .

وأوْدَى پيرسيوس بحياة كل من پوليديجمون أحد أحفاد سميراميس ، وأباريس القوقازى وليسيتوس الثيسالى ، وهيليكس المسترسل الشعر ، وفليجياس ، وكليتوس ، ثم انطلق يطأجثث ضحاياه بقدميه . ولم يجسر فينيوس على منازلة خصمه عن قُرب بل قذفه برمحه عن بُعْد فأخطأه الرمح وانحرف إلى جسد إيداس الذى كان قد نأى بنفسه عن القتال ولم يشأ الانضمام إلى أحد الفريقين فلم يُغْنه ذلك شيئاً ، لذلك حنق على فينيوس وصاح فيه قائلاً : « مادمت قد حملتنى حملاً على أن أنحاز إلى أحد الفريقين وجعلت منى خصماً لك ، فلأُصِبْك بجرح لقاء ذلك الجرح الذى أصبتنى به » ، وجعل ينزع الرمح من جسده وهمّ بقذف عدوه به غير أنه سقط على الأرض والدماء تنزف منه .

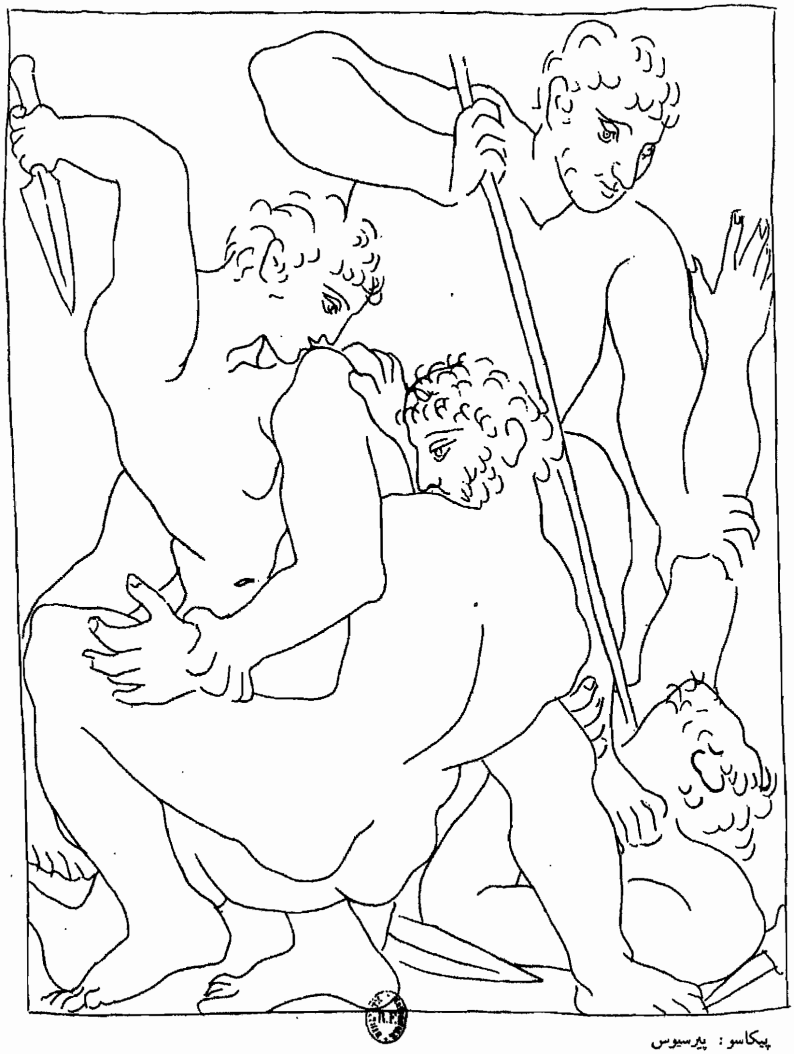
ومات هوديتيس ــ أعظم أبطال إثيوپيا بعد الملك ــ بسيف كليمينوس ، وصرع هيپسيوس پروثوينور ، فتكفّل پيرسيوس بذبح هيپسيوس . وكان بين الحاضرين رجل مُسنّ عادل ورع هو إيماتيون لم يشترك فى القتال بسيفه لشيخوخته ، ولكن شارك بلسانه فمضى يصبّ لعناته على هذه المعركة الآثمة ، بينما يمسك المحراب بيده المرتعشة حين هوى عليه خروميس بسيفه وأطاح برأسه فسقطت على المحراب وظل لسانه يتحرّك وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة وسط ألسنة النار . ثم سقط الشقيقان التوأمان بروتياس وأمون ، وكانا لا يُقهران بفضل قفاز(٣) المصارعة ، غير أنه لا حيلة للقفاز أمام صَوْلة السيوف فقضى عليهما فينيوس بسيفه ، كما قضى على أمپيكوس كاهن سيريس الذى كان يلفّ جبينه بعصابة بيضاء . كذلك خرّ لامپيتيديس صريعاً ولم يكن قد خُلق للقتال ، وإنما كان مطربا ، وكما كان غناؤه للسلام كذلك كانت قيثارته ، وكان قد دُعى ليعزف فواصل موسيقية وينشد بعض الأغانى خلال الحفل ، ورآه پتالوس وسط مجموعة رجال ممسكاً بريشة قيثارته العديمة الجدوى فى القتال وصاح فيه « لتنشد ما بقى من أغنيتك لأطياف العالم السُّفلى » وأغمد سيفه فى وجنة لامپيتيديس اليسرى فسقط على الأرض وقد انطبقت أصابعه على أوتار قيثارته فأطلقت نغماً حزيناً . وثار ليكورماس الشجاع لموت الشاعر واندفع يثأر له فخلع قضيباً ضخماً من الباب ودقّ به عنق پتالوس فخرّ صريعاً كما يخرّ العجل المذبوح قرباناً ، وحاول پيلاتس وكان قادماً من شواطىء نهر سينييس(٤) أن يخلع قضيباً من الباب الآخر فعاجله رمح كوريثوس الليبى فأثبت يده بخشب الباب ، وأدركه آباس بطعنة فى جنبه مات على أثرها وظل معلقاً بمصراع الباب ، كما قتل ميلانيوس أحد أتباع پيرسيوس ، وكذلك دوريـلاس أغنى ملّاك ناسامونيا(٥) وأشهر أصحاب الضياع الفسيحة فيها وأكثرهم مِلْكا لأهراء التوابل ، فلقد طعنه هاليكونيوس البختيارى برمح نفذ مائلاً فى فخذه فجرح

خصيته ، ورآه أحدهم وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة زائغ العينين فقال له : « حَسْبُك بعد تلك الأراضى الشاسعة التى تمتلكها ، هذه الرقعة الصغيرة التى ترقد عليها » . وسارع پيرسيوس بالانتقام لدوريلاس فانتزع الرمح وكانت لاتزال به حرارة دمه وقذف به هاليكونيوس فمزّق أنفه ورقبته ونفذ من الخلف . وظل القدر يرعى يدى پيرسيوس حتى قتل الشقيقين كليتيوس وكـلانيس اللذين وُلدا من أم واحدة وماتا بجُرحين مختلفين ، فقد نفذ رمح پيرسيوس فى فخذى كليتيوس بينما غاص فى حلق كلانيس وكأنه يعضّه بأسنانه ، كما مات كيلادون من منديس[6] ، وأستريوس الفلسطينى الأم المجهول الأب ، ومات أيثيون الذى كان مع حذقه فى التنبؤ جاهلاً بمصرعه ، وكذلك هلك تواكتيس حامل دروع الملك وأجثرتيس الموصوم بقتل أبيه .

وكان على پيرسيوس بعد ما أبلى فى هذا العراك أن يبذل جهداً فوق كل ما بذله ، فقد انفرد به المهاجمون للإتيان عليه ، وتكالبت عليه من كل حدب وصَوْب عصابات تبغى ألاّ يمضى فى نَيْل ما وُعِدَ به من حقوق . ولم يُغْن شيئاً وقوف الملك وزوجته والعروس إلى جانبه ، فلقد ضاع صياح الملك وصراخه وسط صليل السيوف وأنين القتلى ، وكانت بيللونا ربّة الحرب قد نثرت الدماء على آلهة الأسرة لتُذْكى نار القتال .

وحاصر فينيوس وأتباعه الألف پيرسيوس وحده ، وتهاوت رماحهم عليه تهاوى البَرَد فى الشتاء أو أشدّ ، فأسند كتفيه إلى عمود حجرى كبير يحمى به ظهره وواجه الخصوم صامداً لهجومهم . وكان يتربّص له من جهة اليسار مولپيوس الخاروني[7] ويهاجمه من اليمين إيثيمون النبطى[8] ، وبدا بين خصميه كنمر جائع قد سمع خوار قطيعين من الأبقار فى واديين مختلفين فى آن واحد فلم يدر أيهما يهاجم أولاً ، وودّ لو استطاع أن يقفز إلى الاتجاهين فى اللحظة نفسها . وأخذ پيرسيوس يُرَاوِدُ نفسه فيمن يبدأ بقتله ، وإذا هو يُعَاجِل مولپيوس بطعنة مزّقت ساقه غير أنه لم يستطيع ملاحقته لأن إيثيمون لم يتركه بل أقبل عليه شارعاً سيفه على رقبته ، إلا أن السيف الطائش اصطدم بحافة العمود وانكسر وارتد نصله فى حلق من أطلقه ، ولم يكن الجرح مميتاً لكن وقفته مرتجفاً أعزل أتاحت لپيرسيوس أن يُرْديه بسيف ميركوريوس . وأخيراً تيقن البطل من أن شجاعته تقصر أمام هذا العدد الغفير من الخصوم فصاح : « مادمتم تُكْرهوننى على الالتجاء إلى ما لم أكن أحب اللجوء إليه ، فلسوف أطلب العون ممن كانت لى خصماً ، ولْيُشِح بوجهه إذن من كان صديقاً » ، ثم ما لبث أن أخرج رأس الجورجونة وكشفها أمامهم . وانبرى له ثيسكيلوس يسخر منه وهو يقول : « هل لك فى غيرنا ممن تخدعهم حِيَلُك » ، وكان قد تأهّب لقذف رمحه فإذا هو يجمد فى وضعه ومكانه إلى الأبد إذ تحوّل تمثالاً من رخام ، ، وتقدّم فى إثره أمپيكس محاولاً إغماد سيفه فى صدر پيرسيوس الشجاع غير أن يده جُمدت ولم تعد تتحرك للأمام ولا للخلف وتحجّر على هذا الوضع . وحينئذ برز نيليوس الذى كان يَدَّعى زوراً انتسابه إلى النيل ذى المصبّات السبع ، ورفع تُرسه المنقوشة عليه فروع النهر السبعة بعضها بالذهب وبعضها بالفضة ، وصاح : « تطلّع يا پيرسيوس إلى أين يمتدّ نسبى ، ولسوف يُسرّى عنك أنك ذاهب إلى عالم الموتى على يدى بطل مثلى » ، وهنا اختنقت كلماته الأخيرة فى حلقه وبقيت شفتاه منفرجتين إلى الأبد وكأنه يتكلم ولكن بلا صوت . وصاح إيريكس مؤنباً المحاربين بقوله : « إنه الجبن هو

الذى يجعلكم تجمدون وليس رأس الجورجونة ، هلمّوا معى للقضاء على هذا الفتى وسلاحه السحرى » ٢٠٠
ولكنه لم يكد يندفع خطوة للأمام حتى تجَمُد كتمثال من حجر .



پيكاسو : پيرسيوس

وإذا كان هؤلاء جميعاً قد استحقوا العقاب الذى نزل بهم ، فثمة محارب من أنصار پيرسيوس هو أكونتيوس كان قد وقع بصره على رأس الجورجونة فجَمُد هو الآخر على الفور ، وظن أستياجيس من

خصوم پيرسيوس أنه مازال حيًّا فضربه بسيفه الطويل فإذا هو يسمع رنين ارتطامه بالحجر فوقف لساعته متعجّبا ، وإذا هو الآخر يتحوّل تمثالاً حجرياً تعلو وجهه قسمات التعجّب .

ويطول سرد أسماء الجنود الدهماء الذين هلكوا فى هذه المعركة ، فلم يبق حيًّا منهم سوى مائتين ، تحوّل مائتان منهم إلى تماثيل حجرية بمجرد تطلّعهم إلى رأس الجورجونة . وفى النهاية امتلأ فينيوس أسى على ذلك القتال الذى بدأه ظالمًا ، لكن ما عساه يفعل الآن ؟ لقد رأى رجالَه تماثيل فى وضعات مختلفة ، وكان يتبيّنهم ويناديهم بأسمائهم طالباً منهم العون غير مصدّق عينيه ، وأخذ يلمس أقرب الأجسام إليه فوجدها رخاماً صلباً فابتعد عنها يائساً مُقرّاً بالفشل ، ورفع ذراعيه متوسّلاً إلى پيرسيوس وهو يتجنّب النظر إليه قائلاً : « أنت الفائز يا پيرسيوس فاخف سلاحك البشع عن الأنظار ، أخف رأس ميدوسا ، أخف ذلك الرأس الذى يحوّل الرجال إلى صخور ، ناشدتك أن تخفيه ، فلم تَدْفعنى إلى القتال كراهيتى لك وحبى للسيطرة بل هى الرغبة فى العروس التى وُعدت بها . لقد قمتَ لها بالكثير الذى يجعلك لها أهلاً لكننى عرفتُها قبلك ، ولن أخجل الآن من تسليمها إليك ، هَبْ لى إذن شيئاً واحداً أيها البطل العظيم ، هَبْ لى حياتى وحدها وليكن لك بعد هذا ما تريد » .

ولم يجرؤ فينيوس وهو يتكلم على التطلّع إلى الرجل الذى يتوسّل إليه ، فأجابه پيرسيوس قائلاً :

« فينيوس يا أجبن الخليقة ، لسوف أعطيك ما أستطيعه وهو منحة عظيمة لو تعلم لرجل دنىء الطوّية مثلك . لا تخشى أن يصيبك سيفى بأذى ، فسوف أجعل منك تمثالاً منتصبا فى قصر حَمِى يبقى على الأبد حيث لا يغيب عن نظر زوجتى التى كنت قد خطبتها يوماً » . ثم لوّح برأس بنت فوركيس فى الاتجاه الذى يتطلّع إليه فينيوس وقد ارتسمت على وجهه علامات الخوف . ولقد حاول الجبان أن يزيغ عينيه غير أن عنقه جَمد ، وجمدت الدموع فى عينيه واستحال صخراً بقيت قسمات الرعب مطبوعة على وجهه كما بقيت يداه تعبّران عن خضوعه وذلّته .

وعاد « پيرسيوس » حفيد أكريسيوس بعد ذلك إلى موطنه منتصراً تصحبه عروسه ، ودخل من باب مدينته حيث وُلد . وبالرغم من أن جدّه لم يكن قد بذل ما يستحق عليه العون ، إلا أن پيرسيوس انبرى يأخذ بحق أكريسيوس وهو يعدّ الإهانة التى لحقت بجدّه إهانة له ، فهاجم « پرويتوس » الذى كان قد أرغم أخاه « أكريسيوس » بقوة سلاحه على الفرار واستولى على قلعته ، فلم تفلح الأسلحة ولا مقاومة القلعة المغتصبة فى حمايته أمام بشاعة نظرة المخلوقة الغريبة ذات الشعر الثعبانى .

أما أنت يا پوليديكتيس[٩] ، يا من تولّيت مُلك جزيرة سيريفوس الصغيرة فما حرّك عطفك هذا الإقدام الذى أُوتيه ذلك البطل الشاب ، ولا تلك البطولات التى شهدت بها مغامراته العديدة ، ولا الكوارث التى حلّت به ، ولكنك كنت تطارده عن كراهية لا تفتر وغضب جائر لا حدود له ، فكنت تهوّن من بطولاته كافة وتدّعى أن قتل ميدوسا لم يكن غير حديث كذب . وعندها صاح به پيرسيوس : « لكى

أُثبت لك صدق ما أدّعى ، فلتُشيحوا بوجوهكم جميعاً » وسرعان ما حوّل وجه الملك إلى حجر دون أن يسكب قطرة من دمائه حين أخرج له وجه الجورجونة « ميدوسا » .

هيبوكرينى . ربّات الفن . بنات پييروس

لم تفارق تريتونيا « منيرڤا » [تريتونيا نسبة إلى بحيرة تريتون بأفريقيا] طيلة الوقت أخاها البطل الذى أنجبه چوپيتر من خلال القطرات الذهبية . وما لبثت أن التفّت بسحابة ورحلت عن سيريفوس مخلّفة وراءها كلاً من جزيرتى كيثنوس وجياروس ، وسلكت أقصر الطرق عبر البحر إلى طيبه وجبل هليكون موطن ربّات الفنون التسعة حتى إذا بلغت الجبل خاطبت الشقيقات النابغات قائلة : « نمت إلى سمعى شائعة تقول بأن ينبوعاً قد تفجّر من الأرض بضربة من حافر الحصان المجنّح « پيجاسوس » وليد « مَيدوسا » ، ولذلك جئت لأشهد هذا الينبوع العجيب بعد أن شهدت الجواد وهو ينبثق من دماء أمه المسكوبة ، فأجابتها أورانيا : « مرحباً بك أيتها الإلهة ، وأيّاً كان الغرض من زيارتك لديارنا فهى كفيلة بإضفاء السكينة على قلوبنا . أما قصة الينبوع فصحيحة لأن الجواد پيجاسوس هو الذى فجّره » . ثم قادت پالاس إلى الينبوع المقدّس ، فوقفت الإلهة برهة طويلة تحملق دَهِشَة فى هذا الينبوع الذى فجّرته ضربة من حافر جواد ، ثم جالت ببصرها حول الينبوع مستعرضة الأجمات العريقة والكهوف والسفوح الخضراء المرصعة بالزهور العديدة . وهنّأت بنات « منيموزينى » على موطنهن الذى يفيض عليهن سعادة ويتفق وما يضطلعن به من رسالة نبيلة . فردّت عليها إحدى الشقيقات قائلة : « أيّا پالاس تريتونيا ، يا من كنت ستصبحين واحدة منا لولا شجاعتك التى قادتك إلى حمل رسالةٍ أجلّ شأناً . إن ما تقولينه هو الحق بعينه وإنك لعلى حق فى امتداحك دارنا ورسالتنا . إن حظنا لسعيد لو أتيح لنا أن ننعم به فى هدوء ، غير أن ما يلحق بنا من أذى الناس لا حدود له ، فالإناث بغير حراسة يعشن فى خوف مستديم ، وصورة « پيرينيوس » الشّرس ماثلة دائماً أمام عينى ويبقى الذُعر مستوليا علىّ منذ تلك الحادثة . لقد كان محارباً عنيفاً استولى بمعونة جنده الطراقيين على بلاد دوليس وحقول « فوكيس » ونصب نفسه ملكاً على الأراضى التى اغتصبها عنوة . وكنا نحن الربّات فى طريقنا إلى معبدنا فى جبل « الپارناسوس » فرآنا ساعة مررنا به وتظاهر بإجلال أشخاصنا الإلهية ، ودعانا لدخول داره لنحتمى من المطر قائلاً : « يا بنات منيموزينى ، أرجوكن أن تتلبّثن بُرهة وألا تتردّدن فى الاحتماء بدارى من المطر والعاصفة ، فطالما دخلت الآلهة أكواخ أناس أشدّ فقراً منى » ، فحفزنا ترحيبه وكذا رداءة الطقس إلى قبول دعوته ، وسرعان ما دفعت ريحُ الشمال ريحَ الجنوب وبدّدت غيومها فبدت السماء صافية من جديد ، وهممنا باستئناف مسيرنا فإذا پيرينيوس يُغلق علينا داره ويشرع فى الاعتداء علينا . لكننا تمكّنا من الإفلات منه باستخدام أجنحتنا التى حلّقنا بها عالياً ، فانطلق يصعد أسوار القصر مسرعاً وراءنا صائحاً فينا « أينما تذهبن سأمضى فى إثركن ! » ولكنه سقط فى غمرة جنونه من البرج فهوى على الأرض وقد تناثرت عظام جمجمته المهشّمة وخضبت الأرض بدمه » .

ورفرفت أجنحة فى الفضاء خلال حديث ربّة الفن ودوّت من أعلى الغصون عبارات التحية ، فتطلّعت إبنة چوپيتر إلى أعلى لترى مبعث هذا الصوت ، وكانت الكلمات واضحة حتى ظنّت المتحدثَ إنساناً ولم يكن غيرِ طير من الطيور . كانت هناك تسعة من طيور العقعق التى تستطيع محاكاة مختلف الأصوات وقد حطّت على غصون الشجر ناعية مصيرها . وعندما بدت الدهشة على منيرڤا أخذت ربّة الفن تفسّر لها الأمر وتقول : « هؤلاء أيضاً قد تحوّلن حديثاً إلى طيور بعد فشلهن فى إحدى المباريات . وكان أبوهن « پييروس » أحد كبار أثرياء پيللا وكانت أمّهن أوييى من « پايونيا »[١٠] قد ناشدت لوكينا ربّة الوضع العون تسع مرات ، وأعانتها فوضعت تسع مرات . وكانت الشقيقات التسعة الحمقاوات قد تملّكهن الغرور لكثرة عددهن ومضين يتنقّلن عبر بلاد « هايمونيا » وآخايا . وحين وفدن على جبل هليكون استفززننا بقولهن ، « ألا توقّفتن عن فرض أنفسكن على الجهلة بادعائكن أنكن منشدات رخيمات الصوت ، إن تكنّ واثقات بمواهبكن فتعالين معنا يا بنات ثيسپياى[١١] المقدسات نتبار فلسنا دونكن فى رخامة الصوت ولا فى مهارة الإنشاد ، كما أننا نساويكن فى عددكن ، فإذا خسرتن المباراة تركتن الينبوع الذى فجّره ابن ميدوسا وينبوع أجانييى فى بويوتيا . وإذا خسرنا نحن انسحبنا خارج سهول مقدونيا إلى پايونيا التى تكسوها الثلوج ، ولتقم الحوريات مقام الحَكَم فى المباراة » . ولقد كان عاراً علينا أن نبارِيَهن ، كما كان من العار أن نتراجع وننسحب من المباراة . ثم كان اختيار الحوريات اللاتى أقسمن بأنهرهنّ أن يكُنّ فى جانب العدل ، واتخذن أماكنهن على كتل الصخر الصّلد . ولم نحتج للاقتراع فيمن يبدأ المباراة ، إذ أنشدت من استهلّت المباراة نشيداً يقص حروب سكان السماوات ونسبت المجد إلى العمالقة زُوراً واستهانت بأمجاد كبار الآلهة ، فروت كيف انطلق تيفويوس من أعماق الأرض ونشر الذعر بين سكان السماوات ، وكيف هرب منه جميع الآلهة وفرّوا حتى لاذوا بأرض مصر فى وادى النيل ذى المصبّات السبع ، وطاردهم العملاق تيفويوس وليد الأرض فى مأواهم فتنكّر الآلهة فى أشكال أخرى كى يخدعوه : تخفّى چوپيتر فى صورة كبش يقود القطيع ، وهذا هو السرّ فى تصوير آمون الليبى[١٢] حتى اليوم بقرون لولبية ، وتخفّى أپوللو فى صورة الغراب ، وتحول ابن سيميليه تَيْساً ، وشقيقه فويبوس قطّة ، وچونو عِجْلة بيضاء ، وڤينوس سمكة ، بينما أخذ ميركوريوس إله كيلينى أجنحة الطائر أيبس . أنشدت الكثير من هذا القبيل على القيثارة متحدّية بذلك ربّات الفنون . وقد لا يتسع وقتك للمزيد أيتها الإلهة ، أو قد لا تدع لك مشاغلك وقتاً تستمعين فيه إلى أنشودة الربّات ؟ » فأجابت پالّلاس « لا تخشى ذلك واخبرينى بما أنشدته بدقائقه على ترتيب وقوعه » . ثم جلست پالّلاس فى ظل الشجر الرّخىّ ، وواصلت ربّة الفنون قصتها قائلة : « لقد اخترنا من بيننا « كاليوپى »[١٣] لتمثلّنا جميعاً ، فنهضت واقفة وقد شدّت خصلات شعرها المسترسلة بإكليل من اللبلاب ، وغمزت أوتار قيثارتها الحانية بسبّابتها ، وأنشدت :

سيريس وپروسيرپينا

« كانت سيريس أول من حرثت كتل الطين بمحراثها المقوّس وأول من زرعت القمح وسائر الغلال ، وفرضت النواميس الأولى على العالم ، فنحن ندين بكل ما نملكه لسيريس ، وعلىّ أن أتغنى بها وليت نشيدى يكون جديراً بها ، فالإلهة يقينا جديرة بأغنيتى .

أُرسيت جزيرة صقلية الفسيحة فوق جسد العملاق تيفويوس الذى جرؤ وتطلّع إلى الإقامة فى السماء ، وطالما صارع لينهض من تحت الجزيرة ، غير أن يده اليمنى لم تقو على الحراك تحت جبل بيلوروس القريب من أوزونيا[١٤] ، كما جُمِّدت يده اليسرى تحت جبل پاخينوس ، بينما شُدّ وثاق ساقيه أسفل ليليبايوم[١٥] ، واستقر بركان إتنا بثقله فوق رأسه بينما كان مستلقياً على ظهره تحته وهو يلفظ الحمم واللهب من فكّيه المخوفتين . وطالما حاول إلقاء عبء الأرض من فوق ظهره وطى المدن والتلال الضخمة التى تقيّده ، وعندها كانت الأرض تزلزل حتى خشى ملك الأشباح الصامتة نفسه أن تنشقّ الأرض عن فجوات واسعة تسمح لضوء النهار أن يتسرّب إلى مملكته فيُخيف أطياف الموتى القلقة . ودفعه الخوف من ذلك إلى مغادرة مملكته المظلمة فى مركبته التى تجرّها الجياد السود ، ودار بها حول الدعامات التى تقوم عليها صقلية ليطمئن إلى أنه ليس ثمة مواطن ضعف بها ، فلمحته سيدة إريكس [ڤينوس][١٦] التى احتضنت ابنها المجنّح [كيوپيد] وقالت له : « أى كيوپيد يا من أنت ساعدى وسلاحى وبأسى ، خذ يا بُنىّ هذه السهام التى تخضع بها الجميع لسلطانك ، وارم بأسرعها قلب ذلك الإله الذى يسود آخر مملكة من بين ممالك الكون الثلاثة . لقد أخضعتَ آلهة الآفاق العلوية بما فيهم چوپيتر نفسه ، وكذلك فعلت بآلهة البحار دون أن تستثنى كبيرهم ، فلماذا تُهمل شأن تارتاروس ؟ لماذا لا يمتد سلطان أمك وهو أيضاً سلطانك إلى العالم السفلى وهو ثُلث الكون ، ولا تنس أن السماء قد بدأت تزدرينا لتراخينا ، وأخذ سلطان الحب يضمر ويضمر معه سلطانى ، ألم تر إلى پالاس وديانا ربّة الصيد يديران وجهيهما عنى ؟ كما أن ابنة سيريس ستظل عذراء إذا تركنا الأمر بيدها ، فتلك أمنيتها . وإذا كنت تحرص حقاً على مملكتنا التى نتقاسمها فاربط بين هذه الإلهة وبين عمّها »[١٧] . ولما فرغت ڤينوس من حديثها ، فتح كيوپيد جعبته وتخيّر من بين سهامه الألف أمضاها وأطوعها لقوسه كما شاءت أمه ، وشدّ قوسه مستنداً إلى ركبته وأطلق السهم الذى أصاب قلب پلوتو وانغرس نصله فيه .

وكانت على مقربة من أسوار مدينة هِنّا[١٨] بحيرة عميقة الغور أُطلق عليها اسم « پيرجوس » ينافس هديل بجعاتها الغناء الذى يُطْرِب سمع نهر كايستر[١٩] من بجعاته الشّاديات فوق مياهه الجارية . وكانت الأشجار تحيط بالبحيرة وتحميها بأوراق غصونها الكثيفة من أشعة فويبوس وتكسوها بظلال رطبة ، وتنتشر المراعى الخصبة من حولها متأنقة بالأزاهير حتى باتت كالربيع الدائم .

كانت پروسيرپينا هناك تلهو باقتطاف أزهار البنفسج والسوسن ثم تجمعها مرحةً مرح الطفولة البرىء فى سلّتها أو بين طيّات ثوبها محاولة أن تَبزّ رفيقاتها ، وقد وقع عليها بصر پلوتو حين أصابه السهم فإذا هو يقع فى غرامها فاختطفها ، فما أشد لهفة الحب ! وأخذت الإلهة المذعورة تبكى وتصيح مستغيثة بأمها وبرفيقاتها وهى تمزّق صدر ردائها حتى سقطت الأزهار التى كانت قد جمعتها فى ثناياه ، وتضاعفت حسرتها حين رأت خاطفها يستثير الخيول التى تجرّ مركبته منادياً كل جواد باسمه يستحثّه على مضاعفة جهده ، ويهزّ أعنّتها المصبوغة بألوان داكنة من فوق رقابها وأعرافها وهى تعدو فوق البحيرات العميقة الأغوار والبِرك الكبريتية فى بلاد الپاليكى[٢٠] التى تنبثق مياهها من باطن الأرض وهى ساخنة تفور ، ثم مرّت بالبقعة التى شيّدت فيها سلالة باكخاداى الوافدة من كورنثه وبرزخها[٢١] أسوار مدينتها بين ميناءين يكبر أحدهما الآخر .

كيـــــانى

وكان ثمة خليج فى المنطقة التى تفصل بين بِرْكة كيانى وجدول آريثوزا الوافد من پيزا ، تتجمّع فيه مياه البحر محصورة بين شاطئى المجرى الذى يزداد ضيقاً فى عدّة مواقع . وكانت « كيانى » أشهر حوريات صقلية التى أطلق اسمها على البركة تحيا به ، وقد برزت حتى خصرها خارج المياه وتعرّفت على الإلهة المخطوفة فصاحت : « لن تذهب بابنة سيريس أبعد من هذا يا پلوتو ، ولن تتزوج بها إذا لم تكن هى راغبة فى ذلك ، وكان أَوْلى بك أن تخطبها بدلاً من اختطافها . ولو أتحت لى فرصة لحدّثتك عن حادث مثيل ، فلقد وقع أناپيس[٢٢] فى غرامى ، ثم أصبحت عروسه بعد أن نجح فى استمالتى بتوسلاته لا استسلاماً لمثل هذا الذُّعر الذى تحرّكه فى قلب الصبيّة » . وما لبثت أن بسطت ذراعيها خلال حديثها فسدّت الطريق أمام پلوتو بن ساتورن الذى لم يستطع كبح جماح غضبه فاستثار خيوله العابسة ، وقذف بصولجان مُلكه فى قاع البركة فانشقّت الأرض ممهّدة طريقاً إلى تارتاروس ، وانطلقت مركبته وغاصت إلى مملكته من خلال هذا الشقّ . ومضت كيانى تندب اختطاف الإلهة حزينة على استهانة پلوتو بسلطانها على بِرْكتها ، واستقر فى قلبها جُرح لاشفاء منه ، فبدأت تذوى من فرط بكائها حتى تحلّلت تماماً فى الماء الذى كانت فى الماضى إلهته الجليلة وتخاذلت أعضاؤها فأخذت عظامه تنثنى وأظافرها تفقد صلابتها . وكانت أجزاء جسدها الدقيقة هى أول ما بدأ فى التحلّل : شعرها الداكن الزُّرقة وأصابعها وساقاها وقدماها . وما أسرع ما تحوّلت هذه الأعضاء إلى أمواج باردة ، ثم اختفى كتفاها وظهرها وردفاها ونهداها فى سيولة الماء حتى تحوّل الدم الذى يجرى فى عروقها إلى ماء سيال ، ولم يبق منها شىء تقبض عليه كفّ إنسان .

وتسلّلت الهموم إلى قلب سيريس أم پروسيرپينا وهى تجوب الأرض والبحار تحاول عبثاً العثور على ابنتها ، ولم تشاهدها « أورورا » ربّة الفجر ساعة يقظتها بضفائرها النديّة ، كما لم يشهدها هيسپيروس نجم

الليل وهى تأوى ساعة إلى الراحة ، فقد أشعلت بيديها مشعلاً من خشب الصنوبر من بركان « إتنا » وطافت به باحثة بين الظلمات القارصة البرودة ، فلم تكن تحس فارقاً بين شروق الشمس وبين غروبها حتى أضناها جهد السير وآذتها آلام العطش . وقبل أن تعثر على ينبوع تُطفىء بمياهه لهيب ظمئها ، وقع بصرها عَرَضاً على كوخ مسقوف بالقش قرعت بابه المتطامن فخرجت منه امرأة عجوز ، وحين رأت الإلهة وعرفت أنها إنما جاءت طلباً للماء ، أعطتها شراباً عذباً مغشّى بطبقة من دقيق الشعير المحمّص . وحين أخذت سيريس تشرب تَقدَّم منها صبىّ معروق الوجه صفيق الملامح أخذ يعنّفها ويصمها بالشراهة ، فقذفت الإلهة الغاضبة وجهه بما بقى من هذا الشراب وانتثر عليه الشعير المختلط بالسائل ، فامتلأ وجهه بالبقع وحلّت قدماه محل ذراعيه ونما له ذيل وتضاءل حجمه وتدهورت قدرته على الإيذاء حتى أضحى أصغر من السحلية حجماً . ودهشت المرأة العجوز وبكت مادّة يدها لتلمس هذا المخلوق الجديد الغريب ، فإذا هو يفرّ منها باحثاً عن مكان يختبىء فيه ، وكان يحمل اسم « ستليو »[٢٣] الدال على لون جسده الذى انتثرت به البقع هنا وهناك .

وما أكثر ما جابت الإلهة من بلاد وبحار مما يطول ذكره ، حتى إذا لم يَعُدْ هناك مكان لم تبحث به قفلت راجعة إلى صقلية . وقد مرّت خلال جولاتها بالجزيرة بشواطىء بركة كيانى ، ولو لم تكن الحورية قد تحلّلت إلى مياه لاستطاعت أن تروى لسيريس تفاصيل ما حدث . وكانت كيانى راغبة فى الحديث إلّا أنها لم تكن تملك فما ولا لساناً ولا أداة أخرى تتكلم بها ، ومع ذلك فقد استطاعت أن تُعطى لسيريس إشارة تكشف لها عن أمر ابنتها ، إذ عرضت على سطح مياهها حزام پروسيرپينا [پيرسيفونى] الذى كانت تتمنطق به والذى سقط منها فى البِرْكة المقدسة . وما إن رأته سيريس ، وكانت تعرفه حق المعرفة ، حتى جعلت تمزّق شعرَ رأسِها وكأنها لم تعرف بفقد ابنتها إلّا ساعتها فقط ، ومضت تضرب صدرها بيدها . ومع أنها لم تعرف مكان ابنتها على التحديد فقد أنحت باللائمة على بقاع الأرض كافة ووصمتها بنكران الجميل وأنها غير جديرة بنعمة الحصاد التى وهبتها إياها . واختصّت جزيرة صقلية التى وجدت بها آثار فقيدتها بمزيد من اللوم ، وأخذت تحطّم بيديها فى قسوة المحاريث التى كانت تقلّب الأرض ، وقضت فى غمرة غضبها على الفلاحين والثيران العاملة فى الحقول بالهلاك بالطاعون ، وأمرت الحقول بإفساد ما غُرس فيها من بذور ، وصارت التربة التى كانت تُباهى بخصوبتها فى أنحاء العالم جدبة قاحلة فخيّبت الآمال التى وضعها فيها الناس ، وهلكت المحصولات عند ظهور بشائرها فقد كانت تُتلفها حرارة الشمس المشتعلة أو يجرفها سيل من الأمطار أو تُبيدها موجات الريح العاصفة ، على حين كانت الطيور الشرِهة تتربص بالبذور ساعة بذرها ، والأعشاب الضارة والأشواك المستعصية تأتى على المحاصيل .

ومن أعماق البركة برز وجهُ الحورية « آريثوزا » من إيليس التى هام بها ألفيوس[٢٤] ، فأزاحت خصلات شعرها المبتلّة عن جبينها ، وقالت لسيريس : « يا أم المحاصيل العظيمة ، يا من بحثت عن ابنتك العذراء فى جميع أرجاء العالم ، هوّنى عليك ما بذلت من جهد ، وخفّفى من غضبك على الأرض الوفيّة لك ، فليست الأرض هى الملومة حين انشقّت لتدع المعتدى ينفذ عبرها . لقد فعلت ذلك مكرهة ،

ولست بذلك أدافع عن بلادى ، لأننى وُلدت فى « پيزا »[٢٥] ونشأت فى « إيليس » فأنا غريبة عن هذه البلاد . على أننى أحب صقلية أكثر من أى بلد آخر رغم أنى لست من أهلها فهى الآن موطنى ، أقمت فيها تحت اسم آريثوزا[٢٦] فكفكفى غضبك عليها وترفّقى بها أيتها الربّة ، ولسوف أقص عليك سبب تركى لبلادى وركوب هذا البحر حتى صقلية حين تسنح فرصة ، وبعد أن تكونى قد أخذت قسطاً من راحة البال ونعمت بشىء من البهجة . ويكفى أن أقول لك إن الأرض قد انشقّت أمامى فنفذتُ عبر كهوفها السُّفلى إلى الأعماق ، ثم عُدتُ ثانية إلى سطح الأرض هنا ورأيت النجوم التى طالما اشتقتُها . وبينما كنت انساب فى مستنقعات ستيكس شاهدتُ ابنتك پروسيرپينا بعينى وقد عصف بها حزن بالغ وارتسمت على وجهها علامات الفزع ، ومع ذلك بدت ملكة حقّة ، لها الهيمنة على عالم الأطياف ومشاركة حاكم العالم السُّفلى المطلق » .

ووقفت الأم عند سماع هذا الحديث جامدة ، وبقيت على هذا الحال لحظات طويلة وكأنها قد غابت عن رشدها ، ثم سرعان ما أخذت مغالبة الغضب تحلّ محل قسوة الحزن ، وانطلقت بمركبتها عالياً فى عالم الأثير ، وأمام چوپيتر وقفت مقطّبة الجبين منفوشة الشعر وقالت شاكية : « جئتك يا چوپيتر متوسّلة أن تُعيننى على حماية ابنتك وابنتى ، فإذا لم يكن للأم سلطان عليك فلا أقلّ من أن تحرّك ابنتك عواطف الأبوّة فى قلبك . لا تضنّ إذن بمحبتك على ابنتك بدعوى أنها ابنتى . لقد عثرتُ أخيراً على ابنتك التى طالما بحثت عنها ، وما أظننى بذلك قد ظفرت بها إلا إذا كان فى معرفة مكانها ظفرا بها . لقد اخْتُطفت وإننى لغافرة لمختطفها ذنبه إذا هو ردّها ، وليس لابنتك أن تتزّوج من قاطع طريق ، حتى لو لم تكن ابنتى » .
فأجابها چوپيتر « إن ابنتك موضع إعزازى كما هى موضع إعزازك نمنحها معاً حناننا ونهتم معاً بشئونها . ولو أنك سمّيت الأشياء بأسمائها الحقيقية لما وجدت ثمة عار فى مصاهرته ، ويكفيه أنه شقيق چوپيتر حتى لو لم تكن له ألقاب أخرى ، فأنا لم أتقدم عليه مرتبة إلاّ بالحظ وحده . أما إذا كنت ملهوفة على التفريق بينهما فمن اليسير على پروسيرپينا أن تصعد إلى السماء لو أنها لم تذق بشفتيها أى طعام مما ينطوى عليه ذلك العالم السُّفلى ، فذلك وحده شرط ربّات الأقدار » .

أَسْكالافوس والسيرينات

ولم تحوّل كلمات چوپيتر سيريس عن إصرارها على إنقاذ ابنتها ، غير أن الأقدار لم تسمح بذلك لأن الفتاة كانت قد قطعت صيامها عن حُسن نيّة وهى تتجوّل خلال حدائق العالم السُّفلى الجميلة التنسيق إذ قطفت رمانة من غصن شجرة دانٍ ، وأخذت منها ــ بعد نزع قشرتها ــ سبع حبّات امتصت عصارتها ، وكان الذى رآها تفعل ذلك هو أسكالافوس الذى يقال إن الحورية « أورفنيه » قد أنجبته من زوجها إله النهر أخيرون منذ زمن بعيد فى غابات أڤيرنوس الكثيفة الظلال ، فأذاع النبأ ساعة رأى پروسيرپينا تتناول

حبّات الرمان ، فحال بفعلته القاسية بينها وبين العودة إلى الأرض . وهنا أطلقت ملكة إريبوس [العالم السفلى] زفرة يائسة ومسخت الواشى طائراً مشئوماً ، إذ نثرت على رأسه قطرات من ماء نهر فليجيثون الذى يجرى فى العالم السُّفلى وأنبتت له منقاراً وريشاً وعينين واسعتين ، ففقد شكله الآدمى واكتسى بجناحين سمراوين ، وعَظُم حجم رأسه ، وطالت أظافره وتحوّلت مخالب معقوفة ، وبدأ يجهد كى يحرك الرّيش الذى نبت على ذراعيه المتراخيتين . لقد صار طيراً تثير رؤيته النفور وتنذر بوقوع الكوارث هو طير البوم الكسول نذير الشؤم عند البشر .

ولقد بدا عقاب أسكالافوس جزاء وفاقاً لوشايته ، ولكن ماذا حدث حتى اكتست أجساد بنات أخيلووس بالريش وبرزت لهن مخالب كالطيور بينما احتفظن بوجوههن البشرية ؟ أكان ذلك لغنائكن الرخيم فى رفقة پروسيرپينا حينما كانت تقطف أزهار الربيع أيتها السيرينات الحكيمات ؟ فلما بحثتنّ عنها فى ربوع الأرض سُدى توسلتنّ إلى الآلهة أن تزوّدكنّ بأجنحة تخفقن بها فوق البحار حتى تُشهدنها على لهفتكنّ عليها . واستجابت الآلهة لتوسلكنّ ، وفجأة وجدتنّ أطرافكنّ تكتسى بالريش الذهبى ، ولكن بقيت أغانيكنّ المرنّمة تُطْرب الآذان ، وبقيت فى أفواهكن الألسنة البشرية بقُدرتها على الغناء ، فاحتفظتنّ بوجوه العذارى وبصوت الأناسى .

ومع ذلك تدخّل چوپيتر ليحكم بين أخيه وشقيقته الحزينة ، وقسّم العام إلى قسمين متساويين حتى تستطيع الإلهة التى بسطت نفوذها على عالمين ، أن تمضى مع أمها من العام ذلك العدد من الشهور الذى تقضيه مع زوجها . وما أسرع ما تبدّل وجه سيريس ومزاجها ، وأشرق جبين الإلهة الذى كان معتماً فى عينى پلوتو نفسه وتألّقت الفرحة عليه ، وكأنه الشمس التى حجبتها السحب الحبلى بمياه الأمطار حينما تخرج منتصرة من بين الغيوم .

آريثُوزا وترِيپْتُولِيمُوس

وبعد أن استعادت سيريس الحنون مرحها بعودة ابنتها عادت فسألت عن سبب هروب آريثوزا وتحوّلها إلى ينبوع مقدس ، فهدأت مياه الينبوع عندما أخرجت الحورية رأسها منه ، ثم جفّفت شعرها الأخضر بيدها وأخذت تروى قصة الشوق القديم لنهر إقليم إيليس قائلة :

كنت إحدى الحوريات الساكنات فى « آخايا » ، ولم تكن بينهن من تفوقنى هياماً بالتجوال فى الغابات ونصب شباك الصيد . ومع التفاتى للعمل وقعودى عن البحث وراء الشهرة بالجمال إلّا أننى كنت أُنادَى فى كل مكان بآريثوزا الجميلة ، ولم أكن أسعد بالمديح الذى كان يُكال لقسمات وجهى عن طيب خاطر ،

وكنت أخجل من ذكر مفاتن الجسد التى كانت الفتيات الأخريات يفخرن بها ، بل كنت أعتقد أن من الجرم محاولة تحريك إعجاب الرجال .

وكنت ذات يوم عائدة من غابة « ستيمفالوس »[٢٧] مُرهَقة وسط قيظ ضاعف من وطأة الإجهاد الذى نال منى ، فأويتُ إلى جدول هادىء كدتُ لصفاء مياهه أن أعدّ حبات الحصى التى بقاعه ، فمياهه تجرى بطيئة حتى يخيّل إليك أنها ساكنة ، وتظلّل ضفافه المنحدرة أشجار الصفصاف الفضية وأشجار الحور التى ترتوى من مياهه . واقتربت من الجدول وغمست قدمى فى مجراه ثم ساقى حتى ركبتى ، ولم أقنع بذلك بل خلعت ثيابى وعلّقتها على شجرة صفصاف متطامنة وألقيت بجسدى العارى فى الماء ، وبينا كنت أسبح فى دائرة محكمة أضرب الماء بساعدى حينا وأدور حينا آخر أحسستُ بزمجرة وسط البركة ألقت الرعب فى
٦٠٠ نفسى فقفزت إلى أقرب مكان على الشاطىء ، وعندئذ صاح ألفيوس : « إلى أين تُسرعين بالهرب يا آريثوزا ؟ » ثم كرّر القول بصوت أجش « إلى أين تهربين مسرعة هكذا ؟ » . وقد اضطررت إلى الفرار عارية ، إذ كانت ثيابى معلّقة على الضفة الأخرى ، فزاد لهيب شوقه إلىّ خلال مطاردته لى ، وقد ضاعف عُرْيى من إغرائه فأصرّ على اغتصابى ، وكنت أعدو فيُسرع فى العَدْو ورائى وكأنى حمامة تنطلق مرتجفة بين يدى صقر يقترب منها رويداً رويداً .

وعدوتُ تحت أسوار « أورخومينوس »[٢٨] وبجوار مدينة « پسوفيس »[٢٩] حتى بلغت جبل « سيلليني » ثم مراعى جبل « مينالوس » وجبل « إريمانثوس » الندىّ ومدينة « إيليس »[٣٠] ، واستمر يطاردنى دون أن تقلّ سرعتى عن سرعته ، غير أننى بدأت بعد فترة أفقد قدرتى على الاحتفاظ بسرعتى دون أن يفقد هو قدرته ، ومع ذلك ظللتُ أعدو على سفوح الجبال وفى بسيط الوادى وفوق الصخور والأحجار حيث لا طريق مُعبَّد . وكانت الشمس ورائى فرأيت ظلاً طويلاً يمتد أمام قدمى ، فحسبتُ الخوفَ هو الذى صوّر لى ذلك ، غير أنه كان من المؤكد أن وقع أقدامه كان يخيفنى . وقد كان يلهث بشدة جعلت
٦٢٠ أنفاسه تحرّك خصلات شعرى ، حتى إذا حلّ بى التعب من جهد العَدْو ناديتُ صائحة « أدركينى بعونك يا « ديانا » فقد أُحيط بى ، أنقذى حارسة أسلحتك التى عهدت إليها المرة تلو المرة بحمل قوسك وسهامك داخل جعبتك التى قد شُدّ وَثاقُها » . وبلغت كلماتى قلبَ الربّة فساقت غمامة كثيفة ألقت بها علىّ ، وإذ غطّتنى الغمامة توقّف النهر حائراً لا يدرى أين اختفيت ، وصاح بى مناديا : « أريثوزا أين أنت يا آريثوزا » وكرّر نداءه لى ولكن هيهات ! يا للهزّة التى اعترتنى ساعتها . لقد كنت كالحَمَل يسمع عواء الذئاب المحيطة بحظيرته ، أو كالأرنب البرّى المختبىء بين الأشواك يرقب أنياب خصومه من الكلاب دون أن يجسر على الحركة . ولم ينسحب ألفيوس من مكانه لأنه لم ير آثار أقدام تتجاوز هذا المكان ، وظل يرقب البقعة التى تغطّيها الغمامة . وانبثق العرقُ البارد يغطّى أطرافى ويكسو جسدى كله بقطرات لازوردية ، وحيثما كنت أحرّك قدمى كانت تنفجر من تحتها مياه ينبوع ، وتقاطر النّدى من شعرى ، وتحوّلتُ فى أقصر من هذا الوقت الذى أقص فيه قصتى إلى ينبوع . غير أن النهر تعرّف من هذه المياه على آسرة قلبه فنزع عنه صورته البشرية التى كان قد تخفّى فيها واستعاد صورته السائلة لكى يمزج مياهه بمياهى ، غير أن عذراء

ديلوس [ديانا] شقّت الأرض من تحتى فألقيت بنفسى بين كهوفها المظلمة حتى وصلت إلى « أورتيجيا »[٣١] ، تلك البلاد العزيزة علىّ لأنها تحمل اسم الربّة التى استطاعت قبل غيرها أن ترفعنى من باطن الأرض إلى سطحها تحت قبة السماء » .

وبعد أن انتهت « أريثوزا » من قصتها ، شدّت ربة الخصوبة تنّينين إلى مركبتها وثبّتت شكيمة العنان فى خطميهما ، واندفعت إلى الفضاء بين السماء والأرض قاصدة مدينة « پاللاس » حيث عهدت بمركبتها إلى تريپتوليموس ، وأسلمته بذوراً أمرته أن ينثر بعضها فى الأرض البكر التى لم تُفلَحْ من قبل قط ، وأن ينثر الباقى فى الأراضى البور ، فحلّق الصبى عالياً فوق أوروپا وبلاد آسيا ، ثم اتجه صوب مملكة سكوثيا حيث كان يرتقى عرشها الملك « لينكوس » . وحين دخل القصر الملكى سألوه عن اسمه وبلده وعن مجيئه وسببه ، فأجاب قائلاً : « اسمى تريپتوليموس وموطنى « أثينا » ولم أجىء بالبحر ولا بالبرّ فما سرتُ على قدمى ولا صعدتُ سطح سفينة ، وإنما كانت السماء طريقى . لقد جئتُ حاملاً معى هدايا سيريس التى ما تكاد تُنثر فوق الحقول الشاسعة حتى تُثمر حصاداً وفيراً وغذاء شهيّاً » . وسرعان ما أكلت الغيرة قلب ذلك الملك الهمجى الذى كان يأمل أن يُنسب له منح البشرية هذه الهبة ، واستضاف الصبى تريپتوليموس حتى إذا أخذ يغط فى النوم هاجمه بسيفه ، غير أنه لم يكد يُقْدم على تمزيق صدر الصبىّ حتى مسخت سيريس هذا السفّاح فهداً جاحظ العينين[٣٢] ، ثم أمرت الصبى الأثينى أن يعتلى مركبته المقدسة ويمضى فى رحلته عبر الأجواء » .

بهذه الكلمات ختمت « كاليوپى » أكبر ربّات الفنون من بيننا سنّاً أنشودتها التى فرغت الآن من إلقائها عليكن ، وأعلنت الحوريات مجتمعات فوز ربّات هليكون ، فأخذت غريماتنا المنهزمات يقذفننا بالسّباب ، فقالت لهن كاليوپى : « إذ كنتن لم تقنعن بهزيمتكنّ التى كانت ثمرة تطاولكنّ ، وأخذتن تُضِفن إلى خطئكن الاعتداء علينا بالسّباب ، وإذ كان صبرُنا ذا حدود ، فسوف نُنزل بكن عقاباً نُطلق فيه العنان لغضبنا عليكن » . فضحكت النساء المقدونيات ساخرات بهذا الوعيد والتهديد ، غير أنهن ما لبثن أن شاهدن الريش يبزغ من أظافرهن ويغطى أذرعتهن ومازلن يثرثرن ويسخرن ، ونظر بعضهن إلى بعض وبقين يرقبن وجوههن وهى تتقلّص إلى مناقير صلبة ، وبمسخهن نشأت فصيلة جديدة أُضيفت إلى طيور الغابات . وعندما حاولن ضرب صدورهن إذا حركة أيديهن ترفعهن إلى السماء محلّقات فى الهواء . لقد تحوّلن إلى طيور العقعق ناشرى المخازى وأحاديث الإفك فى الغابات ، ومازلن بعد تحوّلهن إلى طيور محتفظات بقدرتهن على الكلام ، فما برحن يثرثرن دون أن تشبع رغبتهن الصاخبة فى الكلام .

التعقيبات

(١) فينيوس هو شقيق كيفيوس وابن بيلوس [انظر الكتاب الثالث] . وهو غير فينيوس الذى حرره أهل أرجوس من طيور الهاربيس (انظر الكتاب السابع) .

(٢) كان آمون يعبد على شكل كبش ، وعندما وحّد الإغريق بينه وبين « زيوس آمون » صوّروه دائماً بقرنى كبش .

(٣) القفاز هو « الكايستوس » المكون من عدة سيور جلدية تنفذ منها مسامير برونزية يلفها المصارعون والمجالدون والملاكمون حول قبضاتهم . وكانت مباريات الكايستوس من أخطر الألعاب اليونانية وأهمها . ولا يعد أحد المصارعين فائزاً إلا إذا قضى على حياة خصمه . وثمة وصف لهذه المباراة فى إلياذة هوميروس (٢٣ : ٦٥١ وما بعده) وفى إنيادة فرچيل بالكتاب الخامس (٤٢٦ وما بعده) .

(٤) نهر سينيبس هو نُهر صغير فى طرابلس ببرقة إلى جوار مدينة ليبتس ماجنا [لبدة الحالية] .

(٥) فزان الحالية .

(٦) أطلق اسم « منديس » على الجدى الذى يصور فى النقوش عادة على هيئة كبش يشبه آمون . وحين جاء هيرودوتوس إلى مصر ظنه الإله پان واكتشف عبادة هامة له بمدينة منديس بشمالى مصر . وأصبحت منديس خلال العصر البطلمى من أهم مدن القطر ، فقد لقب بطليموس الثانى نفسه بأنه ابن الجدى الحى العظيم الذى يسكن منديس ، بينما وُصفت الملكة أرسينوى الثانية بأنها عشيقة الجدى الحى العظيم ، الأمر الذى أدى إلى تأليهها . وقد عثر على نصب تذكارى تنص نقوشه على أن مقاطعة منديس كانت دون غيرها من المقاطعات معفاة من الضرائب ، بل لقد خصص كل دخلها لعبادة الإله الجدى .

(٧) خاوونيا فى شمال اليونان [إيپيروس الآن] .

(٨) الأنباط قوم من العرب قطنوا قديماً جنوبى فلسطين فى إقليم كانت عاصمته البتراء . وما أكثر ما استخدم الشعراء اللاتين هذا الاسم كناية عن الشعوب الشرقية .

(٩) انظر الكتاب الرابع : كان پوليديكتيس قد وقع فى غرام داناى وحاول أن يتخلص من ابنها پرسيوس بأن فرض عليه إتيان أفعال مستعصية منها قطع رأس الجورجونة . وسيريفوس جزيرة من جزر السيكلاديس = الكيكلاديس [جزر الأرخبيل] غربى جزيرة پاروس .

(١٠) پيلا مدينة فى مقدونية وأصبحت عاصمة لها فى عهد الملك فيليب الثانى ، وپايونيا منطقة جبلية شمالى مقدونيا .

(١١) ثيسپياى مدينة جنوبى غرب طيبة فى بويوتيا بها معبد مقدس لربات الفنون باق إلى اليوم .

(١٢) يخلط أوفيد عمداً بين الآلهة الإغريق والآلهة المصرية ، فالعملاق تيفويوس [تيفون] هو الروح الشريرة عند قدماء المصريين [سيث خصم أوزيريس] ، وزيوس هو آمون الإله الكبش ، وديونيسوس الإله الذى كرس له التيس هو منديس الإله الجدى ، وأرتميس هى باستت الإلهة القطة ، وهيرا هى إيزيس ذات قرون البقر ، وهرمس هو تحوت الإله على شكل أيبس . وكان الغراب طير أپوللو ، وكانت أفروديتى تشبه عشتاروت الآشورية .

(١٣) كاليوبى هى ربة الشعر الملحمى وفنون الخطابة .
(١٤) اسم لإيطاليا عند الرومان مشتق من أوزون بن أوديسيوس .

(١٥) پيلوروس وپاخينوس وليليبايوم هى الرؤوس الثلاثة البارزة من جزيرة صقلية ، يقع أولها فى الشرق وثانيها فى الجنوب وثالثها فى الغرب .

(١٦) قيل إن أينياس كان قد شيد لأمه ڤينوس معبداً بمنطقة إريكس غرب صقلية [وإريكس اسم مدينة وجبل فى آن واحد] .

(١٧) پيرسيفونى هى ابنة زيوس شقيق ملك العالم السفلى .
(١٨) مدينة « هِنّا » فى وسط صقلية وتدعى الآن « إنا » ، ويقال إن اختطاف هاديس لپروسيرپينا قد وقع بها .

(١٩) كان نهر الكايستر فى ليديا بآسيا الصغرى مشهوراً ببجعاته .
(٢٠) الپاليكى هما ابنان توأمان لجوپيتر من الحورية ثاليا كانا يعبدان كبطلين فى صقلية . أما برك الباليكى الكبريتية فكانت بين قطانيا وسراقوسه شرقى صقلية .
(٢١) سعى الباكخاداى على اسم باكخيس ، وكان فى الزمن الغابر ملكاً على كورنثه ، وقد هجرت هذه السلالة كورنثة إلى كل من صقلية حيث شيدوا سراقوسة ، وإلليريا حيث أسسوا أسرتها المالكة .

(٢٢) أنابيس اسم نهر صغير فى صقلية جنوبى سراقوسه .
(٢٣) ستليو هو نوع من السحالى : والنص غير واضح إذ أن الصفة المستخدمة بدلاً من الاسم تدل على أن البقع قد انتثرت فوق جسده وهو وصف دقيق للسحلية المدعوة ستليو ، وإن لم يذكر أوڤيد اسم السحلية صراحة فى النص .

(٢٤) ألفيوس هو نهر مشهور فى المورة يسرى جزء منه فى قاع الأرض .
(٢٥) پيزا بلدة فى إيليس قريبة من نهر ألفيوس ومدينة أوليمپيا حيث كانت تقام الألعاب الأوليمپية .

(٢٦) عندما وقع نهر ألفيوس فى غرام قناة أريثوزا فرت منه وسرت تحت الأرض فى المورة بل تحت قاع البحر حتى انبثقت من جديد فى صقلية .
(٢٧) ستيمفالوس اسم مدينة ونهر وبحيرة فى أركاديا اشتهرت بالطيور الجارحة ذات الريش الحديدى التى قضى عليها هرقل ضمن أعماله الخارقة .

(٢٨) أورخومينوس مدينة فى أركاديا غير مدينة فى بويوتيا شهيرة بنفس الاسم .
(٢٩) مدينة تحت سفح جبل إيريمانثوس على حدود أركاديا .

(٣٠) سيلليني ومينالوس وإريمانثوس جبال ثلاث فى شمال وجنوب وغرب أركاديا على التوالى ، وكانت إيليس أشهر مدن مقاطعة إيليس على ضفاف نهر پينيوس بالمورة بعد تدمير مدينة پيزا التى كانت أهم مدينة فى إيليس .

(٣١) كلمة تعنى جزيرة السمان ، وهى أحد أسماء جزيرة ديلوس التى ولدت بها « ديانا » .
(٣٢) نوع من فصيلة النمور أصغر حجماً وأجحظ عينا يسمى أيضاً الوشق .



پيكاسو : پالاس وأراخنى

الكتاب السادس

پاللاس وأراخنى

استمعت منيرڤا إلى هذه القصة مهلّلة لنشيد ربّات الفنون مُشِيدة بانتقامهن العادل ، ثم ناجت نفسها : « علينا ألا نقنع بإطرائنا للآخرين ، ولنكن نحن كذلك جديرين بإطراء الآخرين ، وألّا نترك أحداً ينال من ألوهيّتنا دون أن نُوقع به ما يستحقّه من عقاب » ، وذكرت وهى تناجى نفسها مصير

أراخنى ، تلك الفتاة الليدية التى تدّعى أنها لا تقل مهارة فى الغزل عنها . ولم تكن أراخنى عريقة الأصل غير أن مهارتها أكسبتها شهرة واسعة ، وكان أبوها إيدمون مواطناً من كولوفون يحترف صباغة الصوف التى كانت تعتمد على أرجوان الرُّخويات البحرية من فوكيا[1] . كما كانت أمها التى قضت نحبها من أصل لا يختلف كثيراً عن أصل زوجها ضعة . ومع ذلك فقد نالت ابنتها ــ التى وُلدت فى كوخ بسيط بقرية من قرى هيباييا الصغيرة ــ شُهرة طافت بأنحاء ليديا بفضل مهارتها فى حرفتها ، حتى أن حوريات الغابات كن يتركن مكانهن الأثير وسط كروم تيمولوس[2] ليشهدن أعمالها معجبات بها . كما كانت حوريات الماء يتركن نهر پاكتولوس[3] ليستمتعن بمشاهدة نسجيّاتها ، كما كنّ يتابعنها وهى تنسج ، فقد كانت شديدة البراعة فى إعداد خيوط الغزل بفتلها بأصابعها وتخليصها من العهن المنفوش وتشكيلها خيوطاً تلتف على المغزل الرفيع وهى تديره بإبهامها فى حذق ، وكذا كانت فائقة المهارة فى تطريز النسجيات .

وكان من المعروف أن الفتاة لقنت حرفتها على يدى الإلهة پالاس ، غير أنها كانت تنكر ذلك ، كما كان يغضبها أن يقال إنها لقنت حرفتها عن معلّمة ما مهما كانت مكانتها ، وتتحدّى الناس قائلة : « فلتأت پالاس ولتبارينى ، فإن هى فازت علىّ كان لها أن تفعل بى ما تشاء » .

وتنكّرت پالاس فى صورة عجوز وخط الشيب خصلاتها المستعارة المدلاة على صدغها ، وتوكّأت على عصا ومشت فى خطوات متثاقلة ، ثم بادرت أراخنى قائلة : « ليست الشيخوخة هى تلك الأعباء التى نضيق بها ، بل هى خبرة طويلة أفدناها على مرّ السنين ، وإنى أهيب بك أن تستمعى إلى نصيحتى : احرصى ما شئت أن يقال لك إنك أكثر البشر مهارة فى غزل الصوف ، ولكن احذرى أن تَتَحَدَّىْ طورك فتقرنى نفسك فى هذا الصدد بإلهة من الإلهات ، بل عليك أن تتوسّلى إليها لتغفر لك تطاولك عليها ، ولسوف تصفح عنك حين تطلبين إليها ذلك » . وطرحت أراخنى النسجيّة التى كانت فى يدها ، وحدجت المرأة العجوز بنظرة غاضبة وهى مقطّبة الجبين وأجابت ثائرة دون أن تعرف أنها الإلهة : « أراك قد بلغت من العمر أرذله ، وهذا ما يعيبك . لقد أوهنتك الشيخوخة وأضعفت مداركك ، فإن كانت لك بنات أو زوجات أبناء فادّخرى لهن نصائحك لأنى قادرة وحدى على رعاية مصالحى ، ولا تخالى أن تحذيراتك سوف يكون لها أثر فى نفسى فإننى مازلت عند رأيى ، لماذا لا تأتينى پالاس نفسها فتطاولنى ، ولماذا تتهرّب من مباراتى ؟ » وحينئذ صاحت الإلهة بعد أن خلعت عن نفسها صورة المرأة العجوز وتبدّت فى صورتها الإلهية : « ها هى ذى الإلهة قد أتت » ، فركعت الحوريات ونساء ميجدونيا إجلالاً للإلهة وقد ملكهن الروع إلا أراخنى التى ظلّت فى مكانها لم تركع ، وإن كانت قد احمرّت وجنتاها فجأة غير أنها ما لبثت أن انقشعت عنها تلك الحُمرة ، كما يفعل الفجر عند بزوغه بالأجواء إذ يكسوها احمراراً لا يلبث أن يُزايلها فتُصبح مع نور الشروق ناصعة البياض . وقد صممت أراخنى متطلّعة إلى الفوز الذى صوّرت لها رعونتها أنها ظافرة به ، ولم تضف ابنة چوپيتر تحذيراً بل قبلت التحدّى غير مُرْجئة البدء فى المباراة ، وأخذت كل منهما ، هى وأراخنى ، مكانها فى أحد أركان الغرفة ، وبسطت كل منهما السُّدى فى النول بعد أن أسندت إطاره إلى عوارض السقف ، ثم فصلت الخيوط المشدودة إلى صفّين بالدرق الخاص بتحريك السُّدى ،

وأخذتا تقذفان الوشيجة [المكوك المدبّب] بأنامل سريعة سرعة الطير المحلّق فى الهواء وتنسجان به خيوط اللُّحمة عبر خيوط السُّدى ، وكلما امتد خيط عرضى اندفع المشط بأسنانه العديدة ليثبّته مكانه . وكانتا قد جمعتا ثيابهما بمنطقة فوق خصريهما ، بينما تُخفى حركة أيديهما العَجْلى الإرهاق الذى تشعران به من فرط جهدهما المبذول فى سبيل الفوز ، واستخدمتا خيوطاً مصبوغة فى دنان « صُورْ » البرونزية باللون الأرجوانى وبألوان أكثر قتامة يتميّز الواحد عن الآخر بظلال شاحبة ، كألوان قوس قزح التى تنعكس فى قبة السماء بعد هطول الأمطار والتى تتقارب ظلالها لتشكّل أخيراً ذلك التنوّع من الألوان الزاهية ، وتنتقل العين من أحدها إلى الآخر دون أن تميّز الفاصل بين كل لونين لتمام تشابهما عند هذه الفواصل ، ومع ذلك فهى مختلفة متمايزة عند أطرافها . وقد أضافتا إلى النسيج خيوط القصب وأخذتا فى رسم الأساطير على نسجيتيهما .

ورسمت پاللاس فى نسجيتها صخرة مارس تعلو قلعة كيكروپس بأثينا والمباراة التى جرت قديماً لإطلاق اسم أثينا أو نپتون على هذه المدينة(٤) . وأجلست الآلهة الإثنى عشر فى جلال وشموخ فوق عروشهم العالية يتوسطهم چوپيتر تحفّه مهابة الملوك ، بينما يتميز كل منهم بخصائصه ورموزه . وأظهرت پاللاس ربّ البحار نپتون واقفاً وقد شقّ جلاميد الصخر بحربته الطويلة ذات الشُّعَب الثلاثة ، فانبثق الجواد الوحشى من بين الصخر آية استحقاقه تسمية المدينة باسمه . كذلك صوّرت پاللاس نفسها فى النسجيّة ممسكة بترسها ، حاملة رمحها الحاد واضعة خوذتها على رأسها ، مغطّية صدرها بزردها ، مثبّتة شجرة زيتون شاحبة الأوراق حيث ضربت الأرض برمحها أمام الآلهة المأخوذين بتلك المعجزة وهم يحملقون معجبين ، كما صوّرت « ربة النّصر » مكللّة بها نسجيتها(٥) .

وقد شاءت الإلهة إثارة الندم فى صدر منافستها على جسارتها الطائشة ، والإيحاء إليها بما ينتظرها من عقاب ، فأضافت إلى النسجية صور مباريات أربع أخرى ، جعلت كل واحدة منها فى ركن من أركان النسجية ، وجعلتها تتميّز بألوان صارخة مع تصغير شخوصها : فصوّرت فى الركن الأول مباراة هايموس ورودوپى من طراقيا ، وكانا من البشر وتسمّيا باسمى كبيرى الآلهة فتحوّلا إلى جبلين(٦) . وفى ركن ثان صوّرت المصير التعس الذى لاقته ملكة الأقزام(٧) حين تحدّت الإلهة چونو فأدّبتها وحوّلتها إلى طائر كركى وحكمت عليها أن تعلن الحرب على قومها(٨) . وفى الركن الثالث صوّرت پاللاس أنتيجونى(٩) التى جرؤت على منافسة شريكة عرش چوپيتر العظيم فحوّلتها چونو إلى طائر دون أن يستطيع ردّ هذا القضاء عنها والدها لاوميدون ولا مدينتها طروادة ، وقد أنبتت لها الإلهة جناحين فى ظهرها ناصعى البياض فأضحت طائر لقلق تقعقع بشقّى منقارها زهواً . وفى الزاوية الأخيرة طرّزت پاللاس صورة سنيراس(١٠) بعد فقده بناته محتضناً درجات سلّم المعبد التى كانت فى الماضى أعضاء أجساد بناته ، وهو يبكى جاثماً فوق الأحجار . وزيّنت پاللاس حوافى النسجية بأغصان الزيتون المجدولة رمز السلام ، وكانت خاتمة عملها تصوير شجرة الزيتون المرتبطة باسمها .

أما أراخنى فقد صوّرت فى نسجيتها أوروپا حين خدعها چوپيتر متخفّيا فى هيئة ثور ، وجعلت الحياة تنبض فى الثور والأمواج حتى ليحسبها الرائى أمواجاً حقيقية ، بينما استدارت أوروپا إلى الوراء نحو

الشاطىء الذى خلّفته وهى تصيح برفيقاتها وترفع قدميها فى براءة خوفاً من أن يبللّهما الماء المتدفق . كذلك صوّرت فى النسجية أستيرييه[11] وقد قبض عليها النسر بمخالبه وأخمد مقاومتها ، كما صوّرت ليدا مضطجعة تحت جناحى طائر البجع ، وأضافت صورة أخرى لجوبيتر متخفّيا فى هيئة ساتير ليُخصب أنتيوپى الأميرة الجميلة ابنة نيكتيوس توأمين اثنين ، ثم متنكراً فى ملامح أمفيتريون ليحتضنك يا ملكة تيرينت ، ومتشكلاً فى شؤبوب قطرات الذهب ليُغرى داناى ، وفى صورة ألسنة لهب من أجل ابنة أسوپوس ، وفى شكل راع من أجل منيموزينيه ، وفى ثوب حية رقطاء من أجل پروسيرپينا ابنة سيريس ، كما صوّرتك أنت كذلك يا نپتون وقد تخفّيت فى هيئة ثور مفترس تمتطى إبنة أيولوس العذراء ، ثم وأنت فى صورة إينيپيوس تضاجع زوجة ألويوس وتوُلدها توأمين ، وكذا وأنت تخدع إبنة بيزالتيس فى صورة كبش ، ثم وأنت فى صورة جواد تحنو على ربة الحصاد الخيِّرة ذات الشعر الذهبى ، وأخيراً وأنت على هيئة درفيل تضاجع ميلانثو ، ثم فى هيئة طائر تلهث معتلياً الأميرة ذات الشعر الثعبانى أم الجواد المجنّح . وكما صوّرت الشخصيات بدقة كذلك صوّرت الأماكن تتفق والأحداث ، حيث نرى فويبوس فى ثياب فلاح ثم فى ريش صقر تارة وفى جلد أسد تارة أخرى ، وفى هيئة راع يغازل إيسيه ابنة مكاريوس[12] ، كما نرى باكخوس يغتصب إريجونى خادعاً إياها فى صورة عنقود من العنب ، ثم ساتورنوس [كرونوس] بعد أن تحوّل إلى جواد لينجب خيرون ذا الطبيعة المزدوجة[13] . وقد طرزت أراخنى حوافى النسجية بزهور متشابكة مع أغصان لبلاب رخو .

لم تستطع پالاس ولا ربة الحسد أن تكتشفا عيباً فى نسجية أراخنى فتملّك الإلهة العذراء الشقراء غضب عارم لتفوّق منافستها ، فمزّقت النسجية التى تسجل نزوات الأرباب الآثمة ، ثم أمسكت بالوشيجة المصنوعة من خشب أشجار جبل كيتوروس[14] وهوت بها مرات ثلاث على جبهة أراخنى إبنة إيدمون وأتبعتها بضربة رابعة . وضاق صدر أراخنى بهذا الفعل المهين فلفّت فى عنف حول عنقها حبلاً شنقت به نفسها ، ورأتها پالاس معلّقة من عنقها فأشفقت عليها وقالت لها : فلتدومى حيّة ، ولكن معلّقة فى الهواء إلى الأبد ، ولا تعقدى عَلىّ أملاً بعدُ ، إذ سيكون هذا مصير أبنائك وأحفادك من بعدك » . ثم أخذت فى الابتعاد بعد أن نثرت على أراخنى عصارة عشب مقدس لهيكاتى ، وما كادت عصارة هذا العشب السام تلمسها حتى تساقط شعرها وضمر أنفها وأذناها ورأسها وبقية أطرافها وبرزت فى جنبيها أصابع دقيقة بدلاً من سيقانها ، ولم يبق منها إلاّ بطنها ينساب منها الخيط . وها هى ذى تصل نسيجها كما كانت تفعل من قبل ، وإذا هى تصبح عنكبوتاً .

نيوبى

أثار أهل ليديا نبأ هذا الحادث وأفزعهم ، ولم تلبث هذه المأساة أن بلغت أسماع الناس فى أنحاء فريچيا ، وانتشرت حتى غدت حديث العالم كله .

وكانت نيوبى تعرف أراخنى منذ زمن طويل وتعيش قبل زواجها فى ميونيا على جبل سيبيلوس[١٥] ، غير أنها لم تتّعظ بما حاق بأراخنى التى لم تكن تقدّس الإلهة حقّ التقديس . وقد جعلت هى الأخرى تتطاول على الآلهة ، وكانت تملك الكثير من أسباب الغرور ، غير أنها لم تكن تفخر بمواهب زوجها ولا نبل محتده ومحتدها ولا بقوة مملكتها وعظمتها بل كان تباهيها بكثرة أبنائها ، ولولا جهرها بأنها أسعد الأمهات ما شاع عنها ذلك . وذات يوم اندفعت إلى الطرقات مانتو ابنة تيريزياس التى كانت تتنبأ بالمستقبل يحدوها إلهام
١٦٠ إلهى ، وأخذت تصيح : « يا نساء طيبة ، يا قاطنات شط نهر إيزمينوس ، توّجن رءوسكن بالأكاليل ، وتجمّعن حول المحاريب ، وقدّمن القرابين وأحرقن البخور ، وتضرّعن للربة لاتو وولديها الاثنين ، ذلك أمر إلهى أُجرى على لسانى » . وخرجت نساء طيبة متوّجات الرأس إلى المحاريب المقدسة يقدّمن القرابين ، ويحرقن البخور ، ويتضرّعن للربة لاتو .

وأقبلت نيوبى فى رهط من وصيفاتها ، مرتدية ثوبها الفريجى المنسوج من خيوط القصب الذى اجتذبت به كل الأنظار . وكانت وهى فى ثيابها الفاخرة رائعة الفتنة لولا مسحة من الغضب تشوب جمالها ، تلقى برأسها إلى الوراء ، وتنسدل خصلات شعرها طليقة على كتفيها ، ووقفت مُنتصبة القامة تلقى بنظرة مترعة كبرياء وغضباً ، ثم صاحت : « ما هذا النزق ! ما لكنّ ولآلهة من السماء ــ سمعتن عنها ولم تشهدنها ــ تُقدِّمن لها كل هذا التكريم الذى يفوق ما تقدمنه لمن ترونها بعيونكن . كيف تضرعن للربة لاتو أمام المحاريب التى أقمتنّها تكريماً لها ، وأنتن لم تحرقن حتى اليوم بخوراً لتكريم ألوهيتى ؟ إن أبى تانتالوس هو وحده من بين البشر الذى أُذن له بالجلوس على مائدة الآلهة ، وأمى شقيقة البلياديس ، وجدّى هو أطلس الجبّار الذى يحمل قبة السماء على كتفيه ، وجدّى الآخر هو جوبيتر الذى هو أيضاً والد زوجى . ثم
١٨٠ إن شعوب فريجيا تدين لى بالولاء ، وأنا أحكم مع زوجى أمفيون المدينة التى تجمّعت أجزاء أسوارها بسحر أنغام قيثارة زوجى[١٦] ، وأنا كذلك سيدة قصر كادموس الملكى ، وأينما خطوت فى دارى وقع طرفى على ثراء بغير حدود . ثم إننى بعد هذا جميلة جمال الإلهات ، ولى سبعة أبناء وسبع بنات ، وعما قريب سيكون لى عددهم زوجات أبناء وأزواج بنات ، فهذا هو مجدى الذى أزهو به . أَوَ تجرأن بعد ذلك على أن تفضّلن علىّ إبنة مارد يسمى كويوس[١٧] ، تلك الربة لاتو التى تعرفن أن الأرض الفسيحة رفضت أن تمنحها رقعة ضئيلة لتكون لها مأوى حين أوشكت أن تضع جنينها . لقد نبذت السموات والأرض والبحار تلك الإلهة التى تعبدونها حتى أشفقت عليها [جزيرة] ديلوس وقدّمت لها مأواها قائلة : « إنك تضربين فى الأرض على غير هدى ، كما أضرب أنا فى البحار » ، ومنحتها الجزيرة مأوى تستقر فيه حيث وضعت لاتو توأمين . ولقد أنجبت أنا سبعة أضعاف ما أنجبت ، فأنا سعيدة الحظ ، لا يمكن لأحد أن ينكر سعادتى ، وسأبقى سعيدة لا يملك أحد أن يشكّك فى ذلك . إن وفرة النعم التى أحظى بها تمنحنى أماناً وتحمينى من غوائل ربة الحظ « فورتونا » ، فسيتبقى لى دوماً أكثر مما تسلبنى ، وإننى أملك الكثير الذى لا يترك لى مجالاً للخوف .
٢٠٠ ولنفترض أنه انتُزع منى بعض أولادى ، فإن أنا فقدتهم فسيبقى لى أكثر من مجموع أسرة لاتو التى لا تتميز عن المرأة العقيم إلاّ قليلاً . ألا فلتكففن عن تقديم هذه القرابين ، ولتخلعن عن رءوسكن هذه

الأكاليل » . وأطاعت النساء فخلعن أكاليلهن وانصرفن قبل إتمام الطقوس ، وإن لم تستطع نيوبى أن تحُول بينهن وبين أن يهمسن بالشكوى والتضرع للربة لاتو .

استبد الحنق بلاتو فوقفت على قمة جبل سينتوس تستعدى ولديها أپوللو وديانا قائلة : « ها أنذا أمكما المزهوة بكما والتالية لجونو نفسها فى المرتبة ، فيأتى اليوم من يثير الشك حول ألوهيتى . ها أنذا يا ولدىّ أجد من ينحّينى عن المحاريب التى عبدتنى فيها الأجيال إن لم تبادرا بتقديم العون لى . وليس ذلك وحده ما يثيرنى ، فقد أضافت ابنة تانتالوس إلى كفرها بالمقدسات إهانتى حين جرؤت وادّعت بأن أسرتها تعلو شأناً عن أسرتى واتهامى بأننى عقيم [ألا فلتصبح هى العقيم] . لقد كشفت عن كُفرها بالمقدسات كأبيها » . وانطلقت لاتو تتابع شكواها وتواصل رجاءها لولا مقاطعة أپوللو لها بقوله : « كفى ! فكلما أرخيت لنفسك فى الشكوى عوّقنا هذا عن المضى فى توقيع العقاب عليها » وكانت أخته معه على هذا الرأى ، فأسرعا محلقين فى الفضاء واختفيا فى السحب حتى بلغا قلعة كادموس .

وكان هناك سهل فسيح خارج الأسوار تدبّ فيه الخيل فى حركة متصلة ، وقد أفسدت حوافر الجياد ومرور العربات العشب الأخضر النامى على سطح السهل ، وكان بعض أبناء أمفيون السبعة يمتطون ظهور جيادهم المطهمة المغطاة بأكسية من نسيج صور الأرجوانى ويقبضون على أعنّة الخيل الذهبية . وكان الأمير إسمينوس أكبر أبناء نيوبى يدور بجواده قابضاً عليه فى ثقة حين ندت عنه صرخة مدوية بينما انغرس سهم فى صدره ، فسقط مِقْود الفرس من بين يديه وهو يئن قائلاً « يا ويلتاه » ، وعاجله الموت فانزلق عن صهوة الجواد حتى سقط على الأرض . وكان سيپيلوس الابن التالى قد سمع خشخشة جعبة سهام فأطلق العنان لجواده كما يفعل ربّان السفينة حين يلمح سحب العاصفة فينشر أشرعته كلها حتى لا تفوته من الريح هبّة . غير أن انطلاق سيپيلوس لم يمنع السهم من أن يصيبه فى أعلى عنقه وينفذ من حلقه ، فيسقط من فوق جواده ويتقلّب بين حوافره الحادة ويخضّب الأرض بدمائه الدافئة . وكان فيديموس التعس وتانتالوس الذى ورث اسم جدّه قد ذهبا إلى رياضتهما اليومية التى يتصارعان فيها وقد تعانقا داهنين جسديهما بالزيت حين أصابهما سهم واحد اخترق صدريهما معاً وهما ملتصقان ، فأخذا يئنّان ألماً وسقطا على الأرض متعانقين ولفظا معاً نفسيهما الأخيرين . وحين رآهما أخوهما ألفينور أسرع إليهما ، وما كاد يرفع ذراعيهما ليتبين الأمر حتى أصابه هو الآخر سهم انتزع قطعة من رئته فتدفقت من جسده الدماء . ولم يهلك داماسيختون الذى لا عهد لشعره بالمقص من جرح واحد شأن أخواته بل أصيب أولاً فى عضلة ساقه ، وبينما كان يحاول إخراج السهم باذلاً كل قواه إذا بسهم آخر يصيبه فى حلقه ويغوص فيه فتفجّر الدم وكأنه نافورة . وأخيراً رفع إيليونيوس آخر الأشقاء ذراعيه إلى السماء محرّكاً شفتيه بتوسلات ذهبت أدراج الريح قائلاً : « أيتها الآلهة ناشدتكم جميعاً الرحمة بى » [فقد كان يجهل عبث الابتهال إليهم] . وتأثر أپوللو حامل القوس وأخذته الشفقة به بعد ما انفلت السهم الذى أصماه فجعل السهم رفيقاً فليل الإيلام لم ينفذ إلى أعماق قلبه .

وحملت الأحزان المرتسمة على الأوجه والدموع المنسابة من عيون الأقارب أنباء الكارثة المفاجئة إلى نيوبى التى أذهلها أن يكون بين الآلهة من يملك مثل هذه القوة الجبارة ويجسر على استخدامها على هذا

النحو ، وانتهت الكارثة بأمفيون وقد شهر سيفه وأغمده فى قلبه ليكون الموت خاتمة لحزنه على أبنائه .

ويلاه . كم تغيرت نيوبى بعد النكبة ! أهذه نيوبى المغرورة التى كانت تفضّ الناس من حول محاريب لاتو ، وتمضى مختالة وسط المدينة تشعل قلوب مواطنيها حقداً وضغينة . لقد غدت موضع الرثاء حتى من خصومها بعدما انحنت فوق جثث أبنائها التى غشيها برد الموت وأخذت تقبّلهم الواحد بعد الآخر ، ثم رفعت ذراعيها الشاحبتين إلى السماء وصاحت : « يحق لك أن تشمتى بى يا لاتو القاسية ، ولترو قلبك من دمعى ، افرحى ملء قلبك الوحشى ، فهذه الجنازات السبع ستوردنى إلى المحرقة مرات سبع . افرحى بنشوة النصر على غريمتك ، ولكن ما إخالك انتصرت فمازلت رغم كل شقائى أكثر ثراء منك ، وحتى مع فقدى من فقدت من أبنائى فمازال عندى المزيد » .

ولم تكد تنتهى من كلماتها حتى سُمع هزيم وتر قوس فزع الجميع له عدا نيوبى التى ضاعفت الكارثة من جسارتها . وكانت شقيقات الفتيان الموتى واقفات أمام النعوش فى ثياب الحداد بشعرهن المرسل على أكتافهن ، وإذا سهم يخترق أحشاء إحداهن ، وحين حاولت انتزاعه انكفأت فاقدة الروح فوق جثة شقيقها ، وكانت ثانية تواسى أمها فإذا هى تُصاب بطعنة خفيّة تفقد معها القدرة على النطق وينحنى عودها وتموت مطبقة شفتيها . وحاولت ثالثة الفرار فأدركها سهم أهلكها . وبينما احتمت شقيقة بأختها أدركهما الموت معاً ، وأخذت أخرى تحتضر مرتعشة . ومزقت نيوبى ثوبها بعد موت ستة من بناتها وحاولت حماية ابنتها السابعة بجسدها وصاحت : « فلتُبق لى واحدة هى صغرى بناتى اللاتى فقدتهن ، دعى لى هذه الصغرى فهى واحدة فحسب » . غير أن ابنتها الباقية أخذها الرّدى قبل أن تفرغ نيوبى من توسلاتها . وحين أصبحت نيوبى وحيدة تحيطها جثث أبنائها وبناتها وزوجها أحالها الحزن إلى حجر ، ولم يعد النسيم يحرك شعرها ، واختفى الدم من وجهها الذى فقد لونه ، ولم تعد ذراعاها ولا ساقاها تتحركان ، وجمدت عيناها فى محجريهما ، والتصق لسانها بحلقها ، وانغلق فمها صمتاً ، وتوقف النبض فى عودها ، وكذا تجمدت أمعاؤها ، غير أن دموعها بقيت تجرى كما كانت . وهبّ إعصار عنيف فحملها إلى موطنها(١٨) حيث حطّت فوق قمة جبل وأخذ الماء يتدفق منها . ومازال هذه الكتلة من الرخام تسكب الدموع حتى اليوم .

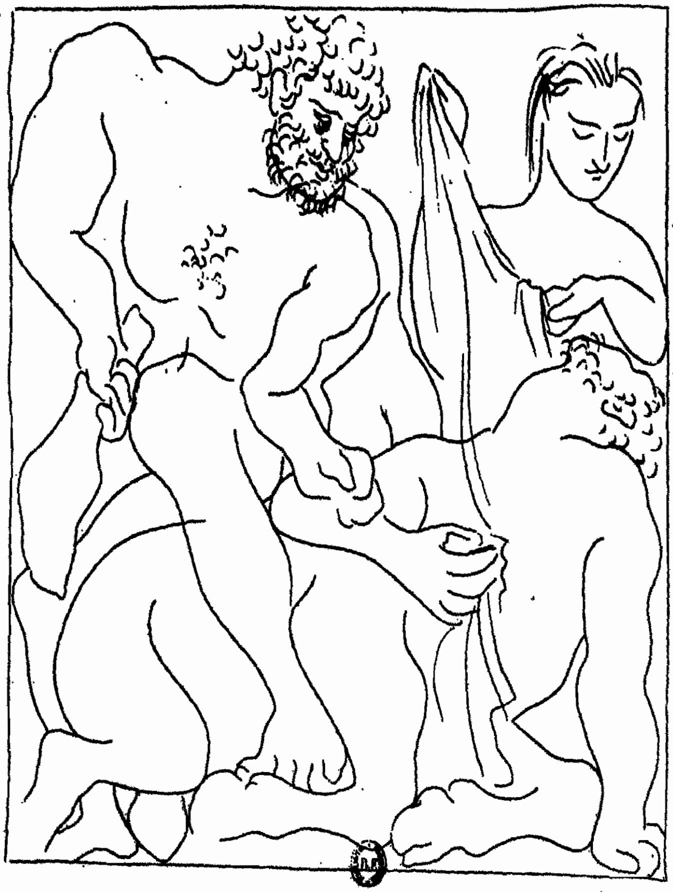
فلاّحو ليكيا

وأصيب الرجال والنساء بالذعر خوفاً من غضب الإلهة وأقبلوا خاشعين على عبادة لاتو أمّ التوأمين ، وأخذت هذه الحادثة تُحيى على ألسنتهم أقاصيص أحداث قديمة مشابهة كانوا قد أُنسوها . وحكى أحدهم : « كان يحيا فى قديم الزمان على أرض ليكيا الخصبة جماعة من الفلاحين الذين لم يقدموا للإلهة ما هى جديرة به من تكريم ، مثلهم فى ذلك مثل نيوبى فنالوا هم الآخرون جزاءهم . وقد بقيت قصتهم رغم

غرابتها مجهولة إلّا من قليل من الناس ، ولعل سبب ذلك هو ضعة أصل أبطالها . غير أنى كنت قد ذهبت إلى المستنقع الذى حدثت عنده المعجزة يوم طعن أبى فى السن ووهنت قواه ولم يعد يتحمل الأسفار فعهد إلىّ باجتلاب بعض الأبقار المنتقاة من تلك البلاد ، واختار لى قبل الرحيل دليلاً من أهلها ، وقد وقع بصرى فى أثناء مسيرتى خلال المراعى بصحبة هذا الرجل على محراب قديم قائم وسط بحيرة ، نبتت حوله أعواد الغاب التى علاها السّواد المنبعث من دخان النيران التى كانت تُشعل منذ القدم لطهى القرابين الذبيحة ، فتوقف الدليل وتمتم هامساً همس المؤمنين بالخرافات : « هلا رحمتنى » فانبريت أردّد همسه متعجباً ، ثم سألته عما إذا كان هذا المحراب قد أقيم تكريماً لحوريات الماء أم لفاونوس [پان] إله الغاب أم لغيره من آلهة المنطقة فروى لى دليلى القصة التالية :

لم يُشيّد هذا المحراب من أجل إله من آلهة الجبال أيها الفتى ، وإنما أقيم من أجل الإلهة التى منعتها چونو زوجة كبير الآلهة من الاستقرار على الأرض اليابسة ، ثم أشفقت عليها جزيرة ديلوس العائمة وقبلت إيواءها . وحين بلغتها لاتو استندت إلى جذع نخلة وأعانتها شجرة زيتون الربة پالاس على وضع طفليها التوأمين رغم كيد چونو زوجة أبيهما . ولم يكد الطفلان يخرجان للحياة حتى أكرهت چونو الغاضبة لاتو على ترك مأواها حاملة طفليها الإلهين على صدرها . وانتهى الأمر بلاتو أن وجدت نفسها تتجول فى بلاد ليسيا موطن الخيمايرا[١٩] ، حيث الشمس تحرق الحقول بأشعتها اللافحة وقد أنهكتها حرارتها وطول الرحلة وأحسّت بالظمأ هى وطفلاها اللذان كانا يمسكان ثدييها ويمتصانهما فى لهفة إلى آخر قطرة فيهما . وما لبثت أن لمحت بركة غير فسيحة بعيداً فى بطن الوادى كان على مقربة منها جماعة من الفلاحين يجمعون أعواد الغاب والسّعادى الغزيرة النمو فى مياه المستنقع . وحين اقتربت من البركة وانحنت عليها لتروى ظمأها من مائها النّدى حاول الفلاحون منعها فلم ترض الإلهة منهم ذلك وقالت لهم محتجةً : « كيف تمنعوننى أن أرِدَ هذا الماء وورود الماء حقٌ للجميع ؟ وما شاءت الطبيعة أن تخص واحداً دون الآخر بالشمس والهواء والمياه الجارية . لقد جئت لأستمتع بخير هو للجميع ، ومع ذلك فهاأنذا أركع متوسلة إليكم أن تمنحونى شيئاً من الماء ، فلست أتطلع إلى الاستحمام أو غسل أطرافى المرهقة فى هذه البركة ، وكل ما أرجوه هو إطفاء ظمئى ، فقد جفّ حلقى حتى لم أعد قادرة على الكلام وما يكاد صوتى ينطلق من حنجرتى ، ولسوف تكون جرعة الماء عندى بمثابة « النكتار » الإلهى ولسوف أدين لكم بإنقاذكم حياتى ، ولتأخذكم الشفقة بهذين الطفلين اللذين يمدّان أيديهما هما الآخرين متوسلين لكم ؟ [وكان الطفلان قد مدّا بالفعل ذراعيهما] » . ومن ذا الذى لا تؤثّر فيه توسلات الإلهة ؟ ومع ذلك بقى الفلاحون رغم توسلاتها متمسكين بمنعها عن الماء بل إنهم هدّدوها بما يروّعها ويرغمها على الخروج من المنطقة ، وكالوا لها الكثير من السباب ، ولم يقفوا عند هذا الحد بل أخذوا يعبثون فى ماء البحيرة بأيديهم وأقدامهم ويعكّرونه بإثارة الطين الراكد فى قاع البركة ، مدفوعين إلى ذلك بما فى طبعهم من حب للأذى . عندها غلب غضب لاتو عطشها ، ولم تعد راغبة مع سورة غضبها أن تبدّد وقتها سدى فى استعطاف قوم لا رِفْق عندهم أو فى استجدائهم شيئاً ما ، ورفعت يديها إلى السماء وصاحت بهم قائلة : « إذن فلتعيشوا إلى الأبد فى هذا

المستنقع » . واستجابت السماء لدعائها ، وإذا الفلاحون يقعون أسرى رغبة الغوص إلى أعماق الماء ثم الطفو على سطحه ، أو إخراج الرأس أو القفز حول الشط . ومع بقاء ألسنتهم سليطة اخشوشنت أصواتهم وانتفخت حلوقهم واتسعت أفواههم التى أطلقت السباب واختفت أعناقهم واتصلت رءوسهم بأكتافهم ، واخضرّ لون ظهورهم بينما ابيضّت بطونهم التى صارت أكبر أجزاء أجسادهم ، وتحوّلوا إلى ضفادع تقفز حول المستنقع المليء بالأوحال[٢٠] .



پيكاسو : أپوللو يسلخ مارسياس

مارسياس وپيلوپس

وإذ انتهى الراوى ـ الذى أجهل اسمه ـ من سرد أحداث هذه الكارثة التى حاقت بأهل ليكيا ، بدأ راوٍ آخر يسرد قصة « الساتير » الذى أودى به مزمار منيرڤا ذو القصبات[٢١] وعاقبه ابن لاتو [بسلخه حيًا] فصاح به مارسياس : « لماذا تنتزعنى من سِلْخِى ؟ كم أنا نادم على ما كان ، وهل تساوى هذه المنافسة فى نفخ المزمار هذا كله ! » . وبينما كان يصرخ جعل القوم ينتزعون جلده حتى تعرّى لحمه وأخذ ينزف دما ، وتبدّت عضلاته عارية للأعين كما ظهرت العروق نابضة بالدماء ، وانكشفت جميع أعضائه الداخلية وهى تخفق حتى بات من اليسير إحصاؤها ، وتخلل الضوء رئتيه ، وحزن عليه جان الغاب وأخوته الساتير والحوريات بل وأوليمپوس نفسه الذى ظل رغم كل شيء يحتفظ له بمكانته من قلبه ، وجميع رعاة الأغنام والأبقار . وارتوت الأرض الخصبة من الدموع التى سالت عليها فتشرّبتها حتى تفجّر من باطنها نبع تنبثق مياهه عالية فى الهواء ، ثم يهوى فيحفر لنفسه مجرى نهر جديد يتدفق منحدراً بين شاطئيه حتى يصب فى البحر المضطرب الموج . وقد عُرف هذا النهر الجديد باسم مارسياس أصفى أنهار فريچيا .

ولم يلبث الناس بعد سماع هذه الأقاصيص أن عادت إلى الكارثة المستولية على شعورهم باكين أمفيون الذى مات ومعه أفراد أسرته جميعاً وليس فى نفوسهم غير الغضب على الأم رغم بقائها وحيدة وسط جثث أبنائها وزوجها . ويروى البعض أن واحداً فقط من الرجال قد ذرف دون غيره الدمع من أجلها . وكان هذا الرجل هو پيلوپس الذى انتحب وشقّ ثوبه عن صدره حتى انكشف كتفه الذى صنعته الآلهة من عاج ، يوم هشّم أبوه أعضاء جسده ومزّقها إرباً إرباً وطوّح بها فجمعتها الآلهة بعد أن عثرت عليها جميعاً ، عدا تلك العظمة الممتدة بين العنق وأعلى الذراع ، فوضعت محلها قطعة عاج اكتمل بها جسد پيلوپس ، وإن أسفر ذلك عن اختلاف لون أحد كتفيه عن بقية أجزاء جسده .

پروكنى وفيلوميلا

وكان أن طالب سكان المدن القريبة حكامهم بالتوجه إلى طيبة لتقديم العزاء ، فتوافد عليها أمراء البلاد المجاورة من أرجوس واسپرطه وموكناى موطن أسرة پيلوپس ، وكاليدون التى أثارت فيها بعد حقد ديانا القاسية ، وأورخومينوس الخصبة وكورنثه الغنية بالبرونز ، وميسينى الجبارة وپاتراس وكليوناى المقهورة وپيلوس مدينة نيليوس ، وترويزن التى لم تكن قد خضعت بعد لپيثوس ، ثم المدن الأخرى المعزولة وراء البرزخ القائم بين بحرين ، والمدن التى عند البرزخ . وما كان أحد يخال أن أثينا هى وحدها التى تتخلّف عن المجيء ، فقد حالت الحرب بينها وبين أداء هذا الواجب ، إذ كانت جحافل البرابرة القادمة عبر البحر

تحاصر أسوارها وتلقى الرعب فى قلوب أهلها ، حتى خف لنجدتهم تيريوس من طراقيا وتعقّب بجيوشه العدو محققاً شهرة واسعة بالانتصار عليه .

وما إن اطمأن پانديون ملك أثينا إلى ثراء تيريوس وقوته وانحداره من سلالة الإله مارس الجبار حتى زوّجة من ابنته ، غير أن ربات الحسن وهيمين [إله الزواج] وجونو الموكول إليها مباركة الزيجات لم يحضرن حفلة الزفاف ، بينما أضاءت الصافحات [ربات الانتقام] طريق العروسين بمشاعل سرقتها من موكب جنائزى ، ثم هيّأن مخدع العرس . وأقبلت البومة المشئومة فحوّمت حول الدار وحطّت فوق سطح حجرة العرس ، وهكذا حلّ الشؤم عندما زُفّت پروكنى إلى تيريوس وأصبحا أبوين .

وابتهجت طراقيا ــ التى لم تكن تدرى بعد ما يتهدّدها ــ ، ورفع مليكها الشكر للآلهة ، وغدا يوم بناء إبنة پانديون بملك طراقيا ويوم ميلاد إبنهما إيتيس عطلة رسمية . ألا ما أكثر ما يغفل الناس عمّا سيحيق بهم ! . وبعد انقضاء خمسة أعوام سألت پروكنى زوجها متلطّفة : « إن كنت تحبنى حقاً دعنى أمضى لأرى شقيقتى ، وإلا فجىء بها إلىّ هنا وعِدْ أبى بأن بقاءها لن يطول بعيداً عن بلادها ، فلسوف تكون رؤيتى فيلوميلا خير ما تهديه لى » .

وأصدر تيريوس أوامره بإنزال سفينة إلى البحر يحرّكها الشّراع والمجداف ، ومضى بها حتى بلغ ميناء كيكروپس [أثينا] ونزل على شاطىء پيرايوس . وحينما دخل على حميه الملك وحيّا أحدهما الآخر ذكر تيريوس ما جاء من أجله وأخبره حديث زوجته ووعدها بأن غيبة شقيقة زوجته لن تطول إن أذن لها بزيارتها . عندها ظهرت فيلوميلا بجمالها الآسر مرتدية ثوباً فاخراً أشبه ما تكون بحوريات الماء وحوريات الغابات ، وما إن وقع بصر تيريوس عليها حتى اشتعلت الرغبة فى جسده واضطرمت فى فؤاده نار تحرق الغلال الذابلة أو أوراق الشجر الجافة أو مخازن التبن . والحق إن جمال فيلوميلا كان أخّاذا ، وضاعف من نزوة تيريوس فرط هذا الجمال ، فهو من بلدة يتميز أهلها بالضعف أمام إغراء مُتع ڤينوس . وقد خطر بباله ــ خلال لهفته ــ أن يرشو وصيفات الفتاة للحدّ من ولاء خادمتها الخاصة فيستعين بها كى تساعده فى إغوائها بهداياه الفاخرة ووضع كنوز مملكته تحت قدميها ، أو من يدرى فلعلها تيسّر له اختطافها والنّزوح بها بعيداً ، وعندها يستطيع أن يدافع عن غنيمته بكل ما يملك من أساليب ضارية ، وهو المتأهب دائماً لسحق أى شىء يعترض طريق رغباته الجامحة . وأحسّ أن قلبه أعجز ما يكون عن احتواء ما يتأجّج فيه من لهيب ، وأحسّ من فرط لهفته تباطؤ الزمن ، وراح يكرر خلال حديثه رسالة زوجته ملحفاً فى الرجاء على أنه رجاء زوجته وقد أكسبه الحب طلاقة لسان . وكان كلما تخطى فى حديثه الحدود اعتذر بأن تلك هى إرادة زوجته پروكنى ، وشفع حديثه بالدموع وكأن امرأته قد أوحت إليه بذلك . أيتها الآلهة ، ما أشد ما يعمى البشر ، لقد خال القوم فى إلحاحه الذى مكّنه من تحقيق خطته الشريرة لوناً من الوفاء لزوجته فامتدحوا فيه سلوكاً لم يكن فى الواقع إلا جُرماً . على أن فيلوميلا كانت هى الأخرى تشاركه اللهفة ، وحين رآها تعانق أباها مداعبة وتلفّ عنقه بذراعيها وتغمره بقبلاتها وتطلب منه أن يأذن لها بزيارة أختها ،

أخذ يتخيلها وكأنها تحتضنه هو وتقبله فإذا نيران رغبته تزداد اشتعالاً حتى أنه تمنى لو كان هو الوالد فى هذا
٤٨٠ الموقف . ولو أنه كان والدها ما كان إثمه يُربى على ما اقترفه بعد ذلك[٢٣] . وحين نزل الملك على إرادة ابنته غمر الفرح فيلوميلا فشكرت أباها ، وقد ظنت الفتاة البريئة أن قرار أبيها كان استجابة لرغبتها هى وأختها ، بينما كان مقدراً لهذا القرار أن يودى بهما معاً .

ومالت الشمس نحو المغيب حيث كانت جيادها تجرّ مركبتها على منحدرات الشفق ، ونُصبت الموائد الملكية ، وامتلأت الكئوس الذهبية بالخمر وانصرف المدعوون فى نهاية الحفل ليستسلموا لنوم هادىء ، عدا ملك طراقيا الذى بقى مؤرق الجفنين فى فراشه مصاباً بحمى حبه للأميرة ، مستعرضاً فى ذاكرته طلعتها ولفتاتها وذراعيها ، ذاهباً بخياله إلى تصوّر ما خفى من مفاتن جسدها .

وحينما انبلج نور الفجر ، وتأهب تيريوس للرحيل شدّ پانديون على كفّه دامع العينين موصياً إياه برعاية رفيقته فى السفر بقوله : « بنىّ العزيز ، لقد كان لرجائك الحارّ لى ما لم يدع أمامى فرصة للخيار ، وهاأنذا أعهد إليك بابنتى استجابة لرغبتها ولرغبتك ، وإنى مستحلفك بشرفك وبحق الآلهة وبحُرمة ما بيننا من روابط أن ترعاها رعاية الوالد ، وأن تعيدها لى فى أسرع وقت ممكن ، فهذه الفتاة الغالية هى
٥٠٠ مبعث بهجتى أيام شيخوختى ، ولسوف تطول ساعات غيابها على نفسى . وأنت يا فيلو ميلا عجّلى بعودتك إلىّ إن كنت تحبيننى ، وكفانى بُعد شقيقتك عنى » . ثم ختم وصاياه وقبّل ابنته قبلة الوداع باكياً فى صمت وضمّ يدها بيديه وكأنه يستوثق بوفائها بالعهد ، وحمّلها تحياته لابنته الغالية وحفيده الصغير ، وخنقت العبرات صوته فلم تعد كلمات وداعه تبين واختلطت أفكاره بنذير طالع مشئوم .

ولم تكد السفينة المزدانة بمختلف الألوان تبتعد عن الشاطىء حاملة فيلوميلا على سطحها حتى صاح الملك تيريوس : « يا للنصر الذى حققته ، ها أنا ذا أحمل معى تلك الفتاة التى طمعت فيها » ، وجعله إحساسه بالزهو يضيق بانتظار أفراحه ، ولم يستطع هذا الملك الهمجى أن يرفع عينيه عن غنيمته ، شأن النسر القابض بمخالبه على أرنب برّى يودعه وكره العالى ، ومضى القنّاص يحملق بعينيه فى فريسته التى سُدّت أمامها منافذ الفرار .

وأنهت السفينة رحلتها ، ونزل الملاّحون إلى شاطىء وطنهم منهكين ، وأسرع الملك باقتياد ابنة
٥٢٠ پانديون إلى حظيرة تحيط بها أسوار عالية تخفيها عن الأنظار وسط غابة عتيقة حيث حبسها هناك . وأخذت الفتاة تسأله عن مكان أختها وقد غلبها الذعر وشحب وجهها وتولتها الرِّعدة وهى تتوقع أن تحل بها المآسى ، ولكن تيريوس لم يحدّثها عن شقيقتها وإذا هو يكشف لها عن نواياه الدنسة ، ولم تستطع الفتاة العزلاء أن تقاوم ضراوته فأخذت تستغيث ولا مغيث صارخة باسم أبيها وأختها وكبار الآلهة وترعد خوفاً رعدة حمل صغير انتُزع من بين أنياب الذئب ذى الفروة الداكنة ودمه لايزال ينزف وهو غير مصدق أنه بات بمأمن ، أو كاليمامة رأت على ريشها دماً فغشيها الخوف وتزايد هلعها من الشرك الذى كان محدقاً بها . وحينما عاد إليها رشدها بعد قليل جعلت تمزق شعرها المنفوش وتضرب بيديها على صدرها كالمعولة على فقد

عزيز ، ثم مدت يديها صائحة فيه : « أيها الهجمى ، هل بعد هذا ذنب لم تقترفه أيها الوحش ، ألم تهز مشاعرك وصايا أبى التى بثّك إياها دامعاً وهو يسلمنى إليك لأرحل معك ، ألا تشغلك ذكرى شقيقتى ولا عُذْرتى ولا روابط الزوجية . لقد كفرت بكل شىء ، وها نحن أصبحنا : أنا ضَرَّة لشقيقتى ، وأنت زوجٌ لشقيقتين ، وإننى لجديرة بالعقاب بعد أن غدوت آثمة فى حق أختى . لماذا لا تسلبنى الحياة أيضاً لتتم بذلك جريمتك ؟ كم أتمنى لو أنك قضيت علىّ قبل إقدامك على اغتصابى الذى جعلنى حظية لك ، إذن لذهبت إلى عالم الأرواح بلا خطيئة . وإذا كانت آلهة السماء تشهد كل ما حدث وكانت قادرة حقاً ، فلن يضيع شىء عبثاً كما ضاعت عفّتى ، فلسوف تدفع ثمن فعلتك يوماً طال الزمن أو قَصُر ، ولسوف أخلع عنى إزار الحياء وأشهّر بفعلتك أمام الملأ ، ولو أن الفرصة واتتنى يوماً لتقدمت إلى شعبك ورويت عليه قصتى معك . أما إذا أبقيتنى سجينة فى هذه الغابة فلسوف أملؤها صراخاً حتىّ أستدر عطف صخورها التى شهدت إذلالى ، وحتى تسمع السموات صيحاتى وتستجيب الآلهة إن كانوا شهوداً ، أو إن كان قد شهد هذا واحد منهم » .

وأثارت كلماتها غضب الطاغية الفظ وملأته خوفاً لا يقلّ عن غضبه ، فأخرج سيفه من غمده المعلّق فى خاصرته وأمسك بشعر فريسته ولوى ذراعيها فى عنف خلف ظهرها . ورأت فيلوميلا السَّيف فازدادت أملاً فى الخلاص بالموت وكشفت له عن نحرها وهى لا تكفّ عن لعنه والاشمئزاز منه دون أن تُسعفها الكلمات ، فإذا هو يُمسك لسانها بمقبض ثم يهوى عليه بالسيف فيشطره ، وإذا الشطر الباقى يرتجف فى حلقها على حين كان شطره المبتور يتلوّى فوق الأرض الداكنة كما يتلوّى ذيل ثعبان بُتر من لحظات ثم انتفض انتفاضة قويّة ، وكأنه شاء أن يلحق بقدمى صاحبته قبلما يعاجله الخمود إلى الأبد . ولقد قيل — وإن كنت لا أستطيع تصديق ما قيل — إن الملك ظلّ بعد هذا الحادث البشع يصل استمتاعه بجسد فيلوميلا المشوّه فواقعه مرات ثلاثا أو أربع . ثم إذا هو بعد هذا كله لا يبالى بما كان فيعود إلى زوجته پروكنى يحكى لها حين سألته عن أختها قصة مُلفّقة يدّعى فيها وفاتها متظاهراً بالحزن والأسى حتى أقنع بدموعه الحاضرين . فمزّقت پروكنى ثيابها النفيسة الذهبية الأطراف من فوق كتفيها وارتدت ثوباً أسود ، وشيّدت لشقيقتها قبراً خاوياً أخذت تقدّم عنده القرابين لروح فقيد لم يَمُتْ بعد ، وتبكى مصير أختها التّعِس وما قاسته من عذاب قبل موتها ، وإن يكن عذاباً مختلفاً عما قاسته حقاً .

ومرّ عام كان إله الشمس قد مضى فيه بمركبته عبر البروج الإثنى عشر . تُرى ما الذى كان باستطاعة فيلوميلا أن تفعله ؟ لقد كانت تحت حراسة قوية تمنعها من الهرب ، وكانت الجدران المحيطة بالحظيرة عالية ضخمة مشيدة من أحجار صلدة ، وكانت شفتاها الخرساوان تحولان بينها وبين الإفصاح عما ألمّ بها ، غير أن الحزن والألم قد شحذا عبقريتها ، والحاجة تفتق الحيلة ، فجلست إلى نول بدائى نسّقت عليه الخيوط بدهاء ، ونسجت عليه نسجية بيضاء صوّرت عليها مأساتها بخيوط حمراء ، ثم أسلمتها حين أنهتها إلى خادمة شرحت لها بالإشارة أن ترفعها إلى الملكة . ونفذت الخادمة ما أُمرت به ، وسلّمت النسجية إلى پروكنى دون أن تعلم شيئاً عن حقيقة ما فيها . وما إن بسطت زوجة الملك الطاغية النسجية حتى طالعت

فيها قصة شقيقتها ومأساتها المشئومة ، فلم تنبس ببنت شفة وبدت رابطة الجأش إلى حد يصعب على العقل تصديقه ، إلاّ أن حزنها العميق أعجزها عن الكلام ، وحين حاولت الحديث لم تجد من عبارات الأسى ما يكشف عن شقائها ، وتماسكت حتى لا يضيع الوقت فى ذرف الدموع ، لكنها عادت تفكر فى خطة تنتقم بها من زوجها لا تلتزم فيها بقوانين الخير والشر .

وخلال الأعياد الكبرى التى تحتفل فيها صبايا طراقيا كل ثلاثة أعوام تمجيداً للإله باكخوس يؤدّين فيها طقوسه السرية تحت ستار ظلمة الليل فيضجّ جبل رودوبى بقرع الصنوج ، خلّفت الملكة قصرها متأهبة لأداء طقوس تكريم الإله ، حاملة معها الصولجان الذى كان يُلوّح به أثناء شعائر العربدة ، متوّجة رأسها بإكليل من أوراق الكروم ، مسدلة على جنبها الأيسر جلد وعل ، معلقة رمحاً دقيقاً على كتفها . ومضت عبر الغابة متقدمة وصيفاتها ، تضطرم جوانحها بما أصابتها به المأساة من جنون ، متظاهرة بأن شيئاً لم يبعث الاضطراب فى أعماقها غيرك أنت يا باكخوس ، إلى أن بلغت الحظيرة فحطّمت رفيقاتها بابها وسط ضجيج المحتفلات بباكخوس وصراخهن ، واصطحبت پروكنى أختها وألبستها ثياب إحدى المحتفلات بباكخوس ، وغطّت وجهها بأوراق اللبلاب وعادت بالفتاة المذهولة إلى القصر .

ولم تكد فيلوميلا تدرك باب الدار الملعونة حتى ارتعدت فزعاً وكسا وجهها شحوب الموتى ، غير أن پروكنى بعد أن دخلت دارها خلعت عن أختها المنكوبة ثياب حفل باكخوس وكشفت عن وجهها المصبوغ بحمرة الخجل وطوّقتها بذراعيها ، فلم تقو فيلوميلا على رفع رأسها حتى لا تتلاقى عيناها بعينى أختها اللتين غارتا حزناً من أجلها ، ورنت ببصرها نحو الأرض ، وعبّرت إيماءاتها عما لم يستطع صوتها البوح به ، فقد كانت ملهوفة إلى القسم بالآلهة بأن العار الذى لحقها إنما كان نتيجة هتك عرضها قسراً . واحتدم غضب پروكنى وأوقفت نحيب أختها بقولها : « ليس ثمة وقت للدموع ، بل للسيف أو لما هو أمضى إن كان لديك مثل هذا السلاح ، فقد بتُّ متهيئة للانتقام على أية صورة كان هذا الانتقام يا أختاه . فإما أن أشعل النار العاتية فى القصر حتى يحاصر لهيبها تيريوس المخادع من كل جانب ، وإما أن أقطع لسانه أو أفقأ عينه أو أجبّ عضوه الذى سلبك شرفك ، أو أجعل روحه الآثمة تخرج من جسده عبر ألف جرح غائر . نعم ، يجب أن نعدّ العدة لانتقام رهيب ، بيد أنى مازلت عاجزة عن الاهتداء إلى خطة محكمة التدبير » .

وبينما كانت پروكنى مسترسلة فى التعبير عما يحتدم فى وجدانها أقبل عليها إبنها إيتيس فأوحت لها رؤيته بالانتقام الذى يمكن أن تقدم عليه ، فتطلّعت إليه بعينين يفتقدان الحنان متمتمة « كم يشبه أباه ! » ولم تزد على ذلك . وغلا الغضب الصامت فى صدرها وقد عقدت العزم على انتقامها الرهيب ، غير أن ابنها اقترب منها وطوّق عنقها بذراعيه الدقيقتين وقبلها وهو يثرثر فى رقة هزّت فيها مشاعر الأمومة ، فزايلها غضبها وترقرقت عيناها ، واكتشفت أن حبها لولدها يوهن من عزمها على الانتقام فتركته والتفتت نحو أختها . وعلى حين كانت تنتقل ببصرها بين طفلها وأختها أخذت تعنّف نفسها قائلة : « أنّى لهذا الطفل أن يخاطبنى بمثل هذه الكلمات الرقيقة التى تعجز عن مثلها هذه الأخت المبتورة اللسان ، وكيف له يدعونى يا أماه وهى

لا تستطيع أن تدعونى يا أختاه ! تأمّلى يا إبنة پانديون أى صنف من الرجال تزوجت ، إنك لا شك تأثمين بحفاظك على عهود الزواج من مثل تيريوس ؟ » .

ولم تتلبّث پروكنى بل أخذت إيتيس من يده وذهبت به إلى مكان قصى من القصر الفسيح كما تجرّ النِّمرة الظبى الرضيع بشواطىء نهر الجنج خلال الغابة الكثيفة ، وأدرك الطفل ما سوف يحلّ به فمدّ يديه صارخاً « أماه ! » وحاول أن يلف عنقها بذراعيه ، لكنها أغمدت السيف فى جنبه غير بعيد من قلبه دون أن تحوّل بصرها عنه . ومع أن هذه الطعنة كانت كافية لإخماد أنفاسه غير أن فيلوميلا هوت بالسيف على حلقه ، ومضت الشقيقتان تقطعان الأطراف التى كانت ما تزال تنبض بالحياة حتى امتلأت الحجرة بالدماء ، فأخذتا بعد ذلك لحمه وسلقتا بعضه وشوتا البعض الآخر على السِّياخ ، ثم دعت پروكنى زوجها إلى هذه الوليمة وقالت له بعد أن صرفت الخدم إن طقوس بلادها تقضى بأن يجلس الزوج وحده إلى المائدة . فجلس تيريوس والتهم ما بين يديه ، وما خال إنه يأكل فلذة كبده . وبعد أن فرغ من طعامه التفت لزوجته قائلاً : « أين إيتيس ولدنا ؟ » . عندها لم تستطع پروكنى أن تُخفى فعلتها النكراء ولا أن تردّ لهفتها لأن تكون أول من يُفْضى إليه بنبأ هذه الضحية التى ذبحتها ، وإذا هى تقول له : « إن من تطلبه ليلقاك قد استقرّ فى جوفك » . وإذا هو يجيل بصره فيما حوله ويسأل : « أين ابنى ؟ » ، وبينما هو يصرخ باسم ولده المرّة بعد المرّة إذا فيلوميلا تهرول إلى القاعة بهيئتها الرثّة وشعرها الأشعث الذى خضّبته دماء الطفل ، وكانت قد شاركت فى قتله ، وإذا هى تلقى برأس إيتيس بين يدى أبيه . ولم تكن ثمة لحظة أمتع لها فى التعبير عمّا تكنّ أمتع من تلك اللحظة . وبصرخة عارمة دفع الملك الطراقى مائدة الطعام واستغاث بالشقيقات الغافيات فى أعماق نهر ستيكس ذوات الرءوس الثعبانية ، وحاول بحركة لا إرادية أن يشقّ بطنه ليُفرغ ما فيها من طعام غير مُسْتمرأ ، وانطلق ينوح منهاراً ، تارة واصفاً نفسه بأنه بات مقبرة لابنه التعس ، وتارة أخرى يطارد ابنتى پانديون شاهراً سيفه العارى عن غمده ، غير أنهما كانا فى سرعتهما أشبه بطائرين مجنّحين بعد أن نبتت لهما أجنحة ، فحلّقت إحداهما هاربة صوب الغابات ، بينما تعلّقت الأخرى بطنف الحجرة وماتزال آثار الذبيحة عالقة بصدرها ، إذ كان ريشها أحمر مخضباً بالدماء المُراقة(٢٤) . وتحوّل الملك هو الآخر من فرط حزنه وتعطّشه للانتقام إلى طائر يعلو رأسه عُرف ويمتد فى فمه منقار حاد طويل بدلاً من السيف ، وهو الطائر الذى سُمىّ بالهدهد والذى يبدو وكأنه قد ارتدى عُدّة القتال .

بورياس وزيتيس وكالاييس

وحينما بلغت القصة أسماع پانديون غاصت به أحزانه فى ظلمات تارتاروس قبل أن يحين أجله الذى كان مُقدَّراً له .

وحمل إيريخثيوس صولجان پانديون من بعده وانتقل إليه حكم البلاد ، وكان بعدالته وبراعته فى استخدام السلاح قويّا مرهوباً ، وكان له من البنين أربعة ومن البنات مثلهم عددا ، وقد تميّزت من بناته
٦٨٠ اثنتان بالجمال ، سعد كيفالوس حفيد أيولوس بإحداهما واسمها پروكريس ، ووقع بورياس فى حب الثانية التى كانت تسمى أوريثيا ، غير أنه ظل طويلاً يخطب ودّها عبثا وكان يبغى أن ينجح فى إقناعها باللين لا بالقوة ، غير أن ذكرى بنى وطنه الطراقيين وبخاصة ملكهم تيريوس بقيت عقبة فى سبيل زواجه . وحينما لم يُجْدِه تودّده إليها ولم يحقّق له مأرباً تملّكته عاصفة من الغضب الذى كان سريع الوقوع فى أسره لسبب أو لآخر ، فناجى نفسه قائلاً « إن سلوكى جدير بهذا الصّد . كان الأوْلى بى أن أستخدم أسلحتى وأن أكشف عن الغضب والعنف والوعيد ، وما كان لى أن أتشفّع بالرجاء الذى ليس من طبيعتى . العنف شيمتى ، به أستطيع أن أبدّد السحب الكثيفة وبه أشيع الاضطراب فى البحر ، وأحطّم أضخم أشجار البلوط ، وأحفظ الثلوج جامدة ، وأجلد الأرض بسوط من البرد . وحينما أنازل إخوتى فى الفضاء الكونى [الذى يمثّل حلبتى] يمتلىء الجو بصخب عراكنا ويومض البرق من بين أعماق السحب . وحين أدخل الكهوف المقدّسة فى أعماق الأرض وأدفع بظهرى أدنى قبابها يهتزّ الكون كله ويشيع الاضطراب حتى بين أرواح الموتى وفى أرجاء عالم الأحياء ، لقد كان علىّ أن أطلب يد الأميرة لا رجاءً واستعطافاً بل بقسر إيريخثيوس على أن يصبح صهراً لى » .

٧٠٠ وبهذه الكلمات المتعالية ضرب بورياس بجناحيه ليشقّ بهما طريقه فى الهواء ، وسرعان ما جعل خفقان جناحيه الرياح تعصف فوق الأرض كلها وتبعث الاضطراب فى مياه البحر . ونشر فوق قمم الجبال عباءته محمّلة بالغبار ، ثم اندفع نحو الأرض مختفياً فى غيمة ، وأطبق ظلام جناحيه على أوريثيا التى تملّكها الفزع ، ولم يكد يطير بها حتى تفجّر لهيب شوقه وثارت نيران لهفته ، فأسرع مطلقاً العنان لنفسه خلال الأجواء حتى بلغ بغنيمته أسوار المدينة التى يقطنها شعب الكيكونيس[٢٥] . وفى هذه المدينة غدت فتاة بلاد أكتيا زوجة لهذا المستبد البارد المشاعر ، وحملت منه فأنجبت له توأمين من الذكور هما كالاييس وزيتيس[٢٦] وكانا يشبهان أمهما فى كل شىء عدا أنه كان لهما جناحان مثل أبيهما . على أنهما لم يولدا بالجناحين ، بل لقد بقىَ كل منهما ولا أجنحة له قبل أن يَشُبّا عن الطَّوْق عندما كانت وجنتاهما ملساوين لم تخضراً . وحينما بدأ الزغبُ الأشقر يغشّى ذقنيهما بدأ الريش فى الوقت نفسه ينبت فوق كتفيهما وكأنهما طائران ، حتى إذا كبرا وبلغا مبلغ الرجال انضما إلى أهل ميناياس[٢٧] فى الطواف بالبحار المجهولة فى أول سفينة شيّدت للبحث عن الفروة الذهبية .

التعقيبات

(١) هى فوخيا الآن وكانت ميناء ذات بوغازين فى آسيا بين أزمير وكوماى .

(٢) تيمولوس اسم فى ليديا يفصل بين حوضى نهر هرموس وكايستر .

(٣) پاكتولوس أحد روافد نهر هرموس اشتهر برماله التى تفيض بالذهب .

(٤) صخرة مارس « أريس » هى الأريوپاجوس ، ذلك التل القريب من أكروپول أثينا الذى كان قلعة كيكروپس ، وقد شهدت المناظرة الكبرى بين أثينا وپوزيدون من أجل إطلاق اسم على المدينة . وكانت هذه المناظرة مألوفة بين الفنانين الإغريق ، فنحتها فيدياس على الجبين المثلث الغربى للپارثينون .

(٥) يعد معبد الإريختيوم على جبل الأكروپول تسجيلاً لهذين الحدثين الأسطوريين يتمثل فى احتفاظ إحدى ردهاته بفرع من شجر الزيتون المعجز الذى روى الرواة أنه قد احترق عندما دمر خشيارشا [خاشيار شاه أو خشاياثرا أو أكسركسيس عند اليونان] الأكروپول ثم عاد فانبثق من جديد بعد يومين . وثمة حفرة فى الصخر أسفل البوابة الشمالية للمبنى قيل إنها من أثر رمح پوزيدون .

(٦) هما أخ وأخت تسميا باسم چوپيتر وچونو فمسخا جبلين عقاباً لهما .

(٧) هى چيرانا ملكة شعب من الأقزام يقطنون أعلى النيل ألّهها شعبها مما أثار غضب چونو وديانا فحولتها چونو إلى طائر كركى .

(٨) تقول الأسطورة إن قبائل الأقزام كانت فى حرب مستمرة مع الطيور الكبيرة الحجم وخاصة طائر الكركى .

(٩) كانت أنتيجونى [وهى غير أنتيجونى ابنة أوديپ] ابنة لاوميدون ملك طروادة ، وكانت ــ مثل رودوپى وچيرانا ــ قد أثارت غضب چونو حين تباهت بأن شعرها يزرى بجمال شعر چونو .

(١٠) كان سنيراس ملك پافوس فى قبرص وكاهناً لأفروديتى فى الوقت نفسه ، اشتهر بأنه أسس مدينة أزمير ، وقيل إنه أبو أدونيس . أما بناته فقد أعجبن بأنفسهن أكثر من إعجابهن بچونو فحولتهن الإلهة إلى درجات من الرخام لسلم مَعبدها [انظر الكتاب العاشر] .

(١١) إبنه كيوس أحد العمالقة وفويبى إبنة إلهة الأرض ، وقد أحبها چوپيتر وتخفى فى صورة نسر ليضاجعها ، فلما أغضبته حولها إلى طائر السمان .

(١٢) أنجب مكاريوس ابن أيولوس بنتا هى أمفيسا أو إيسيه التى أحبها أپوللو ، ويقال إنها أطلقت اسمها على مدينة مفيسا القريبة من دلفى .

(١٣) يعود الشرق جمع القنطور بين جسد الحصان وصدر الإنسان ووجهه إلى أن كرونوس الذى يسميه الرومان ساتورنوس كان يخون زوجته ريا مع فيليرا إبنة أوقيانوس ، فلما فاجأت الزوجة العاشقين يوماً تخفى كرونوس فى شكل حصان ليفلت منها ، الأمر الذى أدى إلى ظهور هذه الطبيعة المزدوجة فى ابنة خيرون .

(١٤) اسمه الحديث كودروس وهو اسم مدينة وجبل فى جالاطيا بالأناضول .
(١٥) سيبيلوس جبل مشهور شمال أزمير فى آسيا الصغرى .

(١٦) كان تانتالوس ملك ليديا وابن زيوس هو والد نيوبى ، وكان قد استقبل الآلهة على مائدته ولكنه قدم لهم إبنه بيلوبس ليأكلوه فغضبوا عليه وعاقبوه وألقوا به إلى العالم السفلى . وكانت أم نيوبى هى ديون إبنة أطلس التى كانت قد تزوجت من أمفيون وهو ابن زيوس من أنتيوبى وقد اشتهر بأنه شيد أسوار طيبة بالعزف على قيثارته كناية عن براعته فى العزف .

(١٧) كانت ليتو إبنة المارد كويوس الذى كان أقل شهرة من أخويه هيبيريون وياپيتوس .
(١٨) على سفح جبل سيبيلوس فى ليديا صخرة على هيئة امرأة باكية ينساب منها جدول ماء يقال إنه دموع نيوبى . وأغلب الظن أن أوفيد استوحى الوصف الذى ذكره من أحد المجموعات المنحوتة التى تصور بنات نيوبى المعزوة إلى پراكستيليس أو سكوپاس . ويقال إن هذا التمثال كان قد نقل إلى روما منذ عهد قريب [بالنسبة لاوفيد] ووضع فى معبد أپوللو فوق تل پالاتينوس .

(١٩) الخيمايرا وحش مشهور له رءوس ثلاثة أحدها لأسد والثانى لجدى والثالث لتنين ، وتنفث ثلاثتها لهباً ، وقد ولد هذا الوحش من إخيدنا وتيفون .

(٢٠) تروى الأسطورة أنه بعد ذلك توجهت الإلهة يرافقها بعض الذئاب « ليكوى باليونانية Lykoi » إلى نهر زانثوس حيث استطاعت أن تروى ظمأها وتغتسل هى وابناها . وتكريماً لمرافقيها سميت المنطقة ليكيا .

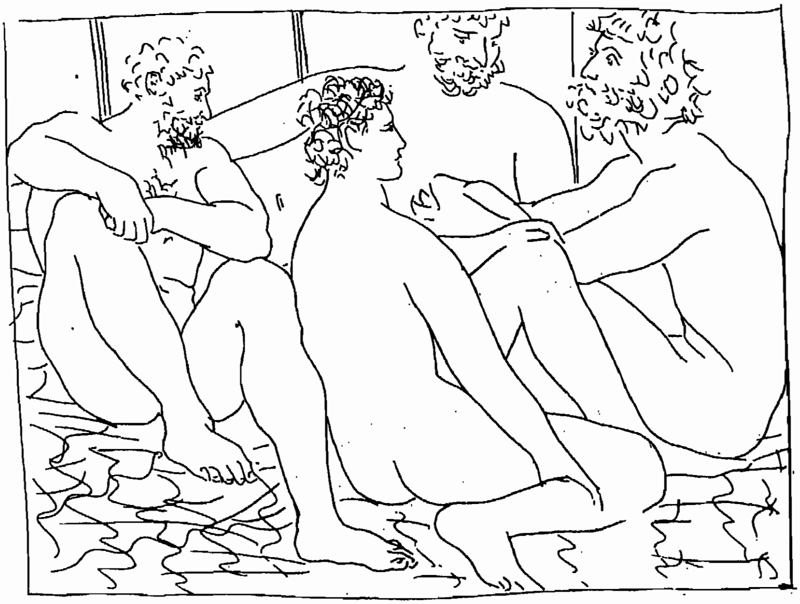
(٢١) تروى الأسطورة أن أثينا [منيرفا] هى التى اخترعت المزمار المزدوج الذى صنعته من غاب بحيرة تريتون ، فسخرت منها كل من هيرا وأفروديتى ، على أنها لاحظت أنها كلما أمسكت بالمزمار وتأملت نفسها على سطح مياه أحد ينابيع إيدا أصاب وجهها التشويه فحنقت لذلك ، وألقت بالمزمار إلى الأرض مقسمة بأن من يلتقطه سيناله شر العذاب . وحدث أن التقطه سـاتير اسمه مارسياس برع فى النفخ فيه إلى درجة تحدى معها أپوللو فأقيمت بينهما مباراة ظفر فيها أپوللو بجائزة ربات الفنون فى عزف القيثارة . فأمر الإله الفائز بسلخ جلد منافسه . وكان أوليمپوس أحد رفاق مارسياس الأوفياء هو الذى جمع ما تبقى من أشلائه ودفنها . أما نهر مارسياس فهو من روافد نهر مياندر .

(٢٢) انظر الكتاب الثامن .
(٢٣) أى أن إثم عشق الأب لابنته ليس أبشع فى نظر الشاعر من إثم عشق شقيقة زوجته .
(٢٤) مسخت فيلوميلا بلبلا ، فى حين مسخت پروكنى عصفوراً جنة يكسو صدره الاحمرار .

(٢٥) الكيكونيس من سكان طراقيا وقد أغار عليهم أوديسيوس أثناء عودته من طروادة لوقوفهم فى صف پريام ملك طروادة ضد الأخيين .

(٢٦) كان كالاييس وزيتس من بين بحارة الأرجو ، ويرجع الفضل لهما فى تخليص فينيوس من طيور الهارپيس [انظر الكتاب السابع] .

(٢٧) سكان أورخومينوس فى بويوتيا نسبة إلى ملكهم مينياس .



بيكاسو : كيفالوس يروى قصته لأبناء أياكوس ملك جزيرة إيجينا

الكتاب السابع

جاسون وميديا

على حين كان المينياسيّون [أبناء سلالة مينياس] تمخر بهم البحر سفينتهم التى بُنيت فى پاجاساى[1] ، لمح الملّاحون فينيوس[2] وقد هدّه الكِبَر ونفذ بنور بصره نور الحياة ، ورأوا أبناء « ريح الشمال » الصغار يذودون طيور الهارپيس بعيداً عن فمه حتى لا تؤذيه ، ثم انحرفوا حتّى بلغوا نهرفاسيس[3] الصاخب المُزبد يقودهم چاسون النابه الصيت وهم يغالبون الصعاب[4] . حتى إذا مثلوا بين يدى الملك أييتيس جعلوا يطالبونه بفروة الكبش الذى حمل فريكسوس ، فانقلب يُملى عليهم شروطاً قاسية تلزمهم القيام بمهام جسيمة . وشغفت ميديا إبنة الملك بحب چاسون ، وكم حاولت أن تدفع ذلك عن قلبها فلم تفلح ، فأذعنت لسلطان الهوى وهى تناجى نفسها : لماذا ترانى فاعلة فيما قضاه علّى إله من

الآلهة ، فما من شك فى أننى صرت صريعة ما يسمى الحب . ولعل حبى لچاسون هو الذى جعلنى أرى شطط أبى فيما اشترطه عليه ، وهو الذى جعلنى أخشى عليه التهلكة وما وقعت عليه عينى من قبل . ثم مالى أحسّ القلق يتسلّل إلى نفسى رويداً رويداً ؟ تُرى هل تملكين أيتها الفتاة التعسة أن تنجى بقلبك الغض من تلك النيران المضطرمة وتعودى إلى ما كنت عليه خالية القلب ؟ إنى لأرانى عاجزة يتنازعنى عقلى وعاطفتى ، وأنا لعاطفتى أمْيل مع علمى بأن الخير لى فيما يمليه عقلى . وكيف بى قد استهوانى حب رجل غريب فأصبحت أحلم بالزواج منه مع علمى بأن فى موطنى من قد يستهوينى . وسواء عاش چاسون أو مات فذلك مردّه إلى الآلهة ، ولكنى آمل أن يعيش ، وعلىّ أن أصلّى للآلهة لكى يعيش وإن لم أكن أحبه ، فأى ذنب جنى ، ومن ذا الذى يرى شبابه ونبل أصله وشجاعته دون أن يَقْدُره إلاّ إذا كان وحشاً جامد الحس . وإذا لم تكن لچاسون كل هذه السجايا فمن هذا الذى لا تحركه كلماته ؟ لقد مسّ قلبى ولم يلبث أن عشّش حبه فيه ، وإذا لم أهرع لمساعدته فسوف تحرقه أنفاس الثَّوْرين اللذين ينفثان اللهب ، أو يصرعه أعداء البشر الذين ستنبتهم الأرض حين تُبذّر فيها الحبوب ، أو يذهب فريسة التنين النهم . وما كان يمكن أن أكون إلا نمرة قُدّ قلبها من صخر أو حديد إن أنا لم أحل دون هذا . وما آثمنى إن رأيته يموت ، وهل أقوى على أن أثير عليه الثَّورين أو أمكّن منه المحاربين الذين تُنبتهم الأرض ، أو التنين الذى لا يغفو أبدا ؟ كم أتمنى أن تمنحه السموات حظاً أسعد . فلأصلينّ من أجله ولسوف أسعى لسلامته .

تُرى هل أخون أبى ، وأُعِين غريباً على النجاة وقد يبحر بعدها دونى ويتزوج من امرأة أخرى ، ويتركنى هنا أواجه العقاب جزاء خيانتى لوطنى . وإذا كان من الجائز بعد أن ينجو أن يؤثر علىّ امرأة أخرى فهل أتركه يلقى حتفه جزاء نكرانه للجميل ؟ لا ، إنى أرى فى براءة وجهه ونبل طباعه ورقته ووسامته ما لا يدع لى مجالاً للخوف من أنه قد يخدعنى أو أن ينسى ما قدمت له من عون . على أن عليه أن يقطع لى عهداً قبل أن أساعده ولسوف أُشهد عليه الآلهة ، فإذا لم يكن ثَمَّ ما أخشاه فلم هذا الخوف إذن ؟ فلأتأهب للعمل دون تراخ ، ولسوف أجعل چاسون مديناً لى بحياته فيتزوجنى فى احتفال مهيب ، وستأتينى نساء اليونان جماعات من كل المدن لتكريمى على أنى منقذة أبنائهن . ثم هل تُرانى أهجر أختى وأخى وأبى وآلهتى بل ووطنى نفسه وأذهب بعيداً عبر البحار ؟ ولم لا أتركهم ووالدى قاس وأهل وطنى جفاة ، وأخى مازال طفلاً ، وأختى تباركنى دائماً بدعواتها ، وأعظم الآلهة تسكن صدرى ، وليس هناك مما أخلفه ورائى شىء ذو قيمة بينما أستهدف بفرارى شيئاً أعظم هو المجد . فإنقاذ هؤلاء الأبطال اليونانيين ، والتعرّف على بلاد أفضل من بلادى ، وزيارة مدن طبّقت شهرتها الآفاق حتى بلغت هذه الشواطىء ، والإلمام بفنون هذه المدن وثقافتها ، كل هذا أترقّبه . ثم إننى سأظفر بچاسون الذى أرى فيه عوضاً عن كل كنوز الأرض ، وحين أصبح زوجته فسوف ينظر الناس إلىّ على أنى محظوظة باركتها السماء ، وسترتفع هامتى عالية حتى تلامس النجوم .

ولست أعبأ بحديث الناس عن تلك الجبال القائمة فى عرض البحار التى هى للملاحين بالمرصاد(٥) ولا عن خاريبديس خصم السفن التى تارة تبتلع المياه المحيطة بها وتارة تقيئها ، ولا عن سكيللا الشرهة

المتمنطقة بالكلاب المفترسة النابحة فى أعماق بحار صقلية . إنها جميعاً لا تخيفنى ، فسوف أمضى فى رحلتى الطويلة فى البحار وأنا بين أحضان حبيبى ، ولن أحس وأنا ملتصقة بصدر زوجى چاسون إلاّ الخوف عليه وحده . ولكن أى زواج ذلك الذى تتحدثين عنه يا ميديا ؟ يحسن بك ألا تخوضى فى شىء من غير اللائق أن تخوضى فيه لاسيما وأنت آخذة فيه ، ومن الخير أن تطرحى هواجسك الشريرة » .

وكفّت ميديا عن مناجاتها لنفسها بعد أن استبان لها أن العقل أَوْلى أن يُتبع ، وأن عليها أن تغلّب عواطف البنوة والشرف على حبها لچاسون . وحين أدرك كيوبيد أن الهزيمة لحقت به بدأ يحزم أمره للرحيل بينما اتجهت ميديا إلى المحراب العريق لهيكاتى ابنة پيرسيس المختفى فى ظلال الأكمات بأعماق الغابة وهى عازمة على أن تطرح الهوى من قلبها . ولكن ما إن وقع بصرها فى الطريق على چاسون بن أيسون حتى علت وجنتيها حمرة ما لبثت أن اختفت ثم أعقبها شحوب واصفرار ، وأحسّت بمشاعر الحب تعاودها وتستعر فى أعماقها ، وكأنما كانت ثمة جمرات متقدة تحت كومة قش هبّت عليها ريح مفاجئة فإذا بها تتأجج . هكذا أضرمت رؤية چاسون حب ميديا الذى كان قد أصابه الفتور ، واتّقدت فى قلبها الجذوة التى كانت قد خمدت .

كان من الطبيعى أن يثير مشهد چاسون الوسيم حب ميديا ، فقد كان عندها أكثر وسامة من ذى قبل فأخذت تتأمله وكأنها تراه للمرة الأولى ، مأخوذة بطلعته غير مصدقة أنه واحد من بنى البشر ، ولم تعد تستطيع أن تحوّل بصرها عنه . وما كاد يأخذ فى الحديث إليها ممسكاً بيدها اليمنى بين يديه متوسلاً إليها أن تعينه ، آخذاً على نفسه العهد أن يتزوجها إذا نجحت مهمته حتى انهمرت من عينيها الدموع وهى تُتمتم : « لقد بات الموقف أمامى بيِّنا ، ولست أجهل حقائق الأشياء ، وإننى أعلم أن الحب لا الجهل بالحقيقة هو الذى يقودنى ليوردنى موارد الهلاك ، ولكنى سوف أعينك على النجاة والفوز ، كى تحقق لى أنت ما وعدتنى به بعد نجاتك » .

وأقسم چاسون على الوفاء لها بأسرار الآلهة المؤلّهة ثلاث مرات[٦] ، وبالإله الماثل فى الكهف ، وإله حميه المستقبل[٧] ، وبعين الشمس التى ترى كل شىء ، وبكل ما يملك ، وبالمخاطر الرهيبة التى سيتعرض لها . فقنعت ميديا بقسمه وصدّقته ، وزوّدته بأعشاب سحرية قرأت عليها تعاويذها وعلّمته كيف يستخدمها ، فامتلأ قلبه سروراً وعاد إلى سفينته فرحاً .

وعندما بزغ الفجر واختفت النجوم ، تجمّع الناس فى حقل مارس المقدس واتخذوا أماكنهم فى السفوح المرتفعة المحيطة به ، وتوسّطهم الملك متألقاً فى ثيابه الأرجوانية اللون مهيباً بصولجانه العاجى رمز سلطته . وفجأة ظهر الثّوْران ذوا الحوافر الذهبية والأنوف الصلبة ينفثان لهباً أشعل النيران فى الحشائش الخضراء ، واختلط خوارهما بصخب النيران التى تندلع من حلقيهما ، وإذا هذا الخوار مع قوة النار أشبه بفورة الجُرْص [الجير الحى] فى قبو غمره سيل من الماء ، غير أن چاسون بن أيسون تقدم نحوهما ، فهزّا رأسيهما شارعين قرونهما المدببة الحديدية الأطراف وأخذت أظلافهما تحفر الأرض ، وامتلأ الفضاء بخوارهما

المختلط بألسنة الدخان ، وجمد ملّاحو الأرجو فى أماكنهم خوفاً ، عدا جاسون الذى تابع خطوه دون أن يحس حرارة أنفاس الثّورين النارية بفضل السحر الذى اعتصم به ، وتقدم فى شجاعة فربت على لُغْديها المتدلّيين ، ورفع النّير ووضعه على عنقيها فمضيا يجرّان المحراث الثقيل والنصل الفولاذى وراءهما ، وأخذت خطوط الحرث تمتد فى الأرض البكر وسط ذهول الكولخسيين وتهليل رفاقه ملّاحى الأرجو . ثم مدّ يده إلى الخوذة النحاسية والتقط أنياب الأفعوان التى كانت قد غُمست من قبل فى السم الزعاف ونثرها فى شقوق الأرض المحروثة ، فما لبثت أن أخذت تنمو فى التربة وتشكّلت فيها كما تتشكّل الأجنّة البشرية فى أرحام الأمهات حتى يكتمل نموها فتخرج إلى النور ، وهكذا ظهر حصاد من أجساد بشرية لا يُعد ولا يحصى نما فى جوف الأرض الحُبلى . وأعجب من هذا أنه برز منها شاهراً أسلحة نمت هى الأخرى معه فى باطن الأرض ، وأفزعت الپيلازجيين(٨) عندما أخذت تسدد رماحها الحادة إلى رأس البطل الثيسالى . وتحرك الخوف فى قلب ميديا على جاسون رغم السحر الذى حصّنته به ، وشحب وجهها وغاضت الدماء من أطرافها ، وسرت فى جسدها رعشة مفاجئة وهى ترى هذه الأعداد الغفيرة من المحاربين تحيط بالفتى وحده ، وساورها القلق مخافة أن تكون الأعشاب التى أعطتها لجاسون أقل تأثيراً مما ينبغى أن تكون عليه ، وانبرت تتمتم بتعاويذ أخرى تستعين بها وتستخدم أفانينها لتزيد موقفه قوة ، وإذا جاسون يحمل حجراً ثقيلاً ويلقى به وسط أعدائه ، فإذا بهم يتحولون عنه لينشب بينهم قتال مرير ، وأخذ بعضهم يصيب البعض الآخر بجراح قاتلة فأفنى بعضهم بعضا . عندها تهلل وجه الآخيين [اليونانيين] بشْرا واحتضنوا الفائز فرحين ، وتحركت فى صدر الأميرة رغبة فى عناق البطل لولا خشيتها من إثارة الأقاويل ، فكتمت فرحتها فى نفسها وشكرت الآلهة على إنجاحها تعاويذها السحرية ذات الأثر فى نجاة جاسون .

لم يبق أمام البطل إلّا أن يبعث النوم فى عينى التنين الذى يحرس الشجرة التى عُلّقت عليها الفروة الذهبية ، وقد كان منظر هذا المخلوق مثيراً بعُرفه الغريب ولسانه ذى الفروع الثلاثة وأنيابه المقوسة ، غير أن جاسون لم يكد ينثر عليه العشب الذى تجلب عصارته السبات العميق ، ويتمتم بالتعويذة التى تهدىء البحر العاتى والنهر الهائج حتى أسلم التنين للنوم جفنيه اللذين لم يغمضا من قبل أبدا ، وانتزع جاسون الفروة الذهبية ، ومضى حاملاً معها غنيمة انتصاره وهى الأميرة ميديا التى أعانته على تحقيق رغباته ، وأبحر عائداً بها إلى بلاده متخطياً العقبات حتى ميناء إيولكوس(٩) .

أيســــون

وقدمت نساء ثيساليا القرابين شكراً للآلهة على عودة أبنائهن سالمين ، وكذا فعل آباء الأبطال فعلهن فأشعلوا أكواماً ضخمة من البخور عند المحاريب ، ونحروا الضحية المذهّبة القرون التى كانوا قد نذروها للآلهة . وكان أيسون قد قعد عن شهود هذا الحفل لشيخوخته التى قرّبته من حتفه فتوجه جاسون إلى

زوجته قائلاً : « أى زوجتى التى أدين لها بحياتى والتى يعجز العقل عن إدراك ما أسدته إلىّ ، أتراك قادرة وأنت التى لا يستحيل على سحرك شىء ، أن تأخذى بعض سنى عمرى وتَضُمّيها إلى عمر أبى ؟ » ، وانسابت مع كلماته دموع عينيه فحرّك حبه لأبيه قلب ميديا ، واتجهت بفكرها إلى أبيها أييتس الذى كانت قد هجرته ، لكنها أخفت مشاعرها قائلة لزوجها : « ما أقساه من عرض هذا الذى تعرضه ، أو يدور بخلدك أن باستطاعتى الاقتطاع من عمرك لأصل به حياة غيرك . إن إلهة هيكاتى لا تجيز ذلك ، فما من حقك أن تطلب إلىّ ما أعجز عن تحقيقه ، غير أنى سأحاول أن أقدم لك هدية تفوق ما تطلب يا چاسون ، وسأستعين على تجديد شباب أبيك لا بالسنوات التى تريد اقتطاعها من عمرك بل بحذقى أنا حين تتفضل الإلهة المؤلهة ثلاثاً فتعيننى فى محاولتى الجريئة » .

وأمضى القمر ثلاث ليال حتى اكتملت استدارة قرنيه ، ومع تألق ضوئه تسللت ميديا من دارها فى ثيابها الفضفاضة عارية الرأس حافية القدمين مرسلة شعرها على كتفيها متعثرة الخطى فى سكون السحر ، والطيور والوحوش فى مخادعها مستسلمة لنوم عميق ، وأوراق الأشجار ساكنة على الغصون لا يتحرك لها حفيف ، والهواء المحمّل بالضباب قد سكن وقد تراءت من خلله النجوم المتوهجة فى كبد السماء . مدّت ميديا ذراعيها نحو النجوم ودارت حول نفسها مرات ثلاث ، ونثرت مياه النهر على رأسها مرات ثلاث ، وصاحت صيحات ثلاث معها نحيب وعويل ، ثم خرّت على ركبتيها فوق الأرض الصلبة وأخذت تهمهم : « أيها الليل الحارس الأمين لأسرارى ، أيتها النجوم الذهبية التى ترسل ضياءها مع القمر بعد غياب نور النهار ، أيتها الإلهة هيكاتى يا صاحبة الرؤوس الثلاثة ويا من هدتنى دوماً إلى ما أقوم به وأعانتنى على تحقيقه ، أيتها التعاويذ السحرية ، أيتها الأرض التى تنبت الأعشاب السحرية ، أيتها الأنسام والرياح والجبال والأنهار والبحيرات وجان المغارات وجان الليل ، أقبلوا جميعاً . فبعونكم أستطيع حين أريد أن أصدّ جريان الأنهار فترتد مياهها إلى منابعها بين دهشة الشطآن ، وأن أهدّىء عاصفة البحار أو أثير صخب مياهها بأناشيدى وأن أطرد السحب أو أجمعها ، وأن أرسل الرياح أو أخمدها ، وأن أفتك بالثعابين بسحر تعاويذى وأن أحرك الصخور والأشجار ، وآمر البلوط أن يقتلع نفسه ، بل آمر غابات بأكملها أن تفعل ذلك أو أن آمر الجبال فتضطرب وتميد والأرض فتئن وتزمجر ، وأطياف الموتى فتخرج من قبورها ، والقمر أيضاً أجذبه من السماء رغم صنوج تيميسا البرونزية[١٠] التى تدق لتخفف من عنائه . إن جمالى يُزْرى برونق مركبة جدّى[١١] ويفقد الفجر أطيافه بفعل عقاقيرى ، أنتم الذين أعنتم على تهدئة وهج أنفاس الثورين ووضعتم عليهما النّيرين ليمضيا بالمحراث المعوج ولم يكونا قد جرّا شيئاً قبلُ ، وأنتم الذين أثرتم المحاربين الذين نبتوا من زرع أنياب الأفعى ليقتل بعضهم البعض الآخر ، وأرسلتم النوم إلى عينىْ التنين الذى لم ينم من قبل أبدا ، ثم أسلمتم الفروة الذهبية إلى اليونان . ما أحوجنى اليوم إلى عقاقير تعيد نُضرة الشباب إلى شيخ فان وتردّه إلى مقتبل العمر ، وسوف تهبونها إياى بعد أن لمعت النجوم استجابة لندائى ، وأقبلت مجموعة من التنانين المجنّحة بهذه المركبة التى أوقفتها بجوارى » .

واعتلت ميديا المركبة التى كانت قد هبطت إليها من السماء وربتت على أعناق التنانين التى تجرّها ، وحرّكت أعنّتها فانطلقت فى الفضاء ، وأطلّت على وادى نهر تمپى فى ثيساليا ثم وجّهت تنانيها جنوبى المناطق التى ستحلّ بها . وعكفت ميديا على فحص أعشاب جبل أوسّا ثم اتجهت إلى هضاب جبل پيليون المرتفع وجبل أوثريس وجبل پيندوس وأوليمپوس[١٢] أعلى الجبال قمما وجمعت منها الأعشاب التى اختارتها ، بعد أن اقتلعت بعضها من جذوره واقتطعت البعض الآخر بالنصل المقوس لسكين من البرونز ، ثم جمعت حشائش أخرى من شواطىء نهر أپيدانوس ، ومن أمفريسوس وإنيپيوس ، وپنيوس ، ومستنقعات سپيرخيوس ، ومن شواطىء بوبيى[١٣] التى ينمو بها الغاب ، كما اقتطفت من أنثيدون المقابلة ليوبويا ذلك النبات الذى نال شهرة كبرى لما له من أثر فى إطالة العمر بعد ما فعل فعله فى جسد جلاوكوس[١٤] .

وأمضت ميديا تسع ليال وتسعة أيام تطوف البلدان فى المركبة التى تجرها التنانين المجنّحة ، حتى إذا ما عادت إلى دارها وقفت على عتبتها دون أن تنفذ إليها متجنبة مخالطة الذكور ، وشيّدت محرابين فى العراء أحدهما على يمين الدار والآخر على يسارها وجعلت الأيمن لهيكاتى والأيسر لربة الشباب[١٥] ، وغطتهما بأكاليل من غصون الأشجار التى تنمو فى الغابة ، وحفرت خندقين قريبين ملأتهما بدماء شاة سوداء اللون ذبحتها قرباناً ثم ملأت كئوساً من النبيذ وأخرى من اللبن وسكبتها فوق الدماء فى الخندقين ، ثم تمتمت بتعاويذها منادية جان الأرض ، متوسلة إلى ملك الظلال ومليكته المخطوفة ألا يسلبا العجوز الحياة ، وأخذت تكرر الصلوات حتى أثارت عطفهم جميعاً . وعندها طلبت من چاسون أن يحمل أباه إلى خارج الدار حيث فرشت بساطاً من الأعشاب المنثورة أضجعت عليه الشيخ الفانى وأخذت تتلو عليه تعاويذها حتى استسلم للنوم العميق ، ثم أمرت ابنه وأتباعه أن ينصرفوا عن المكان وحذرتهم من أن تقع أعينهم غير المتهيئة للسحر على مشهد الطقوس السحرية التى سوف تؤديها فأطاعوا وتفرقوا ، بينما أخذت هى تدور وحدها حول المحرابين بشعرها المرسل كأنها إحدى عابدات باكخوس ، وغمست مشاعلها الخشبية المشقوقة أعواداً دقيقة فى الحُفَر المليئة بالدم الأسود حتى تشرّبته ، ثم أشعلتها ووضعتها على المحرابين ، وطهّرت الشيخ بالنار ثلاث مرات ، وبالماء ثلاث مرات ، ثم بالكبريت ثلاث مرات ، بينما كانت قد وضعت فوق النار قدراً تطهو فيه الجذور التى جمعتها من وديان هايمونيا والبذور والأزهار ذات العصارات الحرّيفة . وكانت هذه مقوّمات سائل قوى الأثر يغلى ويفور بزبد أبيض فى القدر ، ثم أضافت إليها الأحجار التى جلبتها من أقصى الشرق ، والرمال التى غسلتها بمياه الأوقيانوس ونُدف الثلج التى جمعتها بالليل على ضوء القمر ، ولحم بومة مرعبة وجناحيها ، وأحشاء غول وهو ذلك المَسْخ العجيب الذى يستبدل بقسماته الحيوانية أحياناً قسمات بشرية ، ولم يفتها أن تضيف الجلد ذا الحراشف لثعبان مائى يسكن مياه كينيپس فى ليبيا وكبد وعل معمّر ورأس غراب عمّر ما يربو على أكثر من أجيال تسعة ومعه منقاره ، إلى جانب آلاف العناصر الأخرى الغريبة التى لا أسماء لها ، والتى كانت تستهدف من مزجها إنجاز مهمّة تفوق طاقة البشر .

وأمسكت ميديا بغصن شجرة زيتون جاف ، وأخذت تحرك به هذا المزيج الذى تحول إلى سائل وهو يغلى على النار ، فما لبث الغصن الجاف أن اخضرّ وأورق ، وسرعان ما أصبح محملاً بالكثير من عناقيد الزيتون ، وكلما غلى السائل وانسكبت قطرات من القدر البرونزى على الأرض اخضرّت البقعة التى تقع عليها ونمت بها الحشائش وتفتّحت فيها الأزهار . وعندما اطمأنت ميديا إلى ذلك أمسكت بسيفها وشقّت به حلق الشيخ الطاعن فى السّنّ وتركت دماءه الهرمة تسيل منه حتى جفّت عروقه ، وأخذت تملؤها بالشراب الجديد الذى امتصه أيسون عبر الجرح الذى أحدثته ميديا فى فمه أيضاً ، وسرعان مازال الشيب من شعر لحيته ورأسه واصطبغ بالسواد من جديد ، وغابت مظاهر الشيخوخة والضعف واختفى شحوب وجهه ، واكتنز لحمه تحت التجاعيد فبسطها ، واكتسبت أطرافه قوة الشباب ، وتعجّب الملك الشيخ من هذا التغيير الذى أعاده إلى حالته التى كان عليها منذ أربعين عاماً مضت .

وحين شاهد باكخوس المعجزة من علياء سمائه أدرك أن الشباب من اليسير ردّه ثانية بالمثل إلى مرضعاته ، وأن اليد الطولى فى هذا تعود إلى ميديا أميرة كولخيس ، ومن ثم طالبها بتحقيق هذه الأمنية فرضخت لندائه .

پليــــــاس

ولم تنته أعمال ميديا السحرية عند حدّ ، فلقد قصدت ذات يوم دار پلياس شقيق أيسون والذى انتزع منه العرش ، وادعت أن خلافاً وقع بينها وبين زوجها وطلبت من الملك أن يأذن لها بالإقامة عنده ، فرحّبت بها بناته بدلاً منه لأنه كان واهن القوى أحنت الشيخوخة ظهره . ولم تمض أيام قليلة حتى اكتسبت ميديا الماكرة محبتهن متظاهرة بصداقتهن ، وقصّت عليهن ما بذلته من عون لچاسون ثم عرجت على قصة إعادة الشباب إلى أبيه أيسون ، فأسهبت فيها وأطالت حتى حرّكت أمل بنات پلياس فى إمكان استعادة أبيهن لشبابه بالطريقة نفسها ، فأخذن يتوسلن إليها أن تفعل لأبيهن ما فعلته لأب چاسون مقابل ما تشاء .

وصمتت ميديا طويلاً متظاهرة بالتردد فى قبول طلبهن ، مدّعية أنها سوف تفكر فى الأمر مليّا . وطال قلق المتوسلات وهن ينتظرن ، ثم كان أن وعدتهن بتقديم عونها لهن قائلة : « لكى أبثّ الطمأنينة فى قلوبكن فسوف أحوّل الكبش المُسِنّ الذى يتقدم قطعان غنمكم إلى حَمَل صغير بدوائى السحرى » . عندها أحضرن لها كبشاً كثيف الفروة ملتوى القرون واهن الخطو قد بلغ أرذل العمر ، فأحدثت بسكينها جرحاً فى حلقه خرجت منه بقعة دم علقت على نصل السكين ثم أمسكت بالكبش فغمست قوائمه فى وعاء ملىء بأعشاب قوية السحر ، فأخذت قوائمه تنكمش وقرونه تحترق وتزول وتذهب عنه آثار السنين . وإذا الجمع يسمع فجأة ثغاء خافتاً يتردد وسط الوعاء النحاسى الذى قفز منه حَمَل صغير يتلفت باحثاً عن ضرع أمّه .

فتحركت الدهشة فى قلوب بنات پلياس ، وأقنعهن الدليل بصدق وعدها ، وعاودن إلحاحهن بأن يكون لأبيهن حظه من هذا السحر .

حطّ فويبوس إله الشمس عن جياده المجنّحة عدّتها بعد هبوطه إلى مياه أيبريا ثلاث مرات . وفى الليلة الرابعة وبينما كانت النجوم تبرقُ فى السماء وضعت إبنة أيييتيس المخادعة قدراً كبيراً على نار مشتعلة بعد أن ملأته ماء خالصاً أضافت إليه بعض أعشاب لا أثر لها من السحر ، وتمدّد الملك وأغفى كأنه أخذته سنة من نوم شبيه بالموت ، وتلت ميديا تعاويذها التى جعلت الملك يغطّ فى نوم عميق ، وقالت ميديا لبنات الملك الواقفات حول فراش أبيهن : « كيف وقفتنّ جامدات لا تفعلن شيئاً ، ألا فلتُمسكن بسيوفكنّ واطعنّ بها أباكنّ حتى ينسكب دمه كى أبدأ بعد ذلك بملء شرايينه بدم الشباب ، فحياة أبيكن وتجديد شبابه بين أيديكن ، فإن كنتن تحببنه فلتقمن بواجبكن نحوه . أطردن شيخوخته بضربات سيوفكن لتخرج مع دم جسده الفاتر » . وأثارت هذه العبارات حماستهن فأقدمن على خطة لم يكنّ يعلمن شرّ عاقبتها ، وأمعنّ فى طعن والدهن إظهاراً لعمق حبهن وإن تحاشين النظر إليه وهن يفعلن ذلك ، فنهض الملك مثقلاً بالجراح مشوّهاً تغطيه الدماء ، وحاول أن يردّ سيوف بناته التى أشرعت من حوله فلم يفلح وصاح بهن وهو يئن « ماذا دهاكن يا بناتى وما الذى جعلكن تُشهرن السيوف لتقضين على أبيكن ؟ » . وسرعان ما خارت عزيمة بنات الملك بعد سماع كلماته وخانتهن شجاعتهن ، فعاجلته ميديا قبل أن يتفوه بكلمات أخرى بطعنة فى حلقه ، ثم حملته وألقت بجسده فى الماء المغلى ، وأسرعت تطير فى الهواء تحملها دوابّها المجنّحة قبل أن يحيق بها مكروه . وحلّقت طائرة فوق جبل پيليون المكسو بالغابات حيث دار فيليرا [أم القنطور خيرون] ، وفوق أوثريس والمناطق التى اكتسبت شهرتها منذ طوفان ديوكاليون الذى طغت فيه مياه البحر على الأرض فأغرقتها ، فتجمّعت حوريات البحر حول كيرامبوس[١٦] [ومسخنه جُعرانا] ثم حملنه وطرن به فى الهواء فأنقذنه من الغرق فى الطوفان .

وبينما كانت ميديا فى طيرانها أشرفت على مدينة پيتانى الأيولية[١٧] التى ينتصب فيها تمثال الأفعوان الحجرى الضخم[١٨] ، وفوق غابة إيدا[١٩] حيث أخفى باكخوس العجل الذى سرقه ابنه بعد أن حوّله إلى وعل[٢٠] ، وفوق المكان الذى دُفن فيها والد كوريثوس[٢١] وقد طواه كثيب من رمال خفيفة ، واستمرت محلّقة فوق تلك الحقول حيث تنبح مايرا[٢٢] فيملأ نباحها الغريب قلوب الرجال رعباً ، وفوق مدينة يوريپيلوس حيث نبتت القرون فى جباه سيدات جزيرة كوس[٢٣] لحظة رحيل هرقل ورفاقه عن بلادهم ، كما حلّقت فوق رودس الجزيرة التى أحبها فويبوس وفوق مدينة ياليسوس مقرّ التلخينيين[٢٤] الذين كانت أعينهم تنال بالسحر كل ما تقع عليه فأغرقهم چوپيتر فى مياه شقيقه نپتون ، ثم أطلّت على كارثيا إحدى مدن خيوس القديمة التى أصيب فيها ألسيداماس[٢٥] يوماً بالذهول حين أنجبت ابنته يمامة وديعة . كما شاهدت بحيرة هيرييه وتمپى[٢٦] موطن سيجنوس التى اشتهرت بعد أن تحوّل الأخير إلى طائر البجع . وفى ذلك الموقع كان فيليوس نزولاً على إرادة الغلام سيجنوس قد قدم له طيوراً جارحة كان قد استأنسها وأسدا كان قد روّضه ، ثم طلب إليه سيجنوس أيضاً أن يروّض ثوراً وحشياً فأبى أن يفعل

ذلك ، إذ لم يكن الغلام يبادله عاطفة بعاطفة . وأخيراً أبى فيليوس أن يستجيب لإلحاح ذلك الصبى فيروّض له ثوراً إرضاءً له ، فصاح فيه سيجنوس غاضباً « عما قريب ستقول يا ليتنى روّضت لك الثور »[٢٧] . ومضى سيجنوس فألقى بنفسه من فوق صخرة عالية فظن الجميع أنه مات على حين أنه تحوّل إلى طائر البجع ، وأخذ يرفرف فى الهواء بجناحين فى بياض الجليد ، وباتت أمه تبكيه حتى ماتت فتحوّلت إلى بركة تحمل اسمها . وعلى مقربة منها پليورون[٢٨] التى طارت إليها كومبى ابنه أوفيس[٢٩] فراراً من أبنائها الذين كانوا يريدون إيقاع الضر بها . وألقت ميديا بعد ذلك نظرة على حقول كالاوريا[٣٠] المكرّسة لابن ليتو [لاتو][٣١] والتى تحوّل ملكها وملكيتها إلى طائرين ، ولمحت على يمينها كيلينيه حيث قدّر القدر أن يأتى مينيفرون بها ما تأتيه البهائم ، وذلك حين غَشىَ أمّه ، ورأت غير بعيد سيفيسوس ينعى مصير حفيده الذى حوّله أپوللو إلى فقمة ، كما رأت كذلك دار يوميلوس[٣٢] الحزين على ولده الذى تحول إلى طائر . وأخيراً وصلت بدوابّها المجنّحة إلى كورنثه حيث ينبثق الينبوع المقدس « پيرينى » ، وحيث كانت تتوالد من نبات عش الغراب كائنات حيوانية تنتعش مع المطر[٣٣] .

ولم تكد عروس چاسون الجديدة تموت بعد أن هرأ الثوب المسموم الذى بعثت به إليها الأميرة الكولخيسية ، ويشهد البحران على كلا جانبى البرزخ اضطرام النار فى دار الملك ، حتى حملت ميديا سيفها المخضب بالدماء بعد أن انتقمت انتقامها المروّع بقتل أبنائها من چاسون وهربت فراراً من غضبه ، فحملتها دوابّها المجنّحة إلى مدينة أثينا قلعة پالاس حيث طارت فينى أشرف النساء فى صحبة پيريفاس[٣٤] العجوز ، وكذلك حيث طارت ألكيونى[٣٥] حفيدة پوليپيمون محلّقة عالياً بجناحيها اللذين اكتسبتهما . وفى أثينا رحّب الملك أيجيوس بميديا ، ولم يكتف بإيوائها بل اتخذ منها زوجة له[٣٦] .

ثيســـيوس

وإلى أثينا وصل ثيسيوس الذى وطدّ السلام وأشاع النظام فى أنحاء البرزخ المحاط بالبحرين ، ولم يكن الملك أيجيوس يعرف أنه ابنه ، فحرصت ميديا على أن تعدّ له شراباً من جذور البيش السامة « الأقونيطن » التى كانت قد جلبتها معها من شواطىء سكوثيا والتى يقال إنها نبتت أول ما نبتت من أنياب الكلب الإخيدنى كيربيروس الذى عاش داخل كهف مظلم ينفذ منه طريق إلى العالم السفلى وهو الطريق الذى اجتازه هرقل بطل تيرينث ، بعد أن شدّ وثاق كيربيروس بسلسلة من الفولاذ ، بينما كان الكلب يقاوم ويدير رأسه بعيداً عن ضوء النهار . وحين تملكت كيربيروس ثورة الغضب ملأ الفضاء بنباحه القوى الصادر عن رءوس ثلاثة ، فأخذت قطرات اللُعاب التى هى أشبه ما تكون بالزَّبَد الأبيض تتناثر من خطمه هنا وهناك فى الحقول الخُضر . وإذا هى تثبت وتضرب بجذور لها فى التربة الخصبة التى أينعتها ، وإذا هى تُنبت نباتاً ضارّاً من جنسها ، وإذ انبثق هذا النبات وسط الصُخر لذا سمّاه أهل الريف أزهار الصخر « الأقونيطن » . وأمسك أيجيوس الكأس المسمومة ليقدّمها لهذا الطارىء وكأنه يقدّمها لخصم من خصومه

وكانت ميديا قد أخفت عليه أن هذا الطارىء ابنه . وما إن رفع ثيسيوس الكأس إلى شفتيه وهو لا يدرى ما دُبِّر له حتى أبصر الأب نقش شعار أسرته على المقبض العاجى لسيف البطل ثيسيوس فإذا هو يعرف فى التوّ أن هذا الطارىء ابنه ، فأطاح بالكأس القاتلة عن شفتيه . فخفّت ميديا وولّت وجهها هرباً خوفاً من الموت الذى كان يتعقّبها ، وإذا هى تطويها السُّحب بين طيّاتها وكانت قد أهابت بها بتعاويذها لتنجو .

وأحس أيجيوس رغم سعادته بنجاة ابنه بشىء من الفزع لهذه الجريمة البشعة التى كادت أن تقع فأشعل المصابيح على المحاريب ، وأتى بالثيران المزدانة الرءوس بالأكاليل وذبحها قرباناً للآلهة ، فكان يوماً مشهوداً فى حياة الأثينيين ، إذ اجتمع كبار القوم وعامة الشعب فى حفل ترفرف عليه البهجة ، أطلقت الخمر فيه الألسن فراحت تتصايح : « شكراً لك ولشجاعتك يا ثيسيوس العظيم ، يا فخر ماراثون ، لأنك قويتَ على ذبح الثور الكريتى[٣٧] ، ولأنك منحت فلاحى الحقول الممتدة حتى كروميون[٣٨] الطمأنينة بعد قتلك للخنزير الوحشى . لقد شهدت أرض إپيداوروس مصرع ابن ڤولكانوس المسلّح بالهرواة على يديك[٣٩] ، كما شهدت شواطىء سيفيسوس نهاية پروكروستيس القاسى[٤٠] ، ورأت إليوسيس المدينة العزيزة على الإلهة سيريس موتَ سيرسيون[٤١] ، كما قضيتَ على سينيس الذى كان يتعدّى طورَه بقوته الخارقة فيثنى جذوع الأشجار ويُميل قمم أشجار الصنوبر حتى تلمس الأرض ويربط بها ضحاياه لتتمزق أعضاؤهم وتتناثر ، وأصبح الطريق إلى ألكاثوى[٤٢] مدينة ميجارا بفضلك آمناً ومُباحاً للجميع منذ قتلت اللص سكيرون الذى رفضت الأرض والبحار أن تضم رفاته فظلت الرياح تتقاذف عظامه حتى صارت مع الأيام صخوراً ارتبط بها اسم سكيرون . ولو أنا شئنا أن نحصى أمجادك ووازنّاها بسِنِى عمرك لأرْبَتْ عليها عدًّا ، وكم نتمنى لك يا أشجع الأبطال أعظم الأمنيات فنرفع الكئوس تكريماً لكَ » . ودوّى تصفيق الشعب ودعواته فى جنبات القصر الملكى ولم يعد فى المدينة مكان لم يعمّه الفرح .

آيــــاكوس

إن السعادة الخالصة لا تدوم ، فسرعان ما تتسلل الهموم لتعكّر صفو الأفراح ، وهكذا تغيّرت فرحة أيجيوس بعودة ولده إلى قلق بإعداد مينوس[٤٣]) ملك كريت العدَّة للحرب انتقاماً لمقتل ابنه أندروجيوس . وكان لمينوس جيش قوى وأسطول جبار ، كما كان يطوى صدره على حقد دفين ، فحرّك سفنه السريعة التى تمثل قوته الضاربة ليكتسح بها البحار ، وأخذ يجمع جيوشاً من حلفائه كى يحاربوا إلى جانبه . فاستمال إليه جزيرة أنافى بوعود قطعها على نفسه ، وضم إليه جزيرة أستيباليا السيكلادية قسراً ، وانضمتْ إليه جزيرة ميكونوس الخالية من المرتفعات ، وجزيرة كيمولوس ذات التربة الطباشيرية ، وجزيرة سيروس التى ينمو بها الزعتر البرّى ، وجزيرة سيريفوس المنبسطة السهول ، وجزيرة پاروس المترعة بالرخام الجميل ، وجزيرة سيفنوس التى باعتها الخائنة آرنيه الطرواقية[٤٤] للأعداء لقاء ذهب دفعها جشعُها إلى

طلبه منهم ، تلك الفتاة التى تحولت بعد حصولها عليه إلى طائر يسمى غراب الزَّرع الأسود القدمين والجناحين ، والتى ظلت تهيم بحب الذهب إليها بعدتحولها طائراً . غير أن أولياروس وديديماى وتنوس وأندروس وجياروس وبيباريثوس التى تتكاثر فيها حبّات الزيتون الناصعة أبت أن تدعم أسطول ملك كريت .

واتجه مينوس إلى أوينوبيا مملكة أياكوس التى أطلق عليها اسم أمه إيجينا فخرج لاستقبال مينوس حشد كبير من الناس مرحّبين به فى حماس ، وأسرع للقائه تيلامون يصحبه شقيقاه پيليوس وفوكوس اللذان يصغرانه . كذلك خرج أياكوس يمشى واهناً تحت ثقل شيخوخته مرحّباً بمينوس وسأله عن السبب فى قدومه إلى بلاده ، فقال له عاهل المدن المائة الحزين على ولده : « جئت أنشد عونك فى الحرب التى أخوضها لأثأر لابنى ، وكم أود أن تمدّنى ببعض رجالك ليكونوا جزءاً من جيشى فى تلك الحرب العادلة . إنى أناشدك أن تمدّلى يد المعونة لأستطيع أن أهوّن عن نفسى ما أجده من وحشة لابنى فى قبره » . فأجابه أياكوس حفيد أزوپوس قائلاً : « أن أجيبك إلى ما تطلب من المحال بمكان ، فليست ثمة بلاد أوثق تحالفاً مع بلاد آل كيكروپس [الأثينيين] منّا ، فبيننا معاهدات وثيقة » . ووجم مينوس وانصرف وهو يقول : « لتجنُوَنّ شرّ العواقب الوخيمة من جراء تلك المعاهدات » . قال هذا إيثاراً منه بأن يلوّح بالحرب دون أن يتورط فى إشعالها فيبدّد طاقاته سريعاً .

ولم يكن الأسطول الكريتى قد ابتعد كثيراً عن شواطىء أوينوبيا حين أقبلت على مينائها سفينة مسرعة من أثينا تحمل كيفالوس برسالة من بلاده . وتعرّف أبناء أياكوس على كيفالوس رغم مرور زمن طويل على رؤيتهم السابقة له ، وصافحوه فى حرارة ومضوا به إلى قصر أبيهم . وكان كيفالوس يسترعى أنظار المارة بوسامته التى ظل محتفظاً بها ، وبغصن الزيتون الذى يحمله رمزاً لبلاده ، ويسير وسط سفيرين من أبناء أثينا أصغر منه سنّاً هما كليتوس وبوتيس ابناً پاللاس .

وبعد تبادل التحيات المتعارفة ألقى كيفالوس نص رسالة شعب أثينا الذى ينتظر العون من حلفائه وفقاً للمعاهدة التى وقّعها الأسلاف ، والوقوف فى وجه مينوس الذى يعتزم بسط سيطرته على اليونان بأسرها . وحينما انتهى السفير من رسالته ذات المنطق الدّال والعبارة البليغة ، أجابه أياكوس وهو قابض بيده اليسرى على صولجانه قائلاً : « يا أهل أثينا لكم ماشئتم من عون من غير أن تسألونى إياه ، وليكن كل ما نملك من قوة عسكرية أو ثروة مادية دون تردد ملكاً لكم ، ولا تعوزنى هنا الموارد ، كما أن لى من الجند فوق ما أحتاج للدفاع عن بلادى ضد الأعداء ، وشكراً للآلهة على ما أعطتنى . وهكذا ترى أنه ليس لى ثمة عذر للتخلّف عن عونكم » . فرد عليه كيفالوس : « ليدُم لكم رخاؤكم وليَنْمُ مع الزمن ، وكم اغتبطت الغبطة كلها منذ أن وطئت قدمى بلادكم بلقاء هذا العدد الغفير من شبابكم المملوء فتوة ووسامة ، غير أنى لا أجد هنا الكثير ممن سعدت بلقائهم فى زيارتى الأولى لكم » .

وتنهد أياكوس وبدت فى صوته رنة أسى وهو يجيب قائلاً : « لقد عشنا محنة قاسية قبل أن ننعم بهذا الرخاء الذى تشهده الآن ، وسوف أسرد عليك الأحداث المتلاحقة لهذه المحنة دون أن أضيّع وقتك سدى

بالأحداث العارضة . فقد ذهبت المحنة بهؤلاء الشبان الذين تحاول عبثاً أن تلقاهم وهم على هذا لا يمثلون غير جزء ضئيل ممن فقدناهم .

الطاعون في إيجينا

عمّ البلاد طاعون مُهْلك أرسلته علينا الإلهة چونو غضباً وحقداً على بلادنا التى تحمل اسم غريمتها[٤٥] ، ولقد حسبناه بادىء ذى بدء وباء عاماً لم ترسله علينا قوى إلهية ، فإذا نحن نقاومه بوسائلنا الطبّية غير أن هذه الوسائل لم تلبث أن انهارت أمام تلك المحنة القاسية الضارية .

كانت السماء قد أعتمت فى الأيام الأولى وأرسلت ضباباً كثيفاً جثم على الأرض حابساً فيها هواء وَمِداً ما لبث أن أتى على نشاط الناس وحيويتهم ، واكتمل البدر مرات أربع وعاد هلالا مرات أربع ، وريح الجنوب تهب حارة محرقة ، ومياه الينابيع والبحيرات قد تلوّثت بالجراثيم التى نشرتها آلاف الثعابين الزاحفة عبر الحقول الجرداء فى الجداول والأنهار ، وأخذ الوباء بضراوته يعاجل الكلاب والطيور والأغنام والثيران والوحوش فبدأت تتساقط ميّتة ، وعمّ الأسى المزارعين التعساء وهم يشهدون ثيرانهم القوية تهوى صرعى وهى تحرث ، وكباشهم الكثيفة الصوف تئن تحت ثقل المرض ويتساقط صوفها وتضمر أجسادها ثم تنفق ، ولم تعد الجياد تعرف حلقات السباق وقبعت فى أماكنها تئن أنين الموت . كذلك لم تعد للخنزير البرّى ضراوته ، وفقد الغزال سرعته التى كانت تعينه على الفرار من الوحوش ، وجمدت الدببة عن التصدّى لقطعان الماشية إذ غدت أكثر منها ضعفاً ، وتعفنت الجثث فى الغابات والحقول والطرقات وملأت رائحتها الكريهة الهواء . والغريب أن الكلاب والذئاب والطيور الجارحة قد عافت هذه الجثث فتركتها تتحلل وتفنى مدنِّسة الأجواء بنتنها ، ناشرة الوباء فى الآفاق الفسيحة .

واستفحل خطر الوباء حين انتشر بين الفلاحين البؤساء وسقطت مدينتنا الكبرى فريسة له . وكان يبدأ دائماً بأمعاء ضحاياه فيجعلها تضطرم حرارة تحمرّ معها جلودهم وتلهث أنفاسهم ، ثم تنتفخ ألسنتهم وتخشوشن ، وتجف شفاههم وتظل منفرجة تحاول التقاط الأنفاس من الهواء الحار الملوّث . ولم يكن المرضى يطيقون البقاء فى الفراش أو يحتملون غطاء فكانوا ينبطحون على الأرض طلباً لسطح ندىّ ، غير أن الأرض كانت ترتد ساخنة عندما تلامسها أجسادهم . وعجز الأطباء عن الكشف على المرضى لتفشّى المرض بينهم هم أنفسهم ، بل لقد أصبحت مهنة الطب أقصر الطرق إلى التقاط العدوى ، فكلما كان الطبيب أكثر مخالطة للمريض وتفانياً فى رعايته عجّل ذلك بإصابته ثم بموته . ودفع اليأس بالمرضى إلى الاستسلام لنزواتهم وإهمال ما كان يمكن أن يكون فيه خيرهم ، فتباعدوا عن العفة والوقار ، ورابطوا عند الينابيع والأنهار يحاولون إطفاء ما أصابهم من ظمأ لا يطفئه إلا الموت ، إذ كان بعضهم ينحنون على الماء الجارى ليشربوا منه ، ثم إذا هم أعجز ما يكونون عن أن ينهضوا فيموتون غرقا فى هذا الماء الذى جاءوا إليه ليطفىء حرارة أجسامهم ، وبالرغم من ذلك كان غيرهم يتوافدون بلا انقطاع على المياه . وكان كثير من

هؤلاء البؤساء يضيقون برقدتهم على الفراش ويزحفون بعيداً عنه ، وكان بين من تخونهم قواهم من يتدحرجون إلى الأرض فراراً من دورهم التى كانوا يخالون أن الموت جاثم فيها ، فلقد حسبوا جهلاً أن دورهم الخانقة هى علّة مرضهم . وكان ثمة مرضى تغشاهم حالة بين اليقظة والغيبوبة يهيمون على وجوههم فى الطرقات ما وجدوا القدرة على السير ، بينما كان الآخرون الذين لا يقوون على الحركة ينوحون راقدين محدقين بنظراتهم الزائغة فى الأفق ، رافعين أيديهم إلى السماء إلى أن يفاجئهم الموت فيلفظون أنفاسهم وهم على هذه الحال .

فإذا كنت سائلى عمّا كنت أشعر به حينذاك ، فلقد كنت أيأس ما أكون من الحياة ، وكم تمنّيت أن يكون مصيرى مصير شعبى ، إذ كنت حيثما أجلتُ البصر رأيت أجساداً هنا وهناك متناثرة فوق الأرض وكأنها تفّاحات يانعـة قد اكتمل نضجها فتساقطت من أشجارها ، أو كثمار البلّوط المتناثرة تحت شجرتها التى عركتها العاصفة . أرأيت هذا المعبد المواجه لنا فوق التلّ والذى نرقى إليه بدَرَج ؟ إن الذى يسكنه هو چوپيتر . أوَ تظنّ أنه لم يجد من يُقدِّم له القرابين ويُطلق البخور على مذابحه ؟ لقد وجد يقيناً الكثير منهم ، غير أن شيئاً من ذلك لم يُجْد نفعاً فى كشف الغُمَّة عنا . وكم من أزواج صلّوا من أجل زوجاتهم ، وكم من آباء صلّوا من أجل أبنائهم ، فسقطت زوجاتهم وأبناؤهم موتى عند المحاريب قبل أن تُسمع دعواتهم وقد أطبقوا أكفّهم على أعواد البخور التى كانوا يبغون إحراقها . كما كانت الثيران التى ساقوها إلى المعابد تنفق قبل أن تُنحر ، بينما كان الكاهن يتلو عليها صلواته ويصبّ النبيذ بين قرونها . وقد حدث حين قدّمتُ أنا قرباناً لچوپيتر عنى وعن بلادى وعن أولادى الثلاثة أن صاح ثور القربان فزعاً وسقط على الأرض ، فلما أعملت السّكّين فى حلقه لم تقطر منه سوى قطرات قليلة من الدم ، فلقد أسلم روحه قبل أن يُذبح .

على أن أحشاء الحيوان التى ماتت بهذا الطاعون لم يوجد فيها ما يكشف عن كُنْه الوباء أو ما يحمل نذيراً من نُذُر الآلهة . فقد كان هذا المرض المروِّع يسرى فى الجسم حتى يبلغ الأحشاء فيقضى على صاحبها عجلاً . وكم رأيت من جثث على عتبات المعبد وأخرى بين يدى المحراب وكأنما أراد ذوُوها بميتتهم هذه فى تلك الأماكن أن يسترحموا الآلهة ، وقد خلصوا من الحياة بخنقهم أنفسهم بالحبال هرباً من رعب الوباء ، فعجّلوا مُريدين إلى هذا المصير المحتوم . ولم تكن ثمة طقوس جنائزية لأولئك الموتى الذين أتى عليهم الطاعون ، كما لم تُحمل جثثهم لتُدفن خارج المدينة كما هى العادة إذ لم تكن أبواب المدينة تتّسع لمرور هذه الجنازات التى لا تُحصى فتُركت كثرة من الجثث على وجه الأرض ولم تُوار فى مقابر تسترها ، وكذا تراكمت جثث أخرى فوق المحرقة دون أن تظفَر بطقوس الإحراق ففقدت مناسك الإحراق قُدسيّتها ، وإذا الناس يتدفّقون بجثث أخرى إلى المحارق ليزاحموا غيرهم عليها . ولم يترك هذا الوباء لباكٍ أن يبكى فقيده ، وكم من أطفال وآباء وشباب وشيوخ ولّوْا دون أن تُذْرف عليهم دمعة ، وضاقت الأرض بموتاها فلم يعد ثمة مكان لقبرٍ ما ، كما لم يبق من الأشجار ما يكفى لإيقاد نيران المحارق .

الميرميدون

وأصابنى هول الكارثة بالأسى العميق فأدرت وجهى للسماء أصيح متضرعاً : « أى چوپيتر ، إن حقاً ما يقال إنك ضاجعت أمّى إيجينا ابنة أزوپوس ، وإنك تُقرّ أيها الإله القدير ببنوَّتى من غير حياء ولا خجل ، فأعِدْ إلىّ رعاياى أو فلتُمِتْنى معهم » . وإذا أنا أرى وميض برقٍ وأسمع قصف رعدٍ ، فأيقنت أن چوپيتر استجاب لدعائى ، فانطلق لسانى يقول : « إلهى ، لقد لقنتُ معنى إشارتك التى أرجو أن تكون بشارة خيرٍ لى ، ثم أهلا بهذا الوعد الذى وعدتنى به » .

ونظرتُ إلى شجرة البلوط القريبة المتفرّعة الأغصان التى هى وقفٌ على چوپيتر والتى هى نبتةٌ من بذرةٍ من أجمة دُودُونَا المقدّسة[٤٦] ، فإذا أنا أرى رتلاً طويلاً من النّمل فى أفواهه ذرّات وهو يسير بها فى شقٍّ من تجاعيد جذع الشجرة ، فتأمّلت مُعْجَباً أعداده الغفيرة واتجهتُ إلى الإله داعياً : « يا أجلَّ إله ، هَبْ لى عدد هذا النمل أناساً يملأون بلادى الخاوية » ، فإذا شجرة البلّوط تُرْعِد وإذا فروعها تتمايل ولا وجود لريح عابرة . ومع أننى كنت أرعدُ خوفاً وتأثّراً انتصب معهما شعر رأسى هُرِعْتُ لألثم الأرض والشجرة بقبلاتى وقد امتلأت نفسى آمالاً كتمتُها فى أعماقى دون أن أبوح بها لغيرى .

وأرخى الليلُ سدوله واستسلمنا للنوم تحت وطأة الهموم ، ورأيتُ فى منامى شجرة البلّوط بفروعها وأعداد النّمل الغفيرة عليها وهى تهتزّ هِزَّتها التى رأيتها فى اليقظة ، وجموع النّمل تتساقط منها حاملة الذرّات منتشرة بها وسط الحقول . وعلى حين بغتة بدأت تبرز من الأرض مخلوقات صغيرة أخذت تكبرُ ثم تكبرُ حتى انتصبت وقد اختفت سيقانها الدقيقة وألوانها الداكنة ، فإذا هى على صورة البشر . وعندها زايل النوم جفونى حتى إذا عاودتنى اليقظة إذا الحُلْم هباء لا حقيقة له ، فعزَّ علىّ ما حرمتنى إياه الآلهة . غير أن جلبةً مُدوِّية فى أنحاء قصرى لفتت سمعى ، وخُيِّل إلىّ أننى أستمع إلى أصوات بشرية ما أطول حرمانى من الاستماع إليها ، وخِلتُ أن هذا لم يكن غير بقيّة من آثار النوم ، وإذا تيلامون يدفع علىّ باب حجرتى ويخطو نحوى قائلاً : « هلمّ يا أبى فسوف تشهد شيئاً فوق الآمال والخيال » . وخرجتُ فإذا أنا أرى الرجال أنفسهم الذين رأيتهم فى منامى فى صفوفهم نفسها التى كانوا فيها ، فأَنِسْتُ بهم وإذا هم يُقبلون علىّ ويُحيّوننى تحيّة المليك . عندئذ وفّيتُ نذرى لچوپيتر ، وفرّقتُ دور المدينة وحقول الريف التى مات أصحابها بين أفراد هذا الشعب الجديد الذين سمّيتُهم باسم الميرميدون[٤٧] حتى يبقى ذكرُ الأصل الذى منه نبتوا مرتبطاً بالاسم الذى غَدَوْا يحملونه ، ولقد رأيتهم أنت رؤية العين ؛ غير أنهم ظلّوا يحتفظون بطبعهم فهم لايزالون يُحْسنون الاقتصاد والتدبير ، ولا يُقْعدهم الجهد ، ويحرصون على ما يقتنون ، ويختزنون ما يجمعون ، ولسوف يكون لك منهم فى الحرب جنود يتماثلون سنّاً وشجاعة حالما تسكن ريح الشرق التى جاءت بك هنا لخيرنا [وكانت ريح الشرق هى التى جاءت به فعلاً] فينفسح المجال لريح الجنوب » .

كيفالوس وپروكريس

مضى النهار الطويل فى رواية القصص ، وشهدت ساعاته الأخيرة إقامة المآدب ، وأتى المساء فحملهم إلى النوم . وكانت الرياح الشرقية ما تزال تهبّ حينما أشرقت الشمس بأشعّتها الذهبية ، وكانت السفن ما تزال راسيه فى الميناء رغم الحنين العاصف إلى العودة ، فمضى ابنا پالاس فى رفقة كيفالوس للقاء الملك الذى كان نائماً بينما كان الأميران تيلامون وپيليوس منشغلين فى تعبئة الجند للحرب ، فقام فوكوس الإبن الثالث للملك أياكوس باستقبال سفراء أثينا عند مدخل القصر ومضى بهم إلى أحد أبهائه الجميلة ، وقد لمح فى يد كيفالوس حفيد أيولوس رمحاً من خشبٍ مجهولٌ نوعه صيغ له سنّ من الذهب فقال له متسائلاً : « إن اهتمامى بالغابات وبالصيد كبير ، ولذلك فقد أثار عجبى ذلك الخشب الذى نُحت منه رمحك ، لأنه ليس من خشب البلوط وإلاّ كان أصفر ، كما أنه ليس من خشب القرانيا وإلاّ كان ذا عُقَدٍ كثيرة ، إننى لا أدرى من أيّة شجرة هذا الرمح ، ومع هذا فإن عينى لم تقع على أجمل منه » ، فأجابه أحد السفراء قائلاً : « لسوف يثير إعجابك أداؤه أكثر مما يثير إعجابك شكله ، فهو لا يخطىء هدفه ولا تحرف به المصادفات عن وجهته متى انطلق ، كما أنه يرتد من تلقاء نفسه إلى مُرْسِلِه ملوّثاً بدم ضحيته دون أن يعيده أحد » . وتتابعت أسئلة فوكوس سليل نيريوس عن الرمح ومصدره ومن أعطاه لكيفالوس . وأجاب كيفالوس على أسئلة الأمير ، غير أنه لم يفصح بشىء عن الثمن الباهظ الذى دفعه لحيازة هذا الرمح خجلاً وندماً . وبينما بدأت الكلمات تنساب من شفتيه اعتصرت قلبه ذكرى زوجته التى فقدها واغرورقت عيناه بالدموع وقال :

« من يصدُّق يا فوكوس يا ابن الإلهة أن هذا الرمح هو الذى يُدِرُّ اليوم عينىّ بالدمع كما سوف يُدرُّهما بالدمع على مدى الأيام إن طال بى العمر ، وكم تمنّيت لو لم أملك هذا الرمح أبداً لأنه هو الذى قضى على زوجتى بالموت وقضى علىّ أن أعيش متهدِّماً .

لعلك سمعت عن أوريثيا الأميرة التى اختُطفت من أثينا ، إنها أخت زوجتى پروكريس[٤٨] ، ولو أنك قارنت إحداهما بالأخرى جمالاً وخُلُقاً لرأيت أن پروكريس كانت أَوْلى بأن تُختطف من أختها ، وقد زوّجنى منها أبوها إيريخثيوس ، وكانت عطاء الحب لى حتى نعتنى الناس بالسعيد . وقد كنت سعيداً حقاً ، ولولا إرادة الآلهة لبقيت سعيداً طول العمر[٤٩] . ومع نهاية الشهر الثانى على حفل قراننا ، كنت أنصب شباكى صباحاً يوم لأصيد الوعول ذات القرون فلمحتنى أورورا ربّة الفجر التى كان نورها الزعفرانى قد قشع الظلمة فاستولت على لُبِّى على الرغم منى . وكم أتمنى أن يؤذن لى فأقول الحقيقة دون أن أُغضب هذه الإلهة . حقاً ، لقد كانت ربّة الحدّ الفاصل بين الليل والنهار وخلاّبة الحسن وردية الشفتين ، غذاؤها جرعات النكتار شراب الآلهة ، غير أنى كنت أعشق پروكريس التى كانت تحيا فى قلبى ولا ينطق فمى بغير اسمها ، فذكّرتها بمواثيق الزوجية وبزفافنا الحديث العهد وضمّات عناقنا ولقاءاتنا فى عُش الزوجية الذى

غادرته منذ لحظات ، فإذا الإلهة تمتلىء حقدا وتقول : « كُفّ عن هذا التّوله أيها الناكر للجميل ، واحفظ عليك زوجتك . وإذا قُدّر لى أن أرى المستقبل جليّاً فإنك سوف تكون من النادمين إن أبقيت عليها » ، وصرفتني غاضبة لأرجع إلى زوجتى . وأخذت خلال عودتى أستعيد حديث الإلهة ، وبدأت الخشية تراود نفسى ألّا تكون زوجتى أمينة على رباط الزوجية ، وكان جمالها وشبابها يدفعانى إلى الشك فى إخلاصها لى بينما كانت فضائلها تردّنى عن هذا الشّك . ثم إنى كنت عائداً من عند إلهة زيّنت لى لوناً من ألوان الخيانة ، كما أننا نحن العشّاق نرتاب فى كل شىء عندما نعشق . وهكذا عزمتُ على أن أختبر تلك التى كانت سبب همّى ، وأن أحاول اختبار إخلاصها وعفّتها بإغرائها بالهدايا . وضاعفت « أورورا » شكوكى ، فغيّرتْ ملامح وجهى فشعرت أنى تحولت من حال إلى حال .

دخلتُ أثينا مدينة پالاس فى صورة لا يعرفنى معها أحد ، ودلفت إلى بيتى فوجدت كل ما فيه ينطق بالطهارة والعفّة وحُزن صاحبة الدار على غيبة زوجها . وبعد محاولات عدّة نجحت فى أن أحظى بمقابلة پروكريس فلما رأيتها اهتزّت نفسى وكدتُ أُعرض عن اختبار إخلاصها ، ولم أستطع إلّا بصعوبة منع نفسى من أن أعانقها كما كان ينبغى أن أفعل . كانت حزينة ، غير أنها رغم حزنها كانت أجمل من أى امرأة سواها فقد كان الأسى على بعاد زوجها يُثقل على قلبها . ولك أن تتخيّل يا فوكوس كيف كان سحرها والحزن يُضفى عليها فتنة طاغية . هل أقص عليك كم من المرات صمد طُهرها أمام محاولاتى ، وكم من المرات قالت لى : « إننى أصون نفسى لرجل واحد حيثما كان ، وإننى لا أُشركُ سواه فى المتعة بى » ، فأى رجل عاقل لا يقنع بهذا السلوك دليلاً على إخلاصها ؟ لكنى لم أقنع وجاهدت كى أطعن نفسى بنفسى . وانتهى الأمر بأن هَوّنت من صمودها بعد أن ضاعفتُ عطاياى لها ووعدتها بثروة طائلة لقاء قضاء ليلة معها . وعندها صرختُ فى وجهها : « ما أسوأ حظك ، فليس هذا الذى يدّعى العشق بين يديك غير زوجك . فمعى الآن البرهان على خيانتك » . وإذ طوّقها العار لم تنبس ببنت شفة وولّت فارّة من زوجها المداهن وقد علاها الخجل ، تاركة الدار التى نصب زوجها لها فيها هذا الشرك . ومن أجل فعلتى نَبَذَتْ الرجال جميعاً ، وانبرت هائمة على وجهها فى الجبال مكرّسة نفسها لخدمة ديانا إلهة الصيد .

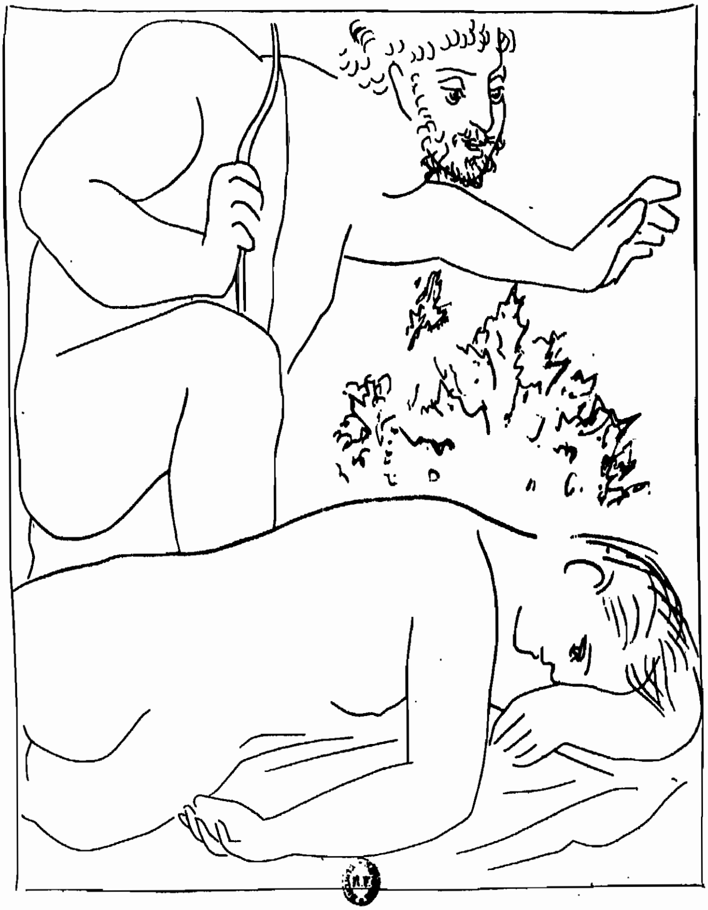
واشتعل حبى لها بعد أن تركتنى بنار أشدّ ضراوة مما كنت أحسّها قبلُ ، ورُحت أتوسّل إليها أن تغفر لى ، واعترفت لها بخطئى وبأن تلك الهدايا لو قُدّمت لى لتردّيتُ فى الخطأ نفسه ، وبعد هذا الاعتراف منى وبعد أن انتقمت للإهانة التى طعنتُ بها شرفها قبلت أن تعود إلىّ فأمضينا معاً سنوات هانئة كنا فيها على خير وفاق . وكأنما لم تكتف بالهدية التى منحتنى إياها بعودتها إلىّ ، فقدّمت لى كلباً كانت قد تلقّته من الإلهة التى وضعت نفسها فى خدمتها قائلة لها : « إنه يسبق جميع الكلاب الأخرى » ، كما أعطتنى فى الوقت نفسه هذا الرُّمح الذى تراه الآن بين يدى . وإنك لا شك راغب فى أن تعرف مآل هذه الهدية الثانية ، ولسوف يغلبك العجب حين تستمع إلى قصته الغريبة :

نجح أوديپ بن لايوس فى أن يفسر الأحاجى التى لم تبلغ كنهها العقول الأخرى ، وألقت سفنكس تلك العرّافة الغامضة بنفسها من الجُرف فخمدت ميّتة بألغازها وأحاجيها . ولا شك أن الإلهة المنصفة

ثيميس لم تكن لتقبل أن تترك هذه الخطايا دون جزاء[٥٠] ، فأرسلت فى التو بلاء ثانياً إلى أيونيا جثم على مدينة طيبة فى صورة وحش أثار الرعب بين سكان الريف خوفاً على أنفسهم وعلى قطعان ماشيتهم . فذهبتُ مع شباب البلاد المجاورة ونصبنا شباكنا حول السهل الفسيح ، غير أن الوحش تخطّاها بقفزة سريعة خفيفة وأفلت من حبال الشراك التى كنا قد شددناها . فأطلقنا خلفه مجموعات من الكلاب التى أفلت الوحش منها فى سرعة الطير ، فصاح بى الجميع أن أُطلق كلبى « لايلاپس » وهو الكلب الذى أهدته إلىّ زوجتى بينما كان يجاهد محاولاً الإفلات من السلسلة المشدودة فوق عنقه ، ولم أكد أُطلق سراحه حتى اختفى عن عيوننا فلم نعد نعلم مكانه . كان الغبار المُثار يدلّ على آثار خطاه ولكنه اختفى عن عيوننا ، ولم يكن الرمح بأسرع منه ، ولا القذيفة المنطلقة من مقلاع يتأرجح فى الهواء ، ولا السهم النحيل المنبعث من قوس كريتى .

وكان ثمة تلٌّ يُشرف على الحقول المحيطة فتسلّقتُه وتطلّعتُ من فوقه إلى مشهد سباق فريد ، فكان يُخيَّل لى أحياناً أن الوحش قد سقط بين فكّى الكلب وأحياناً أنه أفلت من بين فكّيه . وكان الوحش بدهائه لا يمضى عبر السهل على طريق مستقيم بل يميل مرّة يمنة ومرة يسرة حتى يخدع خَطْمَ الكلب الذى كان يتشمّم خطاه ، ثم ينثنى راجعاً ، يدور دورة ودورة ليُضلّ من يطارده وتضطرب معه سرعة هذا المطارِد . ومع هذا اقترب منه الكلب مجارياً إياه فى سرعة العَدْو ويبدو وكأنه قد أمسك به ، غير أن فكيّه لا ينطبقان على غير الهواء . وبادرتُ إلى رمحى وحين أحكمتُ قبضتى عليه لأحسن تسديده حانت منى التفاتة ما كدتُ بعدها أعود بعينى إلى حيث تتعاقب الحيوانات حتى عرتنى الدهشة . ذلك أنى لم أعد أرى فى السهل غير تمثالين من الرخام يبدو أحدهما وكأنه يحاول الهرب من الآخر بينما يبدو ثانيهما وكأنه على وشك افتراس خصمه ، ويقيناً لو أن إلهاً كان يرقبهما ، ما ودّ أن يُكتب لأحدهما الخروج من هذا الصراع مهزوماً .

وأمسك كيفالوس عن الكلام ، فسأله فوكوس قائلاً : « ولكن بم تعيبَ هذا الرُّمح ؟ » فأجمل كيفالوس إثم هذا الرُّمح بقوله : « كانت سعادتى يا فوكوس هى مصدر أساى ، ولأحدثنَّك عنها أولاً . وكم يطيب لى يا ابن أياكوس أن أذكرَ أيام سعادتى ، ففى السنوات الأولى لزواجى كنت سعيداً بزوجتى ، وكانت هى سعيدة بى ، كان كلانا يحب الآخر حتى ما كانت تؤثر على الزواج منى الزواج من چوپيتر ، وما كنت لأقع فى غرام امرأة أخرى ولو كانت ڤينوس نفسها . لقد كنا قلبين يضطرمان بنار واحدة ، وكنت أخرج كل صباح إلى الغابة للصيد فى حماسة الشباب مع الخيوط الأولى للشمس المتسلّلة إلى قم التلال ، ولم أكن أحب أن أصطحب معى خدماً ولا خيلاً ولا كلاباً قوية الشمّ ولا شباكاً مُحكمة الوثاق . كان رُمحى هو كل عدّتى ، حتى إذا كَلَّت كفّى من سفك دم الحيوان الوحشى رُحت أتلمّس الظلال الرَّخِيَّة والأنسام النّديّة التى تتصاعد من أعماق الوادى القارص البرودة . كنت أسعى وراء هذه الأنسام الرّخية وسط حرّ النهار متلهفاً إلى أن تخلّصنى من الإرهاق . وكان من عادتى أن أسترسل فى الغناء ، وأذكر أنى كنت أُردِّد : « أقْبِلى أيتها الأنسام وامنحينى السعادة ، انفذى إلى صدرى أيتها الساحرة ، واطفئى كما عوَّدتِنى تلك النار التى



پيكاسو : كيفالوس وپروكريس

تلتهمنى » . وربما كنت أردّد كلمات حانية أخرى أملاها علىّ قدرى فأترنّم قائلاً : « أنت نشوتى الكبرى ،
٨٢٠ تملئيننى حياة بلمساتك وتحركين فىّ حب العزلة والغابات ، إن فمى أظمأ ما يكون للارتواء من أنفاسك » .
ولقد وقعت هذه الكلمات الغامضة فى أذن من أساء فهمها فتصوّر أن كلمة « أنسام » التى أردّدها هى اسم إحدى الحوريات وظن أنى أهيم بها غراماً . وقد تعجّل هذا الواشى الأحمق وذهب للقاء پروكريس وأسرّ إليها بما سمعه وأفضى إليها بهذه الخيانة الموهومة . ولما كان المحبّ يُبلبله أدنى شك ، فقد سقطت زوجتى مغشيّاً عليها صريعة هذا الخبر المفاجىء المزعوم حتى إذا أفاقت أخذت تندب حظها التعس وظلم القدر وخيانتى لها . وأثارها هذا الاتهام الكاذب وبدأت تخشى شيئاً لا وجود له ، وتخاف اسماً ليس ثمة أنثى تحمله ، وأخذت البائسة تنتحب كما لو كانت لها غريمة حقيقية ، ومع ذلك فقد كانت تشكّ فى صدق هذه

الوشاية ، وكانت تتمنّى فى مأساتها أن يبطل هذا الاتهام ، وترفض أن تصدق الواشى إلّا إذا رأت خطيئة زوجها بعينها ، وإلّا فلن تُدينه .

وفى صباح اليوم التالى حين بدّد الفجر ظلمة الليل خرجتُ متوجهاً إلى الغابة ، حتى إذا انتهيت من الصيد اضطجعت على العشب وأخذت أردّد منشداً : « تعالى يا أنسام ، أقبلى وخلّصينى من الإرهاق » ، وخيل إلى فجأة أننى أستمع إلى أنّات تتردد كالصّدى فى إثر كلماتى ، فواصلت غنائى : « تعالى يا مهجة قلبى » . وسمعت حفيف أوراق تسقط فظننت أن وحشاً يُقبل ، وأطلقت رمحى السريع فإذا هى پروكريس وقد أصابها الرمح فى صدرها تصيح « وامصيبتاه ! » . وتبينت فى عسر صوت زوجتى الوفيّة فهرولت إلى المكان الذى انطلق منه صوتها ، ووجدت پروكريس بين الحياة والموت وقد تلطّخت ثيابها الممزّقة بدمها ، وهى تنتزع من جرحها الرُّمح الذى كانت قد أهدته إلىّ ، وحملت بين ذراعى فى رفق ذلك الجسد الذى أُعِزّه أكثر مما أُعِزُّ جسدى ، وضمّدتُ جرحَها العميق بقطعة انتزعتها من ثوبى ، وجهدتُ فى حبس الدم حتى لا يتدفّق ، واستحلفتها ألا تموت وتتركنى أُعانى بعدها من جريمة قتلها ، غير أن قواها ما لبثت أن خانتها . وكانت فى احتضارها تعانى لتُفصح عمّا فى صدرها من غير إكثار وهى تقول : « أستحلفك بحق رباط الزوجية الذى جمع بيننا ، بحق آلهة السماء وآلهة الأرض الذين أصبحت الآن بين أيديهم ، أستحلفك بحق ما أسبغت علىّ من حنانك ، وبحق حبى لك الذى لم يضعف حتى فى اللحظة التى أُسلمُ فيها الروح ، والذى كان سبب موتى ألّا تسمح « للأنسام » أن تغدو لك زوجة بَعْدِى ، فتأخذ مكانى فى فراشنا » . حينئذ أدركت أن هذا الاسم هو الذى جرّها إلى ذلك الخطأ فكشفتُ لها عن الحقيقة غير أن ذلك لم يُجْد نفعاً ، فغابت عن رشدها وأخذ ما بقى من قواها ينساب مع بقايا دمها ، وظلت محملقة فىّ ، ثم ضمّت صدرى إلى صدرها وأسلمت على شفتىّ روحَها البائسة ، إلا أن قسماتها كانت تَشى بسكينة تشى بانفلات روحها واثقة من إخلاصى لها » .

وانحدرت دموع الشُّبّان جارية حين استمعوا إلى قصة هذا البطل الذى كان دمعه يسيل هو الآخر ، وساعتَها رأوا أياكوس مُقبلاً فى صحبة ولديه الآخرين فى مجموعة من الجند الجدد المدجّجين بأقوى الأسلحة والذين استقبلهم كيفالوس ليمضىَ بهم .

التعقيبات

(١) المينياسيون [أبناء سلالة مينياس] هم أهل أرجوس ، أُطلق عليهم هذا الاسم نسبة إلى مينياس جدّهم لأمهم . وقد أطلق هذا الاسم على چاسون نفسه لأنه كان حفيد مينياس عن طريق أمه ألكيميديه . وكانت پاجاساى بلداً فى خليج پاجاساى جنوب ثيساليا على مقربة من مدينة يولكوس عاصمة مملكة أيسون والد چاسون .

(٢) كان فينيوس ملك طراقيا قد فقأ أعين ابنيه عقاباً لهما على تهمة كاذبة ألصقتها بهما زوجته ، فقضى الآلهة أن يصبح فينيوس كفيفاً ، كما حكموا عليه أن تعذبه الهارپيس ـــ وهى طيور ذات رؤوس نساء بشرية ـــ بعرض الطعام عليه ثم إبعاده عن فمه حينما يقبل على التهامه .

(٣) ينحدر نهر فاسيس من القوقاز ويروى كولخيس وهى چورچيا الحالية ، ويصب النهر فى شرق البحر الأسود .

(٤) الفروة الذهبية هى فروة الكبش الذى حمل فريكسوس وشقيقته هيلى عبر البحر [انظر الكتاب السادس] ، وكانت هيلى قد سقطت فى مضيق الدردنيل الذى أضفت عليه اسمها . وأدرك فريكسوس كولخيس وحده حيث قدم الكبش قرباناً للإله آريس [مارس] .

(٥) كان على بحارة الأرجو أن يتجنبوا صخوراً تطفو على سطح الماء عند مدخل البحر الأسود تسمى السمپليجاديس ، كانت تلتصق بالسفن وتهوى بها إلى قاع البحر .

(٦) أى هيكاتى إحدى ربات القمر والعالم السفلى فى آن واحد ، راعية الساحرات ومفترقات الطرق التى تبث الذعر فى نفوس المسافرين ليلاً . وكانت تمثل على شكل ثلاثة شخوص واقفة ظهراً إلى ظهر تمثل الحالات الثلاث المتوالية للقمر ، أى الهلال ثم البدر ثم المحاق ، لهذا اشتهرت هيكاتى باليقظة لأنها تستطيع الرؤية فى اتجاهات ثلاثة فى الوقت نفسه .

(٧) هو آييتيس والد ميديا وابن الشمس .

(٨) الپيلازجيون اسم أول قبائل عاشت فى اليونان القديمة ، وأصبحت هذه التسمية تطلق فيما بعد على اليونانيين عامة .

(٩) ليست قصة الاستيلاء على الفروة الذهبية هنا إلاّ توطئة لسرد أعمال ميديا السحرية ، وهو ما جعل أوڤيد يطرح جانباً قصة ملاّحى الأرجو .

(١٠) سبق أن ذكرنا أنه شاع بين اليونانيين القدماء أن مصدر خسوف القمر هو محاولات الساحرات التحكم فيه ، وأن إبطال فعل السحر يتم عن طريق قرع الصنوج البرونزية . أما نسبة الصنوج إلى مدينة تيميسا فليس مؤكداً ، وقد يكون المقصود هو مدينة تاموسوس فى قبرص ، وهى مستعمرة فينيقية قديمة تجاورها مناجم النحاس .

(١١) أو إله الشمس أبو آييتيس .

(١٢) هذه الجبال هى التى تكتنف سهول ثيساليا .

(١٣) ذكرت كافة هذه الأنهار فى الكتاب الأول . أما بويبى فهى بحيرة فى ثيساليا عند سفح جبل پيليون .

(١٤) سترد هذه القصة تفصيلاً فى الكتاب الثالث عشر .
(١٥) ربة الشباب وهى چوڤنتا عند الرومان ، وتقابل هيبى عند الإغريق .
(١٦) مسخت حوريات البحر كيرامبوس جعراناً لمحاولته هتك عرضهن وخلفه فوق جبل پارناسوس
(١٧) فى آسيا الصغرى .
(١٨) يعنى أوڤيد شواطىء جزيرة ليسبوس ، وهو يورد هذه القصة بالتفصيل فى الكتاب الحادى عشر .
(١٩) المقصود هنا جبل إيدا فى فريچيا .
(٢٠) كان رعاة البقر يطاردون ثيونيوس بن باكخوس لأنه كان قد سرق منهم عجلاً فحوّله أبوه إلى شكل صياد حتى لا يتعرفوا عليه . وفى الوقت نفسه حول العجل إلى وعل .
(٢١) المقصود هنا مدن مملكة طروادة فقد كان والد كوريثوس هو پاريس بن پريام .
(٢٢) مايرا لقب مشتق من كلمة يونانية معناها الكلبة ، وهى إشارة إلى هيكوبا التى تحولت إلى كلبة بعد مصرع أبنائها [انظر الكتاب الثالث عشر] .
(٢٣) مسخت چونو سيدات كوس بقرات بعد أن قتل هرقل يوريپيلوس بن نپتون .
(٢٤) كان أهل رودس يسمون التلخينيين نسبة إلى تلخينيا وهو لقب من ألقاب چونو . أما ياليسوس فكانت مدينة فى شمال جزيرة رودس يقال إن أهلها كانوا مهرة فى تشكيل المعادن وفى السحر أيضاً .
(٢٥) ألسيداماس هو أحد مواطنى كارثايا وهى مدينة بجنوب جزيرة كوس فى بحر إيچه ، وكانت إبنته كتيسيلا قد تحولت إلى يمامة لأن أباها خطبها إلى رجل آخر غير الذى وعده بخطبتها من قبل .
(٢٦) ليس المقصود هنا وادى تمپى المشهور وإنما إقليم فى بويوتيا . أما سيجنوس المذكور هنا فهو غير سيجنوس الوارد فى الكتاب الثانى وغير ابن پوزيدون [نپتون] الواردة قصته فى الكتاب الثانى عشر .
(٢٧) فيليوس شاب بويوتى كان يعشق سيجنوس بن هريبه عشقاً محرماً ، وقد ازدرى سيجنوس هذه العلاقة قائلاً لفيليوس أنه لو أراد الفوز بعطفه فعليه أن يفتك بأسد ضخم وأن يقتنص نسرين كبيرين على قيد الحياة وأن يقدم لچوپيتر قرباناً ثوراً برياً كان ينشر الرعب فى الريف كله . واستطاع فيليوس تحقيق ذلك كله بالحيلة وبنصائح هرقل ، الأمر الذى جعله ينسى عشقه لسيجنوس .
(٢٨) بليورون مدينة فى جنوب إيتوليا .
(٢٩) كومبى إبنة أوفيوس هى أول من ابتكر الدرع النحاسى . وقد تآمر أبناؤها على قتلها فمسختها الآلهة طيراً كى تنجو من هذا المصير .
(٣٠) تواجه جزيرة كالاوريا شواطىء أرجوس ، وقد اشتهرت لانتحار ديموسثينيس فيها بالسّم ، ولا يرد تحول ملك كالاوريا وملكتها إلى طائرين إلا فى نص أوڤيد .
(٣١) ليتو أم أپوللو وديانا .
(٣٢) كان يوميلوس قد قتل ابنه بوتريس فى ساعة غضب فحوله أپوللو إلى طائر عقاباً له .
(٣٣) أصل هذه الأسطورة مجهول تماماً .
(٣٤) كان بيريفاس ملكاً فى أتيكا قبل كيكروپس واشتهر بالعدالة ، وعبده القوم مثلما كانوا يعبدون زيوس [چوپيتر] الذى نقم عليه إثر ذلك فحوّله إلى نسر صار منذ ذلك ملحقاً بشخص أپوللو ، أما زوجته فينى فقد مسخها عقاباً بحرياً .
(٣٥) ألكيونى هى إبنة القرصان سكيرون دفعها أبوها فى الماء فحولها الآلهة إلى طير القاوند .
(٣٦) يمر أوڤيد بسرعة غير متوقعة على ختام أسطورة ميديا التى انتقمت من چاسون بعد أن تركها من أجل كريوسا بنت كريون ملك كورنثه بأن أرسلت إلى العروس الجديدة وشاحاً وتاجاً مغموسين فى السم ، ثم أشعلت النار فى القصر وذبحت أولادها من چاسون وهربت . وهذا هو موضوع مأساة ميديا عند أوريپيديس وعند سنيكا ، بل وعند أوڤيد نفسه !
(٣٧) تروى الأسطورة أن هذا الثور هو نفسه الذى قبض عليه هرقل ثم ساقه إلى يوبسشيا حيث عتقه . ويقال إن الثور قد عبر برزخ كورنثه وبلغ أتيكا واخذ يثير الرعب بين الناس . وجاء ثيسيوس فروّضه وقادة إلى أثينا ثم قدمه قرباناً إلى الإله أپوللو فى دلفى .

(٣٨) كانت أنثى الخنزير البرى تثير الرعب بين أهل كروميون الواقعة إلى جوار كورنثه . وكانت هذه الخنزيرة حيواناً خرافياً ولدت من تيفون وإخيدنا واستطاع ثيسيوس أن يقضى عليها .

(٣٩) كان پيريفيتيس بن ڤولكانوس [هيفايستوس] يقرع كل من يمرّ به بهراوته النحاسية الضخمة ، واستطاع ثيسيوس أن يتغلب عليه ويسلبه سلاحه الرهيب .

(٤٠) كان اللص پروكروستيس يتصيد المسافرين المارين بمدينة إليوسيس ويرغمهم على الاستلقاء فوق أريكته ويشد أطرافهم ثم يبتر من أجسامهم ما يجعلها تطابق حجم الأريكة . وقد تغلب عليه ثيسيوس وأرغمه على معاناة نفس العذاب الذى كان يذيقه الآخرين .

(٤١) كان سيرسيون بن نپتون يتحدى المارة بإليوسيس إلى المصارعة فيقضى عليهم ، وقد صارعه ثيسيوس وسحقه فى الأرض .

(٤٢) ألكاثوى اسم قديم لميجارا مشتق من اسم أحد ملوكها الذى يدعى ألكاثوس ، وتروى الأساطير أن أحد ملوك ألكاثوى القدامى كان ليلكس الذى وفد عليها من مصر . ويسمى شعب هذه المنطقة بالليليجيين نسبة إلى ليلكس .

(٤٣) « مينوس » لقب يطلق على الشخصية الملكية فى كريت لا على شخص بذاته ، مثل كلمة « فرعون » المصرية . فمنذ فجر التاريخ القديم كان ثمة تمايز بين شخصين يحملان اسم مينوس أحدهما هو ابن أوروپا الأسطورى والآخر حفيده زوج پاسيفاى وعاهل دولة البحار ، غير أن أغلب الشعراء يخلطون بينهما . أما الحضارة المعروفة بالمينوية فقد ازدهرت فى كريت إبان النصف الأول من الألف الثانى قبل المسيح . ومن آثارها المشهورة ما اكتشف فى كنوسوس وماليا على الشاطىء الشمالى وفيستوس فى جنوب الجزيرة . وامتد سلطان كريت حتى مدن أرجوس وفى كافة جزر الأرخبيل .

(٤٤) لم تذكر قصة آرنى إلاّ فى هذا النص .

(٤٥) أطلق أياكوس بن إيجينا وزيوس اسم أمه إيجينا على جزيرة أوينوپيا .

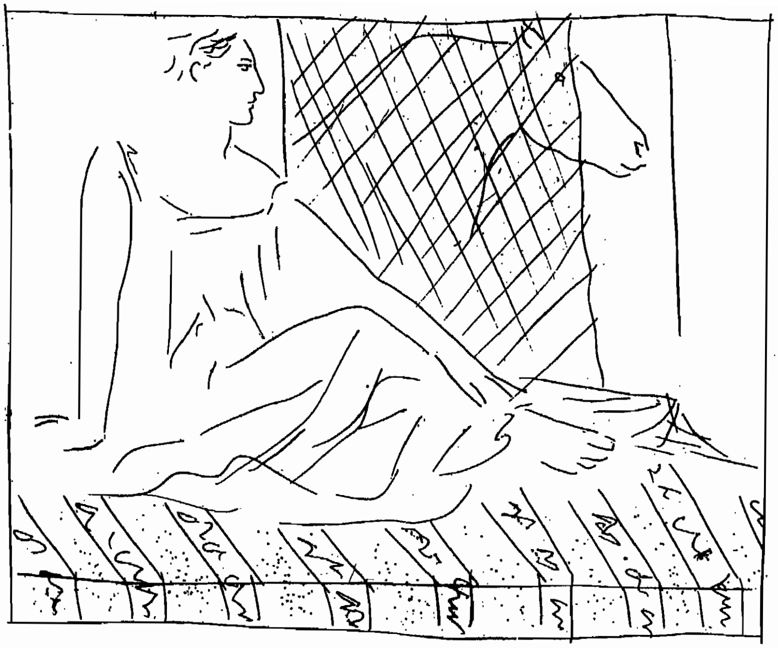
(٤٦) كانت دودونا فى إيپيروس بشمال اليونان تزهو بأهم معابد زيوس فى كافة أنحاء اليونان ، وكان التعبير عن الإرادة الإلهية فيها يتم عن طريق حفيف أوراق شجر البلوط المقدس .

(٤٧) تعنى كلمة ميرميس المشتقة منها كلمة « ميرميدون » باليونانية « النملة » .

(٤٨) انظر الكتاب السادس .

(٤٩) كانت فكرة غيرة الآلهة من سعادة البشر المفرطة مألوفة عند القدامى ، وكانت نيميسيس ربة الانتقام الإلهى تعاقب كل من يزهو من البشر بسعادته ويختال . وقد أعطى أوڤيد مثالاً لهذا الانتقام فى قصة نيوبى بالكتاب السادس .

(٥٠) لا يوجد هذا البيت فى الكثير من مخطوطات كتاب أوڤيد ويعتبر دخيلاً على النص ولا تبدو له أية صلة سواء بما سبقه أو بما لحقه .



پیکاسو: باسیفای والثور

الكتاب الثامن

مينوس وسكيلّلا

كانت نجمة الصُّبح قد أرسلت نور النهار وبدّدت ظلمات الليل حين خمدت ريح الشرق وتجمّعت الغيوم فى السماء ، ونشرت ريح الجنوب الحانية الشراع ليعود كيفالوس بصحبة أبناء أياكوس وأخذت تدفعهم إلى الشاطىء المأمول فبلغوه أسرع مما كانوا يأملون . عندها كان مينوس يغزو شواطىء ميجارا ويختبر قوة جيوشه المحاربة ضد مدينة ألكاثوس التى كان يحكمها الملك نيسوس الوقور ذو الشعر الأَشْيَب تتخلّله على جانبى مِفْرق الرأس خصلة من شعرات أرجوانيّة اللّون متألقة يستمدّ منها قوّته العاتية .

وتراءى الهلال الوليد بقرنيه ست مرات متتالية دون أن يحسم مصير الحرب ، وكان الطَّرَفان يتنازعان النصر منذ أمد طال ، وكان الملك قد أضاف بُرْجاً إلى أسوار المدينة الشّادية ، ويُقال إن أبوللو بن لاتو قد أوْدَع قيثارته الذهبية به ، فأخذت أحجار هذه الأسوار عنها أنغامها وحَذِقَتْها . وما أكثر ما كانت ابنة الملك نيسوس تصعد فى البرج خلال العصر الذى ساده السلام فتلهو برمى الأسوار بحصوات صغيرة فإذا الأسوار تنطلق شادية بالأنغام . وكذا فى أوقات الحرب لم تتخلّف عن أن تصعد فى البرج لتُشْرف على معارك مارس الرهيب . وقد أتاحت لها تلك الفترة الطويلة التى امتدت فيها الحرب التعرّف على أسماء القادة ومالهم من شِكّة وسلاح ، وما يمتطون من جياد ، وما يحملون من جعبات لسهامهم الكريتية الصُّنع ، كما تبيَّنت قسمات وجوه الجنود ، وكان أكثر ما تبيّنت قسمات وجه مينوس بن أوريا قائدهم الأعلى ، بل لقد استشفّت ما وراء تلك القسمات . فكان مينوس فى نظرها وسيما حين يعتمر بخوذته البرونزية المُزْدانة بحزمة من الريش ، ومهيباً حين يرتدى تُرسه الذهبى المتألّق . وكان إذا رمى بذراعه المفتول العضلات رمحه اللَّذْن أُعجبت بمهارة البطل وقوّته ، وحين كان يُثنى قوسه الممتدة وهو يُهَيِّىءُ السَّهم على الوتر إذا هى تُقْسم أنه أشبه بأبوللو عندما يتهيّأ لرمى سهامه . وحين كان يخلع خوذته البرونزية ويكشف عن وجهه وهو فى ردائه الأرجوانى ممتطياً جواده الأبيض المزدان بسرج زاهى الألوان وقد أحكم لجام مطيّته ، إذا إبنة نيسوس تخرج عن رزانتها . وكم كانت تغبط الرُّمح السعيد الذى يُمْسك به ، وكذا جدائل اللّجام التى حظيت بإمساكه بها ، وكم هاجت رغبةً فى أن تنزل فى حومة الوغى بين صفوف الأعداء على الرغم من أنها لاتزال فتاة غضّة العود ، وكم تمنّت لو قذفت بنفسها من البرج إلى حيث معسكر مينوس ، كما تمنّت لو قُدِّر لها أن تفتح أبواب المدينة البرونزية لتُتيح لجيوش الأعداء الدخول ، أو لو كان فى قدرتها أن تحقّق رغبة ما لمينوس .

وكانت وهى فى مكانها الذى تجلس فيه من البرج تستطيع أن ترى خيام الملك الكريتية الناصعة البياض ، وإذا هى تُناجى نفسها قائلة : « لست أدرى أَفَرِحَة أنا أم حزينة لهذه الحرب المشئومة التى تدور رحاها . ثم كم أنا حزينة إذ جَعَلَتْ هذه الحرب من مينوس عدوّاً لى ، ولكنى مع هذا فرحة إذ لولا هذه الحرب ما قُدِّر لى أن أراه . وهل لمينوس أن يضع السلاح على أن يأخذنى رهينة بين يديه فأحظى برفقته لقاء السلام ؟ فلا عجب أن تكون أمُّك يا أجمل الملوك التى أشعلت نار الحب فى فؤاد أبيك الإله صورة منك . وقد أَنْعَمُ مرّات ثلاثاً إذا قُدِّر لى أن أحلّق فى الأجواء بجناحين فأملك أن أهبط فى معسكر مينوس لأكشف له عن حقيقتى وعن ولهى به ، وأنا عندها على أهبةٍ بأن أُجْزِيَهُ ثمنَ حبّه إياى إلاّ أن يكون هذا الجزاء التفريط فى قلعة وطنى . فليحترق عُشُّ الزوجية الذى أحلم به ، فلن يكون ثمن سعادتى خيانتى لقومى . وكم ممّنْ كُتب لهم النصر فى ساحة القتال من رُزقوا الخير فأحسّ المنهزمون لتسامحهم أنهم هم الغانمون . ولقد كان مينوس عادلاً فى حربه ، فما تلك الحرب التى شنّها إلا ليثأر لابنه الذى قُتل غيلة ، وقد زاده الهدف الذى يسعى إليه قوة إلى قوّة عُدّته . وما أشدّ إيمانى بأن الهزيمة بنا لاحقة ، وما أدرى أى مصير سيكون لهذه المدينة . إذن فما لى أن أَشْجُعَ وأفتح له أبواب مدينتنا تلبية لنداء حبّى ، ولا أترك نفسى للانتظار الذى سيؤول إلى اقتحام الأسوار . فمن الخير أن يتمّ له نصر عاجل لا تُراق فيه دماء ولا يعرّض حياته للخطر .

وفى هذا ما يطمئننى الطمأنينة كلّها بأنه لن يناله أحدٌ بسوء قاصداً أو غير قاصد ، وأقول غير قاصد ، إذ ليس ثمة إنسان يقسو أو يجرؤ فيسدّد رمحه إلى صدرك وهو يعرف من تكون أى مينوس العزيز » .

هكذا هَيْمن على فكر إبنة نيسوس أن تُسَلّم نفسها إلى مينوس وأن تكون مملكة أبيها مهراً له ، ورأت فى ذلك نهاية للحرب ، غير أن عزمها وحده لم يكن يُغنى ، وقالت تحدّث نفسها : « ثمة حامية تحرس مدخل المدينة ، ومفاتيح الأبواب مع أبى . ألا ما أشقانى أن يكون أبى هو الوحيد الذى أخشاه ، وأن يكون العقبة فى طريق مسعاى . ليت الآلهة خلقتنى بلا أب . على أن كل إنسان هو فى النهاية إله نفسه ، ثم إن فورتونا « ربّة الحظ » تصمّ آذانها لنداء الجبناء . ولو أن فتاة أخرى مُنيت بمثل ما مُنيتُ به من هذا الغرام المُبرّح لاقتحمت منذ أمدٍ بعيد أيّة عقبة تقف فى سبيلها وهى قانعة راضية بما تفعل ، فما بالى أكون أقلّ شجاعة ؟ وها أنذا أُحسّ الشجاعة تملأ جوانحى وتدفعنى لأن أشقّ طريقى بين المشاعل والسيوف ، وأُرانى فى غير حاجة فيما أنا مُقْدمة عليه إلى أن أخوض أيّاً منهما ، فما أبغى غير خصلة من شَعْر رأس أبى ، تلك الخُصلة الأرجوانيّة التى هى أنفس عندى من الذهب ، فَبِهَا وحدّها سوف أُحقّق ما أطمح فيه من سعادة .

وفيما هى تقلّب وجوه الرأى غَشىّ الليل الذى تنزاح معه هموم الناس ، وإذا هى مع إنسدال الظلام أكثر جُرأة . ومع الساعات الأولى التى يغشى فيها النوم الأحياء ويخفّف عن قلوبهم قلق النهار وإرهاقه تسلّلت فى هدوء إلى حجرة أبيها ، ونفّذت خطتها الشنعاء وانتزعت من رأس أبيها تلك الخصلة التى بها حياته ومصيره ، فيا أفظعه من جرم ! .

قبضت إبنة نيسوس على غنيمتها الثمينة ونفذت عبر أبواب المدينة وشقّت طريقها وسط جنود الأعداء مفعمة بالثقة فى أنها تقدّم إليهم خدمة كبرى ، حتى إذا بلغت مليكهم الذى تملّكته الدهشة من وقوفها بين يديه قالت له : أنا سكيللا ابنة نيسوس دفع الحب بى إلى طريق الجريمة ، وجئتُ أُسْلمك مفاتيح بلادى ودارى ولا أريد سواك مقابلها . خذ هذه الخصلة الأرجوانية دليلاً على حبى ، وبهذا فإنى لا أسلمك خصلة أبى وحدها بل رأسه أيضاً » ، وبيدها قدّمت له الهدية النكراء ، غير أن مينوس ازورّ عنها واهتزت مشاعره من هول فَعْلتها وصاح فيها : « ما أنت إلّا عارُ دهرِنا ، وإنى لأدعو الآلهة أن تطهّر الأرض منك ، وأن يأبى البر والبحر أن يكونا مأويين لك ، فأنا أرفض أن يلوّث مخلوق دنس مثلك عالمى أو أن يلوّث جزيرة كريت مهد چوپيتر » .

وحينما تم لمينوس النصر وأملى شروطه العادلة على أعدائه المقهورين ، أمر بفكّ حبال السفن وبأن يتخذ الملّاحون أماكنهم من مجاديف السفن ذات الحيازيم البرونزية . وحين تيقّنت سكيللا أن السفن تمخر عباب البحر مبتعدة عن الشاطىء دون أن يكافئها قائد الأعداء على خيانتها رغم توسلاتها استحوذ عليها غضب جنونى وانخرطت فى الصراخ وقد تطاير شعرها ، وجعلت تلوّح إلى مينوس : « إلى أين تمضى يا من آثرتك على أبى وبلادى ؟ إلى أين تمضى مخلّفا من هيأت لك الفوز والانتصار ، وإلى أين تنأى يا عاق القلب بعد أن ظفرت بنصر أنا التى أستحق عليه كل إجلال وكل لوم . ألاّ تثير مشاعرك ما قدّمت لك من هديّة ،

ألا يعنيك حبي لك وأنا التي وضعتَ فيك وحدك آمالي كلها ؟ وإلى أين أروح أنا لو تخلّيت عني ؟ لقد حاقت الهزيمة ببلادي ، ولو أنها عادت لها حياتها يوماً ما استطعتُ دخولها ، فقد أغلقت أبوابها في وجهي إلى الأبد لخيانتي لها . وهل أستطيع أن أرجع إلى أبي بعد أن أسلمته لك ؟ إن مواطنيّ ليمقتونني وهم على حق في ذلك ، كما أن شعوب البلاد المجاورة يستنكرون المثل السيء الذي اقترفته . لقد أُوصد العالم كله في وجهي ولم يبق لي ملاذ في غير كريت ، ولو أنك حرمتني الاحتماء بها وهجرتني غير معترف بالجميل الذي قدّمته لك لما كنت ابن أوروپا بل ابن سيرتيس[1] غير المأمونة ، أو ابن نَمِرات أرمينيــة أو ابــن مياه خاريبيديس التي تهيجها ريح الجنوب ، فلست إذن إبن چوپيتر ، ومن ثم ليست قصة ميلادك إلّا أكذوبة ، وليس إذن إلهاً متقمّصاً ثوراً ذلك الذي ضاجع أمّك ، بل هو ثور متوحش حقيقي لم يستشعر حباً قط لإحدى البقرات . أبتاه ! فلْتنزل بي عقابك ، وأنتِ يا أسوار البلاد التي خُنتها ، فلتشمتي بي فأنا جديرة بحقدك عليّ ولا أستحق سوى الموت ، وليقتلني واحد من بين الذين آذتهم خيانتي . لماذا يا مينوس تريد أن أعاقَب على جريمة قادتك إلى النصر ، على حين أن هذا العمل الذي يعدّه أبي وقومي جريمة ليس غير منّة تطوّق عنقك ؟ حقاً إن زوجتك الخائنة التي تخفّت في تمثال بقرة من خشب واستدرجت ثوراً وحشياً وحملت منه مخلوقاً نصفه بشر ونصفه الآخر حيوان هي وحدها الخليقة بأن تتّخذك زوجاً لها[2] . أجبني يا مينوس ، هل تبلغ كلماتي آذانك أم أن الرياح التي تدفع سُفنك تبدّد شكواي أيها الناكر للجميل . لا يدهشني الآن أن پاسيفاي قد آثرت الثور عليك ، إنك لأشدّ وحشيّة من الثور . ما أشقاني ! ها هو ذا يأمر ملّاحيه بالإسراع والأمواج تعصف وضربات المجاديف تشقّ المياه بينما أغيب أنا وبلادي عن عينيه ، غير أنه لا جدوى ، فعبثاً تحاول نسيان جميلي ، ولسوف أتبعك على الرغم منك وسأتعلّق بسفينتك سابحة في مياه البحر » .

ولم تكد تفرغ من مناشدته حتى قفزت إلى المياه وأخذت تسبح بسرعة خلف السفن ، تُكْسبها رغبتها الثائرة قوة وأي قوة ، فما لبثت أن تعلّقت بسفينة ملك كريت زائرة متطفّلة ، ولمحها أبوها [بعد أن تحوّل إلى نسر بحري وحشيّ الجناحين أخذ يحلّق في الأجواء] فانقضّ عليها وهي متعلّقة بالسفينة وجعل ينهش لحمها بمنقاره الأقنى ، فألّم بها فزع أرخى قبضتها عن السفينة ، وبدأت تهوي فتلقّفتها نسمة خفيفة حالت بينها وبين أن تلمس الأمواج ، وسرعان ما نبت لها ريش وتحوّلت إلى طائر أُطلق عليه اسم كيريس [أبو قردان] أي من يجزّ الشعر ، وهو الاسم الذي يذكّر الناس بخصلة الشعر التي اقتلعتها من رأس أبيها[3] .

المتاهة وتاج أريادني

وحين عاد مينوس سالماً إلى كريت ونزل إلى الشاطىء ذبح مائة ثور قرباناً ووفاء بنذره لچوپيتر ، وعلّق غنائمه على جدران القصر ليزدان بها . وكانت الملكة قد وضعت طفلاً مهجّناً خلال غيابه ليصم الأسرة الملكية بالعار . وما لبث هذا المولود الهجين الغريب أن شبّ ليفضح الملكة أمام الجميع ويكشف

قصة حبها المشينة مع الثور . فأصرّ مينوس على تحرير قصره من هذا المخلوق الغريب الكريه الصورة وقرّر حبسه فى بناء مغلق معتم ملتبس المداخل ، يستحيل معه أن يصل أحد إليه أو يراه . ووفّق دايدالوس أشهر صناع المعادن بفنه وبراعته إلى إقامة هذا البناء(٤) بأن جعل العلامات فى هذه المتاهة مضلِّلة ليشقّ على العين بتلك التعرّجات المتّجهة إلى أنحاء مختلفة أن تهتدى إلى سبيلها . وكما تتلوّى مياه نهر الماياندر لاهية فى حقول فريجيا ، وكما يشقّ مجراه الحائر سبيلاً خفيّاً ثم يعود إلى حيث بدأ فيكاد يُدانى مأتاه ، وكما يرتدّ النهر إلى منبعه حيناً ونحو البحر الخضم حيناً آخر فيفتر تياره بعد أن يضلّ مقصده ، كذلك ضاعف دايدالوس من سُبل التضليل بشقّه سُبلاً ودروباً لا حصر لها(٥) .

حَبَسَ مينوس ذلك المخلوق الغريب الذى نصفه ثور ونصفه آدمى ، وكان قد قدّم له ضحايا من أهل أثينا(٦) مرتين . وحين قدم له الضحايا فى المرة الثالثة مجاراة للاقتراع الذى يتجدّد كل تسع سنوات قضى عليه واحد من هؤلاء الذين سِيقُوا إليه كى يلتهمهم . ذلك أن ثيسيوس الذى دُفع إلى المتاهة لكى يلتهمه الثور قد نجح بعون الأميرة أريادنى فى أن يهتدى إلى طريق العودة ، إذ أخذ يعيد لفّ الخيط الذى كان قد ترك أوّله عند الباب ويحلّه كلما ولج إلى الداخل ، وبهذا استطاع أن يعود ثانية إلى الباب الذى كان قد دخل منه والذى لم يخرج منه أحد قبله . وأبحر بعدها إلى جزيرة ديا بعد أن اختطف ابنة مينوس ، غير أنه تخلّى عنها وهجرها على شاطىء تلك الجزيرة حيث بقيت وحدها حزينة إلى أن جاءها باكخوس فطوّقها بذراعيه وقدّم لها العون ، وتناول التاج من فوق رأسها ليحوّله إلى كوكبة من نجوم السماء كى يسبغ عليها مجداً أبدياً ؛ فكانت جواهر التاج تتحوّل وهو طائر فى الفضاء إلى نجوم متلألئة ما لبثت أن انتظمت فى السماء محتفظة بشكل التاج مستقرة فى منتصف المسافة بين نجوم الجاثى على ركبته وكوكبة حامل ١٨٠ الثعبان(٧) .

ديدالوس وإيكاروس

وبعد أن سئم دايدالوس الإقامة فى كريت اشتاق العودة إلى بلاده [أثينا] التى طال غيابه عنها والتى كان يفصله عنها البحر ، فأخذ يناجى نفسه قائلاً : « قد يملك مينوس أن يحُول دونى ودون العودة عبر الأرض أو البحر ، وأُنسى أن السماء مفتوحة أمامى يمكننى العودة عن طريقها ، فلو استطاع مينوس أن يستحوذ على كل شىء ما استطاع أن يستحوذ على الفضاء » . وأخذ بعد ذلك يُعْمل فكره فى فن لم يعرفه من قبله أحد ، ويُخضع الطبيعة لقوانين جديدة ، وانبرى يثبّت صفّاً من الريش فى خيط مبتدئاً بأقصره متدرِّجاً به نحو أطوله حتى يكون طرفه منحدراً إلى أعلى ، على النحو الذى يصنع به الرعاة مزاميرهم من الغاب فيزيد فى طول كل أنبوبة عن سابقتها ، ثم شدّ الريش عند منتصفه بخيط من الكتّان ولصق أطرافه السفلى بالشمع وشكّلها على هيئة أجنحة الطائر الحقيقى بانحناءاتها الخفيفة ، وقد وقف إبنه إيكاروس إلى جانبه ضاحكاً دون أن يذهب خياله إلى أن أباه يشكّل الأداة التى ستُورده حتفه ، وكان يقبض على الريش

الذى ينتفش مع هبّات الريح أو يطوّع جمود الشمع بإبهامه ، فيُعوِّق بعبثه ما أنفقه أباه فى هذا العمل العجيب .

وعندما فرغ دايدالوس من اختراعه ارتفع فى الهواء وحاول حفظ توازنه بهذين الجناحين وهو يخفق بهما إلى أعلى وأسفل ، ومضى يوصى ابنه قائلاً : « أنصحك يا إيكاروس أن تحلّق بجناحيك على ارتفاع وَسَط بين البحر والشمس ، إذ لو دانيت سطح البحر ندّت مياهه جناحيك فثقُلت ، ولو حلّقت عالياً لألهب وهج الشمس جناحيك ، فتوسّط فى طيرانك بين بين . وإنى أحذّرك أن تصوّب بصرك إلى النجوم وخاصة كوكبة راعى الشاء أو كوكبة الجوزاء فى الدب الأكبر أو نجوم سيف الجبار(٨) ، ولتتّخذنى لك مرشداً » . وبينما دايدالوس العجوز يدلى بإرشاداته جعل يثبّت الأجنحة على كتفى إبنه إيكاروس وقد احمرّت وجنتاه وبلّلتهما الدموع وارتعدت يداه حناناً ، وقبّل ولده فى خدّه قبلاته الأخيرة . فقد حلّق بجناحيه فى الهواء موزّع النفس على رفيقه ، هذا القلق الذى يساور الطائر وهو يُخرج صغاره من العشّ فى أعالى الأشجار ويطلقها فى الهواء للمرة الأولى . وبدأ يستحث إيكاروس أن يتبعه على أن يبقى على مقربة منه ، ويعلّمه من الفن ما كان سبباً فى هلاكه ، ويحرّك جناحيه متطلّعاً إلى الخلف يرقب ولده . وقد رآهما صياد كان يلقى شباكه وراعٍ كان متكئاً على عصاه وفلاح كان منكفئاً على محراثه ، وأخذ العجب منهم فظنوا هذين الرجلين القادرين على الطيران عبر الأجواء إلهين من بين الآلهة .

وكانت جزيرة ساموس التى وُهبت لجونو تقع عن يسارهما وپاروس وديلوس من خلفهما ولبنثوس عن يمينهما وكذلك جزيرة كاليمنى الغنية بعسلها(٩) ، حين انتشى الصّبىّ بالطيران السريع عبر أجواز الفضاء واستهواه الارتفاع فَعَلا فى السماء حتى اقترب من الشمس المُحْرقة فذاب الشمع العطر الذى يلصق الريش بعضه ببعض ، وإذا هو يحرّك ذراعيه بعد أن تعرّتا فصرخ منادياً أباه ، ولكنه كان عندها يهوى . وسرعان ما سقط فى مياه البحر الذى ابتلعه فى أعماقه وحمل اسمه . وأخذ الأب التعس الثاكل ولده يصرخ « إيكاروس أين تُراك الآن يا ولدى ، وأىّ أجواز الفضاء غيّبتك ؟ » . وظل يصيح باسم إيكاروس حتى لمح نثار الريش على سطح الماء ، وعندها نقم على فنه ، ثم وارى ابنه التراب ، وما تزال الأرض التى دُفن بها إيكاروس تحمل اسمه .

بيرديكس

وبينما كان دايدالوس يدفن ابنه الذى لقى حتفه لمحه طائر الحجل المائى الثرثار فجعل يغرّد طرباً ويرفرف بجناحيه وقد خرج من حفرة موحلة ، وكان طائراً فريداً لم ير مثله من قبل ، إذ كان إنساناً تحوّل منذ قريب إلى طائر ليتمثّل عقاباً أبدياً لدايدالوس ، ذلك أن أخته ــ ولم تكن تعلم ما خبّأه لها القدر ــ أرسلت ابنها وكان فتى ذكياً فى الثانية عشرة من عمره ليُعَلِّمه دايدالوس ويُنشِّئه . وقد أعجب الصبى بالعمود الفقرى للسمك واتخذه نموذجاً يصنع على غراره أسناناً على حافة شريط من الحديد فإذا هو يخترع

المنشار ، كما كان أول من استطاع وصْل ذراعين متساويتى الطول من الحديد بحيث إذا ركّز أحدهما وأدار الآخر حوله رسم دائرة كاملة ، ومن هنا اخترع الفرجار ، الأمر الذى أثار الغيرة فى قلب دايدالوس فألقى بابن أخته من فوق قلعة منيرفا ، ثم افتعل جلبة توحى بأن الصبى قد سقط قضاء وقدراً ، غير أن الإلهة باللاس حامية العباقرة سرعان ما أمسكت بالفتى وهو يهوى وحوّلته إلى طائر وكسته ريشاً وهو ما يزال معلّقاً فى الفضاء ، ومنحته سرعة فى الجناحين وأخرى فى القدمين يستغنى بهما عن إعمال بديهته ، وبقى اسمه عالقاً به يُميّزه ، فهو لا يطير عالياً فى الأجواء بل يحجل قريباً من الأرض ، كما أنه لا يتخذ عشّه فى قمم الأشجار أو المرتفعات بل يبيض بين حزم الأغصان التى تُتّخذ منها الأَسْوِجة ، فقد كان يخشى المرتفعات لأنها تذكّره بسقوطه منها فيما سلف .

الخنزير الكاليدونى . ملياجر

وعندما أحس دايدالوس بالإرهاق من طول السفر استقرّ ببلاد إتنا ، وكان كوكالوس ملك هذا ٢٦٠
الإقليم قد حمل السلاح دفاعاً عنه بعد هروبه وأظهر له من ضروب العطف الكثير(١٠) ، وكانت مدينة أثينا قد تخلّصت بفضل انتصار ثيسيوس من دفع الجزية الرهيبة التى كانت تُثقلها بالأحزان ، فزيّنت المعابد بأكاليل الزهور وأخذ الناس ينشدون للربّة المحاربة منيرفا ولجوبيتر والآلهة الآخرين ويقدّمون لهم القرابين التى نذروها . وذاعت شهرة ثيسيوس كالبرق فى مختلف مدن أرجوس حتى بات الآخيون يفزعون إليه فى الأوقات التى يُحْدِق بهم فيها خطر ، وكذا لجأ إليه أهل كاليدون على الرغم من أن بطلهم ملياجر كان ما يزال بينهم ليحميهم من الوحش الكاسر خادم الربّة ديانا القائم بتنفيذ عقوباتها(١١) .

وتروى الأقاصيص أن الملك أوينيوس قد نعم بحصاد وفير فى عام رخاء فقدّم القرابين للآلهة وجعل الحصاد الأول لسيريس(١٢) والنبيذ لباكخوس وزيت الزيتون لمنيرفا الشقراء ، وجعل لآلهة الريف ثم لبقية الآلهة ما كانوا يترقّبونه ، عدا ديانا ابنة لاتو فقد كانت الوحيدة التى أُهملت محاريبها ولم تُقدم لها قرابين أو يطلق لها بخور ، فاحتدم الغضب فى صدرها وصاحت قائلة : « لن أترك هذا الأمر يمرّ دون عقاب يخفّف
عن نفسى ، ولن أسمح بأن يردّد الناس تراخىّ فى الثأر لنفسى ، فما مِنْ أحدٍ يعيب علىّ أن أنتقم لإهانة ٢٨٠
لحقت بى » ، ثم أطلقت خنزيراً برّياً فى ضخامة ثيران مراعى إيبروس الكثيفة الحشائش وأعظم جثة من ثيران صقلية . كان خواره مجلجلاً ، وعيناه الدمويّتان ترسلان شرراً ، وعنقه الضخم الصّلب يشمخ عالياً ، يغطى جلده شعر خشن نافر كالرماح ، ويلطّخ كتفيه العريضين زَبَد يغلى ، وأنيابه كأنياب الفيل الهندى ، تنبعث نار من بين فكّيه فتحرق أنفاسه أوراق الأشجار .

كان هذا الوحش الغريب يسحق القمح الذى ما يزال غضّا فى سنابله أحياناً ويقضمه إذا استوى على أعواده أحياناً أخرى ، فحطّم بذلك آمال الفلاحين وأبكاهم ، وعبثاً بات الناس ينتظرون أن تمتلىء الصوامع أو تكتظ ساحات الدّرس عامرة بالحصاد ، وتناثرت عناقيد العنب وأوراق الكروم على الأرض مع

حبّات التوت وأغصان الزيتون الدائمة الخضرة . كذلك أخذ هذا الخنزير البرى يشنّ هجمات ضارية على قطعان الماشية فلم ينج منه لا الرعاة ولا كلابهم ، ولم تفلح الثيران الشديدة البأس فى حماية القطعان التى تحرسها ، وكان الناس يهربون منه متفرقين هنا وهناك ، ولا يحسّون الطمأنينة إلاّ حين يحتمون خلف أسوار المدينة . وظلّ الحال على ما هو عليه حتى اجتمع ملياجر مع جملة من الأبطال وحّدت بينهم الرغبة فى نيل المجد والشهرة بالقضاء على هذا الوحش الرهيب .

والتقى إبنا تينداريوس[١٣] التوأمان اللذان اشتهر أحدهما بالملاكمة والآخر بالفروسية ، وچاسون مُشيِّد أول سفينة [سفينة الأرجو] وثيسيوس وبيريثوس الرفيقان المتلازمان ، وابنا ثيستيوس ثم لينسيوس وإيداس السريع العدْو ولدا أفاريوس ، وكاينيوس أيضاً الذى كان امرأة فى سالف الزمان[١٤] ، وليوكيپوس الصائب الرُمح ، وأكاستوس قاذف الرمح الشهير ، وهيپرثوس ودرياس ، وفينيكس بن أمينتور ، وولدا أكتور وكذا فيليوس من إيليس . وانضم إليهم تيلامون وپيليوس والد أخيل ، وكذلك ابن فيريس ويولاوس من بويوتيا ثم أريتيون المقدام وإخيون العدّاء الذى لا يبارى ، وليلكس اللوكريسى وپانوپيوس وهيليوس وهيپاسوس الوحشى ونسطور الذى كان فى مقتبل العمر ، وانضمت إليهم فصيلة من الرجال الذين بعث بهم هيپوكوون من أميكلاى القديمة ، وكذلك لايرتيس حَمُو پنيلوپى الذى اصطحب معه أنكايوس الأركادى والعرّاف الحكيم ابن أمپيكس وأمفياراووس الذى لم يكن يخشى حتى ذلك اليوم أذى يناله من زوجته[١٥] . ثم الفتاة الصيادة بطلة تيجيا وفخر الغابات الليكاوية[١٦] وقد شبكت طوق ثوبها بمشبك مصقول وجمعت شعرها من الخلف مضموماً فى عقدة واحدة ، وعلّقت كنانة سهامها العاجية على كتفها اليسرى بينما أمسكت القوس بيدها اليسرى ، وكلما سارت اهتزت الكنانة بسهامها محدثة صوتاً ، [ولو أن قسماتها على وجه فتى لقيل إنها قسمات فتاة ، وإذ كانت فتاة قيل إن قسماتها مثل قسمات الفتى الوسيم] ، ولم يكد البطل الكاليدونى يراها حتى هام بها رغم تحريم الآلهة ، واحتدمت رغباته الكامنة فى الأعماق ، وزفر زفرات حارة وهو يتمتم : « طوبى لذلك الرجل الذى سوف يَظْفَرُ بها زوجة » ، ولم يُتح له مع هذه الحال أن يضيف كلمات أخرى ، فقد كان هناك أمر أجلّ خطرا يناديه وهو المعركة العاجلة الحاسمة مع الخنزير البرّى .

انطلق الصائدون حتى بلغوا تلك الغابة التى لم تنل الأزمان من أشجارها الضخمة فلم تمسسها فأس حطّاب ، والتى ترقى عند نهاية السهل مطلّة على الحقول المنحدرة ، فنصب بعضٌ شباك الصيد ، وأطلق بعضٌ الكلاب ، بينما اقتفى الآخرون أقدام الخنزير البرى متعجّلين اكتشاف موقع هذا الوحش الذى جاءوا لاصطياده مغامرين بُحياتهم . وكان الخنزير البرّى قد كمن فى أسفل جزء من مجرى فى أعماق واد تنمو فيه نباتات المستنقعات والعشب المائى والغاب وتجتمع فيه مياه الأمطار ثم برز مندفعاً بين مطارديه كما يندفع برق العاصفة من بين السحب المتراطمة ، وانطلق بين الأشجار التى أخذت تهتز وترسل أصواتاً مختلفة ، فتصايح الأبطال وقبضت أيديهم فى قوة على أسلحتهم المُشْهَرة الوضّاءة النُصل فاندفع الخنزير إلى حيث الكلاب التى تجمّعت لتصدّه محاولاً تشتيتها بقفزات جانبية . وقذف إخيون أول سهم فطاش ولم

يُحدث إلّا جرحاً طفيفاً فى جذع شجرة اسفندان ، ثم بدت القذيفة الثانية التى أطلقها چاسون وكأنها
ستصيب ظهر الخنزير البرى غير أنها لشدّتها تجاوزت الهدف ومضت إلى أبعد منه ، وعندها صاح موپسوس
بن أمپيكس قائلاً « لكم أخلصت فى عبادتك يا فوبيوس وسوف أظل مخلصاً » ، فسدّد رمحى ليصيب هدفه »
٣٦٠ واستجاب الإله لأمنيته ، غير أن الإلهة ديانا سلبت الرمح وهو فى مسراه نصله الحديدى فلم تصب الخنزير
البرّى غير يد الرمح الخشبية ، فامتلأ الوحش غضباً ، وأخذت سورة الغضب تعصف فى عنف البرق ،
وانطلق الشرر من عينيه واحتدم اللهب فى صدره ، واندفع كصخرة تهوى من منجنيق فوق الأسوار أو على
أبراج غصّت بالجنود ، وارتمى الوحش المنهوم للدم بعد قفزة لا تقاوم فوق الأبطال الشبان ، فطرح
إيوپالاموس وپيلاجون أرضاً وكانا يحميان الجناح الأيمن فأسرع أصدقاؤهما بحملهما بعيداً . ولم يكن
إينايسيموس بن هيپوكوون سعيد الحظ إذ وقع بين أنياب الخنزير القاتلة ، وكاد نسطور يهلك قبل حرب
طروادة لولا أنه غرس رمحه فى الأرض واتّكأ عليه ليثب إلى قمّة شجرة بلوط قريبة وأخذ يرقب خصمه وهو
يدلك أنيابه فى جذعها ، ثم انثنى الوحش فمزّق بأنيابه فخذ هيپاسوس بن يوريتوس ، واعتلى الشقيقان
التوأمان [كاستور وپوللوكس] قبل أن يصبحا نجمين فى السماء صهوتى جواديهما الأنصع بياضاً من الجليد
٣٨٠ وقذفا الخنزير برمحيهما ، وكادا يصيبانه لولا إفلاته داخل الأدغال المعتمة التى لا ينفذ خلالها جواد أو رمح .
وأسرع وراءه تيلامون ، لكن حماسته الرعناء جعلته يسقط على رأسه مصطدماً بجذع شجرة ، وبينما كان
پيليوس يعاونه على النهوض من سقطته كانت بطلة تيجيا قد أطلقت من قوسها سهماً خاطفاً خدش ظهر
الخنزير ونفذ أسفل أذنه وصبغ بعض شعراته بقطرات الدم . وأثار نجاح الفتاة فرحتها وفرحة ملياجر الذى
كان أول من رأى دم الخنزير يسيل ، فلفت إليه نظر أصدقائه وقال لأتالانتا « ما أحقّك بأن تتقلدى وسام
الجدارة » .

غلب الرجالَ الخجلُ وأخذ بعضهم يستنهض همم البعض وبدأوا يُسدّدون رماحهم دون أن تكون
ثمة خطة للهجوم فذهبت قذائفهم عبثاً رغم كثرتهم . ولم يصب أحدهم الهدف ، فاندفع أنكايوس
الأركادى حاملاً بلطته ذات الحدّين ، واتجه نحو مصيره المحتوم يصيح فى جنون : « انظروا كيف أن ذراع
الرجل أقوى من ذراع المرأة ! أفسحوا لى الطريق ، ولسوف أقضى على هذا الخنزير البرّى بيدى مهما حمته
ابنة لاتو ودافعت عنه بأسلحتها ، وكرها عنها » . ورفع بلطته بكلتا يديه لكى يضرب الخنزير مغروراً
٤٠٠ غرور كلماته ، غير أن الخنزير البرى تنبّه لهذه الهجمة الجريئة وأعمل أنيابه فى أعلى حقو أنكايوس سالكاً
بذلك أقرب طريق يصل به إلى إهلاكه ، فتهاوى أنكايوس وقد برزت أحشاؤه وتدلّت وسط بركة من
الدماء ، وغرقت الأرض بذلك الجدول الأحمر . وإذا پيريثوس بن إيكسيون ينطلق صوب الوحش شاهراً
رمحه بيده القوية ، فناداه ثيسيوس الإيجى قائلاً : « يا من هو أعزّ علىّ من نفسى افزع إلى مكان أمين ،
فنحن على البُعد أقدر منا على القرب ، فقد ذهب أنكايوس ضحية اندفاعه » وأطلق مع كلماته رمحه
المصنوع من خشب القرانيا ذا السنّ البرونزى الثقيل فلم يصب الهدف إذ اعترضه غصن شجرة بلوط .
وسدّد چاسون فى إثره رمحاً أصمى ضحية بريئة إذ أصاب كلباً فى فخذيه فخرّ على الأرض ، غير أن ملياجر

بن أوينيوس سدّد رمحين اختلف مصيرهما ، إذ غاص أحدهما فى الأرض بينما استقر ثانيهما فى منتصف ظهر الخنزير . عندها لم يدع الوقت يذهب سدى ، فاقترب من الوحش الذى أخذ يتلوى ثائراً يسيل من شدقيه زبد يختلط بالدم المتدفق ، وها هو ذا من أدماه يقف بجواره وقد أثار غضب الوحش الجنونى ، ثم غرس رمحه اللامع فى كتفه ، فصاح رفاقه مهلّلين مشجّعين وأخذوا يشدّون بأيديهم على يد البطل الذى حقق



بيكاسو : ملياجر

النصر ، وتطلعوا مذهولين إلى ضخامة الوحش الذى شغل مساحة كبيرة من الأرض وهو ملقى فوقها ، غير أنهم ظلوا يخشون الاقتراب منه ظناً منهم أن يكون ما يزال قادراً على التصدّى لهم . ثم تقدم ملياجر ووضع قدمه فوق رأس الوحش والتفت إلى أتالانتا قائلاً : « تقبّلى هذه الغنيمة التى ظفرت بها يا عذراء نوناكريس[١٧] ، ولتشاركينى مجدى » ، ثم أعطاها رأس الوحش بأنيابه الضخمة وجلده الخشن الشعر . وقد أُعْجبت أتالانتا بالهدية وُمهديها ، غير أن صنيعه أثار غيرة الآخرين فسرت بينهم همهمة هزّ بعدها ابنا ثيستيوس قبضتيهما وصاحا بغضب : « اتركى هذه الغنيمة أيتها الفتاة ، ولا تنتزعى شرفاً هو حقّنا نحن ، ولا تسترسلى فى الغرور بجمالك فقد يصبح هذا المفتون المتيّم بجمالك عاجزاً عن أن يحمى فتنتك » . وانتزعا الغنيمة من أتالانتا وسلبا ملياجر حق إهدائها لها ، فأحنق سلوكهما ابن مارس وانفجر غاضباً وجزّ على أسنانه وهو يصيح : « أيها اللّصان إنكما بهذا تسلبان رجلاً آخر مجده ، ولسوف تعلمان أيّنا يتوعّد وأيّنا ينفّذ » ، وأسرع فأغمد نصله الفاتك فى قلب پليكسيپوس الذى كان أبعد ما يكون عن أن يتخيّل ما كان . وقد تردد توكسيوس بين الرغبة فى الانتقام لأخيه المضرج بدمه وبين الخشية من أن يلاقى مصير أخيه ، ولكن ملياجر لم يدع له وقتاً لكى يتردد ، فقد عاجله برمحه الذى كان ما يزال يحمل أثر سخونة الجريمة الأولى .

ثأر ألثايا

وكانت ألثايا قد توجّهت إلى المعبد حاملة القرابين إلى الآلهة شكراً على انتصار ابنها ملياجر حين شاهدت جثمانى شقيقيها محمولين إلى دارهما ، فملأت المدينة عويلاً وصراخاً وهى تضرب صدرها ، واستبدلت بثيابها المطرزة بالذهب ثياباً سوداء ، غير أنها ما كادت تعلم اسم قاتل شقيقيها حتى أُنسيت أحزانها وجفّفت دموعها ولم تعد لها إلاّ رغبة واحدة هى الانتقام . وكانت الشقيقات الثلاثة ربّات الأقدار[١٨] قد وضعن كتلة من الخشب فى المدفأة بدار ألثايا ابنة ثيستيوس ساعة كانت ترقد فى فراشها بعد أن وضعت مولودها ، وبينما كن يغزلن خيوط القدر بمسّ إبهامهن قلن : « ليبقينّ هذا الطفل ما بقيت هذه الكتلة الخشبية » ، وما كدن ينهين كلماتهن ويغادرن الدار حتى أسرعت الأم واختطفت كتلة الخشب من النار وأطفأتها بالماء وخبأتها فى حنايا الدار ، وعاش الطفل فى أمان بفضل حفظ هذه الكتلة الخشبية . وقد أسرعت ألثايا بعد مصرع شقيقيها فأخرجت كتلة الخشب من مخبئها وأحضرت قطعاً صغيرة أخرى من خشب الصنوبر وكوّمتها جميعاً ثم أشعلت فيها النار التى هى إيذانٌ بموت ابنها . وحاولت مرات أربع أن تلقى بالكتلة الخشبية وسط النيران إلاّ أن شجاعتها كانت تخونها فى كل مرة ، إذ كان حبها لابنها يعادل حبها لأخويها ، كما كان قلبها يتمزق بين الوفاء لابنها والوفاء لشقيقيها . وكان التفكير فى الجريمة التى سوف تقترفها يزيد وجهها شحوباً ، ثم تعاودها الرغبة فى الانتقام فيحتقن وجهها غضباً . وكانت تسيطر عليها مشاعر القسوة أحياناً ثم تتغلب عليها عواطف الحنان والشفقة ، أو ما تكاد حرارة غضبها الوحشى تجفف

دموعها حتى تعود الدموع فتنبثق من جديد . وصارت كالسفينة تتناوحها الأمواج وتتقاذفها الرياح فى اتجاهات مختلفة فتضطرب فى سيرها ، إذ كانت متردّدة بين عواطفها المتنافرة ، فما يكاد غضبها يهدأ حتى يعود ثانية ويثور .

ومع ذلك فقد طغت عاطفة الأخوة على عاطفة الأمومة فيها ، وآثرت أن ترضى طيفى شقيقيها اللذين يسرى دمهما فى عروقها فاقترفت جريمة تلطّخت بإثمها . وحينما شاهدت الموقد المشئوم يتوهّج بالنيران صاحت : « ألا فلتحرق هذه المحرقة فلذة كبدى » وأمسكت بيديها الأثمتين الكتلة التى عليها يتوقف مصير ابنها ، ووقفت أمام المذبح الجنائزى وقالت تدعو : « يا ربّات العقاب الثلاث ، انظرن إلى هذه التضحية الخارقة التى قد تُطْفىءُ من غضبكن[19] ، فإننى فى آن واحد أثأر وأقترف جريمة لا ترضى عنها الآلهة ، فلا مناص من أن يكفّر الموت عن الموت والجرم عن الجرم ، وأن تتبع الجنازة الجنازة حتى تهلك أسرتنا الملعونة تحت وطأة المصائب المتتالية ، فكيف يمضى أوينيوس سعيداً فرحاً برؤية ابنه المنتصر بينما يبكى ثيستيوس ولديه ؟ من الخير يا شقيقىّ ويا بنىّ أن تسكبوا جميعاً الدموع . ولكن هل فى مقدوركما يا طيفى شقيقىّ يا من فارقتما جسديكما أن تقدّرا هذا التكريم الذى أخصّكما به وأن تتقبّلا هذا القربان الكريه الذى يكلّفنى النطفة التعسة التى نمت بين أحشائى . يالى من شقيّة ، تُرى إلى أين يمضى بى غضبى ؟ يا شقيقىّ ، اغفرا لأم تحجم يداها عن هذا الفعل الشائن . اننى أعترف أن ابنى يستحق الموت ولكن ما يعتصرنى هو أن أكون أنا التى دبّرتُ موته . ومع ذلك هل يمكن أن يظل بلا عقاب ، وأن يعيش وهو المنتصر فخوراً بتحقيق جريمته ويحكم كاليدون ملكاً ، بينما أنتما حفنة رماد وشبحان لا حراك بهما قد غيّبكما الثّرى ؟ ولكن هل فى مقدورى أن أُقدم على ذلك ؟ ألا تباً للمذنب وليحمل معه إلى قبره آمال أبيه ، ولتسقط بموته مملكته ووطنه . . ولكن أين حبّ الأم لأولادها ، وأين حنان الآباء والأمهات على أبنائهم ، وأين ذلك الضّنى الذى حملته أشهرا خمسة ثم أشهرا خمسة ؟ ولداه ! لكم أتمنى لو كانت النار قد التهمتك بينما كنت طفلاً صغيراً . لقد عشت بفضلى والآن تموت بسبب خطيئتك أنت ، فلتنل إذن جزاء جريمتك . لقد منحتك الحياة مرتين ، المرة الأولى يوم ولدتك ، والثانية يوم أخرجت من النار تلك الكتلة الخشبية المتّقدة ، ألا فلتردّ إلىّ الحياة التى منحتها لك مرتين أو فلتجمعنى ثانية بشقيقىّ . كم وددت لو أنزلت بالجانى العقاب ولكنى غير قادرة . ماذا تُرانى فاعلة ؟ أحياناً أرى جراح أخوى ماثلة أمام عينى ومشهد مصرعهما الرهيب ، وأحياناً أخرى تنهار شجاعتى أمام مشاعر أمومتى وحقّ ابنى علىّ . ما أشقانى ، لسوف يكون نصركما فادح الثمن يا شقيقىّ ، ولكنى سوف أنصركما مادمت سأتبعكما أنتما وهذا الذى سأسلمه لكما لكى يسرّى عن روحيكما » . ومع هذه الكلمات ألقت بالكتلة الخشبية الُمميتة وسط النيران بيد مرتعشة وقد أدرات وجهها بعيداً ، على حين أخذت كتلة الخشب والنار تلتهمها ترسل أنّات مكبوتة .

ولم يكن ملياجر يعلم شيئاً مما يدور بل كان عندها غائباً حين أحس نيراناً تشتعل فى أحشائه ، فبذل جهداً كبيراً لكى يقوى على تحمّل آلامه القاتلة ، حتى إذا أدرك أن موتاً دون طعن ومجالدة قد أصبح يتهدّده

بلغ منه الأسى مبلغه ، وعدّ الضربة التى قتل بها أنكايوس خاتمة طيبة ومِنّةً من القدر ، وأخذ ينادى أباه الشيخ الفانى بصوت مختنق بالأنين ، ونادى أشقاءه وشقيقاته الحانيات وزوجته ، ومن يدرى لعلّه كذلك نادى أمّه ! وكان كلما استعرّت النار استعرّت آلامه ، وحين أخذت ألسنة اللهب تضعف تباعاً ثم تخمد فى النهاية أخذت أنفاس البطل تذهب هباء فى الهواء وقد غطّى جمرات الفحم رمادٌ أبيض .

وعمّ الحزن سكان هضبة كاليدون ومزّق نفوس الشباب والشيوخ والقادة والعامة ، وأخذت النسوة الجالسات قرب ينبوع إيفينوس يشددن شعورهن ويضربن صدورهن . وانبطح والد ملياجر على الأرض فاختلط شعره الأبيض ووجهه المغضّن بالغبار بَرِماً بطُول عمره . أما أمه التى كان ضميرها يعذبها على هول جريمتها فقد اقتصّت من نفسها فاستلّت خنجراً أغمدته فى صدرها .

ولو أن الآلهة منحتنى مئات الأفواه والألسنة ومَلَكات ربّات الفنون فى جبل هليكون لما استطعت الإفصاح عن مدى حزن شقيقاته البائسات أو ما تُردّده شكاتهن الحزينة ، فكُن يضربن صدورهن وقد غاض دمهن وما اكترثن لجمالهن ، ويقين ما بقيت جثة أخيهن يُعِدْن إليها الحرارة ويدلّكنها بأيديهن ويغطّينها بقبلاتهن ويعانقن المحفّة التى فوق المحرقة ، حتى إذا تحوّل جسده رماداً أخذن حفنات منه ذررنها على صدورهن ، ثم ركعن جاثيات على قبره يقبّلن اسمه المنقوش على الحجر ويبلّلنه بدموعهن . وحين شفت تلك النوائب التى حلّت ببيت پارثاوون غُلّة الإلهة ديانا مسخت الفتيات جميعاً عدا جورجيه وزوجة ابن النبيلة ألكمينا ، وأنبتت ريشا يغطى أجسادهن وحوّرت أذرعهن إلى أجنحة طويلة ورفعتهن فى الهواء ، وأحالت أفواههن مناقير محدّبة ، وأطلقتهن بعد تحوّلهن على هذه الصورة إلى الفضاء .

أخيلووس

وبينما كان ثيسيوس عائداً من المعركة التى اشترك فيها للقضاء على الخنزير البرى متجهاً إلى قلعة إريخثيوس التى تحرسها أثينا التريتونية [نسبة إلى جزيرة تريتون بأفريقيا] صدّه نهر أخيلووس[20] المُترع بماء الأمطار وعاقه عن العودة ، وقال له ربّ النهر : « هلمّ فادخل بيتى يا سليل كيكروپس العظيم ولا تعرّض نفسك لقسوة أمطارى فما أكثر ما تقتلع الأشجار برُمّتها وتدفع أمامها فى صخب الصخور التى تعترض طريقها ، فكم رأيت من حظائر مرتفعة فوق الشطآن تنجرف بمواشيها دون أن تُغْنى عن الثيران قوتها ولا عن الجياد سرعتها ، وكم يحتدم السيل حين تذوب الثلوج وتفيض من فوق الجبال ، وما أكثر ما حوى من شباب فى دوّاماته الطاغية ، إنه لآمن لك أن تنتظر حتى تنحسر المياه بين شطآن النهر فيهدأ انسيابه فى مجراه » .

واستجاب ابن إيجيوس لنداء إله النهر وردّ قائلاً : « لسوف أعمل بنصيحتك يا أخيلووس وأنعم بضيافتك » ، ودلف إلى داخل كهف قوامه أحجار النسفة المسامية السوداء والصخور البركانية ، اكتست أرضه النّدية بطحالب رخوة وازدان سقفه بأصداف ومحارات متعددة الألوان . وكانت الشمس قد قطعت

ثلثى مسارها فى السماء حين اضطجع ثيسيوس ورفاقه على الأرائك ، وإلى جانبيه ابن إيكسيون[٢١] وليليكس[٢٢] بطل ترويزين الذى وخط الشيب فوديه ، وكذا رفاق ثيسيوس الذين رأى إله النهر الأكارنانى أنهم جديرون بالتكريم أيضاً ، فلقد كان أخيلووس فخوراً بضيفه الكبير ، وفى التو أقبلت حوريات حافيات الأقدام وقدّمن لهم الطعام على الموائد ، ثم قدّمن لهم بعد الطعام الخمر فى كئوس مرصّعة بالجواهر الكريمة . ونظر ثيسيوس أشجع الأبطال إلى المياه الجارية أمامه وأشار بأصبعه متسائلاً : « ما هذا المكان وما اسم هذه الجزيرة ، وإن كانت تبدو لى أكثر من جزيرة واحدة ؟ » فأجابه إله النهر قائلاً : « حقاً ليس ما تراه جزيرة واحدة بل جزر خمس ، غير أن بُعْد المسافة يجعلها تبدو لك متصلة . لشدّ ما أنا راغب فى أن أخفّف عنك عجبك مما فعلته ديانا بكاليدون انتقاماً من إهمالهم شأنها حين أقص عليك قصة هذه الجزر الخمس . فذات يوم قامت خمس حوريات مياه بنحر خمسة ثيران ثم خمسة ثيران ودعون جميع آلهة الريف إلى موائدهن ونسينى ، وأدّين رقصاتهن المرحة دون دعوتى ، فتولاّنى غضب عاصف جعل مياهى تتدفق فيضاناً جارفاً أتى على الغابات فجرفها غابةً غابةً ودمّر الحقول واحداً إثر الآخر ، وغشّى الأرض بالمياه واكتسح الحوريات اللاتى لم يعرفن قدرى إلاّ حينذاك ، ودفعت المياه بالأرض وبهن إلى البحر فاقتطعت المياه من الأرض لساناً ما لبث أن انشطر عن باقى الأرض وتناثر جزراً فى المحيط هى هذه « الإخينادیس »[٢٣] الخمسة التى تراها أمامك . غير أن هناك كما ترى جزيرة بعيدة معزولة عن غيرها يسميها الملاّحون پيريميل ، وكانت فى الماضى فتاة دفعنى هيامى بها إلى أن أسلبها عُذْرتها ، فثار أبوها هيپوداماس وألقى بها من فوق صخرة عالية لتبتلعها الأمواج ، غير أنى تلقّفتها بذراعى وعاونتها على السباحة ، وأخذتُ أصيح : « يا نپتون يا من تسود ثانى مملكة فى الكون ، يا إله المياه السيّارة ، أيها الإله المسلح بالحربة الثلاثية الشُعَب ، يا من نحمل إليه أنا والأنهار الأخرى أمواجنا المقدسة فى نهاية مطافنا . فلتنصت إلىّ ولتستجب إلى دعائى ، فأنت تعلم أنى سبب مأساة هذه الفتاة التى أحملها ، ولو كان أبوها هيپوداماس عادلاً أو رحيماً ، أو لو أنه كان أقل وحشية مع ابنته لترفّق بها وعفا عنى . فلتدرك هذه الفتاة البائسة التى ألقت بها وحشية أبيها فى الأمواج ، أضرعُ إليك يا نپتون أن تهيىء لها ملجأ أو تجعل منها هى ملجأ فأستطيع أن أضمها إلى صدرى من جديد » ، فطأطأ ملك البحار رأسه . ومع لفتة رضاه هذه اضطربت رقعة المياه الفسيحة فارتعدت الحورية فزعاً لكنها واصلت سباحتها ، وأخذت أتحسّسُ صدرها الخفّاق فى خوف ، وبينما كنت أطوف بيدى على جسدها شعرت به يجمد ويغطى التراب نهديها . وفيما كنت أحدّثها إذا أطرافها الطافية فوق الماء تستحيل هى الأخرى يَبَساً وتمتد شيئاً فشيئاً فإذا هى جزيرة راسية » .

فيليمون وبَوْكِيس

ولاذ إله النهر بالصمت بعد سرد قصته وساد الجميع تأثُّر عميق بالمغامرة التى رواها ، غير أن ابن إيكسيون الذى كان بطبعه مغروراً يحتقر الآلهة ويسخر من سذاجتهم تحدّى مضيفه قائلاً : « ليست قصتك

يا أخيلووس إلاّ محض اختلاق ، وما أنت إلاّ مبالغاً فى إعطائك الآلهة أكثر مما لها من قدرة على سلب الكائنات أو منحهم أشكالاً »[٢٤] . وقد أذهل تحدّيه الجميع وخالفوه رأيه وخاصة ليليكس الذى أكسبته السنون خبرة فانبرى قائلاً : « إن للسماء قدرات لا حدود لها . وإذا ما رغبت الآلهة فى شيء وقع ، وإليك قصة تُذْهِبُ عنك كل شكوكك :

كانت بتلال فريجيا شجرة بلوط يحوطها سياج خفيض قرب شجرة زيزفون ، وقد رأيت هذه البقعة حين بعث بى پيثيوس إلى حقول پيلوپس التى كان يحكمها أبوه فى الماضى[٢٥] . وعلى القُرب من هذه التلال بركة راكدة كانت قبلُ بلاداً عامرة بالسكان ثم أصبحت اليوم مُجْتَمَعاً لطيور المستنقعات . وكان چوپيتر قد زار هذه المنطقة مرة متخفّياً فى هيئة إنسان ، يصحبه الإله ميركوريوس حامل الصولجان السحرى بعد أن اطّرح جناحيه ، وقد طرقا معاً أبواب ألوف المنازل طالبين مكاناً يأويان إليه لكنها أُغلقت جميعاً فى وجهيهما ، إلى أن لقيا فى النهاية ترحيباً بهما فى كوخ مُغطّى بالأغصان وأعواد الغاب تسكنه سيدة عجوز هى بَوْكِيس برفقة فيليمون الذى كان فى مثل عمرها ، وكان قد تزوّجها أيام شبابهما وعاشا فى الكوخ معاً حتى أدركتهما الشيخوخة ، وقد هوّنا على نفسيهما ما كانا فيه من عوَز بتسليمهما به وتحمّلهما له دون مرارة ، ولم يكن فى رفقتهما خدم بل كان يخدمان نفسيهما ، فكانا الآمرين والمأمورين معاً .

ولم يكد الضيفان السماويان يتخطّيان عتبة الدار المتواضعة ويطأطئان الرأس كى يتمكّنا من النفاذ عبر الباب حتى قدّم العجوز لهما أريكة أسرعت بَوْكيس ببسط نسيج رخيص عليها ، ثم حرّكت الرماد الذى كان ما يزال ساخناً فى الموقد ، وأجّجت نار الليلة السابقة وغذّتها بلحية الأشجار الجافة وأوراقها وأخذت أنفاسها التى نهنهت منها الشيخوخة تُطلق ألسنة اللهب ، ثم أتت من السقيفة بحزمة من الأعواد الخشبية والغصون الجافة وأخذت تشطرها قطعاً صغيرة وتدفع بها إلى النار حتى وضعت فوقها قدراً من البرونز . وكان زوجها قد جمع من حديقة البيت بعض الخضر ونزع عنها أوراقها ، ثم تناول من أحد عروق السقف فخذ خنزير مقدّد أخذ منه شريحة أنضجها فى القدر البرونزى . وفى الوقت نفسه مضى المضيفان يشغلان ضيفيهما بحديث مسلّ حتى لا يضيقا بانتظار الطعام ، وقد ملأ لهما إناء من خشب الزان كان معلّقاً بمسمار فى الجدار بماء دافىء حتى يغتسل الضيفان وينتعشا . وكانت هناك حشيّة منتفخة بحشائش النهر وأعشابه الجافة الرخوة موضوعة فوق أريكة خشبية تتوسط الغرفة ، فقاما وغطّياها ببساط لم يكن يستخدم إلاّ فى الأعياد ، وكان مع ذلك باليا لا يصلح إلاّ لتلك الأريكة الخشبية المتواضعة . وتمدّد الإلهان على الفراش ، وقامت بَوْكِيس العجوز وقد شمّرت عن ساعديها ومشت مضطربة ونصبت أمامهما منضدة ذات قوائم ثلاث إحداها دون الآخرين طولاً فوضعت بلاطة تحتها لتتّزن ودلكت سطح المنضدة بورق النعناع ، ثم بسطت فوقها التوت المُرَقَّش الذى تعشقه الربة مينرڤا الحكيمة والكرز البرّى المحفوظ منذ الخريف فى ثفل النبيذ وكذا الهندباء والفجل الأحمر والجبن والبيض المنضج بفعل الرماد الحارّ بعد أن وضعت كل ذلك فى أطباق من الفخار ، وأحضرت قنينة فضية وأقداحاً من خشب الزان المبطّن بالشمع الذهبى اللون . وبعد قليل قدّمت اللحم الساخن ، ثم وضعت النبيذ غير المُعتّق على المائدة ناحية لتُفسح لأطباق أخرى كانت تحمل

البندق والتين والبلح المجفَّفَين والبرقوق والتفاح العَطِر فى سلاله المكشوفة ، والعنب الأسود الناضج بين أوراقه الأرجوانية ، وكان فى وسط هذه الفاكهة كلها قرص من العسل الأبيض ، وأبهى من هذه الوجبة كان وجها المضيفين الكريمين وترحابهما السّخىّ .

وقد لاحظ المضيفان خلال تناول العشاء أن إناء النبيذ كان يمتلىء وحده كلما فرغ ، فإذا هما يذعران ويدهشان ، ورفعا أيديهما ضارعين إلى الآلهة وأخذا يعتذران عما قدَّما من وجبة هيِّنة ، وعرضا على الضيفين المقدسين أن يذبحا لهما ما عندهما من إوزة فريدة كانت تحرس عليهما بيتهما المتواضع . وشرعا يمسكان بالإوزة ، فإذا هى تهرب أمامهما مما أجهدهما سعياً وراءها لشيخوختهما إلى أن لاذت بالإلهين فحمياها من أن تذبح معلنين إنهما إلهان وقالا : « لسوف ينزل بجيرانكما العقاب الذى هم به جديرون لجحودهم . أما عنكما فستكونان بمأمن مما ينزل بهم ، ولكن عليكما أن تهجرا داركما وأن تصعدا معنا إلى قمة الجبل » ، واستجاب الزوجان العجوزان وتَبِعَا الإلهين وأخذا يتسلَّقان المَرْقَى الطويل فى عُسر وجهد متكئين على عصويهما مثقلين بشيخوختيهما .

كان بين الزوجين وبين قمة الجبل مرمى سهم حين أدارا أعينهما فرأيا مستنقعاً فسيحاً قد ابتلع كل شىء عدا دارهما التى بقيت قائمة وحدها ، وفيما هما يدهشان لهذا الأمر ويندبان حظ جيرانهما ، لمحا كوخهما الذى كان يضيق بساكنيه يتحول إلى معبد ، فتقوم أعمدة رخامية مقام قوائمه الخشبية ويتحول الغماء [القش] المضفَّر إلى سقف ذهبى ، وازدان بابه بنقش زخر فى جميل وتغطَّت أرضه بألواح رخامية . وقال ابن ساتورن بصوت ملؤه الرحمة والرقة : « حدِّثنى أيها الشيخ الصالح وأنت أيتها الزوجة الجديرة بزوج مولع بالعدل ، أى شىء تتمنَّيان ؟ » وبعد أن تشاور فيليمون مع بَوْكيس برهة رفع للإلهين رغبتهما المشتركة قائلاً « أن نكون لكما كاهنين ولمعبدكما حارسين . هذا ما نبغى أن نظفر به ، وإذ كنا قد أمضينا حياتنا معاً فى وفاق تام فهل لنا أن تحين ساعة موتنا معاً فلا أرى محرقة زوجتى ولا تُودِعُنى هى فى قبرى ؟ » . .

وقد تحققت أمنيتهما ، فظلا حارسى المعبد طوال الحياة التى قُدِّر لهما أن يعيشاها . وجاء يوم ناءا فيه بطول العمر وكان يقفان أمام الدَّرَج المقدس يرويان قصة هذا المكان ، ورأت بَوْكيس فيليمون يتغطَّى بورق شجر ، كما رأى فيليمون أوراق شجر تغطى بَوْكيس . وارتفعت قمة شجرة فوق وجه كل منهما ، فتبادلا الحديث ما رُزِقا القدرة على ذلك ، ثم صاحا معاً « وداعاً يا زوجى . . . وداعاً يا زوجتى » وما لبث فيهما أن اختفيا فى لحظة واحدة تحت لحاء ساق الشجرة التى تحوَّل كل منهما إليها . وما يزال فلّاحو فريجيا يشيرون إلى الشجرتين المتجاورتين اللتين نمتا من جسديهما .

ذلك ما قصّه علىّ شيوخ جديرون بالتصديق لم يكونوا مدفوعين بدافع من الخداع أو التضليل . وقد رأيت أنا نفسى أكاليل معلّقة بالأغصان ،كما قدمت أكاليل أخرى نضرة بديلاً عنها بينما كنت أتمتم : « ما أقرب الأتقياء لقلوب الآلهة ، ومن يُكرِّم الآلهة يُكرَّم » .

إيريزيختون

وفرغ ليليكس من قصته التى تركت أثراً عميقاً فى نفوس مُسْتمعيه ولاسيما فى نفس ثيسيوس الذى كان وجوده يعزّز صحة ما قيل . وإذ كان ليليكس بدوره يودّ أن يستزيد من معرفة المعجزات التى حقّقها الآلهة ، لهذا تحدث إليه إله النهر معتمداً على مرفقه قائلاً : « هنالك يا أشجع الأبطال أجساد تحوّلت إلى صورة واحدة وبقيت عليها أبداً ، وهنالك أجساد أخرى تحوّلت إلى صور شتّى متباينة . أنت مثلاً يا پروتيوس الإله ساكن البحر الذى يحيط الأرض بذراعيه قد شوهدت أحياناً فى صورة شاب ، وأحياناً أخرى فى صورة أسد ، وقد كنت يوماً خنزيراً برّياً هائجاً ، ومرة أخرى ثعباناً يرهب الجميع الاقتراب منه ، أو ثوراً مهيب القرون ، وما أكثر ما كنت حجراً أو شجرة ، وأحياناً ماء جارياً . كنت أحياناً نهراً وأحياناً لهباً على عداءٍ مع الأمواج .

وكانت زوجة أوتوليكوس ابنة إيريزيختون[٢٦] تحظى بهذه القدرة نفسها ، غير أن أباها كان يسخر من قدرات الآلهة ولا يطلق البخور فى محاريبهم ، ويقال إنه انتهك حرمة غابة مقدسة لسيريس ودنّس أدغالها القديمة ببلطته ، فقد كانت بين أشجارها شجرة بلوط ضخمة تحيط بجذعها الشرائط واللوحات التذكارية وأكاليل الزهور شواهد على الوفاء بنذور تحقّقت . وكثيراً ما كانت الحوريات يؤدّين رقصاتهن المرحة فى ظلالها ، كما كن يعقدن أذرعتهن ويشكّلن دائرة حول جذع هذه الشجرة التى يبلغ محيطها خمسة عشر ذراعاً ، ويفوق ارتفاعها ارتفاع الأشجار الأخرى بقدر ما كان ارتفاع هذه الأشجار يفوق ارتفاع العشب المحيط بها ، ولم يثن هذا إيريزيختون عن أن يأمر أتباعه بقطع هذه الشجرة . وإذ رآهم يترددون لم يتورّع هو عن أن ينتزع البلطة من يد أحدهم قائلاً : « لسوف تسقط وتلامس قمتها الخضراء الأرض سواء أكانت شجرة عزيزة على الإلهة أم كانت هى نفسها الإلهة » . وهوى بالبلطة خلال نطقه بهذه الكلمات على جذع الشجرة بضربة قاطعة فإذا شجرة سيريس تهتز وتئن ، وإذا أوراقها وثمارها وأغصانها الطويلة تشحب . ولم يكد يشقّ جذع الشجرة حتى تدفق دم غزير أشبه ما يكون بدم ثور نُحر قرباناً فى المذبح .

سكن الجميع وعرتهم الدهشة ، وحاول أحدهم أن يحول بين هذا الاعتداء الأثيم ويردّ البلطة القاسية ، فحدجه إيريزيختون بنظرة قائلاً : « خذ هذه كفاء نواياك الورعة » وضربه بالبلطة ضربة شجّت رأسه ثم استدار إلى شجرة البلوط يلاحقها بضرباته . عندها انبعث من جوف الشجرة صوت يردد : « أنا حورية من حوريات الإلهة سيريس أغيب فى طيّات هذه الشجرة ، أنذرك وأنا ألفظ أنفاسى الأخيرة بأن عقابك على جرمك آت عما قريب ، وفى ذلك ما يخفّف عنى فراقى للحياة » . وعندما أوهنت الضربات المتتالية الشجرة وأخذت تهتز ثم شُدّت بالحبال سقطت محطّمة تحت ثقلها الرهيب عدداً كبيراً من الأشجار المجاورة .

٧٨٠ حزنت الحوريات الأخريات حزناً بالغاً على تلك الخسارة الفادحة التى لحقت بهن وبالغابة ، وجعلن يبكين شقيقتهن وارتدين عليها ثياب الحداد السوداء ، ودنون من سيريس حزينات يسألنها أن تُنزل عقابها بإيريزيخثون فهزّت الإلهة رأسها قبولاً منها لما سألن ، ثم أتت على الحقول بحصادها الوافر ، واشتطّت فى عقابها مما كان يثير فى الناس أحياناً الشفقة على المُذنب ، ولكن ما طُبع عليه من إجرام بشع نزع الشفقة عليه من قلوب الناس ، فتركت الجوع يَعَضُّ فى جسده . ولم يكن من اليسير أن تذهب الإلهة سيريس للقاء « ربّة الجوع » المُهْلكة [فالقدر لا يسمح بلقاء سيريس مع ربة الجوع][٢٧] فاستدعت سيريس إحدى حوريات الجبال قائلة : « فى أقاصى أراضى سكوثيا مكان ثلجى منعزل لا ينمو فيه شجر ولا نبات ، يسكنه أرباب الصقيع والشحوب ورعشة المرض والجوع الذى لا يشبع قط ، مُرِى ربّة الجوع هذه أن تنفذ إلى جوف ذلك المعتدى على المقدسات ، وألّا تنهزم أمام وفرة الغذاء ، وأن تحارب فى صفّى حتى لو ذهبت بوفرتى ، ولا يفزعك طول الرحلة . خُذى مركبتى ودوابّى الوحشية المجنّحة وقوديها عبر الفضاء »[٢٨] ، وأسلمتها سيريس المركبة فانطلقت بها الأوريادة[٢٩] فى أجواز الفضاء حتى بلغت سكوثيا ، ففكّت قيود
٨٠٠ الدواب فوق قمة جبل ثلجى يسمى القوقاز ، وأخذت تبحث عن « ربّة الجوع » فوقعت عليها فى حقل صخرى تنتزع بأظافرها وأسنانها أعشاباً هزيلة ، ووجدتها شعثاء الشعر غائرة العينين شاحبة الوجه يكسو شفتيها زبد أبيض كريه ، وفى حلقها بحّة صوت حزينة ، وجلدها مشقّق يكشف عن أحشائها للرائى وقد نتأت عظام خاصرتها المقوّسة المعروقة ، ومعدتها خاوية فبدا صدرها معلقاً لا يكاد يمسكه غير عمودها الفقرى ، وبدت مفاصلها من فرط هزالها ، وظهرت غضاريف ركبتيها شبيهة بالورم ، كما برز عظم كاحلها . وحين لمحتها الحورية خاطبتها على البُعد [لأنها لم تجرؤ على الاقتراب منها] وأبلغتها رسالة الإلهة ولم تنتظر إلّا برهة صغيرة ، وكانت قد وقفت بعيداً إذ ما كادت تبلغ المكان حتى أحسّت لساعتها بالجوع يهدّدها ، فأدارت مركبتها وعادت إلى هايمونيا .

ومع أن نشاط ربّة الجوع لا يتّفق ونشاط سيريس إلّا أنها أمضت أوامر الإلهة بدقة ، وقد حملتها
٨٢٠ الريح عبر الأجواء حتى بلغت الدار المعيَّنة لها ، وتسلّلت مباشرة إلى غرفة نوم الكافر فوجدته فى سبات عميق [إذ كان الوقت ليلاً] وأحاطته بذراعيها واحتضنته ونفذت إليه عبر أنفاسه ، وأخذت تملأ بنفثاتها فمه وحلقه وصدره ، وأشاعت فى شرايين النائم الحاجة إلى الغذاء ، ولم تكد تُنهى مهمّتها حتى غادرت تلك المناطق الخصبة وعادت إلى مأواها القفر وسط حقول الجدب التى اعتادت الإقامة بها .

رأى إيريزيخثون وهو ما يزال ينعم بلمسات أجنحة النوم الحانية تهدهده أنه يبحث عن طعام ، ومضى يلوك شيئاً لا وجود له حتى أجهد أسنانه من كثرة ما اصطكّت ، وأضنى حلقهِ المخدوع بابتلاع غذاء وهمىّ فكان يزدرد بدلاً من الطعام هواء لا نفع فيه ، حتى إذا استيقظ أحسّ رغبة عارمة فى الطعام تنهش حلقه النهم وأحشاءه الخاوية . وأسرع يطلب كل ما تنتجه الأرض والبحر والفضاء ، وراح يشكو أنه يموت جوعاً وبين يديه المائدة المتخمة بأنواع الطعام فيطالب بالمزيد ، ولم يعد يكفيه وهو رجل واحد ما يكفى مدناً عديدة وشعباً كاملاً ، وأصبحت معدته أشد ما تكون لهفاً إلى الطعام كلما امتلأت به ، كالبحر يتلقّى بين

شطآنه مياه أنهار الأرض كلها دون أن يرتوى ظمؤه أو يكفّ عن ابتلاع مياه قنوات الأقطار البعيدة ، أو كالنار العاتية التى لا يفلت منها شىء وتلتهم كتل الأخشاب التى لا تُحصى ويزداد نهمها كلما ازداد ما يُقدَّم لها من مواد وتزداد حدّة كلما توفّر لها ما تلتهم . كذلك كان فم إيريزيخثون يزدرد الأطعمة كلها مطالباً بالمزيد ، كل طعام يحرّك فيه الرغبة إلى غيره ، فكانت كثرة الأكل تزيد أحشاءه فراغاً وخواء .

وتضاءلت ثروة آبائه وأجداده لإشباع جَوْعته وملء بطنه ، ومع هذا لم يخمد جوعه الشرس وبقى نهمه العارم يذكو حدّة . وبعد أن قذف كل ما يملك فى أحشائه بقيت بين يديه وحيدته التى كانت ما أولاها بأبٍ غيره ، فإذا هو يبيعها لسدّ مسغبته . غير أنها كان لها كبرياؤها الذى لا تخضع معه لسيّد ، فمدّت يديها إلى البحر القريب ضارعة : « لك وحدك يا إله البحر أن تحرّرنى من عبوديّتى ، يا من وهبتُ لك عُذْرتى » . فاستجاب الإله نبتون لضراعتها إذ كان قد استمتع بها من قبل . وكان مالكُها الذى آلت إليه يقفو أثرها ويتتبّع خطاها حينما حوّلها الإله إلى صورة أخرى ، فإذا هى على قسمات رجل يرتدى ثياب صيّاد سمك ، وإذا مالكها يرى بين يديه صيّاد سمك ، وإذا هو يقول له :

« أنت يا من تخفى تحت الطُّعم الخفيف شصّك البرونزى ، أنت يا من تجيد تحريك قصبة الصيد ، كم أتمنى أن تهدأ مياه البحر لك دوماً وأن ينخدع لك السمك تحت المياه فلا يحسّ بشصّ إلّا بعد أن يعلق به . منذ برهة وعلى هذا الشاطىء كانت تقف فتاة فى ثياب بسيطة شعثاء الشعر ، وبعينىّ هاتين رأيتها منذ قليل . خبّرنى أين هى فإن آثار أقدامها تشى بأنها لم تذهب بعيداً عن هذا المكان » ، وأدركت الفتاة أن الإله كان موفّقاً فيما احتال به لخلاصها ، وما أشد ما اغتبطت حين سأل مالكها عن مكانها ، فأجابت : « معذرة يا سيدى كائناً من كنت ، فإننى لم أصرف نظرى عن المياه العميقة ، إذ كنت أشدّ ما أكون انتباهاً إلى صَيْدى . ولكى أمحو شكوكك فإننى أُشْهد إله البحر الذى يعيننى فى مهمتى على أن أحداً غيرى رجلاً كانٍ أو امرأة لم يظهر على هذا الشاطىء منذ وقت طويل » ، فصدّقها سيدها واستدار يدوس الرمل بقدميه وابتعد بعد أن انخدع بالحيلة . وبعدها عادت الفتاة إلى صورتها الأولى

وحين علم أبوها أن ابنته حفيدة تريوپاس تملك القدرة على التحوّل من صورة إلى أخرى ، باعها مرات عدة إلى سادة مختلفين ، فكانت تهرب منهم متّخذة صورة مُهْرة مرّة وصورة طائر مرّة ثانية وصورة ثور يوماً وصورة وعل يوماً آخر ، وكانت تحمل إلى أبيها النهم أطعمة مختلسة . ولما نفد كل ما كان يمكن أن يطعمه دفعته حدّة الجوع القارص إلى البحث عن غذاء جديد لسدّ مسغبته ، فأخذ إيريزيخثون الشّقىّ يقتطع أعضاء جسده بأسنانه ليغذّى بها نفسه .

ولكن كيف لى أن أضيّع الوقت أيها الفتيان فى سرد قصص الآخرين ، على حين أنى أستطيع أن أتحوّل وأظهر فى صور عدّة وإن كانت محدودة . فأنا أظهر أحياناً كما تروننى الآن ، وحينا أتحوّل إلى ثعبان ، وحينا أبدو ثورا يتصدّر القطيع قوّته كلها فى قرنيه . وأقول قرنين لأنه كان لى هذان القرنان ، وأنتم الآن تروننى ونصف جبهتى أعزل » .... وأعقبت كلماته هذه ات

التعقيبات

(١) السيرتيس هى تلك المياه الضحلة بالقرب من شواطىء تونس وطرابلس وبرقة والسيرتيس الكبرى [وتقابل خليج سدر اليوم بين بنغازى ومسراطه] هى الجزء الجنوبى الشرقى لهذه المنطقة الخطرة أمام الملاحة بسبب الشط الرملى المختفى تحت سطح البحر . والسيرتيس الصغرى [وتقابل خليج قابس] هى الجزء الجنوبى الغربى منها . وثمة من يقول إن خطورة هذه المياه ليست سوى شائعة أطلقها التجار الفينيقيون حتىٰ يفرضوا احتكارهم للتجارة فى هذه المنطقة حارمين منافسيهم منهم . فالمعروف أن هذه السمعة لم تمنع ازدهار التجارة فى جزيرة مينتكس [جربه] التى اشتهرت بتجارة الصبغات الأرجوانية وميناء تاكابى [قابس الحديثة] وميناء تاباروا [سفاقس الحديثة] .

(٢) هامت پاسيفاى زوجة مينوس ولعا بثور ظهر بغتة من المياه بمشيئة نپتون فأمرت دايدالوس بأن يصنع بقرة جوفاء من الخشب كانت تتخفى داخلها كى تضاجع الثور الذى أنجبت منه إبناً هو المينوطور [الوحش ذو رأس الثور وجسد الإنسان] . وإذ اشمئز الملك مينوس من رؤيته أمر بسجنه فى المتاهة . ويبدو أن أسطورة البقرة الخشبية من أصل مصرى ، إذ يذكر هيرودوتوس فى الكتاب الثانى من تاريخه قصة تحنيط إبنة منكاورع ودفنها فى تمثال خشبى أجوف لبقرة مطلية بالذهب .

(٣) يُرجع أوفيد كلمة كيريس ـــ دون أدلّة ـــ إلى الفعل اليونانى « خيرين » الذى يعنى قطع أو جزّ .

(٤) ثمة رأى يقول إن دايدالوس هو اسم أسطورى يعنى المهندس الصانع ، ويقال إنه من أهل أثينا وإنه ينتمى إلى أسرة آل إيريختيوس . وكانت ثمة عشيرة فى أثينا اسمها آل دايدالوس ، والراجح أن دايدالوس الحقيقى هو الذى قتل ابن أخته ، أما دايدالوس الأسطورى فهو مبدع الفنون بما فيها النحت والعمارة وحفر الخشب والعاج ، وقد نسبت إليه تماثيل عدة ترجع إلى العهد السحيق ، فسمى أوائل المثالين فى أثينا بأبناء دايدالوس . وليس هناك دليل تاريخى على قصته التى حدثت فى كريت إلّا أنها تدل على الأهمية الكبرى التى كان يعطيها الإغريق للحضارة الكريتية فى تاريخ ثقافتهم وفنونهم .

(٥) يتيح لنا هذا الوصف للمتاهة أن ندرك الأسس التى بنيت عليها الأسطورة ، فقصر مينوس الذى تم الكشف عنه فى كنوسوس عبارة عن مجموعة لا تحصى من القاعات ذات المنافع المختلفة ، فمنها قاعة العرش وقاعة العبادة وقاعة الحريم وقاعة الجلوس والمخازن وما إلى ذلك ، وكلها متصلة بعضها ببعض الأمر الذى لابد قد أصاب بالحيرة الإغريق الذين ألفوا بساطة تصميم مبانيهم . وقد تكون كلمة « لابيرينثوس » أى المتاهة مشتقة من الكلمة اليونانية فى لهجتها الكارية [لابريس] التى تطلق على البلطة المزدوجة . ومعروف أن لهذه البلطة دور كبير فى الديانة الكريتية فهى منقوشة على أعمدة المعابد وعلى الحشوات المحفورة .

وقد تكون المتاهة هى « قصر البلطة » دون أن يُقصد بها متاهة ، غير أن هذا الاشتقاق مازال موضع جدل وبحث . ويُرجع البعض الثور إلى أصول أسطورية مصرية إلاّ أنه موجود فى الرسوم الجدارية لقصر كنوسوس فى مشاهد لمسابقات الثيران . وقد عثر فى حفائر كنوسوس على رءوس ثيران من الفضة ذات قرون من الذهب انبثقت منها البلطة المزدوجة المشار إليها ، ومايزال الأمر يكتنفه الغموض .

(٦) المعروف أن مينوس كان قد فرض على أهل أثينا جزية سنوية من سبعة شبان وسبع فتيات يُقَدَّمُون غذاء للمينوطور . وكان ثيسيوس قد تطوع بمحض إرادته ضمن أفراد هؤلاء الضحايا كى يقضى على الوحش . أما ديا فهو اسم قديم لجزيرة ناكسوس .

(٧) كوكبة الإكليل الشمالى (أو الفَكّة) الموجود بين نجم الجاثى على ركبته [أو نجم الراقص] وكوكبة حامل الثعبان [الحورية] .

(٨) يوصى دايدالوس هنا ابنه بنفس النصائح التى أوصى بها فويبوس ابنه فايثون فى الكتاب الثانى .

(٩) يخطىء أوفيد هنا كما أخطأ فى وصفه لطيران ميديا فى الكتاب السابع ، إذ تقع ساموس إلى الشمال الشرقى من جزيرة إيكاريا التى سقط بجوارها إيكاروس ، فى حين تقع ديلوس شمال پاروس ، وجزيرتا لبنثوس وكاليمنى شرقى ناكسوس .

(١٠) يروى أن دايدالوس قد التجأ إلى صقلية محتمياً بالملك كوكالوس ملك كاميكوس [أجريجنتوم الآن] ، فجاءه مينوس بأسطول ضخم يطالبه بالهارب . وتظاهر كوكالوس ودعا مينوس إلى وليمة حيث قتله غرقاً فى حمام من الماء المغلى بمساعدة بناته . وكانت هذه الأسطورة موضوع مأساة مفقودة لسوفوكليس اسمها « كاميكوى » .

(١١) كاليدون مدينة فى إيتوليا على ضفة نهر إيفينوس وكان ملكها أوينيوس هو والد ملياجر .

(١٢) سيريس أو كيريس إحدى ربات اللاتينيين تقوم بإنماء الزرع وحمايته .

(١٣) يبدأ أوفيد هنا سرد أسماء الأبطال الذين اشتركوا فى صيد الخنزير البرّى مثلما فعل حين سرد أنواع الكلاب فى مصرع أكتايون [الكتاب الثالث] ، ويرى البعض أن هذا الميل إلى السرد لم يكن مجرد نزعة انفرد بها أوفيد بل إنه قد اقتبسه عن مصدر أدبى مجهول الاسم .

(١٤) انظر الكتاب الثانى عشر (١٨٩) .

(١٥) كان أمفياراووس الأرجوسى عرّافاً مشهوراً تنبأ بالموت لكل من يشترك فى الحرب ضد طيبة . وكانت زوجته إيريفيليه قد فُتنت بالعقد الذهبى الذى أهداه إليها پولينيكيه وكان فى الماضى عقد هارمونيا زوجة كادموس . وعندما قرر أدراستوس ملك أرجوس وشقيق إيريفيليه أن يشن الحرب ضد طيبة بناء على رغبة پولينيكيه طالب أدراستوس صهره أمفياراووس أن يخرج معه إلى القتال فاختبأ أمفياراووس فى بيته لأنه يعلم سلفاً أنه ملاق حتفه فى المعركة حسب نبوءته هو نفسه ، فأجبرت إيريفيليه زوجها على الاشتراك فى هذه الحرب . وبعد أن لبى طلبها صاغراً أرسل چوپيتر صاعقة شقّت الأرض أمام قدميه فابتلعته ، ويقال إنها حيلة لجأ بها چوپيتر كى يضمن له الخلود . ومازالت أطلال معبده الذى كان يتنبأ فيه بالغيب قائمة بجوار قرية أوروپوس فى أتيكا .

(١٦) هى أتالانتا من تيجيا [فى أركاديا] بنت ياسوس ، تركها أبوها فى العراء لأنه كان يأمل أن ينجب ولداً مكانها ، فأرضعتها دبّة وعاشت على الصيد فى الغابات [انظر الكتاب العاشر] .

(١٧) اسم جبل فى أركاديا .

(١٨) هن ربّات الأقدار كلوثو ولاخيسيس وأتروپوس .

(١٩) تقوم ربات الأقدار برعاية قوانين الأسرة التى تحرّم قتل الأقارب ، وقد قتل ملياجر خاليه فاستحق عقابهن .

(٢٠) يفصل نهر أخيلوس بين نهر أركانانيا وإيتوليا فى غربى اليونان ، ويزداد فيضانه حين يصل غرب كاليدون ، ولم يكن هذا النهر فى الواقع على طريق عودة ثيسيوس إلى أثينا . ويعد هذا النهر أطول أنهار اليونان وأغزرها مياهاً .

(٢١) هو پيريثوس نديم ثيسيوس الذى رافقه حينما هبط إلى العالم السفلى . [انظر قصة زفافه إلى هيپوداميا وما وقع فيه من عراك بين اللاپيث والقنطور فى الكتاب الثانى عشر] .

(٢٢) لا علاقة بين ليلكس فى هذا الفصل وليلكس الوارد فى الكتاب السابع .

(٢٣) أرخبيل من الجزر الصغيرة الآهلة عند مصب نهر أخيلووس على الشاطىء الغربى لأركانانيا ، ومن وقت لآخر كان الغرين يقوم مقام الجسر بين هذه الجزر .

(٢٤) لم يكن پيريثوس كافراً بالآلهة مثل أبيه إيكسيون الذى حاول ذات مرة أن يهتك عرض چونو . وكان پيريثوس قد هبط إلى العالم السفلى فى رفقة ثيسيوس لكى يختطف پرسيفونى ، غير أن هاديس اعترض طريقه وكبّله بالأغلال . واستطاع هرقل فيها بعد أن يفك أسره وأن يعيده إلى الأرض مع صديقه ثيسيوس .

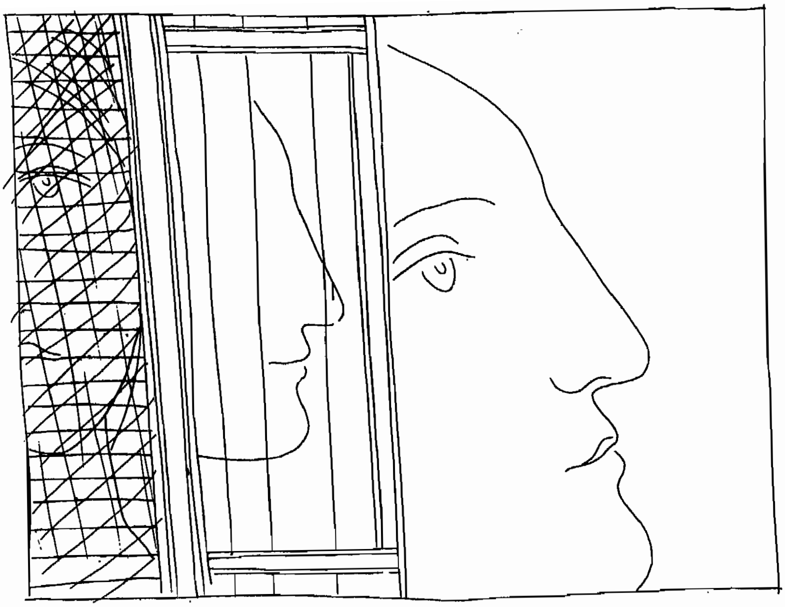
(٢٥) ليلكس هو ابن پيثيوس بن پيلوپس بن تانتالوس الذى ولى عرش فريچيا ، ثم التجأ إلى اليونان بعد أن بعثته الآلهة من الموت [انظر الكتاب السادس ٤٠٣ وما بعده] .

(٢٦) هى منسترا . وليست القصة التى سيرويها أوفيد عن عذاب الجوع الذى فرضته الإلهة ديميتير على إيريزيخثون إلاّ توطئة تفسّر كيف تلقت منسترا من نپتون هبة تحوّل شكلها من حال إلى حال . وكان زوجها أوتوليكسوس بن هرمس قد تلقى عن أبيه القدرة على سرقة ما يريد دون أن يُضبط متلبساً وذلك لقدرته أيضاً على التشكل كيفما يريد . وكان أبا لأنتيكليا أم أوديسيوس . ويقال إن مكر أوديسيوس كان موروثاً عن جدّه هذا [انظر الكتاب الحادى عشر والكتاب الثالث عشر] .

(٢٧) لاغرو فسيريس هى ربة الخصوبة والحصاد الوفير .

(٢٨) المركبة التى تجرّها التنانين المجنّحة ، وكانت ديميتير [سيريس] قد أعطتها من قبل لترپتوليموس ليمضى بها إلى البشر ، كاشفاً عن خيرات الأرض . وقد شاع تصوير ترپتوليموس فوق مركبته فى الفنون الإغريقية .

(٢٩) حورية الجبال والهضاب .



بيكاسو

الكتاب التاسع

أخيلووس وهرقل

سأل البطل ابن نپتون الإله أخيلووس عن سر أنينه وعما أصاب جبينه من سوء ، فأجابه إله نهر كاليدون وكانت خصلات شعر رأسه تنسدل تحت تاج من قصب الغاب قائلاً : « إنك تطلب صنيعاً يكلّفني إسداؤه الكثير ، وهل لمهزوم أن يفخر بمعاركه ؟ ولكني سوف أكون أميناً فيما أقصّة عليك . إن الخجل من الهزيمة يهون أمام مجد خوض المعارك ، وعزائى أن خصمى كان بطلاً عظيماً ، ولعل أصوات الجماهير قد حملت إلى سمعك اسم ديانيرا ، فقد كانت فى الماضى عذراء نادرة الجمال يتنافس عليها خُطّاب عديدون ، فمضيتُ مثلهم إلى دار من كان يتمنى كل منا أن يصاهره ، وقلت له : « فلتقبلنى زوجاً لابنتك يا ابن پارثاوون » . كذلك قصده هرقل هو الآخر فانسحب المتنافسون الآخرون حين تباهى منافسى الوحيد بأنه يقدّم أباه چوپيتر ليكون هو الآخر حما للفتاة ، ثم مضى يستعرض جلائل أعماله بتغلّبه على الأخطار التى عرّضته لها زوجة أبيه [چونو] . ولقد احتججت على ما ساقه من أسباب تزكّيه بقولى : عارٌ

على إله أن يتدنّى فيُبيح لواحد من البشر أن يُصْهِرَ إليه ، [فلم يكن هرقل قد أصبح إلهاً بعد] . إنك ترى أننى سيد النهر الذى تتعرّج مياهه فى مملكتك ، وأننى لن أكون ذلك الصهر الغريب الوافد إليك من بلد نازح ، بل صهراً مختاراً من بلادك وواحداً من بين رعاياك . وحسبى أن چونو ملكة السموات لم تطاردنى عن كراهية ، وأن أحداً لم يفرض علىّ عملاً عقاباً لى . أَوَ تفخر يا ابن ألكمينا بأنك ولد چوپيتر مع أنه ليس أباك ؟ وإن صحّ هذا فلم يكن إلاّ عن خطيئة . إنك حين تدعو چوپيتر أباً ترمى أمك بالزنا ، فاختر أحد أمرين : ألاّ يكون چوپيتر لك أباً أو أن تكون أمك قد أهدرت شرفها » .

ولم يَن هرقل عن أن يتوعّدنى بنظراته خلال حديثى ، وعجز عن أن يكتم غضبه المشتعل فى نفسه ، فصاح بى : « إن ذراعى يفوق لسانى ، ولسوف أترك لك ميدان الكلام ، وحسبى أنا ساحة الوغى » ، وتقدّم نحوى بخطى جريئة ، وخجلت أن أتراجع بعد كل ما صدر على لسانى من زهو وتباه ، فخلعت عنى عباءتى الخضراء ومددت ذراعى وتأهّبت وثنيت قبضتى إلى صدرى وشمّرت للعراك ، فقبض هو تراباً فى كفّه نثره علىّ ، فغطيته بدورى بالرمال حتى بدا أصفر اللون ، وكان يحاول أن يقبض تارة على عنقى وتارة على ساقى وكنت دائب الحركة بهما كى أفلت منه ، إذ كان يلاحقنى ويسدّ علىّ كل منفذ ، وكان ثقل وزنى يحمينى من ضرباته ، وكنت ككتلة من صخر تقف صامدة فى وجه الأمواج التى تحيط بها صاخبة ، غير أن هرقل لم يأبه وكان من ضخامة جسمه ما يكفل حمايته . وتباعد كل منا عن خصمه لحظات ثم ما لبثنا أن تقاربنا لنستأنف العراك ، وتشبّث كلٌّ منا بمكانه فى حزم لا نقبل معه استسلاماً ، ولامست قدماى قدميه ، وانحنيت بصدرى إلى الأمام ، وأخذت أعتصر أصابعه بأصابعى ، وأدفع جبهته بجبهتى ، وكنت قد شهدت قبل ذلك ثيراناً تتصارع على هذا النحو وهى تتنافس على أجمل بقرات القطيع ، وكان القطيع يرقب المتصارعين دون أن يعرف لمن تكون الغلبة فيظفر بالزعامة . وحاول هرقل مرات ثلاث أن يدفع صدرى بعيداً عنه ولكنه لم ينجح إلاّ فى الجولة الرابعة ، فقد استطاع فك قبضتى وإرخاء ذراعىّ المشدودين ثم سدّد إلىّ ضربة أدارتنى حول نفسى [فيجب أن أعترف بالحقيقة كاملة] ثم ألقى بكل ثقله على ظهرى . ولتصدّقنى فلست أحاول الزهو بادعاء الأكاذيب ولست أبالغ حين أقول إننى أحسست كأن جبلاً يدكّنى . وقد نجحت فى أن أدسّ بين جسدينا ذراعىّ اللتين كانتا تتصبّبان عرقاً ، وأن أخلّص جسدى من ذراعيه اللتين كانتا تطوّقان عنقى ، بينا كنت ألهث وهو يضيّق علىّ الخناق ولا يدعنى أسترد أنفاسى ، إلى أن أمسك بعنقى فتهاوت ركبتاى على الأرض وأخذت أعضّ الثّرى .

وحين أدركت أننى أضعف منه احتلت كى أُفلتَ من قبضة البطل فتحوّلت ثعباناً طويلاً ، ورُحتُ أتحوّى مرسلاً لسانى المشقوق بفحيح كريه ، فانطلق هرقل التيرنثى مستهزئاً بحيلى ، وقال : « لقد كانت هوايتى فى طفولتى الفتك بالثعابين ، وإذا كنت تفوقنى قدرة فلست غير ثعبان وحيد لا يصل العديد من أمثالك إلى قوة الهيدرا الليرناوية التى كانت جراحها تمدّها بالمزيد من القوة والبأس ، فكانت كلما قُطع لها رأس من رءوسها نبت مكانه رأسان ويزداد عنقها صلابة وقوة ، وعلى الرغم من رؤوس الأفاعى العديدة التى كانت تتشعّب منها ، وعلى الرغم من تزايد قواها مع كل محاولة للنيل منها فقد سيطرت عليها وقهرتها

وأحرقت جسدها . تخيّل إذن ما سوف يحيق بك بعد أن تحوّلت إلى ثعبان زائف تقاتل بأسلحة غريبة عليك وتتخفّى فى شكل مستعار ! » . وحين انتهى من كلماته أطبق بأصابعه على حلقى حتى كدت أختنق وحاولت جهدى الإفلات من قبضته . وحين قهرنى ثعباناً استحلت ثوراً مفترساً ، وهى الصورة الثالثة التى بقيت لى ، ونشب القتال بينى وبينه ، فانقضّ علىّ من الناحية اليسرى ولفّ ذراعيه حول عنقى ، ومع تراجعى أخذ يلتصق بى ويضغط بكل ثقله على رأسى حتى غرس قرنىّ فى الأرض ومرّغنى فى التراب ، ثم أمسك أحد قرنىّ بقبضته العاتية وحرّكه حتى انتزعه من جبهتى التى تشوّهت وطوّح به ، وأسرعت الحوريات إلى القرن فملأنه بالفاكهة والزهور العطرة وقدّمنه قرباناً مقدساً للآلهة ، فازدادت إلهة الرخاء الخيّرة ثراء بقرنى » .

وحين فرغ أخيلووس من حديثه تقدمت إحدى قيان الحوريات مرتدية ثوباً على غرار ثياب ديانا ، ومرسلة شعرها يتموّج على كتفيها ، وحاملة قرناً مليئاً بمختلف ثمار الخريف الشّهية . ولم يكد النهار يطلّ على قمم الجبال مع أشعة الشمس الأولى حتى بادر الأبطال بالرحيل دون ترقّب لعودة النهر إلى سكونه الطبيعى فى مجراه قبل أن ترتدّ مياهه عن الضفتين ، وعندها أخفى أخيلووس بين الأمواج وجهه الريفى القسمات وجبهته التى فقد أحد قرنيها .

نيسّوس وموت هرقل

لم يفقد إله النهر فى معركته غير هذه الحلية التى سلبه إياها خصمه المنتصر بينما بقى جسده كله سليماً لم يمسسه سوء ، وقد اعتاد أن يخفى هذه السوءة تحت تاج من أوراق الصفصاف أو من الغاب . أما أنت يانيسوس المتغطرس فقد لحق بك الهلاك الذى صبّه عليك حبّك وهيامك بالعذراء ديانيرا بعد أن اخترق ظهرك سهم خاطف .

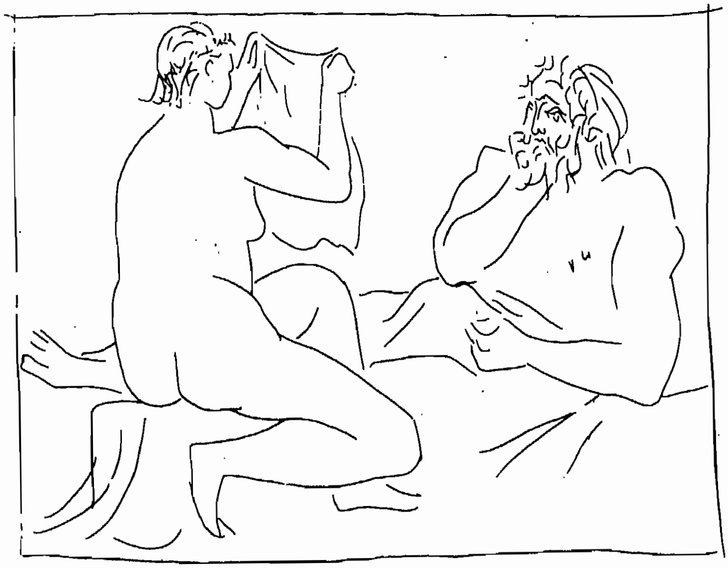
ففيما كان هرقل بن چوبيتر عائداً إلى وطنه مصطحباً عروسه الجديدة بلغ شاطىء نهر إيفينوس المصطخب الأمواج فوجده فائضاً على غير العادة بمياه الأمطار الشتوية التى كانت تثير فيه دوّامات عديدة يصعب معها عبوره . ولم يكن هرقل يخشى على نفسه بل كان قلقاً على زوجته ، وعندما اقترب منه القنطور نيسوس الجبار الذى كان خبيراً بأماكن العبور الضحلة وقال : « دعنى أحمل عنك هذه السيدة إلى الشاطىء الآخر ، فأوفّر عليك جهدك لتقوى أنت على أن تعبر النهر سابحاً » ، عهد البطل البويوتى إلى القنطور نيسوس بعذراء كاليدون التى عراها الشحوب وحلّت بها الرعدة هلعاً وخوفاً من النهر ومن نيسوس ، وطوّح هرقل بقوسه وهراوته إلى الضفة الأخرى ، وأخذ يحادث نفسه وهو مثقل بكنانته وبجلد الأسد الذى يرتديه قائلاً : « أما وقد شرعت فى خوض النهر فلأمض إلى أن أبلغ الغاية » . وألقى بنفسه فى الماء دون تردّد ودون أن يعبأ بالمناطق التى تهدأ فيها حدّة المياه أو بالمناطق الأخرى التى تتدفق فيها المياه . وحين انتهى

إلى الضفّة الأخرى التقط القوس الذى كان قد طوّح به ، وإذا هو يسمع صراخ زوجته ، فتبيّن أن نيسوس كان يحاول أن يخونه فى زوجته التى حملها . فصاح به : « إلى أين تندفع أيها الوغد مستخدماً سرعة ساقيك خادعاً إيّاى بأباطيلك ، إننى أخاطبك يا نيسوس ياذا الخلقتين ، اصغ إلىّ وحذار أن تسلبنى زوجتى ، وإذا لم تَرْع حقوقى فلتتّعظ بالعجلة التى رُبط بها أبوك من قبل بسبب عشق محرّم(١) فلن تفلت منى ، ولن يجديك ما رُزِقته من صفات الخيل فستلاحقك سهامى قبل أن ألحق بك عَدْواً » . وسرعان ما نفّذ ما قال أخيراً ورمى بيده سهماً نفذ فى ظهر القنطور الهارب وأطلّ سنّه المعقوف من صدره . ولم يكد نيسوس ينزع السهم من صدره حتى تدفّق الدم من جرحيه يمازجه سمّ(٢) الهيدرا الرهيب ، فكتم الدم الدافىء المتدفق بقميصه ليجعل منه وسيلته للثأر ، مناجياً نفسه : « لا . لن أقضى نحبى دون قصاص » ، وقدّم قميصه المُسبغ دما للعذراء التى اختطفها راعماً أنه عوذة تحرّك دفين الحب .

ومرّ وقت طويل ، وكانت أمجاد هرقل العظيم قد عمّت الكون وزادت من حقد چونو زوجة أبيه ، وحين عاد منتصراً من أويخاليا(٣) أخذ يتأهب لتقديم القرابين تمجيداً لچوپيتر ووفاء بنذره فى كينايوم(٤) . وانتهى إلى سمع ديانيرا ثرثرة ربّة الشائعات التى يمتزج الزيف فيها بالحقيقة وتزكّيها بأباطيلها ، والتى تبدأ تافهة ثم تنمو شيئاً فشيئاً فإذا هى أخيراً قصة عشق تربط بين زوجها ابن أمفيتريون وبين يـولى . وصدّقت الزوجة النبأ ، ولم تكد تسمع قصة هذا الغرام الجديد حتى أرسلت البائسة الدّمع يفيض من عينيها لتروّح عن همّها . ولكنها عادت تناجى نفسها وتقول : « فيم هذا البكاء ، فما أسعد غريمتى بأن ترانى باكية ، وإذ كانت لابد قادمة علينا فعلىّ أن أبادر قبل فوات الفرصة فأهتدى إلى وسيلة أحول بها بينها وبين أن تسلبنى فراشى . أيحقّ لى أن أجأر شاكية أم ألزم الصمت ، أأعود إلى كاليدون أم أبقى هنا ؟ أأهجر دارى أم أبقى فيها لأعكّر عليهما صفوهما ، إذ لا حيلة لى أن أفعل غير هذا . واذكُر أننى أختك يا ملياجر(٥) ، ولسوف أكيل لها ضربة قاصمة تقضى عليها لتدرك كيف يفعل الحزن بامرأة امتُهنت واعْتُدِى على كرامتها » . غير أن فكرها ضلّ بين اتجاهات عدّة ، وقرّ رأيها على أن تبعث بقميص نيسوس الملطّخ بدمه إلى زوجها لكى يشعل فيه الحب الذى خبا دون أن يساورها شك فى خطر قد يحلق به ، فلم تكن ديانيرا تخال أن هذا القميص سيُلْبسها ثوب الحداد ، فعهدت به إلى ليخاس الذى لم يخالج ذهنه هو الآخر شك فى أمره وأسرّت إليه بكلمات رقيقة طالبة إليه أن يقدمه هدية لزوجها البطل الذى تقبّله دون أن يدرى ما يخبئه له القدر ، فألقى على كتفيه ذلك القميص الملطخ بسم الهيدرا الليرناوية .

وفيما هو يحرق البخور بين ألسنة النيران المنبثقة متمتماً بصلواته للآلهة ساكباً الخمر على المذابح الرخامية من دورق فى يده ، كان السم يسخن ويذوب من حرارة النار ويسرى أثره المدمّر حتى بلغ أطراف جسده . وقاوم البطل آلامه ما استطاع بشجاعته المعهودة دون أن يئن أنّه واحدة ، حتى إذا نفد صبره حطّم المذابح وملأ غابات أويتا بصرخاته وانطلق مهرولاً وهو يمزّق القميص المشئوم ، غير أنه مع كل مُزْقة منه كان ينزع قطعة من جلده . ألا ما أبشعها من ذكرى ! لقد كان القميص أشد ما يكون التصاقاً بجسده فكان عسيراً عليه أن ينتزعه من فوق جسده إلاّ وقد انتزع معه ما يترك عظامه وعضلاته عارية . وكما كانت

دماؤه تئز أزيز الحديد المُحْمَى عليه فى النار حين يُغمس فجأة فى ماء بارد كذلك كان فعل السُّم فى جسده وهو يهتصره . ولم يكن هذا ما يعانيه فحسب ، بل كانت ثمة نارٌ نهمة تلتهم أحشاءه وَعرَقٌ أسود يتصبّب من جسده كله ، على حين تتداعى عضلاته المحترقة ويذيب الألم الدفين نخاع عظامه . وعندها رفع يديه إلى النجوم وصاح : « انعمى بمأساتى يا ابنة ساتورن . نعم ، اشمتى بى فى علياء سمائك أيتها الإلهة القاسية القلب ، وأَشْبِعى نظراتك بعذابى ، وليسعد قلبك الغليظ ، أما إذا كانت حالى تثير الشفقة فى قلب خصم



بيكاسو : القنطور نيسوس يقدم قميصه إلى العذراء ديانيرا

مثلك ، فخلّصينى من الحياة التى أنا فيها فريسة آلام رهيبة ، خلّصينى من الحياة التعسة التى لا أذوق فيها إلّا المكابدة فلسوف يكون الموت خيراً لى . سيكون هدية جديرة بزوجة أب ، أَوَ لست أنا الذى هزمت بوزيريس[٦] الذى كان يلوّث المعابد بدماء الغرباء ؟ أَوَ لست أنا الذى سلبت أنتايوس الرهيب قدرته التى كانت تدعّمها أمه الأرض ؟ أنا الذى لم يفزعنى راعى هيبريا ذو الأجساد الثلاثة ولا الكلب كيربيروس ذو الرؤوس الثلاثة ! أَوَ لستما أنتما يا يدىّ اللتان مرّغتما قرنىْ الثور المخيف فى التُّراب ؟ أَوَ لم يشهد بقدرتكما إيليس ومياه ستيمفالوس وغابات پارثينيوس ؟ أَوَ لَمْ تَعُدْ بفضل بسالتكما حمائلُ سيف ملكة الأمازونات الذهبى ، وكذا الثمار التى كانت فى حراسة تنين لا يغمض له جفن ، أَوَ ليس حقاً أننى أتيتُ على عَيْث القنطور والخنزير الوحشى الذى كان يخرّب أركاديا ، وأن الهيدرا لم يُغْن عنها شيئاً تزايد قوتها مع فقد بعض أعضائها واستبدالها بأعضائها المفقودة أعضاء أخرى ؟ هل أذكّرك أننى حين رأيت جياد ملك طراقيا تعيش على الدماء البشرية وتمتلىء حظائرها بمزق الجثث الآدمية هدمت الحظائر وقتلت الجياد وصاحبها ؟ ها هما

تان اليدان اللتان خنقت بهما أسد نيميا الوحشى ، وها هو ذا الكتف الذى حملتُ عليه السماء . كم أحست زوجة چوپيتر القاسية بالإرهاق من كثرة أوامرها لى دون أن أحس أنا الإرهاق فى تنفيذها ، وها هى ذى كارثة جديدة تكلّ أمامها الشجاعة وعُدّة الهجوم والدفاع معاً ، ففى أعماق رئتى تضطرم نار تلتهم كل ما تجده فى جسدى من أعضاء بينما يعيش الملك يوريسثيوس(٧) قوياً معافى ، فهل ثمة من يؤمن بعد ذلك بوجود الآلهة ! » .

وما إن فاه بهذه الكلمات حتى حطّمه الألم فهام على وجهه فوق سفوح جبل أويتا بخطوات ثور قد أثخنه رمح صياد رماه وانفلت هارباً ، فكان أحياناً يئن وأحياناً أخرى يرعد غضباً محاولاً أن ينزع عنه ثيابه أو يقتلع جذور الأشجار أو يصبّ غضبه على الجبال أو يرفع ذراعيه إلى السماء مقرّ أبيه چوپيتر .

وها هو ذا هرقل يلمح ليخاس الذى اختفى مرتعداً فى جوف صخر فصاح به وقد ضاعف الألم من غضبه قائلاً : « أأنت ياليخاس من يهدينى هذه الهدية القاتلة ؟ أنت إذن من دبّر موتى ؟ » ، فأخذ ليخاس البائس يرتجف وقد علا وجهه شحوب الذعر ونبس بكلمات يعتذر بها يخنقها الخوف وهو يحاول أن يقبّل ركبتى هرقل الذى أمسكه ودار به ثلاث دورات فى الهواء ثم قذف به فى مياه بحر يوبويا باندفاعة تربى على اندفاعه المنجنيق ، فإذا جسد ليخاس يجمد فى الهواء . وكما يقال إن أنفاس الرياح الثلجية تكثّف مياه الأمطار فتغدو ثلجاً ، ثم لا تلبث كتلة الثلج الهشّة أن تتجمّد وهى تدور حول نفسها ثم تستدير متّخذة شكل حبّات بَرَدَ سميك ، كذلك لم يكد ليخاس يُقذف به وسط الفضاء ويجمّد الفزع دمه حتى تحوّل جسده كله إلى صخرة صلبة كما تقول أسطورة قديمة . وما تزال إلى اليوم صخرةٌ مرجانية خطرة منبطحة فوق وهدة منخفضة على صورة آدمية وكأنها جثة ، وما يزال الملاّحون لا يجرءون على أن يطئوها ، ويطلقون عليها اسم ليخاس .

أما أنت أيها الإبن العظيم لچوپيتر ، فإنك بعد أن اقتلعت الأشجار من فوق قمة أويتا وسوّيت منها محرقة . أخذت قوسك وجعبتك الضخمة وسهامها التى ستُفْتح بها مملكة طروادة ، وقدّمت ثلاثتها هدية لفيلوكتيتيس بن پوياس(٨) الذى عهدت إليه بأن يُشعل النار فى محرقتك ، وفيما كانت ألسنة اللهب النهمة تعمّ كومة الخشب الحافلة غطّيتها بجلد أسد نيميا ثم تمدّدت فوقها متكئاً برأسك على هراوتك ، وقد بدا على وجهك الهدوء كما لو كنت مضطجعاً فى وليمة مزدان الجبهة بأكاليل الزهور وسط أقداح مليئة بالنبيذ .

وتأجج اللهب وانتشر فى جوانب المحرقة كلها ثم بلغ أطراف البطل الذى كان يرقبه هادئاً فى استخفاف ، وخشيت الآلهة ما سيصيب بطل الأرض ، فتطلع إليهم چوپيتر بن ساتورن وهو يقول مازحاً : « إن ما يبدو عليكم من خَشْية هو متعة لى يا سكان السماء ، إننى أغبط نفسى من كل قلبى على أننى رب شعب يدين بالجميل لمن أحسن إليه ، كما أنى سعيد أن أراكم تبسطون حمايتكم على ابنى فهو جدير بها لما حقّق من مآثر عظيمة خارقة ، إلاّ أن هذا لا يهوّن من تقديرى لموقفكم النبيل . فلتحرّروا قلوبكم الوفية من هذا الفزع الذى لا معنى له ولا تقلقوا لهذه النيران المشتعلة فى أويتا ، فإن هذا الذى قهر الكثير

فى قدرته أن يقهر هذه النيران . إنه لن يحسّ سطوة ڤولكانوس إلاّ فى هذا الجزء من جسده الذى أخذه عن أمه ، أما ما أخذه عنى فهو خالد فى مأمن من الموت ومن عصف النيران . والآن وقد أصبح هذا الجزء لا بقاء له على الأرض فسأرفعه إلىّ فى السماء ، وكم أكون سعيداً أن يرضى الآلهة جميعاً عما سوف أنهض به ، وإن كان بينكم من يضيق بأن يصبح هرقل إلها فهذا لأنه يضنّ على ابنى بهذه الجائزة الثمينة ، ولكنه مع ذلك سيقرّ بأنه بها جدير وسوف يؤمن بما فعلت رغم ضيقه به » . وصفّق الآلهة لحديثه ، بل إن ملكة السموات وزوجة چوپيتر سمعت الشطر الأكبر من الحديث دون بَرَم به ، ولم يرتسم الضيق على وجهها إلاّ مع الكلمات الأخيرة ، فقد رُئيت غير مرتاحة للّمز الذى لمزها به زوجها . على أن إله النار ڤولكانوس [هيفايستوس] قد ذهب بجميع ما يمكن أن تأكله النار ، فلم يعد من اليسير التعرّف على هرقل بما تبقى منه لأن شيئاً مما يذكّر بأمه لم يبق ولم يحتفظ إلاّ بما يحمل من بصمات چوپيتر . وكما يحدث للثعبان حين يتجدّد شبابه بانسلاخه من جلده فيتحرّر من شيخوخته ويتفجّر قوة وتتألق برّاقة حراشفه الجديدة ، كذا حدث للبطل التيرينثى إذ تحرّر من غلافه الأرضى الفانى وعادت الحياة إلى أفضل جزء من ذاته وبدا أعظم مما كان وعَلَتْه هيبة جليلة تدعو إلى التوقير ، وعندئذ رفعه أبوه القدير فى سحابة معتلياً عربة تجرها جياد أربعة ، وجعله ينفذ بين النجوم المتلألئة[٩] .

ألكمينا وجالانثيس

عندها أحسّ أطلس أن وزن السماء قد ثَقُل عما هو معهود ، ومع هذا لم يخمد غضب يوريسثيوس بن سثينيليوس فواصل مطاردة هيلوس ابن البطل بنفس الحقد الرهيب الذى كان فى الماضى يطارد به أباه[١٠] . وأحسّت ألكمينا الأرجوسية فى غمرة همومها بأنه لم يبق لها إلاّ يولى صديقتها التى اختارتها نجيّة لها فى شيخوختها ، ومضت تروى لها مآثر ابنها التى كان العالم كله يعرفها والمآسى التى تجرّعتها . وكان هيلوس نزولاً على ما مره به أبوه هرقل قد أعطى لهذه المرأة اليافعة مكاناً فى فراشه وقلبه وأودع رحمها ثمرة سلالة كريمة ، ولهذا حدّثتها ألكمينا قائلة : « أننى أدعو لك أن تكون الآلهة بك رحيمة وأن تخفّف آلامك يوم تبلغ مدة الحمل نهايتها ، يوم تدعين الربّة لوكينا حامية الحوامل حين الوضع وقد ساورك الخوف . أذكر كم كانت قاسية علىّ توددّاً منهـا لچونو حين دنت لحظة ميلاد هرقل الذى كانت ثمة أعمال كبرى سوف يضطلع بها . كانت الشمس تتحرّك فى برجها العاشر ، وكان حملى يُثْقل جنبى ، فلقد كان من الضخامة بحيث يستطيع المرء أن يتعرّف ما كان لچوپيتر من أثر فى هذا الحمل المكنون ، ولم يعد فى مقدورى أن أحتمل آلامى ، وحين أتحدث اليوم عن ذلك أحسُّ الفزع يهتصر جسدى . لقد أصبحت ذكرى الولادة وحدها حتى اليوم موجعة . وبعد أن طال عذابى سبع ليال وسبعة أيام رفعت يدى إلى السماء خائرة القوى من الألم ، وصرخت عالياً منادية لوكينا ومعاونِاتها ، وأقبلت لوكينا ، غير أن غريمتى چونو كانت قد رشتها وطلبت إليها أن تتقرّب إليها بحياتى ، فلم تكد تسمع أنّاتى حتى جلست على هذا المذبح القائم على بابى

واضعة ساقاً على ساق ، وشبكت أصابعها المتباعدة كأسنان المشط وهى عاقدة العزم على العبث بمصيرى ، وصاتت بصوت خفيض كلمات سحرية عوّقت حركة الجنين الذى كان قد بدأ يهلّ . وبذلتُ جهداً خارقاً ، وكنت خلال شرودى أرمى چوپيتر بالجحوُد ، وكم تمنيت الموت بينا أُرسل شكاة تلين قساوة الصخر ، وأخذت الأمهات فى مدينة كادموس يتوسّلن إلى الآلهة ويشجّعننى وسط آلامى المضنية . وكانت إلى جانبى جالانثيس الشقراء إحدى وصيفاتى التى غدت عزيزة علىّ لسرعة تلبيتها رغباتى ولما كانت تقدمه إلىّ من عون . وقد أدركت أن فى الأمر لمحات من شرور چونو ، ولمحت فى دخولها وخروجها من الباب غير وانية أن الإلهة جالسة على المذبح ضامّة ذراعيها عاقدة أصابعها على ركبتيها ، فقالت لها جالانثيس : « أنت كائنة من كنت ، قومى فهنئى سيدتى ألكمينا الأرجوسية فلقد خلُصت من آلامها وصارت أما وتحقّقت أمانيها » . ونهضت الإلهة التى عليها يتوقف وضع كل جنين فزعة وأرسلت خلال اضطرابها يديها المعقودتين فانتثرت مع حركة يديها قيود رحمى وانحدر الطفل فخلُصت من آلامى . ويقال إن جالانثيس استغرقت فى الضحك حين اكتشفت أنها خدعت الإلهة وظلت تضحك حتى أمسكت بها الإلهة القاسية واجتذبتها من شعرها الجميل . وإذ حاولت أن تنهض من الأرض أفسدت الإلهة محاولتها بتحويل ذراعيها إلى قدمين أماميتين ، غير أن الفتاة احتفظت بخفة حركتها وتغيّر شكلها دون أن يتغيّر لون ظهرها وغدت تلد من فمها ، إذ كان هذا الفم هو الذى انطلق بالكذب على الإلهة مضللاً لتُعين سيّدتها على الوضع ، وهى ما تزال تتردّد على دورنا كما كانت تفعل فى الماضى [بعد أن تحوّلت إلى عِرْسة] .

دريوپى . يولاووس

وبعد أن فرغت ألكمينا من حديثها وأثارت أشجانها ذكرى وصيفتها القديمة ندّت عنها زفرة ، فقالت لها زوجة ابنها التى أدركت عُمق حزنها : « لقد كانت تلك المرأة التى تبكينها يا أمى غريبة عنا لا تجرى فى عروقها دماء أسرتنا ، فكيف بك لو قصصت عليك المصير الغريب لأختى ؟ وإن كنت أعجز ما أكون عن أن أتحدث إليك وأنا فى غمرة الدمع ووخز الألم . كانت دريوپى وحيدة أمها فقد أنجبنى أبى من زوجة أخرى ، وكانت أشهر نساء أويخاليا جمالاً ، وكان الإله الذى يسود دلفى وديلوس قد اغتصبها وافتضّ بكارتها عنوة قبل أن يتزوج بها أندريمون الذى كان يخال أنه سيسعد السعادة كلها بهذا الزواج . وكانت ثمة بحيرة ينحدر ساحلها فى لطف انحدار شطآن البحر ، وعلى آكام ذلك الساحل تتألق زهور الريحان . وقصدت دريوپى هذه البحيرة دون أن يخالجها شك فيما سيكون من أمرها . على أن ما سوف تستمعين إليه سيكون أكثر إثارة ، فقد راحت تهدى الأكاليل للحوريات وبين يديها حمل رقيق ، طفل لم يكمل عامه الأول ، كانت ترضعه من لبنها الدافق المُشْبع . وعلى مقربة من البحيرة كانت شجرة لوتس(١١) صِنْوة المياه تحمل زهوراً ألوانها أشبه بأرجوان مدينة صور وقد آذنت بالثمر . جمعت دريوپى حزمة من الزهور لطفلها كى يلهو بها ، وأخذتُ أتبادل معها أطراف الحديث ، وكنت على وشك قطف بعض الزهور كما فعلت فإذا بى أرى قطرات من دم تتساقط من الزهور ، وأشاهد أغصانها تهتز كأنما تسرى بها رعدة . وقد علمنا من

الفلاحين بعد ذلك بوقت طويل أن الحورية لوتيس قد تحوّلت شجرة لوتس هرباً من نزوات بريابوس الفاحشة ، ولكنها مع ذلك لم تغيّر اسمها .

ولم تكن أختى تعرف شيئاً عن ذلك الخطر الذى يهدّد السابلة بتلك الأماكن . وقد رأت أمام ما اعتراها من قلق أن تعود ولا تعرج على الحوريات اللاتى جاءت للابتهال إليهن ، غير أن قدميها كانتا قد انغرستا كالجذور فى الثّرى وعلقتا به ، وحاولت اقتلاعهما فلم يطاوعها غير جذعها ، وأخذ لحاء خشبى يكسو فى بطء جسدها من أسفل قدميها إلى الركبتين ، وما إن رأت ذلك حتى رفعت يديها إلى شعرها تريد انتزاعه ، فإذا يداها قد امتلأتا بأوراق شجر كان قد عمّ رأسها كله . وأحسّ أمفيسوس الصغير [وهو الاسم الذى خلعه عليه جدّه يوريتوس] أن اللبن لم يعد يدرك فاه ، كما تصلّب ثدى أمّه . شاهدت هذا المصير المُوجع ينزل بأختى تحت بصرى وما كان بيدى أن أدفع عنها . أختاه ، لقد حاولت ما استطعت أن أؤخر بقبلاتى زحف الجذع والفروع وكم تمنيت أن يكسونى هذا اللحاء . وعندها جاء أندريمون زوج دريوبى وأبوها التعس يبحثان عنها فلوّحت لهما كى يلتفتا إلى الشجرة التى حلّت محل من جاءا يبحثان عنها ، فغمرا بقبلاتهما الخشب الذى كان لا يزال ينبض بالحياة ، وركعا أمام جذع الشجرة العالية وضمّاها بأذرعهما . أختاه الحبيبة ! لم يبق فيك شىء لم يتحول إلى شجرة ، عدا وجهك وتلك الدموع التى تروى الأوراق المنبثقة من جسدك ، ولم يبق منها غير فم ينطلق منه صوتها فى أجواز الفضاء شاكية : « إذا كان ثمة من يصدّق البؤساء فأُقسم بالآلهة أنى لم آت ما أستحق عليه هذا المصير الرهيب ، فقد حاق بى هذا العقاب دون جرم اقترفته . فكم كنت نقية طاهرة فى حياتى ، وإن كنت كاذبة فليذبلنّ عودى ولتسقطنّ عنى تلك الأوراق التى تظلّنى ولأهوينّ تحت وقع ضربات البلطة وليأتينّ اللهب على حياتى . هل لكم أن تأخذوا هذا الطفل المعلّق فى أغصان الأمومة على أن تعهدوا به إلى إحدى المرضعات ، ولتتيحوا لى أن أراه دوماً مضطجعاً فى ظلّى ، وليختلف إلىّ كثيراً ليلهو فى ظلالى . وإذا ما بلغ أن ينطق فعلّموه أن يحيّينى على أننى أمه وليردّد فى أسى أن أمه يطويها جذع هذه الشجرة ، ولكن فليحذر المستنقعات وليتجنّب قطف زهور الأشجار وليحترس من لمس سيقان أزهار قد تكون أجساد إلهات . وداعاً أيها الزوج العزيز ، وأنتما أختى وأبى ، وإذا كنتم تحبوننى حقاً فاحمونى من جراح النصل القاطع وأنياب قطعان الماشية ، وإذ كان من المتعذّر علّى أن أنحنى إليكم ، فلتشبوّا أنتم إلىّ كى ألثّم شفاهكم مادام فى قدرتكم أن تبلغوا شفتىّ ، ولعلكم ترفعون إلىّ طفلى كى ألثّمه . وما أنا مستطيعة بعد ذلك أن أضيف شيئاً ، فها هو ذا لحاء رقيق قد بدأ يمتد إلى عنقى الأبيض ، وأخذت قمة الشجرة تطوى رأسى . أبْعِدوا أيديكم عن عينى فمن العبث أن تمدّوا إلىّ يد العون ، وخلّوا اللحاء الصاعد يغشّى عينىّ المحتضرتين » . وعجز فمها بعد ذلك عن الحديث واختفى من الوجود ، وبقيت غصونها الجديدة تنبض بالحياة طويلاً بعد أن مُسخت شجرة » .

وبينما كانت يولى تحكى هذه القصة الغريبة كانت ألكمينا وهى تبكى تجفّف دموع إبنة يوريتوس بأناملها ، وإذا بأعجوبة جديدة تقع فتقطع اتصال أفكارهما الحزينة ، إذ رأتا يولاووس واقفاً بالبوابة الشاهقة وقد عاد صبيّا نمت على وجنتيه شعرات كالزغب ، فلقد استجابت هيبى [ابنة چونو][١٢]

لتوسّلات زوجها هرقل وخلعت على يولاووس قسمات شبابه الباكر . وكانت هيبى على وشك أن تقسم بألّا تفعل أبداً مثل هذه المكرمة لأحد بعدُ ، فعارضتها ثيميس قائلة : « إن طيبة على وشك أن تسقط بين براثن الحرب الأهلية ، ولن يستطيع سوى چوپيتر قهر كاپانيوس . وسيموت أخوان يقتُلُ كلٌّ منهما الآخر ، وسيشهد الكاهن أمفياراووس وهو ما يزال على قيد الحياة طيفه بعد الموت عندما تنشقّ الأرض لتتلقّاه ، وسيثأر ابنه لقتل أبيه بسفك دم أمه فيصبح فى آن واحد إبناً باراً وآثماً ، ثم يهوله جرمه فيفقد عقله ويُنفى خارج وطنه ويفرّ تطارده ربّات الانتقام ، ويلاحقه شبح أمّه ، وإذا يوم من الأيام تطالبه زوجته كاليرهوى إبنة إله النهر أخيلووس بالقلادة الذهبية المشئومة التى سيكون معها حتفه ، وكذا سينفذ سيف فيجيوس والد زوجته الأولى فى جنبه إلى أن ينفد الدم من جسده . وبعد ذلك كله ستجثو كاليرهوى ضارعة إلى چوپيتر العظيم أن يهب الشباب لولديها وهما مازالا فى المهد صغيران ، وتسأله ألّا يطول بهما الزمن حتى يأخذا بثأر زوجها الظافر . وها هى ذى دعواتها تهزّ قلب چوپيتر ، فيمُنّ على زوجة ابنه ويجعل من ولديها شابين قبل بلوغهما الحُلُم ، ويهبهما تلك الهبات التى تهبها عادة هيبى [إلهة الشباب] زوجة ابنه هرقل السماوية وابنته من چونو فى آن معاً »[١٣] .

بيبليس

ولم يكد يجرى لسان ثيميس بتلك النبوءة كاشفة النقاب عن المستقبل حتى أخذ الآلهة يتناولون الموضوع بمختلف الأقاويل فى صخب ، وإذا هم يهمس بعضهم إلى بعض قائلين : « لماذا لا يكون للآخرين مثل هذه المنّة » ؟ فشكت إبنة المارد پالاس[١٤] الشيخوخة التى كانت لزوجها بالمرصاد ، وشكت سيريس إلهة الخصب والحصاد من الشعر الأبيض فى رأس يازيون[١٥] ، وطالب مولكيبير [ڤولكانوس] لإريخثوينوس أن يكون له الحق فى أن يبدأ حياته من جديد . وحاولت ڤينوس أيضاً أن يعود إلى أنخيسيس شبابه بعد أن ساورها القلق على أيامه المُقبلة ، وامتلأ كل إله حماسة من أجل أتباعه ، وتزايد صخبهم وخلافهم ، ولكن ذلك كله ما لبث أن سكن حين تحدث چوپيتر قائلاً : « أيها الآلهة ، إذا كنتم تكنّون لى شيئاً من التوقير فأفصحوا لى عن رغباتكم ، وهل من بينكم من يظن نفسه قادراً على قهر القدر ؟ إن القدر هو الذى أعاد يولاووس إلى السنّ الذى كان قد تخطّاه ، والقدر هو الذى سوف يهب الشباب لطفلىْ كاليرهوى لا بالقوة ولا بالخداع . ولكى ترضوا بهذا الناموس بنفوس راضية فاعلموا أننا جميعاً ــ أنتم وأنا ــ رهن القدر ، ولو ملكتُ تغيير الأقدار لما انحنى ظهر ابنى أياكوس تحت وطأة الأعوام ، ولبقى رادامانثوس يرفل فى ريعان الشباب أبداً ، ولعاش قبله كذلك مينوس العزيز[١٦] الذى تهوّن من أمره شيخوخته العاتية والذى لم يعد يحكم مملكته بالحكمة التى أُثرت عنه فى الماضى » . فسكّنت كلمات چوپيتر من شكاة الآلهة ، ولم يعودوا يجأرون بالشكوى بعد أن رأوا الشيخوخة تدبّ فى رادامانثوس وأياكوس ومينوس . وكان اسم مينوس وحده حين كان فى ريعان الشباب يلقى الرعب فى الأمم الكبرى ، أما الآن

فقد غدا عاجزاً يخاف شرّ ميليتوس بن ديونى المزهو بشبابه وبأبوّة فويبوس له ، فلقد كان جدّ مقتنع بأن ميليتوس يهدّد عرشه ، ومع ذلك لم يكن يجرؤ على نفيه بعيداً عن وطن آبائه .

على أنك قد هاجرت من تلقاء نفسك يا ميليتوس ، وحملتك سفينةٌ سريعة عبر أمواج بحر إيجه لتقيم على أرض آسيا أسوار مدينة تحمل اسم مؤسّسها(١٧) ، وهناك عرفت سيانى إبنة مياندر الفريدة فى جمالها حين كانت تسير فى إثر منحنيات ضفاف أبيها الذى كان يتعرّج مرّة ومرّة . وفى هذا الموقع وضعت لميليتوس توأمين هما بيبليس وكاونوس . وفى قصة بيبليس عبرة للفتيات حتى لا يبعدن عن الحب المشروع ، وكان قلبها قد شغف حباً بأخيها حفيد أپوللو الذى يماثله جمالاً فأحبّته لا كحبّ الأخت لأخيها بل فوق هذا ، ولم تكن تدرك أوّلاً كنه عاطفتها ، ولا تعدّ نفسها آثمة حين تغمر أخاها بقبلات متلاحقة أو لأنها تطوّق عنقه بذراعيها ، فلقد عاشت طويلاً فى أسر خداع كاذب لعاطفة أخوية ، وشيئاً فشيئاً أخذ حبّها يجانب الطريق السّوىّ ، فكانت تأتى ــ حين تفد لزيارة أخيها ــ فى أحسن زينتها حريصةً على أن تبدو فاتنة فى عينيه ، وتحسّ الغيرة حين تجد إلى جانبه امرأة أكثر منها فتنة . ومع هذا لم تتبينْ حقيقة مشاعرها ، كما أنها لم تحسّ نحوه برغبة جسدية على الرغم مما كان يتأجج فى فؤادها من لوعة . كان الوله يغلى فى أعماق قلبها فانبرت تنادى كاونوس بـ « سيّدها » ، وتنفر من الأوصاف الدّالة على الأخوة والقرابة ، فتفضل أن يناديها بيبليس لا أن يناديها بأخته ، ومع ذلك لم تكن تفسح فى نفسها مكاناً لرغبات دنسة ما كانت يقظى ، أما حين كانت تستسلم لاسترخاءة حانية فما أكثر ما كانت ترى محبوبها فى منامها ، بل لقد خُيّل لها أنها ترقد فى أحضان أخيها ، فتعلوها حمرة الخجل مع أنها ما كانت غير غافية فى فراشها ، فإذا هرب من عينيها النعاس التزمت الصمت طويلاً تحاول أن تجمع من جديد شتات حلمها ، ثم تناجى نفسها مضطربة الفكر قائلة : « يالشقائى ! ما معنى هذه الخيالات التى تتراءى لى فى هدأة الليل ؟ لكم خشيت أن تتحقق . ولماذا تراودنى هذه الأحلام ؟ ما أجمل كاونوس حتى فى أعين حاقديه وكم أنا به معجبة ، ولو لم يكن أخى لكان بوسعى أن أعشقه ولكان لى خير الأزواج فنَكَدُ طالعى هو أننى أخته . ولكن مادمت لا أحاول أن أرتكب فى يقظتى ما يخالجنى فى سُباتى فكم أتمنى أن تتراءى لى تلك الرؤى لأراك كثيراً فليس ثمة على الأحلام من رقيب ، ثم إن متعتها لا تعود بضرر . أى ڤينوس ، وأنت يا كيوپيد المرافق المجنّح للأم الحانية يا لها من متعة تلك التى تذوّقتها . ما أروع هذا الشعور وأنا مستلقية على فراشى ، شعور الاستسلام الذى غمرنى حتى نخاع عظامى ، ما أروع ذكرى هذا الحلم حتى وإن كانت متعتى فيه قصيرة عابرة ، إذ سرعان ما أتى عليها الليل الحسود حين ألمّت به الغيرة من عطيّتى . كم أتمنى لو أتيح لى أن أغيّر اسمى واقترن بك . كم كنت سأصبح كِنّةً مُثْلى لأبيك ، وكم كنت ستصبح صِهْراً كفئاً لأبى ! وكم تمنيتُ لو أن الآلهة جمعت بيننا فى كل شىء غير أن نكون من صُلْب واحد ! ساعتها كنت أتمنى أن لو كنتَ سليل أسرة أنبل من أسرتى . ولست أعرف إذن أية امرأة ستجعل منها أما لأبنائك يا أجمل الرجال ، يا من اختارت الأقدار التعيسة لنا نفس الأبوين . فلتكن لى أخاً شقيقاً فحسب ، فإن ما يربط بيننا هو ما يفصم هذا الرّباط ، فما بالى أحلم هذه الأحلام ، وهل لحلمٍ مهما بلغ قيمته ؟ ألا فلتغفر لى الآلهة قولى ؛ فقديما بنى الآلهة بشقيقاتهم ؛ فلقد

بنى ساتورن بأوبس مع أنها من أصله الذى ينحدر منه ، كما بنى أوقيانوس بثيتيس ، وبنى سيد الأوليمپ بجونو . حقاً لقد فاتنى أن للآلهة سُنَنَهم ، وهل لى أن أسوّى بين البشر والآلهة فى نواميسهم التى تخالف نواميسنا فتبيح للأخ أن يبنى بأخته ؟ لسوف أقتلع من قلبى هذا الحبّ المحرَّم ، وإن لم أقدر فما أولانى أن ألقى حتفى قبل أن أقع فى الخطيئة ، ثم ما أولانى أن أتمدّد على فراش الموت وأتلقّى وأنا جثة هامدة قبلات شقيقى .

وعلى أية حال فإن ما أتوق إليه يتطلّب رضانا نحن الاثنين ، وإذا افترضنا أننى حزمت أمرى فقد يعدّه هو جريمة ، على حين لم يخش أبناء أيولوس أن يتزوجوا من شقيقاتهم[١٨] ، ولكن كيف انتهيت إلى هذا ؟ ولماذا تتراءى أمامى هذه الأمثلة ؟ وأى منزلق أنحدر إليه ؟ فلتغرُبى عنى أيتها الرغبات المدنّسة ، فكم أنا حريصة على ألا يكون بينى وبين أخى إلا كل ما هو مشروع . ولو أنه هو الذى شُغف بى أولاً فلعلّى كنت أستطيع أن أستسلم لطيشه ، وما كنت أقدر أن أرفض توسّلاته لو كان قد فعل . هيّا أفصحى يا بيبليس ، هل تستطيعين الاعتراف بالحقيقة ؟ بلى ، فسيدفعنى الحب إلى ذلك . وإذا لم أستطع وأغلق الخجل فمى فسأبعث إليه برسالة فى الخفاء تكشف له مستور حبى » .

وتولاّها الصمت عند هذا ، وإذا فكرتها تلك تخرج بها عن تردّدها . ونهضت على جنبها قليلاً واتكأت على مرفقها الأيسر وقالت : « لأكشفنّ له عن هذا الحب الطائش ، وعليه هو أن يتخذ قراره ، واأسفاه ، إلى أين يمضى بى هذا البلاء ، وأية نار هذه التى تحرق قلبى ؟ » وبعد أن استقرت على ما ستكتب أخذت تخطّه بيدها المرتجفة . وأمسكت القلم الحديدى بيُمناها ولوح الشمع فى يُسراها ، وإذا هى تتردّد بعد أن بدأت ، ثم إذا هى تكتب ولكنها لم ترض ما كتبت ، فطمست وغيّرت وتراجعت ثم أقبلت . وكانت تتناول ألواحها ثم تضعها ، وتضعها ثم تتناولها من جديد دون أن تعرف ماذا تريد ، وساءها كل ما كانت مُقْدمة عليه ، وامتزجت على وجهها الجرأة المرتسمة بالحياء . وبعد أن خطّت كلمة « أختك » قررت أن تطمسها وسوّت لوح الشمع ثم كتبت : « إليك تبعث السلام امرأة تحبك وهى لا ترقب منك إلاّ السلام[١٩] . وإن الخجل ، نعم الخجل ، يحول بينها وبين ذكر اسمها . وإذا سألتنى عما أطلب فهو رغبتى فى عرض حالى من غير أن يُذكر اسمى حتى لا تتعرّف أنت على بيبليس فى شخصى قبل أن أطمئن إلى أن دعواتى باتت مستجابة . ومن الممكن أن تقع على دليل قلبى الجريح فى شحوب وجنتىّ ونحول جسدى وتعبيرات وجهى وعينىّ الدامعتين ، وفى الزفرات التى أطلقها دون سبب ظاهر ، وفى ضمّاتى المتكررة لك ، ثم فى قبلاتى التى لابد أنك أحسست أنها لا تشبه قبلات الأخت لأخيها . ومع ما أحمله فى قلبى من جرح عميق ، وبرغم الجنون المشبوب المحتدم فى صدرى فعلت كل ما بوسعى [وأُشهد الآلهة على ذلك] لكى أبرأ . وقد جاهدت طويلاً وأنا فى مأساتى من أجل أن أفلت من سهام كيوپيد التى لا ترحم ، واحتملت قسوة المعاناة بشجاعة لا يتوقعها أحد من فتاة ، واليوم أجدنى مرغمة على أن أعترف بهزيمتى وأطلب عونك على استحياء . أنت وحدك تستطيع إنقاذى أو القضاء على الفتاة التى تحبك فاختر هذا أو ذاك . إن التى تضرع إليك اليوم ليست خصماً لك ، بل هى أقرب ما تكون إليك ، تتلهّف شوقاً لتزيد اقتراباً منك

ولتتحد معك برباط أوثق . فلنترك للعجائز علم القانون ، فعليهم أن يبحثوا عما هو مباح وعما هو جريمة وعما هو ليس بجريمة ، ولنُخْل الجو بينهم وبين القانون يفعلوا به ما يعنّ لهم ، فإذا قانون ڤينوس الشجاعة هو الجدير بسنوات عمرنا . ما هو الحلال ؟ إننا مازلنا نجهله ، ولكنا نؤمن أن كل شيء حلال ولنا فى كبار الآلهة أسوة ، ولن يقف فى طريقنا شيء ، فلا قوة تعترضنا ، ولا الخوف من الفضيحة ولا الرهبة تعوقنا ، ولنفرض جدلاً أن هناك ما يدعو للخوف فأى شيء نخشاه ؟ إذ بقدرتنا أن نُخْفى متعتنا المختلسة باسم محبة الأخ لأخته ، وإذا كنت حرّة فى أن أبثّك سرّى خفية ، فما أولانى أن أعانقك وأقبّلك علنا . فهل يضجّ العالم إذا حققنا اليوم ما أصبو إليه ؟ فلتأخذك الشفقة بهذه التى تقرّ لك بحبها والتى لم تكن لتجرؤ على التصريح به لو لم تغلبها على أمرها تلك العاطفة المشبوبة . ناشدتك ألاّ يُذكر اسمك على شاهد قبرى على أنك المسئول عن موتى » . تلك كانت العبارات المرسلة هباء وبلا جدوى ، والتى حفرتها يدها على لوح الشمع الذى ضاق بكلماتها ، فكتبت آخر سطر فى هامشه ثم ختمت هذه الرسالة التى مهرتها آثمة بخاتمها المرصّع بالجواهر والذى بلّلته بدمعها [لأن لسانها كان جافاً] ، ونادت خادماً لها والخجل يغمرها ، وقالت له بصوت يشيع فيه القلق والتلطّف : احمل هذه الرسالة إلى . . » ثم أضافت بعد لحظة صمت طويلة « أخى » . وفى اللحظة التى قدّمت له الألواح أفلتت من بين يديها وسقطت على الأرض ، فاضطربت لهذا النذير ، وعلى الرغم من هذا أرسلتها ، حتى إذا ما وجد الخادم فرصة مناسبة اقترب من كاونوس وسلّمه الرسالة السرية .

ولم يكد كاونوس حفيد مياندر يقرأ بعض الرسالة حتى غضب غضباً مفاجئاً وقذف بالألواح التى تسلّمها بعيداً ، وأمسك بيديه التى كانتا موشكتين على خنق الرسول المرتعد صائحاً فيه : « أغرب عن وجهى بأسرع ما تملك أيها الشرّير يا رسول العلاقة المحرّمة ، فلو لم يذع موتك عارنا لكان موتك ثمناً لجريمتك » . ولاذ حامل الرسالة بالفرار مذعوراً وأبلغ سيدته ما كان من كاونوس من رد رهيب ، وعلا الشحوب وجه بيبليس حين علمت أنها كانت موضع الازدراء ، وسرى فى جسدها كله صقيع وغشيه الاضطراب ، حتى إذا استردّت وعيها عاد هذيان العشق المبرّح إليها معه ، وبصوت خافت كأنه الهمس قالت : « لقد نلت جزائى ، فما كان أشد حمقى حين اندفعت فكشفت له عن قلبى الجريح ؟ لماذا عَجلْتُ هكذا وسجّلت على الألواح اعترافاً كان حريًا بى أن أخفيه ؟ لقد كان جديراً بى أن أبدأ باختبار عواطفه بكلمات مبهمة لا تورّطنى . كان ينبغى علىّ كى تدفع الريح سفينتى ألاّ أُسْلمها إلاّ طرفاً من الشراع ، وأراقب شدّتها فأُبحر فوق مياه لا تتهدّدها الأخطار . أما الآن فقد تركت الرياح التى لم أختبر شدّتها تدفع بكل أشرعتى ، فألقت بى فوق الصخور أنا وقاربى المحطوم وابتلعتنا أمواج المحيط بعد أن استحالت عودتنا للشاطىء . بل لقد حذّرنى فأل لا يخيب من أن أستسلم لهواى ، حين أمرت الخادم أن يحمل ألواح الشمع فأفلتت من بين يدىّ وهوت بأمنياتى إلى الأرض . أَوَ لم يكن أجدى أن أستبدل باليوم يوماً آخر ، أو أن أنصرف عن هذا الأمر كله ؟ بل لقد كان علىّ أن أستبدل باليوم غيره ، فلقد حذّرنى الإله حين وجّه إلىّ علامة تحمل ما سوف يقع لو لم أكن سقيمة العقل . وقد كان علىّ أن أخاطبه بنفسى بدلاً من أن أهمس للألواح بسرّى . كان علىّ أن أواجهه فأطلق العنان لعاطفتى المحمومة حتى يلمح دمعاتى ويشهد ملامح

وجهى الذى يحبه . وإذن كنت أستطيع أن أبوح له بأكثر مما بحت به فى رسالتى ، ولاستطعت بالرغم منه أن أحيط عنقه بذراعى حتى لو صدّنى . وعندها كنت أستطيع بينا أتظاهر بالإشراف على الموت أن أقبّل قدميه وأجثو على الأرض متوسلة إليه أن يمنحنى الحياة . كان فى مقدورى أن أستخدم وسائل شتى ، ولو كانت كل وسيلة وحدها لا تكفى لكانت كلها مجتمعة قادرة على أن تلين قسوة قلبه . من يدرى لعل الخادم الذى أرسلته إليه قد أتى خطأ ما ، أو لعله لم يحدّثه الحديث اللائق ، وإننى واثقة أنه لم يختر اللحظة المناسبة ولم ينتظر الساعة التى لا تساور فكره فيها الهموم . تلك هى الأسباب التى عاقت تحقيق رغبتى ، فيقينا إن أخى ليس ابن نمِرة ، كما أن قلبه لم يُقدّ من صخر ولا من فولاذ ، ثم هو لم يرضع فى طفولته لبن لبؤة . ولسوف أفوز به ، فلأتصدّ له من جديد دون أن يدفعنى نفوره إلى التخلّى عن مقصدى طالما بقيت تتردّد فى صدرى أنفاس من الحياة . وإذا كانت بغيتى فى البداية ــ لو أتيح لى أن أعود إلى ما أقدمتُ عليه ــ هى أن أخوض هذه المغامرة ، فقد أصبحت بغيتى الآن ــ وقد آن الأوان مادمت قد أقدمت ــ أن أنتزع النجاح الكامل قسراً . ولو صحّ أننى نبذت رغباتى جانباً فما أظنه ينسى أبداً جُرأتى ، وإذا أنا وقفت عند هذا الحال حبى له ليس إلا نزوة طائشة فحسب أو محاولة منى لتعرّف ما يحمله لى من أحاسيس لأوقعه فى شراكى ، أو على الأقل سيتصوّر أننى لم أكن مستسلمة لسطوة إله يعتصر قلبى ويشعل فيه نيرانه بل أسيرة شهواتى . على أننى غير مستطيعة آخر الأمر أن أبدو مبرّأة لم أقترف جرماً كبيراً . لقد تدنّست نيّاتى وما أستطيع أن أدّعى البراءة . وما بقى علىّ أن أقوم به لتحقيق آمالى قد يكون أفدح مما أردت تحقيقه ولكنه لا يزيد جريمتى شيئاً » . وكانت كلماتها تعبّر عن اضطراب فكرها واضطرام الصراع فيه ، ومع ندمها على محاولتها غواية أخيها فلقد كانت سعيدة بتجديد سعيها إليه متخطّية كل ما هو خلقى فى محنتها ، معرّضة نفسها لامتهان لا ينقطع .

وحين يئس كاونوس من رجوع أخته عن محاولاتها معه قرر الفرار من الوطن هروباً من زنا المحارم ، وراح يشيّد لنفسه مدينة جديدة فوق أرض غريبة[٢٠] . وقيل وقتها إن إبنة ميليتوس فقدت صوابها فمزّقت ثيابها عند نحرها وكشفت عن صدرها وأخذت تلطم خدّيها غائبة عن وعيها ، ثم كشفت علنا عن هوسها وصارحت الناس برغبتها الجنونية وحبها الأثيم ، وهجرت هى الأخرى وطنها ومرتع نزواتها الفاجرة ، وتتبّعت آثار أخيها فى المنفى ، متشبّهة بعابدات باكخوس على جبل إيسماروس حين يهيّجهنّ ثيرسوسُك[٢١] يا ابن سيميليه ، فيُحْيين أعيادك التى يُحتفل بها مع كل أعوام ثلاثة . وعبرت بيبليس الحقول الفسيحة وهى تصرخ على مشهد من نساء مدينة بوباسوس[٢٢] ، ومن هناك ساقتها خطاها التائهة إلى بلاد الكاريين وإلى الشعب الليليجى[٢٣] المدجّج بالسلاح ، ومرّت بليكيا تاركة وراءها كراجوس وليميريه ونهر زانثوس والهضاب التى يسكنها الخيميرا ، ذلك الكائن الوحشى الذى ينفث جسده ألسنة اللهب والذى كان له جذع أسد وذيل ثعبان[٢٤] .

وأخذت الغابات الفسيحة التى اخترقتها بيبليس تتضاءل فى عينيها كلما بَعُدت عنها حتى أضناها السير سعياً وراء أخيها ، فسقطت محطّمة فوق الأرض وعاجلها النعاس وقد انتفش شعرها فوق الأرض

الصلبة والتصق وجهها بأوراق الشجر المتساقطة . وأقبلت الحوريات الليليجيات فحاولن إيقاظها والتّخفيف من آلامها وصرفها عن غيّها ، لكنها صمّت أذنيها وأطبقت شفتيها وظلّت راقدة تمزّق بأظافرها العشب الأخضر وتروى المراعى بأنهار الدمع ، ويقال إن حوريات الماء قد احتفرن مجرى لدموعها لم ينضب أبداً . وأى هبة خير من هذه كان يمكنهن أن يقدّمنها إليها ! وكما ينبثق الصمغ من لحاء شجر الصنوبر والقار اللّزج من التربة الحُبْلى به ، وكما يتجمّد الماء حين تهبّ رياح الشتاء الثلجية ثم يذوب ثانية مع أنفاس الشمس ، تحوّلت حفيدة فويبوس التى أنهكها البكاء إلى ينبوع مازال يتفجّر حتى الآن فى الوديان تحت ظلال أغصان شجرة البلوط الخضراء الداكنة وقد احتفظ مع الزمن باسم صاحبته بيبليس .

إيفيس

وكان من الممكن أن يشغل حديث هذه المعجزة سكان المدن المائة التى تنتظمها كريت لولا معاصرتها لمعجزة أخرى وقعت على حدود كنوسوس بأرض فِيسْتُوس حيث كان يعيش رجل اسمه ليجدوس من أسرة متواضعة غير مرموق المكانة ، ولكنه وُلد حرّاً تتكافأ ثروته ومكانته ، وعاش حياته بعيداً عن الشّبهات .

وكانت زوجته تليثوزا قد حملت منه فلما اقتربت أيام الوضع نصحها قائلاً : « إننى أصلّى رجاء أمرين : أن تخفّ عنك آلام وضعك ، وأن نُرزق بمولود ذكر ، فإنجاب البنات حِمْل يثقل على من ضاقت موارده مثلى ، على أنى إذا فشلت ضراعاتنا ورُزقنا ببنت فسوف أقضى بقتلها [على الرغم مما أكنّه من مشاعر الأبوّة . . ولتغفرى لى ذلك] . وبينا هو يُخطرها بما عقد عليه عزمه كانت دموعه تسيل سيل دموعها غزارة ، وقد حاولت زوجته بتوسلاتها المتتالية ألا يضيّق الخناق على أحلامها ولكنه كان صلباً فى تمسّكه بنواياه .

وحين بدأت تيليثوزا تنوء بحملها ، زارتها إيو ابنة إيناخوس ليلاً فى منامها ، ووقفت أمام فراشها وسط حاشيتها المقدسة وقد تُوّج جبينها بالتاج الهلالى المرصّع بالسنابل الذهبية تحيط بالصّل الملكى ، فبدت جليلة مهيبة[25] ، وقد صحبها كلبها أنوبيس العاوى ، والقطة المقدسة بوباستيس ، وآپس ذو الرداء المتعدد الألوان ، والإله الذى يحبس صوته ويضع أصبعه على شفتيه داعياً إلى الصمت[26] ، وكذلك مصلصلاتها ، وأوزيريس الذى لم تنقطع إيزيس عن البحث عنه ، والثعبان الغريب المنتفخ بالسّم المنوّم . وتحدثت الإلهة إلى تيليثوزا التى خيلّ إليها أنها استيقظت من نومها وأنها تسمع وترى فى اليقظة لا فى المنام ، وقالت الإلهة : « أنت واحدة من أفراد حاشيتى يا تيليثوزا فخفّفى عنك قلقك ، ولا تطيعى زوجك فيما أشار به عليك ، ولا تبخلى بالرعاية على طفلك ذكراً كان أم أنثى حين تفرغ لوكينا من مساعدتك فى وضعه . أنا إلهة الغوث أقدّم العون لمن يتوجّه إلىّ بالرجاء ، ولن يجأر لسانُك بالشكوى من أنك لجأت إلى إلهة لا تقرّ بالجميل » . ثم غادرت الإلهة الغرفة بعد أن أسدت نصيحتها ، ونهضت تيليثوزا الكريتية من

فراشها مشرقة الروح ورفعت يديها الطاهرتين إلى النجوم وتوسّلت إلى الآلهة أن تحقق لها ما رأت فى منامها .

حتى إذا جاءها المخاض وخرج الجنين إلى النور ورأت أنه أنثى أخفت الأمر عن زوجها وادّعت أنه ذكر . ولم تتجه إليها الشكوك ولم تهمس بسرّها إلّا لمرضعة الطفل ، وأنفذ الأب قسمه وأعطى ابنه اسم جدّه إيفيس . وسعدت الأم بذلك الاسم الذى يُطلق على الذكور والإناث دون تمييز فلم تخدع أحداً بهذا الاسم ، وبقى سرّها خفيّاً بسبب هذا الاسم . وألبست طفلتها ثياب الذكور ، وأخفت سرّها بمختلف الحيل وإن لم تخفه على الآلهة التى باركت خطواتها . وكانت للطفلة قسمات تتميز بالجمال الذى يشارك فيه الذكور الإناث . وحين بلغت إيفيس الثالثة عشرة من عمرها أخذ والدها يعدّ لزواجها من إيانثى ابنة تيلستيس الكريتى أجمل بنات فِيسْتُوس وأكثرهن فتنة وكانت فى سن إيفيس ، تلقّيا معاً تعليمهما على أيدى الأساتذة أنفسهم فمسّ الحب قلبيهما البريئين ، غير أنهما كانتا تنظران إلى المستقبل نظرتين مختلفتين . فبينما كانت إيانثى شديدة اللهفة للزواج من إيفيس التى تحسبها رجلاً وتنتظر فى شوق يوم زفافها إليه ، كانت إيفيس تعلم أنها مغرمة بفتاة مثلها لن تستطيع أن تجد إلى جانبها السعادة ، وكان إحساسها بالضياع يزيدها التصاقاً بالفتاة ، وكانت دموعها تنهمر دون انقطاع ، وتردّد فيما بينها وبين نفسها : « أى مصير ينتظرنى ، لقد وقعت فى حبائل حب غريب شاذ لم يعرفه أحد من قبل ، ولو شاءت الآلهة الإبقاء على حياتى لحرّرتنى من قبضة هذا الحب ، أما إن شاءت هلاكى فلمَ لمْ تُصِبنى ببلاء مما اعتاد البشر التعرّض له . إن البقرة لا تهيم بحب بقرة ، والفرس لا تعشق فرساً ، والنعاج تتجه دوماً للكباش ، وأنثى الوعل تطارد ذكورَه ، وعلى هذا النحو تتزاوج الطيور . ولا ينطوى عالم الحيوان على هيام أنثى بمثلها . ليتنى لم أُولد ، غير أنه مقضىّ أن تنبثق على أرض كريت هذه الأحداث النكراء . لقد أحبّت ابنة الشمس[٢٧] ثوراً حقاً ، لكنها كانت أنثى تعشق ذكراً . أما حبى أنا فهو — لو كشفتُ عنه — أكثر شذوذاً من حبها ، فقد كانت لذة الجسد التى ترقبها هى التى أغوتها ، وقد استطاعت بالحيلة حين تخفّت فى تمثال على صورة بقرة أن تسعد بالثور الذى تخيّلته عاشقاً حقاً . غير أنه على الرغم من ومضة العبقرية التى تمثلت فى تمثال صنعة دايدالوس الذى حلّق فى السماء بجناحين ثبّتهما بالشمع ، فإنه لو عاد ما استطاع أن يفعل لى شيئاً ، ولما استطاعت فنونه السحرية أن تحيلنى من فتاة إلى شاب ، ولما استطاع أن يحيلك أنت يا إيانثى إلى صبىّ . إذن فلتحزمى أمرك يا إيفيس ولتنفضى عنك هذه العاطفة المخبولة الخرقاء ، وواجهى حقيقة الأمر إلا إذا كنت تخدعين نفسك فضلاً عن غيرك ، واستمتعى بما هو متاح للمرأة أن تستمتع به . إن الأمل هو الذى يولّد الحب ويغذّيه . وقد حرمتك الطبيعة كل أمل ، إنك تستطيعين معانقة تلك التى تعشقينها دون أن يقف فى طريقك زوج أو أب قاس ودون أن تتمنّع محبوبتك . ومع ذلك فلن تكون محبوبتك ملكاً لك ولن تجدى معها ما يمنحك السعادة مهما عاونك فى ذلك الآلهة والبشر . إن شيئاً واحداً فقط لم تحققه لى الآلهة الرحيمة التى استجابت لكل ما رجوت . وهذا الذى أريده ويريده أبى وخطيبتى نفسها ووالدها تقف الطبيعة حائلاً دون تحقيقه وهى أقوى منهم جميعاً . إن الطبيعة هى سبب بلائى . لقد جاء اليوم الذى كانت دعواتى كلها من

أجله واقترب موعد زفافى ، وستصبح إيانثى لى دون أن أقوى على تملّكها ، وسأحس الظمأ وأنا وسط
المياه ، مالى أراكما هنا يا جونو يا راعية الزواج وأنت يا هيمينايوس[٢٨] ؟ وماذا تفعلان فى حفل ليس به
زوج ، بل نحن فيه زوجتان ؟ » . وما لبثت إيفيس أن لاذت بالصمت .

وكانت الفتاة الأخرى تشتعل حباً لا يقل ضراوة عن حب إيفيس لها ، وراحت تتضرع قائلة : « مدّ
إلىّ يد العون على عجل يا هيمينايوس » . غير أن تيليثوزا كانت تخشى ما تدعو إليه إيانثى وتؤجّل الموعد
متصنّعة المرض أو متعلّلة برؤى مقلقة أو بفأل سيء حتى استنفدت جميع حيلها واقترب يوم إشعال شموع
الزفاف الذى تأجل مرات عدة ولم يبق إلاّ يوم واحد . وعندها فكّت تيليثوزا العصابات الملتفة حول رأسها
وحول رأس ابنتها فتناثر شعرها ، وطوّقت بذراعيها محراب إيزيس وصاحت : « يا إيزيس ، أنت يا من
تقطنين الپاريتونيوم[٢٩] وحقول مريوط وفاروس[٣٠] والنيل المتشعّب إلى سبعة فروع ، أسرعى إلى نجدتنا .
أتوسل إليك أن تمنحينا دواء لآلامنا ، أنت أيتها الإلهة التى رأيتك ورأيت مظاهر قدراتك وتعرّفت على
حاشيتك ومشاعلك وأصوات مصلصلاتك ، وحفرت بإخلاص وصاياك فى ذاكرتى . إذا كانت ابنتى
ماتزال على قيد الحياة ، وإذا كنت أنا نفسى أحيا فى مأمن من العقاب ، فذلك بفضل نصائحك وحمايتك
٧٨٠ التى أدين لك بها اليوم ، فلتترفّقى بنا نحن الاثنتين ، وامنحينا عونك الكريم » . وانسابت الدموع من
عينيها مع انتهاء دعائها ، وخيّل لها أن المحراب يهتز . وفى الحق إن المحراب اهتزّ كما اهتزّت أبواب
المعبد ، وأشرق هلال الإلهة الشبيه بالقمر ، ودوّت جلبة عاصفة ، ولم تعرف الأم ما حدث على وجه
الدقة ، لكنها عدّت ذلك فألا حسنا وامتلأ قلبها بهجة ، وخرجت من المعبد ومضت مع إيفيس التى
اتسعت خطواتها عما كانت عليه من قبل ، وقد فقدت بشرتها نعومتها ، وغدا شعر رأسها قصيراً مصففًا فى
بساطة ، وأصبحت قسمات وجهها أكثر صرامة ، وبدت أقوى مما كانت وامتلأت نشاطاً قلّ أن يمتلىء به
جسد أنثى ، واستحالت هذه الأنثى الرائعة الجمال فتى فى غمضة عين ! هيا إذن أيها الزوجان السعيدان ،
احملا هداياكما إلى المعبد وانعما بالفرحة فى طمأنينة .

ومضى العروسان بهداياهما إلى المعبد ، ونقشا فوق جداره بيتاً قصيراً من الشعر يقول : « ها هو ذا
إيفيس يقدم قرباناً نذر بأن يحمله لإلهته يوم أن كان فتاة ، رمزاً للوفاء بالعهد بعدما أصبح ـ كما اشتاق ـ
صبيًا » .

ومع صباح اليوم التالى أشرقت الشمس وغمرت أشعتها أركان العالم الفسيح ، واجتمع كل من
٨٠٠ ڤينوس وجونو وهيمينايوس مع حاشيتهم فى حفل زفاف الفتى إيفيس يوم اقترانه بعروسه الحبيبة
إيانثى[٣١] .

التعقيبات

(١) نيسوس أحد القنطورى وهو ابن إيكسيون أنجبه من الغمامة التى أرسلتها چونو بينها وبين إيكسيون عندما حاول الاعتداء عليها . وقد نال إيكسيون عقابه فى العالم السفلى بأن شدّته الآلهة على عجلة تدور بلا انقطاع .

(٢) كان هرقل قد غمس سهامه فى الدم السام للهيدرا الليرناوية . عن تفاصيل أسطورة هرقل وأعماله الاثنى عشر راجع المقدمة التى صدّر بها د. أحمد عتمان ترجمته لمسرحية سينيكا « هرقل فوق جبل أويتا » (من المسرح العالمى . الكويت عدد ١٣٨ مارس ١٩٨١ ص ١٠ — ١٠٧) .

(٣) أويخاليا اسم حملته ثلاث مدن يونانية أحدها فى ثيساليا والثانية فى ميسينيا والثالثة فى يوبويا . وقد ارتبطت أسطورة الملك يوريتوس بن أپوللو بهذه الأخيرة ، وكان رامى سهام لا يبارى وعد بأن يزوّج ابنته ممن يقهره فى مباراة الرماية ففاز هرقل ، غير أن يوريتوس وأبناءه أبوا تسليم يولى بنت يوريتوس إليه وفاء بالوعد ، فغضب هرقل وأباد المدينة وقتل الملك وأبناءه وأخذ يولى أسيرة .

(٤) كان للإله چوپيتر معبد على رأس كينايون أو كينايوم إلى الشمال الغربى من يوبويا .

(٥) تتذكر ديانيرا مصرع خالى ملياجر على يديه انتقاماً لإهانتهما لأتالانتا [انظر الكتاب الثامن] .

(٦) يبدأ أوڤيد هنا استعراض مآثر هرقل . وكان بوزيريس ملك مصر يذبح كل غريب يفد إلى بلاده قرباناً للآلهة ، وعند وصول هرقل إلى مصر كاد يلقى نفس المصير غير أنه حطم قيوده وقتل بوزيريس وابنه وحاشيته .

(٧) يوريسثيوس هو ملك أرجوس الذى فرض على هرقل القيام بالمغامرات الإثنى عشر التى وردت على لسان هرقل خلال الفقرات السابقة .

(٨) كان فيلوكتيتيس بن بوياس أعز صديق لهرقل . وبعد أن عاون هرقل فى إعداد المحرقة وهبه هرقل قوسه وسهامه . واشترك فيلوكتيتيس فى حملة الآخيين ضد الطرواديين ، غير أن ثعباناً أرسلته چونو لدغه فى قدمه فتركه رفاقه الإغريق فى جزيرة لمنوس لاشمئزازهم من رائحة العفن الصادرة عن جرحه . وعندما قال العراف إن طروادة لن تستسلم بغير سهام هرقل التى كان يحتفظ بها فيلوكتيتيس أوفد الإغريق أوديسيوس ونيوپتوليموس وديوميديس لإحضاره . ولسوفوكليس مسرحية تتناول هذا الموضوع .

(٩) كانت اللحظات الأخيرة من حياة هرقل موضوع مأساة التراخينيات « نساء تراخيس » لسوفوكليس .

(١٠) المقصود به هيلوس أكبر أبناء هرقل وديانيرا . إذ حاول يوريسثيوس بعد موت هرقل أن يخطف أبناءه الذين كانوا قد التجأوا إلى كيكس ملك تراخيس الذى أرسلهم إلى أثينا حماية لهم فهاجم يوريسثيوس أتيكا مطالباً ثيسيوس بهم إلّا أن الأخير هزم يوريسثيوس . وهذه القصة موضوع مأساة « أبناء هرقل » لأوريپيديس .

(١١) ليس المقصود هو نبات اللوتس العطرى بل المقصود هو شجرة العنّاب واسمها باليونانية اللوتيس نسبة إلى الحورية لوتيس . ومن هنا جاء اللبس من تسمية هذا النبات باللوتس صنو الماء فى نص لاوڤيد .

(١٢) تزوج هرقل هيبى ابنة چونو بعد أن تحول إلهاً فى السماء .

(١٣) كان أمفياراووس قد أوصى ابنه ألكمايون بأن يثأر له فقتل أمه . وقد فقد ألكمايون صوابه نتيجة لذلك وطاردته ربات الانتقام كما ورد فى « مأساة السبعة ضد طيبة » ، ففر من أرجوس ملتجئاً إلى أركاديا حيث تزوج من ألفيسيبويا إبنة الملك وأمهرها قلادة أمّه الذهبية . وازداد جنونه بمرور الأيام فقصد الهاتف الإلهى البيثى الذى أمره بأن يقصد مصب نهر أخيلووس حيث تزوج كاليرهوى بنت إله النهر التى طلبت منه أن يهديها القلادة الذهبية ، فعاد إلى أركاديا ليسترد القلادة من زوجته الأولى ، ولكن أصهاره قتلوه ووضعوا القلادة فى معبد أپوللو بدلفى . فتضرّعت كاليرهوى إلى چوپيتر كى يتيح لأبنائها الثأر لأبيهم قبل إدراكهم سن الرشد ، الأمر الذى وافق عليه رب الأرباب .

(١٤) هى أورورا التى مُنح زوجها تيثونوس الخلود دون أن يظفر بالشباب الأبدى . ويبدو أن الصواب قد جانب أوڤيد حين نسب أورورا إلى المارد پالاس بينما هى فى واقع الأمر وفق رواية هزيودوس ابنة المارد هيپيريون .

(١٥) ابن چوپيتر من إلكترا بنت أطلس ، وكان يحظى بعطف سيريس التى عشقته وأنجبت منه پلوتوس فغضب عليه چوپيتر وأرسل عليه صاعقة قتلته .

(١٦) مينوس ورادامانثوس وأياكوس أبناء چوپيتر من أوروپا .

(١٧) مدينة ميليتوس فى آسيا الصغرى التى كوّنها طمى نهر المياندر .

(١٨) زوّج إله الريح أيولوس أبناءه من بناته الست .

(١٩) هنا نوع من البلاغة اللفظية ، فكلمة SALUS تحمل معنى السلام كما تحمل معنى السلامة فى الوقت نفسه ، وهى تورية قصدها الشاعر .

(٢٠) أسس كاونوس مدينة باسمة فى كاريا بآسيا الصغرى على ضفاف نهر كالبيس بالقرب من البحر .

(٢١) الثيرسوس عصا تنتهى بحلية على شكل ثمرة صنوبر هى صولجان باكخوس .

(٢٢) بوباسوس مدينة فى كاريا شرقى كنيدوس .

(٢٣) الاسم القديم للشعوب القاطنة فى كاريا بآسيا الصغرى .

(٢٤) ذكر هزيودوس أن الخيميرا هى إبنة تيفون وإخيدنا ، ومن ثم كانت أختا للكلب كيربيروس وللأفعوان الليرناوى . وأغلب الظن أن وصف هذا الكائن الخرافى يرجع إلى أصول شرقية بعيدة .

(٢٥) روى أوڤيد أسطورة إبنة إيناخوس التى رحلت إلى مصر وتحولت إلى الإلهة إيزيس [انظر الكتاب الأول] . وتدل الإشارة الواردة فى النص على إقبال الرومان على العقائد المصرية ، والمعروف أن إيزيس كانت تُمثَّل بقرص القمر فوق رأسها بين قرنين مثلما كانت تمثل إيو . وفى وصفه لإيو نسب أوڤيد سنابل القمح والصّل لها كما كانت الحال بالنسبة للآلهة والفراعنة عند المصريين القدماء .

(٢٦) هو حور [حورس] بن إيزيس وقد سمّاه الإغريق هارپوقراطيس وصوّروه دائماً طفلاً يضع أصبعه فى فمه .

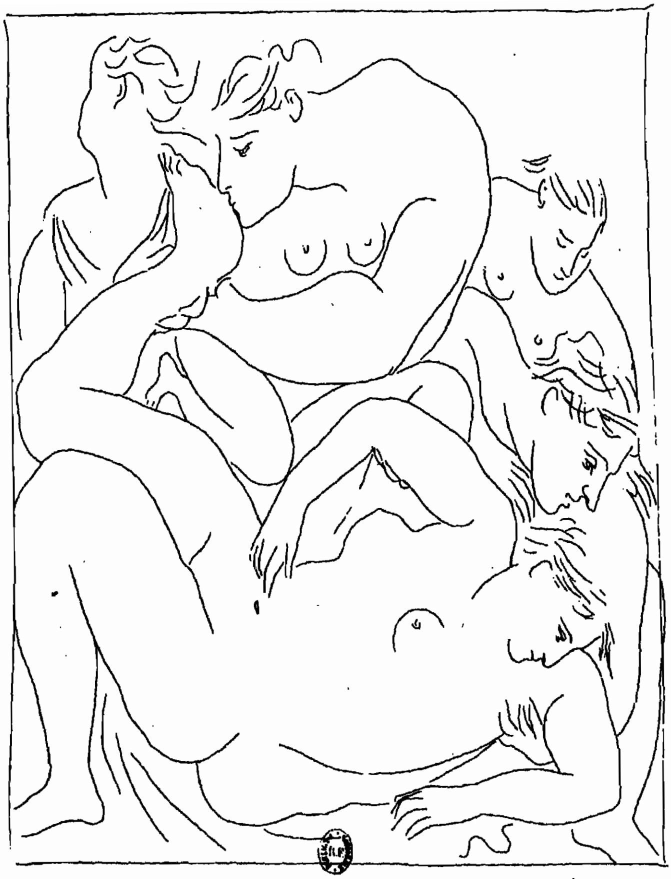
(٢٧) پاسيفاى زوجة مينوس ملك كريت .

(٢٨) هيمينايوس هو الإله الجميل راعى الزواج وأحفال الزفاف . وقال البعض إنه ابن أپوللو من إحدى ربات الفنون ، وادعى البعض الآخر أنه ابن باكخوس وڤينوس ، ويصوَّر حاملاً شعلة الزواج وإكليل العرس وطرحة الزفاف .

(٢٩) مدينة غرب الإسكندرية [ربما هى مرسى مطروح الآن] وكثيراً ما كانت كلمة « پاريتونى » تعنى المصرى أو السكندرى لدى الرومان .

(٣٠) جزيرة أمام الإسكندرية أوصلها بطلميوس « المُنقذ » بالمدينة وشيِّد فوقها منارة الإسكندرية الشهيرة .

(٣١) يقول نيكاندر إن هناك قصة مشابهة لهذه القصة تدور أحداثها أيضاً فى فيستوس ، واسم بطل هذه القصة ليوكيپوس لا إيفيس ، وإن الفضل فى تحولها إلى فتى مرده إلى لاتو لا إلى إيزيس . ويذكر نيكاندر بهذه المناسبة اثنين تمتعا بنفس القدرة على التحول من أنثى إلى ذكر والعكس وهما تيريزياس وكاينيوس اللاپيثى ، وقد ذكر أوڤيد أولهما فى الكتاب الثالث وثانيهما فى الكتاب الثانى عشر .



پيكاسو : الأفعى تلدغ كاحل يوريديكى

الكتاب العاشر

أورفـــــيوس

استجاب هيمينايوس ربّ الزواج لدعوة أورفيوس لكى يشهد حفل زفافه ، فشقّ أجواز الفضاء متلفّعاً بردائه الزعفرانى[1] إلى أن بلغ شواطىء الكيكونيين[2] ، إلا أن دعوة أورفيوس للإله كانت لا جدوى فيها لأنه على الرغم من حضوره ساد الحفلَ سوءُ الطالع . وقد بدا أورفيوس مقطّب الجبين لا يعلو

وجهه سيما البِشْر وانصرف عن شَدْو نشيده المألوف ، وكذ فهفقت الشُّعلة التى يحملها وانبعث منها دخان كثيف يهيج دموع الحاضرين وذهبت كل محاولة لإشعالها سدى . ووقع ما هو أكبر شرّاً مما أنبأ به الفأل ، فقد اعترضت أفعى طريق العروس وهى تتجوّل فى المروج بين صاحباتها ولدغت كاحلها فهوت على الأرض جثة هامدة ، فهال ذلك حبيبها الشاعر مُنْشد جبال رودوبى وهوى هابطاً إلى عالم الموتى فى جُرأة لا حدود لها شاقّاً طريقه إلى شاطىء نهر ستيكس عَبْر بوّابة تيناريوس[٣] كى يحرّك أرواح الموتى شفقة ، وأخذ يجوس بين أشباح الأرواح الذاوية إلى أن انتهى إلى حيث پيرسيفونى وزوجها اللذان يهيمنان على هذه الأنحاء المعتمة ، وجعل ينشدهما على أنغام القيثارة :

« أى إلهَىْ العالم السفلى الذى سنمضى إليه نحن البشر الفانين ، هل لى أن أصارحكما بالحقيقة من غير زيف ولا مداراة ؟ ما أتيتُ إلى هنا لأتجوّل فى دروب تارتاروس المُعْتمة ولا لأكبِّل بالأصفاد كلب ميدوسا المفترس ذا الرءوس الثلاثة والشعر الكثيف المتلبِّد الذى تنساب بين تلافيفه الثعابين[٤] ، وإنما أتيت سعياً وراء عروسى التى خبت جذوة حياتها وهى فى ربيع العمر صريعة لدغة أفعى أفرغت فى عروقها سمّها الزّعاف . وكم وددتُ لو استطعت أن أحتمل مرارة أحزانى باذلاً جهدى لأتذرّع بالصبر ، غير أن الحنين إلى عروسى غلبنى ، والحب كما تريان إله له شهرته بين البشر ، وما أدرى هل تكون له شهرته هذه بينكم ، وما إخالكما يغيب عنكما أمره . وعلى أية صورة كانت الصلة بينكما قبل أن تتزوجا ، فما من شك فى أن الحب هو الذى جمع بين قلبيكما ، فبحق هذه الدروب الرهيبة والمتاهات ، وبحق هذا الصمت المخيّم على مملكتكما الشاسعة أضرع إليكما أن تُعيدا إلى يوريديكى الحياة التى فقدتها يانعة ، وإنى لأعلم أن مصيرنا نحن البشر إن عاجلاً أو آجلاً إلى هذا المكان وكلنا ماضون إليه ، وأن سلطانكما على البشر أبدىّ لا انقطاع له ، وأن زوجتى سوف تُردّ روحها إليكما شأنها فى ذلك شأن غيرها ، وذلك بعد أن تقضى حياتها المقدورة على الأرض . وما أرجوه منكما هو أن تهبانى الفرحة بصحبتها ، وإذا أبت مشيئة ربّات الأقدار أن تعيدها ثانية إلى الأرض فما فى نيّتى أن أعود إلى عالم الأحياء ، ولكما عندها أن تتشفّيا بموتى كما تشفّيتما بموتها » .

وفيما كان أورفيوس يتغنّى بكلماته على أنغام قيثارته أجهشت الأشباح الشاحبة بالبكاء ، وغفل تانتالوس عن متابعة المياه وهى تفلت منه[٥] ، وتوقّفت عجلة إيكسيون عن الدوران ، وأمسكت الصقور عن نهش كبد تيتيوس ، وأغفلت بنات داناوس ملء جرارهن ، واستولى الذهول على سيزيفوس وهو يستريح على صخرته[٦] ، وغلب الأسى ربّات الانتقام عند سماعهن هذا الشّدو الحزين فابتلّت وجناتهن بالدموع ، ولم يملك حاكم العالم السفلى وزوجته إلاّ الاستجابة لتوسّلاته . ودعيا يوريديكى ، فأقبلت من بين الأشباح تتهادى مُثْقلة بجرحها ، ومضى أورفيوس الطراقى مُنْشِد جبال رودوبى بزوجته على شريطة ألاّ يمدّ عينيه إليها إلاّ بعد أن يغادرا وديان أڤيرنوس[٧] حتى لا يفقدها ويعود إلى الدنيا وحده .

وانطلقا معاً بين السكون والظلمة يرقبان السفوح وقد خيّم عليها ظلام لا تُشقّ غياهبه ، وحين اقتربا من سطح الأرض أخذ القلق يساور أورفيوس مخافة أن يكون الإعياء قد بلغ من زوجته مبلغه وأحسّ

بلهفة إلى رؤيتها ، فمال ببصره إلى الوراء فإذا يوريديكى التعسة تعود لساعتها إلى الأعماق ، وهى تمدّ ذراعيها إليه ، وعبثا حاولت أن تحمله على الإمساك بها أو أن تتعلّق به ، وإذا ملء كفّيها هواء . وعاجل الموت يوريديكى ثانية دون أن تلفظ بشكاة ، وممّ تشكو وكل ما حدث كان مبعثه هيام زوجها بها ! ولما همّت بوداعه تبدّدت كلماتها قبل أن تبلغ سمعه ، وإذا هى تجد نفسها ثانية فى المكان الذى كانت قد خلّفته منذ لحظات .

ومزّق الحزن فؤاد أورفيوس لانتقال زوجته مرة أخرى إلى عالم الموتى ، وصار أشبه بذلك الرجل الذى هلع حين رأى كيربيروس ذا الرؤوس الثلاثة ممدّدا على الأرض مغلول الرأس الأوسط ، ولم يخلص من هلعه إلاّ حين فقد صورته الأولى وتحوّل حجراً[٨] ، أو بأولينوس وليثيا العاشقين التعسين اللذين تحولا فى مراعى إيدا[٩] حجرين لشدّة غرور ليثيا بجمالها ، مما حمل أولينوس على أن يحمل جريرة إثمها على عاتقه ، فإذا هو قد حمل وزرها وغدا من المذنبين . وقد حاول أورفيوس أن يعبر نهر ستيكس ثانية غير أن محاولته ذهبت هباء ، ولم تُغْن توسّلاته لحارس المعبر كى يأذن له بالعبور ، فبقى مطروحاً على شاطىء النهر سبعة أيام لا يذوق طعاماً أو شراباً ، يقتات من الحزن والقلق والدموع ، وعاد بعدها إلى جبل رودوپى السامق وجبل هايموس الذى يقع فى مهب الرياح الشمالية يشكو ظلم آلهة عالم الموتى .

وغمرت أشعة الشمس كوكبة الحوت النّديّة التى تتم دورات ثلاثا فى العام ، وكان أورفيوس قد هجر حب النساء خلال تلك الفترة كلها ، إما لتلك المأساة أو لعهد قطعه على نفسه . وكم من فتيات كن يتشوّفن للزواج منه استشطن غضباً لتجاهله إياهن ، غير أن أورفيوس آثر أن يَقْصُرَ علاقاته على صحبة الفتيان ذوى الشباب الغضّ ، وأن يستمتع بربيع اليافعين وبشبابهم القصير المدى ، فكان أول من جنح بشعب طراقيا إلى هذا السبيل[١٠] .

كِيـــپَاريسُّـــوس

وجلس الشاعر سليل الآلهة فوق ربوة منبطحة يغطّيها العُشب وليس ما يُسْتظلّ به من أشعة الشمس ، ولكن ما إن أخذ يحرك أوتار قيثارته الشاجية وتنبعث منها أنغامها الأولى حتى أقبلت إليه الأشجار بظلالها ، فجاءته أشجار بلوط خاؤوليا[١١] وأشجار الحور شقيقات فايثون ملتفّة حوله ، وسنديانة زيوس العملاقة السامقة الأفنان ، وشجر الزيزفون والزان وشجرة الغار العذراء وشجر البندق القصيف وشجرة الدردار التى نصنع منها عيدان الرماح وشجر التّنّوب الأملس وشجر السنديان المثقل بجوزاته وشجر الجميز مكمن الفرح ، وشجرة الاسفندان ذات الأوراق المتباينة الألوان ، والصفصاف الذى ينمو بجوار الأنهار ، واللوتس عاشق الماء ، وشجيرة البقس الدائمة الخضرة ، وشجرة الطرفاء النحيلة ، والريحان الثنائى اللون ، وشجرة اللّورة التى تحمل التوت الداكن الزرقة ، واللبلاب أيضاً جاء يجرّ ذيوله ، والكروم المورقة ، والدردار بين ثناياها ، وشجرة الغبيراء وشجرة الصنوبر الراتنجى ، والفرصاد البرّى المثقل بالثمار

الحمراء ، والنخيل اللّدن الذى يُمنح سعفه جائزة الفوز فى المباريات ، وشجرة الصنوبر أعزّ الأشجار إلى سيبيلى [كوبيلى] أم الآلهة ذات الأوراق المنتصبة وكأنها معرفة شعثاء لجواد ، وذلك أن كاهنها آتيس كان قد استحال من هيئته البشرية إلى هذه الشجرة[١٢] . وإلى الجمع الحاشد انضمت شجرة السرْو بهيئتها المخروطية التى تذكّرنا بحدود زوايا المنعطفات فى حلبة السباق ، وهى إن كانت اليوم شجرة ، فلقد كانت من قبل فتى عشقه ذلك الإله الذى يجيد غمز أوتار القيثارة إجادة شدّ وتر القوس .

وإليكم القصة : فى سالف الأيام كان ثمة وعلٌ بديع التكوين تشمله حوريات حقول كارثيا[١٣] برعايتهن ، وكانت قرونه متشعّبة تمتد هنا وهناك متألّقة بوميض ذهبى ، وتطوّق عنقه الأملس قلادة من الأحجار الكريمة تنسدل على صدره ، وتبرق على جبينه تعويذة فضّية مثبّتة بأشرطة جلدية رفيعة ، وتتدلّى من أذنيه لآلى وضّاءة على صدغيه الغائرين . وكان لا يخالط قلبه خوف ، يدخل على الناس بيوتهم ويداعب الغرباء بمدّ عنقه نحوهم ، وكان كيباريسوس أكثر شباب كُوسْ وسامة هو أقرب الناس إليه وأشدّهم التصاقاً به ، وكان يقتاده إلى المراعى الخُضْر والينابيع الثّرة ويكلّل قرونه بأجمل الزهور ، ويمتطى ظهره فى بعض الأحيان وكأنه فارس على ظهر جواد ، ويوجّه خطم هذا الحيوان الرقيق يمنة ويسرة بأعنّة أرجوانية .

وفى ظهر يوم من أيام الصيف وكانت أشعة الشمس الحارقة تلهب أذرع برج السرطان ضيف شواطىء البحر أحسّ الوعل بالإرهاق ، فاستلقى على العشب ينشد الراحة خلال الأنسام النّدية فى ظلال الأشجار ، وتراءى لكيباريسوسُ مداعبته فوخزه بحربته المسنونة دون قصد إيذائه ، فإذا الوعل قد جُرح وانكفأ يحتضر وهمّ كيباريسوس بقتل نفسه ليلحق بصديقه فى رحلة الموت ، فأسرع أپوللو إليه يواسيه بأجمل القول ويحاول إقناعه بالقصد فى حزنه ، غير أن الصّبى مضى يئن وينتحب واتجه إلى الآلهة يسألها أن تحقق له رجاءه الأخير وهو أن يظل باكياً نائحاً إلى الأبد . ولم ينقطع الصّبى عن البكاء حتى جفّت من عروقه الدماء ومال لون أطرافه إلى الخضرة ، وجَمُد شعره وتشعّث بعد ما كان مُرْسَلا يتموّج على جبينه الناصع البياض . وغمر الحزن العميق الإله أپوللو فناجى نفسه قائلاً فى أسى : « لسوف أظل أبكيك أبداً ، ولسوف تظل أنت تذرف الدمع من أجل الآخرين ، ولسوف تبقى دائماً رفيقاً لزمرة المحزونين[١٤] .

جانيميديس

وشرع أورفيوس يختبر أوتار قيثارته محرّكاً إبهامه عليها متوسطاً جمعاً من قطعان الوحوش وأسراب الطيور ، حتى إذا اطمأنت أذنه إلى اتّساق النغمات المختلفة التى يعزفها بدأ يشدو قائلاً : « أمّاه ، يا ملهمة الشعراء ، فليكن چوپيتر الذى تنحنى لجبروته جميع الكائنات أول من أستهل به أغنيتى ، وما أكثر ما رويت من قبل عن جبروت چوپيتر ، وما أكثر ما تغنّيت بالعمالقة وبالصواعق المدمّرة التى هوت على سهول

فليجرا[١٥] بنغمات أكثر جلالاً . أما اليوم فما أحوجنى إلى نغمات هادئة توائم قصص الغلمان الذين عشقهم الآلهة والفتيات اللاتى استبدت بأفئدتهن عواطف غير مشروعة ذهبت بعقولهن فدفعن ثمنها غالياً .

فقديماً اشتعل قلب چوپيتر بحب جانيميديس الفريجى . ولكى يبلغ كبير الآلهة ما يريد آثر أن يتّخذ صورة كائن آخر بدلاً من صورته ، فاختار صورة ذلك الطائر الذى يطيق حمل صواعقه على جناحيه [النسر] ، وحين استحال إلى صورة ذلك الطائر بدأ يضرب الهواء بجناحيه إلى أن خطف ابن إيلوس[١٦] ، الذى ما يزال إلى اليوم يعدّ كئوس النكتار ليحتسيها چوپيتر على الرغم من ضيق زوجته چونو بذلك .

هياكينثوس

وكان فويبوس على وشك أن يمنح هياكينثوس بن أميكلاس منزلة سامية فى السماء لو أن الأقدار القاسية قد أرخت له الزمن ليحقّق هذه الأمنية ، ولكنه مع ذلك خلد على النحو الذى كان مُقدَّراً له وقتها ؛ فإذا ما جاء الربيع فى أعقاب الشتاء ، وإذا ما خلّف برج الحمل برج الحوت النّدى يعود هياكينثوس إلى الحياة من جديد وينمو زهرة فى المروج الخضراء .

لقد منح فويبوس الصّبى حُبّا لم يمنحه غيره من البشر ، فهجر مدينة دلفى صُرّة العالم ، وأخذ يختلف إلى يوروتاس ومدينة أسپرطة التى لا أسوار لها مُغْفلاً قيثارته وسهامه متناسياً عاداته القديمة ، ولم يتردّد فى حمل شباك الصيد واصطحاب كلابه مرافقاً هياكينثوس إلى حواف الجبال الوعرة ، فزادت هذه الصحبة المستديمة نيران حبّه تأجّجا .

وفى يوم من الأيام ، وفى اللحظة التى تتوسّط فيها الشمس الطريق بين ليل زائل وليل آت خلع إله الشمس والصّبى عنهما ثيابهما ، ودلكا جسديهما بزيت الزيتون الدّسم فبدَوَا يُبْرقان ، وأخذا يتباريان فى قذف القرص العريض . وبدأ فويبوس فأمسك بالقرص ثم قذف به فى الهواء ، فمزّق القرص بثقله خلال مسيرته السحب الكثيفة ثم هوى على الأرض شاهداً على ما للإله من قوة وبراعة . وشغف هياكينثوس الفتى الأسبرطى باللعبة دون أن يُعمل فكره والتقط القرص ثم قذف به ، غير أن القرص ما كاد يرتطم بالأرض الصّلبة حتى ارتد إلى الوراء طائراً فى الفضاء مرتطماً بوجهه فى عنف . فعلا الشحوب وجه ملك الشمس ووجه الصّبى ، وأمسك الإله بجسد هياكينثوس المتداعى وحاول وقف نزيف جرح الصّبى الدّامى ، كما أخذ يدلّك أطرافه لكى يبعث فيها دفء الحياة ، وحاول إمساك روحه الموشكة على فراق جسده بعقاقير الأعشاب ، غير أن محاولات أپوللو راحت كلها سُدى فقد كان الجرح مميتاً لا يجدى معه دواء ، وتدلّى رأس هياكينثوس المحتضر تدلّى زهرة البنفسج فى البستان أو زهرة الخشخاش الجامدة أو زهرة السوسن المصفرّة البتلات حين ينكسر ساقها فلا يقف شامخاً بل تثنى قمّته متهدّلة محملقة فى الأرض فى انكسار . وخارت قوى الصّبى فاندكّ عنقه بين كتفيه خائراً عاجزاً عن أن ينهض ، فقال له فويبوس :

« ها أنت يا هياكينثوس تقضى نحبك بين يدىّ وتفقد عمرك على مرأى منى ، وإن الجرح الذى قضى عليك يؤنّبنى معاتباً ، ولكن أية خطيئة ارتكبتها سوى أننى أشركتك فى لُعبة ما ، وهل أُلام على كَلَفى بك ؟ ما أجدرنى أن أقضى نحبى معك ، ولكنى لا أملك أن أفلت من قوانين القدر ، ولسوف تظلُّ عالقاً بذاكرتى ، وسيبقى اسمك على فمى إلى الأبد ولن يغيب عن فكرى أبداً ، وستردّد اسمك أغنياتى كلما شدوتُ محرّكاً أوتار قيثارتى ، وستتحوّل أنت إلى نوع جديد من الزهور تعيد إلى الأذهان نحيبى عليك بما تحمله من اسم . وليأتينّ يوم يرتبط فيه أشجع الأبطال بهذه الزهرة ويُقرأ اسمه على أوراقها » .

وفيما كانت الكلمات تنساب من فم أپوللو الذى هدّه الإرهاق ، كان الدم الذى انساب على الأرض ملّطخاً الأعشاب قد تحول إلى زهرة ، وهو وإن كان قد أخذ شكل زهرة السوسن البيضاء غير أنه لم يأخذ لونها بل أشرق بلون أحمر أشدّ بريقاً من الأرجوان ، وهكذا كرّم فويبوس هياكينثوس إذ حوّله إلى زهرة . وحين لم يقنع بهذا سجّل أساه على بتلاتها ، فحملت زهرة الهياكينثوس حروفاً تنمّ عن الحزن كأنها الآهات . ولم تخجل اسپرطة من ميلاد هياكينثوس على أرضها ومازالت تكرّمه إلى اليوم ، وماتزال تجرى الألعاب الرياضية لتكريمه كل عام ، وتقدم عروضها لوفق العادات القديمة فى احتفالات مهيبة[١٧] .

الكيراستيس والپروپيتيديس

وإذا عنّ لنا أن نسأل مقاطعة أماثونتى الشهيرة بمناجمها[١٨] عمّا إذا كانت قد أنجبت مختارة بنات الپروپيتيديس[١٩] الفاجرات لبرئت من هذا الوِزْر البراءة كلها ، ولبرئت كذلك من أن تكون قد تطلّعت إلى أن تنجب أولئك الرجال المسمّين بالكيراستيس[٢٠] [نسبة إلى القرون التى تعلو جباههم] والذين كان يتصدّر بوّابتهم مذبح للإله چوپيتر المضياف . ولو شاهد أحد الغرباء هذا المذبح الدامى لظن أنه قد ذبحت عليه عجول رضيعة أو خراف صغيرة ، وما خطر بباله أن رقاب ضيوفهم كانت تُجزّ فوقه لتكون قرباناً بشرياً . وفزعت ڤينوس لنحرهم البشر على هذه الصورة البشعة ، وأخذت الإلهة الرقيقة أُهبتها لهجر مدنها ومغادرة سهول أوفيوسا[٢١] غير أنها ترددت وحدثت نفسها قائلة : « أى جرم اقترفته مُدُنى والمناطق التى أحببتها ؟ وأية جريرة تلك التى آخذها عليها ؟ من الخير أن ينزل العقاب بهؤلاء الأشرار أنفسهم ، فإما أن يعذَّبوا نفياً أو موتاً أو بعذاب بين بين ، ولم لا يكون جزاؤهم أن يتحولوا إلى صور تختلف عما هم عليها ؟ » . وفيما كانت آخذة فى التفكير فى تلك الصور التى تختارها لهم وقعت عيناها على قرونهم ، فحوّلتهم إلى فحول قوية كى يحتفظوا بهذه القرون . وعندما تجاسرت بنات الپروپيتيديس الفاجرات على إنكار ألوهية ڤينوس غضبت عليهن ، وأصبحن لهذا أولى النساء اللاتى تدنّست سيرتهن باحتراف الدعارة ، وإذ فقدن كل إحساس بالحياء بدأت الدماء تجمد فى وجناتهن حتى أصبح من اليسير تحوّلهن بعد ذلك إلى قطع صُلبة من حجر الصّوان[٢٢] .

بيجماليون

وحين رأى پيجماليون حياة هؤلاء النساء الفاجرات كره ما أودعته الطبيعة فى المرأة من نقائص مرذولة وارتضى لنفسه حياة العزوبية بعيداً عن النساء ، غير أنه فى الوقت نفسه سخّر فنه الرائع فى نحت تمثال عاجى له بياض الثلج وصاغه أكثر جمالاً من نساء الأرض ، وإذا هو يقع فى غرام ما صنعته يداه . وكان التمثال يفيض حيوية حتى ليخيل للمرء أنه يوشك أن يتحرك لولا أن الحياء يقف به . ما أروع أن تضفى البراعة على الفن لوناً من الأسرار ! لقد انبهر پيجماليون بما صنعت يداه وأخذ قلبه يولع شيئاً فشيئاً بهذه المحاكاة لجسد المرأة ، فهام بالتمثال ومضى يتحسّسه لا يفتر ، ليستوثق مما إذا كان من العاج أم أنه حقاً من لحم ودم ، وبات بعدُ لا يصدق أن التمثال قطعة من عاج فحسب ، فكان حين يقبّله يخال أن التمثال هو الآخر يقبّله ، ويخال حين يعانقه أن أصابعه تغوص فى لحم يخشى عليه من قسوة أصابعه . وكان يخاطبه مستعطفاً ويحمل إليه الهدايا التى تهنأ بها الفتيات كالأصداف وحصى الشطآن المصقول وصغار الطير ، ٢٦٠ والزهور المختلفة والكرات الملونة ، وقطرات العنبر المتساقطة من الأشجار التى كانت فى الماضى أخوات فايثون [أى الكهرمان] ، ثم كسى تمثاله ثياب النساء ووضع فى أصابعه الخواتم ولفّ حول عنقه العقود الطويلة وجعل اللآلىء تتدلّى من أذنيه والقلائد على صدره . وكان التمثال جميلاً فى حاليه عارياً أو كاسياً ، فأضجعه فوق فراش مغطى بنسيج له لون أرجوان صُور ، ووضع تحت رأسه وسائد من زغب البجع وكأنه يوشك أن يتوسّدها ، وسمّاه ضجيعة الفراش .

وبدأت أعياد ڤينوس تقام فى أنحاء قبرص محاطة بالأبهة والجلال ، وأخذت العجول الملتفّة القرون الموشّاة بالذهب تُنحر على المذابح وتعمل المِدَى فى رقابها البيضاء ، وبدأ البخور يتصاعد فى كل مكان ، وجاء پيجماليون يقدّم قربانه ويصلّى خاشعاً بجوار المذبح وهو يتمتم : « إذا كان فى قدرتك أيتها الإلهة أن تهبى كل شىء ، فهَبى لى القُدرة على الضّراعة إليك [ولم يَشْجُع على أن يُصرِّح برغبته فى الزّواج من الفتاة التى من العاج بل اجتزأ قائلاً] : « امنحينى أيتها الإلهة زوجة على مثال العذراء العاجية » . وما أسرع ما فطنت ڤينوس المُثقلة بالحلىّ الذهبىّ والتى كانت فى هذا الحفل الخاص بها إلى ما يرمى إليه من ضراعة ، ٢٨٠ فقذفت فى الهواء بألسنة من لهب اشتعلت مرات ثلاثاً علامة رضاها وعطفها عليه . وما كاد پيجماليون يعود إلى داره ويخطو نحو الفتاة المنحوتة تمثالاً ويميل عليها يقبّلها حتى أحس بدفء الحياة يدبّ فيها ، ومدّ يده يتحسّس صدرها فإذا العاج يلين وإذا بَشَرتها تلين للمس أصابعه كما يلين شمع هيميتوس[٢٣] من حرارة الشمس وينصاع للأصابع تصوغه فى أشكال مختلفة لأغراض شتى . وذهل العاشق وكان بين فرحة المصدِّق وشك المرتاب ، وأخذ يتحسّس ما كان تمثالاً والذى طالما ضرع من أجله مرّات ويتلمّس نبضات عروقه . وما إن استوثق پيجماليون فنان پافوس[٤] أن التمثال عاد جسماً حياً حتى لهج بالشكر لڤينوس . وانكفأ يهصر بشفتيه تلكما الشفتين اللتين أخذتا تنبضان بالحياة ، وأحسّت الفتاة بحرارة قبلاته فاحمرّت وجنتاها

خجلاً واختلست النظر إلى حبيبها ، فإذا هى ترى أول ما ترى صفحة وجهه مع بياض النهار فى آن واحد . وأعدّت لهما ڤينوس عُرْساً شهدته ، وبعد أن اكتمل القمر مرات تسع وضعت عروس پيجماليون طفلاً أسمته پافوس ، وبهذا الاسم سُمِّيت الجزيرة بعدُ .

مُـــورْهـــا

٣٠٠ أنجب پافوس ولده سينيراس الذى ترك من ورائه أسرة وليته لم يفعل ، ولو أنه لم يفعل لكان من السعداء المخلّدين . وهاكم هذا النشيد المروع : لتعزفنّ عنى أيتها الفتيات ولتنأوا عنى أيها الآباء حتى لا تبلغ كلماتى مسامعكم ، وإن بلغتها فلا تصدقوا ما تحمل من إثم وافترضوا أن هذا الإثم لم يقع ، وإذا تراءى لكم أن تصدّقوا فلتصّدقوا أيضاً ما أعقبه من جزاء .

وإذا كان قد كُتب على بيئة أن تَشْقَى ويَشْقَى فيها شعبها ، فما أسعد إسماروس وأسعد بلادنا بُعدها بُعداً شاسعاً عن تلك البيئة التى ولد بها كائن يستطيع أن يكفر بالمقدسات . وقد تكون أرض پانشايا(٢٥) غنية بالبلسم والقرفة وعشب الجدوار وبأنواع كثيرة من الزهور ، ويفوح من أشجارها عبق الصمغ العربى والبخور ، ولكن ما جدوى هذا كله إذا كانت تنتج المُرّ كذلك ، تلك الشجرة الجديدة التى لم تكن تستحق ما بُذِل فيها من ثمن باهظ . ثم إن كيوپيد يؤكد أن سهامه لم تُصِبْ « مُورْها » بجُرح ، ويقول إن التى أصابتها بهذا الداء المعيب هى إحدى الشقيقات الثلاث(٢٦) ، تلك المسلحة بجمرات من نهر ستيكس وبالثعابين المنتفخة الأوداج ، وإذا عددنا كراهية الفتاة لأبيها جريمة ، فإن عشقها له هذا العشق هو جريمة تُربى على جريمة الكراهية .

ولقد تتابع الخاطبون فى طلب يدك من مختلف الأنحاء ، وتنافس من أجل الظفر بيدك كل شباب الشرق . ولك يا مُورها أن تختارى من شئت من بين كل الرجال الذين تقدّموا لخطبتك غير رجل واحد .

٣٢٠ وأحسّت الفتاة بما يخالجها وجاهدت أن تخلص من تلك النزوة التى كانت تتملكها ، وناجت نفسها قائلة : ما هذا الذى يُبلبلُ فكرى . . إننى أضرع إلى آلهة السماء التى تربط بين الأبناء والآباء بروابط الحب والواجب أن تطرد عن خاطرى ما يخالجه ، وأن تحول بينى وبين أن أقترف ما هو جُرمٌ حقاً . ولكن أهو حقاً جُرم ؟ وهل ثمة فرق بين هذا اللون من الحب وبين ما نكنّه من حب للآباء ؟ إن الحيوانِ كله ينزو بعضه على بعض ولا تفرقة عنده فى ذلك ، وليس ثمة من عار على البقرة حين يعلوها أبوها ، ولا من عار على الجواد حين يجعل من ابنته أنثاه ، ولا على الجدْى حين يصطفى من سلالته عنزته ، وإن ذكور الطير لتسافد فرخاتها . ألا ما أسعد الحيوانِ بما يهنأ به ، ثم ما أقسى ذلك الضمير الإنسانى بما يفرض من قيود جائرة حرّمت ما أحلّته الطبيعة . ولكن لازالت ثمة شعوب يقترن فيها الأبناء بأمهاتهم والآباء ببناتهم توثيقاً لروابط الحب بينهم(٢٧) ، ولعل حظى العاثر أننى لم أولد فى بلد من هذه البلاد ، وعلىّ الآن أن أدفع ثمن

مولدى هنا . ولكن مالى أسترسل فى هذه الخواطر دون إعمال فكرى ؟ فلأطرح جاهدة تلك الشهوات المحرمة . إن سينيراس جدير بحبى حب البنت لأبيها ولو لم أكن ابنته لتزوّجته ، لكنى لا أملك أن أتزوّجه لأنه أبى ، وهكذا تُصبح صلة القربى بيننا هى مبعث نكبتى . ولو أننى كنت غريبة عليه لتحقّقت أحلامى فى يُسر . ولقد كان من الممكن أن أجد الراحة فى رحيلى من بلدى كى أتخلص من الشعور بالذنب ، ولكن حبى لسينيراس ورغبتى فيه يقضيان علىّ أن أبقى بجانبه لأملأ عينى منه ولأتحدث إليه ولأسعد بتقبيله إن لم أستطع ما هو أكثر . أيتها الفتاة المارقة أتتطلعين إلى إتيان ما هو أبعد من ذلك ؟ أتحاولين أن تخلطى الأنساب وتخرقى القوانين ، أوَ تريدين أن تنافسى أمّك وتضاجعى أباك فتصبحى أختا لإبنك وأما لأخيك ؟ أوَ لا ترهبين ربّات الانتقام الشقيقات الثلاث اللاتى تنبت مكان شعورهن ثعابين سوداء تتلوّى ، واللاتى يخشى المذنبون ألسنة اللهب التى يُطْلقنها من شعلاتهن وهن يلوّحن بها فى عيونهم ووجوههم ؟ فلتأخذى حذرك ، ولا تدعى الأفكار الآثمة تعشّش فى وجدانك مادمت لم تسقطى بعد فى وهدة الخطيئة ، ولا تحاولى انتهاك قوانين الطبيعة الصارمة بتلك المواطأة المروّعة . وهبى أنك عزمت على أن تُقْدمى فستُجْبَهين بالحقيقة لأن أباك يرعى روابط الأسرة حقّ رعايتها ولا يفرّط فيما يقضى به العُرْف . وكم كنت أتمنى لو أن ما أصابنى كان من مسّ » .

وحين رأى سينيراس ذلك الجمع الحاشد من الخاطبين لابنته حار ولم يدر ما يفعل ، فأخذ يذكر أسماءهم لها ويسألها عمّن تختاره من بينهم فلزمت الأميرة الصمت فى بادىء الأمر ، ثم حملقت فى وجه أبيها حائرة اللب وفاضت عيناها بدمع غزير . وخال أبوها أن ما اعتراها من حياء العذارى فأخذ يجفّف دموعها ويربت على كتفيها لتكفّ عن البكاء ، وانحنى عليها يقبّلها فإذا الفتاة تحس متعة أية متعة ، وسألها أبوها : « أى زوج تختارين ؟ » فزفزت الفتاة وهى تجيب : « زوجاً على مثالك » . وحسب الرجل ذلك منها لوناً من ألوان البرّ ولم يفطن إلى ما تُخفى ، وقال لها : « كم أتمنى أن تظلّى بى بارّة » ، وأحسّت الفتاة خجل الآثمة عند سماعها كلمات أبيها فأطرقت برأسها .

وأوى الناس إلى فراشهم مع منتصف الليل نافضين عنهم همومهم ومتاعبهم ولكن إبنة سينيراس لم يغمض لها جفن ، وثارت فى قلبها لواعج لا تخمد ، وتملّكتها نزواتها الطائشة ثانية . وكانت تستسلم حيناً لليأس فتستكين خجلة ، وتتنازعها الجرأة حيناً فتتحرّق شهوة . ولم تكن تملك أن تختار ولم تعرف ماذا هى فاعلة ، فلقد أصبحت أعجز من أن تبتّ فى أمر طالما عناها وعاشت تحت ثقله تترنّح ، مَثَلُها فى ذلك مثل شجرة ضخمة توالت عليها ضربات البلطة وهى تهتز يمنة ويسرة لا تدرى على أى جنب ستسقط مع الضربة القاصمة ، والحطّابون حولها يرقبون وقوعها . ولم تر « مورها » خلاصاً لها من حبها إلاّ فى الموت فهو الطريق الوحيد للراحة التى تنشدها ، فلفّت حول عنقها الذى انقطع الدم عن بلوغه أنشوطة وأثبتت طرفها فى عتبة الباب وقالت وقد أوشكت على التدلىّ : « وداعاً سينيراس يا من هو أعزّ الناس عندى ، وما أظنك سيغيب عنك سرّ موتى » .

وبلغت كلماتها سمع مربّيتها وكانت ترقد على باب حجرة نومها فنهضت وفتحت الباب ورأت ما أعدّته مورها للانتحار فأطلقت صرخة مدوّية ولطمت صدرها ممزّقة ثيابها ، وبادرت فحلّت الأنشوطة الملتفة على عنق الفتاة وهى تبكى ، ثم طوّقتها بذراعيها وأخذت تسألها عن سر ما همّت به ، لكن مورها ظلت صامته تحملق فى الأرض حزينة لما فاتها من التخلص من الحياة ولانكشاف محاولتها الانتحار .

وألحّت المربية العجوز على الفتاة لتكشف لها عن سرّ رغبتها فى الانتحار ، وأزاحت وشاحها عن رأسها الأشيب وكشفت أثداءها الضامرة الذابلة وهى تتوسّل إليها وتستحلفها بأيام رعايتها لها فى مهدها وباللبن الذى غذّتها به فى طفولتها أن تسرّ لها بهمومها ، لكن مورها لم تفصح عن سرّها وأشاحت عنها بوجهها وهى تئن وتزفر زفرات حارة ، وازدادت المربّية إصراراً على تعرّف الحقيقة ووعدت الفتاة بأنها ستكون إلى جانبها كما سوف تصون سرّها . وقالت لها : « أسرّى لى بدخيلتك أُقدِّم لك عونى ، فلازلت غير متبلّدة رغم شيخوختى ، وإذا كانت ثمة لوثة قد ألمّت بك فإنى أعرف من يشفيك بالتعاويذ والأعشاب ، وإذا كان هناك من مسّك سحرُه بِشرّ ففى الطقوس السحرية ما يخلّصك من هذا الشرّ ، وإن كان ما بك من همّ مرجعه إلى غضب الآلهة عليك ففى القرابين ضمان لرضى الآلهة عنك . وليس ثمة شىء بعد هذا ، فإنك تعيشين عيشاً رغداً ناعمة بجوار أمك وأبيك » .

وزفرت مورها زفرة عميقة حين سمعت كلمة « أبيك » وما خالت المربية أن فى هذه الزفرة ما يَشِين ، ولكنها أحسّت أنه ثمة غرامٌ عارمٌ هو سرّ شقائها ، وازدادت عزماً على أن تعرف خبيئة نفسها مهما كلفها ذلك ، فأخذت تتوسل إلى سيدتها أن تطالعها بأمرها ، وضمّت الفتاة الباكية إلى صدرها الذابل بيدين ترعدان وهى تقول لها : ما أعرفنى بسرّك ، إنه الحب يخفق به قلبك ، ولكن لا عليك فستجدينى إلى جانبك دوماً عندما يعوزك العون ولن أمكّن أباك من أن يعلم شيئاً عنك .

فانتزعت مورها نفسها من بين أحضان مربّيتها شاردة الفكر ، واستلقت على فراشها وقد غمّت وجهها بالوسائد وهى تصرخ : « اعزُبى عنى وإنى أضرع إليك أن تُخَلّينى وحدى ، رِفْقاً بى ولا تحاولى أن تكشفى خبيئة عارى » . وعندما عادت المربية تلحّ ، ثارت مورها قائلة : « إن ما تحاولين أن تعرفينه جُرْم فاضح فكُفىّ عماً تحاولين » . وهلعت العجوز لما سمعت فارتمت على قدمى مورها ضارعة حيناً بما لها من دالة ومنذرة حيناً بأنها ستنهى إلى أبيها ما اعتزمت عليه ، وكانت وهى فى حديثها لها تلوّح بيدين مضطربتين بفعل سنّها وفزعها إلى أن استكانت إليها الفتاة ورفعت رأسها وإذا دموعها تسّاقط من عينيها على صدر مربّيتها . وكم جهدت فى أن تفصح غير أن شفتيها لم تنفرجا إلاّ عن كلمات قالتها وهى تستر وجهها بثوبها : « ما أسعد أمى حين ظفرت بأبى زوجاً » ثم تنهّدت ، فإذا المربّية يبرد الدم فى عروقها ، وإذا شعر رأسها الأبيض ينتصب هَوْلاً . لقد أدركت العجوز ما تخفيه الفتاة فأخذت تحذّرها عاقبة فَعْلَتها الشنعاء .

وما كان عند الفتاة ما تنقض به رأى مربيتها ، لكن حبها كان عارماً لا يستجيب لنصح ، لذا ظلت عاقدة العزم على أن تنتحر إن لم تظفر بأبيها زوجاً . ورَثَتْ المربّية للفتاة وأخذت تهوّن عليها ما هى فيه ،

ووعدتها بأنها ستحقق لها الظفر بما تبغى كى تخلّصها من الموت ، ولكنها لم تعرض لذكر الأب ولم تعدها بالظفر به ، غير أن هذا كان وعداً منها للفتاة أشهدت عليه الآلهة .

وحلّ عيد الإلهة سيريس الذى تشارك فيه المتزوجات جميعاً ويرتدين لذلك ثياباً بيضاء ويحملن حزماً من بواكير سنابل القمح يقدّمنها للإلهة ويقضين ليالى تسعا يُجانِبْن فيها الرجال ولا يضاجعن أزواجهن . .
وحين خرجت سنخرييس زوجة سينيراس تشارك الزوجات فى هذا العيد وخلا الملك إلى نفسه لا زوجة إلى
جواره ، انتهزتها المربية فرصة واقتحمت عليه وحدته بعد أن أثقلت الخمر رأسه وحدّثته عن فتاة هائمة به
فى عُمْر مورها فطلب الملك من المربية أن تأتى بها . وما أسرع ما خفّت المربية إلى مورها تحمل إليها تلك
البُشرى ، ولكن الفتاة ما كادت تستمع إليها حتى تولّاها شعور مزيج بين فرحة الظفر ومرارة الخطيئة ،
وظلت مضطربة بينهما لا تدرى بأيهما تأخذ غير أن شعورها بالفرح كان غالباً . وحين خيّم السكون على ٤٤٠
الكون وأخذت كوكبة العواء طريقها بين كوكبتى الدب الأكبر والدب الأصغر خطت مورها إلى الإثم ، فإذا
القمر اللألاء ينحدر إلى مغيبه ، وإذا النجوم تغشّيها سحب كثيفة سوداء ، وإذا الليل تخمد جذوة فحماته ،
وكان أول نجم ولّى هو نجم إيكاروس ، وولّت فى إثره ابنته النجمة إريجونيه التى لم تبلغ منزلتها فى السماء
إلّا لحبها الطاهر لأبيها . ولقد تعثّرت مورها المسكينة فى طريقها مرات ثلاث ، وكانت البومة فى كل عثرة
تعثرها تحذّرها بنعيقها الكئيب ، غير أن مورها لم تلق لذلك بالا ولم تستمع لوخز ضميرها ومضت تمسك
بيسراها يد مربيتها وتتلمس بيمناها طريقها وسط الظلام الدامس إلى أن بلغت مخدع سينيراس وجازت
الباب إلى حيث يرقد بخطى ثقيلة وهى شاحبة الوجه قلقة هلعة ، وإذا شعور بالندم يكاد يردّها عما أقدمت ٤٦٠
عليه ، ولقد همّت أن تفعل وهى لم تستبن أمرها بعد .

وأحسّت العجوز منها ذلك فاجتذبتها من يدها ، واقتادتها إلى مخدع الملك المهيب وأسلمته الفتاة قائلة : « ها هى ذى لك يا سينيراس » ثم تركت الآثمين وحدهما . وضم الرجل إليه فلذة أحشائه على فراشه الدنس ، وأخذ يهدئ من روعها ويطمئنها واثر أن يناديها « يا ابنتى » لعلوّ سنّه ، وإذا هى الأخرى تناديه « أبتاه » ، وهكذا اجتمع الاسمان على أمر محرّم .

وغادرت مورها مخدع أبيها وفى أحشائها نطفته ، واستقر فى رحمها الدنس حملٌ دنس هو الجنين الذى كان ثمرة الخطيئة . وفى الليلة التالية عاود الاثنان إثمهما ، وتشوّف سينيراس إلى أن يعرف عشيقته التى ضاجعها مرات عدة ، فأشعل مصباحاً وإذا هو يتبين فى ضوئه وجه ابنته ، وإذا هو تتراءى له بشاعة جريمته ، وتولاه جنون فنهض إلى سيفه ينتزعه من غمده المعلّق ، فهرولت مورها هاربة فى جنح الظلام لتنجو من موت محقق ، تضرب فى أنحاء مملكة أبيها الفسيحة حتى خلّفت وراءها نخيل بلاد العرب وحقول بانشايا .

ولقد شهدت مورها القمر يكتمل مرات تسعاً خلال رحلة ضربت فيها على غير هدى ، وأدركت ٤٨٠
بلاد سبأ بعد أن أصابها الإرهاق ولم تعد تقوى على احتمال ثقل حملها ، وأحست نفسها موزعة بين رهبة

الموت والنفور من الحياة . ولم تعرف ماذا تسأل الآلهة أن تحققه لها فأخذت تدعو : « أيتها الآلهة إذا كنتم تصغون لضراعة المذنبين فإنى أعترف أننى جديرة بهذا المصير ، وما أرضانى بما يلحقنى من عقاب صارم ، لكنى غير راغبة فى أن أدنّس الأحياء ببقائى بينهم ولا الموتى بذهابى إليهم ، وإننى أتوسل إليكم أن تذهبوا بى بعيداً عن مملكتى الموتى والأحياء ، وأن تمسخونى كائناً آخر تمتنع عليه الحياةُ والموت معاً » . ولم تذهب ضراعاتها عبثاً إذ كان ثمة إله يتولى المذنبين ، وإذا الأرض تتجمع حول ساقيها وتنشق أظافر أصابع قدميها عن جذور رفيعة تنغرس فى الأرض ، وإذا هى ساق شجرة شامخة ، وإذا عظامها تخشوشب وإن احتفظت بنخاعها ، وتحوّل دمها إلى عصارة نباتية ، وأصبحت ذراعاها غصوناً ممتدة وأصابع يديها فروعاً صغيرة ، وجفّ جلدها وغدا لحاء طوى رحم الفتاة بما فيه كما لفّ صدرها ، وحين أوشك أن يبلغ عنقها سارعت مورها فغمست وجهها فى طيات اللحاء ، ولم يبق لها من آدميتها غير دمعات مُرّة ظلت تذرفها وظلت حديث الناس بعدُ ، وحملت اسم المُرّ .

وبلغ الجنين مبلغه وهو مكنون فى جوف الشجرة ، وكم حاول أن ينفذ إلى الحياة ، وكم عانت مورها من آلام حين ضاق بها جذع الشجرة ولكنها لم تملك أن تفصح عما تحس ، كما لم تملك أن تفزع إلى الإلهة لوكينا لتأخذ بيدها فى وضعها . وأحست الإلهة لوكينا بشجرة تتلوّى وتنبعث عنها زفرات متّصلة وتندى بفيض تلك الدموع المنهمرة ، فخفّت تعين الشجرة فى محنتها ومسحت بيدها عليها وهى تتمتم بتعويذة الوضع ، فانشق الجذع وخرجت من خلل اللحاء ثمرة تنبض بالحياة وتصرخ صراخ وليد قد أهلّ ، وأسرعت الحوريات يتلقّين الطفل ووضعنه فوق العشب الغض بعد أن غسلنه بدموع أمه . ولقد كان الوليد فى جمال كيوبيد الذى يبدو عارياً فى لوحات المصورين ، ليس ثمة من فارق بينهما غير جعبة السهام التى يحملها كيوبيد حتى أن ربّة الحسد نفسها انصاعت لإطرائه .

أدونيس وڤينوس . أتالانتا وهيبومينيس

ومرت الأيام فى تعاقبها وما بالى بها احد فما أسرع ما تمضى السنين ، وما لبث أن كبر الطفل الجميل الذى يقال إن أخته أنجبته من جدّه ، والذى كان خبيئاً فى جذع الشجرة إلى عهد قريب . وها هو ذا يصبح شاباً ، ثم ها هو ذا قد صار رجلاً يفتن بجماله ڤينوس وينتقم منها لما أشعلته فى أمه من شبق . فلقد تصادف أن اقترب كيوبيد وهو يحمل جعبة سهام الحب من أمه ڤينوس ليقبّلها فإذا هو يخدش عن غير قصد أعلى صدرها بطرف سهم كان يطلّ من جعبته ، فدفعت ڤينوس بابنها بعيداً حين أحست ألم الجرح الذى لم تدرك لأول وهلة مدى عمقه . غير أن افتتانها بجمال الشاب [أدونيس] أنساها رعاية شطآن جزيرة كيثيرا(٢٨) ، كما لم تعد تتردد كثيراً على جزيرة پافوس ، تلك الجزيرة التى كانت قد أحاطتها بنطاق من المياه العميقة ، ولا شبه جزيرة كينيدوس(٢٩) الغنية بالأسماك ولا على أماثوس الحُبلى بالمعادن ، كما لم تعد تظهر فى السماء إذ فضّلت صُحبة أدونيس على السماء .

وأصبحت ڤينوس رفيقة أدونيس تصحبه أنّى ذهب ، وهجرت ما تعوّدته من الاسترخاء فى ظلال الأشجار والعناية بجمالها وزينتها ، وانطلقت تجول فى الغابات والجبال مشمرّة ثيابها إلى ركبتيها على غرار ديانا إلهة الصيد . وأخذت ڤينوس تستحث كلاب الصيد وتطارد الحيوانات السهلة القنص كالأرانب البرّية السريعة العدو والغزلان والوعول الشامخة القرون ، لكنها تجنّبت الخنازير البرّية الوحشية ، ولم تخاطر بالتعرّض للذئاب المتلصّصة والدببة الحادة المخالب والأسود التى تحيا على دماء البهائم ، وحرصت على نُصح أدونيس باتباع نهجها محذّرة إياه من الوحوش ، مؤملة فى أن يُصْغِىَ إلى نُصحها ، وقالت له : « كن جسوراً حين تلقى الفريسة التى تفرّ منك ، ولا تأمن الحيوانات التى تتصدّى لك . ولا تكن طائشاً حتى لا أغدو تعسة بعدك يا فتاى الحبيب . لا تعرض للكواسر التى زوّدتها الطبيعة بأسلحة تتجاوز قدرتك حتى لا أدفع أنا غالياً ثمن ما تتشوّف إليه من مجد ، فليس لشبابك وجمالك وسحرك الذى يفتن ڤينوس أثر على الأسود والخنازير البرّية المشعثة الشعر ، فهذه لا تُذْعِرَ الوحوش ولا ترهبها ، ثم إن الخنزير البرى كالبرق فى انقضاضه بمخالبه ، كما أن الأسد إذا أثير يتوثّب دوماً للهجوم . لشدّ ما أمقت كل هذه الفصائل من الحيوانات » .

وتساءل الفتى عن سرّ كراهيتها لهذه الحيوانات فأجابته قائلة : سأقصّ عليك ما يثير دهشتك إذا ما استمعت إلى قصة تلك الجريمة التى حدثت منذ أمد بعيد . ها هى ذى شجرة حور يدعونا ظلها الوارف أن نتفيأه فلأضطجع تحتها إلى جانبك ، فإن ما أبذله من جهد لم أعتد القيام به قد أصابنى بالإرهاق » . وتمدّدا على العُشب ووضعت هى رأسها على صدر أدونيس وأخذت تقص قصتها وهى تبادله القبلات :

« لعلك سمعت بنبأ الفتاة التى كانت تنافس الرجال فى العَدْو وتبزّ أكثرهم مهارة . وليست هذه بقصة خرافية فقد كانت أتالانتا[٣٠] تسبق الرجال جميعاً ، ولم يكن من السهل معرفة سر الإعجاب بها ، أكان لخفّة قدميها فى العَدْو أم لسحر جمالها الفريد . وقد استشارت يوماً أپوللو فى أمر زواجها ، فقال لها : « لست يا أتالانتا بحاجة إلى زوج ومع ذلك فلن تفلتى من الزواج ، ولسوف تتحوّلين إلى كائن آخر دون أن يدركك الموت » . وتولاها خوف من هذه النبوءة فلجأت إلى الغابات تحيا فى ظلالها بعيدة عن إلحاح الخاطبين الذين فرضت عليهم شروطاً قاسية قائلة لهم : « لن أتزوج إلّا بمن يسبقنى فى العَدْو ، فلتبارونى وسوف يظفر بيدى وبفراش عُرْسى من يتقدّمنى ، على أن يدفع المهزومون حياتهم ثمناً للمغامرة . تلك هى شِرْعة السباق » .

ولم يحجم الخاطبون على الرغم من قسوة شروطها عن هذا السباق ، فقد كان سلطان جمال أتالانتا طاغياً يجتذب الكثيرين . وجلس هيپومينيس وسط المشاهدين يرقب هذا السباق غير المتكافىء وينحى باللائمة على هؤلاء الشبان الذين استسلموا لعواطفهم متسائلاً فى سخرية : « كيف يرضى رجل أن يعرّض حياته لمثل هذا الخطر من أجل الظفر بزوجة » ! غير أنه ما كادت تقع عيناه على وجه أتالانتا وجسدها بعد أن أزاحت عنه غلائله [ورأى قوامها مثل قوامى أنا ڤينوس أو مثل قوامك أنت يا أدونيس لو غدوت امرأة] حتى ذهل وصاح رافعاً ذراعيه : « فليغفر لى أولئك الذين أنحيت عليهم باللائمة منذ حين ، إذ لم أكن

أعرف قدر الجائزة التى من أجلها يتبارون » . واتصل اطراؤه للفتاة حتى تحوّل إلى افتتان بها ، وتمنى ألا
يسبق أتالانتا أحد من الشبان فقد أثارت فيه الغيرة خوفه من أن يفوز بها غيره ، وقال لنفسه « لم لا أجرّب
أنا الآخر حظى فى السباق ؟ فإن الآلهة تناصر الجسور غير الهيّاب » . وانطلقت الفتاة بخطوات مجنّحة
تطوى المسافات أمام الشاب البويوتى كأمضى سهم من سهام سكوثيا فزاد إعجابه بها . ولقد زادها السباق
فتنة إذ تطايرت فى الريح أربطة حذائها خلف قدميها ، وتموّج شعرها فوق كتفيها العاجيين ، وخفقت
الشرائط المطرزة التى تزيّن ساقيها ، واكتسى بياض بشرتها العذرى بحمرة قانية كبياض جدران المرمر
المغطاة بغلالات قرمزية فى فناء دار رومانية . وانتهى الشوط الأخير وظفرت أتالانتا بقصب السبق ،
وأرسل المهزومون الزفرات والعقاب ينزلُ بهم . وعلى الرغم من أن هيبومينيس شهد مصرع المتسابقين
٦٠٠ القاسى فإنه تقدّم إلى الأمام وتوسط الجمع وحملق فى الفتاة قائلاً : « لماذا تسعين وراء الفوز وأنت تستطيعين
بلوغه فى يسر ، ولماذا تحاولين التغلب على منافسين ثقيل الخطى وهم على غير دُرْبة كاملة ؟ فلنتبار معاً فإن
كتب لى الحظ النصر فلن تحسىّ بالخجل من هزيمتك أمام رجل فى مثل منزلتى ، فأنا ابن أونخيستيوس من
ميجارا سليل نپتون وآخر أحفاد ملك البحار ، وليس إقدامى أقلّ شأناً من محْتِدى ، أما إذا كان الظفر من
نصيبك أنت على هيبومينيس فسوف تكسبين مجداً وتعمّ شهرتك الآفاق . . » والتفتت إليه إبنة
إسخوينيوس فى حنان ، ولم تعد تدرى أتتمنى فوزها أم هزيمتها أمامه ، وحدّثت نفسها قائلة : « وهل من
إله يتنكر لصاحب هذا الوجه الجميل فيغريه بطلب يدى حتى ولو كان فى ذلك حتفه ؟ ما إخالنى أهلاً
لهذا ، وإننى لأحس برعشة تخالج قلبى من أجله ليس مبعثها جماله رغم ما له من سحر يهز القلب بل لأنه
ما يزال فتيًا فشبابه الغض لا جماله هو الذى يثير شفقتى ، ثم إنه شجاع لا يرهب الموت ، كما أنه من أفراد
الجيل الرابع من سلالة حاكم البحار ، وإلى هذا كله فهو يحبّنى ولا يبخل علىّ بثمن ليظفر بالزواج منى ولو
كان ذلك الثمن عمره إذا لم يسعفه القدر بالفوز . ألا فلتبتعد أيها الغريب قبل فوات الأوان ، ولتنأ عن
٦٢٠ سرير زفافى الملطّخ بالدم فما أقساها من شروط تلك التى فرضتها لزواجى . ولسوف تجد غيرى من الفتيات
راغبات فيك وأنت جدير بإعجابهن . ولكن مالى أقلق عليك دون غيرك ممن سبقوك إلى الموت والخَطب
يعنيك ولا يعنينى ، ولتلق جزاءك إذا لم يكن لك فيمن سبقوك عظة ، وقد يكون موتك من أجل رغبتك فى
الحياة معى ، ولكن هل يكون هذا جزاء حبّك لى ؟ ولسوف يثير موتك بُغض الآخرين لى ، ولكن ما
جريرتى ؟ هلاّ عدلت عن السباق للظفر بى ، فما أشدّ نزقك ، فكم هى جميلة قسماتك النضرة التى تشبه
قسمات الغيد الحسان ، ليتك لم ترنى يا هيبومينيس المسكين فما أحقّك بأن تحيا ، ولو أنى كنت من
المحظوظات ولم يقف القدر حجر عثرة فى سبيل زواجى لكنت أنت الرجل الوحيد الذى أسعد به شريكاً
لحياتى » . ولم تدر أتالانتا الغِرّة التى لا تجربة لها ما حدث لها بعد أن مسّتها سهام إله الحب للمرة الأولى ،
فلقد وقعت دون أن تدرى فى شراك الغرام .

٦٤٠ واحتشد الشعب والقادة مطالبين ببدء السباق المعتاد ، فقصدنى هيبومينيس سليل نپتون يطلب العون
وهو يقول : « إننى أضرع إليك يا ربّة كيثيرا أن تعينينى فى مغامرتى الجسورة ، وأن تؤجّجى فى قلبى نيران

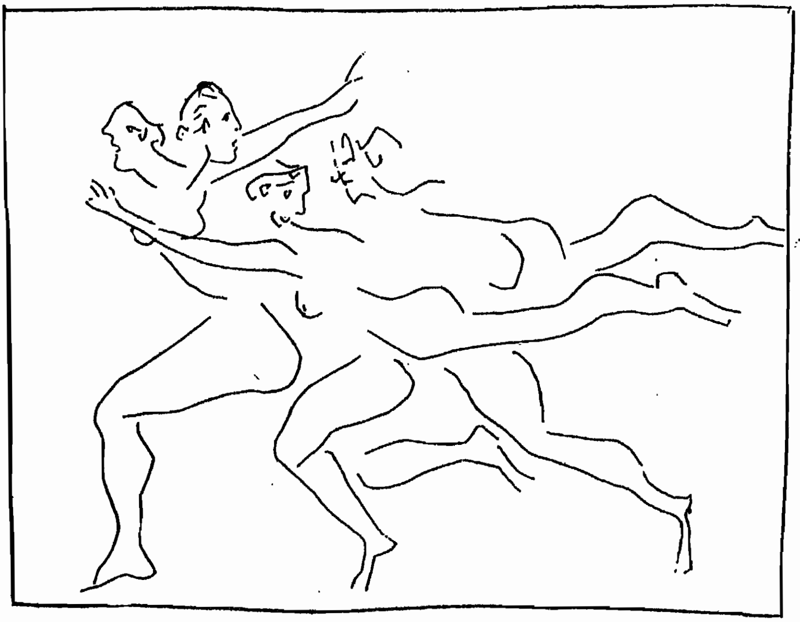
الحب التى أشعلتها أنت فيه » . وحملت الأنسام الرقيقة ابتهالاته إلىّ ومسّت قلبى فلم أتردد فى مدّ يد العون إليه ، وكنت ساعتها آتية من أجمل بقاع جزيرة قبرص ، من حقل تماسوس الذى أهداه لى شيوخ الجزيرة لينضم لمعبدى ، وإن فى وسطه لشجرة ذهبية لفروعها رنين المعادن . وكنت أحمل فى يدى ثلاث تفاحات ذهبية من تفاح هذه الشجرة ، فأسرعت إلى هيبومينيس مختفية عن الجميع إلاّ عنه وحده وأعطيته التفاحات الثلاث ، وهمست إليه بأمرٍ طلبت منه تنفيذه .

وآذن البوق ببدء السباق ، وانطلق المتسابقان من نقطة البداية وطارا مسرعين لا تكاد تمسّ أقدامهما سطح الرمال ، فبَدَوَا وكأنهما يستطيعان الجرى فوق سطح الماء دون أن تبتل أقدامهما ، أو فوق أعواد القمح المنتصبة دون أن تنثنى ، وامتلأ الفتى جرأة وسط صرخات النظارة الذين كانت قلوبهم معه فانبروا يشدّون من أزره ويصيحون به : « فلتسرع يا هيبومينيس ولتبذل أقصى جهدك ولأنت الفائز » . ولعل ابنة إسخوينيوس كانت أكثر سعادة بهذه الصيحات من ابن ميجارا البطل . وكم من مرة تباطأت أتالانتا عنه وهى قادرة على سبقه ، تطيل النظر إليه قبل أن تخلّفه وراءها على مضض .

وأخذت شفتا هيبومينيس تجفّان من الإرهاق وأنفاسه تتلاحق والهدف لا يزال بعيداً ، فدفع بإحدى التفاحات الذهبية الثلاث فأخذت الفتاة ببريقها وتوقفت ذهلة ، ثم انحرفت عن مسار السباق لتلتقط تلك التفاحة الذهبية اللامعة مشغوفة بها . فانفسح المجال أمام هيبومينيس لكى يتقدّم الفتاة فدوّت أكفّ النظارة بالتصفيق ، واضطرت أتالانتا لمضاعفة جهدها لتعوّض ما ضاع ، وقد نجحت فى أن تسبق الفتى وتخلّفه وراءها . ومرة ثانية نجح هيبومينيس بصرفها عن الطريق بإلقاء التفاحة الثانية ، غير أنها نجحت هى الأخرى فى اللحاق به ثم سبقته بعد الظفر بالتفاحة الثانية . وبقى الشوط الأخير ، وأخذ الشاب يتضرع صائحاً : « أيتها الإلهة ، يا من وَهَبْتِنى هذه الهدية ، كونى الآن فى عونى » ، ثم استجمع قواه وألقى بالتفاحة الذهبية الثالثة إلى طرف حلبة السباق لتبذل الفتاة وقتاً طويلاً فى الظفر بها قبل أن تعود إلى مسار السباق ، واضطربت الفتاة وحارت فى أمر هذه التفاحة ، أتجرى وراءها أو تتركها ؟ غير أن ڤينوس دفعتها وراءها . وحين التقطت الفتاة التفاحة زادت الإلهة من ثقلها كى تعوق خطواتها ، وهكذا حاقت الهزيمة بأتالانتا فتزوّجها هيبومينيس بعد أن كُتب له النصر عليها » .

غير أن الشاب النزق أُنسى ما فعلته له الإلهة ڤينوس ولم يتجه إليها شاكراً ولم يحرق لها البخور ، فإذا هى عليه غاضبة لتفريطه وأقسمت لتجعلن منه عظة للآخرين حتى لا يسلكوا مسلكه ، ولتنزلن بهما العقاب معاً .

وبينما هيبومينيس وأتالانتا يمرّان إلى جوار المعبد المتوارى فى أعماق الغابة والذى كان إخيون[٣١] الشهير قد نذر إقامته لأم الإلهة ، كان الجهد قد بلغ منهما بعد أن قطعا مسافة طويلة على الأقدام ، فأحسا رغبة فى أن يأويا إليه فيستريحا قليلاً فإذا ڤينوس تحرّك فى هيبومينيس الرغبة لمضاجعة زوجته ، وإذا هو ينزوى بها فى محراب معتم مسقوف من الأحجار الطبيعية وحجر الخفاف له قدسيته منذ عهد بعيد ويجمع



بيكاسو : سباق أتالانتا وهيبومينيس

كثيراً من تماثيل الآلهة الخشبية . واستسلم هيبومينيس لرغبته ، وإذا هو قد دنّس المحراب ، وإذا التماثيل تزورّ عنه بوجهها . وكادت أم الآلهة كوبيلى ذات التاج المتعدّد الطوابق أن تغرق الآثمين فى مياه ستيكس ولكنها رأته جزاء دون ما يستحقان ، ورأت أن تغشّى رقبتيهما بشعر أسود وأن تبدلهما عن أصابعهما مخالب ، وأن تحيلهما حيوانين يعتمدان على صدريهما ، ومدّت لهما ذيلين ينسحبان على وجه الرمال ، ورسمت وجهيهما بالعبوس والقطوب ، وجعلت حديثهما عواء ، وأسكنتهما الغابات التى أصبحت مأواهما الوحيد إذ قد أصبحا أسدين يثيران الرعب فى قلوب الناس . غير أن كوبيلى ما لبثت أن روّضتهما فشدّتهما إلى مركبتها فباتا يقضمان شكيمتيهما . فحذار يا حبيبى العزيز أدونيس أن تقرب منهما ، بل عليك أن تفرّ منهما كما تفرّ من جميع فصائل الحيوانات المتوحشة التى لا تولى هاربة بل تهاجم من يعترض طريقها ، وحذار أن تكون شجاعتك سببا فى هلاكنا نحن الاثنين » .

وحلّقت ڤينوس فى الأجواء منطلقة بمركبتها التى يقودها البجع بعد أن حذّرت أدونيس ، غير أن الشجاعة لا تجدى معها التحذيرات ، فلقد لمح خنزيراً برّياً كانت كلاب الصيد قد اقتفت أثره وأثارته من جُحْره وكاد أن يخرج من الغابة ، فأنفذ فى جنبه رمحه بطعنة قاتلة ، وأسرع الحيوان فنزع الرمح الدامى بخطمه المتدلّى ، فدبّ الذعر فى قلب أدونيس وأخذ يبحث عن مأوى ، غير أن الخنزير الوحشى تعقّبه وعض فخذه قريباً من خصيته بنابه فتلوّى فوق الأرض محتضراً على الرمال وحيداً .

وبلغت أنّات أدونيس أسماع ڤينوس التى لم تكن مركبتها الخفيفة ببجعاتها المجنّحة قد بلغت بها قبرص فأدارت طيورها البيضاء واتجهت إليه ، ولمحته عن بعد يتمرّغ فى دمائه فاقد الوعى . وقفزت من مركبتها إليه وشقّت ثوبها عند صدرها وشدّت شعر رأسها ، وجعلت تضرب صدرها بيديها اللتين لم تخلقا لمثل هذا الفعل العنيف وانبرت تلوم الأقدار وصاحت فيها قائلة : « لا ، لن يخضع لكنّ كل شىء . وسوف يبقى أدونيس ذكرى حزن خالد إلى الأبد . وسوف يُمثّل كل عام مشهد موتك يذكّر بما كان فيه من
نُواحى[٣٢] عليك . ولتنبثقنّ زهرة من دمائك . لقد استطعت يا پيرسيفونى أن تحوّلى امرأة إلى شجرة نعناع ٧٢٠
عطرة ، فهل أُلام إن أنا أسبغت على حفيد سينيراس البطل العظيم صورة جديدة ؟ » .

وصبّت ڤينوس على دم أدونيس بعد هذه المناجاة نكتارا عطراً لم يكد يمسّه حتى غلى الدم وتصاعدت منه فقاعات صافية كالفقاعات الشّفافة فوق المياه المصفرّة فى الأماكن الموحلة . ولم تكد تمضى ساعة من زمان حتى انبثقت من بين الدماء زهرة فى لون الدّم شبيهة بزهرة الرمّان التى تخفى بذورها تحت لحائها ، غير أن المتعة التى تهبها هذه الزهرة قصيرة العمر لأنها زهرة رقيقة واهنة الساق تعصف بها الريح التى خلعت عليها اسمها ، وهى زهرة شقائق النعمان[٣٣] .

التعقيبات

(١) كان الزعفران هو لون الطرحة التى تتلفح بها العروس عند الرومان والمسماة « فلاميوم » ..

(٢) اسم شعب طراقى يقطن شواطىء نهر الهيبروس .

(٣) بوابه تيناريوس هى إحدى بوابات العالم السفلى ومكانها برزخ تيناريوس المسمى الآن برزخ ماتابان بالمورة .

(٤) هو الكلب كيربيروس .

(٥) تانتالوس بن چوپيتر من إحدى الحوريات هو أحد ملوك ليديا ، صوّره الشعراء من قديم الزمن بأنه قد عوقب على سرقته كلباً كان يحبه چوپيتر حباً شديداً ، وقيل إنه عوقب على سرقته للنكتار والأمبروزيا من على مائدة الآلهة ، وقال البعض الآخر إنه عوقب لقتله ابنه پيلوپس وطهى جثته طعاماً للآلهة . وثمة رواية أخرى بأنه عوقب لأنه كان يعاشر جانيميديس غلام چوپيتر المحبّب معاشرة شاذة . وكان عقابه بالعالم السفلى أن يظمأ ظمأً شديداً وهو واقف فى بركة ماء يرتفع ماؤها حتى ذقنه فإذا ما قرب من فمه انحسر الماء ، كما علّقت فوقه غصون مثقلة بالثمار التى تبعدها الريح كلما حاول قطفها .

(٦) كان سيزيفوس شقيقاً لأثاماس وسالمونيوس وابنا لأيولوس والحورية إيناريتا واشتهر بأنه أخبث أمراء عصره . تزوج من ميروپى بنت أطلس وأسس مدينة إيفيرى التى سميت كورنثوس فيما بعد . وقد عاقبه الآلهة بعد موته بسبب اعتداءاته المتلاحقة على حقول البلاد المجاورة وكثرة أسلابه وغنائمه . وقال البعض إن چوپيتر هو الذى عاقبه ، لأنه عندما مرض مرض الموت توسل إلى زوجته ألا تدفن جثته بعد موته فلما ذهب إلى العالم السفلى سمح له الإله پلوتو أن يعود إلى الأرض لكى يعاقب زوجته على تهاونها فى تأدية الطقوس الجنائزية مع الوعد بأن يعود على الفور ، وكان سيزيفوس يظن أنه بهذه الحيلة سيعود إلى الحياة من جديد . فأرسل پلوتو الإله مارس بعد اكتشاف حيلته لإعادته إلى العالم السفلى رغم أنفه ، وكان عقابه أن يدفع صخرة كبيرة إلى أعلى الجبل ما تلبث أن تتدحرج إلى الوادى فيعود إلى دفعها من جديد بلا توقف . وقد اتخذ ألبير كامو الكاتب الفرنسى الوجودى أسطورة سيزيفوس عنواناً لكتاب فلسفى عن عبث الحياة ولا معقوليتها .

(٧) دخل أورفيوس العالم السفلى عن طريق بوابة تيناريوس وهى كهوف فى جنوب المورة ، إلا أنه صعد إلى الأرض من جديد عند بحيرة أڤيرنوس بجوار كوماى فى إقليم كامپانيا بإيطاليا .

(٨) إشارة إلى أسطورة مجهولة الأصل ، وقيل إنها قصة إنسان اعترض طريق هرقل خلال عودته من العالم السفلى حاملاً الكلب كيربيروس .

(٩) لا يعرف شىء عن أولينوس إلاّ أنه مؤسس إحدى مدن آخايا التى تحمل اسمه ، أما أولينوس المشار إليه هنا مع زوجته التعسة فغير معروف . وأغلب الظن أنها إحدى الأساطير المعروفة فى عهد أوڤيد عن تحول الناس إلى أحجار وصخور .

(١٠) يتغنى أورفيوس بعد ذلك مباشرة بحب الآلهة للغلمان جانيميديس وهياكينثوس وكيباريسوس .
(١١) خاؤونيا إقليم فى إيبروس على شواطىء بحر أيونيا .

(١٢) سجل أوفيد هذه الأسطورة فى الكتاب الرابع من « التقويم » ، وهى أن كوبيلى قد أحبت الشاب الفريجى آتيس فخرجت بذلك عن تعاليم الربة العذراء التى ترعاها والتى انتقمت من الشاب بأن أصابته بالجنون ودفعته إلى أن يخصى ذاته ، ثم عفت عنه الإلهة وأصبح المرافق الرسمى لكوبيلى . وقد اقترنت عبادته فى روما بعبادتها منذ عام ٢٠٤ ق.م. وكانت شجرة الصنوبر هى شجرته المقدسة وتلعب دوراً هاماً فى طقوس عبادته ، ويذكر أوفيد هنا تحوله إلى شجرة صنوبر وإن لم تكن هذه القصة ذات أساس معروف .

(١٣) كارثيا مدينة فى جنوب جزيرة كوس .
(١٤) كان شجر السرو ومايزال متصلاً بالطقوس الجنائزية ، وكان هذا الشجر يزرع حول محارق الجثث .

(١٥) كانت سهول فليجرا هى الميدان الذى كتب النصر فيه لجوبيتر على العمالقة . ويقول البعض إنها فى خلقدونيه بآسيا الصغرى فى حين يعتقد البعض الآخر أنها قريبة من مدينة كوماى فى جنوب إيطاليا ، وتسمى المنطقة غربى نابلى حتى اليوم بالسهول الفليجرية .

(١٦) تنسب بنوة جانيميديس عادة إلى تروس ، ومن ثم فهو شقيق إيلوس لا ابنه كما جاء فى نص أوفيد .
(١٧) كان يحتفل بأعياد هياكينثوس فى شهر مايو بمدينة أميكلاى فى لاكونيا على مقربة من أسبرطة .
(١٨) المقصود هنا أماثوس ، وهى مدينة فى جنوب شرقى قبرص اشتهرت بمعبد الإلهة ڤينوس ربة الجزيرة .

(١٩) البروبيتيديس هن بعض نساء قبرص ممن تمرّدن على الإلهة ڤينوس فقضت الإلهة بأن توفد بناتهن إلى الشواطىء لاحتراف الدعارة مع الغرباء . وقيل إنهن قد مسخن أحجاراً لاستهتارهن بكل شعور بالفضيلة .
(٢٠) الكيراستيس كلمة ترجع إلى الأسطورة القائلة بأن أول شعب سكن قبرص كان ذكوره ذوى قرون . ومردّ ذلك إلى أن كلمة كيراستيسن معناها ذو القرون . وقد لقبت الجزيرة بهذا اللقب بسبب كثرة نتوءاتها وألسنتها فى البحر .

(٢١) أوفيوسا وتعنى جزيرة الأفاعى ، وهو لقب أطلق على جزر عدة فى البحر المتوسط مثل رودس وتينوس . وأوفيد هو الشاعر الوحيد الذى أطلق هذا اللقب على جزيرة قبرص إذ هو ليس من أسمائها الأصلية .
(٢٢) انفرد أوفيد بين الشعراء بقص هذه الأسطورة التى تتجاهل تماماً وجود كاهنات عاهرات فى معابد ڤينوس .

(٢٣) هيميتوس جبل باليونان مشهور بعسله حتى اليوم .
(٢٤) پافوس اسم لمدينة تقع فى الجنوب الغربى لجزيرة قبرص ، وقد عرفت به الجزيرة بأسرها أحياناً .

(٢٥) اسم لجزيرة خرافية بالبحر الأحمر ، تصور أوفيد أنها اليمن أو طرف شبه الجزيرة العربية التى اشتهرت بالتوابل والأعشاب العطرية .
(٢٦) هن ربات الانتقام « فورياى » ، ألكتو وميجيرا وتيسيفونى .

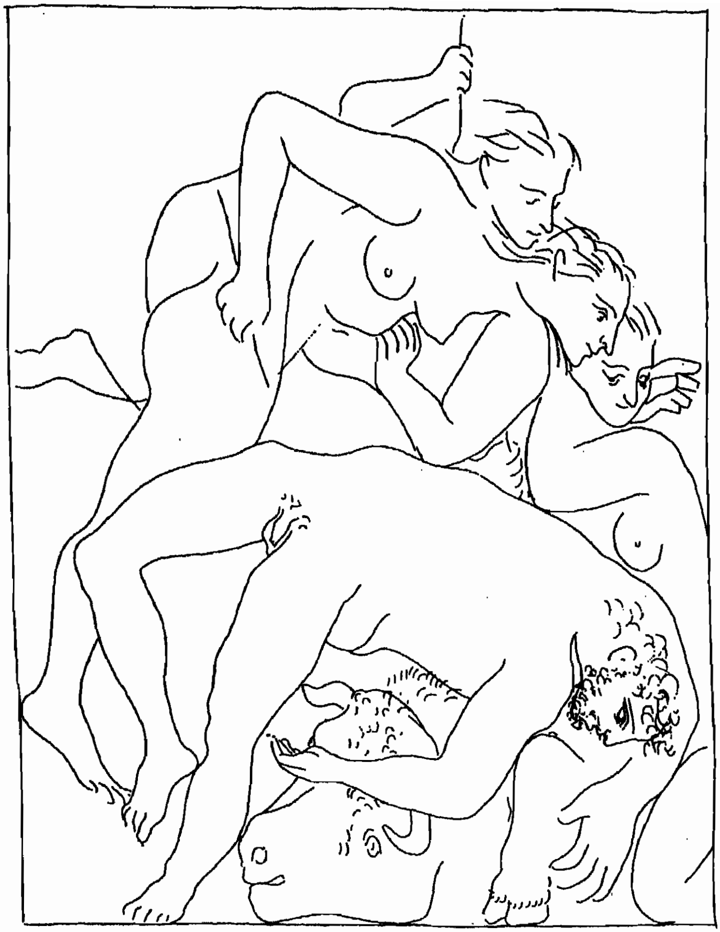
(٢٧) عُرف عن الفرس إباحة زواج الأبناء بأمهاتهم ، وعن مصر القديمة إباحة زواج الأخ بأخته وخاصة بين الفراعنة ، وعن أثينا القديمة إباحة زواج الأخ والأخت غير الشقيقين .
(٢٨) جزيرة على شواطىء المورة مكرّسة للإلهة ڤينوس .

(٢٩) اسم مدينة فى جنوب مقاطعة كاريا على طرف شبه الجزيرة التى تحمل اسم كنيدوس فى آسيا الصغرى ، وكانت ڤينوس ربتها .
(٣٠) يشير إلى أتالانتا بنت إسخوينيوس ، وكان بعض كتاب الأساطير يخلطون بينها وبين بنت ياسوس التى تحمل الاسم نفسه وبطلة اقتناص الخنزير البرى فى كاليدون [انظر الكتاب الثامن] . أما إسخوينيوس فكان من أصل بويوتى وهاجر إلى أركاديا . والقصتان تدور أحداثهما فى أركاديا ، وقد يكون هذا مصدر اللبس .

(٣١) كان إخيون أحد العمالقة الذين ولدوا من أسنان التنين التى نثرها كادموس على الأرض [انظر الكتاب الثالث] ، وقد ساعد إخيون كادموس فى تشييد طيبة باليونان وتزوج بابنته أجاڤيه فأنجبا پنثيوس .

(٣٢) كان يحتفل صيف كل عام بذكرى موت أدونيس ، وشاعت هذه الشعائر فى بيبلوس بفينيقيا إلى أن انتشرت فى أنحاء العالم الإغريقى . فكانت النساء يلتففن حول تمثال ممدّد لأدونيس على محفّة الموت يُنحْن ويبكين معبرّات عن حزنهن ، وقد وصف ثيوقريطوس واحدة من هذه الحفلات بالإسكندرية فى إحدى قصائده الرعوية . وكان البعث يلى موت أدونيس ، هذا البعث الذى أمر به جوبيتر بناء على التماس ڤينوس . وكان يُحتفل بذكرى بعثه مثلما كان يُحتفل بذكرى موته . ويقال إن أدونيس كان يقضى بعض شهور كل عام فى العالم السفلى بجوار پروسيرپينا [پيرسيفونى] التى عشقته ، ثم يخرج إلى ڤينوس ليقضى معها بقية العام . وتعبر هذه الخرافة عن أطوار الخصوبة فى الكون وتعاقب الفصول والمواسم .

(٣٣) تسمى هذه الزهرة باليونانية « الأنيمونى » وهى مشتقة من كلمة أنيموس التى تعنى الريح .



پيكاسو : موت أورفيوس

الكتاب الحادى عشر

مـــوت أورفيـــوس

وتغنّى الشاعر الطراقى بأغان تَسْحَرُ الصخور والغابات وتروّض الحيوانات الآبدة ، وأطلّت عليه نساء كيكونيا(١) المجذوبيات من فوق قمة تلّ وهو ينشد على أنغام قيثارته ، وصاحت إحداهن وشعرها

يتطاير فى الهواء : « ها هو ذا من يستخفّ بنا » وسدّدت حربتها(٢) إلى فم الشاعر الذى يهيم به أبوللو ، غير أن الحربة لم تصبه بأذى لما علق بطرفها من أوراق الأشجار . وألقت أخرى عليه حجراً كبيراً فسقط عند قدميه مأخوذاً بجمال غنائه وشدو قيثارته دون أن ينال منه وكأن لسان حاله يعتذر عن حمق من قذف به ، وتوالت قذائف النسوة وقد تولّتهن ثورة الغضب المحموم . ولقد كان من الممكن أن يطيش ما قذفن به بسحر أغنيات أورفيوس ، ولكن صياحهن الصاخب وأنغام الناى الفريجى والبوق المقوّس والرّق ولطم الصدور قد غطىّ ذلك كله على صوت أورفيوس وقيثارته ، وسرعان ما نزف دم الشاعر الأعزل وأخذ يصبغ الحجارة بلونه القرمزى .

وأصابت قذائف النساء الطيور العديدة والأفاعى التى كانت تدور بالشاعر مبهورة بصوته ، كما أصابت الحيوانات الأخرى التى خفّت لتستمتع لغنائه . وتدافعت النساء نحو الشاعر وكأنهن طيور النهار حينما يلمحن طير الليل يحلّق بينهن ، أو كمجموعة من الكلاب تطارد غزالاً ، يلقى بعضهن بالحجارة وبعضهن بأغصان الأشجار التى انتزعنها . وأثار تجمّعهن الخوف فى نفوس الفلاحين الذين كانوا يسوقون ثيرانهم ليحرثوا أرضهم ويفلحونها بفؤوسهم ومعاولهم ومدمّاتهم(٣) . وأسرع النسوة نحو الفئوس فمزّقن بها الثيران التى تهدّدهم بقرونها ، ثم اتّجهن نحو الشاعر فتوسل أورفيوس إليهن أن يتركنه لكنه فشل فى استدرار عطفهن ، وسدّدن إليه ضربة قاضية فخرجت روحه من بين شفتيه اللتين اجتذبتا بغنائهما الحيوان والشجر والحجر ومضت روحه تحملها الرياح .

انسابت دموع الحزن من مآقى الطيور والوحوش والصخور والغابات الكثيفة التى كانت تتبعه حيث يغنّى ، وتساقطت أوراق الأشجار التى أخذت تبكى الشاعر وغدت الفروع عارية ، بل لقد قيل إن الأنهار بدورها ذرفت الدموع وفاضت بها ، كما مزّقت الحوريات شعورهن وارتدين ثياب الحداد السوداء .

وتناثرت أعضاء الشاعر فى أماكن مختلفة ، غير أن نهر هبروس احتضن رأسه وقيثارته اللذين طَفَيا على الماء . عَجَبًا ! لقد بقيت القيثارة تُصْدر ألحاناً شجية ، ولسان الشاعر ما يزال يتمتم بالغناء والنهر يردّد صدى أنغامها . وما لبث الرأس والقيثارة أن اندفعا إلى البحر الفسيح حتى بلغا شاطىء جزيرة ليسبوس قرب ميثيمنا . فاقتربت أفعى رهيبة من الرأس الغريب المطروح على الشاطىء والمغطى بشعر خالطه زبد الموج الأبيض ، وأوشكت الأفعى أن تلتهمه لولا أن ظهر أبوللو وحوّله إلى صخرة جامدة ما تزال تحتفظ بفم الأفعى المفتوح . ومضى طيف أورفيوس إلى العالم السفلى ، فتعرّف على الأماكن التى سبق له رؤيتها ، وظل يبحث عن زوجته يوريديكى حتى وجدها فعانقها فى شوق الملهوف . وأخذا يتجوّلان معاً ، يسبقها مرة ويتبعها أخرى ، ويطيل إليها النظر بين الفينة والفينة دون أن يخشى شيئاً .

وحزن باكخوس أعمق الحزن على الشاعر العذب الألحان ، ولم يشأ أن تمرّ جريمة قتله دون عقاب ، فثبّت نساء طراقيا فى الأرض إذ غرس سيقانهن فى أعماق الثّرى بعد أن أحالها جذوراً صلبة ، فأصبحن كالطير شُدّت قوائمه فى الشراك فأخذ يضرب بأجنحته للخلاص من القيد فإذا هو يزيد إحكامه كلما زادت



پیکاسو: موت اورفیوس [رسم إضافي]

حركته . وقد انتاب النساء الذعر وأصابهن الجنون وهن يحاولن الخلاص دون جدوى ، وكان ثبات أقدامهن فى الثّرى يَجْمُدُ بهنّ عن أن يتحرّكن ، وأخذت كل منهن تمدّ يدها لتتحسّس قدميها وأصابعها وأظافرها فإذا هى لا تجد غير لحاء الشجر يلتف حول ساقيها الجميلتين ، وجعلن يضربن أفخادهن فإذا هى الأخرى قد صارت خشب بلوط ، فتولّاهن أسى عميق . ولم تلبث أثداؤهن وأكتافهن أن تحوّلت إلى جذوع أشجار وأصبحت أذرعتهن أغصاناً طويلة ، ولم يكن ذلك وَهْماً طاف بخيالهن ، بل كان حقيقة مفزّعة .

ميداس

لم يكتف باكخوس بذلك ولم تهدأ نفسه فهجر طراقيا مصطحباً معه ثلة من أتباعه المعربدين ، ليزور كروم [جبل] تمولوس التى يؤثرها ونهر پاكتولوس الذى لم يكن قد سال ذهباً بعدُ ولم تكن رمال قاعه النفيسة قد أصبحت مثار حسد الحاسدين . وسهر على خدمته حشد من كاهناته والساتير غاب عنه سيلينوس ، ذلك أن فلّاحى فريچيا كانوا قد ألقوا القبض عليه حين شاهدوه يسير بينهم مترنّحاً لشيخوخته وفعل الخمر به ، فقيّدوه بسلاسلٍ من زهور واقتادوه إلى ملكهم ميداس الذى كان أورفيوس الطراقى وإيومولپوس الأثينى من بعده قد لقّناه أسرار عقيدة باكخوس ، حتى إذا عرف ميداس أن سيلينوس صفىّ للإله وشريك له فى الأسرار احتفى به عشرة أيام وعشر ليال على التوالى . وفى اليوم الحادى عشر عندما كان « لوسيفر » نجم الصباح يهدى قطيع النجوم إلى ما وراء السماء مضى الملك إلى ليديا مُشْرقَ النفس ، وردّ سيلينوس إلى راعيه وحاميه الفتىّ .

وغمرت الإله باكخوس الفرحة لعودة مرشده سيلينوس ورأى أن يكافىء ميداس ، غير أنه أعطاه حريّة اختيار ما يشاء ، ولكن اختيار ميداس لسوء حظه كان ينطوى على ما يكمن فيه شقاؤه ، إذ قد ولىّ وجهته إلى الإله قائلاً : « هَبْنِى قدرة على أن أحوّل ما ألمسه إلى ذهب أصفر » . وإذا الإله يأسى لسوء اختيار ميداس لكنه استجاب لدعائه محقّقاً له مشيئته ، فانصرف الملك الفريچى سعيد النفس مشرق الروح وأخذ يطمئن نفسه بما وعده به باكخوس من تحويل ما يلمسه إلى ذهب . وما لبث ميداس أن ذُهل حين انتزع غصن شجرة سنديان غض فإذا هو يتحول إلى قضيب من الذهب ، ثم حمل حجراً من الأرض فإذا هو يتوهّج بلون ذهب مُنْطفىء ، ثم لمس حفنة تراب فاستحالت كتلة ذهب ، كما تحولت سنابل القمح الجافة فى يده إلى حَصَادٍ من ذهب ، كذلك استحالت التفاحة التى اقتطفها من غصنها تفاحة من ذهب تحسبها هدية من الهيسپريديس . ولم يكد يلمس أعمدة قصره حتى تحولت هى الأخرى ذهباً براقاً . وحين همَّ بغسل يديه تحوّلت قطرات الماء التى فى كفّه شؤبوبا من ذهب كفيلاً بإثارة شهوة داناى ، وتجاوز الخيال ما كان يحلم به من تحويل كل ما يلمسه ذهباً . وامتلأت نفسه فرحاً بقدراته الجديدة وجلس إلى المائدة التى حملها الخدم بأطيب ما تشتهيه النفس من طعام ، لكنه لم يكد يلمس كسرة خبز حتى وجدها قد تحولت إلى

معدن صلب ، ولم يكد يطبق أسنانه على قطعة لحم حتى وجدها تنطبق على قضيب ذهبى ، ومع رشفات النبيذ كان السائل يتحول إلى ذهب سائل بين شفتيه .

فإذا الشقاء يهصره فى هذا الثراء الطارىء وأحسّ بثقل وطأة المأساة ؛ ولم تعد له أمنية غير أن يُحْرَم تلك القدرة ، ولم يعد يكره شيئاً أكثر من كراهيته لما تمناه ، إذ غدا عاجزاً عن إشباع جوعه من الطعام وإرواء ظمئه من الشراب . وطحنه العذاب وكره الذهب أكثر مما كره الموت ، فتضرّع إلى الإله رافعاً ذراعيه قائلاً : « أسألك المغفرة يا أبانا باكخوس يا إله المعصرة ، لقد أخطأت ، وها أنذا أضرع إليك أن ترحمنى وأن تحرّرنى من هذا البلاء الذى كان بدءا بشير خير » . وتحرك الخير الكامن فى أعماق الإله ــ كما هى طبيعة الآلهة القادرين ــ حين اعترف ميداس بخطئه وردّ إليه طبيعته الأولى ، وقال له : « امض الآن فحرّر نفسك من آثار الذهب الذى تمنّيته بحماقتك ، وسر على شاطىء النهر المتدفّق [پاكتولوس] بجانب مدينة سارديس العظمى[٤] واصعد فى اتجاه مضيقه عبر مرتفعات الشطآن حتى تصل إلى المكان الذى ينبثق فيه ماؤه فى دفقات كبرى يغطيها الزبد ، فاغمس رأسك واغسل مع جسدك خطيئتك » . ومضى الملك فاغتسل عند منبع النهر ، وانتقلت القدرة على تحويل الأشياء إلى ذهب من يد ميداس إلى مياه النهر فاكتست بلون جديد ، وما تزال أرض الحقول المجاورة ذات لون ذهبى صلبة الثَّرَى لتشرّبها مياه النهر .

وزَهِد ميداس فى الثراء ، وراح إلى الغابات يتخذ منها سكنه متعبّدا للإله پان المقيم بكهوف الجبال ، غير أن حماقته ظلت تلازمه فورّطته فى بلاء جديد . ذلك أن پان قد وقف عند جبل تمولوس الشاهق الذى تشرف قمته على البحر الفسيح وينحدر سفحه من ناحية إلى سارديس العظمى وإلى هيپاپياى[٥] الرثّة الحال من ناحية أخرى ، ووقف يُزْهى بين الحوريات اليافعات بمواهبه الموسيقية ويفاخر بقدراته التى تفوق قدرات أپوللو فى عزف الصفار المصنوع من قصبات الغاب المتلاصقة بالشمع ، ورأى أن يبارى أپوللو فى مباراة غير متكافئة ، محتكماً إلى جبل تمولوس[٦] ، فجلس العجوز على سفح جبله جلسة القاضى ليقضى بين المتباريَيْن ، وأزاح الأشجار بعيداً عن أذنيه غير أوراق لشجر البلوط تكلّل شعره الأسود ، وعناقيد جوز البلوط تتدلّى فوق صدغيه الغائرين ، والتفت إلى إله القطعان قائلاً : « إن قاضيكم على أهبة الاستماع » . وعزف پان على مزماره الرعوى لحناً أثار إعجاب ميداس الذى كان قريباً من المكان . بعدها التفت تمولوس إلى فويبوس إله الشمس فتلفّتت الغابة كلها معه ، وكان أپوللو قد كلّل شعره الذهبى بإكليل أشجار غار جبل پارناسوس ، وصبغ عباءته بأرجوان مدينة صور ، وحمل فى يده قيثارته المطعّمة بالعاج الهندى وبالأحجار الكريمة ، وأمسك بيمناه ريشة العزف وانطلق يحرك أوتار قيثارته بأنامل حَذِقَة ، فانتشى تمولوس ودعا پان إلى الإقرار بهزيمة مزماره أمام قيثارة أپوللو[٧] .

وقد سلّم الجميع بحكم إله الجبل عدا ميداس الذى لم يسلّم به لمجانبته للعدالة ، مما أغضب أپوللو فأصرّ على ألا تبقى أذنا ميداس الحمقاوين على حالتهما البشرية ، فأطالهما وكساهما بشعر رمادى خشن ، ومنحهما القدرة على الحركة حيث هما من رأس الملك . وبقى جسد ميداس كله بشرياً عدا أذنيه اللتين تحولتا إلى أذنى جحش ثقيل الخطو .

وخجل ميداس لهيئة تلك الزّرية فحرص على إخفاء أذنيه بعمامة أرجوانية تلتف حول رأسه ، غير أن الحلّاق وهو يقصّ شعره الطويل كشف عن هذا السر المُخْجِل ولم يجسر على إفشائه رغم تحرّقه شوقاً لذلك . وحين ضاق بكتمان الأمر حفر حفرة فى الأرض وهمس فيها بسرّ الأذنين اللتين رآهما فى رأس سيده ثم أهال التراب على الحفرة وسوّاها من جديد بعد أن دفن فيها سرّه ، وخلّاها ومضى هادىء البال ، وسرعان ما نبتت أكمة من أشجار الغاب مكان الحفرة . ولم ينقض عام حتى كان الغاب قد نما واستطال ، وأخذ يذيع السرّ الذى خبّاه الحلاق ، وينبىء بتحوّل أذنى ميداس كلما هزّته ريح الجنوب الوادعة ، مكرّراً الكلمات نفسها التى أسرّها إليه الحلّاق .

لاوومـيـدون . هـيـزيـونـيـه

انطلق أپوللو بعد إنزاله العقاب بميداس مغادراً جبل الإله تمولوس مرتحلاً عبر الأجواء ، وبعد أن تلبّث عند مضايق هيلليه « هيلليسپونت »(8) بنت نيفيلى هبط على سهول طروادة حيث شاهد معبداً عتيقاً لجوپيتر ربّ الرعود فى پانومفايوس(9) إلى اليمين من شبه جزيرة سيجيا وإلى اليسار من شبه جزيرة رويتيا المحاطة بالمياه العميقة ، وأبصر بالملك لاوميدون إلى جوار المعبد يحاول بناء أسوار مدينته الجديدة طروادة ، وهو ما كان يتطلب ثمناً باهظاً ويحمّل الملك مشاق عصيّة ومصاعب جمّة . فتنكّر أپوللو فى زى آدمى وأخذ فى مساعدة طاغية فريچيا مستعيناً بإله البحر المتدفّق حامل الصولجان ذى الشُّعب الثلاث ورب الهُوّات التى تثير العواصف ، ووعده الملك الفريچى بقدر من الذهب لقاء معونته . ولما اكتمل بناء الأسوار حنث الملك بوعده ، فقال له رب البحار : « لن تمضى جريمتك بغير عقاب » ، ودفع البحار كلها تجاه شواطىء طروادة المتعطّشة التى أصبحت كالبحار فغطت المياه الأرض وما فيها مكتسحة بأمواجها العاتية حقول الفلاحين وبيوتهم . ولم يقنع الإله بهذه العقوبة وإنما أصرّ على انتزاع هزيونيه إبنة الملك لتقديمها قرباناً إلى وحش من وحوش البحر ، غير أن هرقل هرع إلى الأميرة هزيونيه حين شُدّت بالأغلال إلى الصخور وأنقذها ، وطالب بالجياد التى وعده بها لاوميدون مكافأة على صنيعه(10) ، ولما لم يظفر بها اعتزم قهر طروادة واختراق حصون المدينة التى انهارت متداعية للمرة الثانية . وقد رفض تيلامون الذى اشترك مع هرقل فى إنقاذ هزيونيه أن يرحل دون أن يظفر بما هو أهل له من تكريم ، فنزل له هرقل عن هزيونيه ليتزوج بها ، أما پيليوس(11) الذى كان قد مدّ يد العون إلى هرقل هو الآخر فقد كُرِّم بأن تزوج إلهة فأصبح چوپيتر بذلك حماً وجدّاً فى آن واحد ، وبذلك لم يغد الإنسان الأوحد الذى ظفر بأن يكون حفيد چوپيتر فحسب بل كان أيضاً الإنسان الأوحد الذى اتخذ من إحدى الإلهات زوجة ، وإليكم ما حدث :

پـيـليوس وثـيـتـيـس

كان پروتيوس العجوز قد أفضى إلى ثيتيس بهذه النبوءة : « قضى القدرُ عليك أن تكونى أمّاً يا إلهة البحار ، وسوف تلدين بطلاً عظيماً ما إن يبلغ مبلغ الرجال حتى ينافس أباه بطولةً ويبزُّه ، ويصبح فى أعين

البشر أعظم منه قدراً ». ولذلك حرص چوپيتر على ألا يتزوج من إلهة البحار خشية أن يأتى من صلبه من يصبح أعظم منه رغم ما كان يثور فى أعماقه من لهفة جامحة ، آذناً لحفيده پيليوس بن إياكوس أن يتزوجها ويسعد بضمّ عذراء البحار .

وكان فى هايمونيا خليج تمتد ذراعاه المنحنيتان مثل ذراعى منجل ، ولولا ضحالة مياهه ــ إذ الماء ليس غير طبقة رقيقة فوق سطح الرمال ــ لأصبح مرفأ مختاراً ، وكانت سواحله جامدة لا تتعثّر الأقدام عليها ولا تترك بها آثاراً ولا تنبت بها طحالب . وكانت ثمة غيضة من شجيرات الآس ذات ثمار مختلفة الألوان يتوسطها كهف لا يُعرف إن كان من صنع الطبيعة أم من صنع الإنسان ، وإن كان الراجح أنه من صُنع الإنسان . وكانت ثيتيس دائمة التردّد على هذا الشاطىء فتتجرّد من ثيابها وتمتطى ظهر درفيل ، وذات مرة رآها پيليوس وهى مستغرقة فى سبات عميق ، فدنا منها محاولاً فى رفق اكتساب ودّها ، لكنها صدّته فأحاطها بذراعيه محاولاً أن ينال منها قهراً ، وكان على وشك أن يحقّق ما جرؤ عليه لولا ما احتالت به الإلهة إذ غيّرت صورتها إلى طائر ثم إلى شجرة ضخمة ، فأمسك بجذع الشجرة دون أن يخفّف من قبضته عليها ، حتى إذا أحالت نفسها نَمِرة مخطّطة أمسك به الفزع ورفع يديه عنها ، وراح يصبّ قربان النبيذ فوق مياه البحر تكريماً لآلهة البحار مُتقرِّباً إليهم بأحشاء الخراف وإطلاق البخور كى تتيح له الزواج من ثيتيس ، فصعد إليه عرّاف كارپاثوس[١٢] من أعماق البحر قائلاً : « لسوف تظفر يا ابن إياكوس بالعروس التى تتمنّاها إذا أمكنك أن تغافلها وهى فى الكهف الصخرى وتشدّ وثاقها وهى غارقة فى النوم خالية البال مما يُدبَّر لها ، وعليك ألّا تنخدع بعشرات الصُّور التى تتمثّل فيها الإلهة واشْدُد قبضتك عليها حتى تعود إلى صورتها الأولى » . وغاص پروتيوس فى الماء وغطت الأمواج آخر كلماته . وكانت الشمس تمضى بمركبتها فى منحدر الأفق مقتربة من بحر هسپريا [بحر الغرب] ساعة اتجهت الحورية كعادتها إلى الكهف الصخرى تضطجع على حشيّتها المألوفة ، وانقض پيليوس على الحورية وأمسك بجسدها العُذرى بقبضتيه القويتين ، وسرعان ما بدأت فى تحويل شكلها ، غير أنها تبيّنت أن أطرافها غدت أسيرة وأن ذراعيها بقيتا مبسوطتين على جانبى جسمها ، وعندما أدركت أنه قهرها قالت له « ما من شك أنك قهرتنى بمعونة السماء » ، ثم أطلقت زفرة عميقة وعادت إلى شكلها الحقيقى ، فاحتضنها پيليوس وظفر بما تمنّاه وأنجب منها ولده أخيل العظيم .

پيليوس لدى كيّكس

وعاش پيليوس سعيداً بزوجته وولده ينعم معهما بحياة ملؤها الرفاهية والرخاء ، ولم يذق الشقاء إلّا حين قتل أخاه فوكوس وطُرد على أثر ذلك من دار أبيه[١٣] ، فالتجأ إلى بلاد تراخيس[١٤] التى كانت تحيا فى سلام تحت حكم كيكس بن لوسيفر نجم النهار الذى ورث عن أبيه تألق وجهه ، والذى كان وقتذاك يجتاز فترة الحداد على أخيه . وقد وصل ابن إياكوس إلى تراخيس منهك القوى بعد طول السفر ، ودلف إلى

المدينة فى صحبة بعض الرفاق بعد أن ترك قطعانه فى واد ظليل عند أسوار المدينة . وحين أذن له الملك بلقائه قدم له غصن زيتون وكشف له عن نفسه غير أنه لم يكشف له عما ارتكبه من جُرم وعمّا كان سبباً لنفيه ، وطلب إلى الملك أن يقبله لاجئاً فى عاصمته أو فى مملكته ، وأجابه الملك قائلاً فى رقة :

« إن بلادى تفتح ذراعيها لجميع الوافدين عليها يا پيليوس ، وتتيح لهم العيش فى هناء ولا تضمر عداء للغرباء فتلك شيمتنا ، وما عليك إلا أن تذكر لنا سبب لجوئك إلينا حتى نرحّب بك بما يليق بجلال الاسم الذى تحمله لاسيما وأنت حفيد چوپيتر ، فلا تجهد نفسك توسُّلاً ورجاءً ، فلسوف تحظى بما تطلب ، ولتعدّ كل ما تراه هنا ملك يديك ، وإننى لأتمنى أن تنعم هنا بأفضل مما نعمت به فى حياتك السابقة » ، ثم أجهش الملك بالبكاء فسأله پيليوس ورفاقه عن سرّ حزنه العميق فأجابهم قائلاً :

قد تظنّون أن الصقر الذى يحيا على افتراس ضحاياه ويثير الرعب فى قلوب الطير كان يخفق بجناحيه المريشين منذ وُجد ، وليس هذا بصحيح ، فلقد كان أولاً رجلاً غليظ القلب يدعى دايداليون توّاقا إلى الحرب مندفعاً إلى العنف ، وكنت وإياه ابنين للنجم الذى يوقظ الفجر ويغادر السماء بعد آخر نجم فيها . وبينما كنت أنا أحبّ السلام وأرعاه حبّى لزوجتى ، كان أخى يجد متعته فى إثارة الحروب وقهر الدول والملوك بشجاعته التى أصبحت تبعث الرعب فى أسراب الحمام بمدينة ثيزبى[١٥] . وقد وُلدت لدايداليون إبنة أسماها خيونى ، وكانت فريدة فى جمالها مما جعل العشاق يتزاحمون حولها منذ كانت فى الرابعة عشرة من عمرها . وذات يوم رآها مصادفة كلٌ من أپوللو وميركوريوس ، وكان أولهما عائداً من دلفى وثانيهما راجعاً من قمة جبل سيلين فوقعا فى غرامها معاً لحظة رأياها . وبينما أرجأ أپوللو الظفر بها حتى يجنّ الليل أسرع ميركوريوس ولمس وجه الفتاة بعصاه التى تصيب من تمسّه بالنعاس فراحت الفتاة فى سبات عميق واستسلمت بين ذراعى الإله القويتين ، ثم أقبل أپوللو متخفّياً فى زى امرأة عجوز أثناء الليل الذى انتثرت فى سمائه النجوم ، واستمتع بالفتاة التى سبقه ميركوريوس إلى الاستمتاع بها . ولما انقضت مدة الحمل وضعت خيونى توأمين أحدهما من الإله المجنّح القدمين وهو أوتوليكوس ، ذلك الطفل الماكر المطبوع على ضروب الخداع والمدرّب على إحالة الأسوَدَ أبيضَ والأبيضَ أسودَ مما جعله شبيهاً بأبيه فى سعة الحيلة ، وثانيهما من أپوللو وهو فيلامون ، ذلك الطفل الذى ذاعت شهرته لإجادته الغناء وبراعته فى العزف على القيثارة .

ترى ماذا أفاد خيونى أن تضع توأمين أو تكون موضع إعجاب إلهين ، أو تكون إبنة أب شجاع وحفيدة لكبير الآلهة ربّ الرّعود ، أوَلَا يجرُّ المجدُ الكوراث أحياناً ؟ فكم جرّ المجد من ويلات على كثير من البشر وكانت تلك التعسة من بينهم ، فقد دفعها الغرور يوماً إلى الزهو بجمالها وازدراء جمال ديانا ، فغضبت الربّة أشد الغضب وصاحتْ فيها : « ليأتين اليومُ الذى تُقرِّيننى فيه على أعمالى » . وأمسكت بقوسها وسدّدت سهماً إلى هذا اللسان المتطاول عليها فشقّته فأصابه العِىّ ، ولم يعد يستجيب للفتاة صوتها ولا كلماتها ، وانطلقت تحاول الحديث غير أن روحها فاضت مع دمائها ، وأحسستُ أنا بالشقاء بينا أضمّها بين ذراعى ، وأخذت أواسيها بقلب محزون ، وأبثّ أخى الحبيب الذى كان يغمر ابنته بحنانه كلمات

عزائى ، غير أن الوالد المكلوم الذى انسابت دموعه لفقد ابنته لم يكن يسمع كلماتى إلا بقدر ما تسمع صخور الشاطىء هدير الأمواج ، وقد حاول مرات أربع أن يلقى بنفسه وسط لهيب المحرقة حين رأى النار تشتعل فى جسد ابنته لولا إمساكنا به ، غير أنه ما لبث أن انفلت من أيدينا انفلاتة الثور الهائج وأخذ يعدو عَدْواً لا يقوى عليه البشر وكأنما رُزقت قدماه جناحين ، واندفع بعيداً عن جميع الطرقات المألوفة لا يدركه أحد حتى استقرت به رغبته فى الموت على قمة جبل پارناسوس وألقى بنفسه من فوق الصخر الشاهق ، فأسرع إليه فويبوس وقلبه يفيض شفقة عليه وأحاله إلى طائر يحلّق فى الأفق بجناحيه اللذين نبتا له فى لحظات ، ومنحه فويبوس منقاراً معقوفاً ومخالب مقوّسة وأسبغ عليه قوة هائلة تاركاً له شجاعته التى حقّقت له الشهرة فى الماضى . وهكذا أصبح صقراً لا ينطوى اليوم صدره على قطرة من الشفقة يسوم صنوف الطير جميعاً سوء العذاب ويملأ نفوس الآخرين شقاء » .

وبينما كان ابن لوسيفر يقص هذه القصة الغريبة ، كان آنيتور ابن بلدة فوكيس راعى قطعان پيليوس يحثّ الخطا لاهثاً حتى إذا أقبل صاح : « أيا پيليوس ، إننى أحمل إليك أنباء كارثة فادحة » ، فطلب منه پيليوس أن يقصّ عليه خبرها وقد امتلأت نفس ملك تراخيس ترقّباً وارتسمت على وجهه سيماء الخوف بينما أخذ الراعى يسرد القصة قائلاً :

« عندما توسّطت الشمس كبد السماء فى منتصف طريقها المرسوم وقد بقى لها قدرُ ما قطعت ، سُقتُ قطيعك المنهك صوب الشاطىء المنحدر حيث خرّت بعض الثيران مستلقية على جنوبها تعباً وإعياء فوق الرمال الصفراء وعيونها متعلقة بصفحة مياه المحيط ، وأخذ البعض الآخر يتجوّل هنا وهناك أو يسبح فى الماء طافياً فوقه أحياناً وغائصاً فيه لا يظهر منه غير العنق أحياناً أخرى . وقريب من الشاطىء يطلّ معبدٌ من الخشب الغُفْل ، ليس مزوّقاً بزخارف ذهبية ولا مطعّماً بألواح رخامية منقوشة ، وتظلّله أغصان أشجار عتيقة ، ويسكنه نيريوس وبناته ، وقد أخبرنى ملّاح كان يجفّف شباكه عند الشاطىء أنهم أرباب هذا البحر . وعلى مقربة من المعبد مستنقع راكد تخلّفت مياهه من مياه البحر ، وكانت هذه الأرض الرَّخوة تغص بأشجار الصفصاف وينبعث منها أصداء لصخب عنيف يثير الهلع فى أرجاء المنطقة . وإذا وحش هائل يبرز فجأة من المستنقع فى صورة ذئب ملوّث الجسد بالوحل القذر ، قواطع فكّيه مغطاه بالدم والرغاء ، مشتعل العينين بوهج أحمر ، وكان جوعه ومع ما فى الجوع من شراسة قد أثارا فيه غضبةشديدة ، وكما لم تهدأ شراسته كذا لم يهدأ جوعه ، ولما كان ما يفترسه من ثيران لا يشبع نهمه فقد انطلق يعقر القطيع كله مجندلاً الرؤوس جميعها قاتلاً بعض الرعاة ومصيباً البعض الآخر بجراح حين حاولوا إبعاده ، واصطبغ الشاطىء والماء القريب منه بلون الدم القانى ، ثم لم تلبث مياه المستنقع كلها أن احمرّت ، كما أخذت أصداء خوار الوحش تتردد بين جنبات المستنقع ، وكان إحجامنا عن الدفاع عن أنفسنا يكلفنا الكثير ، وأصبحت المحنة ليس معها تردّد يعوّق كل ما فى طوقنا أن نفعله ، وأحسست بواجبنا فى أن نمتشق سيوفنا وأن نمضى إلى الوحش نحاصره ونضربه ضربة رجل واحد » .

وتوقّف الراعى عن الكلام ، ولم يعبأ پيليوس بخسائره من القطعان ، وقد تذكّر الجريمة التى اقترفها حين قتل أخاه ابن الحورية ، وأدرك ساعتها أن أمه الحورية هى التى تُنزل به هذه الكوارث لتجعل من ضحاياه قرباناً جنائزياً لابنها القتيل فوكوس[١٦] .

وما لبث كيكس ملك أويتا أن أمر رجاله بحمل السلاح والتأهّب للانقضاض على الوحش كما تهيأ هو نفسه ليمضى معهم ، غير أن زوجته ألكيونيه أسرعت بالدخول عليه وقد أثارتها الأحداث فأخذت تشدّ شعرها المشوش وألقت بنفسها على صدر زوجها متوسّلة إليه أن يقنع بإرسال الرجال دون أن يصحبهم ، وذرفت الدمع علّه ينقذ حياتها وحياته ولا يمضى لما عزم عليه ، فانبرى پيليوس ابن إياكوس يطمئنها قائلاً : « ليست مخاوفك إلاّ دليلاً على ما تكنّين من عطف رقيق وحبّ لزوجك أيتها الملكة . ألا فلتطرحى هذه المخاوف جانباً ، ومع عرفانى لك بجميل مساندتك لى فى هذه المحنة ، فما أريد أن يخرج أحدٌ نيابة عنى لمنازلة وحش لم يشهد البشر مثيلاً له من قبل ، وليس لى من مفزع أفزع إليه غير آلهة البحار ألتمس عونهم » .

وكان يعلو قمة القلعة برج شامخ تستهدى به السفن الضالّة ، فصعدوا فى هذا البرج وصوّبوا نظراتهم المفعمة بالأنّات إلى قطعان الثيران المجندلة على الشاطىء ، وأبصروا الوحش الذى افترسها والدماء تقطر من فمه وتلوّث فراءه . وعندئذ بسط پيليوس يديه تجاه شطآن البحر الفسيح متوسلاً إلى پساماثيه ذات الشعر اللا زوردى أن تضع حداً لغضبها وأن تمدّه بعونها ، ولم تلق ضراعاته صدى فى نفس الربة ، إلا أن ثيتسس استطاعت بصلواتها المتصلة أن تحصل لزوجها على العفو الذى كان ينشده ، ولم يكن من اليسير الحيلولة بين الذئب وبين شهوته فى الافتراس بعد أن جُن بلعْق الدماء ، وظل كذلك حتى حوّلته الربّة إلى تمثال من الرخام وهو يغرس أنيابه فى عنق بقرة ، وبقى محتفظاً بشكله الأول عدا لونه إذ أصبح فى بياض الحجر الذى بات شاهداً على أنه لم يعد ذئباً كما كان ولم يعد يثير الرعب الذى كان يثيره من قبل . على أن ربّات القدر لم يأذنّ لپيليوس الهارب بأن يستقر فى هذه البلاد إلى ما لا نهاية فبقى منفيّاً يصل تجواله كما كان حتى بلغ بلاد الماجنيتيين[١٧] حيث تطهّر من جريمة القتل على يدى أكاستوس من ثيساليا[١٨] .

كيكس وألكيونيه

وكان الملك وقتذاك نهباً للقلق الذى يؤرّقه على مصير شقيقه وتقُضّ عليه مضجعه نُذُر الشرّ التى بدت له ، فتأهب للذهاب إلى كلاروس كى يستشير الهاتفة الإلهية التى تضفى الطمأنينة على النفوس ، غير أنه عرف أن ذهابه إلى معبد دلفى مستحيل بعد أن سدّ طريقه إليها فورباس الشرّير وأتباعه الفليجيون . وما كاد كيكس يكشف لزوجته عن عزمه على الرحيل حتى داخلها خوف بعث الرِّعدة فى أوصاله ، وشحب وجهها فصار فى بياض خشب البقس ، وترقرق فى مآقيها الدمع ، وحاولت أن تتحدث مرات ثلاثاً فكانت

الدموع المنسابة على خدّيها والزفرات التى تطلقها تخنق صوتها ، وأخذت تعتب عليه فى وله وتتوسل إليه قائلة : « أى خطأ اقترفته أنا فجعلك تتنكر لى يا أعزّ أعزّائى ؟ أين هى رعايتك التى كنت تُضْفيها علىّ وحدى دون أى انسان آخر ؟ كيف تستطيع الآن أن تتخلّى عنى وترحل لأعيش وحيدة ؟ أهكذا حزمت أمرك على الذهاب بعيداً عنى ؟ وهل يمكن أن أبقى عزيزة عليك أثيرة لديك مع غيبتى عنك ؟ أراك ستخبرنى أنك راحلٌ برّاً حتى لا تثير فكرى المضطرب فيشغلنى الحزن على فراقك عن الخوف عليك . حقاً إنه ليس ثمة شىء يخيفنى مثل البحر ، ذلك المحيط الموحش المخيف ، فلقد تطيّرتُ منذ أمدٍ قريب حين رأيت ألواحاً خشبية محطمة على الشاطىء ، وكم من موتى قرأت أسماءهم على شواهد قبور خاوية[١٩] ، فلا تغرّنك تلك الثقة الزائفة تبعث الطمأنينة فى قلبك اعتماداً منك على أن حماك هو الإله أيولوس بن هيپوتيس الذى يُمْسك الرياح العاصفة ويهدّىء ثائرة البحر بإرادته ، فلو أنه أطلق العنان للريح فأتيح لها السيطرة على المحيط لما استعصى عليها شىء ولأصبحت الأرض والمياه تحت رحمتها ، ولتصارعت السحب أمامها على صفحة السماء مُرْسِلة فى تصادمها برقاً من الشّرر الملتهب ، وكلما تزايدت معرفتى بالرياح [فمعرفتى بها معرفة قوية فطالما رأيتها فى بيت أبى وأنا صبيّة] ازددت يقيناً بوجوب تحاشيها . على أنه إذا لم تنجح توسلاتى فى إثنائك عن عزمك على الرحيل يا زوجى الحبيب ، وإذا كنت ما تزال مُصرّاً عليه فخذنى إذن معك حتى نكون سوياً من ضحايا العاصفة ، ولن أخشى حينئذ من الأخطار إلا ما قد يكون من نصيبى أنا ، ولسوف نحتمل معاً كل ما يقع ونُبْحر معاً على صفحة البحار الواسعة » .



بيكاسو: كيكس وألكيونيه

وأَبِىَ زوجها ابن النجم المتألق بما ناشدته به زوجته إبنة أيولوس وبما ذرفته من دموع ، فقد كان لهيب الحب يُشْعل قلبه بمقدار ما يشعل قلبها ، غير أنه لم يتراجع عن عزمه على الرحيل كما أنه لم يشأ أن يقحم ألكيونيه فى مغامرة محفوفة بالأخطار ، فحاول فى النهاية تهدئة مخاوفها لكنه لم ينجح فى كسب رضاها ، فأضاف يقول معزّياً : « قد يكون الفراق بيننا طويل الأجل ، لكنى أقسم لك بالضوء المشعّ من أبى بأننى عائد إليك ــ بمشيئة ربّات القدر ــ قبل أن يُكْمل القمر دورتين » .

ومع هذا العهد ــ الذى قطعه على نفسه والذى بعث فى نفس زوجته الأمل فى عودته سريعة ــ أمر بإعداد سفينته التى لم تكد تراها زوجته حتى ارتجفت أطرافها من جديد واغرورقت عيناها بالدموع كأنها
٤٦٠ تعرف سلفاً ما سوف تأتى به الأيام ، وعانقت زوجها مودّعة إياه قانطة حزينة ثم انهارت مقاومتها وتهاوت ، فأخذ كيكس يتلمّس الأعذار لتأخّر إقلاعه غير أن ملاّحيه الشبان كانوا قد جلسوا فى صفين وقد أمسكوا مجاذيفهم العريضة وأخذوا يشقّون الموج بضربات رتيبة الإيقاع . ونظرت ألكيونيه بعينيها المبلّلتين بالدمع إلى زوجها الواقف على مؤخرة السفينة يردّ على تحيتها ملوّحاً بيده مودّعاً ، وما زالت تحدق بعينيها حتى مغيب السفينة واختفائها بزوجها عن ناظريها ، وظلت تتابع الأشرعة وهى ترفرف فوق الصارى الكبير حتى اختفت الأشرعة هى الأخرى ، فعادت واستلقت على فراشها الوثير مثقلة القلب بالهموم . وحينما خلت إلى نفسها أحسّت بغياب أعزّ شطر من ذاتها فانخرطت فى البكاء من جديد .

غادرت السفينة الميناء بركبها وهزّت الريح حبال الأشرعة التى نُشرت على الصّوارى تملؤها الرياح ، ونظّم الربّان إيقاع ضربات المجاذيف . ولم تكد السفينة تقطع نصف رحلتها وتنأى عن جميع الشطآن حتى
٤٨٠ بدأ البحر يشتعل بياضاً فى ظلمة الليل الساجى بقفزات أمواجه العالية الزابدة ، وتزايدت قوة رياح الشرق ، فصاح الربّان بملاّحيه : « فلتُسرعوا بخفض الأشرعة من قمة الصّارى وضمّها جميعاً » ، غير أن رياح العاصفة التى كانت تهبّ تجاهه حالت دون وصول صوته إلى البحارة كما غطّى هدير الماء على كل صوت ، ومع ذلك سارع بعض الملاّحين من تلقاء أنفسهم باجتذاب المجاذيف داخل السفينة ، وأخذ بعضٌ يدرءون عن السفينة ثورة العاصفة ، وقام آخرون بضمّ الأشرعة ، وأخذ أحدهم ينزح الماء المتسرّب إلى السفينة بقذفه فى البحر . وبينما كان هذا يجرى على غير نظام أو تدبير تزايد عنف العاصفة وتصارعت الرياح المقبلة من جميع الاتجاهات فبعثت الاضطراب فى البحر الغاضب ، وامتلأت نفس الربّان هلعاً واختلطت عليه الأمور وصار عاجزاً عن البتّ فى أمرٍ لا يُبدى ولا يعيد فقد كانت الأخطار فوق حذقه ومهارته ، وكان الرجال يصيحون ، وحبال الأشرعة تتقطّع ، والبحر كتلة ثائرة من الأمواج المتلاطمة ،
٥٠٠ والرعود تهدر فى الآفاق ، والأمواج تعلو كالجبال مشرئبة كأنما تريد بلوغ السماء وتنثر رذاذها على الغيم المتكاثف ، أحياناً يضطرب الموج حاملاً الرمال التى يثيرها من قاع المحيط ، وأحياناً يصبح أكثر سواداً من مياه نهر ستيكس ، وأحياناً أخرى ينشر فى الأجواء طبقات من الزَّبدَ الأصفر ترسل صفيراً عالياً . وكانت السفينة التراخيسية تميل يمنة ويسرة ، تعلو تارة وكأنها تطل من قمة جبل على أودية نهر أخيرون بالجحيم ،

وتغوص تارة أخرى فى جوف الأمواج متطلّعة إلى أعلى وكأنما ترقد فى إحدى بحيرات العالم السفلى . وكلما ارتطم أحد جنبيها بموجة عاتية ارتفعت قعقعة شديدة وانطلقت أنّات موجعة وكأنها قلعة تتحطم وتميد تحت ضربات المنجنيق و « مِدَكّ » أبواب القلاع المحاصرة . وكانت الأمواج المندفعة أمام غضبة الرياح الثائرة تتدفق على دروع السفينة وتعلوها كما تفعل السباع الباسلة حين تستجمع شجاعتها لتندفع نحو الأسلحة المصوّبة إليها من كل جانب . وبدأت قوائم السفينة تتزحزح عن أماكنها والعوارض الخشبية تتفكّك والقطران[٢٠] الذى يغطيها يذوب وينمحى ، فانفتحت ثغرات ينفذ من خلالها ماء البحر الرهيب ، وانفرجت كوات السحب فجأة مطلقة الأمطار ، وبدت السموات وكأنها تنقضّ جميعاً على البحر ، بينما بدا المحيط الثائر وكأنه يشرئب إلى السماء وابتلّت الأشرعة بالفيض المنهمر ، واختلطت مياه البحر بمياه السماء ، وغابت النجوم من القبة الزرقاء ، وضاعفت العاصفة من ظلمة الليل ، وإن كانت ومضات البرق تطرد الظلمة لحظات تضىء فيها المشهد كله فتتوهج المياه باحمرار لهيبها .

تدفّق الماء إلى قاع السفينة المجوّف شأنه شأن جندى يبرز وحده من بين صفوف الجند محاولاً المرّة بعد المرّة أن يتسلّق استحكامات مدينة محاصرة حتى يحقق أخيراً هدفه ، ويتمكن وحده من بين ألف رجل من الجدار الحصين مدفوعاً برغبته المضطرمة فى النصر . فقد استطاع الموج بعد أن ألقى بثقله مرات تسع على جوانب السفينة أن يرقى فى المرة العاشرة إلى ارتفاع شاهق ، وأن يندفع فى هجمة عاتية لم يرتد عنها إلاّ بعد أن استقر الماء على سطح السفينة كأنه ينقض على أسوار حصن متداعية ، وهكذا استقر جزء من البحر داخل السفينة بينما ما تزال بقيته تحاول غزوها . وكان الملاّحون أسرى رعب ممزِّق شبيه بذلك الذعر الذى يستشرى فى مدينة يحاول العدو تقويض جدرانها من الخارج بينما يجهد أهلها فى دعمها خشية تداعيها . ونسى الملاّحون خبرتهم بأمور البحر وتهاوت شجاعتهم ، وبدا الموت مقبلاً عليهم مع مقدم كل موجة تفتح ثغرة فى استحكاماتهم ، وعجز البعض عن حبس دموعه ، واستبد الذهول بأحدهم ، وأخذ ثان يحسد أولئك الذين تنتظرهم قبور مهيّأة ، والتمس ثالث عون السماء التى أخذ يمدّ يديه إليها دون أن تشهدها عيناه ، وشرد بعضٌ بفكرهم إلى آبائهم وذويهم ، وآخرون إلى بيوتهم وأولادهم وكل ما خلّفوه وراءهم ، ووقع كيكس أسير الأسى وقد أصبح فكره كله مشغولاً بألكيونيه لا تتحرك شفتاه بغير ذكر اسمها ولا تتجه رغباته إلاّ إليها ، ولكنه كان راضياً لأنها لم تصحبه ، وودّ لو قُدر له أن يتطلع ثانية إلى شطآن بلاده وأن ينطلق إلى بيته عائداً ، ولم يكن يدرى مكانه وسط الخضم المضطرب وعبر ستار السحب الداكنة التى أخفت صفحة السماء فضاعفت من ظلمة الليل المدلهم . وكسرت الريح العاصفة الضّارى وتحطّمت معه الدفّة ، وعلت موجة على سائر الأمواج كقائد مظفّر يتوسّط أسلابه ، ثم هوت هذه الموجة فى عنف وكأنها تقتلع به جبلى آثوس وبندوس من جذورهما وتُلقى بهما فى البحر الفسيح ، فغاصت السفينة إلى أعماق المحيط تحت جبروت الموج ، وغاص مع السفينة كثير من الملاحين الذين ابتلعهم البحر فلقوا حتفهم قبل أن يطفوا على السطح من جديد ، وتعلّقت قلّة بأخشاب السفينة المحطّمة . وأمسك كيّكس بيده ـــ التى طالما قبضت على صولجان الحكم ـــ قطعة من الحطام الطافى ، وأخذ يردّد عبثاً أسماء أبيه وحميه ، وكان اسم

ألكيونيه قد تردّد على شفتيه أكثر من أى اسم آخر إذ كان حديثه كله عنها وفكره مشغولاً بها . وأخذ يصلى من أجل أن تحمل الأمواج جسده إلى حيث تستطيع زوجته رؤيته ، وأن يدفن فى نهاية الأمر بيديها الرفيقتين . وانطلق يردّد اسم ألكيونيه بصوت عال وهو يطفو على سطح الماء كلما أتاحت له الأمواج القدرة على فتح فمه ، فإذا أطبق البحر عليه من كل جانب قنع بأن يتمتم باسمها ، وفجأة تدافعت على صفحة الخضم المزبد موجة سوداءُ عاتية غطّت كيُكس فغرق . وفى تلك الليلة غشّت الظلمة وجه لوسيفر نجم النهار فلم يظهر للعيون ، ودفن وجهه فى الغيم الكثيف لأنه لم يكن قد أذن له بترك السماء .

لم تعرف ألكيونيه بالكارثة ، وظلت كما كانت تحصى الليالى وهى تؤمّل عبثاً عودة زوجها إليها ، وتُعجِّل فى نسج بعض الأردية له كما كانت تُعَجِّل فى نسج أردية أخرى لها لتزدان بها عند عودته ، وأخذت تحرق البخور قرباناً لجميع الأرباب وخاصة فى معبد چونو ، وأكثرت من الاختلاف إلى هياكلها من أجل عودة رجل طواه الغيب ، وردّدت دعواتها كى يعود زوجها إليها سالما وألا يميل عنها إلى امرأة أخرى يؤثرها عليها ، وكانت هذه الضراعة الأخيرة هى الوحيدة التى استجابت لها الآلهة من بين ضراعاتها العديدة .

على أن الربة چونو عزّ عليها ألا تستطيع أن تسعفها بالاستجابة إلى ضراعاتها إذ كان زوجها قد فارق الحياة حقاً ، وودّت أن تُبعد عن هياكلها المقدسة تلكما اليدين اللتين لم تؤديا شعائر الدفن الواجبة(٢١) فالتفتت إلى إيريس قائلة : « يا أخلص من حمل رسائلى إلى البشر ، أسرعى إلى دار ربّ النوم(٢٢) الغافى ، وسليه أن يدع ألكيونيه تحلم حُلْماً يتبدّى لها معه زوجها الراحل كيُكس لتدرك حقيقة الأمر » . وصدعت إيريس لأمر الربة وارتدت رداءها ذا الألوان الألف ، وانطلقت فى مسار قوس قزح المقوّس عبر السموات الفسيحة حتى بلغت قصر الربّ الملتف بالغيم الذى أمرتها الربة بزيارته .

وعلى مقربة من بلاد السيمريين(٢٣) كان ثمة كهف عميق مندعزت فى جانب الجبل يسكنه ربّ النوم الغافى ، ولم تكن أشعة الشمس تبلغ ذلك المكان لا ساعة شروقها ولا عند توسّطها كبد السماء ولا ساعة غروبها . وكان الضباب الداكن يتصاعد من جوف الأرض مشيعاً فى الجو ظلالاً خافتة من عتمة الغسق . ولم يكن بهذا المكان ديك يختال بعُرفه ويؤذّن للفجر بصياحه ، ولا كلاب لَهِفة تقطع الصمت ، ولا إوزّ يعلو صياحه على نباح الكلاب ، كما لم تكن هناك وحوش مفترسة ولا قطعان سوائم ، ولم يكن يُسمع به حفيف أغصان شجر ولا صوت شجار بين بشر . كان الصمت الأبكم يخيّم على المكان ، وكان نهر « ليثى » الذى يُغْرِى بالنعاس خلال انسيابه يهمس بخريره الخافت فوق الحصى الراقد فى أعماق الكهف الصخرى ، وكانت أزهار الخشخاش تنمو بوفرة على عتبات الكهف ، كما يتكاثر العديد من الأعشاب التى يستقطر الليل النّدى من عصاراتها عطر النعاس الرّخىّ وينثره رذاذاً على الأرض الغبراء . ولم يكن للدار باب واحد خشية أن يئزّ فيه مِفْصل دوّار ، كما لم يكن هناك حارس يقف على عتبته ، وكان يتوسط الكهف فراش كبير من خشب الأبنوس داكن اللون تغطيه أستار سوداء فى نعومة الريش ، وكان الإله نفسه يرقد فى هذا الفراش وقد استرخت أعضاؤه فى كلل ، ترقد حوله ربات الأحلام الخيالية وقد تقمّصن أشكالاً متباينة ،

فصورة لسنابل القمح وقت الحصاد أو للأوراق على أشجار الغابة وثالثة لرمال الشاطىء المترامى الأطراف .

ودخلت الرسولة إيريس العذراء وجعلت تزيح بيديها أطياف الأحلام التى اعترضت طريقها ، فإذا أرديتها المتألقة تُشيع وميض ألقٍ فى مسكن الإله ، وبذل ربّ النوم جهداً فائقاً كى يفتح عينيه الكليلتين المُثقلتين بالنعاس ، وحاول النهوض فمال رأسه حتى لامست ذقنُه صدرَه ثم استلقى على ظهره المرة تلو المرة ، إلى أن نهض متكئاً على مرفقه وتعرّف على إيريس فسألها عن السرّ وراء زيارتها ، فأجابته قائلة : « يا ربّ النوم ، يا من يجد فيك كل كائن راحته بعد العناء ، يا أكثر الآلهة نشدانا للسلام ، يا من إليك تهدئة الخواطر وإزاحة الهموم وشفاء أعضاء الجسد المرهقة بالأعمال الثقيلة فتنتعش بعد طول الجهد والكلل ، مُرْ أحلامك القديرة على محاكاة مظاهر الأشياء الحقيقية وبعثها ثانية كما جرت فى الواقع ، مُرْها أن تتقمّص مظهر الملك كيكس وأن تشدَّ الرحال إلى ألكيونيه بمدينة تراخيس التى أذاع شهرتها هرقل ، وأن تُريها صورة الملك غريقاً . ذلك ما أمرت به چونو » . ورحلت إيريس بعد هذا كى تفلت من تأثير ربّ النوم القهّار ، فلقد أحست بالنعاس يتسلّل إلى عينيها ، وعادت أدراجها سالكة نفس المسار المقوّس الذى عبرته منذ لحظات .

وأيقظ ربّ النوم ولده مورفيوس أكثر أبنائه الألف الأقوياء قدرة على محاكاة الآدميين ، ولم يكن أحد يفوقه مهارة فى تقليد طريقة المشى وتعابير الصوت ورنّاته ، وكان إلى هذا يستخدم الكلمات نفسها ويرتدى الثياب نفسها التى تميز كل شخص عن غيره . وعلى حين تخصّص مورفيوس فى محاكاة البشر ، درج ابن ثان تدعوه الآلهة إيكيلوس ويسميه البشر فوبيتور على تقمّص صورة حيوان أو طير أو أفعى طويلة ، كما تميز ابن ثالث هو فانتازوس بلون آخر من المهارة يبدو فيه فى مظهر مخادع فيمثل الأرض أو الصخر أو الماء أو الشجر أو أى شىء من الأشياء الجامدة التى لا روح لها . وكان ثلاثتهم يقومون بتمثيل الأحلام التى تظهر ليلاً للملوك والقادة ، فى حين كان يهيم غيرهم على وجوههم يمثلون الأحلام للعامة من الناس . وقد بزّ الإله العجوز أبناءه كلهم فى مواهبهم فى تمثيل الأحلام غير مورفيوس الذى اصطفاه من بين أشقائه جميعاً رسولاً لينفذ ما طلبته إيريس إبنة ثاوماس . ولم يكد يعهد إليه بهذه المهمة حتى غاص رأسه المائل على صدره فى ثنايا فراشه واستغرق ثانية فى نومه العميق .

وطار مورفيوس مخترقاً الظلمة الحالكة دون أن يُسمع لجناحيه حفيف ، وسرعان ما بلغ مدينة هايمونيا حيث ألقى جناحيه جانباً ، وغيّر من هيئته ليبدو فى صورة كيكس . وعندما اتخذ صورة الملك وأصبح شبيهاً بجثة زرقاء عارية من الثياب اقترب من فراش زوجته البائسة ألكيونيه بلحية مندّاة وشعر رأس مبتل تتساقط منه قطرات ماء ثقيلة ، ومال على الفراش دامع العينين قائلاً : « أى زوجتى التعسة المسكينة ، أتستطيعين التعرّفَ على زوجك كيكس أم أن الموت قد غيّر هيئتى ؟ تطلّعى إلىّ ولسوف تعرفيننى حقاً ، وإن رأيت شبحاً لزوجك لا صورته الحقيقية . أى ألكيونيه ، لقد ذهبت صلواتك أدراج الرياح لأننى فارقت

الحياة ، فلا تدعى الأحلام الزائفة تداعب فكرك بعودتى . لقد هبّت ريح جنوبية مثقلة بالغيوم لحقت بسفينتنا فى بحر إيجه ، وأنزلت بها ضربات قاصمة حتى هشّمتها ، وجَمُدَ الموت بشفتيّ اللتين كانتا تردّدان اسمك . وما يحمل لك هذا النبأ رسولٌ لا يوثق به ولا شائعات مُبْهمة ولا أَلْسُن تتناقلها ، وإنما أنا الذى جئت بنفسى أحمله لك بعد أن ذقت الموت غرقاً كى أخبرك بقَدَرى ومصيرى ، فلتنهضى الآن من فراشك ولتذرفى الدمع من أجلى ، واتّشحى بثياب الحداد ، ولا تدعينى أذهب إلى غياهب تارتاروس غير مأسوف علىّ ولا مشيّع بالبكاء » .

وبدا مورفيوس خلال حديثه مع ألكيونيه وكأنما يبكى حقاً ، وقد تعرّفت على صوت زوجها فى صوته ورأت إيماءاته فى إيماءاته ، وغالبها الأنين والبكاء فى نومها ، ورفعت ذراعيها محاولة تحسّس جسده فلم تقبض يداها على غير خواء ، فصاحت به قائلة : « انتظر ! لِمَ تتعجّل الرحيل ورحلتنا واحدة ؟ » .

ونهضت الملكة من سباتها وقد أيقظتها رؤيا زوجها وصوت صرخاتها ، وتلفّتت حواليها بادىء ذى بدء لتستوثق مما إذا كان الرجل الذى ظهر لها منذ لحظات مازال ماثلاً أمامها ، فقد جاء خدمها الذين استيقظوا على صراخها بمصباح ، فلما لم تقع عيناها على رجلها أخذت تلطم خدّيها بيديها وتشقّ ثوبها وتضرب صدرها ، وصاحت تقول لوصيفتها التى هرولت إليها تستطلع سبب حزنها : « لقد قُضِى على ألكيونيه ولم تعد شيئاً مذكوراً فقد أسلمت الروح مع زوجها كيّكس . فلا تحاولى التسرية عنى بكلمات عزاء ، لقد مات زوجى إثر تحطّم سفينته ، وقد رأيته وعرفته ومددت إليه يدى حين أوشك على فراقى وحاولت استبقاءه . ولم يكن من وقع عليه بصرى غير شبح ، ومع هذا فقد كان هو زوجى ، ولئن شئت أن تعرفى كل شىء فإن قسمات وجهه لم تكن هى التى عهدتها فيما مضى ، إذ لم تكن تشعّ بتألقها السابق . لقد رأيته واقفاً فى هذا المكان عرياناً شاحب الوجه مبتل الشعر بالماء . يا للبائس المسكين ! وياله من مشهد مثير للرثاء » ، ثم عادت فتطلعت حولها لترى إن كان قد خلّف وراءه أثراً ، واستطردت تناجى زوجها قائلة : « كان هذا هو سبب فزعى وخوفى حين رجوتك ألا تتركنى وألا تمضى إلى حيث تعصف بك الرياح ، فلئن كنت ماضياً إلى حتفك فما كان أجدرك بأن تصطحبنى ، وكم كان أولى بى أن أمضى معك ، ولو مضيت معك ما قضيت شطراً من حياتى بعيدة عنك ، وما كنا لنموت مفترقين ، فها أنذا الآن أموت رغم أنى لم أصحبك ، وعلى الرغم من أنك خلّفتنى هنا وحيدة ، وعلى الرغم من أنى لم أشاركك العاصفة التى عصفت بك ، فها أنذا تأتى علىّ العاصفة ، ومع أن البحر لم يَطْوِنى فى جوفه فقد غدوت وكأن البحر طوانى فى أعماقه ، ولو أننى حاولت أن أعيش بعد اليوم أو جهدت فى التغلب على أحزانى لأصبح قلبى أشد ضراوة من البحر . لا ، لن أحاول مقاومة أحزانى ، كما لن أحاول هجرك يا زوجى المسكين ، ولسوف ألحق بك . ومع أن رماد جسدينا لن يجتمع فى وعاء واحد فإن نقشاً واحداً سوف يضم اسمينا على شاهد قبر مشترك . وهكذا إذا كان قد قُدِّر لعظامنا ألا تتلامس فلسوف يتعانق اسمانا إلى الأبد » . ثم حال الحزن بينها وبين أن تزيد ، فقد أصبحت الزفرات تحبس كلماتها كما احتجزت الأنات عبارتها الصادرة من أعماق فؤادها المكلوم .

وأقبل الصباح فغادرت ألكيونيه دارها وقصدت قصد شاطىء البحر حيث ودّعت كيكس وهو يُقْلع بسفينته ، وأخذت تغدو وتروح عنده وهى تهمهم قائلة : « هنا كان يشدّ الحبال ، وعلى حافة هذا الشاطىء قبّلنى قبلة الوداع » . وبينما كانت تستعيد أقواله وأفعاله وتتذكرها حيث وقعت صوّبت طرفها صوب البحر فرأت شيئاً بعيداً وسط الماء أشبه بالجثة لم تستطع أن تتبين كنهه أولاً ، غير أن الأمواج كانت تحمله نحوها شيئاً فشيئاً حتى استبان لها على الرغم من بُعده أنه جثة إنسان . وتحرّكت مشاعر ألكيونيه لمرأى هذا الرجل الغريق ، ومع أنها لم تكن تعرف من يكون إلّا أنها أخذت تخاطبه وتندب إنساناً تجهل حقيقته قائلة : « واسفاه على مصيرك أيها البائس كائناً من تكون ، وعلى زوجتك إن كنت قد اتخذت لك زوجة » . ولم تلبث الأمواج أن دنت بالجسد من الشاطىء وأخذت ألكيونيه تحدّق فيه ونفسها تتهاوى شيئاً فشيئاً فإذا هى فى النهاية تتبيّنه وتعرف أنه زوجها ! فصاحت صارخة : « إنه هو » ، وسرعان ما شقّت ثيابها ولطمت خدّيها وشدّت شعرها ومضت تعول وهى تقول باسطة ذراعيها المرتجفتين ناحية جسد كيُكس : « أى زوجى العزيز ، أعَلى هذه الصورة تعود إلىّ أيها المسكين ! » .

وكان على الشاطىء حاجز صنعته يد الإنسان عند حافة الماء ليقاوم ضربات الأمواج الثائرة فيكسر حدّتها ويهوّن من قسوة لطماتها فقفزت إليه ألكيونيه ، ثم ما لبثت أن طارت إليه فقد نبت لها جناحان فى ظهرها أخذت تضرب بهما الهواء فى رقة وكادت تلمس الماء وهى محلّقة على شكل يدعو للرثاء ، وأخذ فمها الذى اتخذ شكل منقار ضامر يطلق فى أثناء طيرانها صرخات يغلب عليها الشّجن وأنّات شكاة وتوجّع .

وحينما بلغت ألكيونيه الجثة الساكنة الخرساء التى لم تعد تحمل قطرة دم ضمّت بجناحيها الوليدين أطرافها العزيزة ، وحاولت عبثاً لثم الشفتين الباردتين بمنقارها الصلب . وقد تساءل الناس عمّا إذا كان كيُكس قد أحسّ بها أم أن اضطراب البحر هو الذى رفع رأسه ، ولكن الذى لا شك فيه أنه أحس بوجودها ، فقد رحمتهما الآلهة فأحالتهما طائرين[٢٤] ظل الحب يربطهما معاً حتى بعد أن آل بهما الحال إلى هذا المآل . وهكذا بقيا وفيّين على عهد زواجهما حتى بعد أن نبتت لهما أجنحة الطيور ، وظلا يتطارحان الغرام وينجبان الأبناء . ومنذ ذلك الوقت لا تزال ألكيونيه فى عشّها تحتضن بيضها ناشرة عليه جناحيها طوال سبعة أيام فى فصل الشتاء . وفى هذه الفترة تسكن الأمواج وتهدأ ، ويُحكم أيولوس سيطرته على الرياح فيمنعها من الانطلاق ، متيحاً لأحفاده الاستمتاع ببحر هادىء .

أيساكوس

وفيما كان هذان الطائران منطلقين جنباً إلى جنب فوق صفحة المحيط الفسيح إذا شيخ كان يرقبهما يُشيد بالحب الباقى الخالد الذى يجمع بينهما وإذا آخر كان يقف على مقربة منه يشير إلى طائر غطاس ذى عنق طويل ويقول : « أترى إلى هذا الطائر الذى يرفّ على سطح الماء بساقين دقيقتين قد امتدّتا خلفه ، إنه

هو أيضاً من نسل الملوك ، فإذا استطعت تتبّع نسبه خطوة فخطوة فستجد أنه ينتهى إلى أيلوس الذى أنجب أساراكوس ، ثم جانيميديس الذى اختطفه چوپيتر إلى السماء ، ثم لاووميدون وپريام الشيخ الذى قُدِّر له أن يشهد الأيام الأخيرة لطروادة . لقد كان ذلك الطائر شقيقاً لهكتور ، ولو لم يكن قد لقى مصيراً غريباً فى شبابه الباكر لذاعت لاسمه شهرة لا تقل عن شهرة اسم هكتور نفسه . غير أن هكتور هو ابن هيكوبا إبنة ديماس ، وإن كان يقال إن أيساكوس ــ وهو اسم هذا الطائر ــ كان ابنا لألكسيروى إبنة جرانيكوس ذى القرنين ، وضعته أمه سراً فى غابات إيدا . وكان يكره حياة المدن ويقنع بحياة الريف البسيطة معتكفاً فى حمى التلال بعيداً عن أبهة البلاط ، ولم يكن يتردد على مجتمعات إلْيوم [طروادة] إلاّ لماما ، ومع ذلك لم يكن فؤاده فظّا عصيّا على الهوى ، بل إنه كثيراً ما طارد الحورية هيسپرييه إبنة كبرينيه[٢٥] خلال الغابات محاولاً الإمساك بها ، حتى رآها يوماً جالسة على ضفاف نهر أبيها كبرينيه تجفّف شعرها المنسدل على كتفيها تحت أشعة الشمس . وما إن لمحته الحورية حتى فرّت كما تفرّ ظبية مذعورة أمام ذئب أغبر ، أو كما تطير بطة أمام صقر طاردها بعيداً عن بِرْكتها . وقد أسرع الأمير الطروادى عَدْوا بقدمين زادهما الهوى المشبوب خفة محاولاً اللحاق بفتاة ضاعف الخوف من سرعة عقبيها ، وإذا حيّة كانت مستكنّة فى العشب تبرز فجأة فتلدغ قدم الحورية وهى تعدو ، ونضحت أنيابها سمّاً سرى فى جسدها فانقطعت عن العَدْو لتوّها وانقطعت معه حياتها أيضاً ، وضم العاشق جسدها الذاوى فى جنون وأخذ يصيح : « ما أشد تعاستى ، إننى أنا الذى طاردتك وما كنت أتوقع هذا الذى سيحدث يا فتاتى المسكينة . لقد شاركت مع الحيّة فى القضاء على حياتك ، وإن كانت الحيّة قد لدغتك فإنى أنا الذى أتحت لها هذه الفرصة ، على أنى أكثر منها جُرْماً . فليكن موتى عزاء لك عن فراقك الحياة » ، وما لبث أن ألقى بنفسه من فوق صخرة قوّضت الأمواج المزمجرة قاعدتها ، غير أن ثيتيس أخذتها به الشفقة فهوّنت عليه الصدمة وتلقّته على صدرها فى رفق وغطّته وهو يسبح فى مياه البحر بدثار من الريش فحرمته نعمة الموت الذى تمنّاه لنفسه . وتملّك العاشقَ غضبٌ لما رآه من إرغامه على حياة يأباها ، ولحرمان روحه من التحرر من محبسها التعس كما تاقت أن تفعل ، وما إن اكتسب جناحيه الجديدين حتى حلّق بهما فى الأجواء على ارتفاع خفيض ، ثم ألقى بنفسه ثانية على صفحة البحر غير أن ريشه خفّف من حدّة سقطته ، فاندفع إلى أعماق اليم وقد تملّكه غضب جامح محاولاً دون كلل أن يجد وسيلة يقضى بها نحبه . ولقد أصاب العشق جسده بالنحول فظل محتفظاً بساقيه الطويلتين وعنقه الممتد الذى يباعد ما بين رأسه وجسده ، وولع بمياه البحر حتى عُرف باسم « الغطّاس » إشارة إلى إيغاله فى أعماقها[٢٦] .

التعقيبات

(١) انظر الكتاب العاشر .

(٢) اشتهرت هؤلاء النسوة بحمل ثيرسوس من نوع مختلف عن ذلك الذى ينتهى ساقه بثمرة صنوبر ، وهو المسمى ثيرسو لوخوس ، أى الثيرسوس على شكل الحربة وينتهى ساقه بحد سهم ، وهو الثيرسوس المقصود هنا .

(٣) المدمّة أداة ذات أسنان لجمع العشب أو لتقليب التربة وتسويتها .

(٤) عاصمة مملكة ليديا بآسيا الصغرى اشتهرت بمقاومتها لحصار أعدائها من كل الأجناس .

(٥) اسم مدينة أقل أهمية من سارديس فى ليديا على الطريق بين سارديس وإفسوس .

(٦) قد يكون هذا هو المثال الوحيد فى الشعر اللاتينى لتجسيد الجبال ، فى حين كانت الأنهار كلها تخاطب كأنها أشخاص إلهية .

(٧) قد يكون هذا الوصف لأپوللو ترجمة حرفية لتمثال أپوللو حامل القيثارة المحفوظ بمتحف الفاتيكان .

(٨) الهيلسپونت وسط الدردنيل حيث سقطت هيلليه إبنة أثاماس ونيفيلى وهى تحاول الهروب برفقة شقيقها فريكسوس على ظهر كبش ذى فروة ذهبية خوفاً من إينو زوجة أبيها .

(٩) المعنى الحرفى لكلمة پانومفايوس هو المكان الذى تنبثق منه رسالة الهاتف الإلهى .

(١٠) هذه إشارة إلى إريخثونيوس بن داردانوس وكان يملك حسب قول هوميروس فى الكتاب العشرين من الإلياذة ثلاثة آلاف فرس خارقة للعادة ، وجاء بورياس إله ريح الشمال على شكل فحل الجياد فأنجب منهن اثنى عشر مهرة خالدة كانت تستطيع العدو فوق سنابل القمح دون أن تنثنى أعوادها ، كما كانت تستطيع الركض فوق زبد الأمواج ، وقد طالب هرقل بها ثمناً لتحريره هيزيونيه من الوحش البحرى ، ولكن لاوميدون حاول خداعه بإعطائه جياداً عادية فعاد هرقل إلى طروادة وقتل لاوميدون وكل أبنائه واختطف هيزيونيه أسيرة له .

(١١) كان پيليوس بن أياكوس وشقيق تيلامون قد تزوج من ثيتيس وأنجب منها أخيل .

(١٢) اسم جزيرة بين رودس وكريت اسمها الآن اسكارپانتو ، وقد أطلق اسمها على المياه المجاورة لها ، إذ يدعى البحر بين الجزيرتين بالبحر الكارپاتى .

(١٣) انظر الكتاب السابع .

(١٤) تراخيس مدينة على حدود دوريس ولوكريس عند سفح جبل أويتا . وترجع شهرة هذه المدينة إلى الدور الذى لعبته فى أسطورة هرقل ، وقد سميت مأساة « نساء تراخيس » لسوفوكليس التى تقص موت هرقل بهذا الاسم لأن الكوروس فيها مكون من نساء تراخيس ، كما تدور أحداث المأساة فى قصر كيكس ملك تراخيس .

(١٥) اسم مدينة فى بويوتيا سميت باسم الحورية ثيزبى ، غير أنه لا يعرف شيء عن اقتران المدينة بالحمام ، إلا أن هوميروس لقبها فى الكتاب الثانى من الإلياذة بأنها پوليتريرون أى العامرة بالحمام .

(١٦) الحورية پساماثيه ابنة نيريوس هى أم فوكوس .

(١٧) هم أهل ماجنيزيا ، وهو اسم أطلق على ثلاثة أقاليم أولها ــ وهو المقصود هنا فى ثيساليا ــ هو المنطقة الساحلية جنوب مصب نهر پينيوس ، وثانيها مدينة فى كاريا على ضفاف نهر المياندر ، وثالثها فى ليديا على سفح جبل سپيلوم حيث تحولت نيوبى إلى صخرة .

(١٨) ذكر أوڤيد أكاستوس بن پيلياس ملك يولكوس بين الفرسان الذين اشتركوا فى حملة الصيد بكاليدون [انظر الكتاب الثامن] .

(١٩) اكتشفت بالفعل بعض النصب الجنائزية فى جبانات قديمة بأثينا مخصصة لضحايا البحر ، وأغلبها فى جبانة كيراميكوس ، أى حى الفخارين .

(٢٠) الشمع فى الأصل .

(٢١) المقصود هنا أن يدى ألكيونيه مدنستان من حيث لا تدرى ، لأنها لم تؤد شعائر الدفن الواجبة على الأرملة الوفية المسئولة عن إقامة الطقوس الجنائزية لزوجها المتوفى .

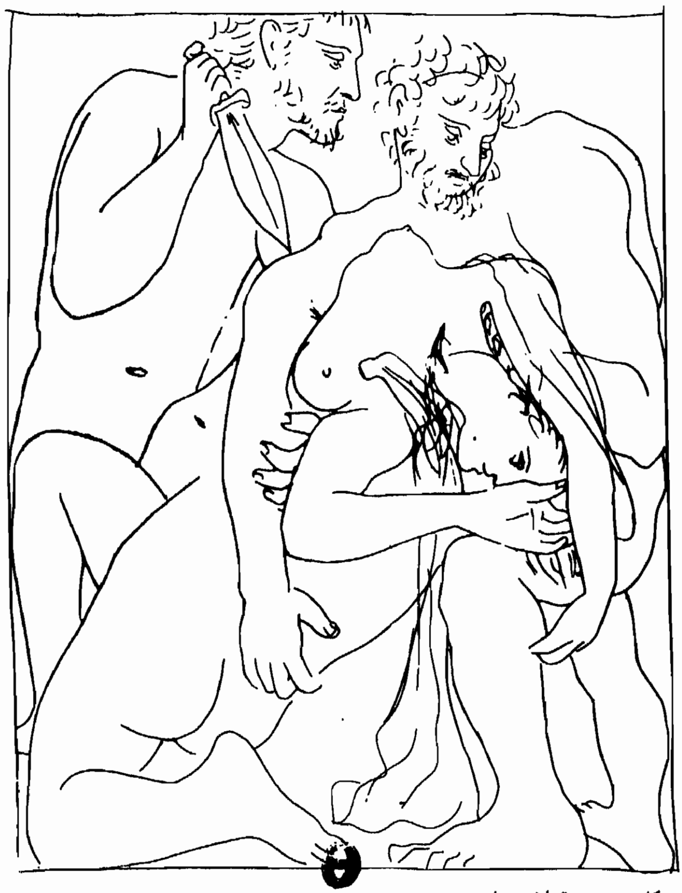
(٢٢) هو الإله سومنوس عند الرومان وهيپنوس عند الإغريق .

(٢٣) بلاد السيميريين هى بلاد خرافية على حدود العالم المعروف وقتذاك ، وقد ذكر بعض القدماء أنها فى أقصى الغرب ، وذكر البعض الآخر أنها فى شمال البحر الأسود .

(٢٤) هو الطائر المعروف باسم القاوند أو الألسهيون ، من الطيور البحرية الأسطورية ويشبه طائر النورس .

(٢٥) كبرينيه اسم مشترك لمدينة ولنهر مجاورين لطروادة .

(٢٦) اسم الطير باللاتينية هو « ميرجوس » ويعنى الغطّاس كما هو معروف الآن فى اللغات الأوروبية ، ويميل العرب إلى تسميته بالغمّاس .



بيكاسو: تضحية إيفيجينيا

الكتاب الثانى عشر

الإغريق فى أوليس . ربّة الشهرة

لم ينته إلى علم پريام أن ابنه إيساكوس قد تحوّل إلى طائر يحلّق بجناحين فى الأجواء ، فراح يبكى لفراقه ، وأقام هكتور وأخوته لشقيقهم ضريحاً خاوياً عليه اسمه وليس فيه رفاته وقدّموا عنه القرابين ، ولم

يشهد الحفل الجنائزى أخوهم باريس الذى عاد إلى الوطن بعد غيبة مصطحباً زوجته وكان قد اختطفها وأثار اختطافها حرباً طويلة الأمد ، إذ أبحرت ألف سفينة فى إثرهما حاملة أشجع أبطال اليونان يتعجّلون الانتقام لولا أن العواصف العاتية سادت البحار فحالت بين السفن وبين الإبحار فى بويوتيا عند أوليس حيث تعجّ المياه بالأسماك .

وأخذ اليونانيون يعدّون قرباناً لكبير الآلهة وفقاً للعُرف المتّبع ، وحين توهّجت النيران فى المذبح العتيق زحفت أفعى ذات حرافش داكنة على شجرة دُلب قريبة من المكان الذى يُعدّ فيه القربان ودنت من عُشّ يضم ثمانية من فراخ الطير فى قمة الشجرة[1] التهمتها جميعاً مع أمها التى جهدت أن تَذُودَ عن صغارها المنكوبة . وبُهتَ الجميع حين وقف العرّاف كالخاس ابن ثيستور ليطالعهم بهذه النبؤة قائلاً : « أبشر يا شعب اليونان فسيحالفنا النصر ، وسوف تسقط طروادة لكن بعد عناء طويل » ، فهذه الطيور التسعة تعنى تسع سنين من الحرب المتصلة ، وما لبثت الأفعى أن تحوّلت وهى تلتفّ حول أغصان الشجرة الخضراء إلى تمثال حجرى على صورة الأفعى المتسلّقة .

ولم يقصر الإله نيريوس عن إثارة الزوابع فى بحار أيونيا ليعوق مسيرة الحملة ، وذهب البعض فى تفسير ذلك إلى حرص نبتون على سلامة طروادة بعد أن شارك فى تشييد أسوارها . غير أن كالخاس بن ثيستور لم ير هذه الرأى وطالع الجميع بما يرى ، وأنه لا معدى عن إباحة دم عذراء ليَسْكُنَ غضبُ الإلهة العذراء ، فما لبث الناس أن رأوا أن مصلحة الجماعة فوق المصلحة الخاصة . وغاب الحنان الأبوى لأجاممنون حين واجه واجبه ملكاً ، فخلّى بين ابنته إيفيجينيا وبين الكهنة يريقون دمها أمام المذبح وهم يبكون لسفك دمها الزكىّ تضحية وقرباناً للإلهة الغضبى التى سعدت بما كان ، فإذا هى ترسل سحابة غشّت عيون الجمع المحتشد هبطت منها ظبية حلت مكان الفتاة الموكينيّة فى موقعها . وسكن غضب ديانا بهذا القربان الذى ارتضته ، كما سكن غضب البحار فدفعت الريح السفن الألف حتى بلغت سواحل فريجيا بعد مخاطر جمّة[2] .

واتخذت ربّة « الشائعات » مكاناً فى قلب الكون بين الأرض والسماء والبحر . فمن هذا المكان الذى تلتقى فيه ممالك العالم الثلاث تستطيع أن ترقب كل ما يجرى مهما نأى وتسمع كل صوت يخفق فيه ، وأقامت بيتها فوق ربوة عالية خلّته مفتوحاً ليل نهار بعد أن زوّدته بألف منفذ ، وبمداخل لا حصر لها دون أبواب تعترض عتباتها . وكانت جدران البيت من النحاس الرنّان يعكس الأصوات فيردّد صداها ثانية معيداً الكلمات نفسها على الأسماع . ولم ينعم البيت بالهدوء لحظة ، ولم يسد الصمت ركناً من أركانه ، ومع ذلك لم تعل فيه صرخات بل همسات كوسوسة الأمواج التى تُسمع من بعيد ، أو بقايا أصداء رعود أطلقها جوبيتر تدفعها السحب الداكنة . وملأت أركان البيت الشائعات التى اختلط فيها الصدق بالزيف ، تجول بين الأروقة والردهات وكأنها جماعات من أطياف يصبّ بعضها الأقاصيص فى الآذان اللاهية ، ويحمل بعضها الآخر قصصه بعيداً ، وكذا الشائعات تنمو بما يضيفه كل قاص .

وفى هذا البيت كانت تعيش ربّة « السذاجة » التى تصدّق كل شىء ، وربّة « الخطأ الجامح » وربّة « الفرح الطائش » وربّة « المخاوف الجزعة » ، وربّة « الفتنة التى تنفجر بغتة » وربّات « الوساوس » التى لا يعرف أحد مصدرها ، وكانت ربّة « الشُّهرة » نفسها ترقب كل ما يحدث فى أرجاء السماء والأرض والبحار ، وترقبُ ما يحدث فى كل أنحاء العالم .

سيجنوس

وأذاعت ربّة « الشائعات » اقتراب أسطول السفن اليونانية المتأهّبة للحرب من طروادة التى لم تكن تتوقّع هذه المفاجأة ، وسرعان ما تهيّأ الطرواديون للدفاع عن شواطئهم محاولين منع اليونانيين من الهبوط فوقها ، وقضت الأقدار أن يكون پروتيسيلاوس أول من يسقط فى المعركة بسهم هكتور(٣) ، وتدافع اليونانيون إلى المعركة التى جشّمتهم الكثير ، وقد تبيّنوا مدى شجاعة هكتور من فداحة خسائرهم ، كما تحقق الطرواديون من بطولة اليونانيين أمام بحار الدم التى انسكبت من أجساد ضحاياهم .

وغطى لون الدم المراق شاطىء سيجيون بعد مصرع آلاف الرجال على يد سيجنوس بن نپتون(٤) ، وتمزيق سهام أخيل المنحوتة من أشجار سفح جبل پيليون أجساد كتائب كاملة من الجنود . وكان أخيل قد أخذ يشقّ الصفوف بحثاً عن سيجنوس وهكتور غير أنه لم يلق هكتور إلّا فى السنة العاشرة من الحرب ، بينما أسرع فى لقاء سيجنوس الذى انطلق نحوه فى مركبته الحربية التى تقودها جياد بأعناق بيض وكأنها الجليد وهى تَعْلُكُ أعنّتها ، ولوّح بذراعيه صائحاً فيه : « ليكن عزاؤك فى موتك أيها الشاب كائناً من كنت أن حتفك سيكون على يدىّ أخيل الوافد من ثيساليا » ، وأطلق حربته التى أصابت هدفها ، غير أنها تركت أثراً هيّناً بصدر خصمه وكأنها كانت حربة مثلومة السّنان . وبينما أمسكت الدهشة بأخيل ، صرخ فيه خصمه قائلاً : « يا ابن الإلهة ، لقد سبقتنى إليك شهرتى لتعرف من أكون ، فكيف تعجب إذ لم تصبنى حربتك بجراح ؟ » [ولقد كان أخيل عندها يعجب حقاً] ، فاستطرد قائلاً : « إننى لا أحمى رأسى بهذه الخوذة ولا أستر جسدى بهذه الدرع المقوسة ، وإنما أضعها كما يفعل الإله مارس . ولو شئت لنزعت عن جسدى هذه العُدّة الواقية دون أن أصاب فى حلبة القتال بأذى ، فليس من العبث أن يكون المرء إبناً لنپتون الذى يحكم البحار كلها لا إبناً لإحدى النيرياديس » .

وفيما هو يتحدث أطلق حربة اصطدمت بسنام درع أخيل البرونزى ونفذت من طبقات تسع من جلد الثور المدبوغ إلى أن استقرت عند الطبقة العاشرة(٥) ، فأمسك بها أخيل وألقاها جانباً ، ثم قبض على حربته وسدّدها بذراعه المفتولة لكنها مع ذلك لم تمس سيجنوس بأذى ؛ وكشف سيجنوس عن صدره ومع هذا لم تصبه الحربة الثالثة . واشتعل غضب أخيل مثلما يشتعل غضب الثور الهائج فى الحلبة عندما يقتحم طريقه بقرنيه المخيفين نحو الملاءة الحمراء التى تثير جنونه إلى أن يدرك أن طعناته باتت غير مجدية ، وأمسك أخيل بحربته وبعد أن اطمأن إلى بقاء سنها مُثبّتاً فى ساقها الخشبى صاح قائلاً : « تُرى هل فقدت ذراعى

قوتها التى ذاعت شهرتها منذ قديم الزمان وأصبحت خائرة ؟ أوَ لم تكن قوية يوم تقدّمت الجميع وهدمت جدران ليرنيسوس ، وحين أغرقتُ مدينتى تنيدوس وطيبة موطن إيتيون فى دماء سكانها ، وحين صبغتُ نهر كايكوس بلون دماء الشعوب التى تحيا على ضفتيه[٦] ، وحين ذاق تيليفوس مرتين طعم حربتى . أوَ لم أقتل هنا كثيراً من الرجال تكدّست أجسادهم على شاطىء البحر ؟ ألا إنهم فى مصارعهم تلك دليل اكتمال قوة ذراعىّ التى مازلت أنعم بها حتى الآن » .

وسدّد أخيل حربته إلى صدر مينويتيس ، وهو أحد الليكيين البسطاء فانغرست فى صدره بعد أن اخترقت الدّرع المصفّح ، وسقط مينويتيس ممدّداً فوق الأرض الصلبة ، فنزع أخيل حربته من جسده وقال : « ها هى ذى إذن يمينى ، وها هى ذى حَرْبتى التى حقّقت بها الآن نصراً . فلأسدّدها إلى هذا الخصم آملاً أن أحقق النصر نفسه » .

وهاجم أخيل ثانية سيجنوس الذى لم يحاول تفادى الضربة التى لم تحد عن مرماها فاصطدمت به الحربة التى من خشب الدردار وخلّفت صوتاً مسموعاً ، ثم ما لبثت أن ارتدت كما ترتد عن جدار أو عن صخرة ، غير أن أخيل لمح دماً يطفح من مكان ارتطام الحربة فتملكته النشوة التى لم يكن لها ما يبررها ، إذ لم يكن الدم الذى رآه سوى دم مينويتيس . ودفع الغضب أخيل إلى الوثوب من مركبته الحربية الشاهقة لمبارزة خصمه بالسيف الذى استطاع أن يشق به درع سيجنوس وخوذته ، غير أن سيفه انثلم على جسد سيجنوس الذى لا يُقهر ، ولم يستطع أخيل احتمال هذا الهوان ، فلطم وجه خصمه بسيفه مرات ثلاثاً أو أربع ، وبمقبض سيفه هوى على صدغيه ، فتراجع سيجنوس إلى الوراء وأخيل يتعقبه دون أن يترك له فرصة يستردّ فيها أنفاسه ، حتى استولى الخوف على سيجنوس وانتشرت سحابة سوداء أمام عينيه وتابع خطوه إلى الخلف حتى ارتطم بصخرة كانت تعوق تقهقره ، فأمسك به أخيل ثم رفعه وضرب به الصخرة ضربة قاتلة . ووقف فوق جسده فهشّم ضلوعه بترسه وبضغطه ركبتيه على صدره ، وكتم أنفاسه بوضع خوذته على وجهه بعد ما جذب شرائطها إلى أسفل بشدة فمات سيجنوس مخنوقاً . وحين أخذ يخلع عن خصمه عدّته الحربية وجد أن العُدة خالية لا شىء فيها إذ أن إله البحر كان قد حوّل سيجنوس إلى ذلك الطائر الأبيض الذى سُمّى منذ يومها بطائر البجع [سيجنوس] .

كاينيوس

وبعد هذه المعركة نعم الجيشان بهدنة لبضعة أيام ، وأقبل يوم العيد ولا يزال ديدبانات طروادة على أسوارها بعيون متطلّعة وديدبانات الإغريق فى خنادقهم على أهبة الاستعداد ، ومضى أخيل الذى انتصر على سيجنوس ينحر بقرة ليقرّبها قرباناً للإلهة أثينا وألقى بأحشائها فوق نار المذبح فتصاعدت فى الأجواء رائحة الشواء التى ترتاح لها الآلهة . واقتطع أخيل قدراً من اللحم خصّصه للطقوس المقدسة ، ثم وزّع الأجزاء الأخرى من اللحم المشوى على الموائد يملأ بها رؤساء الجند بطونهم وهم يرشفون النبيذ مضطجعين

لينسوا همومهم ، لا تستميلهم أنغام القيثارة ولا نشيد المنشدين ولا تستهويهم ألحان المزمار من الغاب المتعدد الثقوب ، بقدر ما شدّهم الحديث الممتع طوال الليل عن البسالة والمعارك والأخطار وعن النصر الذى حققوه ، فهل بعد هذا حديث يؤثر أخيل أن يخوض فيه ؟ وهل ثمة موضوع آخر يمكن أن يناقشه الآخرون فى حضرة آخيل ؟ لذا كان أهم ما دار بينهم من حديث هو عن الضربة القاضية التى أنزلوها بسيجنوس وكانت معجزة المعجزات ، فالمعروف أن الجراح لا تنفذ إلى جسده الحصين كما أن نصل السيف ينثلم إذا مسّه . وبينا كان حفيد إياكوس وغيره من أبطال الإغريق يبدون دهشتهم وعجبهم إذا بنسطور يذهلهم بقوله : « لقد كان لكم فى سيجنوس خير مثال لمن تلقّى الحراب بصدره ساخراً دون أن تنفذ فيه نصالها ، ولقد رأيت أنا قبلُ رجلاً سُدّدت إلى جسده آلاف الطعنات فلم تنل منه ، وهو كاينيوس ساكن جبال أوثريس وصاحب المغامرات الذائعة الصيت . أما ما يذهل له المرء حقاً فهو أن يعرف أن هذا الجسد الصّلب الذى صمد للرماح وُلد جسدَ امرأةٍ » .

فأثار قوله دهشة الجميع والتمسوا من نسطور أن يروى لهم قصة هذه المعجزة العجيبة ، وقال له أخيل : « تحدث يا وريث حكمة العصور الماضية وصاحب الشخصية الفذة ومالك ناصية البلاغة الرصينة ، واسرد علينا قصتك التى نتحرق شوقاً لسماعها . فلتكشف لنا عن شخصية كاينيوس وسرّ تغيّره من امرأة إلى رجل ، وما هى تلك المعركة التى تعرّفت فيها إليه ؟ وهل حاقت به هزيمة يوماً ، وعلى يد مَنْ ؟ » . وتحدث نسطور العجوز قائلاً :

« حقاً كم أوهنت السنون العديدة من ذاكرتى ومحت من ذهنى كثرة من أحداث شبابى ، ومع ذلك فمازلت أذكر الكثير . على أن من بين جميع المخاطر التى وقعت لى سَلْماً أم حرباً تلك القصة التى سأرويها لكم لأنها ألصق الأشياء بفكرى . وإذا كانت السنون الطوال تتيح للمرء أن يقع على الكثير فلا يغيب عنكم أنى عشت قرنين من الزمان ، وها أنذا داخلٌ فى الثالث[٧] .

وُهبت كاينيس إبنة إلاتوس جمالاً طاغياً فاقت به جميع بنات ثيساليا ، مما حرّك قلوب كثير من شباب المدن المجاورة بالأمل فى الظفر بها ، فلقد كانت كاينيس من مواطنيك يا أخيل . وقد حاول پيليوس هو الآخر الزواج منها ، وقد يكون قد حاول الظفر بأمكّ يا أخيل أو لعلها وعدته بالزواج منها ، غير أن كاينيس كانت تأبى الزواج من كل من تقدّم وإذا شائعة تذيع تقول إن إله البحار انتهز فرصة انفرادها على الشاطىء يوماً واحتواها بين ذراعيه ، وما إن ذاق المتعة بين أحضانها حتى قال لها : « لك أن تتمنّى علىّ ، ولسوف أحقّق لك ما تطلبين » . فأجابته قائلة : « ما أكرهنى أن أذوق يوماً ما ذُقته الآن من مهانة ، وكم وددتُ لو صيّرتنى رجلاً ، فإن فعلتها حقّقت لى أعظم رغباتى » ، وإذا جَرْسُ كلماتها الأخيرة أشدّ عمقاً حتى ليُخال أنه جرس رجل ، وكان فى الحق جرس رجل ، فلقد حقّق إله البحر للتوّ رغبتها ، فإذا الفتاة كاينيس تصبح رجلاً سُمّى من يومها كاينيوس ، ومُنح جسداً حصيناً لا تخدشه الرماح أو تجرحه .

ومنذ ذلك اليوم وكاينيوس يحيا سعيداً بهذا العطاء الإلهى مستمتعاً بما يستمتع به الرجال ، ويهيم على وجهه على ضفاف نهر پينيوس » .

القنطورى

ولقد ذهبت أشهد زفاف هيپوداميا إلى پيريثوس بن إيكسيون الشّجاع بين من دعاهم پيريثوس من جماعات القنطورى المتوحّشين أبناء السّحاب ومن أمراء ثيساليا إلى قصره الذى أخذ يضج بالمرح . وحين أقبلت العروس تتهادى وسط وصيفاتها من السيدات الوقورات الفاتنات واللاتى تبزّهن جمالاً انطلقت أغانى الزفاف ، وانتشى پيريثوس بحظه السعيد إذ ظفر بتلك الزوجة . غير أنه قد حيل بينه وبين تلك السعادة التى كنا نرتقبها ، فقد أشعل وجه هيپوداميا النّدىّ نار الغرام فى فؤاد يوريتوس زعيم جماعة القنطورى الذى لعبت الخمر برأسه فاستسلم لشهواته المحتدمة ، وقام فقلب الموائد وأثار الفوضى فى الحفل وقبض فى شراسة على هيپوداميا . وأمسك كل قنطور بمن تروق له من الفتيات فتعالى صراخ النسوة ، وصاح ثيسيوس قائلاً : « أمسَّكَ الجنون يا يوريتوس فإذا أنت تعتدى على پيريثوس وأنا حىٌّ بعد ، فأثرتَ غضب اثنين باعتدائك على أحدهما » ، وتقدم فأنقذ العروس من بين يدى يوريتوس الذى سلبته المفاجأة القدرة على الحديث ولكنه تصدّى للبطل وسدّد له ضربات بقبضتيه القويتين أخذت تنهال على وجهه وصدره . فاستدار البطل إلى كأس عريق كان قائماً فوق المنضدة نتأت زخارفه البارزة فأخذه وطوّح به فى وجه القنطور فشجّ رأسه الذى طفح بالدماء وأسال دمه من جرحه ومن فمه معاً ، فسقط على ظهره وقوائمه ترتنح فى الهواء وتلافيف مخّه تختلط بالنبيذ المتدفّق على الأرض . عندها احتدم غضب جماعة القنطورى وقد منحتهم الخمر جرأة وهرعوا صائحين « إلى السلاح . إلى السلاح » ، واحتدم القتال فإذا الكئوس تتحوّل إلى أدوات تراشق تتطاير عبر البهو بعدما كانت وسيلة متعة .

وتقدم أميكوس بن أوفيون إلى المذبح المقدس فاقتحمه وحمل شمعداناً متعدد الأذرعة مليئاً بالشمعات المتقدة ، وشهره كما يشهر الكاهن السكين التى ينحر بها القرابين ثم هوى به على رأس اللاپيث كيلادون فحطّم عظامه وشوّه وجهه ، فقد برزت عيناه خارج محجريها وغار أنفه داخل حلقه . غير أن پيلاتيس تصدّى لأميكوس وبيده رِجْلٌ من أرْجل منضدة فقهره بضربة دفعت بذقنه داخل صدره ، وانبثق الدم من جسده وفمه ، ثم بعث به إلى عالم الموتى بضربة أخرى .

ثم رفع جرينيوس مائدة المذبح بما عليها من نيران متقدة وهو يقول : « ولِمَ لا أتخذ من هذا عُدَّة أستعين بها ؟ » ثم ألقى بها وسط جماعة اللاّپيث فأودت بحياة اثنين هما بروتياس وأوريون الذى أجمع الناس على أن أمه ميكالى كثيراً ما جعلت بعُوذاتها ورُقَاها الهلال يهوى من السماء على الرغم من استعصائه ، وعندئذ صاح به إيكزاديوس : « لو أن سلاحى فى يدى لما أفلتَّ من العقاب » وانتزع قرن وعل كان معلقاً بشجرة صنوبر وجعل منه رمحاً دفع به فى عينى جرينيوس فاقتلعهما ، والتصق شيء من لحمهما بالقرن بينما

سال سائره على لحيته وتدلى منها ممتزجاً بالدم المتخثر فوقها . والتفت رويتوس إلى شعلة من شعلات الهيكل المتقدة فأمسكها وهشّم بها رأس خاراكسوس المغطاه بشعره الأشقر ، وأشعل النار فى رأس جاجنيس التى احترقت وكأنها العشب الجاف ، وأخذ الدم فى جراحه يفهق كما يفهق الحديد المحمى حين يُسقى بالماء . لكن خاراكسوس الجريح هزّ رأسه المشتعل وانتزع عتبة الباب الحجرية وحاول أن يقذف بها خصمه إلاّ أنها هوت من بين يديه على صديقه كوميتيس الواقف إلى جواره فحطّمته . وتملّكت الفرحة رويتوس فصاح : « ليت الباقون ينتفعون بقواهم كما انتفعت بها أنت » ، وأمسك بالغصن المحترق واستأنف هجمته محطماً جمجمة خصمه بضربات عنيفة مثنى وثلاث ورباع حتى امتزجت عظام رأسه بمخه اللّزج .

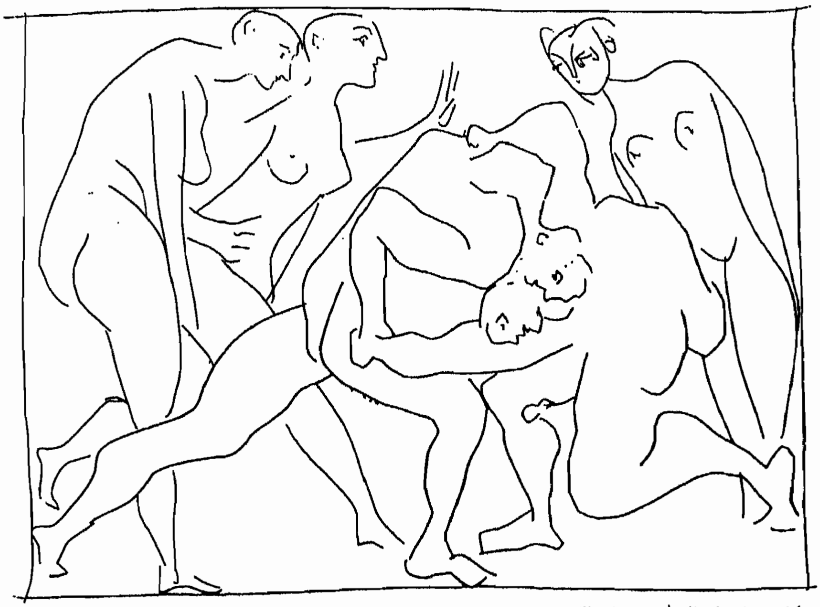
واستدار نحو إيفاجروس ودراياس وكوريثوس ذلك الشاب الغض الذى بزغت شُعيرات عِذَارِه فى وجنتيه فألقاه صريعاً ، فصاح إيفاجروس فى القنطور : « أى مجد تحققه بالانتصار على هذا الصبىّ ؟ » فأسكته رويتوس بدسّ قضيب محمى فى فمه الفاغر تأهباً لاستكمال الحديث وأنفذه من فمه إلى صدره . ثم أخذ بهذا القضيب المحمىّ يُضيّق على دراياس وما استطاع قهره على الرغم مما كانت له من انتصارات على من سبقوه ، فقد استطاع دراياس أن يغرس غصن شجرة محترق فى مكان التقاء عنقه بكتفه فأطلق رويتوس أنيناً عالياً وبذل غاية الجهد حتى انتزع الغصن من عنقه ، وأسرع بالفرار والدم يتدفق غزيراً من جرحه . ولحق به أورنيوس وليكاباس وميدون المجروح الكتف اليمنى ، ونحا نحوهم ثاوماس وپيسينور ومېرميروس تُثْقل الجراحُ خُطاه مع أنه بزَّ منافسيه عَدْواً من قبل ، ثم انفلت فى إثرهم فولوس وميلانيوس وآباس صياد الخنازير البرية وأستيلوس العرّاف الذى حاول أن يُثْنِىَ رفاقه عن القتال غير أنه لم يفلح . وصاح لينيسوس فى نيسوس مُهيباً به بعد أن رآه يحجم خوفَ أن يُصاب « ليس بمُنْجِيك أن تولىّ الأدبار ، فسيمُدُّ القدرُ فى عمرك إلى أن يودى بك سهم هرقل » . غير أن يورينوموس وليسيداس وآريوس وإمبريوس لم يفتلوا من الموت إذ أودت بحياتهم ضربات دراياس فوق وجوههم ، كما تلقىّ كرينايوس طعنة حربة بين عينيه رغم محاولته الهرب .

ووسط هذا الصخب كان النعاس قد غلب أفيداس وهو مضطجع على جلد دب اقتنصه فوق جبل أوسّا ممسكاً كأس نبيذ فى يده المتخاذلة . فما كاد يلمحه فورباس من بُعد حتى انقضّ عليه برمحه الذى أنفذه فى رقبته صائحاً به « تجرّع هذا النبيذ ولسوف تجرعه ممزوجاً بمياه نهر ستيكس » ، ولم يمهله فرماه بسلاح سنانه من حديد وساقه من خشب الزان وأنفذه فى عنقه . وكان الفتى مضطجعاً حين بغته فورباس بسلاحه فأشرف على الموت وما درى أنه مُشْرِف عليه ، وتدفّق دمه أسود فملأ كأسه وغمر فراشه .

ورأيتُ بعينى پيترايوس يحاول أن ينتزع من التربة شجرة بلوط ضخمة وقد أحاط جذعها بذراعيه وأخذ يميل بها يمنة ويسرة ليقتلعها من جذورها ، فانقض عليه پيريثوس من الخلف وأنفذ فى ظهره حربته فمزّقت ضلوعه وألصقت صدره بجذع الشجرة ، وصرع پيريثوس كلاًّ من ليكوس وكروميس ، ثم حقق بعد ذلك انتصاراً مجيداً حين أنفذ غصناً فى رأس هيلوپس مخترقاً صدغيه من الأذن اليمنى إلى اليسرى ،

ومضى يطارد ديكتيس الذى فرّ مذعوراً حتى سقط فى هوة سحيقة تحطمت ضلوعه على أسنان صخورها المدببة .

وقد حاول أفاريوس ــ وكان على قرب ــ الانتقام لديكتيس فانتزع من سفح الجبل صخرة ضخمة رفعها ليهوى بها علـى خصمه ، غير أن ثيسيوس عاجله بضربة من غصن شجرة بلوط حطّمت ذراعيه ، ولم يُشْغل نفسه بعدُ بالقضاء على خصمه ، فلقد غدا عاجزاً ، وأسرع يقفز على القنطور بيينور ثم غرس ركبته فى ضلوعه وجذب شعر معرفته الغزيرة إلى الخلف بيده اليسرى ، بينما هشم باليمنى عظام وجهه بهرَاوته ذات الأُبَنْ [العُقَد] . ثم استدار يضرب بالهراوة نفسها نيديمنوس وليكوتاس الماهر فى تسديد الّرماح ، وهيپاسوس ذا اللحية المرسلة على صدره ، وريفيوس الذى يفوق الأشجار طولاً ، وثريوس صائد الدببة على سفوح جبال ثيساليا الذى كان يعود إلى بيته مصطحباً فرائسه أحياء وهى هائجة لافتراسه إياها .



پيكاسو : اعتداء القنطورى على اللاپيث

وضاق ديموليون بانتصار ثيسيوس فحاول انتزاع شجرة صنوبر ضخمة لم تستسلم له فجزّ أحد فروعها ورمى به ثيسيوس الذى ألهمته الربّة پالاس أن يتفاداه ــ أو لعل هذا ما يريدنا ثيسيوس أن نصدّقه ــ فانطلق الفرع إلى كرانتور الفاره الطول ففصل عنقه عن صدره وكتفه اليسرى ، وكان كرانتور هو حامل عُدّة أبيك الحربية يا أخيل يوم قدّمها أمنتور كبير شعب الدولويس ضماناً للسلم بعد هزيمته على يد أبيك . وإذ شاهد أبوك پيليوس مشهد كرانتور بجرحه الرهيب الذى شطره إلى نصفين صاح « لسوف أنتقم لك

يا كرانتور ، يا أعزّ جنودى إلىّ » ، وسدّد بيده التى زادها الغضب قوة حربة ذات ساق من خشب الدردار إلى القنطور ديموليون اخترقت جسده وغاصت بين ضلوعه واستقرت فى عظامه وهو يضطرب من قوة اندفاعها . ونجح القنطور فى انتزاع مقبض الحربة الخشبى دون أن يُخرج نصلها الحديدى المستقر فى رئتيه ، ومع ذلك تحرك القنطور وقد عاودته قوة جديدة وأخذ يطأ پيليوس بحوافره ، وپيليوس يتلقى الطعنات بخوذته وترسه يحمى بهما جسده ، إلى أن استطاع أن يُنفِذ خنجره فى صدر القنطور . وكان پيليوس قد صوّب قذيفتين أودتا بحياة فلجرايوس وهيليس وإيفينووس وكلانيس ، ثم ألحق بهما دوريلاس الذى كان يعتمر بقلنسوة من فراء الذئب فوق رأسه ، ويمسك بقرنى ثور مقوّسين جعل منهما حربته القاتلة التى كم تلطخت قبلُ بالدماء ، وقلتُ له ساعتها وقد ملأنى الغضب قوة : « انظر يا دوريلاس كيف لا يثبت قرناك لحربتى » . ولم ألبث أن سدّدت ضربة إلى جبهته لم يستطع تفاديها فرفع يده يحمى بها جبينه ، فنفذت الحربة مخترقة يده إلى جبهته فصرخ صرخة مدوية ، وخلّفه جرحه القاسى عاجزاً عن الحركة . وكان پيليوس قد اقترب منه فطعنه بسيفه طعنة مزّقت بطنه ، فقفز القنطور وقد تدلّت أحشاؤه على الأرض فوطئها بحوافره وأخذ يدوسها حتى تمزّقت فتهاوى خامد الجسد .

ووسط المذبحة الدائرة لم يشفع للقنطور كيلاروس جماله بلحيته الذهبية التى كادت أن تبزغ وشعره الذهبى المنسدل على الكتفين حتى منتصف خصريه . ولم يكن نصفه الأسفل الذى على شكل الفرس والسليم من العيوب أقل جمالاً من نصفه العلوى ، ولو كان فرساً كامل التكوين لكان جديراً بأن يمتطيه كاستور فخر الفرسان ، إذ كان ظهره خليقاً بأن يعلوه أقدر الفرسان كما كان صدره مفتول العضلات . وكان عنفوان الحياة المثير للإعجاب يبدو فى قسمات وجهه وفى عنقه وكتفيه ويديه وصدره إذ كان نصفه الإنسىّ جميل التكوين كالتماثيل المنحوتة التى يُبهر بها الناس ويعجبون . وكان جُلُّه أشد سواداً من حلكة الليل ، بينما كانت قوائمه وذيله فى بياض الثلج . ومع تزاحم الكثيرات من بنات جنسه عليه فإنه لم يمل إلاّ لأجملهن وهى هيلونوميه التى ملكت أن تسلبه لبّه بحنانها ورقّتها وبحبّها والعناية بمظهرها بقدر ما تسعفها أطرافها ، فكانت تصفّف شعرها بالمشط ، وتزيّنه بالورود وزهور البنفسج تارة وحصى البان تارة أخرى ، وأحياناً بتيجان تهيئها من الزنبق الأبيض . وكانت تغسل وجهها مرتين كل يوم بمياه النبع المتدفقة من غابات پاجاساى ومرتين تغطس بجسدها فى مياهه ، وتغطى كتفيها بأفخر فراء الحيوانات البرية التى تنتقيها . وقد هام بها كيلاروس كما هامت به ، وكانا يتجولان معاً فى الجبال ، ومعاً يأويان إلى كهف كان ملجأهما . وكانا قد ذهبا معاً إلى قصر ملك اللاپيث ، وإذا هما يشاركان فى تلك المعركة الوحشية من حيث لا يدريان ، وفجأة انطلقت حربة من يد مجهولة آتية من الجهة اليسرى نفذت فى ملتقى صدر كيلاروس بعنقه ، ومع أن الجرح الذى أصاب القلب كان هيّناً إلاّ أن جسد القنطور كان قد فقد الاحساس وغشيته برودة الموت بعدما انتزع السهم منه . وأسرعت هيلونوميه باحتضان حبيبها المحتضر ، ووضعت يدها على الجرح محاولة كبته ، ثم أدنت فمها من فم كيلاروس لتمنع روحه من أن تفارق جسده ، ولكنها ما إن رأته يُسلم الروح حتى صرخت صرخة مدوّية وندّت عنها كلمات حالت صرخات المحاربين بينها وبين سماعى لها ، ثم ألقت بنفسها فوق النصل الذى به مات زوجها فلقيت حتفها وهى تضمّه بذراعيها .

وما تزال تتمثل أمام عينى حتى اليوم صورة فايوكوميس الذى كان قد دثّر جسده الحصانى وأعضاءه البشرية بستة من جلود السباع عقد بعضها إلى بعض ، وقد رفع كتلة خشب ضخمة يشُقّ على زوجين من الثيران المشدودة معاً جرّها ، وألقى بها على تيكتافوس بن أولينوس فشجّت رأسه من أعلاه إلى أسفله ، وتهشمت جمجمته العريضة وانسابت عصارة مخه خيوطاً من فمه ومنخريه وعينيه وأذنيه كما تنساب قطرات اللبن الخثير من سلّة من فروع السنديان المضفورة ، أو كما يقطر العصير من ثقوب معصرةٍ ثقيلٍ ضاغطها ، غير أنى تقدمت لحظة حاول القنطور نزع الأسلحة من ضحيته المتهالكة وغرست سيفى فى فخذ ذلك العدو الظافر ــ وأبوك شاهد على صحة ما أقول ــ وكذلك هوى خثونيوس وتيليبواس تحت ضربات سيفى ، رغم أن أولهما كان مسلّحاً بغصن شجرة مزدوج الطرفين المسنّنين ، وثانيهما بحربة استطاع أن يصيبنى بها ، وها أنت ذا ترى موضع الإصابة هنا متمثّلاً فى هذه الندبة القديمة التى ما تزال واضحة للعيان . ولقد كان الأجدر فى تلك الأيام الخوالى أن يوفدونى فى حملة لغزو پرجامون(٨) [طروادة] ، ولو كانوا قد فعلوا لربما أفلحت بأسلحتى فى وقف تقدم البطل هكتور العظيم إن لم أكن قد قضيت عليه ، غير أن هكتور لم يكن وقتذاك قد وُلد بعد ، أو لعله كان ما يزال طفلاً . أما الآن فقد أوهنت الشيخوخة قواى .

بماذا أحدّثك ؟ أأقص عليك كيف تغلّب پيريفاس على القنطور پيرايثوس ؟ أو كيف دفع أمپيكس حربته المنحوتة من خشب القرانيا رغم فقدها لطرفها المسنون فى وجه إيكيتلوس المنتصب على أربعة قوائم ؟ وكيف قضى مكاريوس على إريجدوپوس من پيليثرون بغرس وتد فى صدره ؟ وما زلت أذكر كيف رمى نيسوس حربة صيد استقرت فى ملتقى فخذى سيميلوس ، ولا تحسب أن موپسوس بن أمپيكس لم يكن سوى عرّاف فقط ، فإن حربته هى التى أردت القنطور هوديتيس الذى حاول عبثاً النُطق وهو ملقى على ظهره ، غير أن لسانه كان لاصقاً بلهاته الغائرة فى فمه .

وخلال ذلك كان كاينيوس قد أتى على خمسة من الأعداء هم : ستيفيلوس وبروموس وأنتيماخوس وإليموس وپيراكتيس المسلح بالبلطة ، ولست أذكر كيف أصيبوا غير أنى أذكر أسماءهم وعددهم . ثم انطلق لاتريوس الفارع الجسد القوى الأطراف مسلّحاً بما غنمه من هاليسوس المقدونى إثر قتله ، وكان يعيش فى زهرة العمر بين الشباب والشيخوخة ، يتدفّق فيه ريعان شاب وإن وخط الشيب فوديه ، وكان يجتذب الأنظار بترسه وسيفه وحربته المقدونية ، ويستدير بوجهه ناحية الفريقين راكضاً مرات عدّة فى دائرة محددة ، ثم تحدّث قائلاً فى خيلاء : « حتى أنت يا كاينيس ، كيف لى أن أصبر على وقاحتك ؟ أنت كما عهدتك لا تزال امرأة وستظل كذلك فى نظرى ، فهل أُنسيت الهيئة التى وُلدت عليها ، أم أُنسيت الفَعْلة التى أتيتَها والثمن الذى دفعته كى تستحيل رجلاً زائفاً ؟ اذكر الهيئة التى وُلدت عليها ثم ابحث عن سلّة من خيوط الصوف واجدلها بإبهامك ، واترك شئون الحرب للرجال » . وحين استمع كاينيوس إلى هذا الحديث المهين شهر حربته وهوى بها على القنطور حيث مَوْصِل نصفه البشرى مع نصفه الحصانى ، فشقّ جذعه وهو يشرئب عالياً متأهباً للانقضاض عليه . وجُنّ لاتريوس تحت وطأة الألم وضرب بحربته هذا

الوجه العارى لذلك المحارب الشاب الوافد من فيلوس ، غير أن الحربة ارتدت ثانية كما ترتد حبّات البَرَد
٤٨٠ من على السطح الذى تسقط عليه ، أو كما ترتد الحصاة عن سطح طبل أجوف . ثم دنا من كاينيوس محاولاً
غرس سيفه فى جنبه فوجد جسده أصلب من أن ينفذ سيفه فى أى موضع منه . ولكن لاتريوس صاح :
« على الرغم من هذا فلن تُفْلت منى وسأقتلك بنصل سيفى وإن تَثْلَم سنّه » ، وشرع سيفه ليهوى به على
فخذى كاينيوس قابضاً عليه بذراعه اليمنى الطويلة ، وإذا السيف يرسل رنيناً وكأنه ارتطم بقطعة من رخام
ويتحطّم وتتناثر أجزاؤه على الجلد الصلد . وبعد أن تعرّض كاينيوس لضربات خصمه مرات عدة دون أن
يُصاب بأذى صاح فيه قائلاً : « والآن لنَرَ ماذا سيكون أثر سيفى فى جسدك ؟ » وما لبث أن غرس سيفه
الفتاك فى فخذى القنطورى حتى مقبضه وأخذ يديره ويحرّكه فى أحشائه وهو يُحْدث فيه جرحاً بعد جرح ،
فاستشاطت جماعة القنطورى غضباً وصرخوا صرخة عالية واندفعوا ناحية كاينيوس يطعنونه بأسلحتهم غير
أنها كانت تسقط من أيديهم مثلومة الأطراف . وبقى كاينيوس بن إيلاتوس سليماً لم يصب بخدش ،
فَبُهِتَ مهاجموه لهذا الأمر الغريب ، وصاح مونيكوس قائلاً : « يا للعار ، أينهزم شعب بأسره أمام رجل
وحده ، بل هو أقرب أن يكون رجلاً ، غير أنه على الرغم من هذا فهو رجلُ حقاً . ولقد غدونا نحن
٥٠٠ بجُبْننا دوابَ على نحو ما كان هو قبل أن يصبح رجلاً . فما نفع أطرافنا القوية وقوتنا المزدوجة ؟ ولَم إذن
جمعت الطبيعة فينا بين كائنين من أقوى الكائنات ؟ ليس صحيحاً إذن أننا من نسل آلهة أو أننا أبناء
إيكسيون الذى ملأته بطولته أملاً بأن يظفر برضى چونو المتعالية مادمنا نسقط هكذا ضحايا عدو لا يعدو أن
يكون نصف رجل . دَحْرِجُوا فوق جسده الصخور والأشجار والجبال ، وغطّوه بالغابات حتى تخمد روحه
المتشبّثة بالحياة ، ولتدقّ الأشجار عنقه ، ثم ليقض عليه ثقلها كما تقضى عليه الجروح » . وأمسك وهو
يتحدث بشجرة كانت قد اقتلعتها ريحٌ جنوبية عاتية وقذف بها خصمه الباسل ، وتبعه آخرون فى اقتلاع
الأشجار ، وما هى إلا لحظات حتى كان جبل أوثريس قد تعرّى من أشجاره وغابت عن جبل پيليون ظلال
غاباته ، ودُفن كاينيوس تحت ثقل كومة هائلة من الأشجار حاول أن ينفذ من بينها بكتفيه القويتين ، غير أن
٥٢٠ تراكم الأشجار حين بلغ فمه وغطّى رأسه أخمد أنفاسه فإذا قواه تخور ، وعبثاً حاول النهوض وإزاحة
الأشجار عن جسده بدفعها هنا وهناك ، وكأنما نزل زلزال رهيب أخذ يهزّ جبل إيدا العظيم . ولا نعرف
حقاً ماذا حدث بعد ذلك ، وإن ذهب البعض إلى أن جسده قد غاص تحت ثقل الأشجار إلى عالم
تارتاروس . غير أن موپسوس بن أمپيكس نفى هذه القصة ، وقال إنه رأى طائراً بجناحين أسمرين يُفْلت
من بين كومة الأشجار ويحلّق فى الفضاء ، وقد رأيت أنا أيضاً ذلك الطائر الفريد الذى لم أر له مثيلاً من قبل
ولا من بعد ، وحين رآه موپسوس يحلّق تحليقاً لا عُسر فيه فوق معسكره ويصرخ صرخات عالية جعل
يلاحقه بعينيه وفكره فى طيرانه ، وصاح فيه قائلاً : « سلاماً لك يا كاينيوس يا فخر جنس اللاپيث ، يا من
كنت يوماً بطلاً صنديدا ، وصرت الآن طائراً فريداً » . ولما نعرفه من هيبة موپسوس صدّقنا ما قال ،
وضاعف الحزن غضبنا المحتدم لأن عدداً كبيراً من الأعداء قد احتشدوا على رجل واحد وظفروا به ولوّحنا
بسيوفنا إفصاحاً عن غضبنا ، ولم نتلبّث عن القتال حتى أتينا على نصف أعدائنا ، وأفلت الباقون فراراً
مختفين فى ظلمة الليل .

پيريكليمينوس

واستشاط تليپوليموس غضباً لأن ملك پيلوس قد روى معارك اللاپيث مع القنطورى أنصاف البشر دون أن يتحدث عن هرقل فصاح قائلاً : « عجباً سيدى ، أفَضتَ وأُنسيتَ ما أبداه هرقل من ضروب البسالة ، مع ثقتى فى أن أبى قد قال أكثر من مرة أنه هو الذى هزم تلك المخلوقات وليدة السحب السماوية » . فأجابه نسطور بنبرة حزينة قائلاً : « لم تضطرُّنى إلى أن أستعيد أحداثاً تثير الأسى ؟ ولم تدفعنى لأنكأ جراحاً التأمت مع الزمن ، وأتحدث عن أبيك مع كراهيتى إياه بعدما لحق بى الكثير من الأضرار بسببه . حقاً إنه أتى من الأمور ـ كما تعرف الآلهة ـ ما يفوق التصوّر ، وملأ الدنيا بمغامراته [وليس من شأنى أن أُنكر هذا] ولكننا لا نمتدح ديفوبوس ولا پوليداماس بل ولا هكتور نفسه[9] ، فمن هذا الذى يمتدح أعداءه ؟ نعم لقد هَدَم أبوك مرّة جدران ميسينيه ومرة أخرى دمّر مدينتى إليس وپيلوس اللتين لم تجنيا جناية ما ، كذلك أحرق بيتى بالنار وتركه خاوياً بعد أن قضى على من فيه بحدّ سيفه ، ولن أذكر شيئاً عن قتلاه العديدين ، وحسبى أبناء نيليوس الاثنى عشر ، وقد كنا آنذاك فى أوج الشباب نحن أبناء نيليوس ، لكنه بطش بهم جميعاً سواى ، ولو أننا سلمنا بهزيمة الجميع فقد كان مصرع پيريكليمينوس شيئاً عجيباً ، ذلك أن نپتون مؤسس سبط نيليوس قد رزق ذلك الصّبىّ بقدرة يقوى بها على أن يبدو فى أية هيئة يشاؤها وأن يخرج عنها حين يريد . ولقد تبدّل فى الهيئات كلها حذراً من هرقل ، غير أن ذلك كله لم يجده نفعاً . فقد جعل نفسه الطائر الأثير عند كبير الآلهة والذى يحمل بمخالبه المحدّبة صواعقه ، وأخذ ينهش وجه هرقل بمنقاره المعقوف ويخبطه بجناحيه ومخالبه ، فتصدّى البطل التيرنثى له بأن شدّ قوسه إلى صدره وأطلق سهمه الذى لا يخطىء أبداً ، فنفذ فيه وهو بين السحب عند منبت جناحه . ومع أن الجرح لم يكن عميقاً إلا أن العضلات الممزقة عجزت عن أداء وظائفها وأفقدت النسر قدرته على الحركة والطيران ، ولم يقو جناحاه المتهاويان على التحكّم فى الهواء فسقط على الأرض وهوى جسده فوق السهم الذى كان عالقاً بجناحه ، فاندفع خلال صدره حتى نفذ من جنبه الآخر . أو تظن أن من واجبى بعد ذلك أن أُثنى على هرقل أيها الرّبان الوسيم لأسطول رودس ؟ ومع ذلك فكل ما أثأر به لأخوتى أن أتجاهل ما كان لهرقل من بسالة ، لأن الصداقة التى تربط بينك وبينى وثيقة » .

وبهذه الكلمات التى جرت على لسان الشيخ بليغة رقيقة اختتم قصته ، ودارت كئوس النبيذ ثانية ، ونهض الجالسون عن المائدة ليأووا إلى مضاجعهم ما بقى الليل .

موت أخيل

استبدّ الحزن بالإله نپتون الذى يبسط سلطانه على أمواج المحيط بصولجانه الثلاثىّ الشُّعَب لمصرع ابنه سيجنوس الذى مُسخ بجعة من بجعات فايثون ، فأخذ يستنزل اللعنات على أخيل القاسى القلب

ويغلى غضباً على خصمه . وأخيراً ، وعندما طالت الحرب حتى أوشكت أن تبلغ سنوات عشرا أخذ فى الحديث مع أپوللو المسترسل الشعر قائلاً « يا أعزّ أبناء أخى عندى ، يا من شاركتنى فى بناء أسوار طروادة دون أن تجنىَ من ورائها نفعاً ؟ ألم يؤسفك أن ترى هذه القلعة المشيدة تُشرف على الزوال ؟ ألم يحزنك مصرع الآلاف العديدة من الطرواديين دفاعاً عن أسوارها ؟ ألم يتراءى لعينك طيف هكتور ــ من بين القتلى ــ وجثته تُجرّ على الثّرى مرّة بعد مرّة حول پرجامون مدينته الحبيبة ، ومع ذلك لا يزال أخيل يستمتع بالحياة ، هذا البطل الهمجى الوحشى الذى هدم ما شيّدناه ويسفك من الدماء أكثر مما تسفكه أية حرب ، فليأت إلىّ ولسوف يرى ما ستُنزله به حربتى ذات الشّعب الثلاثة ! ولكن طالما أنى لا أجد فرصة لملاقاته وجهاً لوجه فلتبطش أنت به بسهم خفىّ من سهامك لا يُدْرَى من أين أتى » .

ووافق أپوللو إله جزيرة ديلوس مستملياً من كراهته لأخيل التى لم تكن تقل عن كراهية عمّه له ، فطوته سحابة ثم هبط منها فى صفوف الطرواديين . ولمح وسط المعمعة پاريس وهو يصوّب سهمه إلى محاربَيْن يونانيين لا شأن لهما فكشف عن نفسه لپاريس وقال له : « لِمَ تبدّد سهامك فى سفك دماء العامة ؟ إذا كنت تُعزُّ أقاربك فلْتُدِر وجهَك نحو حفيد إياكوس ولتنتقم منه لأشقائك الصرعى ! » وأشار أپوللو إلى أخيل وهو يُحدّث پاريس وكان أخيل ساعتها يحصد بسيفه أعناق محاربى طروادة ، ثم أدار أپوللو قوس پاريس ناحية البطل اليونانى ، ووجّه بيده الباطشة سهماً أصاب فى التوّ هدفه ، فكانت هذه أول فرحة أحسّ بها پريام منذ مصرع ولده هكتور . وهكذا لقى أخيل قاهر الأبطال ذائعى الصيت هزيمته على يدى جبان كان قد اختطف زوجة يونانية خانت زوجها . لعمرى لو كنت عرفت يا أخيل يوماً أنك ستسقط صريعاً فى حومة الوغى على يد أنثى[١٠] لآثرت الموت بضربة بلطة من يد إحدى ساكنات ضفاف نهر الثيرمودون[١١] . ها هو ذا البطل الذى كان يثير الفزع بين الطرواديين يغدو طُعمةً للنيران وهو من كان فخر اليونانيين وزعيمهم المظفّر فى ساحات القتال . وأشرف على حرق جثته فى المحرقة الإله الذى كان قد صنع له سلاحه ليخوض به الحرب[١٢] واستحال أخيل العظيم رماداً ، ولم يبق منه غير تلك الحَفْنة التى لا تكاد تملأ وعاءً صغيراً ، غير أن أمجاده عاشت من بعده حيّة فى أسماع العالم ، فكانت شهرة ابن پيليوس ليست دون عظمته وكان بهما جديراً ، كما أنه بعد أن ترك الحياة لم يعبأ بوحشة تارتاروس . وكم أثار تُرْسه المعارك بعد موته واحتدم الصراع من أجل الظفر به ، كما أثار سلاحه العراك للظفر به . على أنه لم يجرؤ على المطالبة بتُرسِه ابن تيديوس ولا أجاكس بن أويليوس ، ولا أصغر أبناء أتريوس ، [أجاممنون] ، ولا أخوه المحارب الأكبر سنّاً والأشدّ بطشاً [منيلاوس] . ولم يثق أحدٌ بجدارته لطلب هذا المجد سوى أجاكس بن تيلامون وأوديسيوس بن لايرتيس . وعرف أجاممنون سليل تانتالوس كيف يَتَخلّصَ من مهمة قد تجرّ عليه الأحقاد ، فدعا قادة أرجوس إلى الاجتماع وسط المعسكر وجعلهم قضاة ليفصلوا بين المتنافسين .

التعقيبات

(١) شجر الدّلب .

(٢) يلاحظ أن هذا هو موضوع مأساة أوريبيدس : « إيفيجينيا فى أوليس » .

(٣) تنبأ عرّاف يونانى بهلاك أول يونانى يهبط على شاطىء طروادة فقدّم پروتيسيلاوس نفسه قرباناً لتلك النبوءة وسقط بسهام هكتور . وكان الإغريق قد أقاموا له قبراً بالقرب من الهيليسپونت ، ومن الغريب أن شاهد هذا القبر الذى يسجل اسمه قد اكتشف مؤخراً فى حفائر طروادة .

(٤) انظر الكتاب الحادى عشر .

(٥) ليس المقصود هنا الدرع الذى أعدّه هيفايستوس نزولاً على إرادة ثيتيس لابنها أخيل والذى وصفه هوميروس فى الكتاب الثامن عشر من الإلياذة ، وإنما المقصود درع مصنوع من طبقات من جلد الثيران وصفه هوميروس منسوباً إلى كل من أوديسيوس وأچاكس [انظر مستهل الكتاب الثالث عشر] .

(٦) يسرد أخيل أشهر مآثره منذ أن بدأ الإغريق فى حصار طروادة ، وكانت ليرنيسوس مدينة فى مملكة ميزيا بآسيا الصغرى ، وتنيدوس جزيرة صغيرة تقابل الشاطىء الطروادى ، وأطلق أوفيد على ثيبيه اسم طيبه ، وهى مدينة قائمة على سفح جبل پلاكوس فى ميزيا ، وكانت عاصمة مملكة إيتيون والد أندروماخى الذى قتله أخيل مع أبنائه ، أما الكاياكوس فهو اسم نهر فى ميزيا .

(٧) كان لنسطور أحد عشر أخاً قتلهم هرقل مع أبيهم ، ولم يبق من الأسرة سوى نسطور فمنحه الإله أپوللو الحق فى أن يحيا مجموع عدد السنين التى كان مقدّرا أن يحياها إخوته لو استكملوا عمرهم . لذلك يقال إنه عاش ثلاثمائة سنة .

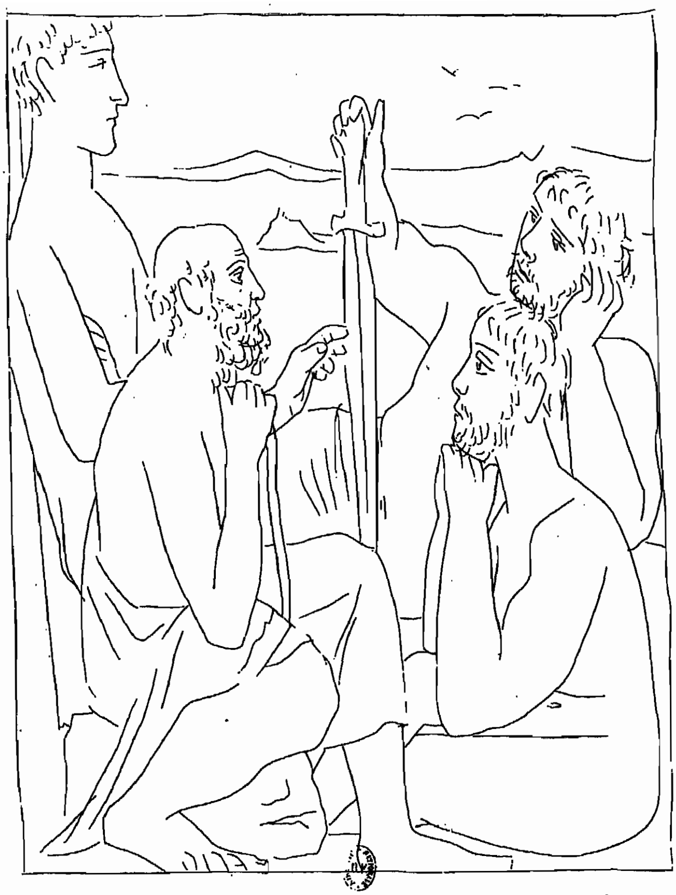
(٨) هذه بطبيعة الحال أمنية بعيدة عن التحقيق ، يقصد بها نسطور الإشادة بقوته وبأسه أيام شبابه ، فيزهو بأنه لو كانت حرب طرواده قد وقعت قبل موعدها فى تلك الآونة لكان قد أبلى فيها أحسن البلاء .

(٩) ديفوبوس هو شقيق هكتور ، وپوليداماس هو ابن پانثووس وكلاهما مذكوران فى الإلياذة . وقد اتخذت الإلهة أثينا شكل ديفوبوس لتُطمئن هكتور الذى كان يطارده أخيل ولتُعيده إلى المعركة حيث كان مقدّراً له أن يموت . أما پوليداماس فهو الذى نصح هكتور بالحرص ولم يستمع الأخير إلى نصحه .

(١٠) يشبّه أوفيد هنا پاريس بامرأة احتقاراً لشأنه .

(١١) الثيرمودون نهر صغير يصب فى البحر الأسود ويسرى خلال بلاد الأمازونات فى پونتوس على شاطىء البحر الأسود ، وكانت مليكتهن پنثيسيليا قد جاءت لنجدة الطرواديين فالتقت فى المعركة بأخيل الذى قضى عليها .

(١٢) ڤولكانوس أو هيفايستوس هو إله النار والحدادة ، وهو الذى صقل أسلحة أخيل وبذلك يكون قد أعدّه للقتال كما أحرقه فيما بعد بلهبه فوق محرقة الموتى .



بيكاسو: أجاكس يطالب بأسلحة أخيل

الكتاب الثالث عشر

أجاكس يطالب بأسلحة أخيل

جلس القادة وسط جماهير الجند الذين اصطفّوا وقوفاً ، ونهض أجاكس صاحب التُّرس المصنوع من جلود ثيران سبعة وأخذ يخطب فيهم مُرْغيا مُزْبداً وعيناه عالقتان بشواطىء سيجيا وبالسفن الراسية

عندها ، ولوّح بقبضة يده وهو يصيح : ها أنذا أمام سفن الأسطول يا چوپيتر أدافع عن قضيتى أمام من جرءوا على أن يسوّوا بينى وبين أوديسيوس ! هذا الذى فرّ هارباً من نيران هكتور[1] بينما اقتحمتها أنا لأدفعها بعيداً عن سفننا ، والذى يؤثر المقارعة بالحجّة على المجاهدة بالسيف ، ففصاحته فى الخطابة تعدل بأسى فى القتال وإنى لراغب عن منازلته بالكلام على قدر ما هو راغب فى تجنّب منازلتى بالذراع . على أن ما أنجزته من أعمال ليس فى حاجة إلى أن تفصح عنه كلمات فقد شهدتموها أيها اليونانيون ، وما أعْوز أوديسيوس إلى الحديث عن مآثره ومنجزاته التى لم تشهدها سوى ظُلمة الليل . وإن الجائزة التى أطمع فيها لعظيمة ، غير أن مطالبة أوديسيوس بها يُفْقدها كل قيمة ، ولن يباهى أچاكس بجائزة مهما عَظُم شأنها إذا ما تطلّع إليها أوديسيوس . وها هو ذا الآن يظفر بمجد كبير ، لأنه بعد هزيمته أمامى سيغدو من المشهورين ، إذ قد جعل نفسه ندّاً لى .

وإذا كان ثمة شك فى شجاعتى فإن لى إلى جانب ذلك سنداً قوياً هو نُبل مَحْتدى ، فأنا ابن تيلامون الذى اقتحم أسوار طروادة فى رفقة هرقل الشجاع ، كما أقلع فى سفينة الأرجو التى بُنيت فى پاجاساى حتى بلغ شواطىء كولخيس ، ثم إنَ جَدّى هو إياكوس الذى يفصل بعدالته بين الموتى الهامدين فى المملكة التى يتعذب فيها سيزيفوس بن أيولوس مشدوداً إلى صخرة . وكذا يعترف چوپيتر كبير الآلهة بأبوّته لإياكوس وهو ما يجعلنى من الرعيل الثالث لأحفاد چوپيتر . وما كان لى أن أزجّ بهذا النّسب فى قضيتى هذه لولا أنه نسب أخيل العظيم ، فلقد كان أخى وابن عمى ، ولهذا فإننى أطالب بميراثه . وأما أنت يا أوديسيوس يا من تشبه جدّك سيزيفوس فى الغش والخداع فكيف تستبيح إقحام اسمك فى أسرة إياكوس وأنت غريب عنها ؟ . أوَ ترفضون أنتم منحى هذه الأسلحة وقد سبقته إلى ميدان الوغى دون أن يستحثّنى أحد ؟ أوَ تفضّلون آخر من حمل السلاح بعد تقاعسه عن الحرب مدّعياً الجنون حتى كشف عن خدعته التى فضحت جُبْنه إنسانٌ أشدّ دهاءً منه . لقد كان پالاميديس بن ناوپيليوس هو الذى حمل أوديسيوس على الانضمام إلى صفوف المقاتلين بعد أن كان يروغ من الحرب . أيحقّ له أن يحمل تلك الأسلحة العظيمة بعد أن كان يعزف عن حمل السلاح ؟[2] وهل أُحْرمُ أنا من إرث قريبى لإقدامى على المخاطرة منذ البداية ؟ ليته كان مجنوناً حقاً أو ليته بقى كذلك بين الناس ! وليتنا لم ننسق إلى نصائح هذا الوغد الإجرامية ولم نندفع صوب القلاع الفريچية ! فلولا ذلك ما لحق بنا عار ترك فيلوكتيتيس بن پوياس فى ليمنوس حيث يقال إنه يأوى إلى أحد كهوف الغابات محرّكاً أشجان الصخور ببكائه وضراعته للآلهة أن تُنزل بابن لاييرتيس [أوديسيوس] ما يستحق من جزاء[3] ، وإن كانت الآلهة موجودة حقاً فلابد أن يُستجاب لهذا الدعاء .

إن هذا المسكين المنكود الحظ الذى خرج معنا مقسماً يمين الولاء لقضيتنا وهو من قادة اليونان ووريث سهام هرقل قد هدّه المرض والجوع ، وليس له من ثياب غير ريش الطير ، وليس له من غذاء غير لحومها بعد أن يرميها بسهامه ، تلك السهام التى كان عليه أن يقضى بها على طروادة . ومع ذلك فهو ما يزال حياً لأنه لم يصاحب أوديسيوس فى سفينته . كذلك كان پالاميديس التعس يتمنّى لو خلّفناه هو الآخر فى ليمنوس ، ولو حدث ذلك لبقى حياً أو مات دون أن يُرمى بتهُمة ظالمة ، ذلك أن خصمى يذكر جيداً أن پالاميديس

قد مرّغ اسمه فى الوحل حين كشف عن ادعائه الجنون ، ولم يغفرها له أوديسيوس فاتّهمه زوراً بخيانة الإغريق ودلّل على هذه التهمة بتقديم سبائك ذهب كان قد خبّأها فى مكان أمين من قبل . وهكذا استطاع أوديسيوس أن يوهن من قوة الأخيين بنفى البعض وقتل البعض الآخر ، وكان هذا أسلوب أوديسيوس فى الحرب ، وبهذا الأسلوب نفسه كان يروّع من حوله .

ومع أنه يملك من البلاغة ما يبزّ به نسطور الوفىّ فإنه لن يستطيع إقناعى بأنه لم يرتكب خطأ حين هجر نسطور العجوز الذى أرهقه الإعياء وكان جواده جريحاً فتوسل إليه أن يساعده فلم يستجب لرجاء من كان له رفيقاً . وإن ديوميديس بن تيديوس ليشهد أننى لا أختلق هذه الاتهامات ، فقد نادى على أوديسيوس باسمه مرات عدّة ونعى عليه ذعره وهربه ، غير أن الآلهة ترعى أمور البشر من عليائها بالعدل ، فها هو ذا من رفض مساعدة نسطور تُعْوِزُه هو نفسه المساعدة ، وكما تخلّى عن غيره كان طبيعياً أن يتخلّى عنه الآخرون ، فحين أخذ يصيح منادياً زملاءه بأعلى صوته أسرعتُ إليه فرأيته شاحب الوجه يُرعد فزعاً وذعراً من الموت الذى يتهدّده ، فحميته بترسى وهو جاث على الأرض وأنقذت حياة هذا الجبان ، وإن كان هذا فى نظرى أمراً تافهاً لا أحفل أن أثاب عليه ! ولئن كنت مُصرّاً على منافستى فى الاستحواذ على هذه الأسلحة فلتعد معى إلى حيث أنقذتك من يد الأعداء ، لتعد بجرحك وصراخك المدوِّى وهاك ترسى لتختبىء خلفه وحاول وأنت فى حمايته أن تبارزنى . إننى لم أكد أيها السادة أنتزع هذا المحارب مما يحيق به من خطر ــ وكان جرحه قد أوهن قواه فلم يعد يقوى على الوقوف ــ حتى أخذ يجرى هارباً بعونى كما لو لم يكن به جرح يعوقه عن العدْو . وتقدم هكتور إلى المعركة فى صحبة آلهته ، وكان يبثّ الرعب حيث مضى لا فى قلبك وحدك يا أوديسيوس بل فى قلوب جميع الشجعان ، فما كان أشد الهول الذى يصاحبه فى خطوه ، وقد استطعت أنا فى اللحظة التى كان يسعد فيها بطعناته الدامية أن ألقيه على ظهره حين قذفته من بُعد بكتلة ثقيلة من الصخر ، حتى إذا تقدم يطلب النزال انبريت له وكنت الوحيد الذى جرؤ على ذلك . وقد تضرّعتم للآلهة أيها الأخيون أن يقضى الاقتراع باختيارى لمنازلته واستجابت الآلهة لضراعتكم ، أتريدون أن تعرفوا ما انتهت إليه المبارزة ؟ إن هكتور دون ريب لم يتغلب علىّ . وأين كان أوديسيوس حين تقاطر الطرواديون على سفن الإغريق بالسيوف والنيران فى حماية چوپيتر ؟ لقد وقفت أحمى بصدرى سفنكم الألف التى كانت محط آمالكم فى العودة إلى الوطن . من أجل هذه السفن العديدة ، أعطونى إذن هذه الأسلحة .

وإذا سمحتم لى أن أقول الحق كله فإن أسلحة أخيل تترقّب النصر على يدىّ أكثر مما أترقّبه أنا منها فمجدها متصل بمجدى اتصالاً وثيقاً ، وإن السلاح هو الذى يُهيب بأچاكس ، وليس أچاكس هو الذى يُهيب بالسلاح ، وليُقْبِلْ أمير إيثاكا الذى لا يزن شيئاً [أوديسيوس] وليقارن بين ما أنجزت وما أنجز ، وليحدّثنا عن سفكه دماء ريسوس ودولون الخانع وعن أسره لهيلينوس بن پريام ، وسرقته « للپالاديوم » ذلك التمثال المقدس فى معبد پالاس . إنه لم ينجز شيئاً قط فى وَضَح النهار ، ولم يقدم على عمل دون عون ديوميديس ، فإذا ارتأيتم أن تكون هذه الأسلحة ثمناً لمثل هذه التفاهات فاجعلوها بينهما وليكن لزميله

ديوميديس أكبر النصيبين . ولكن ما جدوى منح هذه الأسلحة لابن إيثاكا الذى لا يتحرك إلا فى الظلام ولا يصل إلا بالخديعة إلى عدو قليل الحيطة . وإن بريق خوذته الذهبية هو الذى سيكشف حركته وهو مختبىء فى الظلام ، ولو أنه ارتدى خوذة أخيل لما استطاع تحمّل ثقلها ، كما لن تستطيع ساعداه المنهكتان حمل رمح أخيل المقدود من دردار غابات جبل پيليون ، وستُثقل الترس المنقوشة عليها صورة الكون بأسره على يده اليسرى المتخاذلة التى لا تحذق إلّا السرقة والخطف . كيف تطمع فى عطاء لن يزيدك إلّا ضعفاً ؟ وما أشد فرحة العدو إن أخطأ الإغريق ومنحوك هذه الجائزة ، فما أيسر عليه أن يسلبك إياها لا أن يهابها وهى فى حوزتك ! قد يكون الفرار هو ميزتك الوحيدة يا أجبن الجبناء ، لكن سرعتك سوف تَهِنْ إذا حملت مثلَ هذه الأسلحة الثقيلة . ولتنظر إلى ترسك الذى لم يُختبر فى القتال إلّا لماما ويبدو وكأنه لم يُمَسّ ، بينما يحمل ترسى ألف أثر من ضربات السيوف التى تعرّض لها وما أحوجه إلى أن يستبدل به غيره . ثم ما أجدرنا أن ندع الكلام جانباً ونحتكم إلى القتال ، فلتلقوا بأسلحة البطل أخيل بين صفوف الأعداء ، ثم لتأمرونا بأن يهبّ كلانا لاستردادها لتكون من حق من يعود بها » .

وأخلد ابن تيلامون إلى الصمت وسرت تمتمات التقريظ بين الجميع حتى نهض ابن لايرتيس [أوديسيوس] واقفاً ، فأرخى بصره قليلاً ثم رفع رأسه وجال ببصره بين قادة الجيوش ، وانفرجت شفتاه استعداداً لأن يخطب ثم بدأ يتحدث بأسلوب بليغ مثير وقال : « أيها الإغريق . لو كانت الأقدار قد رعت آمالنا جميعاً لكنا الآن فى غنى عن الخوض فى أمر هذا الإرث ، ولبقيت يا أخيل بيننا حيّاً حاملاً أسلحتك ولكُنّا أكثر سعادة بوجودك بيننا . ولكن الأقدار القاسية قد أبت أيها الأصدقاء أن يَبْقَى بطلنا بيننا [وهنا تظاهر بمسح دَمْعة جرت من عينيه] فمن أحق بخلافة أخيل سوى من نصَّبه قائداً لجيوش الإغريق ؟ إن كل ما أطلبه منكم هو ألا يستميلكم خصمى إليه ، وهو كما يبدو فظ القلب غليظه [وهذه حقيقة لا مراء فيها] ، كما أرجو ألا يستثيركم أحد علىّ لذكائى الذى لم أستخدمه قط إلّا لنفعكم أنتم . فلا تدعوا بلاغتى ــ إذا صحّ وصف حديثى بالبلاغة ــ تنقلب سبباً لبُغْضكم إيّاى ، فلسانى الفصيح يدافع الآن عن صاحبه الذى طالما دافع عنكم ، أَوَ ليس من حق كل امرىء أن يستغل المَلَكة التى وُهِبَها ؟ .

إن نُبْل أنسابنا ومآثر أجدادنا وهى ليست من صنع أيدينا لا تنهض مسوّغاً لتمييزنا عن غيرنا ، ولكن مادام أچاكس قد أثار اتصال نسبه بچوپيتر فإننى أستطيع أيضاً الزهو بأن چوپيتر كان مؤسس أسرتى ، فأنا أنتسب إليه فى الدرجة التى ينتسب بها أچاكس إليه . وإن أبى لايرتيس هو ابن أركسيوس بن چوپيتر ، هذا إلى أنه ليس بين أسرتى من أُدين ونُفى خارج وطنه[٤] ، كما أن نبل نسبى يتجلّى أيضاً فى قرابتى لميركوريوس عن طريق أمى . وهكذا ينتمى كلٌ من والدىّ بجدّ من أجدادهما إلى إله . ومع ذلك فلست أطالب بهذه الأسلحة التى أمامكم لأننى من سلالة أكثر نبلاً من سلالة أچاكس لو قدّرنا فى الحسبان نسب أسرة والدتى ، هذا إذا أضفنا أن أبى لم يسبق له أن سفك دم أخ له[٥] . وإنى أطالب بأن تزنوا هذه القضية بميزان العدل والإنصاف على ألّا تُضفوا على أچاكس ميزة ما لا لشىء سوى أن تيلامون هو شقيق پيليوس . ولا تقضوا بإعطاء هذه الأسلحة إلّا لمن كان ذا شجاعة وجرأة دون التفات إلى مجد الأسلاف . ولئن كنتم تبحثون عن

اقرب أقارب أخيل وأقرب ورثته فأمامكم بيليوس والد أخيل أو ابنه پيروس . وإذن فما هو حق أجاكس فى الإرث ؟ بل لتحملوا هذه الأسلحة إلى حيث وُلد أخيل فى فْثِيا أو إلى حيث لجأ قبل حرب طروادة فى سكيروس ! ثم إن تيوكروس ليس أقل قرابة لأخيل من أجاكس(٦) ، ومع ذلك فهل رأيتموه يطالب بنصيبه ؟ ولو طالب به لنفسه فهل كان له أن يُعْطاه ؟

وإذا كان الأمر منافسة بالمآثر وحدها ، ففى استطاعتى أن أقول إننى أنجزت أكثر مما أستطيع عدّه . ولو سردتها عليكم على تتابعها التاريخى لرأيتم أن كلاً منها كانت نتيجة لما قبلها وسبباً لما بعدها .

كانت أم أخيل ـــ وهى إحدى حوريات النيرياديس ـــ قد تنبأت بالميتة التى تنتظر ابنها فألبسته ثياب النساء تخدع بهذا الجميع ومن بينهم أجاكس الماثل أمامكم ، ورحتُ أنا أعرض على أخيل سلعاً من تلك التى تستهوى النساء بعد أن دسستُ بينها بعض الأسلحة التى تثير فضول الرجال الشّجعان . وما كاد يراها البطل حتى اطّرح عن نفسه ملابس النساء وتناول الرمح فى يد والترس فى يد ، فقلت له « إن طروادة المشئومة ترقب دخولك يا ابن الإلهة فَلِمَ تتردّد فى أن تقهر هذه المدينة المنيعة ؟ » ، وأخذت بيده لأدفع به نحو مستقبل زاخر بالمغامرات ، وأنا لهذا أعدّ مآثره مآثرى أنا . ومن ثم فأنا الذى انتصرت على تيليفوس الصُّلب ، وأنا الذى عالجت جروحه استجابة لضراعته بعد أن أنفذت فيه رمحى ، وإن فتح طيبه ليعود إلىّ وحدى . ولا يفوتكم أن تذكروا لى فتح ليسبوس وتينيدوس وخريسيس وسيللا مدن أپوللو ، وسكيروس أيضاً ، واذكروا أن يُمناى هى التى هدّمت أسوار ليرنيسوس ، ولا داعى أن أذكّركم بأسماء كل من قهرهم أخيل . وفى الحق إنى أنا الذى قدّمت لكم مقاتلاً استطاع أن يقهر هكتور الجبار ، فلى أنا الفضل فى أن جثة هكتور الشهير ملقاة أمام عيونكم ، ولست أريد ثمناً لهذا إلاّ الأسلحة التى كانت بها بطولته . إننى أنا الذى أعطيته إياها يوم أن كان حيّاً ، وقد آن لى أن أستردّها بعد أن قضى نحبه .

ويوم أصبحت فجيعة منيلاوس هى فجيعة الداناويين(٧) [الآخيين أو الإغريق] جميعاً خرجت إلى المرفأ ألف سفينة تقصد قصد أُوليس المواجهة لجزيرة يوبويا وبقيت طويلاً تنتظر الرياح التى تدفعها إلى الأمام بعد أن ظلّت تتعرض للرياح التى تردّها للمرفأ ، وهتف العرّاف بأمر أقسى ما يكون حين أنبأ بأن الآلهة قضت بأن يضحّى أجاممنون بابنته البريئة قرباناً للإلهة العطشى ، فأبى الأب الاستجابة لما قضت به الآلهة جميعاً بعد أن تمكّنت مشاعر الأبوة من قلبه ، وكنت أنا الذى أقنعت ذلك الأب الحانى بإيثار مصلحة الأمة على عواطفه(٨) ، ولقد كانت محنة شاقة . وليغفر لى ابن أتريوس أننى نجحت فى إقناعه وهو الوالد المفجوع ، فغلّبت مصلحة الشعب وشرف أخيه والمسئولية الخطيرة التى يحملها على مشاعره قبل أن يدفع دم ابنته ثمناً لمجد وطنه . وقد بعثوا بى كذلك إلى أم الضحية كى أقنعها ، وكان إقناعها أمراً عصيّا فلجأت إلى الحيلة حتى أدفعها إلى تسليم ابنتها لى ، ولو أنهم كانوا قد عهدوا بهذه المهمة إلى أجاكس لكانت شراعنا ما تزال مُستكنّة فى المرفأ تنتظر هبوب الرياح المواتية .

وقد أوفدونى كذلك سفيراً إلى قائد القلعة الطروادية فذهبت ومثلتُ بين يدى مجلس شيوخ طروادة المهيب ، وكان جميع أعضائه شهوداً وما اعترانى خوفٌ بل دافعت عن القضية التى عهد بها الإغريق إلىّ ،

وألقيت التبعة على پاريس وطالبت بإعادة هيلينا والغنائم ، وأثرت عطف پريام واستملت لجانبى أنتنور ، وقد أفلتّ من أن أقع فى قبضة پاريس وإخوته والجماعة التى شاركت فى خطف هيلينا بقيادته . وإنك لتعلم ذلك كله يا منيلاوس ، فقد كنا فى ذلك اليوم نجابه خطراً واحداً لأول مرة فى حياتنا .

كم يطول حديثى لوشئت أن أقص عليكم كل ما اضطلعت به من مهام نافعة سواء بحنكتى أو بذراعى خلال هذه الحرب الطويلة ، فقد تحصّن العدو على إثر المعارك الأولى وراء أسوار المدينة ولم تكن ثمة فرصة يواجه فيها بعضنا بعضاً فى العراء ، ولم نلتحم فى قتال صريح إلاّ بعد أعوام عشرة ، فماذا فعلت أنت يا أچاكس خلال هذه المدة التى لا معارك فيها وأنت الذى لا تجيد إلاّ الحرب ؟ وماذا قدّمتَ أيامَها ؟ لو سألتنى ماذا فعلت أنا لقلت لك أننى كنت أعدّ الكمائن للعدو ، وأقيم التحصينات حول خنادقنا ، وأسرّى عن رفاقنا ، وأستحثّهم على احتمال صعاب الحرب بصدور رَحْبة ، وأدرّبهم على التسلّح والتزوّد بالمؤن . غير أن مليكنا أجاممنون ، بعد أن أفزعته رؤيا فى منامه عن نصيحة من نصائح چوپيتر ، أمرنا بِفَضّ أيدينا من هذه الحرب . وقد كان من حق الملك أن يتعلّل بما قرره ناسباً قراره إلى كبير الآلهة ، ولقد كان من حق أچاكس أن يرفض تنفيذ هذا الأمر وأن يطالب باستمرار القتال حتى تبيد طروادة مادام يملك ذلك . فلماذا لم يعترض طريق الجنودَ الذين حزموا أمرهم على الرجوع ؟ ولماذا لم يقف دون هؤلاء المتردّدين يمنعهم بسلاحه ؟ أوَ كان هذا كثيراً على محارب لا ينطق إلاّ عن زهو وتفاخر ؟ إننى أسألكم كيف تفسّرون قعوده هذا ؟ لقد احمرّ وجهى خجلاً يا أچاكس عندما شاهدتك تدير ظهرك للعدو وتستعد للإبحار بسفنك ! وساعتها أطلق الأسى عقدة لسانى فصحت قائلاً : « ما هذا الذى أُراكم تفعلونه يا رفاقى ؟ وأى جنون هذا الذى يردّكم عن طروادة بعدما باتت فى متناول أيديكم ؟ وماذا تراكم حاملين إلى دوركم بعد قتال دام عشر سنين سوى العار ؟ » ، وأفضت فى الحديث حتى نجحت بقوة حجتى وبيانى فى إنهاض المحاربين إلى صفوف القتال . وحينئذ عاد أجاممنون وأمر جنوده الذين هيمن عليهم الفزع بأن يحتشدوا ، ولم يجرؤ ابن تيلامون أن يفتح فمه فى تلك اللحظة ، بينما أطلق ثيرسيتيس[9] لسانه فى سبّ الملوك فلم أدعه يُفلت بلا عقاب ، ورحت أشدُّ من عزيمة رفاقى المذعورين وأستنفرهم للقاء العدو إلى أن ردّ حديثى إليهم إقدامهم الذى كادوا يفقدونه . ولهذا أقول إن كل عمل باسل حقّقه أحد رفاقى منذ تلك اللحظة هو لى ، لأننى أنا الذى رددتهم عن النكوص إلى مواجهة العدو .

ثم إننا لو فتّشنا بين الإغريق عمّن يمتدحك أو يتوق لرفقتك ما وجدنا بينهم أحداً . وإن ديوميديس لشريك لى فيما أفعل وهو دائب التقدير لى والثناء على ، وهو أول من يقول بأن أوديسيوس رفيقه الجدير بثقته . وليس اختيار ديوميديس لرفقتى أنا من بين آلاف الإغريق شيئاً لا يقوم على سبب ، وما خرجت للقاء العدو بحكم الاقتراع بل أنا الذى أقدمت بمحض إرادتى مستهيناً بأخطار القتال غير عابىء بالظلام ، وقتلت دولون الفريچى ذلك البطل الذى كان مثلى لا يهاب المخاطر . وما قتلته إلا بعد أن أرغمته على الكشف عما أعدّه العدو فى طروادة الجاحدة . وكان بوسعى أن أقنع بهذا المجد وأعود إلى خيامى ، لكننى قصدت خيام ريزوس فى معسكره وقتلته ورفاقه ، حتى إذا ظفرت بكل ما تُقتُ إليه من نصر اعتليت مركبة

خصمى التى استوليت عليها ودخلت بها معسكرى يخفق قلبى بفرحة الانتصار . لكم أن ترفضوا إذا شئتم منحى أسلحة أخيل الذى طلب دولون عدوّنا الطروادى جياده ثمناً لتجسّسه علينا ليلاً[10] ولكن فى هذه الحالة يكون أچاكس أكثر كرماً معى منكم[11] . هل أذكّركم بمعاركى مع كتائب سارپيدون اللّيسى وكيف أبدتها بسيفى حين أجريت نهراً من الدماء غرق فيها كويرانوس بن إيفيتوس وألاسطور وخروميوس وأَلْكَنْدَر وهاليوس ونويومون وپريتانيس ، وحيـن قضيـت علـى ثـوون وخرسيدامـاس وخاروپس وإينوموس وآخرين أقل من هؤلاء شأناً[12] . وكم نالنى من جراح لو كشفت لكم عن مواضعها لعرفتم كم تكون هى مصدر زهو وفخار لى ، وإن كنتم غير مُصدّقىّ فيما أقول فها هى ذى جراحى فلتنظروا إليها [وعندها أزاح ثوبه بيده وقال] : هاكم صدراً لم يتعرض لخطر إلاّ من أجل قضاياكم ، على حين أن ابن تيلامون لم ينزف قطرة واحدة من دمه خلال هذه السنين الطوال ويخلو جسده من الندوب ومن آثار الجراح . ومع ذلك لماذا تلقون بالا لما يقول بأنه حارب الطرواديين دفاعاً عن أسطول الإغريق خارجاً بذلك عن أوامر چوپيتر ؟ قد أسلّم له بما يقول ، فلقد رفع بالفعل السلاح ضد العدو ولست ممن يقلّلون من شأن أحد حقداً عليه ، ولكنى لا أملك أن أنسب إليه وحده مجداً شاركه فيه غيره . ألا ليته يعترف لكم بنصيبكم أنتم فى المجد ، فپاتروكلوس هو وحده الذى ردّ هجوم الطرواديين ولاحق بطلهم حين حاول حرق الأسطول ، وقد فعل ذلك فى عُدّة خلعت عليه مظهر أخيل ، وها هو ذا أچاكس يدّعى أنه هو وحده الذى تجاسر على مواجهة هكتور متناسياً أنه لَقِيَهُ بعد أن لَقِيَهُ مليكُنا وقادتنا وبعد أن لقيتُه أنا ، والحق إنه كان تاسع من تصدّوا لهذا الواجب المقدس . ثم إن الإقتراع هو الذى هيّأ لى هذه المهمة ، ولتخبرنى أيها البطل الشجاع عمّا انتهت إليه مبارزتكما ، فمبلغ علمى أن هكتور قد خلّف ميدان القتال دون أن يناله جرح واحد .

الا ما أشقانى وأقسى ما أحسّه من ألم وأنا أستعيد الآن ذكرى اليوم الذى سقط فيه أخيل بطل الإغريق وحاميهم والذى لم تقعدنى الهموم ولا الدموع عن رفع جسده الممدّد فوق التراب وحمله إليكم على كتفىّ هذين بأسلحته وُعدّته التى أتطلّع اليوم لارتدائها ، وأرجو أن تُعيننى قوّتى على تحمّل ثقلها جزاءً للشرف الذى تمنحوننى إياه . وهل يُرضى أمّ أخيل حورية البحر أن تؤول أسلحة ابنها التى هبطت إليه من السماء والتى تمثل عملاً فنياً رائعاً إلى جندى فظ يفتقر إلى الإدراك السليم ؟ إن أچاكس هذا يقصر عن فهم معنى النقوش التى تغطى الترس والتى تصور البحر واليابسة بمدنها العديدة وآفاق السماوات المرصّعة بالنجوم وكوكبات الثّريا والقلائص والدبّ الأكبر وسيف الجوزاء المتألق ، إن أچاكس هذا ليجهل قيمة الأسلحة التى يطالب بها .

وإنه يتهمنى بالفرار من واجبات الحرب الشاقة وبالتباطؤ عن المشاركة فى المبارزة ، دون أن يدرك أن فى هذا حطاً من شأن أخيل الكبير القلب . فإذا كنتم تعدّون تظاهر المرء بغير ما يبطن جُرماً أكون أنا وأخيل مُدانيْن ، وإن كنتم تعدّون التأخر فى المشاركة فى الحرب خطيئة فاذكروا أنى سبقت أخيل إلى المعركة ، وما عوّقنى إلاّ حب زوجة ودود ، وما أخّره هو غير عطف أم حانية . لقد أعطيناهما الأيام الأولى من الحرب بينما

وقفنا عليكم بقية أيامها ، ولست أخشى تهمة يشاركنى فيها بطلٌ عظيم ، ومع ذلك فإن التعرّف على أخيل يعود إلى ذكاء أوديسيوس ، بينما لا يعود هذا إلى أچاكس .

لا تدهشوا حين يطفح لسانه الأحمق سباباً لى فهو يقول عنكم أنتم أيضاً ما ينبغى له أن يخجل منه ، فإذا كان يَشينني أننى وجهت إلى پالاميديس تهمة كاذبة فهل كان مما يشرفكم أنكم أنتم من أدنتموه بهذه التهمة ؟ لا . . لقد عجز ابن ناوپليوس عن تبرئه نفسه من جرم بينٍ بشع . ثم إنكم لم تستمعوا إلى التهمة التى وُجِّهت إليه فحسب بل شاهدتم كذلك دليل جريمته بأعينكم وهى الرشوة . وليس عدلاً أن أحاكَم الآن من أجل بقاء فيلوكتيتيس بن پوياس حيّاً حتى اليوم فى جزيرة ليمنوس الأثيرة عند ڤولكانوس ، فأنا لم أنفرد بعمل كنتم معى فى الإجماع عليه ، ولست أنكر أننى نصحته باعتزال الحرب والأسفار رفقاً بنفسه التى قَسَتْ عليها الآلام فاستجاب إلى نصحى ومن ثم بقى حيّاً حتى الآن ، وهذا ما يؤكد أننى لم أصدر رأيى عن نيّة حسنة فحسب ــ وقد كان هذا وحده كافياً ــ بل لقد كان لنصحى نتيجة طيبة أيضاً . وإذا كان الكهنة يريدون دعوته اليوم ليُسْهِم فى إنهاء تدمير پرجامون فأناشدكم أن تعفونى من تبليغه هذه الرسالة ، ولعل ابن تيلامون بما يملك من بلاغة يكون خير سفير لهذه المهمة لقدرته على تهدئة غضب رجل مريض ثائر ، ولعله يجد حيلة يخرجه بها من عزلته . ولسوف يجرى نهر سيمويس على الضّد من اتجاهه المعتاد ، ولسوف يُعَرِّى جبل إيدا من الشجر ، ولسوف تنقلب الأوضاع بأن تسرع اليونان إلى معونة طروادة قبل أن يستطيع أچاكس الغبى أن يفيد الإغريق بفكره البليد وقبل أن يفتُر حماسى لما فيه نفعكم أو قبل أن يفتُر إخلاصى لكم . وتستطيع أنت يا فيلوكتيتيس القاسى القلب أن تحقد علينا جميعاً ، على مليكك وعلى حلفائك وعلىّ ، وتستطيع أن تغمرنى بالسّباب وتطالب برأسى قرباناً للآلهة وتودّ أن لو يُلقينى الحظ بين يديك حتى تستطيع سفك دمى وأخضع لإرادتك كما خضعت أنت لإرادتى ، ومع ذلك كله فإننى مُقبل عليك محاولاً العودة بك ، ولو أعاننى الحظ فسوف أظفر بسهامك كما ظفرت بسهام هيلينوس الكاهن الدردانى ، وإننى لقادر على ذلك فقد فسّرت نبؤة الهاتف الإلهى وكشفت مصير طروادة[١٣] ، واختلست تمثال منيرڤا الطروادية من محرابها متسلّلا وسط الأعداء الذين كانوا يحرسونه ولم يكن من الممكن أن تأذن الأقدار بفتح طروادة دون الظفر به ، أوَ يمكن بعد ذلك مقارنة أچاكس بى ؟ وأين كان أچاكس بكل ما يفاخر به ؟ لماذا أمسك به الخوف فى ذلك اليوم ، ولماذا كان من حظ أوديسيوس أن يجسر على اختراق خطوط العدو الحصينة والتّستر بالظلام والعبور وسط سيوفه المشهورة ، وتخطّى أسوار طروادة والنفاذ حتى قمم قلاعها لسلب تمثال الإلهة من محرابها والعودة به إليكم من بين صفوف العدو ؟ ولو لم أنجح فى ذلك لما كان لجلود الثيران السبعة نفع على ذراع ابن تيلامون الأيسر ! لقد كان الاستيلاء على طروادة ليلتها ثمرة جهدى ، فقد مهّدت الطريق لفتح حصون طروادة ، ولتكفّ يا صديقى ابن تيديوس عن التمتمة وإرسال النظرات صوب ديوميديس ، فإننى مقرّ أن له بعض الفضل فيما تم إنجازه ، لكنك أنت نفسك لم تكن وحيداً حين أخذت تدافع عن أسطول الحلفاء بترسك فقد كان وراءك جيش كبير بينما لم يكن معى غير رفيق واحد ، ولو لم يعرف أن الحكمة تسبق الشجاعة وأن القوة لا تستأثر وحدها بحق الظفر بهذه الأسلحة

لطالب بها هو كذلك ، ولطالب بها أجاكس الآخر[١٤] الذى يفوقك تواضعاً ، وكذلك يوريبيلوس الرهيب ثم ابن أندرايمون الذائع الصيت ، وإيدومينيوس ومواطنه ميريونيس ، ومنيلاوس أصغر أبناء أتريوس ، على أنهم جميعاً رغم قدرتهم البدنية وإقدامهم على الحرب قد سلّموا بتفوّق حكمتى على حكمتهم . وإذا سلّمنا بأن يمينك باطشة فى المعارك فما أحوجك إلى تلمّس مشورتى حين تحتاج إلى التفكير لحسم أمر من الأمور ، فإذا كنت تملك القوة فما أعوزك إلى ذكائى الذى ينفذ إلى المستقبل . حقاً إنك تحسن القتال ، غير أن منيلاوس بن أتريوس لا يختار لحظة الهجوم إلاّ عن مشاورتى ، فأنت تخدم الإغريق بجسدك بينما أخدمهم أنا بعقلى ، وربّان السفينة أكثر شأناً من ملاّحها الضارب بالمجداف . كما أن القائد أعظمُ شأناً من الجندى ، فأنا أفوقك كما يفوق القلب اليد فى جسد الإنسان ، لأن القلب هو مصدر القوة كلها .

عليكم الآن يا قادة الإغريق أن تقلّدوا الأسلحة أقدر جُنْدِكم ، فامنحونى هذه الجائزة لقاء سنوات طويلة بذلت فيها الكثير من الجهد وحملت فيها الكثير من القلق ، امنحونى هذا الشرف جائزة لخدماتى . لقد قاربت مهمتنا من الانتهاء ، وكم من عراقيل وضعها القدر فى طريقنا وأزحتها عنكم ، كما نجحت فى أن أفتح لكم طريق قلعة پرجامون بل لقد استوليت عليها بنفسى . إننى أناشدكم بالآمال التى نتطلع إليها وبأسوار طروادة الموشكة على السقوط فى أيدينا ، وبالآلهة التى انتزعتها من أيدى الأعداء وبكل ما تمليه الحكمة وبكل ما تفرضه الشجاعة والإقدام أن تذكرونى إذا ظننتم أن طروادة ما تزال أمامها بقية من حياة . أما إذا ما رأيتم ألا تمنحونى هذه الأسلحة فلتعطوها إلى هذه [وأشار إلى تمثال منيرڤا] التى تصنع المصائر والأقدار .

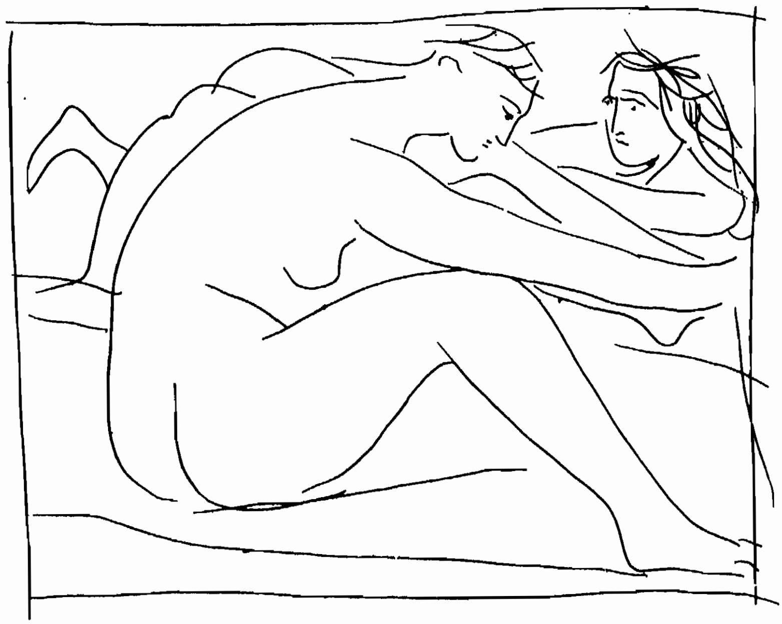
وبهذا نجح أوديسيوس فى استمالة زملائه القادة بكلماته ، وتجلّى سحر البلاغة وسطوتها فى أنه فاز بعد خطبته الرصينة بأسلحة البطل أخيل ، بينما وقف أجاكس الذى كثيراً ما تصدّى لهكتور وواجه أخطار النار والسيف وصواعق چوپيتر عاجزاً عن مغالبة الغضب المحتدم فى أعماقه . وقهر الأسى والحنق أجاكس العصىّ على القهر ، فلوّح بسيفه صائحاً : « وهذا السيف سيفى ، أَوَلاً يريد أوديسيوس أن ينازعنى إياه أيضاً ؟ لسوف أحتفظ به حتى أزهق به روحى ، ولسوف يشرب اليوم هذا النصل من دم صاحبه وهو الذى طالما شرب من دماء الفريجيين ، وهكذا لا يقهر أجاكس أحدٌ سوى أجاكس نفسه » .

ولم يكد ينتهى أجاكس من كلماته هذه حتى أغمد سيفه المميت فى موضع قاتل من صدره الذى لم يمسّه جرح من قبل ، ولم تستطع كفّه أن تقتلع النصل من مكانه فبقى حتى دفعه الدم الجارف المنبثق خارج جسده[١٥] ، وانتشر الدم وتخثّر على الأرض التى تحوّل لونها قرمزياً . ولم تلبث أن انبثقت من بين العشب الأخضر تلك الزهرة القرمزية التى نبتت يوم جُرح الصبى هياكينثوس بن إيبالوس ، وقد خُطّ على أجواف بتلات الزهرة حروف تنطبق على الغلام وعلى البطل ، فهى تسجّل اسم البطل وصيحة أسى الصبى فى آن واحد[١٦]

هيــــكوبا

٤٠٠ وما كاد أوديسيوس يَظْفَرُ بالجائزة حتى أبحر صوب وطن هيپسيپيليه وأبيها الملك ثواس الشهير ، وهى البلاد التى تدنّست بجريمة قتل النساء لأزواجهن(١٧) بغية الحصول على سهام هرقل التى كانت فى ذلك الموطن ، وحين بلغه أخذ السهام ومضى بها إلى الإغريق مصطحباً معه مليكها أسيراً . وبذلك أنهى حرباً طالت ، إذ ما لبثت مدينة طروادة أن سقطت وسقط بسقوطها پريام . وبعد أن فقدت زوجة پريام التعسة كل ما كانت تملكه فى حياتها إذا هى تفقد كذلك هيئتها الإنسيّة ، وانطلقت تملأ أجواء منفاها على شواطىء نهر هيلسپونت المختنق بضفتى المضيق بعوائها .

كانت ألسنة اللهب تُلهبُ طروادة بنارها ، ومحراب چوپيتر يرشف القطرات القليلة المتبقية من دم پريام الكهل ، والمنتصرون يشدُّون كاهنة فويبوس من شعرها وهى تستصرخ الآلهة رافعة ذراعيها ضارعة دون جدوى ، وأمهّات الأسر الطروادية يحتضنّ تماثيل آلهتهنّ ويقبّلنها قبل أن يأتى على معابدها الحريق ، والإغريق الطافرون يسوقونهنّ أمامهم وكأنهن فرائس يتسابقون على الفوز بها ، ويلقون بأستياناكس بن



پيكاسو : هيكيوبا

هكتور[١٨] من فوق الأبراج التى كانت أمّه تدفعه إلى أن يتطلّع منها إلى أبيه وهو يقاتل دفاعاً عن وطنهم وعن مملكة آبائهم .

وحثّت ريح الشمال الإغريق على الإبحار ، وكانت هبّاتها المواتية تهزّ الأشرعة التى أخذت تخفق ، وأشار الملّاحون على الجند بالإسراع للإفادة من هبوب الريح ، وصاحت نساء طروادة الأسيرات بعد أن قبّلن ثرى بلادهن وخلّفن وراءهن ديارهن التى تنفث دخان الحريق « وداعاً يا طروادة إننا نتركك سبيّات رغم أنوفنا » . وكانت هيكوبا [هيكابى باليونانية] التى يثير منظرها الرثاء آخر من غادر أرض الوطن ، وقد عثر الجنود عليها بمقبرة أبنائها وهى تحاول تقبيل عظامهم ، فجرّها أوديسيوس عَنْوةً بعد أن أفلحت فى أن تقبض بيديها على حفنة من تراب أحد القبور ممتزجاً برماد جثة ابنها هكتور وضمّته إلى صدرها بعد أن تركت على قبر هكتور خصلة من شعرها الأشهب ممتزجاً بدموعها قرباناً لمن فقدتهم .

وكانت طراقيا التى يحكمها پوليمسطور ومن حوله حاشيته المفحشة الثراء تواجه عبر البحر فريچيا التى تلألأ فيها نجم طروادة ذات يوم ، وكان پريام قد بعث بابنه پوليدوروس خفية إلى الملك الطراقى لينشأ بعيداً عن أخطار الحرب الطروادية ، وكان هذا منه تدبيراً حكيماً لولا أنه زوّد ابنه بثروة ضخمة كانت كفيلة بإثارة الطامعين للظفر بها . فلم تكد الدائرة تدور على أهل طروادة حتى شهر الملك الطراقى الجاحد سيفه وأغمده فى حلق الصبى الذى كان عليه وصيّا ، ثم ألقى بجثته الهامدة فى البحر الصاخب من فوق صخرة عالية وهو يظن أن جريمته ستختفى باختفاء جثة ضحيته[١٩] .

وكان أجاممنون بن أتريوس قد أرسى سفينته إلى الشاطىء الطراقى انتظاراً لسكون البحر وهبوب ريح مواتية ، وإذا الأرض تنشقّ فجأة فى ذلك الموقع ويظهر شبح أخيل يهول ويهدّد وكأنما عاد إلى الحياة وقد ارتسمت على وجهه سيما الغضب والوعيد كما حدث يوم أن هاجم أجاممنون بسيفه فى غضبة عاتية[٢٠] : « أهكذا أيها الإغريق ، تبحرون وتَنْسَوْننى ؟ هل دُفِنَت مع جثتى ذكريات بطولاتى ؟ لن يكون هذا ! إن عليكم أن تقدموا پوليكسينا قرباناً تتقرّبون به لقبرى حتى تهدأ روحى » .

ومع أن پوليكسينا كانت العزاء الباقى لأمها هيكوبا فقد انتزعها رفاق أخيل القدامى من بين ذراعى أمها استجابة لنداء الشبح المهيب ، واقتادوا العذراء التعسة التى أبدت شجاعة تفوق شجاعة بنات جنسها كى يذبحوها قرباناً على القبر الموحش . ولم تنس پوليكسينا نبل محتدها حين وقفت أمام المذبح الذى لا يرحم وافداً وأدركت أنها لن تلبث أن تغدو ضحية هذه الطقوس الوحشية التى تُعدّ . وما إن رأت نيوپتوليموس أمامها شاهراً سيفه محدّقاً فى وجهها حتى قالت : « أسرع بسفك دمى العريق فلن يحول بينك وبين سفكه شىء ، أغْمِد سيفَك فى حلقى أو فى صدرى » ، وكشفت له مع كلماتها هذه عن صدرها وعنقها معاً ، ثم استطردت قائلة : فلن تقبل پوليكسينا أن تكون أمَةً لإنسان ما ، أُتراك تظن مثل هذه التضحية ستنالون بها رضاء الآلهة عليكم ؟ كل ما أرجوه أن يبقى خبر مقتلى خافياً على أمّى ، فإن انشغال بالى بها هو الذى يهزّنى ويهوّن من فرحة لقائى للموت ، ولن يكون موتى وحده مصدر عذاب لها ، بل أن أحيا وأكون

أمَةً لأحدكم . ولست أبغى غير أن أهوى إلى ظلال العالم السفلى حرّة طليقة . تنحّوْا عنى قليلاً إذا اقتنعتم بعدالة مطلبى ، ولا تدعوا يد رجل تَمَسّ جسدَ عذراء ، وإن من تبغون إرضاءه بذبحى أرْضَى له دمُ حُرَّةٍ لا دمُ أَمَةٍ . ولو كانت كلماتى ستستدرّ عطف أحدكم فليذكرْ أن من ترجوكم ليست من أرقّائكم بل هى إبنة الملك بريام . ولست أرجو غير أن تَظْفَرَ أمّى بجثتى بعد موتى دون أن تدفع عنها فدية ، فلا تكلّفوها أن تدفع لكم مكان الدموع ذهباً جزاءَ حظّها المنكود فى إقامة قبر لى ، وما كان هذا أيسر عليها حين كان ذلك فى مقدورها » . ولم تلبث الدموع التى احتبستها فى عينيها أن انهمرت غزيرة من عيون الحشد المجتمع ، حتى الكاهن نفسه لم يستطع هو الآخر أن يحبس عبراته وهو يغرس الخنجر مُثْقلاً بالندم فى صدرها الناهد . وعلى الرغم من ارتجاف ساقيها وسقوطها على الأرض فقد بقيت قسمات وجهها تنبىء عن شجاعتها ، كما كانت أحرص ما تكون على أن تستر جسدها عن عيون الناظرين فى خفرٍ وحياء .

وهرعت نساء طروادة إلى جسدها يحملنه مُعْوِلات مردّدات أسماء أبناء بريام وبناته الذين كم بكت لمأساتهم العيون بعد أن سال دمهم واحداً إثر الآخر ، وسرن يندبن مصير الفتاة وما أصبحت عليه أمها التى كانت إلى عهد قريب ملكة وقرينة ملكٍ عاشت رمزاً لآسيا المزدهرة ، ثم غدت بين الأسيرات أمَةً تعسة لأوديسيوس ، وما كان ليأسرها لولا أنها أنجبت هكتور الذى كانت بطولته الخارقة سبباً فى أسر أمّه واسترقاقها .

وضمت هيكوبا جثة ابنتها إلى صدرها تتأملها وقد همدت بعد أن فارقتها روحها الباسلة وانخرطت فى البكاء من جديد ، وانهمرت دموعها ثانية بعد أن انهمرت مرات حزناً على زوجها وأبنائها ووطنها فانسكبت على جرح ابنتها ، وغطّت قبلاتها فمها وضربت صدرها وما أكثر ما ضربته حسرة على موتاها السالفين ، ولطّخت شعرها الأشيب بدم ابنتها المتخثّر ، وخمشت جسدها بأظافرها وأخذت تصيح : « ابنتاه يا ذروة شقاء أمك ، ماذا بقى لى بعدك يا ابنتى ، ها هو ذا جسدك مُسجًّى أمامى هامداً . وإنى أتأمل جرحك الذى هو جرحى . يا ويحى هل كان قَدَرًا محتوماً علىّ أن أفقد أعزائى جميعاً قتْلَى ؟ لقد كنت أحسب أدنى ما أحسب أنك لن تموتى بنصل خنجر إذ كنتِ أنثى ، غير أنك وقعت فريسة له ضحية ذلك الوغد الذى قضى على إخوتك جميعاً : أخيل مدمّر طروادة الذى تركنى ثكلى . لقد ظننت ساعة مزّقته سهام باريس وفويبوس ألاّ خوف منه بعد ، ومع ذلك فقد كان علىّ أن أخشاه ، فرماده ــ رغم انتثاره فى قبره ــ يثور فى وجهى ووجه أسرتى ممزوجاً بالعداء لنا . أتراُنى قد أنجبت أولادى كى أقدّمهم فريسة لحفيد إياكوس [أخيل] ؟ وها هى ذى طروادة العظيمة قد صارت دِمَناً وأطلالاً ، وحلّت بدولتنا كارثة مروعة وانتهت إلى أبشع نهاية ، ثم إن الكوارث ما لبثت تلاحقنى ، وكأنما يرى فىّ الأعداء ما تخلّف من طروادة ، أنا التى كنت منذ عهد قريب عظمى نساء وطنى بزوجى وأبنائى وبناتى وأزواج بناتى وزوجات أبنائى . ها أنا ذا اليوم أُساق إلى المنفى تعسة مُنتزَعةً من بين قبور أسرتى ، هدية إلى بنيلوبى التى ستناولنى الصوف لأغزله وهى تشير إلىّ أمام نساء طروادة قائلة : ها هى ذى أم هكتور الشهيرة زوجة الملك بريام . ابنتاه يا من فقدتها بعد أن فقدت الكثيرين قبلها ، ويا من كنت سلوى أمك الوحيدة ، لقد ذبحوك على قبر

عدونا . أتُرانى قد حملتُ بك كى أقدّمك قرباناً لعدوّنا ؟ ما أتعس قلبى ، كيف أستبيح لنفسى البقاء من بعدك والتوانى عن اللحاق بك ، ولمَ أعيش وقد أثقلتنى السّنون على امتدادها . أيتها الآلهة القساة القلوب لماذا تبطئون بموت امرأة عجوز عاشت طويلاً إلا إذا كان مقدّراً لى أن أحيا لأشهد مزيداً من الموت والشقاء ؟ من كان يظن أن پريام سوف يكون محظوظاً بعد دمار طروادة ؟ إنه لا شك محظوظ لأنه مات ولن يشهدك قتيلة يا ابنتى ، فلقد فارق المُلك والحياة معاً ، ألا ليتهم يمنحونك مراسم جنائزية تليق بابنة ملك عظيم ! ويا ليتهم يوارون جثمانك ضريح أجدادك الشامخ ! لا ، لن تسعدى بهذا يا ابنتى فليس لبيتنا أن يظفر بهذا الشرف ، ولن يكون لك قربان سوى دموع أمك وحَفْنةٌ من ثَرى غير ثَرى مَنْشَئك . لقد فقدتُ كل شىء ، ولم يبق لى ما يجعلنى أقبل الحياة أمداً آخر سوى طفل قريب إلى قلبى هو پوليدوروس الذى كان أصغر أبنائى وأصبح الآن وحيدى ، وكنا قد بعثنا به إلى شواطىء بعيدة ليكون فى حِمَى ملك طراقيا(٢١) ولكن لِمَ أضيّع الوقت سدى ؟ إنه لأجدر بى أن أغسل جرحك الذى فتك بك ووجهك الملطخ بدم أهدرته يد لا تعرف الرحمة » .

وقامت المسكينة بعد كلماتها هذه تمشى بخطى أثقلتها الشيخوخة تقصد الشاطىء وهى تشدّ شعرها الأبيض ، وتردّد : « أعطونى إناء يا نساء طروادة » . ومالت لكى تغترف من مياه صافية فإذا هى تبصر جثة پوليدوروس وقد ألقت بها الأمواج على الشاطىء ، وشاهدت جراح جسده بفعل خناجر طراقيا . وبينما انطلقت نساء طروادة فى العويل أصيبت هيكوبا بالخرس من فرط كربها ، فقد اختنق صوتها وجفّت الدموع فى مآقيها وجمدت فى وقفتها وكأنما تحولت إلى كتلة من حجر الصوان ، وثبتت نظراتها وهى تحملق فى الأرض وأخذت تقلّب وجهها المتغضّن القسمات بين السماء تارة وبين وجه ابنها تارة أخرى ، ثم تطلّعت إلى جراحه وأخذت رغبة الثأر تحتدم فى أعماقها والغضب يغلى فى صدرها حتى إذا بلغ غضبها عنفوانه صمّمت على الانتقام وكأنها ما تزال ملكة ، وانشغلت بالاً بالوسيلة التى سوف تثأر بها ، وبدت كاللبؤة التى انتُزع منها شبلها الرضيع تهيم على وجهها فى كل مكان تتبع آثار أقدام من انتزعوه وتطارد عدوا لا تعرفه . وهكذا كانت هيكوبا أسيرة مزيج من الحزن والحَنَق ، أُنسِيَت شيخوختها ولم تنس شجاعتها ، فقصدت پوليمسطور الشّقيّ الذى ارتكب تلك الجريمة البشعة ، وطلبت لقاء الملك بدعوى أنها تريد مكاشفته بأمر كنز من الذهب أُخفى من أجل ابنها فصدّقها الملك الطراقى الذى أعماه جشعه الفطرى ، فجاءها وحده وتلطّف معها فى الحديث كى يمكر بها وهو يقول : لا تضيعى الوقت يا هيكوبا وأعطنى كنز ابنك وأقسم بالآلهة أنى سأحتفظ به له ، إلى كل ما أعطيتنى إياه فى الماضى من أجله » .

ومضت تحدجه بنظرة عابسة وهو يتكلم ويقسم حانثا إلى أن فار غضبها المكبوت ، فاستغاثت بحاشيتها من الأمّهات الأسيرات اللاتى أمسكن بالملك فغرست هى أصابعها فى عينيه الغادرتين واقتلعتهما من محجريهما ، وقد ضاعف حزنها من قوتها فدسّت أصابعها الملوثة بدمه الآثم مرة أخرى فى محجرىْ عينيه اللذين لم يبق منهما شىء وانطلقت تعبث بهما .

وحين سمع أهل طراقيا بما حلّ بملكهم تدافعوا يرجمون هيكوبا الطروادية بالأحجار ويرشقونها بالسهام ، وكانت كلما أصابها حجر أو سهم فتحت فمها ودمدمت به دون أن يصدر عنها غير صوت أشبه بنباح الكلاب فظل المكان الذى شهد هذه الأحداث معروفاً باسم مقبرة الكلبة(٢٢) . وأخذت هيكوبا تهيم على وجهها فى حقول طراقيا وتعوى عواء حزيناً كلما ألحّت عليها ذكريات شقائها ، إلى أن أثار مصير هذه الملكة التعسة عطف شعبها الطروادى وأعداءها الإغريق والآلهة أنفسهم ، فإذا چونو زوجة چوپيتر وأخته تعترف بأن هيكوبا لم تكن تستحق هذا الشقاء كله .

ممنـــــون

لم تجد أورورا ربّة الفجر فُسحة من الوقت تُشْغَل فيه بمآسى طروادة وهيكوبا على الرغم مما كانت تضمره من ميل إلى انتصار جيش طروادة(٢٣) ، فقد استحوذ عليها شجن دفين لمصرع ابنها فى سهول فريچيا ، وقد رأته وهى تتلفّع بردائها الزعفرانى مصاباً برمح أخيل ، وعندها شحب اللون الوردى الذى يكسو ساعات الصباح واختفى نور النهار وراء ستار من السحب . وحين وُسِّد على المحرقة لم تقو على أن تُلْقىَ نظرة عليه ، وما منعها كبرياؤها من أن ترتمى بين يدى چوپيتر مشوّشة الشعر تبكى وتُعْوِل متوسّلة قائلة : « أدركُ أننى أقل الآلهة شأناً فى سماواتك الذهبية اللون ، وما شُيد لى فى العالم غير معابد قليلة ، ولكنى مع هذا لازلت إلهة ، وما جئت طمعاً فى محراب يُقام لى أو هيكل تتوهّج فيه النار ، ولا رغبة فى الظفر بيوم تُقدّم لى فيه القرابين . لم أجىء لهذا وإن كنت أهلاً له على الرغم من ضعفى وأنوثتى ، فأنا مع كل فجر جديد أؤدى لك عملاً جليلاً بفصلى النهار عن الليل . وما جئتك أطلب حقاً فى تبجيلى وتكريمى فإن ما أنا فيه لا يتيح لى هذا ، وإنما جئتك لأننى فقدت ابنى ممنون ذلك الفتى الذى امتشق الحسام من أجل عمه [پريام] فى شجاعة لم تُجْده شيئاً ، فلقد قُتل بسهم أخيل وهو ما يزال فى زهرة العمر . إننى أضرع إليك يا ملك الآلهة أن تمنحه قدراً من التكريم كى تخفّف من كارثة موته علىّ وكى تسكّن لوعة لأم قلبها جريح » ، فأومأ چوپيتر برأسه استجابة لمطلبها ، وسرعان ما تداعت محرقة ممنون العالية وأتت عليها ألسنة اللهب المندلعة وهى تقذف بحَمَم من الدخان الأسود إلى أعلى حتى أظلمت السماء ، فكان مَثَلُ هذا الحَمَم المُتصاعد مَثَل الضباب المتصاعد من الأنهار فيحجب أشعة الشمس من النفاذ ، وما لبث أن تحول رماداً أسود فى الأفق واستحال جسداً له من النار الدفء والحياة ، وخلعت عليه خفّته أجنحة يطير بها ، وأصبح بادىء ذى بدء شبيهاً بالطير ، ثم ما لبث أن صار طيراً حقيقياً يهزّ ريشه فيثير صخباً مدوّياً . وسرعان ما انضم إليه عدد لا حصر له من طيور مثيلة وُلدت مثله مما وُلد منه وملأت أجواز الفضاء بخفق أجنحتها ، وقد حلّقت حول المحرقة مرات ثلاث وهى تولول نائحة فى كل مرة . وحين حلّقت للمرة الرابعة انقسمت إلى سربين انطلقا فى اتجاهين متضادين ، ثم أقبلا يهاجم أحدهما الآخر فى غضب وشراسة تجلّت فى تمزيق أجنحة بعضها البعض وصدورها بمناقيرها ومخالبها المعقوفة ، ثم تساقطت أجساد هذه الطيور التى تنتمى لأسرة واحدة وكأنها قرابينُ تُقَدَّم إلى الرّماد المتبقى من جثة البطل الذى إليه خلقها ،

والتى أُطلق عليها اسمه ، إذ سميت بالممنونيديس [أى آل ممنون] . ومازالت كلما أكملت الشمس دورة فى أبراجها الاثنى عشر تنهض فتستأنف قتالها ثم تموت من جديد تكريماً لمُنجبها . وعلى حين كانت مأساة هيكوبا بنت ديماس التى لها عواء كعواء الكلب تثير شفقة بعض الآلهة ، بقيت مأساة أورورا حبيسة فى صدرها . وما تزال أورورا تذرف دموع الأم الآسية فتتناثر على الأرض قطرات ندى .

أينياس عند أنيوس

لم تشأ الأقدار أن تنهار كل آمال طروادة مع انهيار أسوارها ، فقد حمل البطل أينياس بن ڤينوس إلهة كيثيرا تماثيل آلهة المدينة المقدّسة ، كما حمل معها أباه الذى يشاركها قدسيّتها ، ولم يحمل أينياس شيئاً آخر مما يملك وسار بجانبه ابنه الحبيب أسكانيوس ، ثم أبحر من ميناء أنتندروس فارّا بسفنه عبر البحار مخلّفاً وراءه ديار طراقيا الآثمة الملطخة بدماء پوليدوروس ، وظلّت الرياح المواتية تدفع به حتى بلغ مع رفاقه جزيرة ديلوس حيث وُلد أپوللو . وكان أنيوس ملكها وكاهنها معاً يخدم شعبه وإلهه أپوللو بهمة وورع ، ففتح داره ومعبده لأينياس وطاف معه المدينة يدلّه على معالمها ومعبدها المشهور وجذعى الشجرتين اللتين احتضنتها لاتو فى وضعها جنينيها(٢٤) . وبعد أن نثر الطرواديون البخور على النار وسكب النبيذ على البخور حسب العُرف المتبع وحرقوا أحشاء البقرات الصغيرة الذبيحة عادوا إلى القصر الملكى حيث أُعدّت لهم الفُرُش الثمينة الطنافس ، فأكلوا من خيرات سيريس وشربوا من نبيذ باكخوس . وعندها أخذ أنخيسيس الورع يقول : « سيدى كاهن فويبوس وخليله . أترانى مخطئاً إذا قلت إنه كان لك ولد وبنات أربع حين زرت مدينتك للمرة الأولى ؟ » ، فهز أنيوس رأسه المعصوبة بشريط أبيض يحفّ بصدغيه وأجاب فى حزن واكتئاب : « لا لست مخطئاً أيها البطل النبيل ، فقد كنت يوم رأيتنى أبا لخمسة أولاد وأكاد اليوم أعيش محروماً منهم ، فهكذا تتلاعب الأقدار بحياة البشر . وما يجدينى أن يعيش ابنى بعيداً عنى فى بلاد أندروس التى سُمِّيت باسمه ويحكمها نائباً عنى . وإذا كان أپوللو إله ديلوس قد وهب ابنى ملكة التنبؤ فقد منح الإله باكخوس بناتى مَلَكات أعلى شأناً مما توقّعن ، فما تلمس أيديهن شيئاً إلاّ تحوّل غلالا أو جداول نبيذ أو زيت زيتون ، فكنّ بذلك مورد رزقى وأى رزق ! غير أن أجاممنون الذى نهب مدينتكم انتهت إليه عجائب بناتى فبادر ينتزعهن من حضنى . وهكذا ترون أن الأعاصير التى أتت عليكم قد أصابتنا ببعض شرورها . وقد أمر أجاممنون بناتى بأن يمددن أسطول الإغريق بالطعام والشراب ، غير أنهن جميعاً أبين فى إصرار ولُذْن بالفرار ، واستطاعت اثنتان منهن بلوغ جزيرة يوبويا ، ولحقت اثنتان بشقيقهما فى أندروس فاندفع وراءهما جيش العدو متوعّداً بالحرب شقيقهما إن لم يُسلمهما إليه . وغلبت رهبة العدو فى نفس الملك حبه لشقيقتيه فأسلمهما لمصيريهما . ألا فلتغفر له خَوَره فلم يكن إلى جانبه هكتور أو أينياس يدافعان عن أندروس كما دافعا عن طروادة التى قاومت عشر سنين . وأخذ الإغريق يُعدّون الأغلال لكى يقيّدوا بها أيدى الأسيرتين فإذا هما ترفعان ذراعيهما صوب السماء صائحتين فى ضراعة : « امدد لنا يد العون » يا أبانا باكخوس » .

واستجاب باكخوس الذى منحها موهبتها فأمدّهما بعونه ، هذا إذا أسمينا التحول من هيئة إلى أخرى عوناً ، وما أدرى كيف فقدتا شكليهما ، ولست إلى اليوم قادراً على أن أصف ما وقع لهما ، وما أعى غير تلك الكارثة التى حلّت بى منذ أن نبتت لهما أجنحة ورأى الناس مكانيهما يمامتين بيضاوين بياض الثلج ، هذا الطير الأثير لدى زوجتك ڤينوس »[٢٥] .

وأمضى الرفاق الوقت خلال الوليمة يسرُّون عن أنفسهم بهذه القصة وبقصص أخرى مماثلة إلى أن انتهوا من طعامهم وأووا إلى النوم ، واستيقظوا مع الفجر يستشيرون عرّاف فويبوس الذى أمرهم بالبحث عن أمّهم العريقة وعن الشواطىء التى عليها نشأت أسرتهم .

٦٨٠ وودّعهم الملك مقدِّماً لهم ما غلا وعزّ من الهدايا ووهب أنخيسيس صولجانا ومنح حفيده عباءة وجعبة سهام ، وأسلم أينياس كأساً ثمينة كانت قد آلت إليه من ضيفه ثرسيس الذى كان يسكن طيبة ، وكان صائغها ألكون من هيلاى قد نقش عليها نقوشاً فصّل فيها قصة طويلة تصوّر مدينة ذات أبواب سبعة تدل أوصافها على أنها مدينة طيبة[٢٦] ، وصوّر أمام سور المدينة مشهدا جنائزياً بمواكبه ومقابره ومحارقه المشتعلة وكذا الأمهات العاريات الصدور والهواء يعبث بشعورهنّ ، وحوريات البرّ والبحر باكيات شاكيات جفاف ينابيعهن ، وشجرة جرداء عارية ، ومجموعة من الماعز تتشمّم التربة الصّلبة التى جمّدتها حرارة الشمس . وصوّر الفنان وسط مدينة طيبة ابنتى أوريون[٢٧] وقد أمسكت إحداهما بسكين تقطع بها عنقها العارى فى شجاعة ليست للنساء ، بينما أغمدت الثانية طرف مغزلها فى قلبها فماتت شهيدة وطنها بسلاح ليس فى الحقيقة سلاحاً . ثم صوّر جسديهما محمولين خلال المدينة فى موكب جنائزى مهيب يمضى إلى المحرقة التى ستلتهمهما نيرانها أمام جماهير المشيّعين ، وفجأة ينهض من رماد العذراوين شابان اشتهرا فيما
٧٠٠ بعد باسم « التّاجين »[٢٨] وتقدّما يقودان الموكب الجنائزى لرماد جثتى أُمّيهما ، وكان سرّ ميلادهما الحرص على ألا تنقطع سلالة ابنتى أوريون[٢٩] بوفاتهما . وتنتهى نقوش هذه الوجوه البرّاقة فوق البرونز العتيق لنشهد على حافة الكأس شريطاً من زخارف أوراق الأكانثا البارزة المذهّبة . وقد تقبّل الطرواديون هذه الهدايا وقدّموا لقاءها هدايا لا تقل عنها قيمة ، منها صندوق بخور للكاهن ، وصحن للقربان وتاج مرصّع بالذهب والجواهر .

وحين ذكر الطرواديون أنهم ينحدرون من سلالة تيوكر لجأوا بسفنهم إلى جزيرة كريت ، إلا أنهم لم يقووْا على تحمل قسوة مناخها أمداً طويلاً فأبحروا من هذه الجزيرة ذات المدن المائة أملاً فى بلوغ شواطىء أوزونيا[٣٠] [إيطاليا] ، غير أن أعاصير قوية عرضت لسفن الأبطال فالتجأوا إلى موانىء جزر الستروفاديس[٣١] التى لم يجدوا فيها المأوى الآمن ، إذا اعترضهم ذلك الوحش المجنّح أيبلو الذى أفزعهم فولّوا يعبرون موانىء دوليخيون وإيثاكا وساميه وديار نيريتوس حيث مملكة أوديسيوس المخاتل ، وشاهدوا عن بُعد أمبراكيا التى تنازع الآلهة وهرقل السيادة عليها[٣٢] . كما رأوا على شاطىء أكتيوم تلك الصخرة التى مُسخ إليها مَنْ حَكَمَ لصالح هرقل ، وهذه الصخرة قائمة اليوم بمعبد أبوللو[٣٣] ، كما مرّوا بدودونا

ذات أشجار البلوط الناطقة(٣٤) ، وخلجان خاوونيا التى استطاع أن يُفْلِت من حريقها الذى أشعله الآثمون أبناء ملك مولوس بأجنحتهم التى ظلوا بها محلّقين طويلاً فى السماء(٣٥) .

ثم أبحروا إلى أرض الفاياكيين(٣٦) ذات بساتين الفاكهة الغنية بالثمار ، وأرسوا بمدينة بوثروتوم بمقاطعة إپيروس التى بنيت على غرار طروادة ، وكان يحكمها كاهن فريجيا هيلينوس بن پريام الذى كان عرّافاً لا تخيب له نبوءة ، وحين عرفوا منه مصيرهم ومستقبلهم أبحروا إلى صقلية ، وهى جزيرة تمتد منها ثلاثة ألسنة داخل البحر ، أولها يواجه الجنوب الممطر ويسمى پاخينوس ، ويهبّ نسيم الغرب العليل على ثانيها المسمى ليليبايوم(٣٧) ، ويتطلع ثالثها وهو پيلوروس إلى الشمال وإلى كوكبتى الدّبين الأصغر والأكبر اللتين لن تهبطا أبداً من سمائهما فتطويهما صفحات الماء . واقترب الطرواديون من هذا اللسان واستطاعوا بما لمجاديفهم من قوة وبما أمدّهم البحر من عون أن يبلغوا عند حلول المساء شاطىء زانكليه الذى كانت تهدّده من الجانب الأيمن صخرة سكيللا ومن الجانب الأيسر صخرة خاريبديس النَّهمة التى لا تنفك تلتهم السفن ثم تقيئها . أما سكيللا التى تلتف حول خصرها كلاب مفترسة فلها وجه فتاة ، وكانت قبلُ فتاة حقاً ، كما تروى قصص الشعراء وما نظنها مخطئة فيما تروى(٣٨) ، وكم من خُطّاب — كما قيل — طلبوا يدها لكنها رفضتهم جميعاً ، وكم كانت تختلف إلى حوريات البحر الهائمات بها وتقصّ عليهن عزوفها عن حبّ الفتيان . وفيما كانت يوماً جالسة مع الحورية جالاطيا تمشّط لها شعرها إذ تنهدت جالاطيا قائلة : « حسبك أنك فتاة يتودّد إليك شبان لم تخل قلوبهم من الرحمة وتستطيعين صدّهم دون أن يُنال منك بجزاء . أما أنا ابنة نيريوس فعلى الرغم من حماية إخوتى لم أستطع الإفلات من مطاردة الكيكلوپيس إلّا بعد أن دفعت من الألم والحزن ثمناً غالياً » . وخنقت الدموع كلمات جالاطيا ، فأخذت سكيللا تمسحها بأناملها البيضاء بياض البَرَد وتسرّى عن الحورية قائلة : « يا أحب الناس إلىّ خفّفى عن نفسك وارْوِ لى قصتك ولا تُخفى عنى سرّ حزنك فما أولانى بثقتك » ، فبدأت الحورية تقص قصتها على ابنة كراتاييس قائلة :

أكيس وجالاطيا وپوليفيموس

« على الرغم من أن أكيس بن فاونوس من حورية البحر سيمايثوس كان محبوباً من أبويه ، فإن حبى له كان يُرْبِى على حبهما له . فلقد كان وحده محطّ عواطفى ، وكان وسيماً بلحيته النابتة التى كانت أشبه بالزغب على وجنتيه ولم يكن قد تجاوز السادسة عشرة من عمره . وبينما كنت أتلمّسه أنا أنّى ذهب كان الكيكلوپيس [السيكلوپيس] پوليفيموس يتتبّعنى أنا ، ولو سألتنى أيهما كان أشدّ ، حبى لأكيس أم كراهيتى لپوليفيموس ما ملكت أن أجيب ، فلقد كانت العاطفتان متناظرتين حدّة . ما أقوى سلطانك يا ڤينوس الحانية إذ جعلت من پوليفيموس كائناً يتذوّق الحب ، وهو ذلك الوحش الذى يثير الرعب حتى فى الغابات الموحشة ، ويودى بحياة أى طارىء يقع نظره عليه ، ويزدرى جبل أوليمپوس ومن عليه من الآلهة ، فأصبح أسير شهوة عارمة واشتعل حبه فأنساه قطيعه والكهوف التى يأوى إليها . وكم حاولت

يا پوليفيموس أن تهذّب من هيئتك لتنال إعجابى ، وكم مشّطت شعرك المنفوش بالمذراة وحلقت بالمنجل لحيتك غير المشذّبة ، وكنت تتخذ من صفحة الماء مرآة تتأمل فيها وجهك القبيح تحاول تغيير ملامحه ، وأنسيت وحشيّتك وظمأك إلى الفتك بالناس وسفك دمائهم ، فكنت تترك السفن تروح وتغدو لا تمسّها بضرر . وكان تيليموس بن يورموس الذى لم تخطىء نذُرُه قط قد بلغ وقتذاك صقلية خلال إحدى جولاته وصعد سفح جبل إتنا لزيارة پوليفيموس المروّع ونصحه قائلاً : « كن على حذر فسوف يقتلع أوديسيوس عينك الوحيدة وسط جبينك » . وعندها ضحك العملاق وهو يقول : « إنك لمخطىء يا أكثر العرّافين حمقاً ، فثمة فتاة سبقته إلى استلابها » . وهكذا ذهبت نصيحة تيليموس سدى ، فلقد امتهنها پوليفيموس ولم يلق بالاً إليها ، وانطلق بخطى واسعة فوق كثبان الشاطىء حتى أدركه التعب فعاد إلى ظلمات كهفه .

وصعدَ الكيكلوپيس فى تلّ يمتد مسافة طويلة على ساحل البحر فى شكل لسان ترتطم به الأمواج من كل جانب ، وجلس على القمة وبين يديه قطيع أغنامه ، ووضع إلى جانبه جذع الصنوبر الطويل طول صارى السفينة ، والذى كان له عصا يعتمد عليها ، وأمسك بالمصفار الرعوى المكوّن من مائة قصبة ضُمّ بعضها إلى بعض وراح ينفخ فيها نغماته الرّعدية فردّدت الجبال والبحار صداها . وكنت أنا مسترخية فى أحضان أكيس وراء صخرة وتسمّعت إلى كلمات الكيكلوپيس التى يتغنّى بى فيها ويشبّب بقوله : « لأنت يا جالاطيا أنصع بياضاً من الورود البيض ، وأجمل من سائر زهور المروج ، وأرقّ رشاقة من شجر الحور ، وأشدّ إشراقاً من البلّلور ، وأخفّ من الحَمَل اليافع ، وأنعم ملمساً من الأصداف التى يغسلها البحر دوماً . يا من أنت أكثر دفئاً من الشمس فى الشتاء وأكثر حناناً من الظلال فى الصيف ، وأحلى مذاقاً من الفواكه ، وأكثر بهاء من شجر الدّلب الشامخ ، وأشدّ تألقاً من الثلج ، وأشهى من الكَرْم الناضج ، وأملس من زغب البجعة وأطرى من اللبن الخاثر . لو لم تهربى منى لكنت أروع جمالاً من الحديقة الغنّاء بجداولها ، لكنك يا جالاطيا أعصى نفوراً من الثيران الجامحة ، وأشد إباءً من البلّوط العجوز ، وأكثر خداعاً من البحر ، وأشد مراوغة لليد من غصينات الصفصاف ومحاليق الكروم البيضاء ، وأشد صرامة من هذه الصخور ، وأعتى ثورة من ذلك النهر ، وأكثر صلفاً من الطاووس يتيه زهواً ، وأقسى من النار وأخشن من نبات الشّوك ، وأكثر توحّشاً من أم الدبّ ، وأصمّ من الخِضَمّ ، وأخطر من الأفعى حين تطؤها قدمٌ عن غير قصد ، وأخيراً فإن عيبك الأكبر الذى أود أن أبرئك منه هو أنك أسرع فى العدْو من الوعل الذى تطارده كلاب الصيد بنباحها ، بل أسرع من الريح العاصف . آه لو كنت تعرفينى حق المعرفة ، إذن لأسفت على هربك منى ولندمت على تمنّعك عنّى ، ولحاولت الإستمساك بى ، فأنا أملك فى سفح الجبل غاراً تتصدّره صخرة نابضة بالحياة على شكل قبو لا تنفذ عبره حرارة الشمس ولا برودة الشتاء ، وعندى من الأشجار ما تميل غصونها من ثقل ثمارها ، ومن الكروم ما يزحف حاملاً عناقيد العنب الشبيه بالذهب والأرجوان . لقد ادّخرت ذلك كله لك ، وبيديك تستطيعين قطف ثمار الفراولة الطيبة المذاق فى ظلال الغابات ، وثمار الكرز والبرقوق فى الخريف ، ولست أقصد البرقوق الداكن وحده ، فهناك أيضاً نوع أخضر ضارب إلى الصُّفرة يشبه الشمع الغض . ولو اتخذتنى زوجاً لذُقت الكستناء كما تشاءين ، ولنعمت

بثمار البطيخ . وهنا ستصبح كلّ شجرة لك ، وتحوزين كل هذه الأغنام التى ترين ، ولى كثير غيرها ترعى فى الوديان أو تهيم فى الغابات أو تُشَدّ فى حظائرى . ولو سألتنى ما استطعت إحصاء قطعانى ، فالفقير وحده هو من يحصى أغنامه ، وإذا شئت معرفة جمالها فلا تُزَكّى لحديثى عنها بل تعالى هنا لتشهدى بنفسك كيف تعجز قوائمها عن حملها لامتلاء أثدائها . وقد جمعت النتاج الجديد فى حظائر دافئة ، وجعلت لكل من الماعز والحملان حظائره المستقلة ، وما أغزر اللبن الأبيض بياض الثلج عندى ، أحفظ بعضه للشرب وأخمّر الباقى ليختثر . ولتسألى إن شئت عن أليف الحيوان فالجميع رهن إشارتك ، ولن أقدّم لك ما يسهل الإمساك به من الحيوانات الأليفة كالوعل والأرنب أو الماعز واليمام ، أو صغار الطير فوق غصون الشجر ، بل سأقدم لك توأمين من صغار الدّب الوحشى متشابهين يستحيل عليك تمييز أحدهما عن الآخر اقتنصتهما فوق الجبل وسأقدّمهما لك كى تأنسى بهما ، وقد قلت لنفسى حين عثرت عليهما فلأحفظهما من أجل حبيبتى . ناشدتك يا جالاطيا أن تطلىّ بوجهك المشرق فوق البحر الأزرق ، هلمّى ولا تزدرى هداياى . وليس يخفَى علىّ شكلى ومع هذا فلقد رأيت صورتى منعكسة على صفحة المياه الصافية وأعجبتنى . انظرى إلى طول قامتى ، وما أظن چوپيتر يفوقنى طولاً ، [هذا الذى لم أسمع إلاّ منكم أنه حاكم العالم] ، وخصلات الشعر الغزير تحتضن قسمات وجهى الصارمة وتلقى على كتفى ظلالها وكأنها دغل كثيف . ولا تعدّينى دميماً لغزارة الشعر الخشن الذى يكسو جسدى ، فكم تبدو الشجرة قبيحة حين تكون جرداء ، والجواد لا يحظى بالإعجاب ما لم يُغَشّى عنقه عُرْفٌ غزير ، ولا تجمل الطيور إلاّ بريشها ولا الأغنام إلاّ بفرائها ، وليس أنسب للرجل من لحية تملأ وجهه وشعر غزير يغشّى جسده . حقاً ليست لى إلاّ عين واحدة وسط جبينى لكنها عين تشبه درعاً عظيماً ، وماذا فى ذلك ؟ أوَلاً تعانق الشمس بنظرتها الكون كله من علياء سمائها الفسيحة وما لها غير عين واحدة ، هذا إلى أن أبى هو ملك البحار التى تحيَيْن فيها[٣٩] ، ولسوف يصبح حماً لك إذا تزوّجتنى . فليس فى العالم كله من أسجد أمامه سواك ، أنا من ازدرى چوپيتر والسماوات والصواعق النافذة ، أخشاك يا أجمل بنات نيريوس ، فغضبك أشد هولاً من البرق . وقد أحتمل ازدراءك لى لو كنت تزدرين الجميع ، ولكن لماذا تصدّين الكيكلوپيس وتمنحين حبّك لأكيس ، ولماذا تؤثرين عناقه على عناقى ؟ فليزْهُ أكيس ما شاء له الزّهو وما شئت أنت يا جالاطيا . ليكن ، غير أنه لأول وهلة سيعلم أن قوتى كفاء ضخامتى . ولسوف أنتزع أحشاءه حياً وأمزّقه ثم أنثر أطرافه فى الحقول . تُراه هل يستطيع بعد ذلك أن يقترن بك ، إننى أحترق عشقاً ولهيب الهوى يلذعنى ويضحى أشدّ لذعاً حين أكون موضع ازدرائك وكأنى أحمل فى أحشائى بركان إتنا . ومع هذا فأنت لا تبالين بى يا جالاطيا » .

وبعد أن فرغ پوليفيموس من هذه المناجاة التى ذهبت أدراج الرياح وقف كالثور الذى جُنّ بفقد بقرته ، وأخذت عينىّ تتبعه وهو لا يطيق الوقوف ساكناً بل يهيم على وجهه فى الغابات والمراعى التى يألفها . وإذا بصرُ العملاق يقع علينا فجأة ونحن لا ندرى ما سيعرض لنا من خطر ، وإذا هو يصيح فى وحشية : « ها أنذا قد رأيتكما ولسوف أجعل عناقكما هذا آخر عناق لكما » . وكان صوته راعداً اهتز له بركان إتنا نفسه ، وأسرعت بالغوص فى المياه فزعة بينما استدار أكيس بن سيمايثوس هارباً وصاح بى

٨٨٠ مستنجداً : « عونك يا جالاطيا ، عونكما يا والدى ، ائذنا لى فى أن أدخل مملكتكما ، فإن لم تفعلا لحق بى الموت » . وانطلق الكيكلوبيس يطارد أكيس بعد أن انتزع كتلة ضخمة من سفح جبل وقذفه بها ، ومع أن طرفاً منها هو الذى مسّ أكيس إلا أنه كان كافياً لسحقه ، وما نملك غير ما تتيحه الأقدار فلقد منحته الأقدار طبيعة جدّه[٤٠] . كان الدم يسيل أرجوانياً أسفل كتلة الصخر الضخمة التى سقط تحتها ، وما هى إلّا لحظات حتى بدأ الدم يشحب ، وشيئاً فشيئاً ظهر نبع صافٍ من المياه ، وتفتّتت الصخرة وانشقّت وانبثقت من شقوقها سيقان غاب طويلة ميّاسة . وتفجّرت المياه صاخبة من جوف الصخرة . وفجأة ، ويا لها من معجزة ، برز شابٌ من النبع إلى خصره وفى جبهته تاج من سيقان نبات السُّمار المجدول حول قرنين حديثى النَّبتة ، ولو لم يكن ما بدا من قامته طويلاً ولو لم يكن لازوردى الوجه لكان هو أكيس نفسه ، ومع ذلك ومع هذا الشكل الجديد فقد بقى أكيس هو هو رغم تحوّله إلى نهر ، وصار هذا النهر يحمل اسم أكيس .

جـــلاوكــوس

٩٠٠ وفرغت جالاطيا من حديثها وتفرّقت حوريات البحر سابحات فى المياه الساكنة إلّا سكيللا ، فقد عادت مسرعة إلى الساحل لا تجرؤ على البقاء فى عُرض مياه البحر ، وكانت تخطر عارية على الشاطىء تارة ، وكلما وجدت ظلمة بمعزل استرخت فى ظلها تارة أخرى ، وإذا هى تستمع فجأة إلى صرخة مدوّية تنطلق من أعماق البحر ، ثم أبصرت جلاوكوس الذى لم يسكن البحر إلّا منذ قليل ــ لأنه قد مُسخ فى أنثيدون القريبة من بحر يوبويا ــ يشقّ الموج قادماً تجاهها[٤١] ، حتى إذا ما رآها جَمُدَ فى مكانه وقد اضطرمت فى نفسه لهفة عارمة وتحرّك شبقه ، فناداها بما عنّ له من كلمات ليصدّها عن المضى هاربة منه لكنها أصمّت سمعها ، وكأنما أمدّها الخوف بأجنحة طارت بها حتى أدركت قمة الجبل الشامخ المكدّسة بالغابات بجوار الشاطىء حيث امتدت أمامها رقعة فسيحة من المياه وجدت فيها مأوى آمناً استقرت فيه ، ولم تدر إن كانت ترى أمامها وحشاً أو إلهاً ، وأخذت تتأمل فى دهشة لون بشرته وشعره الذى يغطى منكبيه وينسدل على ظهره وذيل السمك الذى يثنيه تحت خصره . ولمحها جلاوكوس متأملة ، فاعتمد على صخرة
٩٢٠ قريبة وقال لها : « لست غولاً يا صبيّة ولا وحشاً مفترساً ، وإنما أنا أحد آلهة البحر ، وليس سلطانى على البحر بأقل من سلطان تريتون أو پروتيوس أو پالايمون بن آثاماس ، غير أننى كنت فى الماضى إنساناً أعشق البحر عشقاً شديداً وكان عملى موصولاً به ، وكنت أجتذب الشباك مليئة بالأسماك تارة أو أجلس على صخر الشط أتصيّد السمك بالشّص . وكان على مقربة من المكان الذى أصيد فيه مرج أخضر يكتنفه البحر من جانب وتنفسح عند جانبه الآخر مراع بكر لم تطف بها قطعان الأبقار الطويلة القرون ولا الأغنام المسالمة ولا الماعز الشعثاء الوبر ، ولم يحلّق بها نحل يمتص زهورها ليحيلها شهداً ، ولم تُجْدَل من أغصانها الأكاليل لتُجَلَّل بها هامات الضيوف خلال الولائم ، ولم تتناولها يدٌ بقَضْبِ عُشْبها بالمنجل الطويل ، وكنت أوّل من افترش هذا العُشب وقد جلست يوماً أجفّف الشباك المبتلّة وأصفّ فوق العُشب السمك الذى جمعته

لأحصى منه ما قذفت به الصدفة فى شباكى أو ما أوقعته السذاجة فى شصىّ المعقوف . ولك أن تظنى أنى أختلق ، ولكن فيم يفيدنى الاختلاق ؟ فما كادت الأسماك تفترش العشب حتى أخذت تتلوّى وتضطرب وتسبح فوق اليابسة وكأنها وسط البحر ، وبينما كنت ذَهِلاً وأنا أشهد ما يقع إذا الأسماكُ تنزلق نحو البحر وتغوص ثانية بين الأمواج التى كانت تحيا بها من قبل تاركة الشاطىء والصائد . وقد جمدت فى مكانى مذهولاً ألتمس تفسيراً لما حدث وأتساءل عن سرّ هذه الظاهرة ، أهى إرادة إله أم فعل عُصارةَ العُشب ، وقلت لنفسى « تُرى أى عُشب هذا الذى يملك تلك القدرة ؟ » . واقتلعت بعض أعواده وعضضتُها بأسنانى ، ولم تكد عصارتها الغريبة تنساب فى حلقى حتى أحسست بقلبى ينتفض داخل صدرى وإذا طبيعتى تأخذ فى التغيّر ، ولم أقاوم طويلاً فصحت قائلاً : « وداعاً أيتها الأرض ، فلن أعود إليك مرة أخرى » . واندفعت إلى المياه حيث رحّب بى آلهة البحر وتلطّفوا بى فأجلسونى بينهم فوق منصة السلطة ، ثم طلبوا إلى أوقيانوس وتيثيس أن يزيلا عنى ما بى من عناصر فانية ، فأخذا يطهّرانى مردّدين مرات تسعاً تعويذة مقدسة خلّصتنى من أدرانى ، وطلبا إلىّ أن أغمس جسدى فى ماء نهر ، وسرعان ما أخذت أنهار جميع بلاد العالم تتصوّبُ مياهها نحوى من كل صوب وتصبّها فوق رأسى . هذا كلُّ ما أقوى على أن أسرده عليك من عجائب مغامرتى ، فقد جمدت عند ذلك ذاكرتى وفقدت القدرة على استخدام حواسى ، وحين عدت إلى وعيى وجدت جسدى مختلفاً تماماً عما كان قبلاً ، كما أصبح عقلى غير ما كان . ورأيتنى لأول مرة بهذه اللحية التى يذكّرنى لونها المخضرّ بصدأ النحاس ، وبهذا الشعر الذى ينتثر على الموج الفسيح ، وبهذين المنكبين العريضين ، وبهاتين الذراعين اللازورديتين ، وبهاتين الفخذين اللتين تنتهيان بذيل ملتو كذيول الأسماك ذات الحراشف ، ولكن فيم يفيدنى هذا الشكل الجديد ؟ وفيم تفيدنى تلك المكرمة التى اختصّنى بها آلهة البحار ؟ بل فيم يفيدنى أن أكون أنا نفسى إلهاً إذا لم تعيرينى أنت انتباهاً ؟

على هذا النحو استرسل الإله فى الحديث ، وكان على وشك مواصلته حين أمعنت سكيللا فى هروبها ، فعاد إلى الماء مغضباً حانقاً من نفورها ، واتجه إلى القصر المسحور الذى تُمارس فيه كيركى(٤٢) ابنة التيتان معجزاتها العديدة .

التعقيبات

(١) انظر النشيدين الثالث عشر والرابع عشر من الإلياذة .

(٢) كان أوديسيوس يخشى ما تنبأ به العراف من أنه لو اشترك فى حرب طروادة لما عاد إلى داره إلا بعد عشرين سنة وحيداً فقيراً ، وقد دفعته شدة خوفه إلى أن يتظاهر بالجنون حتى لا يضطر إلى الإبحار للمعركة ، غير أن پالاميديس شك فى تظاهره بالجنون فخطف تيليماخوس بن أوديسيوس من مهده وجعله يمسك بمحراث يجره ثور وجواد ، فذعر أبوه ولم يستطع المضى فى التظاهر بالجنون واعترف بخدعته ولكنه لم يغتفر لپالاميديس ما صنعه .

(٣) انظر الكتاب التاسع .

(٤) هذه إشارة إلى نفى تيلامون والد أجاكس بسبب قتله أخيه غير الشقيق فوكوس [انظر الكتاب السابع] .

(٥) مثلما فعل تيلامون بقتله أخيه .

(٦) كان تيوكروس بن تيلامون أخا لأجاكس من والده بينما كانت أم أجاكس هى ابنة لاوميدون وشقيقة پريام [انظر الكتاب الحادى عشر] .

(٧) عرف الإغريق باسم الأخيين كما كانوا ينسبون أحياناً إلى داناووس شقيق أيجوپتوس ومؤسس مدينة أرجوس الذى أصبح أجاممنون ملكاً عليها فيما بعد .

(٨) يتبع أوفيد هنا مأساة « إيفيجينيا فى أوليس » لأوريپيدس متابعة تكاد تكون حرفية .

(٩) أثارت وقاحة ثيرسيتيس البطل أوديسيوس فضربه بصولجانه ضربة أقعدته مرتعداً من الخوف والألم . وجاء وصف هذا الحادث على لسان هوميروس فى الكتاب الثانى من الإلياذة .

(١٠) كان دولون قد عرض خدماته على مواطنيه الطرواديين بأن يتجسس على مداولات أجاممنون والقادة الإغريق فى مقابل وعده بأن يهبوه جياد أخيل ومركبته بعد قتله .

(١١) إشارة إلى ما اقترحه أجاكس ساخراً من قسمة الأسلحة بين أوديسيوس وديوميديس مناصفة ، الأمر الذى يعد أكرم من امتناع الإغريق عن مكافأة أوديسيوس بأى شىء على الإطلاق .

(١٢) هذه قائمة القادة الليكيين التى ينسج فيها أوفيد على منوال هوميروس بسرد أسماء الأعداء القتلى .

(١٣) هو العراف هيلينوس الذى كشف للإغريق بعد أن أسروه كيف يتسللون إلى طروادة .

(١٤) المقصود أجاكس بن أويليوس ملك اللوكريين .

(١٥) كان أجاكس يلتف بفراء الأسد الذى أعطاه إياه هرقل ، الأمر الذى جعله منيعاً على ضربات السيوف إلاّ فى مكان واحد اختلف الشعراء على تحديده ، ويقول أوڤيد أنه الصدر بينما يقول البعض الآخر أنه العنق أو الجنب .

(١٦) أى تمثّل بداية اسم أجاكس كما ينطق باللاتينية « أياكس » ، ويذكرنا مقطعه الأول بصرخة الألم والاستنجاد التى صدرت عن هياكينثوس .

(١٧) تهاونت نساء ليمنوس فى تكريم الإلهة ڤينوس فترة طويلة ، أى أنهن لم يمارسن متع الهوى وزهدن فى مضاجعة أزواجهن مما دفع بالأخيرين إلى هجرهن نحو نساء من طراقيا . فغضبت الزوجات الزاهدات وقتلن كافة الرجال فيما عدا هيپسيپيله بنت الملك ثواس التى هرّبت أباها من المذبحة الكبرى ثم أصبحت ملكة لبلادها ، وهى التى رحّبت ببحارة الأرجو عند مرورهم بوطنها وهامت بچاسون فحملت منه بولدين .

(١٨) انتزع الإغريق أستياناكس بن هكتور من أحضان أمه قسرا وألقوا به من فوق أسوار طروادة . وقد سجل أوريپيديس هذا المشهد الفاجع فى مأساة الطرواديات [البيت ٧٠٩ وما بعده] .

(١٩) ذُكر هذا الاغتيال فى مقدمة مأساة هيكوبا لأوريپيديس على لسان شبح پوليدوروس ، ويذكره ڤرچيل أيضاً فى الكتاب الثالث من الإلياذة [البيت ١٩ وما بعده] .

(٢٠) يشير إلى يوم طمع فى الظفر بالأسيرة بريزييس فى مستهل ملحمة الإلياذة .

(٢١) يعرض الجزء الثانى من مسرحية « هيكوبا » لأوريپيدس قصة عثور هيكوبا على جثة ابنها پوليدوروس ثم انتقامها من قاتله پوليمسطور ملك طراقيا ، وهو ما يتناقض مع ما ذكره هوميروس فى الإلياذة (٢٠ : ٤٠٧) من أن پوليدوروس هو ابن پريام من زوجة غير هيكوبا هى لاووثويه وأن أخيل هو الذى قتله أمام هيكتور .

(٢٢) توجد « كينوس سيما » أى مقبرة الكلبة على مقربة من الهيليسپونت وفقاً لما جاء على لسان العالم الجغرافى استرابو .

(٢٣) أورورا [إيوس اليونانية] هى أم ممنون من تيثونوس شقيق پريام ، وفى تلك القرابة يكمن سر مناصرتها للجانب الطروادى .

(٢٤) انظر الكتاب السادس .

(٢٥) كانت ڤينوس قد وقعت فى غرام أنخيسيس . أما تسميتها بزوجته فهو من قبيل الأدب فى الحديث .

(٢٦) كانت لأسوار طيبة [بويوتيا] أبواب سبع .

(٢٧) كوكبة الجوزاء .

(٢٨) هما كوكبتا الإكليل الجنوبى والإكليل الشمالى عند الفلكيين العرب .

(٢٩) كان أوريون بن هيريوس من أهل طيبة ، وكانت له ابنتان هما متيوخى ومينيپيّ تقدمتا بمحض إرادتهما قرباناً لإنقاذ أهل المدينة حين حل بها الطاعون ، وهو ما كان قد طالب به الهاتف الإلهى فى معبد أپوللو بجورتينا . وقد انتحرتا على النحو المذكور بالنص فنالتا رضاء الآلهة التى حولتهما إلى كوكبتين ، فى حين تحول أوريون بعد موته إلى كوكبة الجوزاء . والملاحظ أن النص هنا يفتقر إلى الوضوح ، وأن الإكليلين تأويل لنص فيه لبس بالمخطوطة الباقية .

(٣٠) جاء وصف هذه الرحلة بالإلياذة لڤرچيل [الكتاب الثالث ــ الأبيات من ١٢١ إلى ١٩١] .

(٣١) مجموعة جزر أمام الشاطىء الغربى من المورة .

(٣٢) دوليخيون ونيريتوس اسما جزيرتين مجاورتين لجزيرة إيثاكا . أما ساميه فهى جزيرة صغيرة فى بحر أيونيا قريبة من جزيرة إيثاكا تحمل أيضاً اسم كيفالينيا . وأمبراكيا مدينة فى إيپيروس غيّر الأمبراطور أوغسطس اسمها بعد انتصاره فى معركة أكتيوم وسماها نيكوپوليس أى مدينة النصر .

(٣٣) تنازع كل من أپوللو وأرتميس وهرقل السيادة على هذه المدينة فاحتكموا إلى كراجاليوس بن دريوپس الذى كان يرعى قطعانه بجوار المدينة فقضى بحكمه لصالح هرقل ، فغضب أپوللو ومسخه صخرة . وكان لأپوللو فى مدينة أكتيوم معبد مشهور ، والملاحظ أن أوكتاڤيوس قيصر الذى أصبح الأمبراطور أوغسطس فيما بعد قد انتصر على ماركوس أنطونيوس والملكة كيلو باترة فى معركة بحرية شهيرة سنة ٣١ ق.م. على مرأى من مدينة أكتيوم .

(٣٤) انظر الكتاب السابع .

(٣٥) كان مونيخوس ملك المولوسيين حاكماً عادلاً وعرّافاً مشهوراً يحيا حياة الورع بين أسرته . وقد هاجمه بعض اللصوص ذات يوم وأشعلوا النار فى دياره فمسخ جوبيتر أسرته النقية سرباً من الطيور لإنقاذها من الحريق .

(٣٦) فاياكيا اسم جزيرة فى بحر أيونيا قريبة من شواطىء إبيروس تغير اسمها إلى كوركيرا [كورفو الحالية] اشتهر أهلها بالمجون والولع بالترف .

(٣٧) نتوء فى جنوب صقلية .

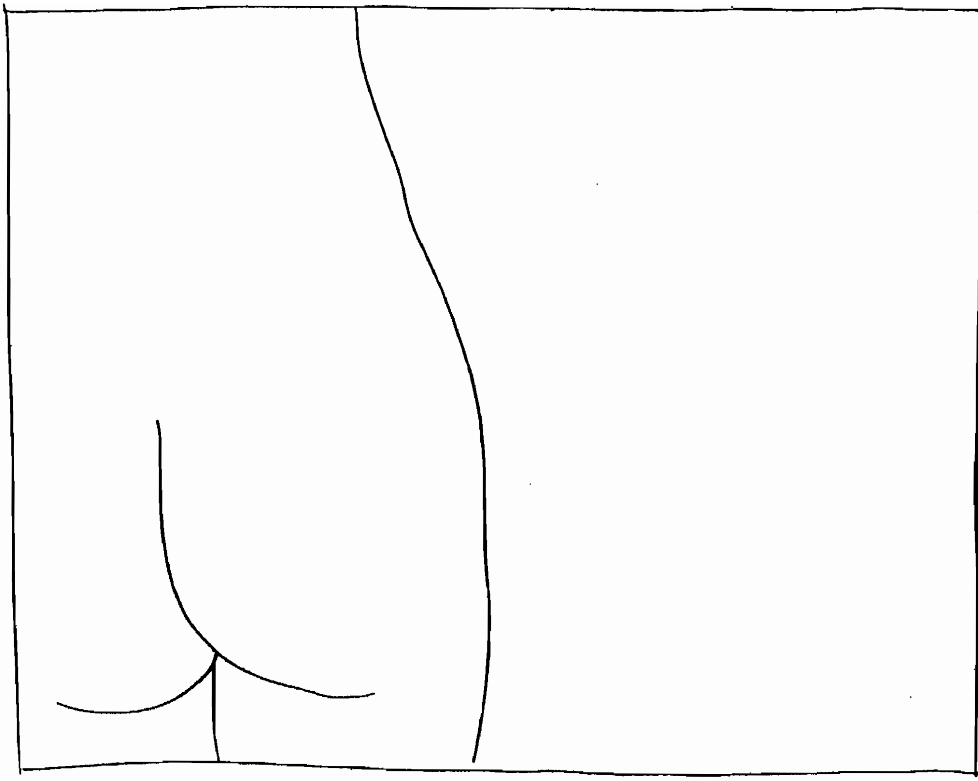
(٣٨) استوحى وصف سيكللا هنا من الأوديسيا لهوميروس [النشيد الثانى عشر . البيت ٨٥ وما بعده فى خطبة كيركى أمام أوديسيوس] .

(٣٩) كان پوليفيموس إبنا لنپتون إله البحار .

(٤٠) تحول أكيس حفيد نهر ثيمايثوس بدوره إلى نهر ، وهو ذلك الجدول المنحدر من جبل إتنا والذى يحمل اسمه .

(٤١) جلاوكوس إله من آلهة البحار اختلف الرواة حول قصته ، فهو يمثل أحياناً فى شكل شاب أمرد ، وأحياناً أخرى فى شكل عرّاف عجوز يخشاه الملاحون ، وكثيراً ما يُخلط بينه وبين پروتيوس ، ويروى أوفيد بعد ذلك قصة مسخه على لسانه .

(٤٢) كيركى هى بنت هليوس إله الشمس الذى كان ـــ على ما رواه هزيودوس ـــ ابن هيپريوس وثيا ، ويصفه أوفيد بأنه أحد المردة . وكان هليوس إله الشمس غير أپوللو إلى أن أصبح الاثنان شخصاً واحداً ، وكان أبوه المارد هيپريون بدوره ابْن جيا ربة الأرض وأخاً لكرونوس [ساتورن] .



بيكاسو

الكتاب الرابع عشر

سكيلا وكيركى

خلّف الإله الذى اتخذ أمواج بحر يوبويا الصاخبة سكناً له جبل إتنا وراءه ، ذلك الجبل الشامخ الذى قذف به الآلهة فى قديم الزمان ليدقّ عنق أحد العمالقة[1] ، كما خلّف حقول الكيكلوپيس الذين كانوا يجهلون استخدام النورج والمحراث ولا يدينون بفضلٍ للثيران المشدودة إلى النّير . كذلك خلّف وراءه مدينة زانكليه[2] وأسوار مدينة ريجيوم المقابلة لها ، وكذا المضيق الذى أتى على سفن كثيرة بين ساحلى أوزونيا [إيطاليا] وجزيرة صقلية المتقابلين [ميسّينا] . وبذراعه المفتولة استطاع عبور البحر الإتروسكى [التيرانى] حتى أدرك التلال السندسية حيث يشمخ قصر كيركى بنت إله الشمس ، ذلك القصر العامر

بمن مسختهم حيوانات مفترسة مختلفة الأشكال . وما كاد يلقى كيركى ويبادلها السلام حتى قال لها : ناشدتك أيتها الإلهة أن تترفّقى بالإله الذى يَمْثُل أمامك ، فأنت وحدك من تستطيعين أن تخفّفى عنى آلام حبى إذا كنت تَرَيْنَ أنى جدير بهذه المنّة ، فما أعظم قدرة النباتات يا ابنة التيتان ، ولا أحد يعرف هذا معرفتى به بعد أن عانيت المسخ بفعل سحر هذه النباتات . ولكى تعرفى سبب الاضطراب الذى يلمّ بى فإليك ما حدث : لقد وقعت عينى على سكيللا على شاطىء إيطاليا المواجه لأسوار ميسّينا ، ويمنعنى حيائى من أن أقصّ عليك كم من الوعود وَعَدْتُ وكم من ضراعات ضرعتُ وكم من عبارات غرام بعثتُ بها إليها فسخرت من هذا كله . وما أطلب إلاّ أن تنفرج شفتاك المقدّستان عن عُوذة ، ففى عُوذاتك تكمن قدرة تعلو كل قدرة . وإذا كان ثمة عُشْب فى ملكوتك له ما ليس لعُوذاتك من تطويع العَصىّ فلتُسعفينى به فَلأَنْتِ به خبيرة . وما أطلب منك ترياقاً ولا بلسماً لجرحى ، فما أنا فى حاجة إلى أن أهربَ من الحب بل إلى أن تُكْوَى سكيللا بنصيبها من النار التى تضطرم فى نفسى .

وإذ كانت كيركى أكثر النساء إحساساً بلوعة الحب ، سواء لما طُبِعَت عليه أو لما مُنِحَته من الإلهة ڤينوس الناقمة على إله الشمس[٣] [لوشايته بصلتها بالإله مارس] فقد أجابت جلاوكوس قائلة : « كان أَوْلى بك اختيار حبيبة تبادلك إرادة بإرادة ورغبة برغبة وتُحسّ بلوعة الحب كما تُحسّ ، فما أجدرك بأن تكون النساء هُن الساعيات إليك ، ولتطمئن بالاً إلى أن سعى النساء إليك حقٌ عليهن لوسامتك ، بَل صدّقنى أنك لو تذرّعت ببعض الأمل لأصبحت أنت من تسعى هى إليك بدلاً من أن تسعى أنت إليها . فلا يخالجنّك الشك فى نفسك ولا تفقدنّ الثقة بوسامتك . انظر إلىّ ، فمع أنى إلهة ومع أنى ابنة إله الشمس المتألّق ، ومع أنى أملك العُوذات والأعشاب السحرية ذات القدرات الرهيبة ، إلاّ أننى أتمنّاك وأتوق إلى عشقك . فلتزدر من يزدريك ولتُقبل على من تسعى إليك ، وبذلك يكون انتقامك من واحدة فيه إرضاء لأخرى » .

وقال جلاوكوس لكيركى يردّ على محاولتها اغراءه : « ما أنا بمتحوّل عن حبى لسكيللا مادمت حيًا ، حتى لو انقلب الوجود رأساً على عقب فانشقّت أعماق البحار عن نباتات الجبال وأعشبت قمم الجبال بأعشاب البحار » .

وامتلأ صدر الإلهة غضباً ، وإذ كان حبّها لجلاوكوس يحُول بينها وبين التنكيل به فقد صبّت نيران حنقها على غريمتها . وهرعت ــ تلك التى جُرِحَ كبرياؤها ولم تجد صدى لحنانها ــ دون أن تضيّع وقتها تهرس أعشاباً سامة ذات عصارات فتاكة ، وقرنت المزيج بعُوذات لقّنتها إياها الربّة هيكاتى ، ثم التفّت بغلالتها اللازوردية وسارت وسط قطعان الحيوانات المفترسة التى كانت تحتشد حولها مشرئبة الأعناق طلباً للمداعبة وخلّفت قصرها . ووصلت كيركى إلى مدينة ريجيوم المواجهة لصخور مدينة زانكليه ، ثم اندفعت فوق الأمواج الصاخبة تسير فوقها وكأنها تخطو فوق اليابسة ، تدوس بقدميها سطح الماء فلا تبتلاّن به .

وكان ثمة مغارة صغيرة محدّبة القباب متعرّجة المسارب تنسرب مياه البحر إلى جوفها هى المأوى الأثير لسكيللا تختلف إليه هرباً من عنف الأمواج المضطربة ومن حرارة الشمس المحرقة ساعة تتوسط قبة السماء

فتنكمش ظلال الأشياء . وإذا كيركى تلوّث مياه المأوى وتنشر سمومها البشعة به ، وتنثر سائلاً من عصارات جذور سامة ثم تمتمت مرات تسعاً ثلاث مراتٍ بتعاويذ سحرية كلها لعنات غامضة وكلمات غريبة ملغزة . ولم تكد سكيللا تغوص فى الماء إلى خصرها حتى وجدت حولها وحوشاً مفترسة تعوى محيطة بفخذيها . ولم يجل بخاطرها فى بادىء الأمر أن هذه الوحوش قد باتت جزءاً لا يتجزأ من جسمها فحاولت الفرار وطرد هذه الوحوش وقلبها يمتلىء فزعاً من أنيابها الجارحة ، ولكنها كلما حاولت التخلص من هذه الوحوش شدّتها معها ، وكلما تحسّست فخذيها وساقيها وقدميها وجدت مكانها مجموعة من الكلاب الشبيهة بكلاب كيربيروس ذات الرؤوس المتعدّدة الفاغرة الأفواه ، وكلما حاولت النهوض وجدت نفسها تقوم على هذا الرهط من الكلاب المسعورة ورأت أن نصفها الأسفل ليس إلّا كلاباً تلتصق بالجذع الذى يعلوها . أما عاشقها جلاوكوس فولّى فراراً والدموع تنساب مدراراً فوق وجنتيه ، رافضاً أن يتخذ من كيركى زوجة له بعد أن استغلت قدرات أعشابها على هذه الصورة الوحشية . وبقيت سكيللا جامدة فى مكانها ، ولم تكد تحين أمامها الفرصة حتى اختطفت رفاق أوديسيوس نقمة على كيركى ، وكادت أن تغرق سفن الطرواديين أيضاً لولا أنها مُسخت قبل ذلك صخرة تنتصب حتى اليوم فوق الأمواج منذرة بخطر يتحاشاه الملاّحون .

الكيركوپيس

ما كادت السفن الطروادية تُفلح بقوة مجاذيفها فى الإفلات من سكيللا وخاريبديس النهمة حتى شارفت سواحل أوزونيا وكادت ترسو بها ، وإذا ريحٌ قوية تدفعها إلى شواطىء ليبيا . وهناك استقبلت أينياس الملكةُ الفينيقية التى تنتمى إلى أسرة صيدا الملكية وفتحت له قصرها وقلبها معاً . وقضت الأقدار ألا تحتمل ديدو فراق زوجها الفريچى [بعد أن هجرها بغتة] فألقت بنفسها على ذبابة السيف من فوق محرقة كانت قد أعدّتها متظاهرة بأنها لتقديم القربان . وكما هجرها أينياس على حين غِرّة هجرت هى الأخرى شعبها وهى تغافله .

وللمرة الثانية[٤] لاذ أينياس بأذيال الفرار ، فخلّف أسوار المدينة الجديدة المشيّدة فوق الساحل الرملى مبتعداً ، وما لبث أن وجد نفسه يعود إلى أرض إريكس[٥] وإلى الملك أكستيس[٦] الوفىّ حيث قدّم القرابين ونحر الضحايا أمام مدفن أبيه . ثم أبحر من جديد بسفنه التى كادت إيريس مبعوثة چونو أن تشعل فيها النار . وخلّف مملكة ابن هيپوتيس[٧] ، تلك الأراضى التى تنبثق منها أبخرة الكبريت المشتعل . وبعد مروره بصخور « السيرينات » بنات نهر أخيلووس فَقَدَ ربّانه [پالينورس] ، ثم اجتاز شواطىء جزيرة إيناريميه[٨] وجزيرة پروخيتيه[٩] ومدينة پيثيكوزا[١٠] المشيدة فوق تل أجرد والتى اشتُق اسمها من اسم سكانها [پيثيخوى أى القردة] ، إذ يُروى أن كبير الآلهة فى قديم الزمان قد ضاق ذَرْعاً بألسنة الكيركوپيس وبرذائل هذا الجنس المخادع ، وقضى بإنزال العقاب بهم فحوّلهم من أناسىّ إلى حيوانات دميمة تختلف شكلاً عن البشر وإن احتفظت ببعض الشبه به ، وجعل چوپيتر أطرافهم دقيقة وأنوفهم

فطساء وخدّد أصداغهم بتجاعيد الكهولة ، ثم كسا أجسادهم بشعر داكن وألزمهم هذا المأوى . غير أنه قبل أن يفعل حرمهم القدرة على الكلام وجرّدهم من ألسنتهم التى تحلف كذباً وتحنث باليمين ، ولم يترك لهم القدرة على الشكوى إلاّ بصراخ أجش وبأصوات ناشزة .

سيبيلا

وبعد أن مرّ أينياس بهذه الجزر وخلّف عن يمينه أسوار پارثينوپى[11] وعن يساره ضريح ميسينوس[12] نافخ البوق الرنّان ـ الذى كان ابناً لأيولوس ـ رسا على شاطىء كوماى بمستنقعاته ذات المياه الراكدة . وهناك سعى إلى المغارة التى تأوى إليها سيبيلا المُثقلة بالسنين ، وسألها أن تأذن له باختراق مملكة أڤيرنوس [العالم السفلى] حتى يلقى روح أبيه . فثبتّت سيبيلا نظرها فى الأرض برهة طويلة ، وبعد أن رفعت رأسها تحدثت بصوت الإله الذى تقمّصها قائلة : « إنك لتطلب الكثير أيها البطل الشهير ، يا من كشفت عن بسالتك بضربات سيفك وعن ورعك وبرّك بأسلافك بنفاذك وسط ألسنة نيران المدينة المشتعلة . فلتطرح عنك شتى ألوان القلق أيها الطروادى فستتحقّق أمانيك وسأكون مُرشدتك ، وستتعرّف عن قريب على ديار إليزيوم [العالم السفلى] آخر ممالك الكون ، وستلقى روح أبيك الحبيبة لأنه ليس ثمة طريق تعجز الفضيلة عن سلوكه » .

وأشارت إلى الغصن الذهبى المتألق فى الغابة المخصصة لجونو الأڤيرنية ربّة العالم السفلى ، وأمرت أينياس أن يقطع الغصن من الجذع الذى يحمله فانصاع لأمرها ، فإذا بصره يقع على تلك المملكة العظمى التى يحكمها أوركوس ربّ الأهوال حيث شاهد أطياف أجداده وروح والده أنخيسيس الكهل السَّمْح القلب ، وما هى إلا هنيهة حتى كان قد ألمّ بالشرائع التى تسود هذه الديار كما عرف المخاطر التى سيتعرّض لها فى حروبه المقبلة . ثم عاد يسير بخطوات منهكة فى الطريق الصاعد محاولاً أن يتلمّس الراحة من الإرهاق الذى أحسّ به وهو يبادل مرشدته سيبيلا كاهنة كوماى الحديث . حتى إذا خلّف هذا الطريق الرهيب الكثيف الظلمات صاح بها : « يستوى عندى أن تكونى إلهة أو أن ترعاك إلهة فسأظل دوماً معترفاً بفضلك علىّ ، لأنك أنت وجدك من أَتَحْتِ لى زيارة مملكة الموتى ثم مغادرتها آمناً . واعترافاً بما أسبغت علىّ من مآثر لأُشيّدنّ لك معبداً عند عودتنا إلى سطح الأرض ولأحرقنّ باسمك البخور » .

فاتجهت الكاهنة نحوه وهى ترسل زفرة عميقة وقالت : « لست إلهة يا أينياس ولا يجوز أن تحرق البخور المقدّس لتكريم كائن فان . أقول لك ذلك حتى لا ترتكب خطيئة عن جهل . ولتعرف أننى لو كنت قد ضحّيتُ بعُذْريّتى واستسلمتُ لنزوات الإله فويبوس الذى كان يعشقنى لحظيتُ بنور الخلود . وكان فويبوس يأمل وقتذاك أن ينالنى وما فتىء يغرينى بهداياه ، ويقول لى : « يا عذراء كوماى ما أشد حرصى على أن ألبىّ لك أية رغبة تفصحين عنها » . فالتقطتُ حفنة من الثّرى عرضتها عليه وطلبت منه فى حماقة أن يهبنى أعياد ميلاد بقدر ما تحتويه قبضتى من ذرّات التراب ، ولكنى نسيتُ أن أطلب فى الوقت نفسه أن تكون هذه السنين كلها سِنى شباب إلى نهايتها . ومع ذلك فقد كان من اليسير على فويبوس أن يهبنى أيضاً

الشباب الأبدى لو أننى ارتضَيت أن يُشْبع وله منى ، لكننى ازدريت ما طلب وبقيت عانساً حتى الآن . أما اليوم فقد غاب العهد السعيد من العمر وأهلّت الشيخوخة الحزينة بخطواتها الراجفة ، ومازال علىّ احتمالها سنين طويلة أخرى . فقد مرّت قرون سبعة كما ترى ومازال أمامى أن أشهد ثلاثمائة مرّة حصاد الغلال ، وثلاثمائة مرة انسكاب النبيذ الجديد من معصرة الكروم حتى أُكمل عدد ذرّات التراب التى تقابل سنى عمرى . وسيأتى وقت أضمرُ فيه حتى أصبح مخلوقاً أشدّ ما يكون ضآلة ، وستنكمش أعضائى بفعل الشيخوخة حتى تصبح ملء قبضة يد فحسب . ولن يصدّق مخلوق يرانى على تلك الحال أنى كنت ذات يوم معشوقة إله . ومن يدرى فقد يعافُنى فويبوس نفسه ، وقد ينكر أنه مال إلىّ ذات يوم ؟ وسأبلغ نهاية أيامى على هذه الصورة التى تختلف عما كنت عليه ، وإذا لم يعرفنى أحد لفرط ضآلتى فسيعرفنى الآخرون بصوتى ، وهو كل ما سوف تتركه لى الأقدار » .

أخيمينيديس وپوليفيموس

وبينا كانت سيبيلا مسترسلة فى حديثها كان أينياس الطروادى فى سبيله إلى ضوء النهار مخلّفاً مملكة ستيكس على مقربة من مدينة « كوماى » اليوبوية . وبعد أن قدّم القرابين وفق الشعائر المتداولة انحدر إلى الشاطىء الذى لم يكن قد سُمِّى بعد باسم مُرْضعته « كاييتا » . وهنا أيضاً كان مكاريوس بن نيريتوس اليونانى قد هبط هو الآخر واستقر بعد أن عانى الكثير فى مغامرة بحرية طويلة مرهقة برفقة أوديسيوس المحنّك ، فإذا هو يتعرّف على أخيمينيديس الذى كان قد تُرِك مهجوراً منذ أمد بعيد بين صخور جبال إتنا . ودهش مكاريوس لهذا اللقاء المباغت بشخص كان يظنه قد قضى نحبه وسأله : « أى إله هذا الذى تدين له بنجاتِك يا أخيمينيديس ، وأية صدفة تلك التى ترجع لها سلامتك ؟ وأنَّى ليونانى أن يجد نفسه قد أبحر فى سفينة من سفن البرابرة الطرواديين ؟ وأى ساحل كانت تقصده سفينتك » ؟ .

وأجاب أخيمينيديس وكان قد نزع ثيابه المهلهلة التى كانت مخيطة بالأشواك فيما مضى بقوله : إنه لأحبّ إلىّ أن ألقى پوليفيموس مرة ثانية وأنظر إلى فمه الشره الذى تنساب منه قطرات الدم البشرى عن أن يكون وطنى إيثاكا أعزّ لدىّ من هذه السفينة أو أن يكون تبجيلى لأينياس دون تبجيلى لأبى . . . فمهما بذلت فى خدمة أينياس لن أفيه حقه من العرفان بالجميل . وهل لى أن أنسى أنى بفضله أتكلم الآن وأتنفس وأرى الشمس كوكب النهار ؟ إنى مدين له بحياتى فلقد أنقذنى من الموت فى جوف الكيكلوپيس . وها أنذا لو مت الآن وفارقت الحياة ما فقدتُ الأمل فى أن أُدفن فى قبر وليس فى أمعاء الوحش . أوَ علمتم بما أحسسته ساعة تركتمونى وأبحرتم نحو البحر الفسيح ؟ [وإن كان الخوف قد سلبنى كل شعور وإدراك حينذاك] ، فكم كنت أودّ أن أناديكم ولكنى خشيت أن أكشف بذلك عن مكانى للعدو ، حتى أنتم فى سفينتكم كدتم أن تحيق بكم كارثة لولا هتاف أوديسيوس . فقد رأيت الكيكلوپيس ينزع كتلة من الجبل ، كما شاهدته يلقى بصخرة ضخمة فى وسط البحر ، ورأيته بعد ذلك يقذف بقوة صخوراً شاهقة بذراعى عملاق وكأن

منجنيقاً يطوّح بها . وكم كنت أخاف أن تُغرق الرياح والأمواج السفينة وقد غاب عنى أنى لم أكن فيها ، وما كاد الفرار ينجّيكم من ميتة بشعة أكيدة حتى جُنّ جنون الكيكلوپيس وأنّ أنّات غضب وأخذ يعدو على غير هدى حول جبل إتنا يتحسّس الغابات التى تعترض طريقه بيده . وقد عوّق به حرمانه من الإبصار فأصبح يتعثّر فى الصخور البارزة ، ثم رفع ذراعيه الملطختين بالدماء واتجه صوب البحر وهو يستنزل اللعنات على سلالة الآخيين قائلاً : « لو أن الحظ أعاد إلىّ أوديسيوس أو أحد رفاقه ، لافترسته غاضباً ولالتهمت لحمه ولمزّقت بيدى أطرافه النابضة ، ولرويت حلقى بدمه ولهشّمت عظامه بين فكّى . لو أن هذا وقع لى لهان علىّ فقدان نور عينى الوحيدة » !

وبهذه العبارات وغيرها التى أفصح بها عن غضبه امتُقِع وجهى من فرط فزعى وأنا أتأمل وجهه الذى أخذ تتساقط منه قطع اللحم ، كما حملقت فى كفّيه الجافيتين وفى المحْجر الفارغ الذى أضحى لا يُبصر وفى أعضائه القبيحة وفى لحيته التى تلطّخت شعراتها بدماء البشر . ومَثُلَ الموت أمام عينى ولم يكن الموت إلاّ أقل ما أخشاه من شرّ ، إذ كنت على يقين أنه لن يلبث أن يقبض علىّ ويلتهم لحمى فيستقرّ فى أحشائه . وتبادرت إلى ذهنى صورة تلك الأيام التى رأيت فيها رفاقى يُلقى بهم اثنين اثنين على الأرض ثلاث مرات أو أربعاً وهو يجلس القرفصاء فوق أجسادهم كأنه أسدٌ منفوش اللّبدة يلتهم أحشاءهم ولحمهم وعظامهم بنخاعها الأبيض وأطرافهم التى ما تزال تنبض بالحياة . كان جسمى كله يرعد وجَمُدْتُ فى مكانى ، كما جَمُدَ الدم فى عروقى وتملّكنى اليأس وأنا أتطلّع إليه وهو يلوك ضحاياه فى فمه وينهش تلك الوجبة الدامية ثم يقىء بعضها فى سيل تختلط فيه قطع اللحم بالنبيذ . وما كان أشقانى وأنا أنتظر هذا المصير إذ أمضيت الأيام الطوال أهيم على وجهى مختبئاً بين كهف وآخر ، وكلما سمعت صوتاً ارتعدت فرائصى فكنت أخشى الموت وأتوق إليه معاً ، وكنت أسكّن جوعى بأكل الأعشاب وثمار البلّوط وأوراق الأشجار وأنا أعيش فى وحدة كئيبة وفى عوز ويأس ضَحية مُهْمَلة معرّضة للهلاك فريسة للكيكلوپيس . وبينا أنا فى هذه الحالة رأيت سفينة من بُعد فاندفعت الوّح بيدى مستنجداً وعَدَوْتُ نحو الشاطىء أنادى ملاّحيها ضارعاً . وهكذا قُدِّر لتلك السفينة الطروادية أن تحمل رجلاً يونانيا ، فما بالك يا مكاريوس يا أعزّ رفاقى لاتكاشفنى بمغامراتك ومخاطرات زعيمك والمقاتلين فى رفقتك وأنتم تحت رحمة الأمواج ؟ .

مكاريوس وأوديسيوس

وأخذ مكاريوس يروى كيف كان أيولوس بن هيپوتيس يسود بحار إترووريا[١٣] ، وأنه بعد ما حبس الرياح فى جلد ثور قدّمه هدية لأوديسيوس ملك دوليكيوم الذى أخذه معه . وبعد أن أمضى أوديسيوس ورفاقه تسعة أيام تدفع أسطولهم فى البحر ريحٌ رخيّة وقعت أبصارهم على البلاد التى كانوا يقصدونها . وفى فجر اليوم العاشر ملأت الغيرة نفوس رفاق أوديسيوس وتملّكتهم رغبة شرهة فى تقسيم الغنيمة التى يضمّها جلد الثور والتى خالوها ذهباً ، فمزّقوا الرّباط الذى كان يمسك الرياح سجينة فى هذا الجلد ، فإذا هى

تنطلق وتدفع السفينة فى اتجاه مضاد حتى ألقت بها عند ميناء مملكة أيولوس . واستطرد مكاريوس قائلاً : « ومن هناك أدركنا مدينة لاموس اللّستريجونية التى كان يحكمها الملك أنتيفاتس ، وقد ذهبت موفداً إليه فى حراسة اثنين من رفاقى ، غير أننا سرعان ما لُذْنا بالفرار أنا وأحد رفيقىّ بعد أن رأينا رفيقنا الثالث قد أكله أهل لستريجون وبدت شفاههم ملطّخة بدمائه . ومضينا هاربين وأنتيفاتس يطاردنا على رأس شعبه الذين أخذوا جميعهم يلقون كتل الصخور وجذوع الأشجار على سفننا حتى أغرقوها بما عليها من ملاّحين إلاّ سفينة واحدة نجت هى تلك التى كنت عليها مع أوديسيوس . وبعد أن بكينا من فقدنا من رفاق ، وأمضينا وقتاً طويلاً نرثى لمصيرهم رَسَوْنا على تلك الشواطىء التى يمكن أن تراها من هنا على بُعد . وصدّقنى أنه خير لك أن ترى تلك الجزيرة من بعيد من أن تراها عن قُرب كما رأيتها . أما أنت يا أشرف الطرواديين يا إبن الإلهة [إذ يتعذر علىّ يا أينياس أن أدعوك بالعدوّ بعد أن انتهت الحرب بيننا] فنصيحتى لك أن تتجنّب شواطىء كيركى . ولمّا رَسَتْ سفينتنا بشواطىء كيركى أبَيْنا أن نغادر السفينة أو أن نقصد بيتاً لا نعرف أهله ، فقد كنا ما نزال نذكر مغامرتينا مع أنتيفاتس والكيكلوپيس المفترسين . لكن الأقدار اختارتنى ــ حين اقترعنا ــ أن أذهب ومعى پوليتيس الوفىّ ويوريلوكوس والپينور الشديد الولع باحتساء النبيذ فى صحبة ثمانية عشر من رفاقنا لنتعرّف على أسوار ديار كيركى[١٤] . وما كدنا نصل حتى وقفنا بباب الدار وقد أفزعنا قطيع من ألف ذئب ومعها آلاف الدببة واللبؤات . ولقد عرفنا بعدُ أنه لم يكن ثمة ما نخشاه من هذه الحيوانات إذ لم يباغتنا واحد منها بشرّ ، بل لقد داعبتنا بذيولها ورافقت خطانا فى حنان وأبت مفارقتنا حتى قابلتنا الخادمات اللاتى قُدْننا إلى ربّة البيت عبر أبهاء كبيرة مرصوفة بالرخام ، وكانت تتربّع على عرش مهيب فى نهاية قاعة شامخة وترتدى ثوباً يخطف بريقه الأبصار يغشّيه معطف مزدان بخيوط القصب ، ومن حولها الحوريات والنيرياديس اللاتى لم يكنّ مشغولات كالعادة بغزل الصوف وجدل خيوطه الطيّعة بأناملهن المدرّبة[١٥] بل كن يُنَسِّقْن نباتات سيّدتهن ، كما كن يوزّعن الزهور والأعشاب المختلفة الألوان بلا نظام فى سلال متعددة . وكانت كيركى ترقب أعمالهن باهتمام فلقد كانت وحدها هى التى تعرف نفع كل ورقة كما تعرف أثر امتزاج بعضها ببعض ، ثم كانت بعنايتها الفائقة تزن فائدة كل عُشب بميزان دقيق .

وما إن رأتنا حتى بادلتنا التحية وأشرقت طلعتها وهى تعبرّ لنا عن تمنياتها الطيبة ، وبدا وجهها الباسم وكأنه بشيرٌ بنجاح خُطّتنا . ولم تلبث أن أمرت بأن يُعدّ لنا مزيج من الشعير المحمّص والزيت والنبيذ واللبن الخثير ، وأضافت إليه عصارات غلبت حلاوة المزيج على مذاقها ، فتناولنا من يدها الكؤوس التى قدّمتها لنا بيمناها ، ولم تكد أفواهُنا الجافة ظمأً تُسْلمها إلى أجوافنا ، ولم تكد الإلهة الرهيبة تلمس أطراف شعورنا بعصاها [وما أستطيع أن اذكر ذلك دون أن أُحسّ العار] حتى أحسستُ بجسدى تنبت فيه شعيرات منتصبة ، وغاب نُطقى وحلّ محلّه خوار أجشّ ، وانكفأت بوجهى على الأرض وإذا فمى يتحوّل إلى خطم متهدّل ، وإذا عنقى ينتفخ بعضلات غليظة ، وإذا يداى اللتان تناولت بهما الكأس تستحيلان قدمين أمشى عليهما ، ودفعوا بنا أنا ورفاقى سجناء فى حظيرة بعد أن صرنا جميعاً ضحايا لهذا السحر [ألا ما أعظم قدرة الشراب السحرى] . وكــان أوريلوكوس هــو وحده الذى لم يُمسخ خنزيراً لأنه رفض الكأس التى قُدِّمت

إليه ، ولو لم يكن قد ردّ تلك الكأس لكان إلى الآن خنزيراً بين القطعان الخشنة الشعر ، فكان هو الذى أنهى إلى أوديسيوس الكارثة التى حلّت بنا ، فجاء لينقذنا ويثأر لنا من كيركى .

وكان ميركوريوس إله السلام قد أعطاه زهرة بيضاء بعنق أسود يسمّيها سكان السموات « مولى »(١٦) ، فدخل أوديسيوس دار كيركى وهو آمن من كل خطر بفضل سحر هذه الزهرة وبفضل وعد الآلهة بشدّ أزره . ولما دعته الإلهة إلى تناول الشراب الغادر وحاولت لمس شعره بعصاها دفعها بعيداً عنه وبثّ الرعب فى الإلهة المذعورة بأن شهر عليها سيفه . وبعدها تصافحا إيذاناً بعهد جديد يسوده صفاء النية ورحّبت كيركى بأوديسيوس فى فراشها ، وطلب منها جزاء معاشرته إياها أن تردّ له رفاقه على صورتهم الأولى ، فنثرت علينا عصارة عُشب مجهول وضربتنا على رؤوسنا بعصاها معكوسة ونطقت بعُوذة تُبطل أثر العوذة الأولى . وكانت كلما رتّلت عوذتها أخذ قوامنا يعتدل وتساقط الشعر التى يكسو جلدنا واختفت شقوق أظلافنا واعتدلت لنا مناكبنا وعادت سواعدنا تظهر من جديد كما كانت . وما كاد أوديسيوس يرى هذا التحول حتى انخرط فى البكاء تأثراً وبكينا معه نحن أيضاً بينا نحتضنه بأذرعتنا ، وكان أول ما نطقنا به هو الاعتراف بالجميل . وقضينا هناك سنة واحدة رأيت خلالها الكثير من الغرائب وسمعت الكثير من العجائب . ومن بين ما سمعت ما روته لى سراً إحدى الوصيف ، الأربع المنوط بهن الأعمال السحرية . فذات يوم بينما كانت كيركى مختلية بقائدى قادتنى وصيفتها إلى تمثال شاب من الرخام الأبيض الناصع كالجليد وعلى رأسه طائر النقّار . وكان هذا التمثال فى معبد على جوانبه أكاليل زهور كثيرة ، فازددت تشوّقاً لمعرفة من يكون هذا الشاب ، ولماذا يُعبد على مثل هذا النحو فى مثل هذا المكان المقدس ، وما هو سرّ الطائر الأخضر الذى على التمثال . فقالت لى : أَصِخْ السَّمع يا مكاريوس وستعرف من خلال ما سأقصّه عليك مدى قدرة ربّتى ، فامنحنى إذن أذناً صاغية :

پيكوس وكانـنز

« كان يحكم بلاد أوزونيا فى الماضى الملك پيكوس بن ساتورن الذى كانت جياد الحرب المدرّبة هى شغله الشاغل . وأمام عينيك صورته تستطيع منها أن تكتشف كم كان وسيماً ، كما تستطيع منها أيضاً أن تستشفّ طباعه . وكانت شجاعته تعادل جمال شكله ، ومع أنه لم يكن قد بلغ من العمر ما يكفى لأن يشترك مرات أربع فى مباريات المصارعة التى يقيمها الإغريق كل خمس سنوات فى إحدى مدن إيليس ، إلّا أن جمال وجهه قد اجتذب إليه أنظار الدرياديس حوريات جبال لاتيوم ، كما سعت إليه أيضاً حوريات الينابيع وجارتها فى مسعاها النايادیس بنات مياه نهر ألبولا ونهر نوميكيوس ونهر أنيو ونهر المون التى هى قصيرة مجاريها ونهر النار المتدفق الصاخب ونهر الفارفاروس ذى الأشجار الظليلة ، كما سعت إليه أيضاً حوريات تلك البركة التى تحيط بها غابات الإلهة ديانا السكوثية(١٧) وحوريات البحيرات المجاورة . غير أن الفتى كان ينأى عنهن جميعاً ولا يقدم فروض الولاء لغير حورية واحدة يقول الرواة أن ڤينيليا كانت قد أنجبتها فوق جبل پالاتينوس بعد مضاجعة الإلهة چانوس(١٨) الأيونى . وما كادت الفتاة تشبّ ويتكوّر

نهداها حتى آثرت پيكوس من أهل لاتيوم على كل من تقدّم لخطبتها فتزوجت منه . كانت فتاةً نادرةَ الجمال غير أن قدرتها على الغناء كانت أكثر ندرة وتفرّداً ، ومن هنا سُميت كاننز [أى مغنية باللاتينية] . وكان لوقع أنغامها صدى يحرّك الصخور والغابات ويروّض الحيوان الكاسر ويوقف جريان الماء فى الأنهار الكبرى ، ويَجْمُدُ بالطيور عن أن تخفق بأجنحتها . وبينا كانت منهمكة بترديد أغانيها ذات يوم انطلق پيكوس من داره مطارداً بسهامه الخنازير البرية فى برارى لاتيوم وقد امتطى جواداً جامحاً وقبض بيده اليسرى على رمحين وارتدى الخلاميس[19] الأرجوانى اللون المضموم بمشبك من الذهب الأشقر . وكانت بنت إله الشمس الوافدة من البرارى التى تحمل اسمها . . . برارى كيركى ، قد دلفت إلى الغابة لتقطف من تلالها الخصبة بعض الأعشاب النضرة وما كادت عيناها تقعان على الفتى المختبىء وراء إحدى الشجيرات حتى فتنت به وسقطت من بين يديها الأعشاب التى كانت تضمّها ، وخُيّل إليها أن ناراً ملتهبة تسرى كالبرق فى عظامها . وبعد أن استعادت رشدها كادت تقرّ لپيكوس بحبّها إلا أن انشغاله بركض جواده والتفاف تابعيه حواليه حالا بينها وبين أن تُعْرِب عن افتتانها به ، وعندئذ تمتمت تناجى نفسها : « لن تُفلت منى أيها الفتى ولو حملتك الرياح بعيداً عنى اللهم إلا إذا بَطُل سحر الأعشاب التى أجمعها وإلا إذا فقدت عوذاتى قدراتها » .

وانكفأت على سحرها فإذا شبح خنزير برّى أطلقته ليقطع الطريق على الملك ، وإذا الملك يتراءى له كأنه يندفع صوب أجمة من الأشجار المتضامّة المتشابكة الغصون والأوراق يتعذّر على الجواد اختراقها . فاندفع پيكوس دون رويّة أو تردّد ودون أن يفطن إلى ما دُبّر له فأخذ يطارد ذلك الخنزير الذى تخيّله ، ونزل عن صهوة جواده الذى رغى خطمه بالزبد من فرط إنهاكه ومضى الملك يعدو فى الغابة العميقة وراء أمل زائف . عندها بدأت كيركى تتلو صلواتها لأربابها الخفيّة مردّدة تعاويذ سحرية لا تقلّ خفاءً فغطت الغيوم بياض القمر ونسجت فوق وجه أبيها الشمس سحباً ممطرة ، واستطاعت بسحر عوذاتها أن تغشى السماء بظلام كثيف وتطلق من الأرض ضباباً معتماً ، فهام رفاق الملك على وجوههم يبحثون عنه وقد حالت الظلمات بينه وبين حاشيته . وهكذا هيأت كيركى لنفسها المكان والزمان المناسبين ، وانطلقت تخاطبه قائلة : « يا أجمل بنى البشر الفانى ، ناشدتك بعينيك اللتين فتنتا عينىّ وبتلك القسمات الجميلة التى جعلتنى أنا الإلهة أقف أمامك ضارعة أن تخفّف من لذع تلك النار التى تلتهمنى ، وأن ترضى بإله الشمس العليم بكل شىء حماً لك ، ولا تذهب بك قسوتك إلى ازدراء كيركى ابنة التيتان » .

غير أن پيكوس دفعها بعيداً دون اكتراث بضراعاتها قائلاً : « لن أكون لك أياً كنت ، فثمة امرأة أخرى تأسر قلبى ولا أبغى من الدنيا سوى أن أبقى أسيراً لها على مرّ السنين ، ولا أستطيع فى سبيل حب محرم أن أخون عهود الزوجية مادامت الأقدار ترعى لى كاننز ابنة چانوس » .

وبعد أن كررت بنت التيتان محاولاتها وضراعاتها سدى حذّرته قائلة : « لا يبلغنّ بك الغرور أن تظن أنك بمنجاة من العقاب فلن تعود أبدا لزوجتك كاننز ، وهاك مثالاً يدلُّك على ما تقدر عليه المرأة العاشقة حين تُهان . وإن هذه المرأة التى أحبت ثم أُهينت هى أنا . . . كيركى » . وعندها التفتت مرتين نحو

مغرب الشمس ومرتين نحو مشرقها ، ثم مسّت الفتى مرات ثلاث بعصاها السحرية وتمتمت بعوذات ثلاث ، ولكن پيكوس فرّ من أمامها غير أنه ما لبث أن دُهش حين رأى أن سرعته تفوق قدرته المعهودة وإذا هو يرى أن الريش قد نبت على جانبيه . وإذ أحسّ المهانة لمسخه فى غير إبطاء طيراً ينضمّ إلى طيور غابات لاتيوم غرس منقاره الصّلب فى جذع شجرة بلّوط برىّ كما نقر به غصونها الفارعة ، وإذا هو يرى أن ريشه قد اتخذ لون أرجوان الخلاميس الذى كان يرتديه ، وتحوّل مشبكه إلى دائرة من الريش تحيط بعنقه وكأنها قلادة من ذهب ، ولم يبق من الإنسان الذى كان يحمل اسم پيكوس غير اسمه[٢٠] [الطائر النقّار] .

وبينا پيكوس قد انتهى إلى هذا المصير كان رفاقه قد انطلقوا يبحثون عنه فى الغابات والوديان فلم تقع عيونهم إلا على كيركى ، وكانت قد أعادت الضوء ينير الأجواء وسمحت للريح والشمس بأن تبدّد السحب ، فانهال رجال پيكوس عليها شاكين مطالبين بمليكهم ، ثم هددوها أن يعنفوا بها وتهيئوا لرشق سهامهم المروعة فى جسدها ، ولكنها أسرعت فأطلقت عليهم سُمّاً مُبيداً ونثرت حولها عصارات فتاكة ، ونادت على الليل وآلهته من أعماق جحيم إيريبوس وعالم الفوضى والعماء ، ثم أطلقت صرخات طويلة متوسلة بها إلى الإلهة هيكاتى . ألا ما أعجب ما حدث : فقد وثبت الغابات بعيداً عن مكانها ، وأرسلت الأرض أنّات ملتاعة ، وشحبت الأشجار من حواليهم ، وابتلّت المروج فى كل مكان بقطرات الدم ، وسمع الناس الأحجار تتأوه تأوّهات صارخة كما سمعوا الكلاب تعوى ، وتغطت الأرض بحشود من الأفاعى الخبيثة ، ومضت أرواح الموتى ترفرف فى الهواء فذُهل القوم مما شاهدوه . ولما رأتهم كيركى على هذا النحو من الهول لمست بعصاها السحرية وجوههم التى علاها الذهول ، فإذا معجزة أخرى تتجلى إذ مُسخ البشرُ حيوانات ضارية وتجرّدوا من هيئاتهم الأولى .

كان فويبوس قد غمر بضوئه سواحل تارتيسوس[٢١] قبل أن يتوارى ، وعبثاً ظلت كاننز ترصد عودة زوجها بعينيها وبقلبها ، وكان خدمها قد انتشروا فى كل مكان وتبعهم أهل المدينة بحثاً عن پيكوس فى أعماق الغابات حاملين الشعلات يبدّدون بها حلكة الليل . ولم تكتف الحورية بالبكاء وشدّ شعرها وضرب صدرها والتعبير عن ألمها بشتى الوسائل ، وإنما انطلقت خارج قصرها إلى وديان مملكة لاتيوم وقد مسّها الجنون ، وشهدت أياماً سبعة وليالى سبعاً ساعية لا تطعم طعاماً ولا تذوق نوماً تهيم بين الجبال حيث تقودها المصادفة ، وكان آخر من رآها هو ربّ نهر التيبر الذى ألقت بنفسها على ضفّته بعد أن هدّتها آلام الأسى وقسوة الحزن . ومع دموعها ويأسها كانت تردّد بصوتها المتهدّج شكاة ما أشبهها فى شجنها بأنغام حزينة موقّعة لبجعة قد أشرفت على الموت . وتحلّل جسدها مع الألم حتى ذاب نخاع عظامها ، وتهاوت شيئاً فشيئاً مختلطة بالهواء الذى علقت به . ومع ذلك فإن ذكراها ظلت خالدة حيث هلكت ، وكان هذا المكان هو الذى أطلقت عليه حوريات الماء المسمّيات بالكاميناى[٢٢] اسم هذه الحورية كاننز .

تلك عجيبةٌ من عجائب ظللت طوال سنة أسمعها من الآخرين بأذنى أو أشهدها بعينى . وكان الفراغ والخمول قد سلبانا الرغبة فى الإبحار حتى أُمرنا يوماً بأن نبحر . وقد أنذرتنا بنت التيتان أن الملاحة

غير آمنة فى هذه المياه وأن الطريق طويل ، وأن هيجان البحر العنيف ينذرنا بأخطار شتى فإذا الخوف يملؤنى . وإذ كنت قد أدركت هذا الشاطىء قرّ عزمى على استيطانه .

رفـــاق ديوميـــديس

وبعد أن فرغ مكاريوس من سرد قصته وضع أينياس رماد جثة مرضعته فى إناء رخامى ونقش على قبرها هذه العبارة الموجزة : « ها أنذا كاييتا . هنا أودع البطل الورع الذى أرضعته ثديى بقايا جثمانى فى النار المقدسة كما تقضى شرائع الدين بعد أن انتشلنى من نار العدو الإغريقى الحارقة » . وما لبث الطرواديون أن أرخوا حبال سفنهم من المرسى المغطى بالأعشاب وخلفوا وراءهم تلك الجزيرة الغادرة مأوى الإلهة السيئة السيرة ، ثم اتجهت السفن نحو منطقة الغابات حيث يصب نهر التيبر مياهه المختلطة بالغِرْيَن الأصفر فى البحر تحت ظلال الأشجار . وكما قدّم لاتينوس بن فاونوس داره لأينياس قدّم له ابنته بالمثل ، غير أن تلك المشيئة لم يُكتب لها أن تتحقق دون قتال ، فشبّت حرب مع شعب عنيد شديد المِرَاس . وكان تورنوس قد بذل كل ما يملك من وسائل الترهيب لكى يظفر بابنة لاتينوس التى كانت خطيبته فيما مضى ، وخاضت مملكة لاتيوم حرباً ضد مملكة تيرينيا (إتروريا) بأسرها وبقى جيشاهما يتنازعان طويلاً نصراً عصيّاً . وأخذ كل منهما يحاول تدعيم قوته بما يستعين به من إمدادات خارجية ، وكافحت شعوب شتى متحالفة مع شعب الروتوليين أتباع لاتينوس ، كما كافح آخرون مساندة للمعسكر الطروادى[٢٣] . ولم تكن زيارة أينياس لـ « إيفاندر »[٢٤] بلا جدوى على حين باءت بالفشل زيارة ڤينولوس [المنتمى إلى الروتوليين] لمدينة ديوميديس المُبْعَد عن وطنه[٢٥] . وكان ديوميديس يحكم البلاد التى كانت مهراً من زوجته ، ولكنه كان يحكمها فى ظل حماية داونوس الياپيجى[٢٦] واستطاع أن يشيّد فى هذه الأراضى مدينة ذات أسوار عالية . ولكن ما إن جاءه ڤينولوس بناء على أوامر تورنوس يطلب عونه حتى تخاذل عن مساعدته معتذراً بقلة موارده وضعف جيوشه إذ كان عازفاً عن توريط رعايا حميه . هذا إلى أنه لم يكن بين مواطنيه ما يكفى من المحاربين للاشتراك فى القتال فاعتذر يقول : « ما أحب ان تحملوا ردّى على أنه ذرائع وتعلّات ، إذ كلما استعدت ذكرياتى أثارت فىّ آلاماً مبرّحة ، ولكنى مع ذلك سأتجمّل بالشجاعة لأقصّ عليكم قصتى : بعد أن احترقت قلعة إليوم [طروادة] وبعد أن التهمت النيران التى أشعلها الإغريق مدينة پرجامون ، لأن بطل ناريكس [أجاكس] اختطف عذراء ممن تشملهن إلهة العذارى بالرعاية [كاسّاندرا] ، حُقّ علينا أن نتقاسم العقاب الذى كان يستحقه هو وحده . ودفعت الرياح سفننا فى المياه المضطربة الثائرة وجعلتنا نصارع البرق والظلمات والأمطار وغضب السموات والبحر ثم نلاقى الهول الذى كان خاتمة المطاف فى برزخ كافاريوس[٢٧] . ولست أبغى الإسهاب فى رواية ما حدث لنا من مغامرات فاجعة ، فلقد اجتازت اليونان كلها وقتذاك محنةً كان يسيراً أن تستدر حتى دموع پريام ملك طروادة . أما أنا فقد نجوت لأن رحمة الإلهة منيرڤا ذات الدرع والرمح قد أنقذتنى من غضبة المياه ، وها أنذا الآن أجدنى مطروداً من حقول أبى ، تعاقبنى الإلهة ڤينوس الطيبة على جرح قديم جرحته إياها عن غير قصد[٢٨] .

وهكذا قُدّر لى أن أشقى بهذه المحن فى رحلاتى بالبحار العميقة كما عانيت محناً أخرى على اليابسة فى معارك القتال ، حتى لقد صرت أعدّ أولئك الذين لم يشاركوا فى القتال جدّ محظوظين ، وكم أسفت أن العواصف عند برزخ كافاريوس المنيع لم تأت علىّ مثلهم . أما رفاقى الذين ذاقوا متاعب الحرب ومغالبة الأمواج فقد انهارت شجاعتهم وأخذوا يتوسلون إلىّ أن أضع نهاية لرحلاتهم التى غناء فيها ، إلى أن صاح أكمون ابن مدينة بليورون الذى كان ثائراً بطبعه والذى أذكت المحن المتتالية من ثورته قائلاً : « تُرى بعد كل ما عانيتم أيها الرفاق ما سوف يكون مدى احتمالكم ؟ وهل ثمة محن أخرى تخبّئها لنا إلهة كيثيرا ؟ فكلما خاف المرء أن يعرض له مزيد من المحن فوجىء بمحن أكثر . وما أقدر الإنسان على أن يغلب مخاوفه إذا ما انتهى إلى ذروة شقائه فلا يعود قلقه من المستقبل يساوره . ألا فلْتسمعنى الإلهة ولتلاحقنا بكراهيتها نحن رفاق ديوميديس ، فكلنا نزدرى كراهيتها ولا ترهبنا سطوتها الكبرى » . ولقد ضاعفت قولة أكمون المفعمة بالتحدّى من ثورة غضب ڤينوس . وعلى حين هلّل بعض رفاق أكمون لقولته لامته الكثرة وكنت أنا من بينهم . وحين حاول الردّ علينا إذا صوته يضيع وحلقه ينطبق وإذا هو يضمر جسده ويتحوّل شعره ريشاً ، كما كسا الريش عنقه الممسوخ وصدره وظهره ونبت ريش أطول على ذراعيه وتقوّس كُوعَاه فغدتا جناحين خفيفين ، وامتلأ ما بين أصابع قدميه بغشاء رقيق ، وإذا فمه منقار مدبّب فحملق فيه زملاؤه ميكوس وإيداس ونكتيوس وركسنور وأباس مذهولين وإذا هم الآخرون يُمسخون على هيئته . وهكذا انطلق أكثر رفاقى سرباً من الطيور يخفق بأجنحته فى الهواء ويدور حول المجذّفين بمجاذيفهم . وإذا أردت أن تعرف هيئة هذه الطيور التى وُلدت لتوِّها فاعرف أنها ليست بجعاً وإن كانت تشبهه كثيراً لبياض ريشها(٢٩) .

أما أنا وتلك القلّة الباقية من رفاقى فلقد غدونا نضطلع بشئون هذه الديار ونُفلح تلك السهول الجرداء التى انتهت إلىّ مهراً من داونوس اليابيجى لزواجى من ابنته .

شجرة الزيتون البرّية

وبعد أن قصّ ديوميديس حفيد أوينيوس قصصه غادر ڤينولوس مملكة كاليدون عائداً إلى بلاده عبر خليج بيوكيتيا وحقول ميسابيا فوقع بصره على كهف تُظلّه أشجار كثيفة وتحجبه عن العيون قصبات من الغاب ، وكان يسكنه پان الإله نصف التيس ، وإن تكن حوريات الأنهار قد سكنته قبلُ قديماً . ويروى أن راعياً من أبوليا حلّ ذات يوم بهذا الكهف فذُعرت الحوريات من حلوله وهربن فزعات . غير أنهن سرعان ما جمعن شتات رشدهن غير مباليات بمطاردهن وعاودن الرقص تدقّ أقدامهن الأرض على إيقاع نشيدهن ، فمضى الراعى يسخر منهن ويقلّدهن بوثبات ثقيلة هوجاء ويقذفهن بشتائم بذيئة ولم يكفّ إلا بعد أن وقع ساق شجرة على حلقه فإذا هو يُمسخ شجرة زيتون برّى ، وأصبحت عصارة ثمرة هذه الشجرة خير دليل على طبعه ، فمرارتها التى اكتسبتها من خشونة أسلوبه تَنِمّ عن بذاءة لسانه .

سفن أينياس وقصة أرديا

وحين عاد الرسل من بَعثتهم برفض الإيتوليين تقديم العون لم يقعد الروتوليون عن القتال على الرغم من عدم عون أولئك الحلفاء لهم فتدفّقت سيول الدماء من الطرفين . وها هو ذا تورنوس يقذف شعلات النيران النّهمة على السفن المصنوعة من خشب الصنوبر فإذا هى تلتهب ، وإذا الرجال الذين نجوا من الموت غرقاً يتهيّبون الموت حرقاً ، وكان مولكيبير إله النار قد أخذ يقذف فى جوفه بالقطران والشمع وبكل ما يغذّى النار وتسلّق الصارى الكبير مُصعداً نحو الشراع وسط الدخان المنبعث من العروق التى فى مؤخرة السفن . وحين تذكرت كوبيلى أم الآلهة المبجلة أن خشب الصنوبر الذى صُنعت منه هذه السفن قد جاء من أشجار جبل إيدا الذى تباركه ملأت الهواء بصفير المصفار وبقرع الصنوج ، وأقبلت تشقّ الهواء الرقيق على مركبتها التى يجرها زوج من الأسود المروَّضة وصاحت : « عبثاً تطوّح يداك الجاحدتان بهذه المشاعل المحرقة يا تورنوس فلسوف أنتزعها منك ، ولن آذن لنار أن تحيل جزءاً من غاباتى رماداً » .

وما انتهت الإلهة من تحذيرها حتى أُرعدت السماء ، وهبطت فى إثر البرق أمطار غزيرة يتخلّلها بَرَدَ متساقط . وأثارت الرياح أبناء آسترايوس[٣٠] فى الهواء فتنة وفى المياه ثورة فى هبوبها ، على حين جعلت أم الآلهة الحنون ريحاً من هذه الرياح تمزّق حبال الكتان التى تربط الأسطول الفريجى فدفعت سفنه أمامها حتى غرقت ، غير أن خشب السفن لم يلبث أن تحوّل لحماً واستحالت حيازيمها المقوّسة وجوها بشرية ، كما أصبحت المجاذيف أنامل وسيقانا قادرة على السباحة . وتحوّل ما كان جوانب السفن إلى ضلوع . أما الصالب[٣١] الذى يتوسط قاع السفينة فقد استحال عموداً فقرياً ، وأصبحت الحبال شعوراً مسترسلة ، وغدت ساريتا السفينة ذراعين غير أن لونهما بقى لازورديا كما كان من قبل ، وتحوّلت السفن التى كانت تهاب الأمواج إلى حوريات بحر يعبثن بالمياه . ومن عجب أن أولئك الحوريات اللاتى وُلدن على صخور الجبال بتن لا يفكّرن فى أصولهن بعد أن ضمّتهنّ المياه ، إلاّ أنهن لم يَنْسينْ مخاطر رحلاتهن فى الخضم ، فما أكثر ما كنّ يسندن السفن التى تلطمها العواصف بأيديهن غير سفن الآخيين إذ كن مازلن يذكرن مآسى الفريجيين التى غذّت كراهيتهنّ للبيلازجيين [الإغريق] ، لذلك فرحن لما رأين حُطام سفينة ملك نيريتوس [أوديسيوس] ، كما قرّت عيونهن بفرحة دونها عندما شهدن سفينة ألكينووس تتجمّد ، ويتحول خشبها إلى صخر وسط البحار .

وحينما سرت الحياة فى هذه السفن ــ التى تحوّلت إلى حوريات بحار ــ كان ثمة أمل فى أن يفزع الروتوليون من هذه المعجزة وينفضون أيديهم من الحرب ، غير أن الروتوليين لم يعدلوا عن الحرب بل استمروا يواصلونها . وكان لكل فريق آلهته التى ترعاه ، كما كانت لكل منهم شجاعته التى تعدل رعاية الإله . فلم يَعُد النزاع قائماً حول مملكة اتُفِق أن تكون مِهْراً ، ولا حول صولجان صِهْر ، ولا حولك أنت يا لاڤينيا العذراء ، بل أصبح هدف المعركة هو النصر وحده . واستمرت الحرب خَشْيةً عار الانسحاب ، إلى أن اطمأنت ڤينوس فى نهاية الأمر إلى فوز جيش ولدها وهزيمة جيش تورنوس ، وسقطت مدينة أرديا

التى اشتهرت ببأسها فى حياة تورنوس[٣٢] ، حتى إذا تهاوت محترّقة وسط ألسنة النيران التى أشعلها الدردانيون وتساقطت بيوتها تحت الجَمْر المتوهّج ، انطلق من بين الخرائب والأطلال طير لم يشهده أحد من قبل أخذ يرفرف فوق المدينة وينفض الرماد من أجنحته الخفّاقة ، وأخذت صيحاته وشحوبه ونحوله تذكّر كلها بالمدينة الضائعة ، حتى اسم المدينة نفسه قد حمله هذا الطير فسُمّى أرديا [أى مالك الحزين] ، وهو طير دائم الخفقان بجناحيه والبكاء على مصيره والرثاء لمصابه .

تأليــــه أينــــياس

لقد أنست شجاعة أينياس الآلهة جميعاً ومن بينهم جونو الكراهية التى كانوا يضمرونها له منذ القدم . وكانت سلطة ابنه يولوس التى اكتمل نموّها قد رسخت ، وآن لهذا البطل أينياس بن ڤينوس أن يصعد فى السماء ، ومن أجل هذا أخذت ڤينوس تسعى سعيها لدى الآلهة واحداً بعد الآخر وطوّقت بذراعيها عنق أبيها چوپيتر قائلة : « أبتاه ، أنت لم تقس علىّ يوماً ما ولم ترفض لى رجاء ، لذا فإنى أسألك أن تمنحنى اليوم أعظم ما أتمنّاه عليك فتهب ابنى العزيز أينياس نصيباً من الربوبية مهما كان ضئيلاً ، فهو من دم ابنتك ومن ثم فهو حفيدك . فحقّق رجائى يا أجلّ الملوك ، وحسبه أنه ألمّ بمملكة الظلال يوماً وأنه عبر نهر ستيكس ذات مرة » .

وما إن سمع كبير الآلهة رجاءها حتى أجابها إلى ما طلبت ، وقد قاسمته ملكة السموات رضاها فبدت غير متجهّمة يفيض وجهها بالخير . وقال لها كبير الآلهة : إنك وابنك جديران بهذه الهبة السماوية ، أنت يا من رفعت إلىّ رجاءك ، وهذا الذى تتوسّلين من أجله ، فإليك يا ابنتى ما تبتغين » .

كانت هذه كلمة كبير الآلهة ، وعندها قدّمت ڤينوس التى عمّها الفرح فروض الشكر لأبيها واعتلت مركبتها التى تجرّها اليمامات البيضاء ، وحلّقت فى الأثير حتى وصلت شواطىء لاورنتوم حيث ينعطف نهر نوميكيوس ليصبّ فى البحر المجاور ، هذا النهر الذى تفيض على جانبيه القصبات . وهناك أمرت ڤينوس ربّ النهر أن يغمس فيه أعضاء أينياس حتى لا يُصيبها الموت بالتحلّل ، كما أمرته أن يغوص بها إلى أعماق النهر الهادئة ، فاستجاب لها إله النهر ذو القرنين وغسل منه كل عضو فان إلا ما كان أسمى وأنبل فلا يحتاج إلى أن يمسّه ماء النهر . وعكفت أمه بعد ذلك على دهان جسمه بعطر إلهى ثم مسّت شفتيه بمزيج من شهد الآلهة « الأمبروزيا » ونبيذهم العذب « النكتار » ، وهكذا جعلت منه إلهاً ، فرحّب به أهل كويرينوس [أحد تلال روما] ودَعَوْه ربًّا للمكان، فشيّدوا له معبداً وهياكل .

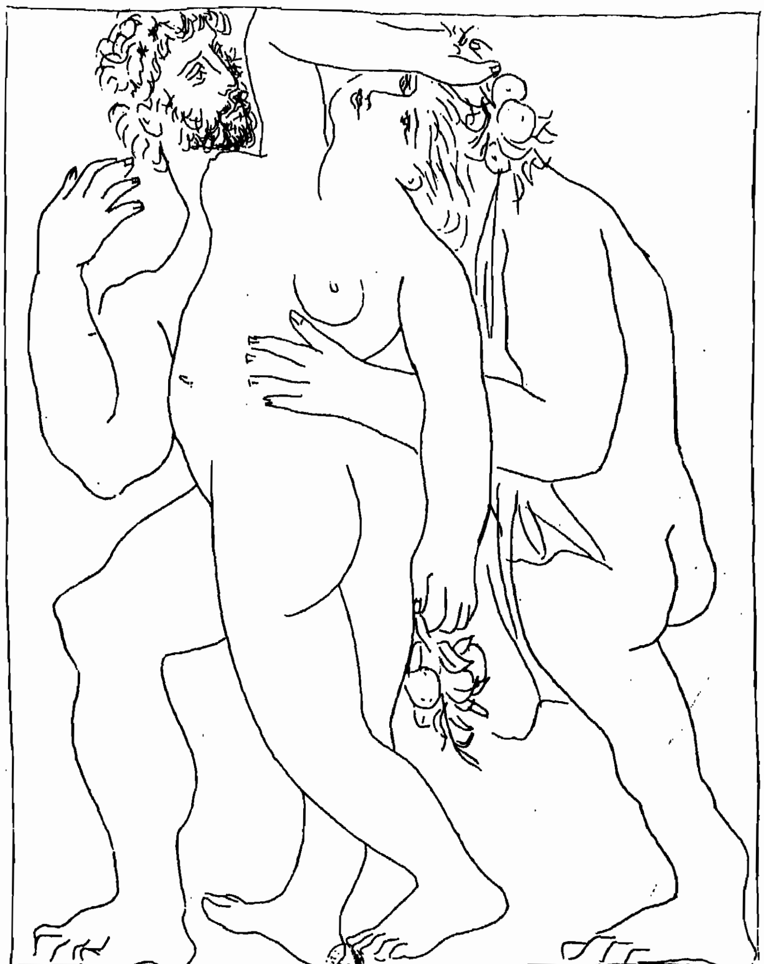
پومونا وڤيرتومنوس . إيفيس وأناكساريتّى

وأصبحت مملكة ألبا ومملكة لاتيوم بعد ذلك تحت حكم أسكانيوس بن أينياس الذى حظىّ باسمين[٣] ، إلى أن خلفه سلفيوس . ومن بعده حمل لاتينوس بن سلفيوس اسم سلفه ملك لاتيوم القديم

كما حمل صولجان حكمه . وجاء ألبا الشهير بعد لاتينوس ثم ابنه إيپيتوس ثم تولّى كاپيس الحكم ومن بعده كاپيتوس . ومنها تسلم التاج تيبرينوس الذى سُمِّى النهر الإتروورى باسمه بعد أن غرق فيه . وأنجب تيبرينوس ريمولوس وأكروتا المقاتل المعتز بنفسه . وقد صعق البرق ريمولوس أكبر الأخوين عندما كان يحاول أن يقلّد البرق فى صعقه . وكان أكروتا أقل طموحاً من أخيه فسلّم صولجان الحكم إلى أڤنتينوس الباسل الذى دُفن بعد موته فى سفح التل الذى كان قد تقلّد الحكم فوقه ، فأطلق اسمه على هذا التل بعد مماته .

وأصبح پروكا ملكاً لشعب الپالاتينوس [أحد تلال روما] ، وفى عهده عاشت پومونا ، ولم تكن من بين حوريات غابات لاتيوم حورية تفوقها فى فلح البساتين وتنسيق الحدائق ، أو تنافسها فى العناية بثمار الأشجار ومن هنا أُطلق عليها اسمها پومونا[٣٤] ، فلم تكن تعشق الغابات والأنهار فحسب بل تعشق أيضاً الحقول المزروعة وغصون الأشجار المثقلة بالفاكهة الوفيرة ، ولا تحمل يدها حربة تُثْقل يدها بل تحمل المنجل المقوس تشذّب به أحياناً ذؤابات النبات وتنسّق الغصون المتشعّبة أحياناً أخرى . كما تشق أحياناً لحاء جذوع الشجر لتدسّ فيه غصن شجرة يتغذّى من عصارة شجرة أخرى ، وكانت دائمة السّهر على النباتات لا تدعها تعانى ظمأ بل كانت ترويها من الجداول الجارية حتى تتشرب بها أطراف الجذور المتشعّبة . كان هذا همّها الأكبر ومتعتها الوحيدة فى الحياة ، لا تعانى من لهفة الحب . وكان خوفها من عنف سكان الريف الذين من طبعهم دوماً الشوق إلى المرأة سبب عزلتها فى غوطة الفاكهة التى حرّمت على الرجال دخولها . وكم حاول الساتير أولئك الفتيان المعربدون الذين لا يعرفون غير الرقص عملاً ، وكم حاول أتباع پان ذوو القرون المحاطة بأكاليل ورق الصنوبر ، وكم حاول سيلينوس[٣٥] الذى يبدو دائماً أصغر سنّاً من حقيقته ، وكم حاول پرياپوس ذلك الإله[٣٦] الذى كان يروّع اللصوص بالكشف عن مذاكيره الضخمة المُمْعنة طولا والتلويح بمنجله الحاد ، كم حاول سدى أولئك جميعاً الاستمتاع بها . كذلك كان ڤيرتومنوس يكنّ لها حباً أعظم من حب هؤلاء جميعاً ولكنه مثلهم لم يسعد بها . كم مرة ارتدى رداء الفلاح البسيط كى يحمل إليها سنابل القمح فى سلّة فبدا فلاحاً حقاً ! وما أكثر ما ظنّ مشاهدوه وحزمة العشب الغضّ المحصود حول رأسه أنه عائد لتوه من حقل الحصاد . وما أكثر ما كان يقبض على السّوط بيده القوية مما يجعل الناس توقن أنه منته لتوه من رفع النير عن أعناق ثيرانه المنهكة ، وإذا أمسك بالمنجل ظن الناس أنه إما قد فرغ من تشذيب الأغصان أو من تقليم الكروم .

وكان يسير أحياناً والسلّم على كتفه فيظن الناس أنه ذاهب لقطف الفاكهة ، وإذا أمْسك بسيف ظنّوه جندياً محارباً ، وإذا أمسك بقصبة ظنّوه صياد سمك . وأخيراً استطاع بعد هذه الحيل الكثيرة من التنكر أن يجد الوسيلة التى يقترب بها من پومونا التى كان دائم الشوق إلى إمتاع عينيه بجمالها . وذات يوم أحاط جبينه بشريط مطرّز بألوان مختلفة واتكأ على عصا ، وسوّى شعراً أبيض فوق صدغيه ليبدو فى صورة امرأة عجوز ، ودلف إلى حدائقها المنسّقة الغرس ، وأبدى إعجابه بالفاكهة التى شهدها قائلاً : « ما أعظم هذا النتاج الغزير الوفير ! » وأغرق فى الثناء على پومونا ، ثم هو بعد هذا الثناء يقبّلها قبلات لم يُشْهَد مثلها من امرأة عجوز ، وافترش الأرض وقد قوّس ظهره ورفع بصره إلى الغصون المتدّلية بثقل عطاء الخريف .



پيكاسو : پومونا وڤيرتومنوس

وكانتِ ثمة شجرة دردار شامخة تنتصب أمامه تحيط بها عناقيد الكروم وكأنها قلادة لها مُبْهرة ، فأطرى تلك الشجرة ورفيقتها الكَرْمة قائلاً : « لو كانت هذه الشجرة قد نهضت وحدها جذعاً وحيداً دون الكرمة التى تكتنفها لما قصدها أحد إلاّ ليقطف أوراقها ، كذلك هذه الكرمة التى تستند إلى جذع الدردار لو لم تقترن به لهبطت إلى الأرض متخاذلة . أما أنت فما يبدو عليك أنك تدركين هذا المثل الذى تضربه هذه الشجرة ،

فأنت دائمة الهروب من مباهج الحب ولا تحرصين على الاقتران برجل . ألا فلتكن مشيئة الآلهة أن ترضَىْ يوماً بالزواج . فكم من عشاق قصدوك أكثر ممن قصدوا هيلينا نفسها ، أو هيپوداميا التى كانت سبب المعركة بين اللاپيث والقنطور ، أو پينيلوپى زوجة أوديسيوس الذى كان يبدو شجاعاً حيناً وجباناً حيناً آخر(٣٧) . وإلى الآن وأنت تتمنّعين على العشّاق ، فكم من ألوف من الرجال وقعوا فى هواك ، وكم هناك من عشاق لك من بين الآلهة وأنصاف الآلهة ومن هم دونهم من الآلهة التى تعيش على جبال ألبا . ولو رُزِقْتِ شيئاً من الحكمة وشيئاً من الدراية بمصلحتك ، ثم لو كانت لك الرغبة فى أن تعيشى فى ظل رجل تسعدان معاً لأنْصَت إلى تلك المرأة العجوز التى تقف أمامك ، فحبّها لك يطغى على حب الرجال لك وفوق هذا الحب . وما أنصح لك به يا ابنتى ألا تهبطى إلى مستوى العامة واجعلى من ڤيرتومنوس رفيقاً لك فى مضجعك ، وأنا كفيلة باقناعه فما أدرانى به . وهو ليس ممن يهيمون على وجوههم فى الأرض وراء مغامرات لا طائل تحتها ، بل هو هذا الذى يُفْلح تلك الحقول الشاسعة الممتدة أمام بصرك . وهو لا يسقط فى حب امرأة رآها آخر ما رأى كما هو شأن من يتودّدون إليك كل يوم ، بل ستكونين له أول من أحبّ ولن يحب بعدك لأنه مشوق أن يجعل حياته كلها لك . ولا تنْسىْ أنه مازال شاباً وأن الطبيعة قد أسبغت عليه حظاً كبيراً من الوسامة ، وأنه قادر على أن يتحوّل إلى أية هيئة شاء ، وأنه رهن إشارتك دَوْماً لأن يتحوّل إلى الهيئة التى تؤثرين . هذا إلى أنكما تتّفقان مشاربَ وأذواقاً . أليس هو أول من يذوق التفاح الذى تزرعين ، ومن يملأ كفّيه فرحاً بثمار الأشجار التى رَعَيْتها ؟ ولكنى أقول لك إنه ما به من رغبة الآن فى ثمار أشجارك ، كما أنه ما به من رغبة فى نتاج بستانك ولا فى فاكهتك الغضّة ، بل هو أشْوق ما يكون إلى طلعتك أنت . فارحمى عاشقاً يعصف به عاصفُ الحب ، واستيقنى أن كل ما تمنّاه قد عبرّ عنه على لسانى . واحذرى آلهة الانتقام وإلهة إيداليا [ڤينوس] ، تلك الإلهة التى تبغض القلوب الغليظة المتحجّرة ، ولتحذرى غضب نيميسيس المتحفّز إلهة الثأر وراعية رامونتى التى لا تخونها الذاكرة أبداً . ولكى تدركى ما قد تتعرّضين له من سطوة الآلهة إليك قصة ذاعت فى قبرص ، فقد جعلتنى حياتى الطويلة أقف على الكثير من الخفايا ، ومن يدرى لعل قصتى تلين قلبك وترقّق عواطفك .

« كان ثمة رجل من أسرة متّضعة يدعى إيفيس قد وقع بصره على الأميرة أناكساريتّى حفيدة تيوكير [ملك فريچيا فى قديم الزمان] ، وسرعان ما أحسّ بنار الهوى تلهب عظامه . وحاول كثيراً أن يكبح حبه غير أن العقل قلما يكبح جنون العشق ، فجاء متوسلاً إلى عتبة بيت معبودته حيث اعترف لمرضعتها بحبه اليائس للأميرة والتمس منها السعى لديها لتبثّها ما له عليها من آمال ، كما توسل إلى وصيفاتها بصوت العاشق المعذّب ليمنحنه تأييدهن ومساندتهن . وكثيراً ما أودع فى رسائله عواطفه الحانية ، وكثيراً ما كان يعلّق فوق باب القصر أكاليل الزهور مبتلة بدموعه ، وكثيراً أيضاً ما كان يلقى بنفسه على عتبة الباب مُسْلماً جسده لقسوة الحجر الصُّلب وهو يلعن القفل المنيع الذى حال بينه وبين الدخول بصوت حزين .

وكانت أناكساريتّى أشد قسوة من البحر نفسه ، ذلك البحر الذى يهيج عندما يأفل نجما الجدْيينْ زيتا وإيتا ، وكان قلبها أعتى من حديد مسابك نوريكوم(٣٨) وأصلب من الصخور الراسخة فى الأرض . وما

أكثر ما سخرت منه ، وما أكثر ما ردّت على تشبيبه بعبارات قاسية ملؤها التعالى والخيلاء حتى سدّت فى وجه
عاشقها طريق الأمل . ولم يستطع إيفيس صبراً بعد أن غلب شقاؤه قدرته على المعاناة فانطلق أمام بيت
الفتاة يردد كلماته الأخيرة بصوت عال : « لقد كُتب لك الفوز يا أناكساريتىّ ولن تضيقى بإلحاحى بعد اليوم
ذَرْعاً . فلتفرحى ولتبعدى بنصرك المؤزر ، ولتنشدى نشيد النصر ولتعصبى جبينك بأكاليل الغار
المتلألئة . فأنت من كُتب لك الفوز ، وها أنذا أموت طوع إرادتى . اذهبى راضية يا من قُدّ قلبك من
٧٢٠ فولاذ ، ولعل يوماً يُقبل تشهدين فيه أن موقفك منى جعلنى أفعل ما يحرّك إعجابك بى وتقدريننى قــدرى .
ولكن اذكرى أن حبى لك دائم مادمت حيّاً إذ أن نور الحياة ونور الحب يخمدان معاً . ولن يحمل لك خبر
موتى شائعة من الشائعات المتداولة بل سأمثُل أنا نفسى أمام عينيك حتى يكون لك يا أقسى النساء أن تمتعى
نظرك برؤية جسدى الهامد . ناشدتكم أيتها الآلهة فى علاكم أن تجعلوا قصتى مرويّة على ألسنة الناس على
مرّ العصور كلما عنّ لكم أن تنظروا فى أعمال البشر [وما يملك لسانى أن يتوسّل إليكم بأكثر من هذا] ،
وأن تضموا إلى ذكراى تلك السنين التى اقتطعتموها من عمرى » .

ثم رفع عينيه الدامعتين أمام الباب الذى كثيراً ما علّق عليه أكاليل الزهور ، وبذراعيه الممدودتين
ربط حبلاً بأعلى مصراعى الباب وشدّ به أنشوطة ، وصاح من جديد قائلاً : « انظرى . هاك الأكاليل التى
ترتضينها يا أناكساريتى القاسية ! » ثم دسّ رأسه فى الأنشوطة وشنق نفسه . وظل حتى بعد أن لفظ آخر
أنفاسه معلّقاً بالباب فاقد الحياة متجّهاً ببصره صوب الأميرة . وأخذت قدماه ترتطمان بمصراعى الباب فإذا
لهما نحيبٌ وكأنه يندب ما حدث فى مرارة ، وانفتح الباب قليلاً وإذا أهل البيت تتكشّف لهم المأساة وصرخ
٧٤٠ الخدم والأتباع وأقبلوا يحاولون رفع إيفيس ، ثم حملوا جثته إلى دار أمه الأرملة ، فضمت ابنها بين ذراعيها
واحتضنت الجثة الهامدة الباردة وفاهت بعبارات الأسى التى نسمعها للآباء والأمهات فى مثل هذه المواقف ،
وأقدمت على ما تُقدم عليه الأمهات الشقيّات فانفجرت بكاء وقادت جنازة طويلة اجتازت المدينة حاملة
جثمان ابنها على النعش فى طريقه إلى المحرقة . وكان بيت أناكساريتىّ قريباً من الطريق الذى تمرّ به
الجنازة ، وبلغت أصوات النحيب أذنى الفتاة المتحجّرة القلب ، وشرع إله الثأر فى إثارة ضميرها . وعلى
الرغم من طبيعتها التى لا مبالاة فيها بدأت الشفقة تتسلل إلى قلبها وصاحت : « دعونى أُشْرِف على هذه
الجنازة الحزينة » . ثم صعدت إلى حجرة مرتفعة فى بيتها لتطلّ على المشهد من نافذتها المفتوحة على
مصراعيها ، وما كاد طرفها يقع على إيفيس وهو مُسجًّى على نعشه حتى جمدت عيناها وسرى فى جسدها
شحوب الموت وجفّت دماؤها وانطفأت فيها حرارة الحياة وحاولت أن تعود إلى حيث كانت ولكنها ظلت
جامدة فى مكانها ، وحاولت سدى أن تتلفّت بوجهها مرة إثر مرة ، وإذا التحجّر الكامن فى قلبها يسرى فى
جسدها كله . وحتى لا تظنى أن هذه القصة من بنات الخيال اعلمى أن فى سلاميس إلى يومنا هذا تمثالاً
٧٦٠ لمعشوقة إيفيس بجوار معبد أطلق عليه اسم « ڤينوس المتغطرسة المتوجّسة » .

فلتذكرى هذه القصة أيتها الحورية وخَلِّ عنك هذا الكبرياء الذى يملؤك صدًّا وتمنّعا ، وهبى نفسك

لعاشقك ، حتى لا يُخمد لفح الصباح البارد فى الربيع براعم ثمارك ، ولا تنثر ريحه فى هبوبها زهراتك التى هى الأمل فى ثمارك .

وهكذا حاول الربّ المتنكر فى صورة امرأة عجوز أن يعرض قضيته على پومونا ، ولكن إذ ذهبت مساعيه هَباء عاد إلى هيئته الأولى وكشف عن وسامته الجذّابة ، وخلع رداء الشيخوخة وظهر أمام الفتاة فى أوج مجده كالشمس حين تظهر من وراء السحب البادية أمام طلعتها ، وتأهب لأن يأخذ أموره بالعنف فيحقق مأربه على حين لم تكن ثمة ضرورة لذلك ، إذ ما أسرع ما افتتنت الحورية بجمال الربّ وأولعت به كما كان هو بها مولعاً » .

رومــولوس وهيــرسيليا

وحكم مملكة أوزونيا ذات الثروة الوافرة بعد بروكا أموليوس الظالم اعتماداً على جيشه الجرّار إلى أن استرد نوميتور[٣٩] العجوز بعون حفيده مملكته السليبة . واكتمل خلال مهرجان الپاليليا[٤٠]إرساء أسس أسوار مدينة روما . ثم جاء تاتيوس ورؤساء قبائل السابين فشنّوا الحرب على قلاع المدينة ، وكانت الفتاة طارپيا قد مهدت لهم الطريق إلى القلعة وإذا هى تلقى جزاءها العادل حين لقيت حتفها بقذائفهم المتتابعة . ثم تسلّل أبناء قبيلة السابين[٤١] من مدينة كوريس فى خفاء وصمت الذئاب وهاجموا حراس المدينة وهم غارقون فى نومهم . وكان رومولوس بن إيليا قد أحكم إغلاق أبواب المدينة عدا باب واحد فتحته چونو بنت ساتورن فى حرص حتى لا يكون له صرير . وكانت ڤينوس هى وحدها التى رأت مزلاج الباب وهو ينزع وكادت تحاول إغلاقه لولا ما جرى عليه عُرف الآلهة بألا يُبطل إله عمل إله آخر . وإذ كانت حوريات المياه الأوزونيات يعشن قريبات من هذا المكان إلى جوار معبد چانوس فى منطقة تتدفق فيها مياه عين نديّة ، لجأت ڤينوس إليهن فلم يستطعن إلا أن يُعاونها فقد كان مطلبها عادلاً ، ففجّرن مياه الأنهار والجداول التى تُمِدُّ ينابيعهن [للحيلولة دون العدو وبين اقتحام أسوار المدينة] . وبالرغم من ذلك عجزن عن أن يَسْدُدْن الطريق المؤدى إلى باب معبد چانوس ولم يُفلح الماء وحده فى صدّ العدو ، فوضعت الحوريات كبريتاً أصفر فى أعماق النبع المتدفّق وأضرمن النار فيه تحت سطح الأرض بالقار الذى يتصاعد منه الدخان ، فتسرّبت الحرارة إلى أعماق الينبوع وغدت المياه التى تحدَّت برودتها ذات يوم برودة جبال الألب فى حرارة المُهْل والنار نفسها . ومن هذا الشواظ النارى الملتهب اندلع الدخان فى حِصْنى بوابة المدينة التى استعصى على السابين الغلاظ أن ينفذوا منها حين طمعوا فى احتراقها [وما كان أضعف أملهم] ، فقد وجد أهل المدينة فى هذه المياه المتدفقة عوناً لهم ريثما يجد جنود مارس فسحة من الوقت يتسلّحون فيها ويحملون تروسهم .

وقاد رومولوس جنوده فى الهجوم وانتثرت جثث السابين على الأرض الرومانية وقد اختلطت بها جثث المواطنين الرومان ، فامتزج دمُ الصِّهر بدمِ زوج ابنته على نصال السيوف الغادرة يجرى فى جداول .

وعندها رأى الجيشان أن يكُفّا عن مواصلة القتال ، وأن يُبْرما بينهما صلحاً ينهى الحرب ، وأن يشارك تاتيوس رومولوس عرشه .

ومات تاتيوس وتُوّج رومولوس ملكاً على الشعبين فخلع مارس إله الحرب خوذته وتوجّه إلى كبير الآلهة والبشر قائلاً : « ألا لقد حان الوقت يا مولاى . ها هى ذى روما قد استقرت ولم تعد تركن إلى حماية بطل واحد ، وأطلّ الأوان الذى ستمنحنى فيه الجائزة التى وعدتنى بها فترقى برومولوس من الأرض إلى السماء . وإنى لأستعيد قولك لى فى مجلس من مجالس الآلهة [وإنى لأذكر كلماتك الجليلة التى بقيت محفورة فى ذاكرتى] : لترفعنّ يا مارس أحد أبنائك إلى ذروة القبة الزرقاء . ألا فلتكن كلماتك الآن أفعالاً » .

فأومأ چوپيتر الجبار برأسه مستجيباً ، وما لبث أن ملأ الأجواء بسحب داكنة وألقى الفزع والرعب فى قلوب الناس برعده وبرقه ، فأدرك مارس أن هذه بشائر رضاء رب الأرباب على ارتقاء ابنه إلى السماء . واعتماداً على رمحه الطويل اعتلى مركبته التى تجرها الجياد بِشِقّ الأنفس وبينها عريش ملطّخ بالدم ، وساطها بسوطه مراراً فانطلقت تنهب الفضاء إلى أن هبطت فوق قمة تل الپالاتينوس المكسو بالغابات حيث كان رومولوس بن إيليا يقضى بين شعبه بالحكمة والعدالة فانتزعه مارس من بينهم ، وتناثر جسد الملك الفانى فى الفضاء كما تتناثر فى السماء قذيفة متفجّرة قذف بها المنجنيق وإذا جسده البشرى فى جلال يليق بجلال الآلهة فى علاهم ، وغدا اسمه كويرينوس مُرْتَدى الترابيا [ثياب الاحتفالات السماوية] .

وحين انخرطت هيرسيليا زوجة رومولوس باكية عليه متخيلة أنها قد فقدته ، أمرت چونو كبيرة الآلهة وصيفتها ورسولتها إيريس أن تهبط إلى الأرض لتزفّ للأرملة البائسة بُشْراها : « أيتها الملكة ، يا فخر القبائل اللاتينية والسابينية ، ما كان أجدرك فى الماضى أن تكونى زوجة لمثل هذا البطل العظيم ، ثم ما أجدرك الآن أن تصبحى زوجة لكويرينوس . جفّفى دمعك ، ولو شئت رؤية زوجك فهلمّى معى إلى الغيضة الخضراء فوق الكويريناليس الذى تظل أشجاره معبد ملك الرومان » .

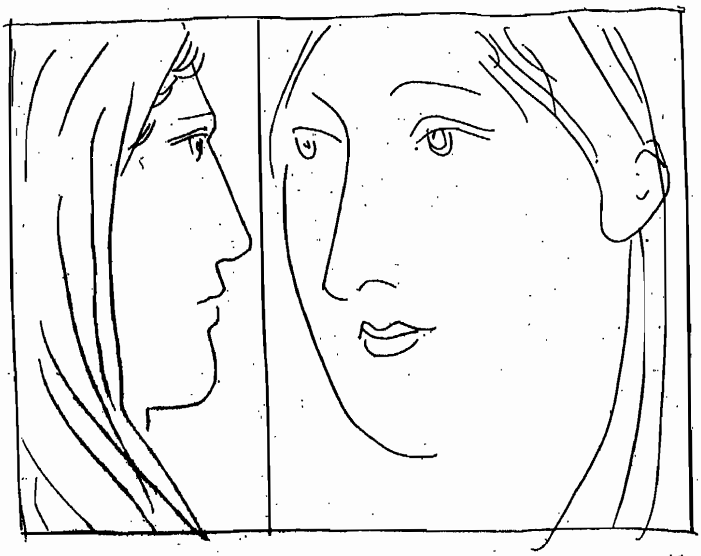
ونفّذت إيريس رغبة چونو وانزلجت نحو الأرض عبر قوس قزح ذى الألوان البهيجة ، وأنهت إلى هيرسيليا مشيئة چونو ، ولم تجسر الملكة أن ترفع عينيها فأجابت فى خشوع وتواضع : أنا لا أعرف من تكونين أيتها الإلهة إلا أنه من الجلىّ أنك تحملين سمات الألوهية . خذينى لأرى وجه زوجى ، فلو أذنت لى الأقدار أن أراه مرة واحدة لحسبت نفسى قد دلفت إلى الجنة » .

واتجهت هيرسيليا إلى تل رومولوس فى رفقة بنت ثاوماس العذراء [إيريس] ، وإذا بنجمة من السماء تسقط بغتة إلى الأرض لتشعل النار فى شعر هيرسيليا وتتحد بها ثم تعرج بها إلى السماء حيث استقبلها مؤسس مدينة روما وضمّها إلى صدره وعانقها بذراعيه اللتين تعرفهما حق المعرفة ، ثم وهبها جسداً واسماً جديدين ، فأصبحت « هورا »[٤٢] الإلهة التى ارتبطت عبادتها بعبادة كويرينوس .

التعقيبات

(١) اسم العملاق المشار إليه إنكيلاديس [انظر الإلياذة لفرجيل الكتاب الثالث ٥٧٨] .
(٢) مدينة بصقلية .
(٣) كان إله الشمس قد وشى بحب مارس وفينوس [انظر الكتاب الرابع] .
(٤) كان فراره فى المرة الأولى برفقة أبيه وابنه من طروادة بعد سقوطها .
(٥) جبل فى صقلية كان أينياس قد دفن أباه إلى جواره .
(٦) ملك من ملوك صقلية قدم العون إلى پريام فى الحرب الطروادية وساعد أينياس خلال رحلته .
(٧) أمير طروادى تحوّل إلى نهر وهو والد أيولوس .
(٨) جزيرة إسكيا اليوم بإيطاليا .
(٩) جزيرة پروكيدا الآن .
(١٠) تعلو جبلاً بجزيرة پيثيكوزا التى يظن البعض أنها سميت كذلك نسبه إلى أن سكانها قد مسخهم جوپيتر قروداً . وپيثيخوى تعنى القرد الصغير باللغة اليونانية .
(١١) الاسم القديم لناپلى .
(١٢) أطلق اسم ميسينوس على لسان ناتىء فى البحر عند شواطىء كامپانيا ، وكان ميسينوس قد دفن به بناء على توصية أينياس [انظر إنيادة فرچيل الكتاب السادس] .
(١٣) أقحم أوفيد خطبة مكاريوس كما فعل فرچيل من قبل فى قصته عن پوليفيموس لكى يمزج بين مغامرات أوديسيوس وأينياس .
(١٤) اقتبس أوفيد هذه الحادثة من الأوديسيا [الكتاب العاشر البيت : ٨٧ وما بعده] . أما فرچيل فلا يروى فى إنيادته وقوف أينياس عند ديار الساحرة بل يجعل الإله نپتون يحرف سفن البطل عند الجزيرة [الإنيادة ٧] .
(١٥) يتبع أوفيد هنا وصف هوميروس بدقة ولكنه ينحرف عن الأصل فى وصف غزل الصوف ، فإن النص الهوميرى يقول إن يوريلوكوس ورفاقه قد سمعوا كيركى وهى تغنى أمام نولها نشيدها الذى دعاه هوميروس « نشيد النسجية » .
(١٦) يرى بعض العلماء أن المقصود بنبات « المولى » هو « رجلة البحر » غير أن هذا الرأى ليس له ما يسانده .
(١٧) هى بحيرة نيمى المشهورة بجوار روما ، وسميت أيضاً مرآة ديانا . وكان بجوار شواطئها معبد مقدس لديانا ربة مدينة أريسيا ، ويلاحظ أن عبادة ديانا فى هذا المعبد كانت قريبة جداً فى طقوسها من عبادة أرتميس [ديانا] بجبال طوروس ، مما جعل أوفيد يلقبها بديانا السكوثية .
(١٨) چانوس هو ابن أپوللو وقد أسس قرية بجوار نهر التيبر سميت چانيكولوم ثم أصبحت فيا بعد جزءاً من روما ، وقد تُوِّج أول ملك لإيطاليا القديمة كما أُلّه بعد موته ، وكان يمثل بوجهين لأنه كان يعرف الماضى والمستقبل .
(١٩) قميص قصير خفيف يرتديه الشباب .

(٢٠) تعنى پيكوس باللاتينية الطائر النقّار .
(٢١) منطقة مصب نهر الوادى الكبير بإسپانيا .
(٢٢) الكامينای اسم لحوريات المياه وأشهرهن إيجيريا التى كانت ملهمة الفيلسوف نوماً پومپيليوس ، ومن ثم كان اسم إيجيريا يطلق على أية امرأة تكون ملهمة لأحد المفكرين أو الفنانين .
(٢٣) يشير أوڤيد إلى الكتاب السابع من الإنيادة الذى تدور كل أحداثه حول ما يومىء إليه أوڤيد .
(٢٤) جاء من أركاديا وأسس مدينة پالنتيوم على سفح تلال پالاتينوس ، وقد أصبحت فيها بعد جزءاً من روما .
(٢٥) تدور هذه الأحداث فى الكتاب الثامن والحادى عشر من إنيادة ڤرچيل ، ويذكرها هنا أوڤيد فى إيجاز مفرط اعتماداً على أن جمهور القراء وقتئذ كان على بينة كاملة بكل ما ورد فى الإنيادة وبخاصة تلك الأساطير التى تقصّ نشأة روما .
(٢٦) المقصود زوجته الثانية ، فقد تزوج ديوميديس إبنة أدرستوس ملك أرجوس ، غير أن زوجته خانته فطلقها وعاد إلى بلاده فى أيتوليا . وخلال عودته إلى دياره انحرفت سفينته نحو شواطىء ياپيچيا التى يحكمها الملك داونوس . وقد طلب داونوس من ديوميديس أن يعينه فى حربه ضد الميساپيين وهو شعب مجاور لبلاده ، وبعد انتصارهما زوّجه الملك إبنته إيفيپيه .
(٢٧) فى الطرف الجنوبى الشرقى لمقاطعة يوبويا .
(٢٨) كان ديوميديس قد جرح يد ڤينوس عن غير قصد وهو يقاتل أينياس .
(٢٩) المقصود طائر النورس .
(٣٠) استرايوس هو ابن التيتان كريوس ، تزوج من إيوس [أوروراً عند الرومان] وأنجب رياحاً ثلاثة هى النسيم « زفير » وريح الشمال « بورياس » وريح الجنوب « نوطوس » .
(٣١) العارضة الرئيسية التى تمتد على طول قاع المركب .
(٣٢) كانت لاڤينيا ابنة الملك لاتينوس من زوجته أماتا ، وكانت قد خطبت لقريبها الملك تورنوس ولكن الهاتف الإلهى أمر أباها أن يزوّجها من أمير أجنبى ، لذلك قُدّمت لأينياس عروساً له .
(٣٣) أسكانيوس ويولوس .
(٣٤) نسبه إلى پوموم أى ثمار الفاكهة أو التوت .
(٣٥) ابن راع وعنزة كان يعيش فى الغابات ، وكثيراً ما يصوّر ممسكاً بغصن شجرة سرو لأنه كان قد عشق غلاماً تحول إلى شجرة سرو هروباً من ملاحقته له .
(٣٦) كان الساتير وأتباع پان وسيلينوس مـن أرباب الريف . أما هذا الإله فهو الإله اللاتينى القديم راعى الحقول . ويصفه أوڤيد بأنه پرياپوس الذى كانت تُشيَّد له التماثيل العارية الناعظة العضو التناسل لطرد شرور الحسد ولضمان خصوبة الأرض .
(٣٧) أورد العلامة هاينسيوس تصحيحاً لهذا النص أخذ به الكثير من الشارحين ، وهو « الشجاع أمام الجبناء » ، ورأيت الأخذ بالنص القديم .
(٣٨) منطقة جبلية فى وسط أوروپا على الضفة اليمنى لنهر الدانوب مشهورة بمناجم الحديد .
(٣٩) الابن الأكبر لپروكا وكان أخوه أموليوس قد خلعه ، ولكن حفيديه رومولوس وريموس ساعداه على أن يسترد ملكه المسلوب .
(٤٠) عيد لتكريم پاليس إلهة القطعان والمراعى وهى التى أضفت اسمها على تل الپالاتينوس فى روما .
(٤١) السابين قبيلة مجاورة للّاتين الذين احتلوا منبت روما الأصلى ، ولم يكن بين اللاتين من النساء سوى بعض العاهرات ، وقد شاء رومولوس لرجاله الظفر بنساء كريمات حتى يتكاثروا فيخلقوا حضارة جديدة . وكان السابين يأبون الزواج من غير عشيرتهم فدعا رومولوس أشراف السابين إلى حفل كبير فى الهواء الطلق وهمس إلى رفاقه أن يخفوا سيوفهم فى العشب حتى إذا أطلق إشارته أمسك كل بسيفه وقتل أحد رجال السابين ودفع إحدى العذارى السابينات إلى قلعة المدينة الجديدة . [انظر الكتاب الأول من « فن الهوى » لأوڤيد . ترجمة كاتب هذه السطور] .
(٤٢) كانت هورا كويرينى [أى التابعة لكويرينوس] توصف أحياناً بأنها الربة فورتونا السابينية الأصل التى تلعب دوراً كبيراً فى الأساطير الرومانية . وأحياناً أخرى كان يخلط بين مويريني وبين الإلهة هورتا التى يبدو أنها من أصل إتروسكى ، والتى أقام الرومان لها فيها بعد معبدا مفتوح الأبواب . ويقول بعض الشراح أن هورا كويرينى قد تحوّلت إلى إلهة راعية للشباب فى العقيدة الرومانية .



بيكاسو

الكتاب الخامس عشر

نوما . موسكيلوس وكروتون

كان الناس آنذاك يتطلّعون إلى رجلٍ له القدرة على حمل تلك المسئولية الضخمة على نحو ما كان عليه السلف العظيم . وظهرت المتنبّئة وإذا هى تصطفى نوما[1] الذائع الصيت ليمسك بزمام السلطة . وكان نوما حكيماً لم يقنع بتعرّف طقوس الشعب السابيني بل سعى إلى ما هو أسمى ، وهو اكتشاف أسرار الكون . وأملت عليه حماسته أن يهجر موطنه فى مدينة كوريس[2] ويقصد قصد مدينة كروتونا[3] التى التجأ إليها هرقل يوماً . وهناك سأل عن أول من شيد مدينة يونانية على سواحل إيطاليا ، فأجابه شيخ من قاطنى البلدة وكان عنده قصص الماضى قائلاً :

يروى الرواة أن هرقل بن چوپيتر عاد من المحيط ومعه قطعان أيبرية كان قد اغتنمها ، وبعد رحلة موفّقة بلغ شواطىء لاكينوم فترك هذه القطعان ترعى العشب الغض ودلف إلى بيت كروتون العظيم الفيّاض الجُود حيث وجد متنبعاً يرتاح فيه من عناء الرحلة . وحين عَنَّ له أن يغادر المكان قال : « لتقومنّ فى هذا الموقع مدينة على أيدى خَلَفِنَا من الأحفاد » وحقّقت الأيام ما قال . وكان لآليمون الأرجوسى ابن اسمه موسكيلوس كان من أحبّ الناس إلى الآلهة ، فمال عليه الإله حامل الهراوة وهو مستغرق فى نومه وهمس إليه : « هلمّ معى ، واهجر بيت أبيك ولتقصد الجداول المغطى قاعها بالحصى فى بلاد آيسار البعيدة » . وخشى الشاب أن يخالف أمره فتتوالى الكوارث الطاحنة ، وحين نهض ابن آليمون من سباته وأخذ يتدبّر رؤياه احتدم فى نفسه صراع بين الاستجابة لأمر الإله وبين الشرائع التى تحرّم الهجرة وتقضى بإعدام كل من يستبدل بوطنه وطناً آخر .

وحين غاب وجه الشمس المشرق جمالاً فى البحر ، ورفع الليل رأسه المرصّع بالنجوم خيّل للأمير أنه يواجه الإله من جديد ، وأنه يسمعه يكرّر تهديده ووعيده ، وأنه سيصيبه بأضرار أشد قسوة إن لم يستجب لندائه . واستحوذ الخوف على موسكيلوس فإذا هو يعدّ العُدّة لينقل ما ورثه عن أبيه إلى موطن جديد . وإذا الناس قد بدأوا يتهامسون بخبره وإذا هو يقدم إلى القضاء متهماً بالخروج على قانون البلاد ، وانتهت المحاكمة بإدانته دون حاجة إلى سماع شهود ، فارتسمت على وجه الفتى المتهم آيات الأسى ورفع بصره إلى السماء باسطاً كفيه وهو يستغيث قائلاً : « يا هرقل يا من صعدت إلى السماء بمآثرك الاثنى عشر ، أتوسل إليك أن تمدّ إلىّ يد العون فأنت من دفعنى إلى هذا الموقف » . وجرت العادة أن يستخدم المحلّفون الحصى الأسود إذا كان المتهم مديناً والحصى الأبيض إذا كان بريئاً . وإذ حكم المحلفون فى هذه القضية بإدانة المتهم وضعوا الحصى الأسود فى الوعاء ، غير أنه سرعان ما استحال ما فيه من حصى أسود إلى حصى أبيض بقدرة الآلهة فتغيرّ الحكم وبُرِّئت ساحة موسكيلوس ، فهبّ يزجى الشكر لربه ابن أمفيتريون ، ثم ركب سفينته وأقلع بها فى البحر الأيونى تدفعه الرياح المواتية ، فمرّ بالقرب من مستعمرة تارنتوم اللاكيديمونية [الأسپرطية] ، ثم مدينة سيباريس وڤيرنتوم مدينة السالنتينيين[٤] ثم بخليج الثُّوريين[٥] بتيميسا[٦] ، ثم بحقول ياپكس[٧] ومضى بمحاذاة الشاطىء يرقب الأراضى المطلة على البحر حتى بلغ مصب نهر آيسار الذى دفعته الأقدار إليه ، حيث وجد مقبرة يضم ترابها المقدس عظام كروتون ، فبدأ يشيّد فى ذلك الموقع — استجابة لأمر تلقّاه — أسوار مدينة تحمل إسم البطل المدفون فى ثراها » . وهذه هى قصة أصل المكان كما رواها الرواة من قديم الزمان ، وتلك كانت أسباب بناء هذه المدينة فى أطراف إيطاليا .

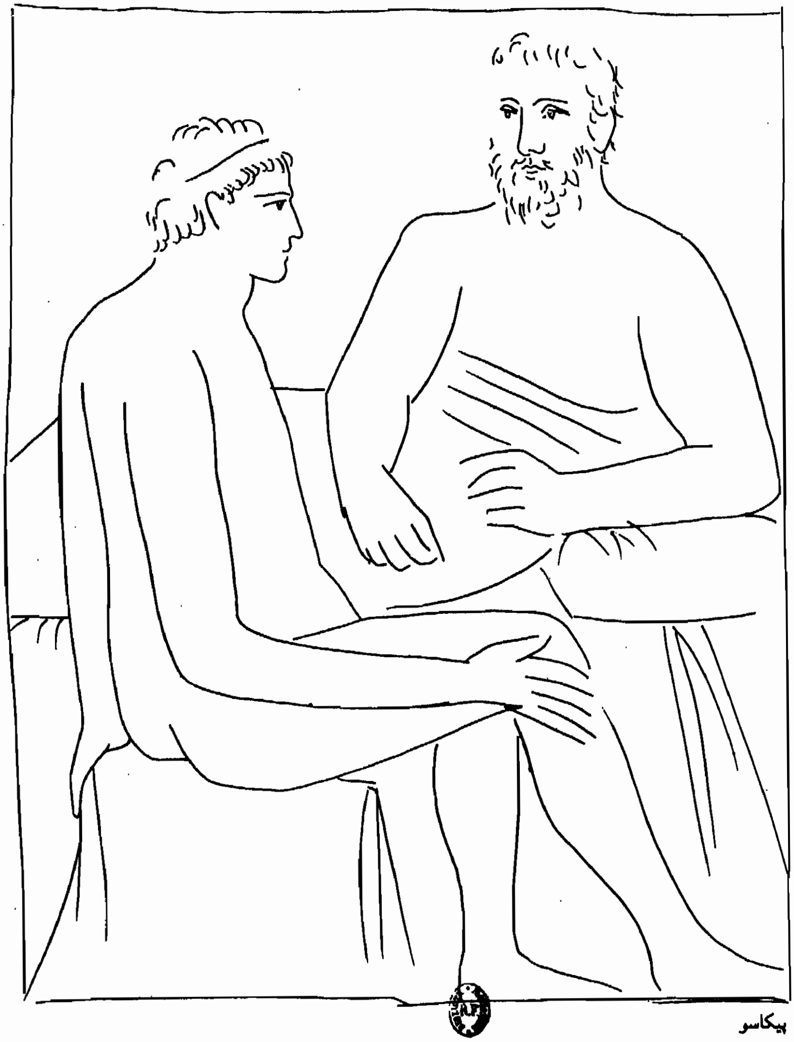
بيثاجوراس

وفى جزيرة ساموس[٨] ولد پيثاجوراس ، غير أنه تركها لطغيان حكّامها واختار عليها أرضاً أخرى هرباً من البطش والاستبداد . وكان پيثاجوراس مشغول الفكر بالآلهة فى علياء سمائها ، وببصيرته النافذة تعمّق أسرار الطبيعة الكامنة التى تخفى عن البشر . وكان له من رجاحة العقل وعمق الدراسة ما نفذ به من

ظلمة الجهل إلى نور العلم الذى بسطه ليدركه العامة فى يسر ، فاحتشد تلاميذه من حوله مبهورين بعبقريته وسحر حديثه وهو يلقّنهم أسرار الكون الفسيح معلّلاً الأسباب ، شارحاً ماهية الطبيعة وكُنه الألوهية ، وهل هو چوپيتر الذى يسوق الرعد عبر قبة السماء أم هى الرياح التى تفرّق السحب عن بعضها البعض ، وأسباب الزلازل وقوانين دورة الكواكب وغوامض الطبيعة ، كما كان أول من أخذ على البشر أكل لحم الحيوان . وهكذا كان بحق أول من نطق بالحكمة لكن أحداً عندها لم يصدقه حين قال : « أيها البشر الفانى لا تدنّسوا أجسادكم بطعام تبغضه الآلهة وبين أيديكم الغلال والفاكهة التى تثقل غصون الأشجار وعناقيد الكروم الناضجة وطيّبات من النباتات تنضجها النار وتحيلها ليّنة شهية . وما تضنّ الطبيعة عليكم باللبن ولا بالشهد الذى يفوح بأريج الزعتر ، وحقول الأرض سخيّة تقدم لكم نتاجها ، وغذاؤها الشّهىّ تُزْحَمُ به موائدكم دون حاجة إلى ذبح أو سفك دماء . فالوحوش هى التى تُشبع جوعتها بلحوم بعضها وليس هذا دأبها كلها ، فالخيل والأغنام والأبقار لا تغتذى إلّا بالأعشاب . أما الحيوان المعروف بالقسوة والمطبوع على الوحشية مثل نمور أرمينيا والأسود السريعة الغضب والذئاب والدّببة فهى التى تجد متعتها فى لعق الدم . واأسفاه . ما أبشع أن تزدرد الأمعاء أمعاء أخرى ، وأن يسمن الجسد على لحم جسد آخر ، وأن يحيا كائن على قتل آخر ! أوَلا تقنع بكنوز الأرض الأم وخيراتها عن أن تمزق بأنيابك أشلاء جسد آخر لتملأ فمك كما يفعل الكيكلوپيس ؟ هل من وسيلة أخرى لتسدّ نهم معدتك غير التهام كائن آخر مثلك ؟ ففى العهد السحيق الذى كنا ندعوه العهد الذهبى كان الناس لا يأكلون إلّا من ثمار الأشجار ونباتات الأرض ، ولا يدنّس الإنسان فمه بدماء الذبائح . وكانت الطيور أيامها تحلّق فى الأجواء دون أن تتهدّدها أخطار ، وكان الأرنب البرى يعدو بين الأعشاب بلا خوف ولا وجل ، ولم يكن السمك يقع ضحية بريئة بالطُعْم الملقى إليه فيعلق بالشصّ . كانت الطمأنينة والسلام يرفرفان وتنتشر فى كل مكان دون أن يحسب أحد حساباً للمكائد والخداع ، حتى ظهر إنسان شرير واسع الحيلة لا أدرى من هو ، حسد السّباع على طعامها ، وقذف فى أحشائه النهمة لحم ذبيحة بادئاً الطريق إلى الجريمة الآثمة . وأظن الأمر بدأ بتخضيب السيوف بدم الوحوش التى تهدّد البشر ، وقد كان هذا أمراً ينال الرضا فليس ثمة إثم فى سفك دم حيوان لا همّ له إلّا افتراسنا . وإذا كان للإنسان الحق فى أن يدافع عن نفسه ، فما أبعده عن الحق حين يتخذ من الحيوان غذاءه . ولكن الجريمة ما لبثت أن اتسع نطاقها ، ويقال إن الخنزير كان أول الضحايا التى استحقت الموت لاقتلاعه البذور من التربة بخطمه المدبّب هادماً بذلك الآمال المعقودة على الحصاد ، ثم جاء دور التيس الذى نُحر فوق مذابح باكخوس عقاباً له على قرضه الكروم ، فإن كانت هذه هى جريرة تلكما الحيوانين فما هى جريرتك أيتها النعاج الوادعة التى ما خُلقت إلّا لنفع البشر . فى ضروعك شراب نغتذى به ، وعلى ظهورك أصواف ننسج منها ثياباً حانية ، فنفعك لنا حيّة أكثر من نفعك لنا ميّتة . وما أشقى الثور الذى لم يعرف الخديعة والمكر ولا الدهاء ولا الأذى وقد وُلد قوياً ليحتمل أشق الأعباء ! وكم صار الإنسان ناكراً للجميل حين دفعه شرهه إلى أن يرفع النير عن عنق الثور الذى يحرث له حقله فيذبحه غير راض بما يغل له ، هاوياً بالساطور على ذلك العنق المكدود فى خدمته وفى حراثة الأرض الصُّلبة لإنبات الحصاد بعد الحصاد .

ولم يقنع البشر بارتكاب هذه الجرائم بل شاءوا إشراك الآلهة فى إثمهم وخالوها تستمتع هى الأخرى بذبح الثيران الوديعة ! لقد اتخذوا من فتوّة الثور مسوّغاً لهلاكه فقادوه إلى المذبح متوّجاً بأكاليل الغار والذهب ، يسمع صلوات الكاهن دون أن يفهمها ، ويرى بذور الغلال التى حرثها من قبل تُنثر على جبينه وتنساب من بين قرنيه ، ثم يهوون عليه بالساطور الذى سرعان ما يتخضب بدمه ، ذلك الساطور الذى كان الثور يرى صورته منذ حين وديعاً ساكناً فى المياه الطاهرة التى تحتويها آنية المعبد فلا يراه يحمل له شرّاً . ثم يستخرجون أحشاءه وهى ما تزال تنبض وترفّ بالحياة يتفحّصونها بحثاً عما تدبّره الآلهة للبشر . كيف تجسرون إذن أيها البشر على أكل هذه اللحوم ، ألا ما أشدّ نهم الإنسان إلى الغذاء المحرّم . ناشدتكم أن تقلعوا عن ذلك ولتصغوا إلى نصيحتى ، واعلموا أنكم حينما تمضغون بأسنانكم لحم الثور الذبيح إنما تلتهمون حارثكم الوفىّ .

ومادمت أتحدث عن أمر إله فسأنصاع لأمره كلمة كلمة ، وسأكشف لكم الستار عن أسرار دلفى[٩] التى أكنّها فى صدرى ، وسأفتح أمام عيونكم منافذ السموات ، وأكاشفكم برسائل الحكمةُ العليا وأبثّكم الأسرار العميقة التى لم تستطع عبقرية بشر بلوغَها فظلت خفية عليهم . وكم أود أن أحلّق فى الآفاق بين الكواكب والنجوم تاركاً هذه الأرض التى تُقْعِد الهمم معتلياً السحاب حتى أهبط على كتفى « أطلس » الجبار ، وأتطلع ببصرى إلى البشر عن بعُد وهم يهيمون على وجوههم على غير هدى فأنشر لهم لفافة القدر المطوّية وأبثّ فى قلوبهم إيماناً لا يخشون معه الموت . أيها الجنس البشرى المفزّع الذى وقف جامداً خوفاً من الموت الجاثم ، لماذا تخشى نهر ستيكس والظلمات والكلمات الجوفاء التى ليست غير بضاعة يستخدمها الشعراء فى قصائدهم ؟ لماذا تخشى أخطار عالم لا وجود له ؟ فلتطمئن نفوسكم إلى أن أجسادكم لن تستشعر ألماً بعد الموت سواء تحوّلت إلى رماد فوق المحرقة أم تحلّلت بطيئاً فى الثرى مع مرور الأيام . أما الروح فإن الموت لا يدركها ، فهى ما تكاد تخلّف مأوى حتى تجد لها مأوى جديداً ينفتح أمامها وتعيش فيه راضية[١٠] . وأذكر واعياً أننى وقت حرب طروادة كنت يوفوربوس بن پانثووس الذى تلقّى فى صدره طعنة قاتلة من رمح منيلاوس ثانى قادة الإغريق . وقد تعرّفت على تلك التّرس التى كنت أحملها على ذراعى اليسرى أيامها حين رأيتها منذ قليل بمعبد چونو فى أرجوس مدينة أباس[١١] . إن كل شيء يتحوّل ولكنه لا يفنى ، وإن نسمات الحياة تمضى فى الكون من هنا وهناك تضم من الأطراف ما تشاء ، وتنفذ إلى جسد من تختار . قد تكمن فى جسد حيوان ثم تدعه إلى جسد بشر . وهذه النسمات التى تبثّ فينا الحياة قد تنتقل منا إلى الحيوان دون أن تفقد ذاتيتها ، فهى كالشمع المرن الذى يتشكل صوراً جديدة مختلفة ولا يبقى على شكل ثابت ومع ذلك لا يفقد طابعه . أقول لكم إنى أومن أن الروح تبقى هى هى دوماً مهما حلّت فى أجساد مختلفة ، فاحذروا ــ ناشدتكم الآلهة ــ أن تطردوا من دوركم روحاً قد تكون بينها وبين أرواحكم وشائج قربى فتنتهكوا بذبحها الحرمات ، ولا تجعلوا الجشع ينسيكم البرّ بأقربائكم ، ولا تدعوا الدم يعدو على الدم .



بيكاسو

ومادمت قد أبحرت كالسفينة فى خضمّ أفكارى وجعلتُ الرياح تملأ شراع حديثى فسأستطرد إلى ما هو أبعد وأقول لكم إنه ليس فى الكون كله ثمة شيء ثابت ، فكل شيء فى تغيّر مستمر يسيل كالماء ، وأشكال الكائنات عارضة ، والزمن نفسه يمضى منساباً وكأنه النهر بل أسرع ، لأن ساعة الزمن العجلى لا تستطيع أن تتوقف ولو شاءت . فكما تدفع الموجة الموجة أمامها وتأخذ مكانها فكذلك الساعات تهرب

الواحدة من الأخرى ، وتطارد هذه تلك فى تجدّد بلا تلبّث ، ويصبح ما حدث منذ قليل بعيداً ، ثم يحدث ما لم يكن قد حدث من قبل . وليست كل برهة من الزمن إلاّ خَلْقاً جديداً ، وإنكم لتشهدون الليل ساعة يفرغ من رحلته يمدّ يده إلى الفجر ، ويشرقُ نورُ النهار ليَخْلُفَ ظلمات الليل ، وإن لون السماء ليختلف فى أوج الليل ساعة يسترخى الناس بعد الكدّ عنه ساعة يصعد لوسيفر حاملاً النور من أمواج الخضمّ ممتطياً جواده الأبيض ، كما يختلف أيضاً قبيل الفجر ساعة ترقش أوروا إبنة پالّلاس العالم بألوانها قبل أن تُسلمه إلى فويبوس . وإن قرص الإله نفسه ليأخذ اللون الأحمر عندما يطفو قليلاً فوق سطح الأرض فى الصباح الباكر ، كما يأخذ اللون نفسه آخر النهار عندما يبدأ فى المغيب على المستوى نفسه من سطح الأرض . وهو يضحى أبيضَ حين يبلغ سمت السماء لأن الهواء فى الطبقات العليا أكثر نقاء لبعده عن أدران الأرض . أما كوكب ديانا [القمر] الذى يتألق ليلاً فإنه لا يبقى فى صورة واحدة بل يتغير حجمه من ليلة إلى أخرى ، إذ يكبر كل يوم وهو فى طريقه إلى الاكتمال ، ثم يصغر كل يوم وهو فى طريقه إلى المحاق .

ثم ماذا ؟ ألا ترَوْن العام يأخذ أشكالاً أربعة متتابعة هى الفصول التى تحاكى مراحل حياتنا . فهى طفل وديع يتغذّى بلبن الثدى حين يُهلُّ الربيع ، ويظهر العشب الجديد غضاً رقيقاً لكنه زاخرٌ بالعصارة ، يبعث السعادة فى قلوب المزارعين الذين يمثّل لهم الأمل ، ثم يزدهر كل شىء وتأخذ الورود المختلفة الألوان فى الابتسام للأرض الحانية ، ولكن ما تزال الأوراق غضّة يعوزها النماء . وبعد انصرام الربيع يصبح العام أقوى جَلَداً مع دخول الصيف مثلما يصبح الطفل شاباً قوياً ، فهى المرحلة الحافلة بالقوة والخصوبة والدفء والحماسة . وحين تفتر حرارة الشباب يهلّ الخريف فى إثر الصيف ، وهو فصل الامتلاء بالنضج ، يلتقى فيه الشباب بالشيخوخة ، وتظهر بعض الشعرات الشهباء فوق الصدّغين . ثم يأتى الشتاء الهرم مرتجفاً متعثّر الخطى ناحل الشعر ، وإن بقيت منه بقية كانت ذات لون ناصع البياض .

وكذلك تتغير أجسادنا نفسها ، ولا تكون فى الغد مثل ما كانت عليه بالأمس ولا مثل ما هى عليه اليوم . ولقد كنا يوماً فى أرحام أمهاتنا ـــ يوم كنا فيها نطفة فحسب ـــ الأملَ فى إنسان مكتمل ، فتناولتنا يد الطبيعة المخضرمة وأمدّتنا بالعون ، ولم تشأ أن نبقى سجناء فى رحم الأم الضيق لا نستطيع به حَراكاً فدفعتنا إلى الهواء الطلق . وحين يخرج الطفل إلى النور لأول مرة يبقى مستلقياً لا حول له ، ثم يحبو زاحفاً على يديه وقدميه كذوات الأربع . ورويداً رويداً ينتصب على ساقين مرتجفتين لا تثبتان ، وقد يعتمد على ما يسنده ، ثم يصبح قوياً سريع الحركة والعدْو ، يمرّ بمراحل الشباب إلى أن يبلغ سنوات الرجولة ، ثم يأخذ فى الانزلاج على منحدر الشيخوخة التى توهن عزم السنين الخالية وتزعزع أركانها . ويُرْوَى أن ميلون(١٢) كان لا يكفّ عن البكاء فى شيخوخته كلما أحسّ ضعف ذراعيه ونحولهما بعد ما كانتا فى قوة وصلابة ذراعى هرقل . كذلك أجهشت هيلينا ابنة تندارس بالبكاء حين تأملت وجهها فى المرآة وقد بدت فيه تجاعيد السنين وتساءلت متعجّبة كيف حدث أن اخْتُطفت مرتين متتاليتين(١٣) ؟ إيه أيها الزمن ، إنك تلتهم كل شىء ولا تشبع ، وكذلك أنت أيتها الشيخوخة الغيورة ، تطحنين كل شىء بأنيابك وتنتهين به إلى الموت .

لا ثبات لعناصر الطبيعة ، وإليكم تقلّباتها . إن العالم الأبدى يشمل عناصر أربعة هى أصل كل شىء ، اثنان منها ثقيلان يغوص بهما ثقلهما إلى أدنى وهما التراب والماء ، واثنان لا وزن لهما فلا يعوقهما شىء عن الانطلاق إلى أعلى وهما الهواء والنار الأشدّ نقاء . وعلى الرغم من أنه ثمة فراغ يفصل بين هذه العناصر فإن كل شىء يبدأ منها وينتهى إليها . فالأرض حين تذوب تستحيل سائلاً ، والسائل حين يتبخّر يصبح ريحاً وهواء ، والهواء بعد أن يفقد وزنه كله ويرقّ ينطلق نحو الأثير الملتهب . ثم نشهد بعد ذلك سلسلة من التحوّلات فى اتجاه عكسى ، فتعود هذه العناصر إلى شكلها الأصلى مرة ثانية بعد أن تكون قد تحوّلت على النحو الذى ذكرته . فالنار مثلاً تتكاثف فتصبح هواء . والهواء يصبح ماء ، والماء عند تجمّده يشكّل أرضاً صلبة ، فلا شىء يحتفظ بشكله الأصلى ، فالطبيعة فى جدد مستمر ، والمادة دائمة التشكّل فى أشكال مختلفة ، إذ لا شىء يفنى ، فالكون فسيح ، وكل شىء فيه يتشكل على صور جديدة متغيرة . والميلاد ليس إلّا بداية حال جديدة تختلف عن حال سبقتها ، وليس الموت غير نهاية لهذه الحال من أجل بداية حال غيرها ، ومن الممكن نقل جزء من المادة إلى مكان ما وجزء آخر إلى مكان غيره ، ولكن حاصل جمع هذه الأجزاء يبقى بلا تغير ، فليس ثمة شىء يستمر على مظهره وقتاً طويلاً . وهكذا انتقلت العصور من الذهب إلى الحديد ، وهكذا تقلّبت مصائر الأمم والحضارات . وقد رأيت أنا نفسى تحوّل أرض جامدة إلى بحر متدفق ، كما رأيت بحراً يتحوّل إلى أرض صلبة ، وكثيراً ما نجد أرضاً مغطاة بالأصداف رغم بُعدها عن البحر ، أو نعثر على مرساة قديمة فوق قمة جبل ، كما حوّل الفيضان سهولاً إلى وديان ، وكم دفعت السيول جبالاً إلى وسط السهول ، وكم جفّت مستنقعات وتركت مكانها صحارى جرداء ، كما تحوّلت أراض جافة إلى مستنقعات راكدة الماء . وفى ذلك دليل على قدرة الطبيعة على إظهار أشياء فى مكان ما وحجب غيرها فى مكان آخر . والزلازل الهادرة فى أعماق الأرض تفجّر الأنهار فوقها تارة وتمتصها تارة أخرى تاركة مكانها بواراً . وقد انشقت الأرض تحت نهر الليكوس[١٤] وابتلعته فى جوفها ، وإذا هو يتفجّر ثانية فى مكان بعيد عبر فجوة خرج منها إلى النور . وتكرر ذلك مع نهر إيراسينوس العظيم[١٥] ، فبعد أن ابتلعته الأرض ظل يسرى فى أعماقها حتى طلع من جديد فى حقول أرجوس ، وكذلك نهر كاياكوس[١٦] فى ميسيا لم يرض عن ضفافه الأصلية فتركها إلى ضفاف أخرى . أما نهر أمينانوس[١٧] الذى يشقّ مجراه فى رمال صقلية فإنه يفيض حيناً ويجف حيناً آخر . وقد كان الناس يشربون فى سالف الأيام من مياه نهر الأنيجروس[١٨] بينما لا نملك اليوم أن ندنو منها بعد أن غسل فيها القنطور جراحه التى أحدثتها سهام هرقل حامل الهراوة ، اللهم إلا إذا لم نأخذ بما يزعم الشعراء .

ولنذكر أيضاً نهر الهيبانيس[١٩] الذى ينبع من جبال سكوثيا فقد اختلطت عذوبة مياهه قديماً بماء البحر الأُجاج . وفى قديم الزمان كانت مدن أنتيسا[٢٠] وفاروس[٢١] وصور الفينيقية محاطة بالمياه ، وقد خلصت اليوم ثلاثتها من الماء فلم تعد جزراً . ويذكر شيوخ ليوكاديا[٢٢] تلك الجزيرة عندما كانت جزءاً من القارة وهى اليوم محوطة بالبحر من كل الجهات ، ويقال كذلك إن زانكليه[٢٣] كانت متصلة بإيطاليا حتى ذهبت الأمواج ببرزخ هذه المدينة وأحالتها إلى جزيرة . وإذا كنت تبحث عن مدينتى هيليكيه[٢٤]

وبورا[٢٥] فى البلاد الآخية فإنك لن تعثر عليهما إلاّ تحت المياه ، فما يزال الملاّحون يشيرون حتى اليوم إلى أسوار هاتين المدينتين المتداعية الغائرة فى الماء . وثمة تل عال أجرد بجوار ترويزن[٢٦] مدينة الملك پيثيوس كان فى الماضى سهلاً مستوياً وأصبح اليوم ركاماً من التراب ، فعندما حُبست الرياح فى كهوف مظلمة انطلقت تبحث عن متنفَّس فلما لم تجد شقّا ولا منفذاً ثارت ثورة عارمة وأخذت تنفث فى الأرض كما ينفث امرؤ فى مثانة حيوان أو قربة من جلد جدْى ذى قرنين ، فإذا هذا النفث يخلّف تلاّ عالياً محدَّباً .

وكم من أمثلة تتتابع على ذهنى سمعت بعضها وشهدت البعض الآخر ، وسوف أسرد لكم طرفاً منها . فالماء مثلاً يتخذ أشكالاً غريبة المظهر ، فنبعُك يا آمون ياذا القرنين[٢٧] مياهه باردة فى الظهيرة دافئة عند الشروق والغروب ، ويقال إن الأثامانيين[٢٨] يوقدون مشاعلهم بمسّها بتلك المياه حين يكون قرص القمر قد انكمش أصغر ما يكون . ولدى شعب السيكونيس نهر تُجمِّد مياهُه أحشاءَ من يشرب منه وتحيل إلى رخام كل ما تمسّه من أشياء . وهناك نهراً الكراثيس والسيباريس ، وهما يبلغان مشارف حقولنا ويحيلان لون الشعر إلى كهرمان وذهب[٢٩] ، وأكثر من ذلك غرابة أن هناك مياهاً ذات قدرة على تغيير النفوس لا الأجساد وحدها . ومن ذا الذى لم يسمع عن بحيرة سالماكيس ذات المياه المسحورة أو البحيرات الإثيوبية[٣٠] التى يُجنّ من يشرب منها جرعة أو يسقط فى نوم عميق ، وينبوع كليتور[٣١] الذى يُصاب شاربُه بتقزّز يجعله لا يقرب النبيذ بعد ذلك أبداً . ولعل ذلك مردّه إلى ما بين مياه ذلك الينبوع وبين النشوة التى يولدها النبيذ ، فيروى أهل البلاد أن ميلامپوس بن أميثاوون استطاع أن يشفى بسحره وبعقاقيره بنات پرويتوس من هذيانهنّ حين ألقى العقاقير فى هذا النبع الذى كنّ يشربن منه ، ومنذ ذلك اليوم بعثت مياهه الكراهية للنبيذ . أما مياه نهر اللينكستيد[٣٢] فإن لها أثراً على النقيض من ذلك فمن شرب قليلاً منها ترنّح سكراً كمن شرب نبيذاً صِرْفاً . وهناك بحيرة فى أركاديا سمّاها الأقدمون فينيوس[٣٣] تُخْشَى مياهها لخواصها المتباينة المتغيرة ، فهى ضارّة خلال الليل لا النهار ، وهكذا تختلف خواص كل بحيرة عن الأخرى . وفى قديم الزمان كانت جزيرة أورتيجيا[٣٤] طافية فوق سطح الماء بينما هى اليوم ثابتة . وكانت سفينة الأرجو تخشى صخور السمپليجاديز[٣٥] التى تتمايل فى المياه كلما لطمتها الأمواج ، أما الآن فهى ثابتة لا قدرة للرياح ولا للمياه عليها . وحتى بركان إتنا ــ ذو الحَمَم الكبريتية ــ لم يعد يقذف بلهيبه دوماً كما كان فى الماضى ، لأنه إذا كانت الأرض تتنفس تنفس الكائن الحى فى أماكن مختلفة تلفظ منها أنفاسها الملتهبة ، فمن الممكن تغيير تلك المنافذ كلما تحركت فتسدّ بعضها لتفتح البعض الآخر . وإذا كانت هناك رياح سجينة فى كهوف الأرض العميقة هى التى تقذف الأحجار فى إثر الأحجار ومعها مواد قابلة للاشتعال تلتهب حين تصطدم بأشياء صلبة ، فإن هذه الكهوف تبقى باردة حين تهدأ الرياح .

وإذا كان القار هو الذى يشتعل فجأة ، والكبريت هو الذى تلتهب مادته الصفراء هو الآخر فجأة مُطْلِقةً دخاناً خفيفاً ، فإن الأرض ما تكاد تفقد قدرتها مع الزمن على مدّ النار بهذه العناصر القابلة للالتهاب حتى تفقد الطبيعة النّهمة مادة غذائها وتتوقف قدرتها على خلق اللهب[٣٦] . ويروى أن فى مناطق

الهيبيربوريين[٣٧] فى پالينى رجالاً يكسو أجسادهم زغب خفيف إذا هم اغتسلوا تسع مرات فى بحيرة تريتون[٣٨] ولست أصدق شيئاً من ذلك ، وإن قيل أيضاً إن نساء سكوثيا يستطعن تحقيق هذه المعجزة بدهن أجسادهن بعقاقير سحرية .

وإذا كان لنا أن نسلِّم بالأشياء التى هناك أدلة قاطعة على صحّتها[٣٩] ، فأمامكم الأجساد التى تتحلّل بفعل الزمن أو الأشياء التى تتحلّل بفعل الحرارة . ألا تعلمون أنها تتحول بهذا الفعل إلى حيوانات صغيرة ؟ اختاروا بضعة ثيران ممتازة واذبحوها وضعوها فى حفرة ثم غطّوها ، ولسوف ينبثق منها نحل يمتص الزهور ويعشق الحقول ويعمل دؤوباً من أجل الحصول على غذائه ، يشبه فى ذلك الحيوانات التى تولّد عنها . وإذا دفنت جواد حرب فى التراب فسوف تولد من بقاياه أسراب من الزنابير ، وإذا نزعت من سرطان البحر مخالبه المقوسة ودفنت بقاياه فى التراب لم يلبث أن يخرج منها عقرب يهدّدك بذيله المعقوف . واليسروع الذى ينتشر فى الحقول ويغشّى ورق النباتات بخيوط نسيجه يتحول إلى فراش جنائزى كما يشهد بذلك الفلاحون أنفسهم ، ويحتضن الغِرْين بذوراً تُنبت الضفادع الخضر ، ولكنها تُنبتها فى بادىء الأمر بلا سيقان ثم تأخذ القوائم الشبيهة بالزعانف فى النمو رويداً رويداً حتى تنمو بعد ذلك قوائم خلفية تطول عن القوائم الأمامية وتعينها بعد ذلك على الوثب البعيد . وما تضع أنثى الدب دبًّا صغيراً بل كتلة من لحم لا تكاد تنبض فيها حياة ، وتظل تلعقها حتى تبرز لها أعضاء وتتشكّل كما تشكّلت هى من قبل وتأخذ صورتها . ألا ترون أن يرقات النحل منتجة الشّهد التى تعيش فى خلايا النحل لا تكون ساعة ولادتها إلاّ أجساداً بلا أعضاء وتظل كذلك طويلاً حتى تنمو لها أجنحة وقوائم ؟ أما طير چونو [الطاووس] المرصّع الذيل بالنجوم ، وطير چوپيتر [النسر] حامل صاعقته ، ويمامات ڤينوس إلهة كيثيرا ، وجماعات الطير كلها ، فهى تولد جميعاً فى بيضات . ولكن أنّى لمصدِّقٍ أن يصدّق ذلك إذا لم يكن يعلم أن هذه هى الحقيقة ؟ وهناك من يعتقد أنه حين يتحلل الكائن الحى فى قبره يتحول نخاعه الشوكى إلى ثعبان .

على أن جميع هذه الحيوانات تدين بوجودها لحيوانات أخرى ، وليس هناك غير طائر وحيد هو الذى يتكاثر ذاتياً وهو ما يسمّيه الأشوريون العنقاء ، ولا يتغذى هذا الطائر على الأعشاب أو الحبوب وإنما يمتص عصارة أعواد البخور وعصارة الحبّهان ، فإذا قارب عمره الذى يطول إلى خمسة قرون من الانتهاء اتخذ لنفسه عُشّاً وسط السعف فى قمة النخلة المتأرجحة فى مهب الريح ، يجمع بمخالبه وبمنقاره النقى من كل دنس أجزاء عشّه من نبات القرفة وعلوج عطر الناردين الطيب الرائحة ، ويبسط فوقها أعواد الكافور المختلط بالمُرّ البرّى ، ثم يرقد فوقها حتى يلفظ أنفاسه وسط جو من العطور العبقة . ويقال إن ذَكَر عنقاء صغيرٍيتولّد بعد ذلك من جسد أبيه ليبدأ حياة تمتد إلى عمر أبيه نفسه . ومع تطوّر نموّه تتطوّر قواه على حمل الأثقال ، فيتخفّف من أعواد عُشّه التى هى من سعفات نخل باسق شيئاً فشيئاً ، ثم يحمل فى خشوع ما بقى من مهده الذى كان قبلُ لحد أبيه ، ويشقّ به الفضاء إلى مدينة هيپريون حيث يضعه أمام البوابة المقدسة لمعبد هيپريون[٤٠] ، وإذا كان فى هذا ما يُدْهش فلسوف تكون دهشتكم أكبر حين تسمعون عن الضّبع الذى يتحوّل من ذكر إلى أنثى ثم من أنثى إلى ذكر[٤١] ، كما ستدهشون أيضاً من حيوان يتغذّى على

الريح والهواء ويتلوّن بلون المكان الذى يحلّ فيه[٤٢] . وقديماً أهدت الهند المهزومة حيوان الوشق[٤٣] إلى باكخوس الإله المتوّج بعناقيد العنب ، ويقال إن كل ما تلفظه مثانة هذا الحيوان يجمد ويتحجّر إذا ما خرج إلى الهواء[٤٤] ، وهذه حال المرجان أيضاً وهو عود لين يعيش تحت الماء ويتجمد حين يخرج إلى الهواء .

سينطفىء النهار وسيقود فويبوس جياده اللاهثة إلى أعماق البحار قبل أن أفرغ مِن إحصاء كل ما يتحوّل فى الكون ووصف كل ما يتخذ لنفسه مظهراً جديداً ، فسنّة الحياة أن يتغير كل شىء ، وهكذا تقوى بعض الأمم وتزدهر كما تضمحل أخرى وتتدهور . وقد كانت طروادة مدينة عظيمة البأس شامخة بأبطالها ومواردها وظلت تدافع عن نفسها بدماء أبنائها طيلة أعوام عشرة ، وها هى ذى اليوم كومة من الأطلال الخربة التى لا ترتفع كثيراً عن سطح الأرض ، وقبور شيوخها هى كل ثروتها الباقية . وكانت أسپرطة ذائعة الصيت ، وموكناى مزدهرة ، ولم تكن تقل عنهما مجداً مدينة كيكروپس [أثينا] ولا مدينة أمفيون [طيبة] ، ولم تعد أسپرطة اليوم غير أرض جرداء ، كما تقوّضت أسوار موكناى الشامخة ، وماذا خلّفت طيبه مدينة أوديپ غير أسطورته ؟ وماذا بقى من أثينا مدينة پانديون ؟[٤٥] لم يبق لها إلّا اسمها . واليوم يقال إن ثمة مدينة شامخة أسسها أحفاد داردانوس بجوار نهر التيبر هى روما تُرْسى أسس دولة قوية لا يقوّضها الزمن ، وقد أخذت تكبر يوماً بعد يوم ، وستصبح عاصمةً للكون الفسيح كما تكهّن بذلك الهاتف الإلهى والمنبئون بالمصائر والأقدار . وإذا لم تخنّى ذاكرتى فإننى أذكر أن أينياس كان ينشج متشكّكا فى الخلاص ساعة أخذت طروادة تترنح فوق دعائمها ، فجاءه هيلينوس بن پريام قائلاً : « إذا كان لك أن تصدّق ما تنبأنا به يا ابن الإلهة فلتطمئن إلى أن طروادة لن تزول حقاً ، لأنك سوف تحيا ، ولسوف يفتح لك الحديد والنار معبراً فتغادر هذا المكان مصطحباً معك پرجامون بعد أن تنتزعها من وسط الكارثة ، وستحملها إلى حيث تجد أرضاً أجنبية ترحّب بكما أكثر مما رحبت بك أرض آبائك . وإننى أتنبأ كذلك بأن أحفاد الفريچيين سوف يؤسسون مدينة لا مثيل لها ولن يكون لها مثيل كما لم يكن لها مثيل فى الماضى . وعلى مدى القرون الممتدة سيهيىء لها قادتها البأس والسلطان ، غير أن واحداً من نسل يوليوس سيجعل منها سيدة العالم ، حتى إذا عرف الناس قدره عرج إلى السماء ضيفاً ، تاركاً الأرض إلى أسمى البقاع » .

ذلك ما أذكر أن هيلينوس قد تكهّن به حين كان أينياس يمضى حاملاً معه تماثيل آلهتنا[٤٦] ، وما أسعدنى أن أعرف أن هذه المدينة ذات صلة القربى بمدينتنا تكبر وتزدهر ، وأن انتصار الپيلازجيين [الإغريق] قد استفاد منه الفريچيون [الطرواديون] .

ولا ينبغى الآن أن نترك مجال القول يذهب بنا بعيداً عن مقصدنا ولنعد إلى موضوعنا . إن السماء وكل ما تحتها يتغير ، وكذلك الأرض وما تضمّه ، ونحن كذلك جزء من الكون لأننا لسنا أجساداً فحسب ، بل نحن كذلك أرواح مجنّحة تستطيع أن تجد لها مأوى فى أجساد الحيوانات المفترسة والأليفة . لذلك علينا ألّا نَمَسَّ هذه الأجساد بأذى ، فقد تضمّ أرواح آبائنا أو إخوتنا أو غيرهم من أقربائنا أو من البشر الآخرين ، فلنترفّع إذن عن تدنيس جنسنا ولنعفّ عن حشو بطوننا بلحوم كلحوم المأدبة التى أقامها

آتريوس لأخيه ثاييستيس(٤٧) . ألا ما أبشع عادة أكل اللحم وما أكبر استعداد الإنسان الجاحد لسفك الدم البشرى حين يتقدم ممسكاً سكيناً ويهوى بها على عنق الثور اليافع دون أن يلين قلبه لخواره . من منكم من يرتاح ضميره إذا ما ذبح حَمَلاً يصرخ صراخ الطفل الوليد ؟ وهل منكم من يستطيع أن يَطْعَمَ لحمَ طير غذّاه بيده ؟ وهل ثمة فرق بين هذا الفِعْل وبين الجريمة الحقّة ؟ وإلى أين تنتهى بنا هذه الأفعال ؟ اتركوا الثور يُفْلح الأرض لا تقضى عليه غير الشيخوخة . اتركوا الأنعام تزوِّدنا بما يكون لنا فيه دفء من ريح الشمال الباردة . اتركوا الماعز تملأ بطونها لتُدرَّ علينا من ضروعها لبناً تحلبه أيدينا . اتركوا الشِّراك جانباً والكمائن ووسائل الغدر ، ولا تخدعوا الطّير بعصا مكسوّة بعصارات النباتات اللّزجة فتلصق بها ، ولا تسخروا من الوعل بإثارة فزعه من ذلك الريش الذى تضعونه فى طريقه فيتحوّل عنه إلى شراككم(٤٨) . ولا تخفوا الشِّصّ المعقوف فى الطُّعْم الخادع . لكم أن تقضوا على الحيوانات الضّارة ، وحسبكم هذا ، دون أن تجعلوا من لحومها طعاماً لأفواهكم . ولتبحثوا عن وجبات لا تحصلوا عليها بأساليب همجية ، ولا تجعلوا شفاهكم تلمس غير غذاء حصلتم عليه دون عنف أو عدوان » .

إيجيــــريا وهيپوليتوس

كانت هذه – كما قيل – هى الدروس التى انبنى عليها فِكْر نوما حين عاد إلى وطنه واستجاب لنداء شعب لاتيوم [الشعب اللاتينى] وأمسك بزمام السلطة . ومن حسن حظه أن زوجته كانت حورية ، كما كانت الكاميناى حوريات الماء(٤٩) ملهماته ، فلقّن شعبه الشعائر الدينية ، وحوّل أمّة تجنح إلى الحرب والعنف إلى أمه تجنح إلى فنون السلام . ولما أدركته الشيخوخة كانت نهاية حكمه وحياته قد قاربا الانتهاء معاً ، وبكته نساء لاتيوم كما بكاه الشعب ومجلس الشيوخ . وقد هجرت زوجته المدينة وآوت إلى أدغال أريسيا حيث أخذت تبكى وتندب حتى بلبلت أنّاتها شعائر الإلهة ديانا التى كان أوريستيس قد أرسى قواعدها(٥٠) . وكم من مرة حاولت حوريات الغابة والبحيرة التخفيف من آلامها ، وكم من مرة قال لها البطل هيپوليتوس وهى غارقة فى دمعها : « هوّنى عليك من عذاب نفسك ، فليست مأساتك بالمأساة الفريدة وكم من كثيرات غيرك عانَيْن مثلها ، فلتكن لك فيهن عظة وعبرة ولتخففّى من شجنك ، وإليك ما وقع لى أقصّه عليك حتى تهون عليك مصيبتك . أوَ لم يبلغ سمعك نبأ موت هيپوليتوس الذى ذهب ضحية لسذاجة والده وخيانة زوجة أبيه الآثمة ، وستدهشين حين تعلمين ما حدث كله وإن لم أكن أقوى على أن أقدم لك دليلاً على صحة ما أقول من أننى أنا هيپوليتوس ، وعلى الرغم من هذا فهيپوليتوس هذا ليس غيرى . وكانت فيدرا بنت پاسيفاى زوجة أبى قد حاولت إغوائى وما نجحت فى حملى على أن أدنّس فراش أبى وأحمل وزر جرمها ، فاتهمتنى بأننى كنت أبغى منها ما كانت هى تبغيه منى ، ولست أدرى حتى اليوم أكان اتهامها لى عن خوف من أن أفضح أمرها أم عن كراهية لى لرفضى الإذعان لرغبتها . ولقد طردنى أبى من المدينة رغم براءتى وشيّعنى بلعنات كلها كراهية ، فركبت عربتى وقصدت المنفى فى ترويزن مدينة الملك پيثيوس . وبينما كنت فى طريقى إليها عبر شاطىء كورنثه ، رأيت البحر يثور فجأة وترتفع كتلة من الماء

وكأنها جبل لها خوار الثيران ، وإذا هذا الجبل المائى ينشقّ وينطلق من وسطه ثور ذو قرنين قد برز صدره ، وأخذ يلفظ مياه البحر من خطمه ومن خياشيمه ، فملأ الفزع قلوب رفاقى ولم يتطرق الفزع إلى قلبى الذى كان مشغولاً بأمر منفاى ، فتحوّلت جيادى الجامحة عن طريقها واتجهت صوب البحر ، ثم انتصبت آذانها وانتفش شعرها هلعاً من الوحش فجمحت شاردة ملقية بالعربة بين الصخور العالية . وحاولت بيد عاجزة أن أجعلها تحس بجذب الشكائم فى أفواهها المزبدة بالرغاء الأبيض ، فمِلْتُ إلى الوراء أجذب الزمام ، وكنت واثقاً من أن جموح جيادى لن يغلبنى على أمرى لو لم تصطدم إحدى العجلات بجذع شجرة هشم العربة وإطارها ، فسقطت أسفل عربتى متعثراً فى اللجام ، وكادت أحشائى تُرى على الأرض نابضة متحركة ، ولصقت عضلاتى بجذع الشجرة وتناثرت أشلائى إلى الأمام وإلى الوراء ، وتهشّمت عظامى وكانت لها قعقعةمسموعة ، ولفظت آخر أنفاس حياتى المكدودة . ولم يكن ثمة جزء من جسدى يمكن ضمّه إلى جزء آخر ، فلم يعد جسدى غير أشلاء . فهل تَرَيْنَ أيتها الحورية بعد هذا أن مُصابك يبلغ مصابى ؟ لقد شاهدت أنا الآخر مملكة الظلمات وحاولت أن أغتسل بمياه « فليجيثون »[٥١] ملتمساً الشفاء لأعضائى الممزقة ، ولولا عقاقير إسكلپيوس بن أپوللو ما عادت إلىّ حياتى . وإذا كنت قد عدت للحياة بأعشاب إسكلپيوس الشافية وفن پيون [أپوللو] طبيب الآلهة رغم إعتراض ديس [پلوتو] ملك العالم السفلى ، فقد غشّتنى الإلهة ديانا بسحابة كثيفة حتى لا أثير حسد من يشهد هذا العطاء الذى مُنِحْتُه وحتى تحمينى من كل الأخطار فأظهر دون أن يُصيبَنى أذى ، ثم أضافت بعض السنين إلى عمرى وغيّرت من قسمات وجهى حتى لا يعرفنى أحد . وقد أنعمتْ الإلهة التفكير طويلاً فيما إذا كانت تمنحنى جزيرة كريت أم جزيرة ديلوس لتكون وطناً لى إلىَ أن استقر رأيها على ألاّ تمنحنى واحدة منهما فحملتنى إلى هنا ، كما طلبت إلىّ أن أبدِّل اسمى الذى يوحى بذكرى الجياد قائلة : يا من كنت هيپوليتوس ، لتكن منذ اليوم « ڤيربيوس »[٥٢] . ومنذ ذلك الوقت وأنا أعيش فى الغابة متخفّياً رهن أوامر سيدتى التى أخدمها ، ولست غير واحد من الآلهة الثانويين » .

تاجيس وكيپوس

ولم يُخفّف ما قصصته من مآسى الآخرين شيئاً من آلام إيجيريا التى بقيت مستلقية عند سفح الجبل تنسكب دموعها منهمرة ، حتى أقبلت عليها ديانا أخت فويبوس التى تأثرت بوفاء الحورية التعسة لزوجها فبدّلت جسدها نافورة نديّة وجعلت من أطرافها جداول من الماء لا تنضب . وقد ثارت الحوريات دهشات لهذه المعجزة ، كذلك لم تقل دهشة ابن الأمازون [أپوللو] عن دهشة الفلاح التيرينى[٥٣] الذى شاهد وسط حقله كتلة من الأرض تتحرك من تلقاء نفسها دون أن يدفعها أحد إذ كانت فى يد القدر يحرّكها كيف يشاء ، ثم تحولت إلى إنسان وفغرت فماً برز بين قسمات وجهها ، فأخذ يُحدِّثُ بنبوءات المستقبل . وقد أطلق أهل المنطقة اسم تاجيس على هذا المخلوق ، وكان أول من علّم الأمة الإتروسكية أسرار التنبؤ بالمستقبل . وكان رومولوس قد أصيب فى غابر الزمان بالدهشة نفسها حين رأى حربته مثبّته فى سفح تل

البالاتينوس وقد اكتست فجأة بأوراق أشجار قد اتخذت لنفسها جذراً جديداً ، فلم تعد النصل الحديدى نفسه الذى غرسه فى الثّرى وإنما استحالت شجرة تبسط فروعها اللّدنة ظلا لم يكن يتخيّله المشاهدون . وكذلك أصابت الحيرة كيبوس [قائد جيوش الجمهورية] حين شاهد صورته منعكسة فوق صفحة النهر ، إذ رأى قرنين خالهما فى بادىء الأمر وَهْماً فرفع يديه إلى جبينه مرّة بعد مرّة ، وما كان أشدَّ عَجَبَه حين لمسهما فلم يكذّب بعد ذلك عينيه ، وتلبّث فى طريق عودته بعد أن رجع منتصراً على عدوّه ، ورفع عينيه وذراعيه إلى السماء هاتفاً : « لست أدرى يا آلهة السموات عن أى شىء تُنبىء هذه المعجزة ، فإن تكن بشير خير فليكن الخير لوطنى ولشعب كويرينوس ، وإن تكن نذير سوء فليقع علىّ وحدى شرّ ذلك » . وتناول حزماً من العشب الأخضر أقام بها مذبحاً أطلق فوقه البخور قرباناً للآلهة ، وأراق أمامه نبيذ القربان من أوانى الأضحية ، ثم نحر أغناماً وبقر بطونها كى يعرف من أحشائها التى ما تزال نابضة بالحياة ما يخبئه له القدر . وما كاد العراف الإتروسكى يشهد الأمعاء حتى أدرك أن المستقبل يخبّىء له أحداثاً كبرى وإن لم يتبينّ ما هى ، ثم رفع عينيه الثاقبتين عن أحشاء الأغنام إلى قرنى كيبوس وقال له : « مرحباً بك أيها الملك . لك أنت يا كيبوس ولقرنيك[٥٤] ستخضع هذه المنطقة ، بل وقلاع لاتيوم كلها . فلا تضع الوقت هباءً وامض إلى أبواب المدينة المفتوحة ترحيباً بك . تلك هى مشيئة الأقدار ، فلن تدخل المدينة حتى تتوج بها مليكاً ، وترتقى عرشاً خالداً » .

ارتد كيبوس إلى الوراء وأشاح بوجهه العابس عن أسوار المدينة ، وأجاب الكاهن قائلاً : « فلتحجب الآلهة عنى ما تعد ، وخير لى أن أقضى حياتى فى المنفى عن أن يرانى الكابيتولينوس ملكاً » . ولم يكد ينتهى من قوله هذا حتى جمع الشعب وأعضاء مجلس الشيوخ الموقّر بعد أن أخفى قرنيه تحت أوراق الغار رمز السلام[٥٥] ، ثم اعتلى ربوة سوّاها له جنوده البواسل ، وأقام الصلاة لآلهة الأجداد حسب العُرف المألوف ، ثم خطب فى الحشد محذّراً : « إن بينكم رجلاً إن لم تبادروا بطرده بعيداً عن المدينة فسوف يصبح عليكم ملكاً ، فمن تُراه يكون ذلك الرجل ؟ لسوف أكشف لكم عنه لتعرفوه ، لا بذكر اسمه بل بذكر العلامة التى تميّزه ، فله قرنان يعلوان جبينه ، وقد أعلن العرّاف أنه إذا دخل روما فسيخضعها لقوانين تستعبدكم ، وقد كان بوسعه أن يدخل أبوابكم المفتوحة ، ولكنى منعته من ذلك على الرغم من أنه أقرب أقاربى ، إن عليكم أن تمنعوا هذا الرجل من دخول مدينتكم ، ولتقيّدوه بالسلاسل الغلاظ إذا ارتأيتم ذلك ، أو فلتتخلّصوا من مخاوفكم بقتل ذلك الطاغية الذى يتهددكم » .

وانتشر الهمس وسرت الهمهمة بين الناس وكأنها الريح الشرقية العنيفة تصفع غصون أشجار الصنوبر الشامخة أو هدير أمواج البحر المنحدرة من بعيد ، غير أن صيحة ارتفعت فوق جميع الصيحات تقول « من هو ؟ » ، فأخذ الناس يتطلّعون إلى رؤوس بعضهم البعض ليتعرّفوا لمن تكون له هذه القرون ، فانطلق كيبوس قائلاً : « ها هو ذا من تتطلّعون إليه » ، وعندها نزع إكليل الغار الذى يغطى رأسه رغم معارضة الناس ، وكشف عن صدغيه وقرنيه المطلّين منهما فعرفه الجميع .

وزجر الشعب وغضّ من بصره ، ولم تشرئب إليه الأعناق بأبصارها وإنما تطلّعت إليه القلوب ببصيرتها لترى ذلك الرأس المهيب وقد توّجته جلائل الأعمال ، ورفض الجميع أن تبقى رأس كيبوس عارية عن رمز مجده وأرغموه على إعادة الإكليل إلى رأسه . ورأى شيوخ المدينة ــ إذ كان محرماً عليه الدخول إلى قلب المدينة ــ أن يهبوه نصيباً من الحقول بقدر ما يقوى على حرثه بزوج من الثيران من شروق الشمس حتى غروبها ، ونقشوا على الأعمدة البرونزية القائمة عند مدخل المدينة قرنين يمثلان قرنى البطل تخليداً لذكرى هذه المعجزة لسنين مديدة مقبلة .

إســـكلـــيـــيوس

حَدِّثْننى يا ربّات الفنون يا مُلْهِمات الشعراء ، فأنتنّ أدرى بما أسأل عنه ، وما يَخْفَى عنكن شىء من أسرار الماضى البعيد ، فلتكشفن لى كيف استقبلت الجزيرة التى يحتضنها حوض نهر التيبر العميق ابن كورونيس(٥٦) وجعلته واحداً من آلهة مدينة رومولوس ؟

فلقد حدث قديماً أن لوّث وباء بشع جوّ لاتيوم ، وأخذ سكانها يتساقطون واحداً فى إثر الآخر بعد أن جُمِدت أجسادهم الشاحبة وقد غاب عنها الدم وبات مشهدها بشعاً كريهاً . وحين ضاق أهل روما صدراً بكثرة من يشيعون من الموتى ورأوا عجز جهود الناس وقصور فن الأطباء عن القضاء على الوباء طلبوا عون السماء ، فقصدوا دلفى « صرّة » العالم ليستشيروا عراف فويبوس متوسلين للإله أن يدركهم برحمته ويُسْعفهم بما يطمئنهم ويضع نهاية لهذه الآلام الفادحة التى طحنت مدينتهم . واهتزّت الأرض واهتزّ معها شجر الغار وارتمت كنانة السهام التى يحملها الإله نفسه ، وإذا كرسىّ العرافة الثلاثى القوائم يَصُوتُ فاهتزّت لصوته أعماق الهيكل مما أثار الفزع فى نفوس الحاضرين وإذا صوتها يقول :

« كان بوسعك أيها الرومانى أن تلتمس وأنت قريب من بيتك ما جئت تطلبه هنا ، فعد إلى هناك ولست فى حاجة إلى أپوللو ليخفّف عنك شقاءك . إن ابنه هو الذى سيجعل عدد موتاكم يتناقص ، فاقصدوه محمّلين ببركاتى أنا واستضيفوا عندكم ولدى الذى أنجبته » .

وحين علم حكماء مجلس الشيوخ ما أمر به الإله تساءل أعضاؤه عن المدينة التى يحيا بها ابن فويبوس ، واختاروا وفداً حملته سفينة دفعتها الرياح إلى شواطىء إپيداوروس ، وما كادوا يبلغونها بسفينتهم المحدّبة الجوانب حتى مثلوا أمام مجلس كبار المدينة اليونانية ، ورَجَوْهُ أن يدلّهم على الإله الذى سيحقق خلاص أمة الأوزونيين [الإيطاليين] على يديه حسبما صاح به هاتف إلهى موثوق به له شأنه . وتداول المجلس الأمر ، وتفرقت الآراء بين قلة ترى أنه لا يمكن رفض مدّ يد المساعدة ، وكثرة تشير بالرفض حتى لا يُحرموا رعاية الإله حين يُسْلِمُونه إلى غيرهم . وطال نقاشهم حتى طارد الشّفق ضوء النهار ولفّ الليل وجه الأرض بظلمته ، وإذا أنت تحلم برؤية الإله المُغيث منتصباً أمام سريرك أيها الرومانى على نفس هيئته وهو فى معبده ، تمسك يده اليسرى بعصاه الخشبية ، ويمسح بيمناه لحيته الطويلة ، ويقول فى

صوت رفيق : « لا تخشى شيئاً فسوف آتى مخلّفاً طيفى ورائى وإن كنت سأبدو فى غير صورتى . فأنعم النظر إلى هذا الثعبان الذى يلتف على عصاى ، وتبيّن أجزاءه لتتعرّف عليه حق المعرفة ، فلسوف أبدو فى هيئته غير أن حجمى سيكبر حجمه ، وسوف ترى لى قامة عالية لا تليق إلّا بالآلهة حين تتحوّل من هيئة إلى أخرى »[٥٧] .

ثم اختفى الإله واحتجب صوته وتبدّد النوم . ومع انقشاع النعاس عن العيون بدأ شعاع الخير يومض ، وأخذ فجر اليوم الجديد يطغى على نور النجوم ، ومضى أعيان المدينة وهم لا يعلمون ما هم فاعلون يتوافدون على المعبد الرائع[٥٨] للإله الذى طُلب إليهم أن ينزلوا عنه ، والتمسوا من الإله أن يوحى إليهم بالمكان الذى يختاره للنزول فيه . ولم يكد دعاؤهم ينتهى حتى كان الإله قد تحوّل إلى ثعبان ضخم العُرْف يُفصح بفحيحه عن ظهوره بينهم ، وعندها اهتز التمثال[٥٩] والهيكل والباب والأرض المرمرية والسقف المذهّب . ثم شمخ الإله برأسه وصدره وتوسّط المبنى مجيلاً فيه نظرات لها وميض فأُرْعِدَ الناس هلعاً حين تعرّف عليه الكاهن ــ الذى كان يعقد شعره المقدس بشريط أبيض ــ وقال : « انظروا ها هو ذا الإله ، ها هو ذا الإله . فليصمت الجميع ، ولتطردوا الأفكار المدنّسة من رءوسكم ، وليكن ظهورك بيننا أيها الإله العظيم بشير خير للشعب الذى يخلص فى عبادتك » . وسجد الحاضرون للإله الماثل أمامهم مردّدين دعاء الكاهن . وضم ممثلو شعب أينياس دعاءهم إلى دعاء الإغريق ، وتقبّل الإله طقوس الطاعة والولاء وحرّك عُرفه تعبيراً عن رضاه ، واستأنف فحيحه بلسانه المتذبذب ، ثم انزلج على درج السلم المصقول ، والتفت إلى الوراء قبل رحيله يلقى نظرة أخيرة على المعبد العتيق . وبعد أن حيّا مسكنه الأليف والمعبد الذى عاش به زحف بجسده الضخم على الأرض التى غطتها الزهور ينثرها الناس على طريقه . واخترق المدينة حتى بلغ المرفأ الذى يكتنفه رصيف صخرى دائرى ، فتلبّث ونظر إلى مودّعيه الذين جاءوا فى إثره تكريماً له نظرة مفعمة بالسكينة تحمل الشكر وتأذن لهم بالانصراف ، ثم أخذ مكانه فى السفينة الأوزونية التى أحسّت هى الأخرى أنها تحمل فى جوفها إلهاً إذ بدأت تميل تحت ثقله وغاصت قليلاً فى الماء .

وامتلأت قلوب وفد مدينة أينياس بالفرحة ، ونحروا ثوراً قرباناً على الشاطىء ، وفكّوا حبال السفينة المزدانة بالزهور فدفعتها الرياح الرفيقة فى طريقها إلى بلادهم ، وقد انتصب الإله بقامته مُسنداً عنقه على مؤخرها المقوّس يتأمل الأمواج اللازوردية . وعندما أشرقت أورورا ابنة پالاس للمرة السادسة أدركت السفينة إيطاليا مارة بشواطىء لاكنيوم الشهيرة بمعبد چونو ، وبشواطىء سكولاكيوم مخلّفة وراءها يا پيجيا[٦٠] ، وتحاشى الملّاحون بمجاذيفهم صخور أمفريزا عن يسارهم وصخور كوكنثوس عن يمينهم ، ثم مضوا بمحاذاة روميثيوس وكولون وناريسيا لا تعوقهم أخطار البحر ، واخترقوا مضيق پيلووروس الصّقلّى حتى بلغوا مملكة ابن الملك هيپوتيس ، ومناجم تيميسيا وليوكوزيا وبساتين الورد فى پايستوم المشمسة . ثم لزمت السفينة الشاطىء بجوار كاپرى وبرزخ منيرڤا[٦١] وتلال سورنتوم ذات الكروم الشهيرة ، ثم مدينة هرقل[٦٢] وستابياى وپارثينوپى[٦٣] التى يقصدها الناس للاستمتاع بأوقات الفراغ ، حتى أدركت كوماى

حيث تقيم الكاهنة سيبيلا فى معبدها . وتابعت السفينة سيرها حتى بلغت مدينة باياى الدافئة المياه ، ثم مدينة ليتيرنوم الشهيرة بشجرة المُصطكا ، وتجاوزتها إلى مصب نهر الڤولتورنوس الذى تحمل مياهه المدوّمة قدراً ضخماً من الرمال . ثم أدركت سينوويسا التى يحنّ إليها اليمام الأبيض ، ثم مستنقعات مينتورناى الموبوءة ، وكاييتا التى دفن فيها البطل أينياس مرضعته ، إلى أن اجتازت ديار أنتفاتس ومدينة تراخاس المحاطة بالمستنقعات وأرض كيركى ، وأخيراً بلغت شاطىء أنثيوم برماله الراسخة ، وكان البحر عاصفاً فقام الملاّحون بربط سفينتهم وأشرعتها مبسوطة .

ومدّ الإله جسده وزحف حتى بلغ المعبد المكرّس لأبيه بجوار الشاطىء الذهبى . ولّما هدأت الأمواج ترك حامى إپيداوروس هيكل أبيه الذى لقى فيه أجلّ ترحيب ، وعاد زاحفاً إلى السفينة مخلّفاً أخدودا فى الرمال شقّه جسده بحراشفه الحادة ، وتسلّق مؤخرة السفينة واستقر فوقها معتمداً برأسه على حافتها ، وظل كذلك حتى بلغت السفينة مدينة كاستروم ومدينة لاڤينيوم العريقة ثم مصب نهر التيبر . فلما بلغ ذلك الموقع توافد الناس للترحيب به ، وأقبل الرجال والنساء وكاهنات ڤستا العذارى الطرواديات الساهرات على نيران الهياكل ، وكان الجميع يتصايحون فرحاً تحية للإله . وعلى امتداد الطريق الذى تشقّه السفينة كانت المذابح والهياكل المشيّدة على الضفتين تتصاعد منها سحب الدخان المنطلق من البخور يشيع عطره فى الأجواء ، وكانت دماء القرابين تسيل فوق نصال المُدَى المستخدمة فى نَحْرِها ، ثم ها هى ذى السفينة تدخل مدينة روما عاصمة العالم فينتصب الثعبان مستنداً إلى قمة الصارى يتأمل ما حوله باحثاً عن مقام يليق به .

وفى الموضع الذى يتفرّع عنده نهر التيبر إلى فرعين يضمان ما يسمى الجزيرة ، وكأنما يمد النهر ذراعيه ليضم الأرض بينهما ، اتجه الثعبان ابن فويبوس بعد أن هبط من السفينة اللاتينية إلى تلك الجزيرة حيث ارتدّت إليه هيئته الإلهية فإذا هو يقضى على الوباء ويخلّص المدينة منه .

تأليه يوليوس قيصر

على أن هذا الإله لم يكن غير غريبٍ نزح إلى بلادنا ، على حين أن قيصر إلهٌ مدينة هو منها . ولقد كان قيصر رجل حرب وسلام معاً ، ولكن لا الحروب التى خاضها وانتهى فيها إلى النصر ، ولا أعماله الضخمة فى روما ، ولا الهيبةُ التى رُزقها فى لمح البصر ، ما كان هذا كله ليصل به إلى أن يضىء على صورة كوكب جديد مذنّب فى السماء ، بل مردّ هذا كله إلى أرومته التى ينتمى إليها فهى وحدها التى بلغت به هذه المرتبة . فلم يكن من بين مآثر قيصر ما هو أروع من أنه كان أباً لمثل هذا الإبن(٦٤) . وما فعله قيصر من قهر للبريطانيين فرسان البحر ، وما فعله من بعثه بسفنه الظافرة فى النيل ذى الروافد السبعة والذى تغشّى مياهه أوراق البردى ، وما كان من إخضاعه الثوار النوميديين [الليبيين] لشعب كويرينوس . وما كان من انتصاره على الملك « چوبا » سيد الكينييس وپونتوس المزهوة بملوكها الميثيريداتيس(٦٥) . ثم ما كان من

انتصارات لا عدّ لها وخروج شعبه فى مواكب نصر عديدة شارك قيصر فى أكثرها[٦٦] ، كل هذا لا يبلغ فى جلاله أنه كان أباً لهذا الابن العظيم . وحين غدا ابن قيصر وصيّاً على هذا العالم أسبغت الآلهة على البشر رحمتها العميمة ، وحتى لا يكون ابنه من بذرة فانية ارتقى هو إلى مصاف الآلهة .

وإذا ڤينوس أم أينياس الإلهة المزدانة بالذهب تشهد مراسم تأليهه ، غير أنها شهدت قبلُ تلك المؤامرة التى حيكت ضدّه ، كما رأت تلك الميتة البشعة التى كانت تترصّد الكاهن الأعظم لمدينة روما ومؤسس حضارتها ، فانتابها فزع شحب له وجهها ، وبدأت تشكو لكل إله تلقاه قائلة : أترون تلك المؤمرات التى تحاك لى ، ثم هذه المؤامرة التى تهدد حياة من بقى لى من أسرة يوليوس سليل داردانوس ؟ تُرى هل سأبقى وحدى تنازعنى الهموم ويساورنى القلق ؟ أصبح يوماً جريحة برمح ديوميديس بن تايديوس الكاليدونى ، وإذا أنا يوم آخر أحمل عار سقوط طروادة التى أخفقت فى الدفاع عنها ، ثم أرى ابنى يهيم السنين الطوال على وجهه تتقاذفه البحار ، وأشهده ينفذ إلى عالم الموتى الهامد ثم وهو يصارع تورنوس ، وإذا شئنا الحق نقول إنه كان يصارع چونو نفسها ، ولكن لماذا أستعيد اليوم ذكرى المصائب التى نزلت بأسرتى فى الماضى ؟ إن الخوف الذى أستشعره اليوم يفوق كل ذكريات الماضى ، ها هى ذى السيوف الغادرة تُشحذ من أجلى ، هلاّ رددتموها عنى وحلتُمْ دون وقوع هذا العدوان حتى لا تدعوا نيران معبد ڤستا تخمد غريقة فى دماء الكاهن الأعظم » .

وعبثاً حاولت ڤينوس أن تشيع شكواها فى أرجاء السماء لتستثير شفقة الآلهة ، فقد كانت الآلهة عاجزة عن أن تحول دون نفاذ الإرادة الصلدة للأخوات العنيدات [ربات القدر الثلاثة] ، لكن الآلهة لم تفعل غير أن أرسلت بعض النُّذُر التى تُنْذر باقتراب الكارثة ، فإذا السحب الداكنة تسمع خلالها قعقعة السيوف ، وإذا صخب الأبواق الحربية يزلزل السماء بعنف منذراً بالمأساة ، ولم يعد للشمس المكتئبة غير أشعة باهتة ترسلها على الكون القلق ، وخفقت أذناب المذنّبات بين نجوم السماء ، وتساقطت خلال الأمطار قطرات دماء ، وخُسِف وجه كوكب النهار وغشّت وجهه صُفرة قاتمة ، وتلطّخت مركبة القمر بالدماء ، وتردّد نعيق البومة طير نهر ستيكس المشئوم فى أكثر من ألف مكان . وفى أكثر من ألف مكان بكت تماثيل الآلهة العاجية بدموع حقّة[٦٧] ، وتردّدت الصرخات وأصوات الوعيد فى أرجاء الغابات المقدسة ، ولم تدلّ القرابين المذبوحة على دلائل طيبة بل كانت أحشاؤها تحمل نُذُراً باقتراب الكارثة ، فقد بدا رأس الكبد مبتوراً[٦٨] ، ودلّ الكبد نفسه على أن الحرب الأهلية أصبحت وشيكة ، وإذا الروايات أيضاً تنقل أنه قد سُمع عواء كلاب ، كما شوهدت أشباح موتى صامتة تجوس فى السوق وبين الدور والمعابد خلال الليل ، وإذا زلزالٌ يهزّ أرض روما . وعلى الرّغم من تحذيرات الآلهة فلم تُفلح فى القضاء على الخيانة والغدر . وشُهِرَت السيوف المسلولة من أغمادها داخل المبنى المقدس ، ومن الغريب أنه لم يكن ثمة مكان يُختار لارتكاب جريمة الاغتيال البشع إلاّ قاعة مجلس الشيوخ . عندها ضربت ڤينوس على صدرها بيدها وحاولت إخفاء أينياس العظيم فى السحابة التى أنقذت پاريس من غضب ابن أتريوس كما حمت أينياس من سيف ديوميديس ، غير أن أباها ناداها قائلاً : أوَ تخالين يا ابنتى أنك فى قدرتك وحدك تغيير القدر

المقدور . توجّهى إلى مقرّ ربّات القدر الثلاث حيث ترين سجلّات الكون . ستجدين اللوح المصنوع من البرونز والحديد ، ذلك اللوح الخالد الذى لا يتحطم ولا يخشى رعد السماء ولا غضب البرق ولا أى زلزال عاصف ، وسترين ما قُدّر على ذراريك محفوراً على الصّلب الذى لا يبلى . ولقد طالعت بنفسى ما هو مكتوب ووعته ذاكرتى ، وسأعيد على سمعك ما قرأتُ يا ڤينوس إلهة كيثيرا حتى لا تظلين يا ابنتى جاهلة بالمستقبل . لقد انتهى عمر هذا الإنسان الذى تبكين من أجله وأكمل سنيه التى كُتبت له فى لوح القدر أن يحياها ، غير أنه سيصبح بعدُ إلها يصعد إلى السماء ، وسوف تُقام طقوس عبادته فى معابد الأرض جمعاء . وسيكون هذا على يديك أنت وعلى يدى ابنه الذى سيرث اسمه ويحمل وحده عبء الحكم الذى سيُلقى على عاتقه ، وسيثأر فى جرأة لأبيه الذى اغتيل ، وسيجدنا إلى جانبه نشدّ أزره فى معارك القتال ، وسيقود جيشاً يحاصر أسوار مودينا حتى تفتح له أبوابها طالبة السلام »[٦٩] ، وستشعر حقول فارساليا بقوة بأسه ، وسيسيل الدم ثانية فى فيلييى ، وسيلقى اسم پومپى العظيم الهزيمة فى مياه صقلية ، وستسقط الزوجة المصرية لقائد رومانى مخدوعة فى أملها بالزواج منه ، ويصبح هباء تهديدها بأن تُخضع الكاپيتولينوس المقدس لمدينتها كانوپى[٧٠] . وما لى أقصّ عليك قصص بلاد البرابرة والأمم التى تعيش على شواطىء المحيطين ، فلسوف يملك هذا البطل جميع ما تحمل الأرض المعمورة ، ولسوف يذلّ له البحر نفسه . وحينما ينشر السلام على العالم سوف يرعى حقوق المواطنين ويشرّع القوانين التى تكفل العدالة بينهم ويطبّقها بنفسه ، وسيصبح مسلكه مثلاً يُحتذى من رفيع الأخلاق ، وسيتجه بفكره وبنفاذ بصيرته إلى المستقبل وذرارىَ شعبه ، فيأمر أن يحمل ابن قرينته المُبجّلة اسمه وأثقال الحكم معاً . ثم إنه فى النهاية حين يبلغ من العمر ما بلغه نسطور حاكم پيلوس الكهل سيرقى إلى السماء حيث سيتخذ مكانه بين كواكب أسرته . أما الآن ، فخُذى معك هذه الروح التى فاضت عن جسد قيصر الذبيح وأحيليها نجماً حتى يسهر يوليوس المؤلّه إلى الأبد من علياء سمائه على الكاپيتولينوس المقدّس والفورَم » .

وما إن فرغ چوپيتر من حديثه حتى وقفت ڤينوس الحانية وسط قصر مجلس الشيوخ دون أن تلمحها عين بشر ، ورفعت روح قيصرها الغالى من جسده بعد ما فارقته وقبل أن تتبدّد فى الهواء وحملتها وسط نجوم السماء ، فإذا هى تحسّ وهى تحملها أنها تشتعل شيئاً فشيئاً إلى أن التهبت حقاً ، وإذا هى تنفلت من صدر ڤينوس محلّقة عالياً حتى جاوزت القمر وهى تجرّ وراءها جدائل من أشعة لها شكل كوكب متألق[٧١] .

وحين رأى قيصر من علياء السماء مآثر ابنه أذعن إلى أنها تفوق مآثره وسعد بأن يتفوّق ابنه عليه ، وإن كان الإبن قد حَرّم على الناس أن يُقدّروا أعماله فوق تقديرهم لأعمال أبيه ، غير أن شُهرة الإنسان تجرى على ألسنة الناس طليقة لا تخضع للقيود . ولقد رفعته الشّهرة عالياً على الرغم منه ولم تخضع لغير إرادة القدر وحده ، كما تراجع مجد أتريوس أمام مجد أجاممنون العظيم ، وكما بزّت شُهرة ثيسيوس شُهرة أبيه إيجيوس ، وكما فاق أخيل أباه پيليوس . ثم يأتى فى ختام الأمثلة الجديرة ببطلينا[٧٢] ذِكر ساتورن الذى

تراجع أمام ذكر ابنه چوپيتر حاكم السماوات العُلى وممالك الكون الثلاث . كذلك خضعت الأرض لسلطان
أوغسطس ، وكان كلٌ من چوپيتر وأوغسطس أباً لدولته وسيّداً عليها . ٨٦٠

ابتهـــــال

أيتها الآلهة المقدسة ، يا رفاق أينياس ، أنتم يا من تفتح أمامكم ألسنة اللّهب وصليل السيوف الطريق رحباً لا نهاية له ، يا آلهة أرضنا ، يا كويرينوس [رومولوس] ، يا أبَ المدينة الحانى عليها وصاحب الطُول فيها ، وأنت يا جراديڤوس [مارس] والد كويرينوس الذى لم يُقهر قط ، وأنت يا ڤِسْتا يا من تُقام لك الصلوات تسبيحاً باسمك الكريم وسط آلهة أسرة قيصر . وأنت يا فويبوس يا من تسكن مع ڤستا قصور القياصرة ، وأنت يا چوپيتر يا ساكن قمة تل تارپيوس(٧٣) . أيتها الآلهة جميعاً ، يا من يحقّ للشاعر بل يلزمه أن يسبّح بأسمائكم القدسيّة ، ناشدتكم جميعاً أن تُرجئوا إلى ما بعد هذا الجيل ذلك اليوم الذى يغادر فيه أوغسطس العظيم هذه الدنيا التى تَدين لحكمه ،ناصع ، يوم يصعد إلى السماء نجماً مضيئاً ، حيث يستجيب لضراعات البشر إلهاً ، ولو أنهم سيُحْرمون منه ملكاً يستجيب لضراعاتهم .

ختـــــام

٨٨٠ ها أنذا قد فرغت من كتابى ، هذا الكتاب الذى تعجز غضبة چوپيتر الجبّار عن أن تمحو أثره ، وتعجز النار والحديد بل وأنياب الزمن العاصف عن أن تطمس كلماته . ولتضع الأقدار ــ ما شاءت ــ خاتمة لحياتى ، فهى لا تملك إلاّ جسدى ، أما أنبل ما فى ذاتى فسينطلق خالداً فوق مسرى النجوم والأفلاك ، وسيبقى اسمى مشرقاً ما بقى الدهر . وأنّى ينبسط سلطان الدولة الرومانية ، فلسوف تردّد ألسنة الناس شعرى ، وإن صدق حدس الشعراء فلسوف أخلد باقياً على مرّ العصور علَماً خفّاقاً شهيراً .

التعقيبات

(١) اشتهر نوما پومپيليوس من السابينيين بالحكمة والمعرفة ، وقيل إنه تتلمذ على پيثاجوراس وتولى العرش فى أوائل القرن الثامن ق.م. على الأرجح .

(٢) مدينة قديمة كان السابينيون قد اختاروها عاصمة لهم .

(٣) مدينة عند بداية خليج تورنتو وكانت جزءاً من « اليونان الكبرى » افتتح فيها پيثاجوراس مدرسته الشهيرة .

(٤) شعب كان يقطن الطرف الجنوبى الشرقى من شبه جزيرة ايطاليا .

(٥) أهل مدينة كانت تحمل الاسم نفسه ، وحلت محل سيباريس بعد تدميرها ، وكانت أيضاً تشرف على خليج تورنتو فى جنوب إيطاليا .

(٦) مدينة قديمة فى مقاطعة پروتيوم ، وهو اسم الإقليم الذى يشغل كل جنوب شبه جزيرة ايطاليا ، وقد اشتهرت بمناجم النحاس .

(٧) هم الياپيجيون [انظر الكتاب الرابع عشر] .

(٨) الاسم القديم لجزيرة كيفالونيا ، وهو أيضاً اسم أكبر مدينة بها .

(٩) يدّعى پيثاجوراس هنا أنه استوحى كلامه من وحى إلهى ، مثله فى ذلك مثل الهاتف الإلهى فى دلفى الذى يَصُوتُ بصوت أپوللو .

(١٠) يبدأ پيثاجوراس هنا عرض نظرية تناسخ الأرواح التى اقترنت باسمه عبر التاريخ .

(١١) كان أباس الملك الثانى عشر لدولة أرجوس . ورُوى أن معبد جونو [هيرا] فى أرجوس الذى كان يحوى تمثالاً للإلهة من صنع پوليكليتوس كان يضم ترس البطل الطروادى يوفوربوس الذى قتله منيلاوس إثر محاولته نزع الأسلحة من جثة پاتروكلوس الهامدة .

(١٢) كان ميلون بطلاً شهيراً فى حلبة ألعاب القوى بمدينة كروتونا عاش فى أوائل القرن السادس عشر ق.م. وفى الإشارة إلى شيخوخته مفارقة زمنية ، إذ المفروض أنه كان من تلاميذ پيثاجوراس الذى يتحدث بنفسه فى هذا النص .

(١٣) اختطف ثيسيوس هيلينا وهى بعدُ فتاة بينما كانت تقدم القرابين لأرتميس وذهب بها إلى أثينا ، ثم اختطفها پاريس بعد زواجها من منيلاوس وهرب بها إلى طروادة .

(١٤) نهر فى فريچيا يختفى فى غار ثم يظهر من جديد ليرتمى فى نهر مياندر .

(١٥) نهر فى أركاديا يصب فى خليج كورنثه .

(١٦) نهر فى آسيا الصغرى .

(١٧) نهر فى صقلية بجوار مدينة قطانيا .
(١٨) نهر فى اليونان .
(١٩) نهر فى صارماتيا جنوب روسيا يصب فى البحر الأسود واسمه الآن نهر البرج .
(٢٠) مدينة صغيرة على الشاطىء الغربى لجزيرة ليزبوس .
(٢١) جزيرة صغيرة مواجهة للإسكندرية يربط بينها لسان ضيق من اليابسة ، اشتهرت بمنارتها (رأس التين حاليا) .
(٢٢) إحدى الجزر الأيونية .
(٢٣) الاسم القديم لميسينا بصقلية .
(٢٤) دمّرها زلزال عام ٣٧٢ ق.م.
(٢٥) كانت توأم هيليكيه ودمّرت معها .
(٢٦) لعل أوفيد كان يقصد برزخ ميثونيه أو ميثانا ، ويقع إلى الشمال من المنطقة التى يشير إليها .
(٢٧) ذكرى هيرودوتوس ينبوع آمون فى « تاريخه » وما يزال معروفاً فى الصحراء السودانية ، ويبدو أن حرارته قد تصل أحياناً إلى خمسين درجة مئوية ثم تهبط أحياناً أخرى إلى درجة الصفر .
(٢٨) شعب كان يقطن إيپروس على الحدود الألبانية .
(٢٩) اشتهر هذان النهران بغزارة طميهما فكان من يستحم فيهما من بشر أو حيوان يخرج من النهر مُغشّى بالطين البنى .
(٣٠) انظر الكتاب الرابع حيث تجرى أحداث قصة هيرومافروديتوس وسالماكيس . أما البحيرات الأثيوپية فلا نعرف ما يقصده أوفيد منها .
(٣١) مدينة أركاديا .
(٣٢) منطقة جبلية فى مقدونيا .
(٣٣) اسم لمدينة فى شمال أركاديا وللبحيرة المجاورة لها .
(٣٤) هى جزيرة ديلوس الآن ، وكانت فى الماضى تتأرجح فوق المياه ، اختارتها ليتو مأوى تلد فيه بعد أن طاردتها چونو فى جميع أنحاء الأرض ، ولم تثبت الجزيرة إلا بعد وضعها لأپوللو وأرتميس .
(٣٥) جزيرتان صخريتان عند مدخل البحر الأسود .
(٣٦) يعالج سنيكا فى كتابه السادس « عن أمور الطبيعة » سر الزلازل بما لا يخرج عن النص الوارد هنا .
(٣٧) شعب خرافى كان يسكن منطقة فى أقصى شمال العالم المعروف .
(٣٨) خلط أوفيد هنا بين تريتون الموجودة فى طراقيا وپاليني الموجودة فى خالكيديكس .
(٣٩) يبدأ پيثاجوراس فى سرد بعض الخرافات الشعبية السائدة .
(٤٠) ذهب هيرودوتوس إلى أن معبد هيپريون هو معبد الشمس فى هليوپوليس بمصر ، بينما ذهب پلينيوس إلى أنه موجود فى جزيرة خرافية اسمها پانشايا فى بحر إريتريا بين آسيا الصغرى وبويوتيا .
(٤١) كان ثمة اعتقاد شعبى بأن الضبع يبدّل جنسه مرة كل سنة إلى أن دحض أرسطو هذا الزعم الخاطىء .
(٤٢) هو الحرباء التى قال عنها « پلينيوس » إنها تتلون بكل الألوان عدا الأحمر والأبيض .
(٤٣) من فصيلة السنانير وهو أصغر حجماً من النمر .
(٤٤) ثمة حجر كريم يسمى « بول الوشق » يقابل حجر التورمالين لدينا .
(٤٥) أحد ملوك أثينا فى قديم الزمان .
(٤٦) سبق أن ذكر پيثاجوراس أنه عاش حياة سالفة فى طروادة ، إذ كانت روحه تتقمص جسد البطل الطروادى يوفوربوس المعاصر لأينياس .
(٤٧) كان أتريوس بن پيلوپس عدوا لأخيه ثاييستيس ، وقد تظاهر بالصلح معه ودعاه إلى وليمة ذبح فيها أبناء أخيه وقدم إليه لحم أبنائه فأكله وهو لا يدرى .

(٤٨) إحدى طرق صيد الوعول ، وتقوم على وضع حبل فى طريقها مزدان بالريش الأحمر الذى يصيبها بالفزع فتنحرف نحو الشراك التى تنتظرها .

(٤٩) الكامينات كن حوريات ماء ، أشهرهن إيجيريا التى كانت مُلْهِمة نوما كما أسلفنا ثم تزوجها حسبما يقرر أوفيد فى هذا النص . وكن يتكهنّ بالمستقبل كربات الفن « الموساى » ، وكان لهن معبد عند أحد أبواب روما ، هو الباب الكاميني فى طريق آبيا جنوبى المدينة .

(٥٠) كان وادى آريسيا عند سفح جبال ألبانوس بإيطاليا غير بعيد من بحيرة نيمى وعلى مقربة من معبد ديانا الأريسينية الذى كان يتولى كاهنه منصبه فيه بعد أن يقتل سلفه . وكانت الشعائر تقام فيه لديانا الطوريسية الذى كان أوريستيس قد اختطف منه صنم « الإكسوانون » بصحبة إيفيجينيا كاهنة المعبد . وكان سكان آريسيا يدّعون حيازة هذا الصنم الذى حمله إليهم أوريستيس ، غير أن الروايات اليونانية كلها تؤكد أنه موجود بمعبد أرتميس فى هالاى بأتيكا [وذلك بالنسبة لأهل أثينا] بينما يدعى أهل أسبرطه أنه فى معبد أرتميس أورثيا فى أسبرطة نفسها .

(٥١) نهر من اللهيب فى الجحيم .

(٥٢) اسم جنّى غابة قرب بحيرة نيمى ، وكانت هذه الغابة محرّمة على الجياد ، وقد أصبحت عبادة فيربيوس مقترنة بعبادة ديانا الأريسينية ، وكان فيربيوس أول كاهن لها فى معبدها .

(٥٣) أى فلاح إتروريا .

(٥٤) كانت القرون فى الماضى رمزاً للقوة .

(٥٥) هى رمز الانتصار وبالتالى السلام الذى يجيء فى إثر الانتصار .

(٥٦) إسكليبيوس بن أبوللو من الحورية كورنيس ، وقد بدأت الطقوس تقام له فى ثيساليا ، ثم أخذت تنتشر حتى عمّت أنحاء اليونان ، وتمركزت فى إبيداوروس ، ولم تدخل روما إلا عام ٢٩١ ق.م. بعد الطاعون الذى اجتاحها عام ٢٩٣ ق.م.

(٥٧) كانت الآلهة تبدو فى التماثيل الفنية القديمة أكبر حجماً من البشر .

(٥٨) أقيم هذا المعبد عام ٣٨٠ — ٣٧٥ ق.م. وكان على بعد خمسة عشر كليو متراً من المدينة ، وقد اكتشفت فى أطلاله آثار فنية ووثائق بالغة القيمة .

(٥٩) قام بنحته المثال تراسيميدس الفاروسى .

(٦٠) اسم قديم للوكانيا .

(٦١) برزخ كامپانللا حالياً .

(٦٢) هرقولانيوم .

(٦٣) الاسم القديم لنابلى .

(٦٤) يضع أوفيد أوكتافيوس وهو ابن قيصر بالتبنّى فى مصاف أبنائه الحقيقيين ، ويتحدث عنه بهذه الصفة .

(٦٥) اسم ملوك وحكام ولايات پونتوس الموجودة فى آسيا الصغرى والمطلة على البحر الأسود وعاصمتها طرابزون .

(٦٦) يشير أوفيد هنا إلى حملة قيصر على بريطانيا عام ٥٤ ق.م. وحرب الإسكندرية عام ٤٨ ق.م. وهزيمة چوبا ملك نيميديا ، وإلى انتصاره على فارناكيوس بن مثريدات الأعظم ملك پونتوس عام ٤٧ ق.م. ويلاحظ أن قيصر لم يشارك فى غير موكبين من مواكب نصره ، أولها عام ٤٦ ق.م. بعد انتصارته فى بلاد الغال ومصر وپونتوس وثانيهما عام ٤٥ ق.م. بعد انتصارته فى أيبريا .

(٦٧) كان العاج يستخدم فى صنع تماثيل الآلهة أو بعض أجزائها ، وكانت التماثيل العاجية تدهن بالزيت فترسل بريقاً يوحى أنها تدمع .

(٦٨) كان الكهنة يفحصون أحشاء الذبائح ويهتمون بالقلب والرئتين والمعدة والطحال والكليتين ، وكانوا يسمون أعلى الكبد رأسه ويعدون فصله عن بقية الكبد نذير سوء .

(٦٩) انتصار أوكتافيوس على أنطونيوس فى مودينا عام ٤٣ ق.م. ، وكان أنطونيوس هو الذى حاصر المدينة التى كان على رأسها ديكيموس بروتوس محافظ المقاطعات الرومانية جنوبى الألب ، ويبدو أن أوفيد قد خلط هنا بين المحاصِر والمحاصَر .

(٧٠) كانت كليوباترة هى ملكة مصر التى تزوجت أنطونيوس ، وتقع كانوپى شرقى الإسكندرية ، وكانت مركزاً دينياً بينما كان معبد الكاپيتولينوس أقدس معابد روما ، وبهذا يريد أوڤيد اتهام كليوباترة بمحاولة إحلال آلهة المصريين محل آلهة الرومان .

(٧١) يروى سويتونيوس أنه أثناء الألعاب التى أقامها أوكتاڤيوس تكريماً لقيصر المؤله ، كان الكوكب المذنّب يتألق فى السماء طوال ليال سبع ، وقد شاع الاعتقاد بأنه روح قيصر قد تحول إلى كوكب هو المعروف باسم ڤينوس .

(٧٢) يوليوس قيصر وأوغسطس .

(٧٣) الجزء الشرقى من تل الكاپيتولينوس وكان يضم القلعة التى سميت باسمه ، بينما يضم الجزء الغربى معبد چوپيتر ، وكان يسمى قبلاً بجبل تارپيوس ، وقد انحصر اسم تارپيوس بعد ذلك فى صخرة بالطرف الجنوبى الغربى من التل كانت تستخدم فى تنفيذ أحكام الإعدام بقذف المحكوم عليهم من فوقها .

ثبت التراجم

THE METAMORPHOSES OF OVID: TRANSLATED AND WITH AN INTRODUCTION BY MARY M. INNES.PENGUIN BOOKS, HARMONDSWORTH, 1955.

OVID: *THE METAMORPHOSES*. 2 VOLS. TRANSLATED AND WITH AN INTRODUCTION BY F. J. MILLER (THE LOEB CLASSICAL LIBRARY) LONDON AND NEW YORK. (ND)

OVIDE: *LES METAMORPHOSES*. TRADUCTION NOUVELLE AVEC UNE INTRODUCTION ET DES NOTES PAR JOSEPH CHAMONARD. 2 VOLS. EDITIONS GARNIER, PARIS, 1955.

OVIDE: *LES METAMORPHOSES*.
TEXTE ETABLE ET TRADUIT PAR GEORGE LAFAZE (COLLECTION DES UNIVERSITES DE FRANCE PUBLIEE SOUS LE PATRONAGE DE L'ASSOCIATION GUILLAUME BUDE) PARIS, 1928. 3 VOLS.

ثبت المعاجم

CARY, M., DENNISTON, J.D., WIGHT DUFF, J, NOCK, A. D, ROSS, W. D., SCULLARD, H. H., WITH THE ASSISTANCE OF ROSE, H. J, HARVEY, H. P. AND SOUTER, A, THE *OXFORD CLASSICAL DICTIONARY*. OXFORD, 1949

ERNOUT, A. ET MEILLET, A. *DICTIONNAIRE ETYMOLGIQUE DE LA LANGUE LATINE*. 3 EME EDITION. PARIS, 1951.

HOWE, GEORGE & HARRER, G. A.: *A HANDBOOK OF CLASSICAL MYTHOLOGY.* F.S. CROTS. NEW YORK 1987.
LEMPRIERE, J.: *LEMPRIERE CLASSICAL DICTIONARY OF PROPER NAMES MENTIONED IN ANCIENT AUTHORS.* ROUTLEDGE & KEGAN PAUL. LONDON 1963
LEWIS, CHARLTON AND SHORT, D.P. CHARLTON AND SHORT, D.P. CHARLES: *A LATIN DICTIONARY.* LONDON 1879.
STIMPSON, D.P.: *CASSELLE'S NEW LATIN-ENGLISH-LATIN DICTIONARY* 2nd EDITION. LONDON 1962.

ثبت المراجع

BEAMER, MAUDE: *GREEK ART IN OVID'S POEMS*. (PUBLISHED ABSTRACT OF UNIVERSITY OF MISSOURI DISSERTATION, 1936)
BREWER, W.: *OVID'S METAMORPHOSES IN EUROPEAN CULTURE.* 1933.
CLARK, KENNETH: *LANDSCAPE INTO ART.* LONDON 1949.
FRANKEL, HERMANN: *OVID-A POET BETWEEN TWO WORLDS.* BERKELEY AND LOS ANGELES, 1945.
HAGSTRUM, JANH.: *THE SISTER ARTS.* CHICAGO 1958.
LAFAYE, G.: *LES METAMORPHOSES D'OVIDE ET LEURS MODELES GRECS.* (UNIVERSITE DE PARIS, BIBLIOTHEQUE DE LA FACULTE DES LETTRES, XIX) PARIS, 1904.
LASLO, NICOLAS: *RIFLESSI D'ARTE FIGURATA NELLE METAMORFOSI DI OVIDIO* (EPHEMERIS DACOROMANA, VI) ROME 1935.
MORNAND, PIERRE & THOME, J.R.: *VINGT ARTISTES DU LIVRE.* LE COURRIER GRAPHIQUE, ALBERT CYMBOLISTE, EDITEUR, PARIS.
MURRAY, GILBERT: *ESSAYS AND ADDRESSES.* LONDON, 1291.
PANOVSKY, ERWIN: *PROBLEMS IN TITIAN MAINLY ICONOGRAPHIC.* PHAIDON, OXFORD, 1970.
RAND, EDWAD K: *OVID AND HIS INFLUENCE.* BOSTON 1925.
RIPERT. EMILE: *OVID, POETE DE L'AMOUR, DES DIEUX ET DE L'EXIL.* PARIS 1921.
WILKINSON, L.P.: *OVID RECALLED.* CAMBRIDGE, 1955.

الملحق الأول

دليل المنجزات الفنية التشكيلية
المستوحاة من كتاب « مسخ الكائنات » لأوڤيد(*)

التصوير

آدم إلزهايمر : « الطوفان » . متحف ستيدل بفرانكفورت .
آنجر : « تأليه هوميروس » . متحف اللوڤر .
أحد أتباع پيزيلينو : « صيد الخنزير البرى فى كاليدونيا » . متحف متروپوليتان بنيويورك .
أحد أتباع فرا أنچيليكو : « پاريس يختطف هيلينا » . متحف الناشونال جاليرى بلندن .
إدوارد بيرن چونز : « بجماليون » . متحف برمنجهام .
إلجرتشينو : « أپوللو يسلخ مارسياس » . جاليرى پيتى بفلورنسا .
إلجرتشينو : « أورورا » . قصر لودوڤيزى بروما .
إلجرتشينو : « كيركى » . متحف اللوڤر بپاريس .
أنطونى ڤان دايك : « چوپيتر وأنتيوپى » . متحف ميونخ .
أنطونى ڤان دايك : « دايدالوس وإيكاروس » . متحف تورنتو بكندا .
أنطونى ڤان دايك : « سيلينوس ثملا » . متحف درسدن .
أنطونى ڤان دايك : « كيوپيد وپسيخيه » . هامپتون كورت بانجلترا .
أنطونى ڤان دايك : « ڤينوس إلى جوار كور ڤولكانوس » . متحف تاريخ الفنون بڤيينا .
أنطونى ڤان دايك : « ڤينوس وڤولكانوس » . متحف اللوڤر .
أنطونيو پولايولو : « أپوللو ودافنى » . الناشونال جاليرى بلندن .
أنطونيو پولايولو : « خطف ديانيرا » . متحف الفنون بجامعة ييل بنيوهاڤن .
أنطونيو پولايولو : « هرقل والهيدرا » . متحف الأوفيتزى بفلورنسا .
أنطونيو فانتوزى : « كيركى وملّاحو أوديسيوس » . مدرسة فونتنبلو .
أوچين ديلاكروا : « ميديا وأطفالها » . متحف اللوڤر بپاريس .
بارثولوميوس سپرانجر : « ڤينوس وأدونيس » . متحف تاريخ الفنون بڤيينا

(*) للمزيد من التفاصيل انظر : « الإغريق بين الأسطورة والإبداع » لكاتب هذه السطور . الطبعة الثانية ١٩٩١ . الهيئة المصرية العامة للكتاب .

بارثولوميوس سپرانجر : « منيرڤا » . متحف تاريخ الفنون بڤيينا .
بارثولوميوس سپرانجر : « هيرمافروديتوس وسالماكيس » . متحف تاريخ الفنون بڤيينا .
بارثولوميوس سپرانجر : « أوديسيوس وكيركى » . متحف تاريخ الفنون بڤيينا .
باروتشى : « أينياس يفرّ من طروادة مع زوجته وابنه حاملاً أباه » . متحف ڤيلا بورجيزى بروما .
باسانو : « هرقل وأومفالوس » . متحف تاريخ الفنون بڤيينا .
پرودون : « اختطاف پسيخيه » . متحف اللوڤر .
برويجل : « أينياس فى العالم السفلى » . متحف تاريخ الفنون بڤيينا .
برويجل : « سقوط إيكاروس » . متحف تاريخ الفنون بڤيينا .
برويجل : « سيريس توزع الخيرات » . متحف تاريخ الفنون بڤيينا .
بلانشار : « حفل باكخوسى » . متحف نانسى .
بنڤنوتو تشلليني : « پيرسيوس وأندروميدا » . متحف البارچلو بفلورنسا .
بوتيتشيللى : « أثينا [منيرڤا] والقنطور » . متحف أوفتزى بفلورنسا .
بوتيتشيللى : « مولد ڤينوس » . متحف أوفيتزى بفلورنسا .
بوشيه : « حوريتان وجان الغاب [الساتير] » . متحف الناشونال جاليرى بلندن .
بوشيه : « داناى » . متحف كونياك .
بوشيه : « ديانا تأخذ زينتها » .
بوشيه : « زيوس وأنتيوپى » . متحف پوشكين بموسكو .
بوشيه : « ليدا وطائر البجع » . متحف لوكسمبورج .
پيرو دى كوزيمو : « إنقاذ أندروميدا » . متحف الأوفيتزى بفلورنسا .
پيرو دى كوزيمو : « مصرع پروكريس » . متحف الناشونال جاليرى بلندن .
پيرو ده كوزيمو : « المعركة بين اللاپيث والقنطورى » . متحف الناشونال جاليرى بلندن .
پيير نارسيس جيران : « تقديم القربان لإسكلپيوس » . متحف اللوڤر بباريس .
تتسيانو : « اختطاف أوروپا » . متحف جاردنر ببوسطن .
تتسيانو : « باكخوس وأريادنى » . متحف الناشونال جاليرى بلندن .
تتسيانو : « پيرسيوس وأندروميدا » . متحف الناشونال جاليرى بلندن .
تتسيانو : « تانتالوس » . المتحف البريطانى .
تتسيانو : « چوپيتر وأنتيوپى » . متحف اللوڤر .
تتسيانو : « داناى » . متحف البرادو بمدريد .
تتسيانو : « ديانا وأكتايون » . متحف بردچوتر هاوس بلندن .
تتسيانو : « ديانا وكاليستو » . متحف برِدْچْوُتَر هاوس بلندن .
تتسيانو : « سيزيفوس يحمل الحجر » . متحف البرادو بمدريد .
تتسيانو : « ڤينوس وأدونيس » . المتحف القومى للفنون بواشنطن .
تتسيانو : « ڤينوس تتوسل إلى أدونيس كى لا يخرج إلى الصيد » . متحف البرادو بمدريد .
تتسيانو : ڤينوس على أجنحة النغم » . متحف البرادو بمدريد .
تتسيانو : ڤينوس فى استرخاء حالم » . متحف أوفتيزى بفلورنسا .
تتسيانو : « ڤينوس وكيوپيد » . متحف ڤيلا بورجيزى بروما .
تتسيانو : « كاليستو » . متحف جلاسجو .
تتسيانو : « مصرع أكتايون » . متحف جلاسجو .

تتسيانو : « النسر ينهش كبد تيتوس » . متحف البرادو بمدريد .
تنتوريتو : « أريادنى وباكخوس » . قصر الدوج بالبندقية .
تنتوريتو : « باكخوس وأريادنى » . قصر الدوج بالبندقية .
تنتوريتو : « پيرسيوس وأندروميدا » . متحف الإرميتاج بلننجراد .
تنتوريتو : « چونو وهرقل » . كوبام هول بانجلترا .
تنتوريتو : « ربات الفنون فى الأوليمپ » . هامپتون كورت بانجلترا .
تنتوريتو : « كور ڤولكانوس » . قصر الدوج بالبندقية .
تنتوريتو : « كيوپيد وڤينوس وڤولكانوس » . متحف پيتى بفلورنسا .
تيرنر : « پوليفيموس يهزأ بسفينة أوديسيوس » . متحف الناشونال جاليرى بلندن .
تيرنر : « ديدو تشيّد قرطاچه » . الناشونال جاليرى بلندن .
تيرنر : « ديدو وأينياس » . الناشونال جاليرى بلندن .
تييپولو : « أپوللو ودافنى » . متحف اللوڤر بپاريس .
تييپولو : « تشييد حصان طرواده » . متحف الناشونال جاليرى بلندن .
تييپولو : « داناى » . متحف ستوكهولم .
تييپولو : « سحب حصان طرواده » . متحف الناشونال جاليرى بلندن .
تييپولو : « ڤينوس والزمن » . متحف الناشونال جاليرى بلندن .
چان راوو : « پيجماليون وجالاطيا وڤينوس » . متحف اللوڤر بپاريس .
چان ريستو : « هيرا [چونو] تزور أوقيانوس وثيتيس » . متحف پوشكين بموسكو .
جانستر : « ڤينوس وأدونيس » . متحف تاريخ الفنون بڤيينا .
جوتزولى : « اختطاف هيلينا » . الناشونال جاليرى بلندن .
چورچ ڤردريك واطسن : « أورفيوس ويوريديكى » . متحف تيت جاليرى بلندن .
چوردانو : « أريادنى » . متحف درسدن .
جوستاف مورو : « پاسيفاى والثور » .
چوليو رومانو : « پوليفيموس » . متحف مانتوا .
چوليو رومانو : « چونو وهرقل » . بريدج ووتر هاوس بلندن .
چوليو رومانو : « رقصة أپوللو مع ربات الفن » . متحف پيتى بفلورنسا .
چوليو رومانو : « طفولة چوپيتر » . الناشونال جاليرى بلندن .
چوليو رومانو : « ڤينوس وڤولكانوس » . متحف اللوڤر .
جيدوريني : « أپوللو يسلخ جلد مارسياس » . متحف ميونخ .
جيدوريني : « اختطاف هيلينا » . متحف اللوڤر .
جيدوريني : « أورورا » . قصر روسبيليوزى بروما .
جيدوريني : « باكخوس معتلا » . متحف ڤيلا بورجيزى بروما .
جيدوريني : « هرقل وآخيلووس » . متحف اللوڤر بپاريس .
جيدوريني : « هرقل والهيدرا » . متحف اللوڤر بپاريس .
جيران : « أورورا وكيفالوس » .
جيران : « تقديم القربان لأسكلپيوس » . متحف اللوڤر .
داڤيد : « پاريس وهيلينا » . متحف اللوڤر .
دانتى جابرييل روسيتى : « پروسيرپينا » . متحف ليڤربول .

ڤان هيمزكرك : « ڤينوس ومارس وڤولكانوس » . متحف تاريخ الفنون بڤيينا .
فرانسوا لوموان : « نارسيسوس » . متحف هامبورج .
ڤركبوز : « هرقل وديانيرا ونيسوس » . متحف تاريخ الفنون بڤيينا .
فرنشسكو ألبانى : « أپولو ودافنى » . متحف اللوڤر بپاريس .
فرنشسكو ألبانى : « أوروپا » . متحف الأوفيتزى بفلورنسا .
فرنشسكو ألبانى : « فوز جالاطيا » . متحف درسدن .
فرنشسكو جويا : « كرونوس يلتهم أبناءه » . متحف البرادو بمدريد .
فرانشسكو : « كيوپيد يعدّ قوسه ويشحذ سهمه » . متحف تاريخ الفنون بڤيينا .
فرنشسكو ميلزى : « ڤيرتومنوس وپومونا » . متحف برلين .
فلاكسمان : « أوديسيوس يفقأ عين پوليفيموس » .
فنان مجهول : « رأس ميدوسا بعد جزّ عنقها » . ڤيلا لودوڤيزى بروما .
ڤيرونيزى : « اختطاف أوروپا » . قصر الدوج بالبندقية .
ڤيرونيزى : « اختطاف أوروپا » . متحف الكاپيتولينوس .
ڤيرونيزى : « پيرسيوس وأندروميدا » . متحف الإرميتاج بلينينجراد .
ڤيرونيزى : « ڤينوس وأدونيس » . متحف تاريخ الفنون بڤيينا .
ڤيرونيزى : « ڤينوس وڤولكانوس » . متحف ڤيلا بورجيزى .
ڤيرونيزى : « ڤينوس ومارس » . متحف المتروپوليتان بنيويورك .
ڤيرونيزى : « هرقل وديانيرا ونيسوس » . متحف تاريخ الفنون بڤيينا .
ڤيلاسكيز : « باكخوس » . متحف البرادو بمدريد .
ڤيلاسكيز : « ڤينوس فى المرآة » . متحف الناشونال جاليرى بلندن .
ڤيلاسكيز : « كور ڤولكانوس » . متحف البرادو بمدريد .
ڤيلاسكيز : « ميركوريوس وأرجوس » . متحف البرادو بمدريد .
ڤيورنتينو روسّو : « ربات الفنون أو الپيريديس » . متحف اللوڤر بپاريس .
كاراتشى : « پوليفيموس وأكيس وجالاطيا » . قصر فارنيزى بروما .
كاراتشى : « پيرسيوس وأندروميدا » . قصر فارنيزى بروما .
كاراتشى : « چوپيتر وچونو » . قصر فارنيزى بروما .
كاراڤاچيو : « پسيخيه فى الأوليمپ » . متحف اللوڤر .
كاراڤاچيو : « رأس ميدوسا » . متحف أوفيتزى بفلورنسا .
كراناخ : « ڤينوس » . متحف ڤيلا بورجيزى بروما .
كراناخ : « ڤينوس وكيوپيد » . متحف ستيدل بفرانكفورت .
كراناخ : « ڤينوس وكيوپيد » . متحف الناشونال جاليرى بلندن .
كراناخ : « نهاية العصر الفضى وبداية العصر البرونزى » . متحف الناشونال جاليرى بلندن .
كرسپى : « القنطور خيرون يعلّم البطل أخيل الصيد » . متحف تاريخ الفنون بڤيينا .
كوريچيو : « جانيميديس والنسر » . متحف درسدن .
كوريچيو : « چوپيتر وإيو » . متحف تاريخ الفنون بڤيينا .
كوريچيو : « داناى » . متحف ڤيلا بورجيزى بروما .
كوريچيو : « زيوس وإيو » . متحف تاريخ الفنون بڤيينا .
كوريچيو : « ميركوريوس يملى تعليماته على كيوپيد بحضور ڤينوس » . متحف الناشونال جاليرى بلندن .

كلودلوران : « أپوللو ومارسياس » . متحف الإرميتاج بلينينجراد .
كلودلوران : « أوروپا » . متحف قصر باكنجهام بلندن .
كلودلوران : « نارسيسوس وإكو » . متحف الناشونال جاليرى بلندن .
كلويه : « ديانا الصيادة » . متحف روان .
كيارى : « أپوللو ودافنى » . جاليريا سيادا بروما .
لاستمان : « هيرا تكتشف علاقة زيوس بإيو » . متحف الناشونال جاليرى بلندن .
لوقا چوردانو : « أريادنى » . متحف درسدن .
لوقا چوردانو : « پيرسيوس وڤينوس » . متحف درسدن .
لوكاس : « أكيس وجالاطيا وپوليفيموس » . قصر تريانون بڤرساى .
لوكليرك ده جوبلان : « اختطاف أوروپا » . متحف دنكرك .
لوموان : « اختطاف أوروپا » . متحف پوشكين بموسكو .
لوموان : « هرقل وأومفالوس » . متحف اللوڤر .
لوى ده بولونى : « چوپيتر وسيميليه » . متحف لومان .
ليوناردو داڤنشى : « ليدا وطائر البجع » . متحف ڤيلا بورجيزى بروما .
ماتوار : « زيوس وإيو » .
ماتوار : « هيبى تصب الخمر فى كأس أبيها چوپيتر » . متحف تروا .
مدرسة پيزيللينو : « چاسون وملاحو الأرجو » . متحف مترو پوليتان بنيويورك .
مدرسة پيزيللينو : « چاسون يضع النير على الثيران النحاسية ويذبح الجند المسلحين » . متحف مترو پوليتان بنيويورك
مدرسة پيزيللينو : « چاسون يغادر الملك أييتيس لتنفيذ ما كلفه به » . متحف مترو پوليتان بنيويورك .
مدرسة پيزيللينو : « عصر الحديد » . مكتبة پيرپونت مورجان .
المدرسة الفرنسية : « مصرع أدونيس » . متحف بلوا .
مدرسة فونتنبلو : « حمام ديانا » . متحف اللوڤر .
مصانع بروكسل للنسجيات المرسمة : « ڤيرتومنوس وپومونا » . متحف بروكسل .
نيكولا پوسان : « أپوللو ودافنى » . متحف ميونخ .
نيكولا پوسان : « إكو ونارسيسوس » . متحف اللوڤر بباريس .
نيكولا پوسان : « أورفيوس ويوريديكى » . متحف اللوڤر بباريس .
نيكولا پوسان : « حفل باكخوسى أمام تمثال لپان » : متحف الناشونال جاليرى بلندن .
نيكولا پوسان : « سيريس إلهة الحصاد » . متحف الناشونال جاليرى بلندن .
نيكولا پوسان : « أينياس عند ديدو » . متحف بيزانسون .

النحت

أندريا پيزانو : « دايدالوس » . متحف الكامپانيل [برج الأجراس] بفلورنسا .
أنطوان لوى بارى : « القنطور واللاپيث » . متحف اللوڤر بباريس .
أنطونيو كانوڤا : « آچاكس » . متحف الڤاتيكان بروما .
أنطونيو كانوڤا : « پسيخيه تسترد الحياة إثر قبلة كيوپيد » . متحف اللوڤر .
أنطونيو كانوڤا : « ثيسيوس » . حدائق الڤولكسجارتن بڤيينا .
أنطونيو كانوڤا : « ثيسيوس يصرع القنطور » . متحف تاريخ الفنون بڤيينا .

أنطونيو كانوڤا : « دايدالوس وإيكاروس » . متحف تاريخ الفنون بڤيينا .
أنطونيو كانوڤا : « هرقل وليتشاس » . المتحف القومى بروما .
أوتريكولى : « چوپيتر » . متحف الڤاتيكان .
برتل ثورڤالدسن : « أدونيس » . متحف ميونخ .
برتل ثورڤالدسن : « باكخوس وأريادنى » . متحف كوپنهاجن .
برتل ثورڤالدسن : « جانيميدس » . متحف ثورڤالدسن بكوپنهاجن .
برتل ثورڤالدسن : « ڤولكانوس يعدّ سهام كيوپيد » متحف ثورڤالدسن بكوپنهاجن .
برتل ثورڤالدسن : « مارس وكيوپيد » . متحف ثورڤالدسن بكوپنهاجن .
برتل ثورڤالدسن : « منيرڤا وپروميثيوس » . نقش بارز .
پوچيه : « هرقل يصرع الهيدرا » . متحف روان .
چان ده بولونى : « هرقل يحمل الكون » .
چان ده بولونى : « هرقل يقتل القنطور نيسوس » . متحف چاكمار أندريه بباريس .
چيمس پراديه : « ربات الحسن الثلاث » . متحف اللوڤر .
چيمس پراديه : « مصرع أولاد نيوبى » . متحف اللوڤر .
جيوم كوستون : « پان يعلم أپوللو العزف على المزمار » .
ديبوا : « ليدا وطائر البجع » . متحف لوكسمبورج .
رود : « الإله ميركوريوس [هرميس] » . متحف اللوڤر .
رينزو برنينى : « أپوللو ودافنى » . متحف ڤيلا بورجيزى بروما .
رينزو برنينى : « پلوتو وپروسيرپينا » . ڤيلا بورجيزى بروما .
رينزو برنينى : « نافورة تريتون » بروما .
سانسوڤينو : « باكخوس » . متحف بارچيللو بفلورنسا .
سلوطز : « سقوط إيكاروس » . متحف اللوڤر .
فرانش ڤيل : « أورفيوس » . متحف اللوڤر .
فنان مجهول : « أپوللو ودافنى » . متحف ڤيلا بورجيزى بروما .
فنان مجهول : « أولاد نيوبى » . متحف الأوفيتزى بفلورنسا .
فنان مجهول : « نيوبى وطفلها » . متحف الأوفيتزى بفلورنسا .
كلوديون : « موكب عابدات باكخوس » . متحف اللوڤر .
ميكلانچلو : « أدونيس يحتضر » . متحف بارچيللو بفلورنسا .
ميكلانچلو : « باكخوس ثملا » . متحف بارچيللو بفلورنسا .
نيقولا سباستيان آدم : « پروميثيوس مغلولاً والنسر ينهش كبده » . متحف اللوڤر .

١٨١

هذا الكتاب

أحد الشوامخ القليلة .. ولسوف يبقى فى ذاكرة الأجيال القادمة ولأمد طويل ، فترجمة الميتامورفوز لأوفيد بقلم الدكتور ثروت عكاشة كانت اقتحاماً خطيراً فى لغة سائغة دفاقة الحيوية .. هى بالنسبة للمثقف المستنير عمل ممتع ونافع معاً ، وهو من اجله يستحق كل تحية وثناء .

دكتور لويس عوض (الأهرام ١٩٧٢/١١/٢٤)

لابد لكل قارىء مثقف ان يمرّ بعينيه اياماً على واحد من هذه الأعمال الكبرى لانه سوف يجد صداها فى كل الآداب العالمية القديمة والحديثة . ولا بد ان د . ثروت عكاشة يجد لذته فى أن يتحدى الأعمال الادبية والفنية العسيرة . ومن هذه اللذة يتكون إقباله على الأعمال الادبية البعيدة عن تناول المثقفين . هذه موسوعة العذاب الإغريقى أحكمت ترجمتها وصياغتها وقُدمت بكل إخلاص إلى المكتبة العربية

أنيس منصور (الأخبار ١٩٧٢/٦/١٦)

لقد ظل هذا العمل الكبير الذى يعتبر من شوامخ الأدب القديم الفين من الأعوام دون ان تُقدم الأقلام العربية على ترجمته إلى لغة الضاد حتى ظهر هذا الكتاب المترجم الانيق ليملأ هذا الفراغ . لقد أقبل الدكتور ثروت عكاشة على هذا الجهد الشاق حباً وعشقاً لمادته وإيماناً باهميته للاكتمال والنضج الثقافى ، مضيفا إلى معطياته الثقافية السابقة هذا العمل الجاد والممتع والمفيد

حسين بيكار (أخبار اليوم ١٩٧٢/١٢/١٦)

إن بلادنا بحاجة إلى مزيد من الأصول الكبرى للفكر والفن، وهى بحاجة إلى المؤسسات الثقافية الكبرى ، وينبغى أن نستقبل الأعمال الكبيرة مثل «مسخ الكائنات» بالحب والتقدير . ومرحبا باوفيد إمام العاشقين فى المكتبة العربية مترجماً مثل هذه الترجمة الأمينة الجميلة . إن مثل هذا العمل الكبير الذى يقدمه إلينا الدكتور ثروت عكاشة يحمل معه دليلاً جديداً على ما يملكه من طموح ثقافى بالغ السمو فى محاولة خلق اتصال «كهربائى» بين الثقافة العربية والثقافة العالمية حتى تتوهج ثقافتنا بنور العصر وتتخلص من غبار التخلف الفكرى .. هو احد الكتب الأساسية فى الأدب العالمى ، ومن الخطا والتقصير ان تخلو المكتبة العربية من هذا الأثر الفنى والفكرى الهام

رجاء النقاش (المصور ١٩٧٣/١/٢٦)

لابد ان يغبط المرء الدكتور ثروت عكاشة ويحسده ايضاً على هذا الإنتاج المتلاحق الفياض . وترجمة اوفيد بهذه الأمانة والعناية والعذوبة نموذج للترجمة التى ليست نقلا ولكن خلقاً

محمد عوده (الجمهورية ١٩٧٢/١٢/٩)

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب